سرح العيون

في

شرح رسالة ابن زيدون

تأليف

جمال الدين بن نباتة المصري

٦٨٦ — ٧٦٨ هـ

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الناشر

دار الفكر العربي

الرسالة الهزلية

أمّا بعدُ ، أيُّها المُصابُ بعقْلِهِ ، المورّط بجهلِهِ ؛ البَيِّنُ سَقَطُهُ ، الفاحِش غَلَطُهُ ؛ العاثِرُ فى ذَيْل اغترارِهِ ، الأعْمى عن شمسِ نَهارِهِ ؛ السَّاقطُ سُقوطَ الذُّباب عَلَى الشَّراب ، المتهافتُ تهافتَ الفَراشِ فى الشِّهَاب ؛ فإنَّ العُجْبَ أكذبُ، ومعرفةَ المرءِ نَفْسَهُ أَصْوبُ . وإنَّك راسلتَنِي مستهدياً من صلتى ماصفرتْ منه أيدِى أمثالِكَ ، متصدِّياً من خُلَّتِي لما قُرِعَتْ دُونَه أُنوفُ أشكالِكَ ، مرْسِلاً خليلَتَك مرتادةً ، مستعمِلاً عشيقَتَك قوّادةً ، كاذباً نفسَك أنَّك ستنزل عنها إلىَّ ، وتخلف بعدها علىَّ

ولستَ بأوَّلِ ذِى هِمَّـةٍ دَعتْهُ لِما لَيْسَ بالنَّائلِ

* * *

ولا شكَّ أنها قلَتْكَ إذْ لم تضِنَّ بكَ ، وملَّتْك إذ لم تغَرْ عَلَيْكَ ، فإنَّها أَعْذَرَتْ فى السِّفَارةِ لكَ ، وما قصَّرَتْ فى النِّيابَةِ عَنْك ، زاعمةً أنَّ المروءةَ لَفْظٌ أنتَ مَعْناهُ ، والإنسانيّةَ اسمٌ أنتَ جِسْمُهُ وَهَيُولاهُ ، قاطعةً أنَّك انفردتَ بالجمال ، واستأثرتَ بالكَمال ، واسْتَعْلَيْتَ فى مَراتِبِ الجْلاَلِ ، واستولَيْتَ على مَحاسِنِ الخِلاَل ، حتى خِلْتَ أنَّ يُوسفَ - عليه السَّلام - حاسَنَكَ فغضَضت مِنْهُ ، وأنَّ امرأةَ العزيز رَأَتْكَ فسَلَتْ عنه ، وأنَّ قارونَ أصابَ بعض ما كَنَزْتَ ، والنَّطِفَ عَثَر على فضلِ ماوَكَزْتَ ، وكسرى حمل غاشيتَك ، وقيْصرَ رَعَى ماشيتَك ، والإسْكَندرَ قَتَل دارًا فى طاعتِك ، وأردشيرَ جاهد مُلوكَ الطَّوائف لخروجهم عن جماعتك ، والضّحَّاكَ استدعَى مسالمتك ، وجَذيمةَ الأبرشَ تمنّى منادمتَك ، وشيرين قد نافَسَتْ بُورَانَ فيكَ ، وبلقيس غايرت الزَّبّاء عَلَيْكَ . وأنَّ مالكَ بن نُوَيرة إنَّما ردِفَ لكَ ، وعُرْوةَ ابن جعفر إنَّما رَحَلَ إليكَ ، وكُلَيب بن ربيعة إنَّما حَمى المرعَى بعزِّتكَ ،

وجسّاساً إنما قتله بأنفتكَ ، ومُهلهلا إنّما طلبَ ثأرَه بهمّتك ، والسَّمَوْءلَ إنَّما وَفَى عَنْ عَهْدِكَ ، والأحْنَفَ إنَّمَا احْتَبَى فِي بُرْدِكَ ، وحاتماً إنما جاد بوفرِكَ ، ولقِيَ الأضياف ببِشْرِكَ ، وزيد بن مهلهل إنما ركب بفَخِذَيْكَ ، والسُّليك ابن السُّلكَةِ إنَّما عدا على رجلَيْك، وعامر بن مالك إنَّما لاعب الأسنَّة بيديك ، وقَيس بن زهير إنما استعان بدَهائك ، وإياس بن معاوية إنَّما استضاء بمصباح ذكائك ، وسَحبانَ إنَّما تكلَّم باسانك ، وعمرو بن الأهْتم إنما سَحر ببيانك ، وأنّ الصُّلح بين بكر وتَغْلِب تمَّ برسالتك ، والحمالات بين عبس وذُبيان أسنِدت إلى كَفالتك ، وأنَّ احتيال هَرِم لعلقمة وعامر حتى رضيا كان ذاك عن إشارتك ، وجوابه لعمر — وقد سأله عن أيّهما كان ينفِّر — وقَع عن إرادتك ، وأنَّ الحجّاج تقلّد ولاية العِراق بجَدّك ، وقُتيبة فتح ما وراء النَّهر بسَعْدِك ، والمهلَّب أوْهَنَ شَوْكَةَ الأزارقة بأيْدِك ، وفرّق ذاتَ بينهم بكَيْدِكَ ، وأنّ هِرْمِسَ أعطى بليغوسَ ما أخذ منك ، وأفلاطونَ أورد على أرسطاطاليس ما نَقَل عنك ، وَبَطْلَيمُوسَ سوَّى الأسْطُرلابَ بتدبيرك ، وصوَّر الكُرَةَ على تقديرك ، وبُقْراطَ عَلِمَ العِلَل والأمراضَ بلطف حِسِّكَ ، وجالِينُوسَ عَرَفَ طَبائعَ الحشائش بدقّةِ حَدْسِكَ ، وكِلاهُمَا قَلَّدَكَ فِي العِلاَج ، وسألكَ عن المِزاج ، واسْتَوْصَفَك تركيبَ الأعْضاء ، واسْتَشارَكَ فى الدَّاء والدَّواء ، وأنَّكَ نَهجْتَ لأبي معشرٍ طَرِيقَ القضاء ، وأظْهَرْتَ جابرَ بن حيَّانَ عَلَى سِرِّ الكيمياء ، وأعطيْتَ النَّظَّامَ أصلاً أدركَ به الحقائقَ ، وجَعَلْتَ للكنديّ رسماً استخرَج به الدّقائق ؛ وأنّ صناعة الألحانِ اختراعُك ، وتأليفَ الأوتارِ والأنقار توليدُك وابتداعُك ، وأنّ عبدَ الحميد بن يحيي بارِى أقلامِكَ ، وسَهْل بن هارون مُدوِّنُ كَلامِكَ ، وعَمْرو بن بحر مُسْتَمْلِيك ، ومالكَ بن أنسٍ مُسْتَفْتِيكَ ، وأنّك الذى أقام البراهين ، ووضَع القَوانين ، وحدّ الماهيّة ، وبَيّنَ الكيفيّة والكمّية ،

وناظَر في الجوهرِ والعَرَض ، وميزَ الصِّحّة من المرض ، وفكّ المعمَّى، وفَصَل بين الاسمِ والمُسَمَّى ، وصرَف وقَسّمَ ، وعَدَل وقَوّم ، وصنَّفَ الأسماء والأفعالِ ، وبوّب الظَّرْف والحالَ ، وبنَى وأعْرَب ، ونَفَى وتعجَّب ، ووصل وقَطَع ، وثَنَّى وجَمَع ، وأظهرَ وأضْمَر ، واسْتَفْهَم وأخْبَر ، وأهمل وقَيّد ، وأرْسَل وأسْنَدَ ، وبحثَ ونَظَر ، وتصفَّح الأدْيَان ، ورجّح بين مَذْهَبَيْ مانِي وغَيْلاَن ، وأشارَ بذَبْحِ الجَعْد ، وقَتْلِ بشَّار بن بُرْدٍ ، وأنَّكَ لو شِئْتَ خَرَقْتَ العَادَاتِ ، وخَالَفْتَ المَعْهُودَاتِ ، فأحَلْتَ البِحارِ عَذْبَةً ، وأعَدْتَ السِّلاَم رَطْبَـةً ، ونَقَلْتَ غداً فَصَارَ أمْساً ، وزِدْتَ فِي العَنَاصِرِ فـكانَتْ خَمْساً ، وأنّكَ المقولُ فيه : « كلُّ الصَّيْدِ فى جوف الفَرا » .

و : ليس على الله بمستنـكَرٍ أن يجمع العالمَ فى واحدِ

والمعنىُّ بقول أبى تمّامٍ :

فلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْها عَلَى ما فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّباعِ

والمراد بقول أبى الطيّب :

ذُكِرَ الأنامُ لنَا فـكان قصيدةً كُنْتَ البديعَ الفَرْدَ من أبْياتِها

فـكدَمْتَ فِي غيرِ مَـكْدَمٍ ، واسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ ، ونَفَخْتَ فِي غَيْرِ ضَرَمٍ ، ولَمْ تَجِدْ لِرُمْحٍ مَهَزًّا ، ولاَ لِشَفْرةٍ مَحَزًّا ، بل رضِيتْ من الغنيمة بالإياب ، وتَمَنّتِ الرُّجوعَ بِخُفَّيْ حُنَينٍ ، لأنّي قُلْتُ :

* لَقَدْ هانَ مَنْ بالَتْ عَلَيه الثّعالِبُ *

وأنْشَدْتُ :

عَلَى أنّها الأيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّها عجَائِبَ ، حَتّى لَيْسَ فِيها عجائبُ

وَنَخَرْتُ وَكَفَرْتُ ، وَعَبَسْتُ وَبَسَرْتُ ، وَأبْدَأتُ وَأعَدْتُ ، وَأبْرَقْتُ وأرعدتَ .

و : * هممتُ ولَمْ أفعلْ وكِدْتُ وَلَيْتَنِي *

وَلَوْلاَ أَنْ للجوارِ ذِمَّة ، وللضيافة حرمة ، لـكانَ الجوابُ فى قذالِ الدُّمُسْتُقِ ،والنَّعْلُ حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتِ الْعَقْرَبُ ، وَالْعُقُوبَةُ مُمْكِنَةٌ إِنْ أَصَرَّ الْمُذْنِبُ .

وَهَبْهَا لَمْ تُلاَحِظْكَ بِعَيْنِ كَلِيلَةٍ عَنْ عُيُوبِكَ ، مِلْؤُهَا حَبِيبُهَا ، حَسَنٌ فِيهَا مَنْ تَوَدُّ ، وكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِحُلاَكَ ، وَوَسَمَتْكَ بِسِيمَاكَ ، وَلَمْ تُعِرْكَ شَهَادَةً ، وَلاَ تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ، بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بَكْرِهَا فِيمَا ذَكَرَتْهُ عَنْكَ ، وَوَضَعَتِ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقْبِ بِمَا نَسَبَتْهُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ تَكُن كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتْ بِهِ عَلَيْكَ ، فَالْمُعَيْدِيُّ تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ .

هَجِينُ الْقَذَالِ ، أَرْعَنُ السِّبَالِ ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِلاَوَةِ ، مُفْرِطُ الْحُمْقِ وَالْغَبَاوَةِ ، جَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّءُ الإِجَابَةِ وَالسَّمْعِ ، بَغِيضُ الْهَيْئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالْجَيْئَةِ ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ ، مُنْتِنُ الأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ الْمَعَايِبِ ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ ، كلاَمُكَ تَمْتَمَةٌ ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ ، وَبَيَانُكَ فَهْفَهَةٌ ، وَضَحِكُكَ قَهْقَهَةٌ ، وَمَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ، وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ

مَسَاوٍ لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الْغَوَانِي   لَمَا أُمْهِرْنَ إِلاَّ بِالطَّلاَقِ

حَتَّى إِنَّ بَاقِلاً مَوْصُوفٌ بِالْبَلاَغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ ، وَهَبَنَّقَة مُسْتَحِقٌّ لاسم العقلِ إِذَا أُضِيف إِلَيْكَ ، وَطُوَيْسًا مَأْثُورٌ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِرِ إِذَا قِيسَ عَلَيْكَ ، فَوُجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالاغْتِبَاطُ بِكَ نَدَمٌ ، وَالْخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالْجَنَّةُ مَعَكَ سَقَر .

كَيفَ رَأَيْتَ لُؤْمَكَ لِكَرَمِي كِفَاءً ، وَضَعَتَكَ لِشَرَفِي وَفَاءً ! وَأَنى جَهِلْتَ أَنَّ الأشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرَ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى أُلاَّفِهَا ! وَهَلاَّ عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالغَرْبَ لاَ يَجْتَمِعَانِ ، وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالكَافِرَ لاَ يَتَقَارَبَانِ ، وقلت : الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لاَيَسْتَوِيَانَ ، وَتَمَثَّلْتَ :

أَيُّها الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيلاً عَمْرَكَ اللهَ كيفَ يَلْتَقِيَانِ

وَذَكَرْتَ أَنِّي عِلْقٌ لايُبَاعُ فيمَنْ زَادَ ، وَطَائِرٌ لايَصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ ، وَغَرَضٌ لايُصِيبُهُ إلاّ مَنْ أَجادَ ، ما أَحْسَبُكَ إلاّ كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِئَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِئَةِ . وَلَوْلاَ أَنَّ جُرْحَ العَجْمَاءِ جُبَارٌ ، لَلَقِيتَ مِنَ الكَوَاعِبِ ما لاَقَى يَسَار ، فما هَمَّ إلاّ بِدُونِ مَا هَمَمْتَ بِهِ ، وَلاَ تَعَرَّضَ إلاّ لأَيْسَرِ مَا تَعَرَّضْتَ .

* * *

أَيْنَ ادِّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الأَشْعَارِ ، وتَعاطِيكَ حِفْظَ السِّيَرِ وَالأَخْبَارِ ! أَمَا ثَابَ لَكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ وَتَنْكِحُ فِي أَكْفَائِهَا الحَبِطَاتُ

وَهَلاَّ عَشَّيْتَ وَلَمْ تَغْتَرَّ ! وما أَشُكُّ أَنَّكَ تَكُونُ وَافِدَ البَرَاجِمِ ، أَوْ تَرْجِعُ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ ، أَوْ أَفْعَلُ بِكَ مَا فَعَلَهُ عَقِيلُ بْنُ عُلَّفَةَ بالجُهَنِيّ حين أتاه خَاطِبًا ، فَدَهَنَ اسْتَه بزيتٍ ، وَأَدْنَاهُ مِنْ قَرْيَةِ النَّمْلِ .

وَمَتَى كَثُرَ تلاَقِينَا ، وَاتَّصَلَ تَرَائِينَا ؛ فَيَدْعُونِي إِلَيْكَ ما دَعَا ابْنةَ الخُسِّ إِلَى عَبْدِهَا مِنْ طُولِ السَّوَادِ ، وَقُرْبِ الوِسَادِ !

وَهَلْ فَقَدْتُ الأَرَاقِمَ فَأُنْكِحَ فِي جَنْبٍ ، أَوْ عَضَلَنِي هَمَّامُ بْنُ مُرَّةَ فَأَقُولُ : زَوْجٌ مِنْ عُودٍ ، خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ ! وَلَعَمْرِي لَوْ بَلَغْتُ هَذَا الْمَبْلَغَ ، لارْتَفَعْتُ ، عَنْ هَذِهِ الخِطَّةِ ، وَلاَ رَضِيتُ بِهَذِهِ الخُطَّةِ ، فَالنَّارُ وَلاَ العَارُ ، والمنيّة ولا الدنيَّة ، والحُرَّة تَجُوعُ وَلاَ تأْكلُ بِثَدْيَيْهَا

فَكَيْفَ وَفِي أبناءِ قومِيَ مَنْكَحٌ وَفِتْيَانُ هِزَّانَ الطِّوَالُ الغَرَانِقَهْ

* * *

مَا كُنْتُ لأتخطَّى المِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ ، وَلاَ أَمْتَطِي الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوادِ ، فإِنَّما يَتَيَمَّمُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً ، وَيَرْعَى الْهَشِيمَ مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ ، وَيَرْكَب الصَّعْبَ مَنْ لاَ ذَلُولَ لَهُ ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبْوَتِي إِلَيْهِ ، وَشَهِدْتَ مُسَاعَفَتِي لَهُ ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ ، وَرَيحَانِ الْمِصْرِ ، الَّذِينَ هُمُ الْكَوَاكِبُ عُلُوَّ هِمَمٍ ، وَالرِّيَاضُ طِيبَ شِيَمٍ

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاَقَيْتُ سَيِّدَهُمْ   مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

فَحَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أَنْتَ وَهُمْ ؟ وَأَيْنَ تَقَعُ مِنْهُمْ ؟ وَهَلْ أَنْتَ إِلاَّ وَاوُ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَكَالْوَشِيظَةِ فِي الْعَظْمِ بَيْنَهُمْ !

وإِنْ كُنْتَ إِنما بَلَغْتَ قَعْرَ تَابُوتِكَ ، وَتَجَافَيْتَ عَنْ بَعْضِ قُوتِكَ ، وَعَطَّرْتَ أَرْدَانَكَ ، وَجَرَرْتَ هِمْيَانَكَ ، وَاخْتَلْتَ فِي مِشْيَتِكَ ، وَحَذَفْتَ فُضُولَ لِحْيَتِكَ ، وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ ، وَمَطَطْتَ حَاجِبَكَ ، وَرَفَّعْتَ خَطَّ عِذَارِكَ ، وَاسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ ، رَجَاءَ الاكْتِنَانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعًا فِي الاعْتِدَادِ مِنْهُمْ ، فَظَنَنْتَ عَجْزًا ، وَأَخْطَأَتِ اسْتُكَ الْحُفْرَةَ .

* * *

وَاللهِ لَوْ كَسَاكَ مُحَرِّقٌ الْبُرْدَيْنِ ، وَحَلَّتْكَ مَارِيَةُ بِالْقُرْطَيْنِ ، وَقَلَّدَكَ عَمْرٌو الصَّمْصَامَةَ ، وَحَمَلَكَ الحارِثُ عَلَى النَّعامَةِ ، ما شَكَكْتُ فيك ، وَلاَ سَتَرْتُ أَبَاكَ ، وَلاَ كُنْتَ إِلاَّ ذَاكَ .

وَهَبْكَ سَامَيْتَهُمْ فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ ، وَجَارَيْتَهُمْ فِي غَايَةِ الظَّرْفِ وَالأَدَبِ ، أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى بَيْتٍ قَعِيدَتُه لَكَاعِ ، إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبٌ خَالِي الذِّرَاعِ !

وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِهِ مِمَّنْ لاَ أَغْلِبُ إِلَّا عَلَى الأَقَلِّ الأَخَسِّ مِنْهُ ! وكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، والشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ ، وَالنَّفْس

الْمَصْرُوفَةِ إِلَيَّ ، واللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَيَّ ، وَبَيْنَ آخَرَ قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ضُرَاطُهُ !

وَهَلْ يَجْتَمِعُ لى فِيكَ إِلَّا الحَشَفُ وَسُوءُ الـكِيلَةِ ؛ وَيَقْتَرِنُ عَلَيَّ بِكَ إِلَّا الغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ !

تَعَالَى اللهُ يَا سَلْمَ بْنَ عَمْرٍو   أَذَلَّ الحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

ما كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ ، وَتَرْبَعَ عَلَى ظَلْعِكَ ، ولا تَكُنْ بَرَاقِشَ الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعَنْزَ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةَ لِحَتْفِهَا ، فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَقَطَ الْعَشَاءِ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ ، وَبِكَ لاَ بِظَبْيٍ أَعْفَرَ ، أَعْذَرْتُ إِنْ أَغْنَيْتُ شَيًّا ، وأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِى الْحِلْمِ   والشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وقَدْ يَنْمِى

وإِنْ بَادَرْتَ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ على نَفْسِكَ بالملامة ، كُنْتَ قَدِ اشْتَرَيْتَ الْعَافِيَةَ لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ، وإِنْ قُلْتَ : « جَعْجَعَةً بلا طِحْنٍ » ، وَ « رُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ » ، وَأَنْشَدْتَ :

لاَ يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ   قَوْلٌ تُغَلِّظُه وَإِنْ جَرَحَا

فَعُدْتَ لِمَا نُهِيتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتَعْفَيْتَ مِنْهُ ، بعثْتُ مَنْ يُزْعِجُكَ إلى الْخَضْرَاءِ دَفْعًا ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَها وَكْزًا وَصَفْعًا .

فإذا صِرْتَ إليها عَبَثَ أَكَّارُوها بِكَ ، وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُها عَليكَ ، فَمِنْ قَرْعَةٍ مُعْوَجَّةٍ تُقَوَّمُ فِي قَفَاكَ ، وَمِنْ فُجْلَةٍ مُنْتِنَةٍ يُرْمَى بِهَا تَحْتَ خُصَاكَ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ؛ لِتَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ   رَأَى غَيْرُه مِنْهُ مَالاَ يَرَى



سرح العيون



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمدُ لله الّذي لا يجب[1] الحمدُ إلاَّ له ، وصلّى الله على سيّدنا محمد المخصوص بأشرف رسالة ، وعلى آله وصحبه ، فما أفضلَ وأكرَمَ صحبَه وآلَه !

وأدام الله أيام مولانا السلطان الملِك المؤيّد الكامل ، العالم العادل[2] ، عمادِ الدّنيا والدّين ؛ إدامةً متّصلة الجلالة ، مقتبلة الإيالة[3] ، ما جنَتْ عسلَ النصرِ الشهيَّ رماحُه العسّالة[4] ، وأثمرت غصون أقلامه المنعّمة بين دِيَم أناملِه الهطّالة ؛ فمن فروض نعمه عليّ ، وقُروض مِننه لديّ ، أن أدعوَ لأيّامه المكرّمة كلّما صلّيتُ على نبيّ المرحمة ، وأذكر مَن أصلح لنا أمور الدّنيا القائمة كلّما[5] ذكرتُ مَنْ أصلح لنا أمور الدّين القيّمة ، [طلباً لإجابة الدعاء ، وإثابة الرجاء][6] ، فصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبِه وسلّم ، وأمتعنا ببقاء مَنْ سبقت مواهبُه الغيث فصلّى وأعجزَتْه فسلّم .

---

(١) د : « حق الحمد » .

(٢) هو إسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر الملك المؤيد عماد الدين ، المعروف بأبى الفداء ، صاحب حماة . ولد ونشأ بدمشق ، ورحل إلى مصر فاتصل بالملك الناصر ، فأحبه الناصر ، وأقامه سلطانا مستقلا فى حماة ، ليس لأحد أن ينازعه السلطة فيها ، فقرب العلماء ، ورتب لبعضهم مرتبات ؛ ومنهم ابن نباتة . وله فيه المدائح المشهورة فى ديوانه . توفى سنة ٧٣٢ . الدرر الكامنة ١ : ٣٧١

(٣) حاشية ت : « مقبلة الإنالة ــ نسخة » .

(٤) عسل الرمح : اشتد اهتزازه ، فهو عاسل وعسال .

(٥) كذا فى ت ، د ، وفى م ، ط : « كما » .

(٦) تكملة من م ، ط .

وبعـد ؛ فإنى أُمِرتُ بشرح رسالة الوزير أبى الوليـد بن زيدون الآتى ذكرُها ، وإيضاحِ براهينها ، الغامض على كثير من سُراة الأدب سرُّها، فقلت : ما أنا وصعود هذا الصَّرْح ، وولوج هذا الشَّرْح ، ومعارضة ذلك البزّ ولست من ذلك الطّرح ! وهل أنا إلا صاحب أبيات تقيم جُدُرَها القريحةُ المطبوعة ، وكلماتٍ تأتى على العفو فقرُها المسجوعة ! فمتى أخرِجْتُ عن ظلّ أبياتى ظُلِمت ، ومتى أبعِدت عن رياض سجعى أَلِمْت ؛ هذا مع تشعّب فنون هذه الرسالة ، وإحجام الفضلاء عن الخوض فى غُدرِها السيّالة . فقيل لى : إنا نقتصر من شرْحك على الاختصار ، ونهبُ تقصيرَك لما قَدَّمْت بين يدىْ نجواك من الاعتذار[١] ، ونرضى من بيانك بأدنى الحِصص ، ونقنع من التاريخ[٢] الغاصّ ببعض الفرص ، وإذا كنت من الشعراء فما أنت ببعيد من القصص !

فقابلت بالطاعة أمراً قد وجب ، وقلت : إن فاتتْنى سلوكُ الأدب المنظومة فإنّ الامتثال خيرٌ من سلوك الأدب. وكنت أعرف ببعض خزائن دمشق الوقفيّة أسفاراً فيها للطالب مَنْجَع ، وللأفهام الناشئة[٣] ذكرى تنفع ، فلم يتهيّأ أن أعارَ منها كتاباً ، ولا أراجع من ألسنة حروفها خطاباً ، فقلت : هذا عذرٌ آخر لم يكن فى الحساب ، وهذا قصد تغلّقَتْ دونه الكتب فإنّها ذاتُ أبواب ، وما بقىَ إلاَّ الرجوع إلى صُبابة[٤] الحاصِل[٥] التى أبقتها نُوَبُ الدهر ، واستنباط الثَّمَدِ إذْ أعجز ورود البحر ؛ ثم أمليتُ شرحَ هذه الرسالة عن فِكْر قد مَسّه القَرْح ،

---

(١) نظر إلى قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ .

(٢) ت : « من تاريخ التاريخ » .

(٣) د : « الناسية » .

(٤) ت : « صبابات » .

(٥) الحاصل من كل شىء : ما بقى وذهب ماسواه ؛ يريد ما بقى من خزانة كتبه .

وشرحتُ إلا أنني مقصِّرٌ وما أطيلُ الشرح ، بيَدْ أنى لم أعتـمد إلاَّ على نقل خبرٍ صحيح ، ونسب قولٍ صريح ، ولم أخلِ ترجمة كلّ مذكور من فائدة سارّة ، ونادرة دارّة [1] ، وأقوال سديدة ، وأبيات مَشيدة ، وفِقَر ماأخطأتْها فطنةٌ سعيدة ، ولم آلُ فى اختيارها جَهْداً ، ولا ازددت مع صروف الزمان إلاّ نقْداً ؛ هذا مع تجنّب الإكثار ، وترك الإخلال بنظائر الأشعار ، والتخفيف ممّـا لعلّ المباحث تقتضيه من العِثار .

والله تعالى الموفِّق لصواب الإرادة ، ومعين الخدم على القيامِ بطاعة السادة ، وجابر وَهَنهم بما يتلقَّوْنه من امتثال أوامرهم السادّة ، بمنّه وكرمه .

---

(١) الدارة : من « در الضرع » إذا تتابع اللبن منه ، يريد أنها نادرة يدوم نفعها.

ذكر منشئ الرسالة

هو الوزير أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزوميّ الأندلسيّ الكاتب الشاعر المشهور . ولد بقرطبة سنة أربع وتسعين وثلثمائة ، وكان من أبناء الفقهاء المتعيّنين ، واشتغل بالأدب ، وفحص عن نوادره ، ونقَّب عن دقائقه إلى أن برع ، وبلغ من صناعتى النظم والنثر المبلغَ الطائل ، وانقطع إلى أبي الوليد بن جَهْور[1] ، أحد ملوك الطوائف المتغلّبين على الأندلس، فخفَّ عليه، وتمكّن من دولتِه ، واشتهر ذكره ، وعظم قدره ، واعتمد عليه فى السفارة بينه وبين ملوك الأندلس ، فأعجب به القوم ، وتمنّوا ميلَه إليهم لبراعته ، وحسن سيرته ؛ واتفق أنّ ابنَ جَهْور نقَم عليه أمرًا فحبسه ، واستعطفه ابن زيدون برسائل عجيبة ، وقصائد بديعة فلم تنجع ، فهرب واتّصل بعبّاد بن محمد صاحب إشبيليَة الملقَّب بالمعتضد[2] ، فتلقّاه بالقبول والإكرام ، وولاّه وزارته ، وفوّض إليه أمُورَ مملكته ، وكان حسنَ التّدبير ، تامَّ الفضل ، متحبّبًا إلى الناس ، فصيح المنطق جدا .

حكى ابن بسّام فى كتاب « الذخيرة » [3] عن بعض وُزراء إشبيليَة[4] ،

---

(١) هو أبو الوليد محمد بن جهور بن محمد بن جهور ، صاحب قرطبة ، حفظ القرآن ثم صار مجودا لحروفه ، كثير التلاوة له ؛ وكان أيضاً مشاركا فى العلوم والآداب . توفى سنة ٤٦٢ . الصلة لابن بشكوال ٥١٧ .

(٢) هو عباد بن محمد بن إسماعيل ، الملقب بالمعتضد بالله صاحب إشبيلية ، كان شجاعا حازما وعرف بأسد الملوك ، طمع فى الاستيلاء على جزيرة الأندلس، ودان له أكثر ملوكها . توفى سنة ٤٦١ . الأعلام ٤ : ٢٩

(٣) كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لأبى الحسن على بن بسام . القسم الأول، المجلد الأول ٢٩٢ .

(٤) فى الذخيرة : « أخبرنى من لا أدفع خبره من وزراء إشبيلية » .

قال : عهدى بأبى الوليد بن زيدون قائماً على جنازة بعض حُرَمه ، والناس يعزّونه على اختلاف طبقاتهم، فما سمعتُه يجيب أحداً بما أجاب به غيره ،[1] لسَعة ميدانه ، وحضورِ جَنانه .

ولم يزل عند عبّاد وعند ابنه المعتمد على الله[2] قائمَ الجاه ، وافرَ الحُرْمة ، إلى أن توفِّىَ بإشبيلِيَة سنة ثلاث وستّين وأربعمائة .

وقد ذكره ابن حيّان[3] وابن بسّام[4] وغيرهما من المؤرخين ، وأجرَوْا نبذاً كثيرة من أخباره وفضائله ، ووقفتُ على ديوان شعره وكثيرٍ من ترسُّله . ونظمُه عند النُقاد أجود من نثره ، وكان يسمى بُحتريَّ المغرب ، لحسن ديباجة لفظه ، ووضوح معانيه .

فأمّا[5] نثره فإنه أكثرَ فيه من استعمال أمثال العربِ وجُلِّ أشعار المتقدِّمين والمتأخِّرين ، إلى أن قيل : إنَّ رسائلَه أشبهُ بالمنظوم من المنثور ، وعلى ذلك فقد دلّ[6] بها على اطلاعٍ معجِب ، واستحضارِ معجِز ، وقد اكتفيتُ منها بذكر هذه الرسالة المشروحة .

فمن شعره[7] من قصيدة يخاطب بها ابنَ جَهْور [أيام سجنه][8] :

---

(١) الذخيرة : « آخر » .

(٢) كان محمد بن عباد أحد أفراد الدنيا شجاعة وحزما وضبطا للأمور ، وامتلك قرطبة وإشبيلية واتسع ملكه فى بلاد الأندلس ، وتاريخ حياته حافل بالحوادث الجسام ، توفى سنة ٤٨٨ . ابن خلكان ٢ : ٢٧ ـ ٣٥ .

(٣) هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان ، صاحب كتاب المقتبس فى تاريخ الأندلس ، توفى سنة ٤٦٩ . ابن خلكان ١ : ١٦٨ .

(٤) هو علي بن بسام الشنتريني الأندلسي ؛ من الكتاب الوزراء ، اشتهر بكتاب الذخيرة . توفي سنة ٥٤٢ . المغرب في حلى المغرب ١ : ٤١٧ .

(٥) د : « وأما » .

(٦) د : « وقد دل » .

(٧) د : « قوله » .

(٨) من م .

ما جال بعدكَ لَحظي في سَنا القمرِ	إلاَّ ذكرتُكَ ذكرَ العينِ بالأثرِ (١)
ولا استطلتُ ذَماء الليل من أسفٍ	إلاَّ على ليلة مرَّت مع القِصَرِ (٢)
ياليت ذاكَ السَّواد الجَوْنَ مُتَّصِلٌ	قد استعار سواد القلب والبصرِ
جمعتَ معنى الهوى في لحظ طرفك لي	إنَّ الحِوارَ لمفهوم من الحَوَرِ (٣)
لا يَهنِئ الشامتَ المرتاحَ خاطرُه	أنِّي مُعَنَّى الأمَانِي ضائعُ الخطرِ
هل الرياح بنجم الأرض عاصفةٌ	أم الكسوف لغير الشمس والقمر! (٤)
إن طال في السجن إيداعي فلا عجبٌ	قد يُودَعُ الجفنَ حدُّ الصارمِ الذَّكَرِ
وإن يثبِّط أبا الحزم الرّضا قدرٌ	عن كشف ضُرِّي فلا عتْبٌ على القَدَرِ
مَنْ لم أزل من تدانيه على ثقةٍ	ولم أبت من تجنّيه على حَذَرِ (٥)

وقال من قصيدة(٦) في بني جَهْور :

بني جَهْوَرٍ أحرقتمُ بجفائكمْ	جَناني فما بال المدائح تعبَقُ! (٧)
تَعُدُّونني كالعنبر الورد إنّما	تطيب لكم أنفاسُه حين يحرق (٨)

وقال [فيهم من أبيات](٩) :

إنَّ الجهاوِرَةَ الملوكَ تبوَّءوا	شرفاً جرى معه السِّماكُ جَنيبا (١٠)

---

(١) ديوانه : ٢٥٠ ، الذخيره ق ١ : م : ١ : ٢٩ .
(٢) ط ، د ، الذخيرة : « ولا استطلت زمام » .
(٣) الديوان والذخيرة : « فهمت معنى الهوى » ، وفي حاشية ت : « إن الحوار لمشتق » .
(٤) النجم : ما لا ساق له من الشجر .
(٥) الديوان والذخيرة : « تأتيه » .
(٦) ط : « من أبيات » .
(٧) ديوانه ٥٩ ، الذخيرة ٣٠٤ ، وفي الديوان والذخيرة : « ضميري » .
(٨) الذخيرة ، الديوان : « كالمندل الرطب » .
(٩) من ط
(١٠) ديوانه ٣٢٨ ، الذخيرة ٣٢٨ .

فإذا دعوتَ وليــدَهُم لعظيمةٍ لبَّاكَ رَقْرَاقَ السَّماح أريبَا
همُ تعاقَبهـا النجوم وقد تلا في سؤدُدٍ منها العَقِيبُ عقيبا
ومحاسنٌ تندى دقائق ذكرها فتكادُ تُوهمك المديحَ نسيبَا

وقال من قصيدة يمدح بها المعتضِد [بن عبّاد][1] :

أما في نسيمِ الرِّيح عَرْف يُعرِّفُ لنا هل لذاتِ الوَقْف بالجِزْع مَوْقِفُ![2]
ولَيْلةَ وافَيْنا الكَثِيبَ لموعدٍ سُرى الأَيْم لم يُعْلم لمسراهُ مزحفُ[3]
تَهادى أناة الخطو مُرتاعة الحشا كما ريع يَعْفور الفلا المتشوّفُ[4]
فديتُك أنّى زُرتِ ، نورك فاضحٌ وعَرْفُك نمَّامٌ وحَلْيُك مُرْجِف[5]
هبيك اعتسفتِ الليل واشيك هاجعٌ وفرعُك غِربيبٌ ولَيلُك أغْدَفُ[6]
فكيف أطقت المشي خَصْرُكِ مُدمَجٌ وردْفُك رَجراج وقدّك أهْيَفُ[7]
فما قبلَ مَنْ أهوى حَوَى البدر هودجٌ ولا ضمّ ريم القَصْر خِدْرٌ مُسَجَّفُ
ولا قبل عَبّادٍ حوى البحر مجلسٌ ولا حَمَل الطَّوْدَ المُعظَّمَ رَفْرَفُ[8]
رَوِيَّتُه في الحادثِ الإدّ لحظةٌ وتوقيعه الجالي دُجَى الخطب أحرُفُ

---

(١) من م .

(٢) ديوانه ٤٧٩ ، الذخيرة ٣٢٢ .

(٣) الأيم : الحية .

(٤) يعفور الفلا: ظبي بلون التراب. المتشوف: المتطاول لينظر. وفي الديوان «المتشرف».

(٥) مرجف : مضطرب ؛ نمام : ينم عليك . وفي الديوان والذخيرة : « فعيدك أنى زرت » .

(٦) الديوان والذخيرة : « هبيك اغتررت الحي . . . وليلك أغضف » . الاعتساف : قطع الطريق على غير هدى . أغدف : أسود مظلم .

(٧) الديوان والذخيرة :

فأَنَّى اعْتَسَفْتِ الهَوْلَ خَطْوُكِ مُدْمجٌ وَرِدْفُكِ رَجْرَاجُ وَخَصْرُكِ مُخْطَفُ

(٨) قال ابن بسام : « وهذا بيت القسطلي بجملته حيث يقول في ابن أبي عامر :

وَكَيْفَ اسْتَوَى بالبَرّ وَالبَحْرِ مَجْلِسٌ وَقَامَ بعبءِ الرّاسِيَاتِ سَرِيرُ

عَلَى السَّيْفِ من تلك الصَّرامةِ ميسَمٌ   وفى الرَّوْض من تلك الطَّلاقةِ زخرفُ(١)
أظنَّ الأعادى أنّ حربك نائمٌ   لقد تَعِدُ النفسَ الظُّنونُ فتُخْلِفُ(٢)
ولمّا قضينا ما دعانا أداؤه(٣)   وكلٌّ بما يرضيك داعٍ فمُلْحِفُ
رأيناك فى أعلى المصلّى كأنما   تطلَّع من محراب داودَ يوسفُ

وقال من مرثيّة له :

يامن شأى الأمثالَ منه مهذَّبٌ   ضُرِبت له فى السُّؤدُدِ الأمثالُ(٤)
نقصت حياتُكَ حيثُ فضلك كاملٌ   هلا استُضيف إلى الكمال كمال !(٥)
حيّا الحيا مَثْواك ، وامتدّت على   ضاحِى ثراكَ من النعيم ظِلالُ
فلئن أذالك بعد طول صيانة   قَدَرٌ فكلٌّ مصونةٍ ستذالُ

وقال فى الغزل ــ وهو من المجيدين فيه :

بَيْنِى وبَيْنَك مالو شئتَ لم يَضِعِ   سرٌّ إذا ذاعتِ الأسرار لم يَذِعِ(٦)
يا بائعاً حظَّه مِنّى ولو بُذِلَتْ   لِىَ الحياةُ بحظِّى مِنْهُ لم أَبِعِ
يكفيكَ أنّك لو حمّلت قلبىَ ما   لا تَستطيع قلوبُ الناس يستطِعِ
تِهْ أحتمِلْ، واستَطِلْ أصْبِرْ، وعِزَّ أهُنْ   ووَلِّ أقبِل ، وقل أسمع ، ومُرْ أُطِعِ

وقال :

أمّا رجا قلبى فأنت جميعُه   يا ليتنِى أصبَحْتُ بعضَ رجا كا

---

(١) الذخيرة : « من تلك اللطافة » .
(٢) الديوان والذخيرة : « حزمك نائم » .
(٣) الذخيرة : « ما عنانا قضاؤه »
(٤) الديوان ٥٣٣ .
(٥) الديوان : « فعلك كامل » .
(٦) ديوانه ١٦٩ ، الذخيرة ٣١٩ .

يدنو بوصلك حين شطَّ مزارُه وهمٌ أكادُ به أقبِّل فاكا

وقال من أخرى :

إنّى ذكرتُكِ بالزّهراء مشتاقا والأفق طَلْقٌ ومرأى الرَّوض قد راقا[1]

وللنّسيم اعتدالٌ فى أصائله كأنه رَقَّ لى فاعتلّ إشفاقا

والرّوض عن مائه الفضّىّ مبتسمٌ كما حَلَلتِ عن اللبَّات أطواقا

لا سكَّن الله قلباً عن تذكُّركمْ فلم يَطِر بجناح الشّوق خَفَّاقا

لوشاء حَمْلى نسيمُ الرِّيح حين سرى وافاكُمُ بفتًى أضناه ما لاقَى

الآن أحمد ما كنّا لعهدكمُ سلوتمُ وبقينا نحن عُشّاقا

وله القصيدة النونيّة التى أوّلها :

بِنْتُمْ وَبِنَّا فما ابتلّتْ جوانحنا شوقاً إليكمْ ولا جفّتْ مآقينا[2]

وهى أشهر من أن تذكر ، وقد زيد فيها ما كانت غنيّة عنه .

وفضائل الرجل متمكنة ، وكفى بهذا القدر عنوانا لها[3]

---

(١) ديوانه ١٣٩ ، الذخيرة ٣٣٠ ، وفيهما : « ومرأى الأرض » .

(٢) ديوانه ١٤٨ ــ ١٤٨ ، الذخيرة ٣٠٩ ــ ٣١١ .

(٣) وانظر فى ترجمة ابن زيدون أيضا ابن خلكان ١ : ٣٤ ، قلائد العقيان ٧٠ ، والذخيرة المجلد الأول من القسم الأول ٢٨٩ ــ ٣٦٠ ، جذوة المقتبس ١٢١ ، النجوم الزاهرة ٥ : ٢١٥ ، دائرة المعارف الإسلامية ٥ : ٢١٥ .

وقد وضع الأستاذ على عبدالعظيم بحثاً ضافياً بعنوان «ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه» طبع فى مطبعة الرسالة سنة ١٩٥٥ ؛ كما حقق ديوانه، وطبع فى مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٧ .

ذكر سبب انشاء هذه الرسالة

كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء الغرب الأمويين المنسوبين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالدّاخل ، من بنى عبد الملك بن مروان ، تسمّى ولاّدة بنت المستكفى بالله محمد بن المستظهر بالله عبد الرحمن[1] ؛ ابتذل حجابُها بعد نكبة أبيها وقتله ؛ وتغلّب ملوك الطوائف عليه ؛ فى خبر يطول شرحه. وصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتحاضرهم ، ويتعشّقها الكبراء منهم ، وكانت ذات خلق جميل ، وأدب غضّ ، ونوادر عجيبة ، ونظم جيّد . فمنه ما كتبتْ به إلى ابن زيدون ، وهى راضية عنه تقول :

ترقّبْ إذا جَنَّ الظّلامُ زيارتى ... فإنّى رأيت الليل أكتَمَ للسرِّ[2]
وبى منك ما لو كان بالبدر لم يُنِرْ ... وبالليل لم يظلم وبالنّجم لم يسرِ

وقولها فيه وهى عليه غَضبى :

إنّ ابن زيدونَ على فضلِهِ ... يلجّ بى شَتْماً ولا ذنبَ لِى
يلحظُنى شَزْرًا إذا جئتُه ... كأنّما جئت لأخصِى عَلِى

---

(١) قال ابن بسام : « وأما ولادة التى ذكرها أبو الوليد بن زيدون فى شعره فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن الناصرى ، وكانت فى نساء أهل زمانها واحدة أقرانها ، حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الآداب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ؛ على أنها ــ سمح الله لها ، وتغمد زللها ــ اطرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها » توفيت سنة ٤٨٤ وقد قاربت المائة . وانظر الذخيرة ٣٧٦ومابعدها ، وملحقات الديوان ٧٩٣.

(٢) الذخيرة ٣٧٧

ـ تعنى غلامًا له يسمى عليًّا .

وكان سبب قولها فيه هذا الشعر ، أنه اتّهمها بمواصلة الوزير أبى عامر بن عَبْدوس[١] ، وكان يلقّب بالفار ، فقال فيه وفيها :

عَيَّرتُمونا بأن قد صار يخلُفنَا   فيمن نحبّ ، وما فى ذاك من عارِ
أكلٌ شهىّ أصْبنا من أطايبه   بعضا وبعضا صفحنا عنه للفار

ومما يناسبها ما كتبت به على كمّها [وقيل تاجها] :[٢]

أَنَا واللهِ أصلحُ للمعالِى   وأمشى مِشْيتِى وأتيهُ تِيها[٣]
وأمْكِنُ عاشقى من لثم ثغرِى   وأُعطِى قُبلتى مَنْ يَشْتَهِيهَا

ومما ينسب إليها ، وهو عندى كثير على شعر امرأة :

لحاظكم تجرحنَا فى الحَشى   ولحظنا يجرحكم فى الخُدُودِ
جُرْحٌ بجرح فاجعلوا ذَا بذا   فما الّذى أوجب جُرحَ الصدود !

وكان ابنُ زيدون كثيرَ الشّغفَ بها ، والميلِ إليها ؛ وأكثر غزل شعره فيها وفى اسمها . ثم إنَّ الوزير أباعامر بن عَبْدوس أيضاً هامَ بها وكلِف بعشرتها ، وكان قصدهم الظّرْف والأدَب ، وكانت ولّادة كثيرة العبث به ، ولها معه نوادر ظريفة .

ومرَّت يوما بداره ، وهو جالس وأمَامه بركة تتولّد من مواصى[٤] وأقذار ، وحوله جماعة من أصحابه ، فوقفت عليه وقالت : يا أبا عامر :

---

(١) هو أحمد بن عبدوس ، ولى الوزارة بقرطبة ، وكان يدعى حفظ الشعر وقرضه ، توفى سنة ٤٨٢ . تكملة التكملة ٢٥٧ ، رايات المبرزين ٣٨ ، مسالك الأبصار ١٠ ورقة ٢٣١ . وانظر ملحق الديوان ٧٩٠ .

(٢) من ط .

(٣) الذخيرة ٣٧٩ ، وذكر هناك أنها كتبت على أحد عاتقى ثوبها البيت الأول وكتبت على الآخر البيت الثانى .

(٤) المواصى : جمع مواصة ، وهى غسالة الثياب .

أنتَ الخصيبُ وهذه مِصْرُ فتدفقّا فكلاكما بحرُ

فلم يُحِرْ جوابا ، فمضت ، وحفِظت هذه النّادرة ، واشتغل بها الناس .

[وهذا البيت لأبى نواس تمثّلت به ونقلته هذا النقل الحَسن من المدح إلى الهجاء][1] ؛ وكان كثيراً ما يخدعُها ويبغى التفرّد بها ؛ وفى ذلك يقول ابنُ زيدون :

وغرّكَ مِنْ عهد ولّادةٍ سراب تراءى وبرقٌ وَمَضْ[2]

هى الماء يأبَى على قابضٍ ويمنع زُبْدَتَهُ مَنْ مَخَضْ

وكان أوّل أمرها معه ، والباعث لابن زيدون على إنشاء هذه الرسالة أنّ ابن عبدوس [لمّا سمع بها][1] أرسل إليها امرأة من جهته تستميلها إليه ، وتذكر لها محاسنه ومناقبه ، وترغّبها فى التفرّد بمواصلته ؛ فبلغ ابنَ زيدون ذلك ؛ فأنشأ يقول هذه الرسالة البديعة [جوابا له عن لسانها][1] ، تتضمّن غرائب من سبّ أبى عامر والتهكّم به والهجاء له ، وجعلها جوابا له على لسان ولّادة وأرسلها إليه عَقِيب رجوع المرأة . فبلغت منه كلّ مبلغ ، واشتهر ذكرها فى الآفاق ، وأمسك ابن عبدوس عن التعرّض لولّادة إلى أن انتقل ابن زيدون إلى أشبيليّة ، ومات بها ، تغمدهم الله برحمته والمسلمين أجمعين وغفر لنا ولهم بمنّه وكرمه .

---

(١) تكملة من د

(٢) ديوانه ١٩٣

ذكر الرسالة وشرحها

فأولها :

١ — أَمّا بَعْدُ أَيُّهَا المصَابُ بعَقْلِهِ ، المُوَرّطُ بِجَهْلِهِ .

أمّا : حرف يقتضى مضىّ أحد الشيئين ، ويبتدأ به الكلام . وبعد هاهنا تستعمل فى التّرتيب الصناعىّ ؛ وتقدير « أمّا بعد » : مهما يكن بَعْد ؛ وهى كلِمة يبتدِىء بها كثير من الخطباء والكتّاب كلامَهم ؛ فى خطبهم المحبَّرة ، ورسائلهم المحرّرة ؛ كأنهم يستدعون بها الإصغاءَ كما يقولون ؛ ولذلك فَخَر بها سحبان فقال:

وقَدْ علمتْ قَيْسُ بن عَيْلان أننى إذا قلتُ أمّا بعد أنّى خطيبُها[1]

وكثيراً ماتأتى عَقِيب قول « الحمد لله » ، وتسمّى هنالك فصل الخطاب ؛ لأنّها فصلت بين الكلام الأوّل والتالى . وتأتى عقيب البسملة ، وتأتى ابتداء كأنّها عقيب الفكر والرّويّة ، وأوّل من قالها داود عليه السلام . وقيل : إنها فصل الخطاب المذكور فى الكتاب العزيز. وقيل: أوّل من قالها قسّ بن ساعدة؛ والأول أصحّ ؛ وإنما قُسّ أوّل مَنْ خطب بها فى العرب وكتبها أوّل الكتب على ماذُكِر .

المصاب : اسم لمن نزلت به نائبة مصيبة ، وأصاب السهمُ ، إذا وصل إلى المرمَى بالصواب ؛ فالمصيبة أصلُها فى الرَّمْية ، ثم اختصّ بالنائبة .

العقل : المعرفة المستعملة فى تحرّى النّفع ، وتجنّب الضرر ؛ ولأهل اللغة

---

(١) البيت من شواهد الكافية ؛ وأورده صاحب الخزانة فى ٤ : ٣٤٦ ، وروايته هناك « لقد علم الحى اليمانون أننى » .

والمتكلّمين في اشتقاقه ومعناه أقوال كثيرة ، قيل : اشْتُقّ من عَقَل النّاقة ، إذا شدَّ وظيفها مع ذراعيها بحبل يمنعها من الشرود ؛ فكأنه يمنع الإنسان مما يميل إليه من الهوى ، ومن عَقْل الناقة سمِّيت الدّية عَقْلاً ؛ لأنها تُعْقَل بفناء المقتول ، أوْ لأنّها تحبس الدم . وقيل : اشتقّ من المعقِل ؛ وهو الملجأ ، يقال : عَقَل الوعِلُ ؛ إذا التجأ إلى الجبَل الذى يمنعه ؛ فكأنّ الانسانَ يلتجئُ إليه فى أحواله . وقيل غير ذلك ، وأكثر المعانى مشترِكة فى الاشتقاق .

وقال الجاحظ : العقل اسم يقع على المعرفة بالصّواب والخطأ ، وإيثاره إذا اقترنا فى زمان ، وكان العلم علّةً للعمل وقيدًا له ، فإذا دعا الرجل علمه بالمحاسن إلى العمل بها ، ونهاه علْمه بالمساوئ عن العمل بها صار قيْدا لعمله ؛ وكان كالعقال لما استحسنه ، فإذا عقله عليه وحبسه كما يحبس الجمل ، قالوا : هذا عاقل .

وقال الرّاغب : العقل ، يقال للقوى المهيّئة للعلم ؛ و يقال للعلم الذى يستفيده الإنسان بتلك القوى عقل ، ولهذا قال أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه :

رأيتُ العقل عقلينِ فمطبوع ومسموعُ[1]
ولا ينفع مطبوعٌ إذا لم يكُ مَسْمُوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

وإلى الأوّل أشار النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله : « ما خلق الله خَلْقاً أكرَم عليه من العقل» ، وإلى الثانى أشار بقوله : « ما كَسَب أحدٌ شيئاً أفضلَ من عقل يَهديه إلى هُدًى ، أو يردّه عن ردى » ؛ وكلّ موضع ذمّ الله فيه الكفّار بعدم العقل فإشارة إلى الثانى دون الأوّل ، وكلّ موضع رفع فيه التكليف عن العبْد لعدمِ العقل فإشارة إلى الأول[2] . وقال بعض الحكماء : هو جوهر بسيط . وقال آخرون: هو جسم شفّاف ومحلّه الدِّماغ . وبعضُ العلماء

(١) أدب الدنيا والدين ١١ ، ١٢ من غير نسبة .
(٢) مفردات الراغب ٣٤٢ .

يقول: محلّه القلب ،ويستدلّ بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[(١)] ، وقوله تعالى : ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[(٢)] ، أى عقل . وقال الجاحظ : هو مادّة تتولد من الأغذية المقوّية للعصب ؛ فلذلك كان البلاذُر[(٣)] جيّداً له ، والبصل مضرًّا له ، وكذا الباذِنجان ؛ ولذلك يقال : يفسد الباذِنجان فى شَهْر ما يصلح البلاذُر فى عام . ويزعُم قومٌ أنّه هيئة تحصل بالدُّرْبة ؛ ولذلك فسدت أذهان المعلّمين لمخالطتهم الصبيان .

المورِّط ، الوَرْطة : الهلاك ؛ قال رُؤْبة :

* فَأَصْبَحُوا فِى وَرْطَةِ الأَوْرَاطِ *[(٤)]

وأصل الوَرطة أرْضٌ مطمئنة لا طَرِيق فيها ، وربّما هلك الواقع فيها ، ومنه الوِراط : الخديعة . وفى الحديث : « لا خِلاط ولا وِراط »[(٥)] .

الجهل: ضدّ العلم، ومنه سميت المفازة مَجْهلة ، كأنه جهل كيف الطريق فيها . وقال الرّاغب : الجهل على ثلاثة أضرب : الأوّل خلوّ النفس من العلم ، هذا هو الأصل . وقد جعل بعض المتكلّمين الجهل معنى مقتضيا للأفعال الخارجة عن النظام[(٦)] ، كما جعل العلم معنى مقتضيا للأفعال الجارية على النظام . والثانى اعتقاد الشىء على خلاف ما هو عليه . والثالث فعل الشىء بخلاف ما حقه أن يفعل ؛

---

(١) سورة الحج ٤٦ . (٢) سورة ق ٣٧ .

(٣) البلاذر ؛ ذكره صاحب المعتمد ٢٢ ، وقال : « جيد لفساد الذهن وجميع الأعراض الحادثة فى الدماغ » .

(٤) ديوانه : ٨٦ ، وقبله :

* نحنُ جمعنَا النّاس بالملطاطِ *

(٥) نهاية ابن الأثير ٤ : ٢٠٥ ؛ قال : « الوراط : أن تجعل الغنم فى وهدة من الأرض لتخفى على المصدق ، مأخوذ من الورطة ؛ وهى الهوة العميقة فى الأرض ، ثم استعير للناس إذا وقعوا فى بلية يعسر المخرج منها » .

(٦) الراغب : « الجارية على غير نظام » .

سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً [١].

* * *

٢ — البَيِّنُ سَقَطُهُ ، الْفَاحِشُ غَلَطُهُ .

السَّقط : مالا يُرضِى ، ومنه سَقَط المتاع ؛ رديئه ، وسقَط القول خطؤه ، وسُقِط الرجل فى يده إذا فعل مايندم عليه . وقال الأخفش : أُسْقط ، وهو غير مستعمل ، والأصل السُّقوط ، وهو طَرْح الشيء من العالى إلى المنخفض .

والفاحش : ما عظم قُبْحه من الأقوال والأفعال ، ومنه الفاحشة ؛ الفَعْلة القبيحة ؛ سمِّيتْ فاحشةً وصارَت علما عليها .

والغلط : الخروج عن الصواب نطقا أو فعلا ، تقول العرب : غلِط وغلِت بالتاء ، زعَم قومٌ أنهما لغتان ، وزعم قوم أن « غلط » إنّما يقال فى المنطق ، و « غلت » إنما يقال فى الحساب . والله أعلم بالصواب .

* * *

٣ — العاثِرُ فى ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ ، الأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ .

العِثار : السقوط وما قاربه . والاغترار : الغفلة ؛ واستعارة الذيل والعثار للغافل حَسَنة ، والفِقَر مناسبة لما قبلها وما بعدها . والعمى يقال فى افتقاد البصر ، ويقال فيه : أعمى ، وعَمٍ ، وعَمَى البصيرة أشدّ ؛ ولذلك لم يعدّ الله تعالى افتقاد البصر عمًى فى جَنْب افتقاد البصيرة ، حيث قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَـكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [٢] . وشمس النهار ها هنا ، كناية عن الصواب الواضح الذى تركه هذا المكتوب إليه ، وعمى عنه حتى

---

(١) مفردات الراغب ١٠٢

(٢) سورة الحج ٤٦ .

تعرّض للذم ، أو كناية عن مقدار هذه المرأة التى هى كالشمس حتى طلب منها مالا يصل إليه .

* * *

٤ — السَّاقِطُ سُقُوطَ الذُّبَابِ عَلَى الشَّرَابِ .

الذُّباب فى اللغة يقع على هذا المعروف من الحشرات وعلى النَّحل، والزنانير ونحوها . قال الجاحظ : ومن الدَّليل على أنّ أجناس النَّحْل والزّنانير وما أشبهها كلّها ذُباب [١] ؛ ما جاء فى الحديث عن النبى صلّى الله عليه وسلم ، أنه قال : « كلّ ذباب فى النّار إلا النّحلة » [٢] ؛ وقال الشاعر :

فَهذَا أوانُ العِرْضِ حَيَّ ذُبَابُهُ ... زنابيرُه والأزْرَقُ المتلمِّسُ [٣]

والذباب ها هنا هو المعروف ، وسمّى ذباب العين ذبابا لشبهه به ، أو لتطاير شَعاعه طيرانَ الذّباب ، وبه يضرب المثل فى الوقوع على الشراب ؛ فيقال : أوقع من ذُبَابٍ على شراب . والشراب كل مائع متناوَل للشرب ؛ وغرض الذباب ما حلا ، ولشرهه عليه يقع على كلّ مائع ؛ سواء كان حلوا أو غيره . وفى كتاب « كليلة ودمنة » : من لم يرض بما يكفيه كان كالذباب الذى لا يرضى حتى يطلب الماء السائل من آذان الفيلة ، فتضرب بآذانها فتقتله .

* * *

---

(١) الحيوان : « ذبان » بالكسر ؛ وهو جمع ذباب .

(٢) الحيوان ٣ : ٣٩١ ؛ والحديث يروى عن عباد بن صهيب وإسماعيل المكى ، عن الأعمش ، عن عطية بن سعيد العدنى .

(٣) المتلمس ، وبه لقب ؛ وهو شاعر جاهلى ، اسمه جرير بن عبد المسيح الضبعى ، والبيت فى الحيوان ٣ : ٣٩١ . العرض : كل واد فيه شجر .

٥ — المُتهافتُ تَهَافُتَ الفَرَاشِ فِي الشِّهَابِ .

التهافُت : الترامِي مع خِفّة وطَيَران ، يقال منه : هَفَت وتَهَافَتَ ، ومنه قولهم : وردت هفيتةٌ من الناس ، للذين أقحمتهم السَّنَة[١] . والفَراش : نوعٌ من الذّباب رقيق الجسد ، ومنه قيل لكل عظم رقيق : فَراشة . وقيل : فَراشة القُفْل لرقّتها[٢] ، أو لشبهها بالفَراشِ الطائر ، وأما قول ذي الرُّمة :

فأيقنّ أنّ النَّقْع صارت نِطافُهُ فَراشاً وأنّ البقل ذاوٍ ويابسُ[٣]

فقد قيل : إنّ النَّقْع — وهو الموضع الذى يجتمع إليه نُقَرَ الماء[٤] — صار فَراشا أى ماء رقيقا . وقيل : المراد أنّ نُطَف الماء صارت فَراشا طائرا ؛ فربما تولّد الفَراش من الماء .

والشِّهاب : الشُّعْلة من النّار ؛ ومن ذلك قيل للسواد المختلط بالبياض شُهبة ؛ تشبيها بالسواد المختلط بالدّخَان . والفراش معروف بإلقاء نفسه فى النار ؛ ولذلك قيل فى المثل : ما هم إلا فَراش طمع . والفلاسفة تزعم أن الحيوان تجذبه النُّورية كالفَراش الطائر بالليل ، وما لُطف جسمه يطرح نفسَه فى النّار فيحترق ؛ وغير ذلك ممّا يُصاد فى اللّيل بالشهاب ، من الغزلان والوحش والطّير والسّمك ؛ إذا قرب منها السّراج فى الزوارق . ويزعمون أن النور صلاح هذا العالم .

ومعنى هذا السجع أنّ المكتوب إليه مِن جهله وتعرّضه لما يؤذيه ، بمنزلة الفَراش والذباب الواقع فيما يُهلكه من غير إشعار أنه هالك .

* * *

---

(١) اللسان — هفت .

(٢) اللسان — فرش .

(٣) ديوانه ٣١٣ ؛ وروايته : « وأبصرن » .

(٤) النقر : جمع نقرة ؛ وهى الوهدة المستديرة فى الأرض .

٦ ـ فإنَّ العُجْب أَكْذَبُ ، وَمَعْرِفَةَ المرء نَفْسَهُ أَصْوَبُ .

قوله : « فإنّ » ، صلة لقوله : « أمّا بعد » ، ولا بُدّ من اقتضائها الفاء لردّ الكلام بعضه على بعض . والعُجْب : مايعجِب الإنسان من نفسه ، أى يستحسنه ، والأصل العَجَب ؛ كأنه يتعجّب مِنْ حُسْن مايجد . والكذب ضدّ الصدق ، يقال فى المقال والفَعال ، وينسب أيضاً إلى نفس القول والفعل ، فيقال: فَعْلة صادقة ، وفَعْلة كاذبة . ومعنى المثل ، أنّ المعجب من نفسه بحالة يظنّ أنه قد بلغ بها الغاية ، وامتاز بالفَضْل ؛ وليس الأمر كذلك ، فكأنّ عُجْبَه بنفسه خيَّل له مالا صحّة فيه ، فكذّبه . والمعرفة إدراك الشىء بتدبّر لأمره ، وهو أخصّ من العلم ، فيقال : فلان يعرف الله ، ولايقال : « يعلم الله » ، متعدٍّ إلى مفعول واحد ؛ لمّا كان معرفة البشر لله تعالى هى بتدبّر آثاره دون إدراك ذاته ، ويقال : الله يعلم كذا ، ولا يقال: يعرف كذا ، لمّا كانت المعرفة تستعمل فى العلم القاصر المتوصّل إليه بتفكّر ، وأصلُه من عَرفْتُ كذا أى أصبت عَرْفه ، أى رائحته . والمعنى أنّ معرفة الإنسان مقدارَه حتى لا يتعدّى أطوارَه أصْوبُ ، وهو يؤيّد قوله : « العُجْب أكذب » .

وهذا مثلان جيّدان ؛ الأوّل ينسب إلى أكثم بن صيفىّ ، والثانى مأخوذ من قوله : « لن يهلِكَ امرؤٌ عَرَف قَدْر نفسِه » .

* * *

[أكثم بن صيفىّ]

وهو أكثم بن صيفىّ بن رياح التّميمىّ ، أشهر حُكّام العَرَب فى الجاهليّة وحكمائهم وخطبائهم، أدرك مبعثَ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، وراسَله . واختُلف فى إسلامه ، والأكثر على صِحّته (١) .

---

(١) ذكره ابن حجر فى الإصابة ١ : ١١٨ ـ ١٢٠ ، فى القسم الثالث ؛ وهم =

حكى الهُجيمىّ : أن أكثم بن صَيْفيّ لما بلغه مبعث النبى صلّى الله عليه وسلم قال لقومه : احملونى إليه ، فقالوا : لا والله، وأنت سِنٌّ من أسنان العرب . قال : فليأتِه أحدُكم فليسأله عن ربّه ، وعمّا أمره به . فأتى حبيش بن أكثم فقال : يامحمّد ، بم بعثك ربُّك ؟ قال : بعثنى بأن أكسّر الأوثان ، قال : بم أمرك ؟ قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [1] .

فانصرف حبيش إلى أبيه ، فأخبره بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلا عليه الآية الشريفة ، فجعل يرددها ويقول : إن هذا لربٌّ كريم ، يأمر بمحاسن الأخلاق ، وينهى عن مساوئها ، ثم جمع إليه بنى تميم وقام فيهم خطيباً وعمره إذ ذاك مائة وتسعون سنة ، وفى ذلك يقول :

وإنّ امرأ قد عاش تسعين حِجّةً ... إلى مائة لم يسأم العيش جاهل [2]

ويروى : « لخمس فلم يسأم » ، على أن عمره خمس وتسعون سنة ، وهو الأقرب .

ثم قال : يابنى تميم ، لاتحضروا إلىّ سفيهاً ؛ فإنّ السفيه يوهن مَنْ فوقه ، ويتبِّب من دونه ـ أى يهلكه ـ ولا خير فيمن لاعقل له . إنّ ابنى شاهَد هذا الرجل الذى ظهر بمكة وشافهه ، وهو يأمر بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله عزّ وجلّ ، وخلع الأوثان . وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفصل فيما يدعو إليه ، وإنّ أحقّ الناس بمعاونته لأنتم ؛ فإن كان الذى يدعو إليه حقًّا فهو لكم ،

= المخضرمون الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم يرد فى خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ولا رأوه ؛ سواء أسلموا فى حياته أم لا ، قال : « وهؤلاء ليسوا بأصحابه باتفاق من أهل العلم بالحديث » .

(١) سورة النحل ٩٠

(٢) الإصابة ١ : ١١٩ .

وإن كان باطلا كنتم أحقَّ مَنْ كتَم وستر . وقد سمعتُ أسقفَّ نَجْران يَذْكره ويترجَّى أن يكون له ، فسمّى ابنه محمداً ، فكونوا فى أمره أوّلا ، ولا تكونوا آخراً ، وأتوه طائعين قبل أن تأتوه كارهين . والله إن هذا الذى يدعو إليه لو لم يكن ديناً لكان فى أخلاق العرب حسناً ؛ فأطيعوا أمرى، فمن سبق فاز ، ومن تأخَّر نَدِم . فقام مالك بن نُوَيْرة ، وقال : لقد خرِف شيخُكم ، فلا تتعرّضوا للبلاء . فقال أكثم : ويلٌ للشّجىّ من الخلِىّ ، لهفِى على أمرٍ لم أدرِكْهُ ولَمْ يسبِقْنِى . ثم رحل إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فمات فى الطريق ، وبعث بإسْلامه عَلَى مَنْ أسلمَ ممّن كان معَه [١] .

وذكِرَ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنَّ هذه الآية ، وهى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ ، [٢] نزلت فى أكثم وَمَنْ تَبِعه من أصحابه .

وقال قوم آخرون : خرج مهاجراً ولم يُسْلِم .

* * *

وكان من أفصح خطباء العرب [٣] ، وجُمِع من كلامه شىء كثير ، وممّا صحّ من أمثاله ـ على مارواه ابن دُرَيد ، عن أبى حاتم ـ قوله : يابنِى تميم ، لا يفُوتكم وَعْظِى إن فاتكم الدَّهْر بى . يابنِى تَميم ، إنّ مصارع الألباب تحت ظِلال الطمع ، ومَنْ سَلَكَ الجدَد أمِن العثار ، ولن يعدم الحسود أن يتعب فكرَه ، ولا يجاوزُ ضرُّه نفسَه ، والسكوت عن الأحمق جوابُه .

ومن أمثاله : أشبِعْ جارك ، وأجِعْ فارك ؛ يعنى لاتدّخرشيئاً يأكله الفأر ،

---

(١) الخبر أورده ابن حجر فى الإصابة ؛ برواية فيها تفضيل ومخالفة .

(٢) سورة النساء ١٠٠

(٣) م : « من أفصح العرب » .

أو يعنى بالفأر الفضل[١] فى الجسد ، أى لاتسمن وَجَارُك جائع .

ومن أمثاله أيضاً : لاتهرِفْ بما لاتعرِف .

وسئل : ما الحزم ؟ فقال : سُوء الظنّ بالناس .

وأقواله كثيرة ، وقلَّما عُرِف له نَظْم[٢] .

* * *

٧ — وَأَنَّكَ رَاسَلْتَنِى مُسْتَهْدِياً مِنْ صِلَتِى مَا صَفِرَتْ مِنْه أَيْدِى أَمْثَالِكَ .

الصِّلة : قُرْب الشيء و بلوغه ، و يستعمل فى الأعيان والمعانى ؛ ومنه سُمِّيت العطيّة صلةً ؛ وقيل : فلانٌ متّصل بفلان ؛ إذا كانت بينهما نِسْبة أو مصاهرة ، والصّلة هاهنا تحتمل الوجهين ، إمَّا المودّة وتقوم مقام العَطاء ، أو القرب ويقوم مقام الاتِّصال .

وصفِر الإناء إذا خلا حتى يُسمعَ له صَفِيرٌ لخلوّه ، ثم صار متعارفاً فى كلّ خالٍ من الآنية وغيرها . وقيل[٣] : صفِرت اليدُ إذا خلت ،وسمِّىَ خلوُّ العروق مِن الغذاء صفَراً ، وكانت العرب تزعم أنّ ذلك حيّة فى البطن تسمى الصَّفَر ، حتى جاء فى الحديث : « لاصَفَرَ »[٤] .

والمعنى : أنك تتعرّض من صِلَتِى لما تخلو منه يد مرادِك .

* * *

---

(١) م : « العضل » .

(٢) أورد له صاحب المعمرين ص ٢٢ طائفة منه .

(٣) ط : « ويقال » .

(٤) نقله السيوطى فى الجامع الصغير ٢ : ٣٦٤ ، ولفظه هناك : « لاعدوى ولا صفر ولا هامة » .

٨ــ مُتَصَدِّيًا مِنْ خُلّتِي لِمَا قُرِعَتْ دُونَهُ أُنُوفُ أَشْكَالِكَ .

التَّصدِّى: المقابَلة[١]، مأخوذ من مقابلة الصَّدَى، أى الصوت الراجع من الجبل. والخُلّة : المودَّة ؛ إمّا لأنها تتخلّل النفس ، أى تتوسطها ، فإنّ الخلل الفرجة بين الشيئين ، وإما لفَرْط الحاجة إليها . يقال : خاللته مخالّة ، فهو خليل ، وسمّى الله تعالى نبيَّه إبراهيم خليلا ، لافتقاره إلى ربه تعالى . والقَرْع : صوت ضرب شىء على شىء .

والمعنى ، أنك تخطب من مودّتى مالا يصلح[٢] له أشكالك[٣] ، فدُفِعوا عنه ، وضُرِبت أُنوفُهم دونَه ، إمَّا حقيقة ، أو مجازا لكون أنهم ردُّوا فحصل لهم من الهوان ما يحصل لمن يضرب أنفه ؛ وخصّ الأنف بالضرب لأنه محلّ الشمم والكبر ، مع أن المثل للعرب ؛ يخاطَب به الخاطِب الكفء ، فيقول : هو الفحل لا يقرع أنفه؛ والأصل لِحَل الإبل إذا ضرب وجهه عن النّاقة التى لا يريدون نتاجها منه ؛ وتمثّل به أبو سفيان بن حرب حين بلغه زواج النبى صلّى الله عليه وسلّم ابنته أم حبيبة ، فقال : « ذاكَ الفحلُ لا يُقْرَع أَنْفُه » .

* * *

٩ــ مُرْسِلاً خليلتَك مُرْتَادةً ، مُسْتَعْمِلاً عَشِيقَتَكَ قَوَّادَةً .

خليلتك : صاحبة مودّتك . أو «حليلتك» : زوجتك ، وفى كلا المعنيين ذمّ للمرسِل ، لأن الخليلة أو الحليلة التى هى محلّ[٤] الغَيْرة على الرّجل لاتغار على مثله

---

(١) كذا فى ط ، م ، وفى ت : « التقبلة » .

(٢) ت : « يصح » .

(٣) ط : « أمثالك وأشكالك » .

(٤) م : «موضع » .

حتى تمشي بينه وبين النساء . والمرْتاد ، طالب الـكلأ ، وسُمِّى به الطّالب مطلقاً ، وأصل الرّود التردد فى طلب الشيء برِفق ، وباعتبار الرّفق قيل : رادت المرأةُ فى مِشيتها فهى رَوَاد .

وقاد الشيء فانقاد له ، أى خضع ، وقوّد ، شدّد للـكثرة، واستعمل فيمن يجمع بين الشخصين حراماً ؛ لأنه أصعبُ للانقياد ، وكانت القوادة فى العرب تـكنى أمَّ حكيم ، ولمّا قال ابنُ أبى ربيعة فى وصف القَوّادة :

فأتتْها طَبّـةٌ عارفةٌ تخلِطُ الجِـدّ مراراً باللَّعِبْ[1]
تُغْلِظ القولَ إذا لانَتْ لهـا وَتَراخَى عند سَوراتِ الغَضَبْ[2]

قال له ابن أبى عتيق : يابْنَ أخى ، إنَّ الناس لمحتاجون إلى خليفة مثل قوّادتك ليسوسَهم . ومنه كان يقال فى المثل : « أقوَد من ظُلْمَة »[3] ، قيل : إنها امرأة كانت تقول : إذا مِتّ فأحرقونى وتَرّبوا برمادى الـكتبَ المرسلة بين المتعاشقين ، فإنهم يجتمعون . وقيل : إنها الظُّلمة من الليل ؛ فإنها تَستُر وتعين على الأجتماع . وأنشد بعضهم[4] :

* فالشَّمس نَمَّامَة واللَّيْلُ قوّادُ[5] *

---

(١) ديوانه ٣٧٨ . والطبة : الخبيرة العارفة ، وفى الديوان : « فبعثنا طبة محتالة » .

(٢) تراخى ، أصله تتراخى ؛ فحذف إحـدى التاءين ، وسورات الغضب : جمع سورة بالفتح ؛ وهى الشدة .

(٣) أمثال الميدانى ٢ : ٤٧ ، قال : « هى امرأة من هذيل ، وكانت فاجرة فى شبابها حتى عجزت ، ثم قادت حتى أقعدت » .

(٤) هو ابن المعتز ، كنايات الجرجانى ٤٣ .

(٥) صدره :

* لا تَلْقَ إلاّ بلَيلٍ مَنْ تواصِلهُ *

وبعـده :

كم عاشقٍ وظلام الليلِ يسترهُ لاقَى أحِبّتَه والنّـاسُ رُقّادُ

١٠ — كاذِباً نفسَكَ أنّكَ ستَنزِلُ عنها إليَّ، وتَخْلُفُ بعْدَها عَلَيَّ.

يعنى أنك وعدت نفسك أن تتركَ الاتّصال بهذه المرأة التى هى خليلتك، وتتعوّض عنها بحصولى، وهذا أمر لا يقع؛ فأنت كاذبٌ نفسك فى الوعد، [أو وعدت هذه المرأة التى هى عندك بمنزلة نفسك] [١]؛ أنك إذا ظفرتَ بى تركتَها وأطلقت سراحها لرغبتها فى البُعد عنك، فهى تسعى فى هذا الأمر سعىَ المجتهد، وهذا أمر لا يتمّ، فقد كذبتَها فيما وعدت.

والخَلَف: ما جاء بعد الشىء، ومنه سمى الخليفة، ويقال بالتحريك للمدح مثل: خَلَف صالح، وبالسكون للذمّ مثل [قوله: «فى] [١] خَلْف كجِلْد الأجرب [٢]».

* * *

١١ — ولستَ بأوّلِ ذِى هِمّةٍ دَعَتْهُ لِما لَيْسَ بالنّائِلِ

هذا البيت للمتنبّى، وحسن التمثيل به هاهنا لمطابقة المعنى فى طلب مالا يوجد، لاسيّما إن كان التصحيف أريد بلام النائل؛ بقلب اللام كافا؛ فإنّ ذلك فى هذا الموضع يكون عجباً، وكثيراً ما يعتمد أهل الظرف شبيه ذلك فى مكاتباتهم.

* * *

[المتنبّى]

وحيث أفضى القولُ إلى ذكر المتنبّى، فلا بأس بذكر نبذةٍ مِنْ أخباره، فأمّا

---

(١) تكملة من م. (٢) من بيت لبيد:

ذهب الّذينَ يُعاشُ فى أكنافِهِمْ وبقيتُ فى خلْفٍ كجِلدِ الأجربِ

أشعارُه فقد ملأت الأقطار ؛ لكنّى أقتصر منها على ذكر القصيدة التى منها هذا البيت ، وكذلك أعتمد فى كل مايمرّ من شعره فى هذه الرسالة .

وهو أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصمد الُجعفىّ ، ويكنى أبا الطيّب . ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلثمائة . وقيل : إنّ أباه كان يسمى عَبْدان ، وهو رجل كان يسقى الماء على جمل له بالكوفة .

ونشأ أبو الطيّب مشتغلا بالأدب ، راغباً فيه مع فقره واحتياجه .

وكان من أذْكى النَّاسِ وأسرعهم حِفْظاً . حكى أنه جلس يوماً بالورّاقين فى أيام صباه ، فاستعرض من أحد الدلاّلين دِفتراً فيه أكثرُ من عشرين ورقة فأطال تأمُّله إلى قال له الدّلاّل : إن كنت تريد شراءه فعجِّل الثمن ، وإن كنت تريد حفظه فهذا يكون فى شهر ؛ فقال : إن كنت حفظتُه آخذه بغير ثمن ؟ قال : نعم ، فشرع يسرده عليه حفظاً إلى أن أتمّه ، ووضعه فى كمّه وانصرف .

ثم نظم الشعر واسترزق به ، وطاف البلاد ، وكان يقنع من الجائزة بأيسر شىء . ثم نزل باللاّذقية على مُعاذ بن إسماعيل فأكرمه وأحسن إليه ، وأقام عنده مدة .

ثم خرج إلى بادِيَة السَّماوة[1] فنزل بقوم من بنى عبس فتنبّأ ، وعمِل أسجاعا كثيرة ، وتبعه قوم منهم ، وكان سبب ذلك وقائع نادرة :

منها : أنّ قوماً قالوا له : إن هاهنا ناقة صَعْبة ، فإن ركبتها علمنا أنك مرسَل ؛ فتحيّل يوماً إلى أن ركبها ، فنفرتْ ساعةً ثم سكنت ، ووردت الحىّ وهو راكبها .

ومنها : أنّه كان مستخفياً فراحَ ليلةً هو ورجل فنبَح عليهما كلب ، فلما ذهب قال للرجل : إنّك ستجد الكلْب ميّتاً إذا رجعت ، فوجده كذلك .

---

(١) بادية السماوة : موضع بين الكوفة والشام . ياقوت .

وقيل: كان يعرف نوعا من السحر يسمَّى صَدْحة المطر، وذلك أن الشخص يدير حولَه بعصاً، ويذكر كلاما فينصرف[١] عن موضعه المطر. وذكر أن كثيراً من العرب باليمن من أهل حَضْرَمَوْت والسَّكُون يعرفون هذه الصَّدْحة؛ حتى إنَّ أحدهم يصدحُ عن إبله وبقره، وعن القرية من القرى فلا يصيبها من المطر قَطْرة. ومما يدلّ على أن المتنبِّي كان من السَّكون قولُه:

أَمُنْسِيَّ السَّكونَ وحَضْرَمَوْتاً ووالدتِي وكِنْدَةَ والسَّبِيعاَ[٢]

مع أنّه كان يُخفِي نسبه، فإذا سئل عنه قال: أنا رجل أخبط القبائل، ولا آمنُ أن يكون لأحدٍ ثأر في قبيلتي فيقتلني.

ثم إنّ بعض الوُلاة ظفِر بالمتنبّي وحبسه، فتاب ورجع عمّا ادّعاه من النبوّة. وقيل له يوماً: على مَنْ تنبّأت؟ قال: على السَّفِلة. قيل له: إن لكل نبيّ معجزة فما معجزتك؟ قال: قولي:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ[٣]

ثم تقلّبَتْ به الأحوالُ، ووصل إلى سيف الدولة عليّ بن حمدان بحلَب، فأقبل عليه، ولحظتْه السّعادة، واشْتَهر ذكرُه في الآفاق، ورُزِق من الحظّ والسمعة والنعّمة[٤] مالا مزيدَ عليه. ثم اتّفق بينه وبين ابن خالويه كلام بحضرة سيف الدولة، فضربه ابنُ خالويه بمفتاح، فخرج غضبانَ ورحل إلى مصر، فاتَّصَل بمتولّيها كافور الإخشيديّ، فطمع منه بالولايات، فلم يتهيّأ له

---

(١) كذا في م. وفي ط: «فيصرف»، وفي ت: «فيتصرف» تصحيف.

(٢) ديوانه ٢: ٢٥٧، وفيه: «أمنسى الكناس»، والكناس: محلة بالكوفة. وحضرموت وكندة والسبيع مواضع بأعيانها.

(٣) ديوانه ٤: ١٦٢. منظره، أي رؤيته.

(٤) ط: «من الحظ والنعمة والسمعة».

ما طلبه[١] ، ورحل إلى العراق فأقام بها أيّاما ، وسئل عن ذلك فقال : إن بنى حمدان كدَّروا خاطرى ، فجئت أريحُه . ويقال : إنّ هذا من الكلام الموجّه فى مدح الجهتين وذمّهما .

ثم رَحَل [٢] إلى العجَم فمدح عَضُد الدولة ، وابن العميد ، وكسب أموالا جزيلة ورجع ، فقتل فى الطريق سنة أربع وخمسين وثلثمائة .

وكان عفا الله عنه قد انفرد بخصال :

منها الكِبْر الزائد كما ذكره الحاتمىّ وغيره ؛ وهو ممّا [٣] أحوجَه إلى فراق سيف الدولة . وحكى ابن جنِّى قال : قلت للمتنبّى وقد أسمعنى شعراً فى كافور : يعزّ علىّ ألا يكون هذا فى سيف الدولة ! قال : إنى أنذرته وحذّرته فما قبِل ، وذلك فى قولى :

ذا الجودِ أعطِ الناسَ ما أنت مالكٌ ولا تعطِينّ الناس ما أنت قائل[٤]

ومنها البُخل ؛ حكِي أنه أجيز على قصيدة بعشرة آلاف درهم ، فوزنها ووضعها فى كيس وختمه ، ورفعه إلى صندوق فى خِزانة ، ثم رجع إلى مجلسه فوجد بين الحصير قطعة تكون مقدار رُبْع درهم ، فعالجها بأظافيره وهو ينشد قول ابن الخطِيم :

تبدّتْ لنَا كالشَّمْس تحت غمامةٍ بداحاجبٌ منها وضَنّتْ بحاجبِ[٥]

إلى أن أخذَها فأعاد الكيس ووضَعها فيه بحضرة جماعة يعرف أنهم يذمّونه بذلك .

ومنها إقبالُ النّاس على شِعْره واشتغالُهم به حتى تُرِك شعرُ غيره ، ووضع

---

(١) ط : « ذلك » .

(٢) فى ت ، م : « دخل » .

(٣) ت ط : « وكما » ، والصواب ما أثبته من م .

(٤) ديوانه ٣ : ١١٧ .

(٥) ديوانه ٣٥ ، والحاجب هنا : الجانب .

لشعره أكثر من أربعين تصنيفاً . وكان إذا سئل عن معنًى من قوله قال : اذهبوا إلى ابن جِنّى ، فإنه يقول لكم ما أردته ومالا أردتُه .

ومنها: معرفته بلغة العرب وحوشِيِّها؛ حتى حكى أن أبا علىّ الفارسىّ قال له يوما : كم لنا من الجموع على وزن فِعْلَى ؟ فقال : حِجْلَى وظِرْبَى ، قال أبو علىّ : فطالعت الكتب ثلاث ليالٍ علّى أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجده .

وكان يُرمَى بفساد عقيدته(١) ،استُخرِج ذلك من شعره،مثل قوله على مذهب السُّوفسطائيّة :

هوّنْ على بصرٍ ما شقَّ مَنظَرُهُ ... فإنّما يَقظَاتُ الْعَيْنِ كالحُلُمِ(٢)

وقوله على مذهب القائلين بالنّفس الناطقة :

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتّى لا اتّفاقَ لَهُمْ ... إلاَّ عَلَى شَجَبٍ والخُلْفُ فى الشَّجَبِ(٣)

فقيل تسلَمُ نَفْسُ المرءِ باقيةً ... وقيلَ تَشْرَكُ جِسْمَ المرءِ فِى الْعَطَبِ(٤)

وقوله على مذهب الهوائيّة وأصحاب القَضاء :

تَبْخَلُ أيدينا بأرواحِنَا ... على زمانٍ هُنَّ مِنْ كَسْبِهِ(٥)

وهذه الأرواحُ من جَوِّهِ ... وهذهِ الأجسام من تُرْبِهِ

وغير ذلك من المكفّرات ظاهرا الجنح فيها باطنا ، وعلى الجملة فكان كثير المحاسن والحسّاد ، وله أشعار لم تدْخل فى ديوانه ، مثل قوله :

وتركتُ مدحِى للوصىّ تعمّداً ... إذ كان نوراً مستطيلا شامِلاً(٦)

وإذا استطَال الشّئ قام بنفسِه ... وصَفاء نُور الشّمس يذهب بالطِّلا

---

(١) م: « العقيدة » .

(٢) ديوانه ٤ : ١٦٢ . منظره ، أى رؤيته .

(٣) ديوانه ١ : ٩٧ . الشجب : الحزن والهلاك .

(٤) النفس هنا : الروح .

(٥) ديوانه ١ : ١٢٢ .

(٦) زيادات ديوان المتنى لعبد العزيز الميمنى ٣٥ ، ٣٦ .

وهو شبيه بنفسه .

ويروى له أيضاً نثرٌ لطيف ، مثل قوله وقد مرض بمصر فعاده بعض أصحابه مراراً ، ثم انقطع عنه بعد ما شُفى : « وصلتَنِى ـ وصلك الله ـ معتلاً ، وهجرتنى مُبِلاًّ [١] ، فإن رأيتَ ألاّ تحبّب العلّة إلىّ ، ولا تـكدِّر الصحّة علىّ ، فعلتَ إن شاء الله » .

فأمّا القصيدة التى منها البيت المذكور بسببه ، فإنّه يمدَحُ بها سيفَ الدولة ابن حَمْدان ، ويذكر فيها خلاصَ بعض أقاربه من الأسر ، وهزيمة بعض الخوارج عليه ، أوّلُها [٢] :

إلامَ طَماعيَةُ العَـاذلِ ولا رَأْىَ فى الُحبّ للعاقلِ [٣]
يُراد مِنَ الْقلب نِسيانُـكمْ وتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النّاقِلِ
وإنّى لَأَعْشَقُ من عِشْقِـكمْ نُحُولِى وكلَّ امرئٍ نَاحِـلِ
ولو زلتُم ثم لَمْ أبْكِـكمْ بكيتُ على حُبّىَ الزّائِلِ

ـــ يعنى أنّى أحبّ الحبّ لأجلكم ، إذْ أنى ألفتُه لطول صحبته فلو زال بـكيته .

كأنّ الجفون عـلى مُقْلَتِى ثيـاب شُقِقْنَ عَلَى ثـاكلِ
ولو كنت فى أَسْرِ غيرِ الهوى ضَمِنْتُ ضَمانَ أبى وائـلِ

ـــ يعنى لو أسرنى غير الهوى لخلصت منه كما خلص أبو وائل ، وهو قريب سيف الدولة ، وكان مأسوراً فى بنى كلب عند الخارجىّ الذى خرج بهم على سيفِ الدولة ، وكان أبو وائل قد ضمِن له فداء نفسه بذهب وخيل ؛

---

(١) كذا فى م ، وفى ط : « بليلا » ، وفى ت « مهملا » تحريف »

(٢) ديوانه ٣ : ٢١ ـ ٣٤ ؛ وفيه : « وقال يمدحه ـ أى سيف الدولة ـ ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود من الأسر » .

(٣) الطماعية : مصدر بمعنى الطمع .

واستدعى سيف الدولة سرًّا ، فخرج ومرّ بهم ، واستنقذه بغير فِداء ، فذكر أبو الطيّب صورةَ الحال .

فَدَى نَفْسَهُ بضَمانِ النُّضارِ وأعْطَى صُدورَ القَنَا الذّابِلِ (١)
وَمَنَّاهُمُ الخَيْلَ مَجْنُوبَةً فجِئْن بكلّ فتًى باسِلِ (٢)
كأنَّ خَلاَصَ أبِي وائلٍ معاوَدةُ القمرِ الآفلِ
دَعَا فسمِعتُ وَكَمْ ساكِتٍ عَلَى البُعْدِ عندك كالقائلِ

ومنها :

وجيشِ إمامٍ على ناقةٍ صحيحِ الإمامةِ فى الباطلِ (٣)
فأقبلن يَنْحَزْنَ قُدَّامَهُ نَوَافرَ كالنَّحل والعاسِلِ
فلمّا بَدَوْتَ لأصحابِهِ رأت أُسْدُها آكلَ الآكلِ
بضربٍ يعمّهُمُ جائرٍ له فيهمُ قسمةُ العادلِ

ـ يعنى بالجَوْر إفراطه فى قتلهم ، وبالعدل ثلاثة أوجه : أحدها أنهم مستحقّون لذلك لخروجهم ، والثانى أنه وقع ذلك لمن بالغ منهم فى القتال ، والثالث أنّ الضربة كانت تقسم الفارس نصفين .

بنصلٍ (٤) يخضّب منها اللِّحَى فتًى لا يعيد على النّاصل (٥)

ـ قال ابن وكيع : يعنى أنّ كلّ خضابٍ ينصُل إلاّ خضابَ هذه القتلى الذى هو الدّم فإنّه لا يَنصُل ؛ فيعيده لأنّهم فارقوا الحياة ، وما ينصُل غير

---

(١) النضار : الذهب . القنا الذابل : الرقيق .
(٢) الخيل المجنوبة ، التى ليس عليها فرسان ؛ وإنما تجنب للحاجة إليها ، فلا تركب إلا وقت الحروب .
(٣) يريد بالإمام الخارجى ؛ أى أنه إمام فى قومه صحيح الإمامة عليهم ؛ إلا أنه من أئمة الباطل .
(٤) الديوان : « فظل يخضب » .
(٥) الناصل : الذى ذهب خضابه .

خضاب اللّحَى . وقال بعضهم ــ وهو وجه بعيد : الناصل : المضروب بالنّصل ، وهو « فاعلَ » بمعنى « مفعول » ، كقولك : ناقة ضارب ، وعيشة راضية ، يريد أنه إذا ضرب إنساناً بالنّصل لم يبقَ فيه ما يحتاج إلى إعادة ضربه .

خُذُوا ما أتاكُمْ به واعذِرُوا فإنّ الغنيمةَ فى العاجلِ

ــ يعنى أن هذا بدلُ الفداء ، يتهكّم بهم .

وإنْ كانَ أعجبَكم عامُكُمْ فعودُوا إلى حِمْصَ فى قَابِلِ

ومنها :

فإنّ الحسام الخضيب الّذى قتلتمْ به فى يدِ القاتلِ

تركتَ جماجمهم فى النَّقاَ وما يتحصّلْنَ للنَّاخلِ(١)

ومنها :

وعدتَ إلى حَلَبٍ ظافراً كعودِ الحلىِّ إلى العاطلِ

ومنها :

وكَمْ لكَ من خبرٍ شائعٍ له شِيَةُ الأبلق الجائلِ(٢)

ومنها :

فهنّأكَ النَّصرَ مُعطيكَهُ وأرضاه سعيُك فى الآجلِ

فذِى الدارُ أخْوَنُ من مُومسٍ وأخدعُ مِن كِفَّةِ الحابلِ

تفانَى الرِّجالُ على حُبِّهاَ ولا يَحصُلون على طائلِ(٣)

* * *

(١) النقا : الكثيب من الرمل ، يقول : تركت جماجمهم وقد طحنتها حوافر الخيل فاختلطت بالرمل حتى لو نخل لم يتحصل منه شيء .

(٢) الشية : لون يخالف بقية الجلد . والأبلق : الذى فيه سواد وبياض ؛ يقول : كم لك من خبر انتصار شاع ذكره فى الناس ، وظهر ظهور الشية فى الفرس الأبلق إذا جال بين الخيل .

(٣) الطائل : الغناء ؛ أى تفانوا فى التشاح عليها ولم يحصلوا على شيء ؛ لأنها لا تمكن أحداً منها .

١٢ــ ولا شَكَّ أَنَّهَا قَلَتْكَ إِذْ لَمْ تَضِنَّ بِك، وَمَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تغرْ عَلَيْك .

يعنى [المرأة التى راسلتها][١] أبغضتك لأنها لم تَبخلْ بك على مَنْ تصحبه دونها . والقِلى : شدة البغض ، يقال : قلاَه يقليه و يقلوه ، فمن جعله من الواوىّ فهو من القَلْو ، أى الرَّمْى . يقال : قَلت الناقة براكبها قَلْواً ، وقلوتُ بالقلم ، فكأن المَقلوَّ الذى يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله ، ومن جعله من اليأىّ ؛ فمن قَلَيْتُ السَّويقَ وغيره على المِقْلاة . وفى الحديث : « اخْبُرْ تَقْلَه »[٣] ، والهاء للسكت . والضنّ : البُخل بالشىء النفيس ، ولهذا قيل : عِلْق مضِنَّة . ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[٣] ، أى بخيل على مايوحى إليه ، وقرئ : « بظنين » ، أى متَهَم[٤] .

* * *

١٣ ــ فإنَّهَا أَعْذَرَتْ فِي السِّفَارَةِ لَكَ ، وَمَا قَصَّرَتْ فِى النِّيابَةِ عَنْكَ .

يعنى بلغتْ عذر الاجتهاد فى الصِّلة بينى و بينك ؛ يقال : أعذر الإنسانُ

---

(١) تكملة من م .

(٢) لفظ الحديث فى النهاية (٣ : ٢٧٥) عن أبى الدرداء : « وجدت الناس اخبر تقله » ، قال فى شرحه : يقول : جرب الناس فإنك إذا جربتهم قليتهم وتركتهم لما يظهر لك من بواطن سرائرهم ، لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ، أى من جربهم وخبرهم أبغضهم وتركهم ، والهاء فى « تقله » للسكت ، ومعنى نظم الحديث : وجدت الناس مقولا فيهم هذا القول » .

(٣) سورة التكوير ٢٤ .

(٤) بعدها فى ط : « والأمر كذلك على كلا المعنيين » .

إذا أتى ما صار به معذوراً ، وأعْذَرَ مَنْ أنذر . والسِّفارة المشى فى الصّلح ، وكأنها كشف ما أُبْهِمَ من الحال بين المتباينين ، أى سفرت ، ومنه قيل : السّفر ، لأنه يكشف الأخلاق ، والأصل من سَفَرَ الصبحُ ، إذا أضاء .

* * *

١٤ ــ زَاعِمَةً أَنَّ الْمُرُوءَةَ لَفْظٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ .

المروءة: كمالُ المرء ؛ كما أنّ الرجوليّة كمال الرَّجُل ، والإنسانيّة تمام الإنسان . واللفظ مستعار من لَفَظ الشىء من الفم إذا طرحه ، ولفظتِ الرحّا الدقيقَ ، والمعنى نفسُ الكلام وسِرّه ، وكأنّه مأخوذ من معاناة المرء أطلاعه على فحوى الكلام.

ولأهل البيان والمتكلّمين فى تمثيل الألفاظ والمعانى فصول مستحسنة . قال القومسىّ الفيلسوف : الألفاظ آية من الحسّ ، والمعانى من آية [(١)] العقل ، والحسّ تابع للعقل والطبيعة .

وقال آخر: ممّا حكاه ابن رشيق : المعنى مثال،واللفظ حذوٌ ، والحذو يتبع المثالَ فيتغيّر بتغييره ، و يثبت بثباته .

وقال آخر : اللّفظ جسم، والمعنى رُوح ، وارتباطه به كارتباط الرّوح بالجسم يضعف بضعفه ، و يقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختلّ اللفظ كان نقصاً فى الكلام كما يعرض لبعض الأجسام من العور والعَرَج ، وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضَعُف المعنى وأجيد لفظه [(٢)] كان اللّفظ من ذلك أوفر حظّا ؛ كالّذى يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ، ولا تجد معنى يختلّ إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياساً على ما قدّمت من أدواء الجسوم

---

(١) م : « أمة »
(٢) م : « اللفظ »

والأرواح ؛ فإن اختلّ المعنى كلّه فقد بقىَ اللّفظ مَواتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطّلاوة فى السمع ؛ كما أنّ الميّت لا ينقص من شخصه شىء فى رأى العين إلاّ أنّه ميّت لا يُنتفع به ، وكذلك إن اختلّ اللفظ جملة وتلاشى لم يصحّ له معنًى ؛ لأنّا لا نجد رُوحاً فى غير جسم ألبتّةَ !

* * *

١٥ — والإنْسَانيّة اسمٌ أنت جسمُه وهَيُولاَه .

الإنسانيّة : تمام الإنسان كما تقدّم ، ومما عرّ به أبو زرعة البغدادىّ من كلام أرسطاطاليس قوله : الإنسانيّة أفُق ، والإنسان متحرّك إلى أفقه بالطبع ، دائر على مركزه إلاّ أن يكون مخلوطاً بأخلاق بهيميّة ، ومن رفع عصاه عن نفسه ، وسَيّب هواه فى مرعاه ، وكان ليّن العريكة لاتباع الشهوات الرديئة ، فقد خرج من أفقه ، وصار أذلّ من البَهيمة لسوء إيثاره .

والاسم ماعرِف به الشىء ، وأصلُه من السُّمو ، ومنه رفع ذكر المسمّى فعرّف ، وسيأتى ذكره عند الفصل بين الاسم والمسمّى . والجسم يقال لكلّ ذى طُول وعَرْض وعُمْق ، ولما لا يثبت له لون كالماء والهواء ، ولا تخرج أجزاء الجسم عن كونها أجزاء ، وإن قُطّع وجزّئ ، وهو أعمّ من الجسد ؛ لأنّ الجسد لا يقال إلا لما له لَوْن . والهَيُولَى : المادّة المدبّرة للصّورة ، وهى أصلُ الشىء كالفضّة فى الدرهم ، وكان أرسطاطاليس يسمَّى صاحبَ الهَيُولَى ؛ وذلك أنّ مذهبه فى الدّهر أن أصل العالم قديم ؛ غير أنّه لم يك ثمّ طينة[1] ولا كان شىء ممانسمّيه العرَض ؛ وللحكماء فى تحقيقها كلام طويل لا يسع هذا المجال ذكره .

---

(١) كذا فى م ، وفى ط : « لم يكن من طينة »

١٦ــ قاطمةً أنّك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، واستعليتَ فى مراتب الجْلاَل ، واستوليْتَ على محاسنِ الخِلالِ .

قطعت الأمر: إذا فصَلتَه من الشكّ، ومنه الدّليل القطعىّ، والقطع: الفصل فيما يدرك بالأبصار كالأجسام، وفيما يدرك بالبصيرة كالأمور العقلية؛ والكمالُ حصول غايات العرض فى الشىء محسوساً أو معقولا ، وقوله تعالى : ﴿ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[1] ، ليست[2] للإعلام بأنّ الثلاثة والسبعة عشرة ، وإنما ليبين أنه بحصول صيام العشرة يحصل كمال الصوم القائم مقام الهوى . والخلال : جمع خِلّة ، وهى الطريقة الحسنة ، مأخوذ من الخِلّة وهى الطريق فى الرمل .وفى قوله : « استعليت » ، و « استوليت » ، و « الجلال » ، و«الخلال» ، أنواع من الصناعات اللفظية من ترصيع وتجنيس ما الغرض ذكرُها .

* * *

١٧ ــ حَتّى خِلْتَ أَنّ يُوسُفَ ـ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ـ حَاسَنَكَ فغضَضت منه .

يعنى بارَاك فى الحسن فأخجلتَه ، وأصلُ الغَضِّ النُّقصان فى الطَّرْف ، ويستعار لما سواه ، وبَدَأَ بذكر الحسن فيما سَرده من تَواريخ ذوى الأوصاف الشريفة ؛ لأنّهُ أوّل ما يعجب المرأة من الرجل ، ثم ذكر الحال والهمم والعلوم ونحو ذلك .

* * *

[يوسف عليه السلام]

والمرادِ ها هنا يوسف عليه السلام ، وجاء فى الحديث عن النبىّ صلى الله

(١) سورة البقرة ١٩٦ . (٢) ط : « ليس »

عليه وسلم : « ذاك الكريمُ ابنُ الكريم ابنُ الكريم ابن الكريم ، يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

وبه يضرَبُ المثل فى الحسن ، ويُستدلّ على حسنه بكتاب الله تعالى ، والحديثِ والآثار :

فمن الكتاب قوله عزّوجلّ فى ذكر امرأة العزيز والنّسوة اللّاتى لُمْنَها على حُبّه : ﴿ وَأَعتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ... ﴾[1] إلى آخر الآية ؛ قال المفسّرون : المتّكأ النُّمرق الّذى يُتّكأ عليه . وقيل : المتّكأ هو الطعام ، والأصل فيه أنّ مَنْ دعوتَه ليطعمَ عندك ، فقد أعددت له وِسادة ، فسمِّيَ الطَّعام متّكأً على الاستعارة . وقيل : متّكأ ، طعاماً يُحتاج إلى أن يقطع بالسكين ؛ لأن الطعام إذا كان كذلك احتاج الإنسان إلى أن يتّكِئَ عند القطع . وقيل : المتَّكأ الأُترجُّ ، وهو شاذّ أنكره أبوعبيدة . ﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ ، قيل : عظّمنَه ورأينه كبيراً عمّا فى أنفسهنّ . وقيل : حِضْنَ ، والهاء للسكت مثل « إنّهْ » بمعنى « إنّ » ، وهو قولٌ شاذّ ، لا يعرَف فى اللغة الإكْبار بمعنى الحَيْض ، إلاّ أن تكون الصغيرة ، بالحيض تدخل فى معنى الكبيرة ، ولا فى الطبّ أنّ المرأة تحيض إذا رأت ما يَرُوعها ؛ إلاّ أن تكونَ حاملا فيحصل لها إسقاط فتحيض ؛ والقول الأوّل من أنّ الإكبار التعظيم أصحّ وأحسن . ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ، كناية عن الدَّهَش والحيرة ، إمّا أنها دُهِشت فكانت تقطِّع فى يَدَيْها وهى تظنّ أنّها تقطِّع فى الفاكهة أو الطّعام ، وإمّا أنها تناولت السكّين من موضع النَّصْل وهى تظنّه موضع النّصاب فتخرج يدها ، والالتذاذ بالنَّظر يمنعها من وجود الألم ، وفى هذا من الكناية عن الحسن مالا مزيد عليه . ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ

---

(١) سورة يوسف ٣١ .

لِلّٰهِ ماَ هَذَا بَشَراً إنْ هَذَا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ، المقصود إثبات الحسن ، لأنّه تعالى ركّبَ فى الطّباع أن لاشىء أحسنُ من المَلَك ، وقد عاين ذلك قوم لُوط فى ضيف إبراهيم من الملائكة ، كما ركّب فى الطبّاع أن لا شىءَ أقبحُ من الشَّيطان . وكذلك قوله تعالى فى صفة جهنم : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[1] ؛ فكمَا تقرّر فى الطباع أنّ أقبح الأشياء هو الشيطان ، فقد تقرّر أنّ أحسن الأشياء هو المَلَك ، فلمّا أرادت النِّسْوة وصف يوسفَ بالُحسن ، شبّهه بالملَك .

أمّا الحديث فروِى عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مررت بيوسفَ فى الليلة التى عُرِج بى فيها إلى السماء ، فقلت لجبريل : مَنْ هذا ؟ قال : يوسف ، فقيل : يا رسول الله ، كيف رأيته ؟ فقال : كالقمر ليلة البدر » .

ومن الآثار قولهم : إنَّه كان إذا مشى فى أزقّة مصر يتلألأ نور وجهه على الُجدران كما يتلألأ نور الشمس من الماء عليها . وقولهم : إنّه ورِث الُحسن من جدّته سارة التى همَّ المَلِك بأخذها من إبراهيم، وزاد عليها. وقصّته مشهورة .

ويروَى أنّه عاش مائة سنة ، وتوفِّى بمصرْ ، ودفن فى نهر الفيُّوم الذى أحكم صنعته البديعة .

ومن كلامه ، قيل له : ماصنِــع بك إخوتك ؟ فقال : لاتسألونى عن صنيع ربّى . ودعا لأهل السّجْن فقال : اللهمّ أعْطِف عليهم الأخيار ، ولا تُخْفِ عنهم الأخبار . فيقال : إنهم أعرف النّاس بما يتجدّد من الأخبار فى البلدان .

* * *

---

(١) سورة الصافات ٦٥ .

١٨ – وأنّ امرأةَ العزيزِ رأتْك فسلَتْ عنه .

[زَليخا امرأة العزيز]

امرأة العزيز زَليخا المشغوفة بحبّ يوسف ، صار الحبّ شَغافاً لقلبها ، والشَّغاف جِلْدة رقيقة تحيط بالقلب ، وقرئ : ﴿ شَعفَها ﴾[1] بالعين ، والشِّعاف أعالى الجبال ، كأنّ الحبّ بلغ أعلَى قلبها ، وما كانت لتسْلُوَ مع ذلك الحبّ إلاّ بأضعاف ذلك الحسن .

ومن كلامها حين دخلت على يوسف بعد أن ملك مصر ، واحتاجت إليه : سبحان مَنْ جعل العبيد ملوكا بالطاعة ، وجعل الملوك عبيداً بالمعصية !

* * *

١٩ – وأنّ قارون أصاب بعضَ ما كَنَزْتَ .

[قارون]

قارون هو المذكور فى الكتاب العزيز ، قال بعض المفسّرين : اختُلف فى نسبه ، فقيل: كان ابنَ عمّ موسى عليه السلام؛ لأنّ موسى: ابنُ عمران بن قاهث، وقارون: ابنُ يصهر بن قاهث. وقيل : كان ابن خالته ؛ وهو أوّل مَن ضُرِب به المثل فى كثرة المال .

وفى قوله تعالى : ﴿ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾[2] دليل على إيمانه وقرابته ، وكان من أحسن النّاس وجها وقراءة للتّوراة ، وسمِّىَ المنوَّر لحسنه .

وقيل : إنه كان من السبعين المختارة ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ

---

(١) سورة يوسف ٣٠ ، وهى قراءة الحسن . تفسير القرطبى ٩ : ١٧٧ .
(٢) سورة القصص ٦٣ .

الْـكُنُوزِ ﴾ ، الـكنز يطلَق على ما جُمع من المـال سواء كان فى باطن الأرض أو ظاهرها ؛ ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ ، أى تنوء بها العصبة ؛ تتـكلف بها النهوض ، وهذا من القلب المستعمل فى كلام العرب ، مثل : دخل الرأسَ الظلّ ، وعرضت الدّابةَ على الحوض . واختُلف فى المفاتح ، فقيل : مفاتح أبواب الخزائن ، وكانت وِقْرستين بغلا ، وهو قول واهن(١) . وقيل : المفاتح الخزائن نفسها ، وقد يسمّى الشىء بما لابسه . وقيل : المفاتح العلْم والإحاطة كقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾(٢) ، يعنون أنه أوتِىَ من الـكنوز ما إنّ حفظه والاطلاع عليه ليثقل على العصبة . ﴿ أُولِى الْقُوَّةِ ﴾ ، أى يعجزون عن حسابها وحفظها لـكثرة صنوفها . ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى ﴾ ، أى على خيرٍ وصلاح علِمَه الله منّى . وقيل : على علم بالمـكاسب والتجارات . وقيل : على علم بالـكيمياء . وكان الزّجاج يقول : هذا قول لا أصل له ؛ فإن الـكيمياء باطلة ولا حقيقة لهـا . ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ﴾ ، قيل : خَرَج راكباً بغلة شهباء بسَرْج من ذهب ، ومعه سبعمائة وصيفة على بغال شُهب ، عليهنّ الحُلِىّ والحُلَل والزّينة ؛ فـكاد يفتِن بنى إسرائيل ، ثم بغَى وتـكبّر حتى أهلـكه الله .

واختُلِف فى سبب بغيه وهلاكه ؛ فقيل : إنّه كان قد حسد هارون على الحُبورة ؛ وذلك أنّ موسى عليه السلام لمـا قطع البحر ، وأغرق الله فِرْعون ، جعل الحُبورة لهارونَ عليه السلام ، فحصلت له النبوّة والحُبورة ، وهو القُرْبان يأتى بنو إسرائيل بهداياهم إلى هارون فيضعها فى المذبح ، فتنزل نار فتأكلها . وكان لموسى الرسالة ، فوجَد قارون من ذلك فى نفسه ، وقال : ياموسى ، لك

---

(١) ط ، م : « واه » .
(٢) سورة الأنعام ٥٩ .

الرسالة ولهارون الحبورة ولستُ في شيء ! لا أصبر على هـذا ، فقال موسى : والله ماصنعتُ ذلك لهارون ، بل جعله الله له . فقال : والله لا أُصدّقك أبدا حتى تأتيني بآية ، فأمر موسى رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كلّ رجل منهم بعصاه ، فجاءوا بها ، فألقاها موسى عليه السلام في قُبّة له ، وكان ذلك بأمر الله تعالى ، ودعا موسى أن يريهم الله بيان ذلك ، فباتوا يحرُسون عصيّهم ، فأصبحت عصا هارون تهتزّ ، لها ورق أخضر ــ وكانت من شجر اللَّوز ــ فقال موسى: ياقارون ، أما ترى صنع الله تعالى لهارون ! فقال : والله ماهذا بأعجب مما تصنع من السّحر. ثم اعتزل بمَنْ معه من بني إسرائيل . وكان كثير المال والتّبع ، فدعا عليه موسى .

وقيل : إنّه لما نزلت آية الزكاة على موسى ، جاء موسى إليه وصالَحه على كلّ ألف دينار بدينار ، وألفِ شاة بشاة ، وعلى هذا الأسلوب ، فحسب ذلك فوجده مالاً عظيما ، فجمع قومَه من بني إسرائيل ، وقال : إنّ موسى يأمركم بكلّ شيء فتطيعونه ، وهو الآن يريد أخذ أموالكم ، فقالوا : أنت كبيرُنا ، فمُرْنا بما شئت ، فقال : عليّ بفلانة البغيّ ؛ فأعطاها مائة دينار ، وأمرها بأن تقذِف موسى بنفسها ، وجاء إلى موسى وقال : إنّ قومك قد اجتمعوا لتأمُرَهم وتنهاهم ، فخرج ، فقام فيهم خطيباً ، فقال : يابني إسرائيل ، مَنْ سرق قطعناه ، ومن زنى جلدناه ؛ فإن كانت له امرأة رجمناه . فصاح به قارون : وإن كُنتَ أنت ! فقال: نعم ،قال: فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنك فَجرت بفلانة البغيّ ! فقال : عليّ بها ، فجاءت وقال لها موسى : يافلانة ، أنا فعلت ما يقول هذا ؟ فقالت : لا والله يانبيّ الله ؛ وإنما جعل لي جُعْلاً حتى أقذفك بنفسي ؛ فسجد موسى يبكي ويتضرّع ، فأوحى الله إليه : مُر الأرض بما تشتهيه ، فقال : يا أرض،خذيه ــ يعني قارون ــ فأخذَتْه حتى غيّبتْ بعضه ، ثم لم يزل يقول : خذيه وهو يغيب حتى لم يبق من جسده إلاّ القليل؛ وهو يتضرّع إلى موسى و يسأله وهو يقول:خذيه، إلى أن غاب.

قال ابن الجوزىّ: وهو يناشده «الرَّحِمَ» فما رَحِمَ، فأوحى الله إلى موسى : ما أقطعك ، وعزتى لو استغاث بى لأغثته .

قيل : ولما خُسِف به ، قال بعض الجهّال من بنى إسرائيل : إنّما قصد موسى أخذَ داره وكانت مبنيّة بالذهب والفضّة ، فسأل الله فخسف بداره .

وقيل : أراد بداره منزله ، والعرب تسمِّى المنزل داراً ، هذا قول من زعم أنهم كانوا فى التِّيهِ إذ ليس ثَمَّ دُور . والقول الآخر قول مَنْ زعم أن الواقعة كانت بمصر .

* * *

٢٠ — والنَّطِف عَثَر على فَضْل ما رَكَزْتَ .

الفضل ها هنا : بقيّة الشىء .

والرِّكزة والرِّكاز : دفينُ مال الجاهلية . وفى الحديث: «فى الرِّكاز الخُمس» .

* * *

[النَّطِف]

والنَّطِف: رجلٌ من العرب أصابَ مالاً فضُرِب به المثل. واختلفَتِ الأقوال فيه ، فبعضُ من لا يعرف حقيقة أمره يقول : هو رجل كان يسقى الماء على ظهره ، فكان ينطُف — أى يقطر — فسمِّى النَّطِف ، ووجد خبيئة من المال ، فعظُم حاله واستغنى بعد فقره . وبعضهم يقول : النَّطِف الرَّجُل المتّهم ، كان الفقير يجدُ المال الكثير فيقصد إخفاءه فيتّهم ويظهر عليه . والصّحيح ما ذكره البلاذُرِىّ ؛ أنه النَّطِف بن خَيْبرىّ [1] بن حنظلة اليَرْبوعىّ ؛ كان مقيما بالبادية مع بنى تميم ، وكان

(١) ط : « جبير » تصحيف .

باذام عاملَ كِسْرى على اليمن يحمل ثياباً من ثياب اليمن وذهبا ومِسْكاً وجوهراً ، ويرسلُه إلى كسرى مع خُفَراء من بنى الجَعْد المرّارين إلى أن يصل إلى أرض بنى تميم ، فيبعث معها هَوْذة من يجاوزها أرض بنى تميم ، فلما كان فى بعض السِّنين فى أرض بنى حنظلة تعرَّض لها بنو يربوع ، فأغاروا عليها ، وقتلوا مَنْ بها من العرب والأساورة[1] ، وكان فيمن فعل ذلك ناجِيَة بن عقال ، والحارث بن عُقبة ، والنَّطِف بن خيبرىّ ، وكانوا فرسانَ بنى تميم ، فنهبوا الأموال ، فحصل النَّطِف على شىء كثير ، من جملته خُرْجان مملوءان مناطق ذهباً محلاّةً بالجواهر النفيسة ، فباعها متفرّقة ، وضُرِب المثل بما أصابه .

وقيل: إنّه فرّق على الفقراء من عشيرته منذ طلعت الشمس إلى أن غابت ، وفى ذلك يقول بعض ولده :

أبِى النَّطِفُ المبارِى الشمسَ ، إنّى عريقٌ فى السَّماحة والمعالى

ومات النَّطِف حَتْفَ أنفه بعد أن جَرَتْ بين العرب والفرس بسببه حروبٌ عظيمة .

* * *

٢١ – وكِسْرَى حَمَلَ غاشِيَتكَ .

وكسرى[2] لملوك الفرس ، وقيصر للرّوم ، وخاقان للترك ، وتُبّع لحمير ، والنَّجَاشِىّ للحبشة .

واختلف فى نسب الفُرس على أقوال ؛ أحدها أنه فارس بن سام بن نوح ، وقيل : فارس بن أفريذون بن إسحاق عليه السلام .

---

(١) فى ط : « والفرس » .

(٢) ط : « اسم لملوك الفرس » ؛ وما أثبته من ت ، م .

وكان فى العرب مَنْ يفتخر بفارسَ على قَحْطان ، والفُرس تقول[١] : إنه ابن كُيُومَرث ، وكُيُومرث عندهم آدم عليه السلام . وإنَّه أوَّلُ مَنْ مَلَكَ الفرس؛ وكان منفرداً عن العالم ، وليس فى زمانه ظلم ولا فساد ، فكثُر البغىُ والظّلم ، فاجتمع إليه حكماء أهلِ زمانه وقالوا : إنَّ صلاحَ هذا العالم فى إقامة مَلِكٍ يُورِد الأمورَ ويُصْدِرها ، كما أنّ صلاحَ الجسد بالقلب ، وأن العالَم الصغير من جنس العالم الكبير ؛ لا تستقيم أموره إلاّ برئيس يُدَبِّره على ما تقتضيه قضايا العقول، فصاروا إلى ابن كيومَرث[٢] ، فقالوا : أنت أفضلُنا ، وبقيّة أبينا آدم عليه السلام؛ ولا بدّ من تقديمك علينا وتفويض أمورنا إليك . فأخذَ عليهم العهودَ والمواثيق على السَّمع والطاعة ، ووضع التاج على رأسه تمييزاً له . وهو أوّلُ من لبسه ، ثم خطب بالسّريانيّة وهو لسان آدم عليه السلام ، ويقال : لو تركَ كلّ أحد من بنى آدم لتكلّم بالسريانية بالطبع ، فتكلّم بكلامٍ معناه الشكر والدعاء ، والمعونة والهداية ؛ وأقام مدّةً طويلة يدبّر الملك . وتوفّىَ وملك بعده أُوشَهَنج ؛ وملوكُ الفرس تُنسب إليه .

وللفُرس مبالغاتٌ عظيمة فى وصف كيومرث ، ومنهم من يزعم أنه آدم نفسُه ، وأنه خلق من الرِّيباس وعاش ألف سنة .

وكِسرى ، يقال بفتح الكاف وكسرها ، وجمع جمعين على قياس الأكاسرة ، والكُسور ؛ وذلك أن حدّ «الأفاعلة» أن يكون جمع «الأفعال» ، مثل إسكاف وأساكفة ؛ وأما الكسور فإنه جَمع بتقدير طرح الألف مثل : جِذْع ، وجُذوع .

قال الأعشى :

* إنه كائن أباً للكسورِ[٣] *

* * *

---

(١) ط : « يقولون »

(٢) ط : « فارس بن كيومرث »

(٣) هو أعشى قيس ، ملحق ديوانه ٢٤٥ .

[كسرى أنوشروان]

والمراد ها هنا كسرى أَنُوشروان ، فإنَّه أشهرُ ملوك الفرس وأحسنهم سيرةً وأخباراً ، وهو كسرى أَنُوشروان بن قُباذ بن فَيْروز . وفى أيّامه وِلِدَ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : « ولدتُ فى زمنِ الملك العادل » - يعنى كسرى .

وكان ملكا جليلاً محبَّبا للرعايا ، تامّ التدبير ، فتح الأمصار العظيمة فى الشَّرْق ، وأطاعتْه المُلوك . وتزوّج ابنةَ خاقان ملِك التُّرك .

وقتل مَزْدَك وأصحابه ؛ وذلك أنَّ أباه قُباذ كان قد بايع رجلاً زنديقاً يسمَّى مَزْدَك ، أحدث مقالات فى إباحة الفُروج والأموال وقال : إنَّما النَّاس فيها سواء . وكان لا يسفك ، ولا يأكل اللحم . وإنه دخل يوماً على قُباذ وعنده زوجته أمّ كسرى — وكانت من أحسن النساء ، وعليها حلىّ عظيمة - فأعجبتْه فقال لقباذ : إنّى أريدُ أنْ أنكِحَها لأنّ فى صُلْبِى نبيًّا يكون منها ، فأطاعه قُباذ لقوله بمقالته ، فلما همّ مزدك بها — وكان كسرى صغيرا — قبّل قدميه ، وتضرّع له فى ألاّ يفعل ، فوهبها له ، فأوّل ما ولّى كسرى بعد موت أبيه قتل مَزْدَك وأصحابه ، فعظُم فى عَيْن الفُرْس وأحبّوه .

وسلك سيرة أردشير ، وتوطَّدت مملكته ، و بنى المبانَى المشهورة :

منها السُّور العظيم [١] على جبل الفتح عند باب الأبواب ، وأقام الحَرَسَ ، وحَسَم المادّة من فساد مَنْ خَلَفه .

ومنها المدِينة الّتِى سمّاها باسم روميَة .

ومنها الإيوان العظيم الباقى الذّكْر ، وليس هو المبتدئ لبنيانه ، وإنّما

---

(١) ط : «العظيم الباقى الذكر » .

المبتدئ به سابور ، وهو الذى رفعه وأتمّه وأتقنه حتى صار من عجائب الدنيا ، وكان انشقاقُه من المعجزات النبوية [والخصائص المحمّدية][1] ، يروى أنّ الرشيدَ هارون أراد هدمَه ، فاستشار يحيى بن خالد البرمكىّ ، فنهاه ، وقال : فى بقائه معجزة باقية . فقال الرشيد : بل أبيتَ إلاّ تعصُّباً لآبائك ـ يعنى الفرس ـ فأمر بهدمه ، فصَرَف[2] على هدم شُرْفة واحدة مالاً كثيراً ، فكفّ عنه . فقال يحيى : أرى الآن أن تهدمه لئلا يُتَحدَّث عنك أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك ، فتغافل عن قوله وتركه .

وحُكِىَ عن بعض رسُل الملوك أنّه دخل على كسرى ، فرأى فى الإيوان أعوجاجاً ، فسأل عنه ، فقيل له : إنّه بيتٌ لعجوزٍ فقيرة ، سألها الملك بيعه فامتنعتْ ، فأرغبها فى مال كثير فلم تفعل ، فتركها و بنى الإيوان على ماهو عليه . فقال الرسول : هذا الاعوجاج أحسن من الاستواء .

ويروى أنّ العجوز بعد بناء الإيوان نزلت للملك عن البيت ، وقالت : إنّما أردتُ بامتناعى أولا أن يتحدّث الناس بعَدْلك ، وتكون لك هذه المأثرة الظاهرة . ثم صنع كسرى فى الإيوان سلسلةً عظيمة ذات أجراس ، وجعل لها طرفاً خارجاً عن القبّة ، وأمر مناديَه : مَنْ كان مظلوماً فليحرّك السلسلة ؛ ليعلم به الملك فيزيل ظلامته . قال العسكرىّ : وهذا هو الأصل فى قول الناس : حرّك فلانٌ على فلان السلسلة ؛ إذا وَشَى به .

وحُكِى أنه كان جالساً بالإيوان، و إذا بحيّة قد دنت من عُشِّ حمامة فى بعض شَرَف[3] الإيوان لتأكل فراخها، فرمى الحيَّة بسهم أو ببندقة فقتلها،فقال: هكذا نفعل بعدوٍّ مَن استجار بنا . فلما كان بعد أيام جاءت الحمامة بحبٍّ فى منقارها

---

(١) م ط .
(٢) كذا فى ط ، وفى ت ، م : « نخرج » .
(٣) ط : « شقوق » .

فألقته إليه ، فأخذه ، وقال : ازرعوه ، فزرعوه ، فنبت رَيحاناً لم يكن يعرفه،[١] فقال : نِعْمَ ما كافأتْنا به الحمامة ، نسأل الله الذى ألهمها أن يلهمنا الإحسان إلى رعيّته ، والشّكر على نِعمه .

وخُصّ كسرى بأشياء لم تكن لغيره من الملوك على ماذكره كثير من الرُّواة ، منها الفيل الأبيض لركوبه ، طوله اثنا عشر ذراعا ، وقِطعة الياقوت المسمّاة « لسان الثور » تضىء بالليل أكثر من السّراج [٢] والفلهبد المغنّى واضع العود الخراسانى على اثنى عشر وترا كلّ من ضرب به خرّج الهواء . وكان يُعمل له كل يوم مع طعامه مُهر من الخيل ، وعَناق زرقاء مغذّاة بألبان النعاج ، يُذبَحان بسكّين من الذهب ، ويسجر التّنور بالعود ، ويسَمّط بالخمر المغلىّ ، ويُطْلَى بالمِسك والملح ، ويعلّق فى سفّود من ذهب ، ونارجين من ذهب ، فإذا برد حُمِل فوضع على خوان من ذهب ، فيقدم إليه فيأكل أكثره ، ويتحف بالبقيّة من أحب من ندمائه ، ويكسر التنور ويجدّد كلّ يوم مثله .

واجتمع على بابه سبعون مِلكا . وله حكايات حسنة مذكورة فى سيره :

فمنها أنّ عاملا له على ناحية كتب إليه يعلمه بجودة الربيع ، ويستأذنه فى الزيادة على الرّسم ، فأمسك عن إجابته ، فعاوده العامل فى ذلك ، فكتب إليه : قد كان فى تركى إجابتك عن كتابك ماحسبتك تنزجر به عن تكلّف مالم تؤمَر به ، فإذْ قد أبيت إلا تمادياً فى سوء الأدب ، فاقطع إحدى أذنيْك ، واكفف عمّا ليس من شأنك . فقطع العامل أذنه ، وسكت عن ذلك الأمر .

ومنها أنَّ رجلا على عهده كان يقول: مَنْ يشترى ثلاث كلمات بألف دينار ؟ فتطيّر منه الناس ، إلى أن وصل إلى كسرى ، فأحضره وسأله عنها ، فقال : ليس

---

(١) ط : « يعرفونه » .
(٢) ت : « السروج » .

فى النّاس كلّهم خير . فقال كسرى : هذا صحيح ، ثم ماذا ؟ قال : ولا بدّ منهم ، قال : صدقت ، ثم ماذا ؟ قال : فالبَسهم على قدر ذلك ، فقال كسرى : قد استوجبتَ المال فخذه . قال : لاحاجة لى به ، و إنما أردت أن أدرى من يشترى الحكمة بالمال .

و يروى أنه أوّل من جعل لندمائه أمارة ينصرفون بها من مجلسه إذا أراد [انصرافهم][١] ، وذلك أنه كان يمدّ رجله، فيعرفون أنه يريد قيامهم فينصرفون، وتبعه الملوك . وكان فيروز الأصغر كذلك يَدلُك عينه ، وكان بهرام يرفع رأسه إلى السماء . وكان فى الإسلام معاوية يقول : العزة لله ، وعبد الملك [بن مروان][١] يلقى المِخصرة من يده ، وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يدعو . وحُدّث بهذا الحديث عند بعض البخلاء ، وسئل ما أمارته ؟ قال : إذا قلت : ياغلام ، هاتِ الطعام .

ومن كلام كسرى : القلوب تحتاج إلى أقواتها من الحكمة كما تحتاج الأبدان إلى أقواتها من الغذاء .

ووقّع فى قصة رافع[٢] : إن الملوك إذا دبّرت ملكها بمال رعيّتها كانت بمنزلة من يعمر سطح بيته بما ينقضه من أساسه .

وكتب باللؤلؤ على مائدة من الذهب: ليهنِئْه طعامُ مَنْ أكله من حِلّه، وعاد على ذوي الحاجات من فضله . ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته ، وما أكلتَه وأنتَ لا تشتهيه فقد أكلك .

وقيل له : ما أعظم الكنوز قدراً ، وأنفعها عند الحاجة إليه ؟ فقال : معروف أودعتَه عند الأحرار ، وعِلْمٌ أورثته الأعقاب .

وقال : احذروا صولة الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شبع .

---

(١) من ط .　　(٢) د : « مرافع » .

٢٢ — وقَيْصرَ رَعَى ماشيتَكَ :

قيصر : سِمةٌ لملوك [الروم][(١)] ، وسمّوا الروم لأنهم يُنسبون[(٢)] إلى روم بن العيص بن إسحاق عليه السلام ، وقيل : إنّهم ينسَبون[(٣)] إلى روميَة ، والأوّل أصحّ ؛ لأن روميَة بنِيت بعد ظهوره بكثير ؛ وكان يقال لها. روماس؛ فلما سكنوها نسبت إليهم .

وقال ابن الكلبيّ : وَلَد إسحاقُ ثلاثين ولدا منهم الروم ؛ وكان أصفر اللّوْن ؛ فقيل لولده : بنو الأصفر .

وقيل : غارت عليهم الحبشة ، فولد لهم بنات أخذن من بياض الرّوم وسواد الحبشة ؛ فكنّ صُفراً لُعْسًا ؛ فنسِبوا إليهنّ .

* * *

[قيصر بن أنطرطس]

وأوّل مَنْ سُمِّيَ منهم قيصرٌ ، قيصر بن أنطرطس[(٤)] ؛ واسمه قيسر ؛ لأن أمّه كانت حاملا به ؛ فتعسّرت ولادتها ، فشقّ بطنها ، وأخرج ـ فكان يفتخر[(٥)] على الناس بأن النّساء[(٦)] لم تلده ـ وقيل : « قيصر » ؛ فصار اللقب سِمَة ملوك الروم بعده .

وكان جبّاراً عاتيا ، وهو أول من جمع مملكة الروم واليونان ؛ وذلك أن

---

(١) تكملة من د ، م .
(٢) م : « ينتسبون » .
(٣) م : منسوبون » .
(٤) م : « أنطوطنس » .
(٥) م : « يتبختر » ، والوجه ما أثبته من ت .
(٦) م : « إنسا » .

أباه أنطرطس لمّا بلغه أنّ ملوك اليونان قد انقرضوا ولم يبق غير امرأة تسمى قلو بطرة أرسل إليها يخطبها ــ وكان قد ملك طرفاً من أطراف البلاد ــ يقول : قصدِى أن تصير المملكتان واحدة ، وأقرُب منك لفضلك وعقلك ؛ فعلمتْ أنها مغلوبة ، فأجابته وقالت : تقيم فى مكانك إلى يوم بعينه ، فأقام . وأفكرت فى حيلة تحتال بها عليه ، فرأت أن تهلك نفسها ، وتهلكه فيها ، ولا يتمكّن منها ، فعمَدت إلى حيّة تسكون فى الرمل ، تضرب الإنسان فيهلِك فى لحظة ؛ فجعلتْها فى إناء من زجاج ، وزيّنت قصرها ، وفرشت مجلسها بالرّياحين ؛ ولبِست تاجها،وجلست على سريرها ، واستدعَتْ به ، فلمّا دخل باب القصر ، أخرجت الحية ، فضربتها فماتَتْ ، وانسابت الحية فى رياحينَ حولها ، ودخل أنطرطس إلى السّرير ؛ ولم يشكّ أنها فى عافية ، فجلس إلى جانبها ، وعَبَث فى الرّياحين ، فضربته الحيّة فمات . وكان ابنه معه فى جيشه ، فسمع بموتهما ، فاستولَى على بلاد الروم واليونان .

وهو الّذى بنى قَيْسارّية الروم ــ وقيل قَيْسارّية الشام ــ وأقام فى الملك خمسين سنة .

ومن طريف(١) أخباره أنه كان إذا أراد أن يستشير أحداً من عقلاء دولته أرسل إليه نفقةَ سنة ؛ ليوفّر ذهنه على الرأى .

ومن بعده اختلفت الرّوم ، فتقاسموا البُلدانَ والأطراف إلى ظهور الإسلام . وقيصر هذا أعظم ملوكهم .

ومن كلامه : ماالحيلةُ فيما أعْيا إلاّ الكفّ عنه ، ولا الرأى فيما لا يُنال إلاّ اليأس منه .

---

(١) ط : « ظريف » .

٢٣ — والإِسكندرَ قتلَ دارَا فِي طاعتِك .

هو الإسكندر بن فيلبس اليونانيّ[١] ، واختلف فى أصل اليونان ، فقال ابن الكلبيّ : هو يونان بن بقيّة ، ونسبه إلى إسحاق .

وقال يعقوب الكنديّ : يونان أخو قحطان ، من العرب من ولد عابر ، خرج من اليمَن ونزل ديار المغرب ، وأقام فيها ، واستعجم لسانه ، وتكلّم بلغة مَن هناك من الروم .

وقال الرّقاشي ـ وهو الأشهر : إنّ يونان بن يافث بن نوح ، وليس من العرب ولا من الروم ، وإنّما جاور الرّوم على ساحلِ البحر الروميّ ، وكان وسيماً حسن العقل ، كبير الهمّة ، فأقام هناك حتى كثر ولده ؛ فخرج يطلب مكانا يسكنه ، فانتهى إلى مدينة بالمغرب يقال لها : إقلييّة[٢] ، فبنى بها قصوراً ، وأقام وكثر نسلُه ، ولما احتُضِر أوصى إلى ولده الأكبر وصيّة حسنة ، ثم مات فاستولَى ولده الأكبر على بلاد المغرب من ناحية إفرنجة والصّقالبة ومن جاورهم ، ولما ظهر[٣] بختنصّر على مصرَ دخل المغرب ، ووصل إلى بلاد اليونان وقرّر عليهم أن يؤدّوا الخراج إلى ملوك فارس ، واستقرّ ذلك إلى أيام الإسكندر .

* * *

[الإسكندر بن فيلبس]

وأمّا الإسكندر فاختلف فى نسبه ، فقيل : إنه الإسكندر بن فيلبس ، من ولد يونان ، وهو الأصحّ .

---

(١) م : « فيليفوس » .
(٢) إقلييية ، ذكرها ياقوت ، وقال : إنها حصن منيع بإفريقية .
(٣) م : « ولما دخل » .

وقيل : هو الإسكندر بن الصّعب ، كان أبوه نسّاجا ، واسم أمّه هيلانةً ، وكان يتيما فى حِمْيَرَ ، وسمعت أمُّه ببيت الصّنائع ـ وهو بيت وضعته اليونان فى القسطنطينيّة ـ وصوّرت فيه الصنائع لتعرض على الصبيان ، فمن تاقت نفسه لصنعة اشتغل بها ـ فحملته أمّه فشاهد صور الأشياء ، فوضع يده على تاج الملك ـ فنهته أمّه مراراً فلم ينتهِ ؛ فنظر اليها متولّى بيت الصنائع، وقال : أنتِ هيلانة ؟ قالت : نعم قال : وهذا ابنك ؟ قالت : نعم ، فقال له : أبشِر فأنت الملك الذى يسحب ذيله فى البلاد .

وهذا قول مردود ؛ لبُعد ما بين حميرَ واليونان ؛ ولأنّ القسطنطينيّة بنِيت بعد رفع عيسى عليه السلام بزمان ، وإنّما انقرضت دولة اليونان عند ظهور عيسى .

والصّحيح أنه الإسكندر بن فيلبس(١) ، وسمّى ذا القرنين تشبيهاً بذى القرنين المذكور فى الكتاب العزيز ؛ لبلوغ ملكه قرنَىِ الشمس من المشرق والمغرب ، وهو صاحب أرسطاطاليس الحكيم ، كان أبوه أسلمه إليه ، فأقام عنده خمس سنين يتعلّم منه الحكمة والآداب ، فنال منه ما لم ينلْ أحد من تلامذته ، ومرض أبوه ، فخاف على المُلْك فاستردّه وعهد إليه .

* * *

[دارا الأصغر بن دارا الأكبر]

وأمّا دارَا فهو دارا الأصغر بن دارا الأكبر بن أرْدشير ، أحد ملوك الفُرْس العظماء المشهورين، كانت له قطيعة على أبى الإسكندر؛ فى كلّ سنة ألف بَيْضة من الذهب، فى كلّ بيضة ألف مثقال ، على عادة آبائهم ، فلمّا ملك الإسكندر أخّر إرسالَ

---

(١) م : « فيلوفوس » .

القطيعة ، فكتب إليه دارا يتهدّده و يتوعّده حيث أخر الإتاوة ، و بعث إليه بكُرةٍ وصَوْلجان، وخِرْقة فيها سمسم ، وقال : أنت صبيّ ، فالعب بهذه الكرة ، فإن أدّيتَ الإتاوة و إلاّ بعثت إليك بجنود عدد هذا السّمسم ، وأتيت بك فى وَثاق .

فكتب إليه الإسكندر : أمّا بعد ، فقد تيمّنت بالكرة والصولجان ، فإنّ الدنيا مثل الكُرة وسألعب بها ، وأضيف ملكك إلى ملكى . وأمّا السمسم فقد تيمّنت أيضاً به ، لأنّه بعيد عن الحرافة[1] والمرارة . وأمّا الدّجاجة التى كانت تبيض ذاك البَيْض فقد ذبحتها ، وأكلت لحمها .

فغضب دارا ، وسار إليه بجموعه ، وسار الإسكندر بجموعه ، والتقيا على نَصيبين الجزيرة ، فلمّا همّ دارا بالقتال بعث إليه الإسكند يقول له : أيّها الملك ، لا تفعل ؛ فإنّ دماء الملوك لا تجوز إراقتها ، وهَدْم البيوت القديمة غير محمود ، والبغى ذميم العقبى ، والحرب غير مأمونة العاقبة ، وأصحابك قد ملُّوك وكرهوك لسوء سيرتك ، فارجع فإنّك تحمَد قولى .

فلم يلتفت إليه دارا ، وأقاما يتحاربان مدّة . ثم إنّ الإسكندر دبّر حيلةً ، وهو أنّه لما وقع المَلَل بين الفريقين برز منادى الإسكندر فقال : يا معشَر الفرس ، قد علمتم ما كان من مكاتبتكم لنا ، وما كتبنا لكم[2] من الأمان ؛ وقد طال القتال ؛ فمن كان منكم على غير[3] قِتالٍ فليعتزل ، وله الوفاء بالعهد .

فاتّهمت الفرس بعضها بعضا واضطربوا ، فكان ذلك من أسباب خِذلان دارا . ثم وَثب على دارا رجلان من أصحابه فطعناه من خلفه فوقع ، وكان الإسكندر نادى : مَنْ ظفر بدارا فلا يقتله ، فجاء الرّجلان إلى الإسكندر ، فقالا : قد قتِل

---

(١) الحرافة ، بفتح الحاء : طعم يحرق اللسان والفم .
(٢) ت : « ومكاتبتنا لكم » .
(٣) د : « على العهد » .

دارا ، فجاء فنزل عن فرسه وقعد عند رأسه و به رَمَق ، فقال : والله ما هممت بقتلك ، ولقد نَهيتُ عنه ، ولقد يعزّ علىّ مصابُك فاسألنِى حوائجك . فقال : تقتل فلانا وفلانا اللّذَيْن قتلانى ؛ فإنى كنت محسنا لهما ، وتتزوج ابنتى روشنك. فقال : سمعا وطاعة ، وأحضر الرّجلين فقتلهما ، وقال : هذا جزاء مَنْ يتجرّأ على ملكه ؛ وتفرّق ملك فارس .

ثم سار الإسكندر إلى بابل وجلس على سرير دارا ، واستولى على خزائنه وجواهره وسلاحه ، وتزوّج ابنته روشنك . وقيل : إنها كانت زوجة دارا وهى ابنته ، ولم يكن فى زمانها أحسن منها . وقيل : إنّ الإسكند لم يجتمع بها ، وقال : أخشى أن أكون غلبت دارا وفتغلبني روشنك .

ولمّا استولى على ملك فارس عرض جيشه وجيش الفرس فكانوا ألف ألف ـ وقيل أكثر ـ وشرع فى هدم بيوت النّيران ، وقتل الموابذة ، وكتب إلى أرسطاطاليس يستشيره فيمن بقى من عظماء الفرس بهذا الكتاب :

أمّا بعد ، فإنّ دوائر الأسباب ، ومواقع الفلك ؛ وإن كانت أسعدتنا بالأمور التى أصبح لنابها النّاسُ دائنين ، فإنا مضطرون إلى حكمتك ، وغير جاحدين لفضلك ، والاجتباء[1] لرأيك ؛ لما بلونا من جَدَا ذلك علينا ، وذقْنا من جَنى منفعته؛ حتى صار ذلك بتجرّعه فينا[2] ، وترشيحه لعقولنا كالغِذاء لنا ؛ فما ننفكّ نعوّل عليه ، ونستمدّ منه استمداد الجداول من البحار ، وقوّة الأشكال بالأشكال ، وقد كان مما سبق إلينا من النّصر وبلغناه من النكّاية فى العدوّ ما يعجز القول عن وصفه ، والشكر على الإنعام به ؛ وكان من ذلك أنا جاوزنا أرض الجزيرة و بابل إلى أرض فارس ، فلما نزلنا بأهلها لم يكن إلا ريثما تلقّانا نفَران منهم بقتل ملكهم طلبا للحظوة عندنا ، فأمرنا بصلبهما لتجرّؤهما وقلّة

---

(١) م : « الاجتناء » ، د : « الاحتباء » . والاجتباء : الاختيار .

(٢) بتجرعه فينا ، يريد استساغتهم هذا الأمر ورضاهم عنه.

وفائهما ، ثم أمرنا بجمع مَن هنالك من أبناء ملوكهم ، وذوى الشرف منهم . فرأينا رجالا عظيمة أجسامهم وأحلامهم،دلّناما ظهر من رُوائهم[(١)] على أن وراءه من قوّة بأسهم ما لم يكن معه[(٢)] سبيل إلى غَلبتهم ؛ لولا أن القضاء أدالنا منهم[(٣)] . ولم نر بعيداً من الرأى أن نستأصل شأفتهم ، ونلحقهم بمن مضى من أسلافهم ؛ لتسكن بذلك القلوب إلى الأمن من جرائرهم ؛ ورأينا ألاّ نعجّل ببادرة الرأى فى قتلهم دون الاستظهار بمشورتك فيهم ؛ فارفع إلينا رأيك فيما استشرناك ، بعد صحته عندك ، وتقلبيه على نظرك ؛ على عادة آرائك المسعِفة . وسلام على أهل السلام ؛ فليكن عليك وعلينا .

فكتب إليه أرسطاطاليس :

إلى الإسكندر المؤيّد المهدىّ له الظفر من أصغر خَوَلِه أرسطاطاليس . أما بعد ، فقد تقرّر عندى من مقدّمات[(٤)] فضل الملك ويُمْن نقيبته ، وبُروز شأوه، وما أدتْ إلىّ حاسَّةُ بصرى مِنْ صورة شخصه، ووقع فى فكرى على تعقب رأيه ، أيام كنت أؤدى إليه من تعليمى إياه ما أصبحت قاضيا على نفسى بالحاجة إلى تعلّمه منه . وقد ورد كتاب الملك بما رَسَم لى فيه ، وأنا فيما أشير به على الملك حدّ الطاقة معه كالعَدَم مع الوجود ؛ ولكن غير ممتنع من إجابته ، فأقول :

إن لكلّ تربة لامحالةَ قسما من كل فضيلة ، وإن لفارس قسمتها من النّجدة والقوّة ، وإنّك إن تقتل أشرافهم يخلُف الوضعاء منهم ، وترث سِفْلتهم منازلَ عِلْيتهم ، وتغلب أدنياؤهم على مراتب ذوى أخطارهم ؛ ولم تبتَل الملوك قطّ ببلاء هو أعظم عليهم من غلبة السِّفْلة ، وذلّ الوجوه ؛ واحذر الحذر كلّه أن تمكّن تلك الطبقة من العِلْية ؛ فإنْ نجَم منهم ناجم على جندك وأهل بلادك دَهَمهم

(١) د : « يدل » ؛ والرواء : المنظر الحسن .
(٢) ت : « معهم » ، والأصوب ما أثبته من د ، م .
(٣) أدالنا منهم ؛ أى جعل دولتنا عليهم .
(٤) ت: « تقدمات » .

ما لا روِيّة فيه ، ولا منفعة معه . فانصرفْ عن هذا الرأى إلى غيره ، واعمِد إلى من قِبَلك من العظماء والأحرار فوزِّع بينهم مملكتهم ، وألزِم اسم الملك كلّ من وليّته منهم ناحية ، واعقِد التّاج على رأسه وإن صغُر ملكه ؛ فإنّ المتسمّى بالملك لازم لاسمه ، والمنعَقد له بالتاج لا يخضع لغيره ، ولا يلبث ذلك أن يوقع بين كلّ ملك منهم وبين صاحبه تدابراً وتغالباً على الملك ، وتفاخراً بالمال ؛ حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك ، ويعود بذلك حربهم لك حرباً بينهم ، ثم لايزدادوا فى ذلك بصيرة إلا أحدثوها لَك استقامةً لك ؛ فإنْ دنوت منهم كانوا لك،وإن نأيت عنهم تعزّزوا بك؛ حتى يثب كلّ منهم على جاره باسمك،وفى ذلك شاغل لهم عنك ، وأمانٌ لإحداثهم بعدك ؛ ولا أمان للدهر ؛ وقد أدّيتُ للملك ما رأيته لى حظًّا ، وعلىّ حقّا ، والملك أبعدُ رَوِيّةً ، وأعلى عيناً ، فيما استعان بى عليه . والسلام الأبدىّ فليكن على الملك.

فلمّا ورد كتاب أرسطاطاليس على الإسكندر تأمّله ، وعرف الحقّ ، وفرّق القوم فى الممالك كما ذكر ، فسُمُّوا ملوكَ الطوائف .

وسار الإسكندر إلى الشّرق ، فدانت له الملوك ، وبنى مدينة إصبهان وهراةَ وسَمَرْقَند ، ولما وصل إلى الهند خرج إليه ملكُها فى ألف فيل عليها المقاتِلة ، وفى خراطيمها السُّيوف الهنديَّة ، فلم تثبت خيل الإسكندر ، فصنع الإسكندر فيَلة من نحاس مجوّفة ، وربط خيله فيها حتى ألِفتْها ، وملأها نِفطاً وكبريتاً ، ثم ألبسها السّلاح وجرّها على العَجَل إلى ناحية العدوّ، وبينها الرجال؛ فلما نشبت الحرب أمر بإشعال النّار فى أجوافها ، فلما اشتعلت تنحّى الرجال عنها ، وغشيتْها فيلة الهند فضربتها بخراطيمها ، فأحرقت الرجال واحترقت ، فمن سَلِم ولّى هارباً ، فكانت الدائرة على ملك الهند .

ولما وصل الإسكندر إلى المانكير ـ وهو من ملوك الصّين ـ خرج إليه الملك ، وأرسل إليه يقول : علامَ نفنى العالم ! ابرز إلىّ ، فإن قتلتَنى كنتَ أنت الملكَ ، وإن قتلتُك كنتُ أنا الملك . فتيمّن الإسكندر بكونه بدأ بنفسه فى ذكر القتل ، فبرز إليه فقتله الإسكندر. ثم توغّل فى بلاد الصين إلى مقرّ ملكها الأكبر. [وجرت لهما أخبار طويلة اصطلحا فيها على مهادنات ومهاداة][1] ؛ فبينما هو فى بعض الليالى جالس نصف الليل ؛ إذ بالحاجب قد دخل فقال : رسول من ملك الصين بالباب ، فأُذِن له فدخل ، فقال له : قل ، فقال : الأمر الذى جئت فيه لا يحتمل إلا الخلْوة ، فأمَر بتفتيشه فلم يجد معه حديداً ، فأخلِىَ المجلس ، وبقى هو وإيّاه ، فقال له : قل : فقال : أنا ملك الصين . قال : وما الذى أمّنك[2] منّى ؟ قال : ليس بينى وبينك عداوة ولا ذَحْل[3] ، وبلغنى أنك رجل حكيم عاقل حليم ، ولو قتلتَنى لم تظفر بطائل منّى ؛ فإنّهم يقيمون غيرى ، وتنسَب إلى الغدْر ؛ فأخبرنى ما الذى تريد منى ؟ قال : ارتفاع ملكك ثلاث سنين آجلا ، ونصف ارتفاعها عاجلا . قال : لقد أجحفْت ؛ فما زال ينقصُه حتى اقتصر على سدس الإرتفاع ، ثم قام مسرعاً ، فخرج .

وبات الإسكندر ليلته يفكّر فى أمره ، فلمّا طلع الصباح ، إذا بملك الصين قد أقبل فى جيش طبّق الأرض ، وعليه تاجُه ، وبين يديه الأمم ، فركب الإسكندر واستعدّ للقتال ، ثم ناداه : يا ملك الصين ، أغدرا ! فانفرد عن أصحابه وقال : لا ، ولكن أردتُ أن أعرّفك أننى لم أطِعْك عن قلّة وضعف ، وماغاب عنك من جنودى أكثر ؛ ولكن رأيتُ العالم الأكبر[4] مقبلا عليك ،

---

(١) من د .
(٢) ت : « أمكنك » ، والصواب ما أثبته من م .
(٣) ت : « دخل » . والذحل ـ الثار .
(٤) ت « الكبير » .

ممكّنا لك ممن هو أقوى منك وأكثر عدداً ، ومَنْ حارب العالم الكبير غلِب .
ثم ترجّل وقبّل الأرض ؛ فنزل الإسكندر عن فرسه ، وجلسا على سرير ، فقال له الإسكندر : ليس مثلك مَنْ يؤخذ منه خراج ، وقد أعفيتُك . فقال الملك : أمّا إذ قد فعلتَ فلا بدّ من حسن المكافأة ، ثم بعث إليه بضعف ماقرّره عليه .

وعاد الإسكندر وقد دانت له الملوك ، ودوّخت البلاد ، فأقام بشهرزور أيّاماً ؛ واحتُضر بها . وكانت مدة ملكه ستّ عشرة سنة . واختلف فى عمره ، فقيل : ست وثلاثون سنة ، وقيل أكثر ، و بين وفاته و بين الهجرة النبوية — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام — ستمائة سنة . وقيل غير ذلك . ومن أراد تحرير التاريخ فليأخذه من «المختصر فى تاريخ البشر[1]» ، تأليف مولانا السلطان الملك المؤيّد .

ولما حضرت الإسكندرَ الوفاةُ كتب إلى أمّه كتاباً يسألها فيه أن تصنع وليمة، وتدعو نساء أهل المملكة ، ولا تأذن إلا لمن لم تُصَبْ بفقد عزيز من أهلها ؛ ففعلت ذلك ، فلم يدخل عليها أحد ، فعلمت أنه مات ، وأنّ ذلك تعزية لها .

ثم أوصى أن يوضع فى تابوت من ذهب ، ويطلَى بالأطلية الممسّكة ، و يحمل إلى أمّه بالإسكندرية . فلما فُعِل ذلك جمع أرسطاطاليس الحكماء ، وأمرهم بكلام يكون للخاصة معزّيا، وللعامة واعظاً ، كما فعل بالإسكندر الأول — وكانوا عشرة:
فقال الأول : أصبح مستأسِرُ الأَسرَى أسيراً .

وقال الثانى : هذا الإسكندر ، طوى الأرضَ العريضة ، وهو اليوم يُطوَى منها فى ذراعين .

وقال الثالث : العَجب أن القوِىّ قد غُلب والضّعفاء لاهون .

وقال الرّابع : ما سافر الإسكندر سفراً طويلا بلا آلة سوى سفره هذا .

---

(١) تاريخ أبى الفدا ١ : ٤٥

وقال الخامس : سيلحق بك مَنْ سَرّه موتُك ، كما لحقتَ بمن سرّك موتُه.

وقال السادس : كان يحكم على الرعيّة ، فصارت الرعيّة تحكم عليه .

وقال السابع : كنت تأمُرنا بالحركة ، فما بالك ساكناً !

وقال الثامن : ربّ حريصٍ على سكوتك، وهو اليوم حريص على كلامك !

وقال التاسع : كم أمات مَنْ فى هذا الصندوق كيْلاَ يموت ، فمات .

وقال العاشر : كان الإسكندر يَعِظنا بنطقه ، وهو اليوم يعِظنا بسكوته .

وقالت أمه : مما يسلّى عنه ؛ المعرفة باللّحوق به .

وقالت روشنك : ما كنت أظُنّ أن غالب دارا يُغلَب.

قلت : ومن كلام الإسكندر : السّعيد من لا يعرفنا ولا نعرفه ؛ فإنّا إذا عرفناه أطلنا يومَه ، وأطرنا نومَه .

وقيل له : إنك عظّمت معلّمك أكثرَ من تعظيم والدك . فقال : لأنّ أبى سبب حياتى الفانية ، ومعلّمى سبب حياتى الباقية .

وقال : سلطان العقل على باطن العاقل أشدّ من سلطان السيف على ظاهر الأحمق .

وقال : النّظر فى المرآة يُرِى رسْم الوجه ــ وفى أقاويل الحكماء : « يرى رسم النفس » .

وقيل له : إنّ فلاناً يَثلُبُكَ فلو عاقبتَه ؟ فقال : هو بعد العقاب أعْذَر !

وتحاكم إليه اثنان فقال : الحُكم يرضِى أحدكما ويسخط الآخر ، فاستعملا الحقّ ليرضيكما جميعاً .

وأحضِر بين يديه لصٌّ فأمر بصلْبه ، فقال : أيّها الملك ، إنّى فعلت ما قد فعلت وأنا كارهٌ . فقال : تصلَب أيضاً وأنت كاره .

وغضب على بعض شعرائه فأقصاه ، وفرّق ماله فى أصحابه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أمّا إقصائى له فلجُرْمِه ،وأمّا تفريق ماله فى أصحابه فلِكَيْلاَ يشفعوا فيه .

وجلسْ يوما مجلساً عامًّا فلم يُسأل فيه حاجةً ، فقال : والله ما أعدّ هذا اليوم مِنْ مُلكِى ، قيل : ولِمَ أيُّهَا الملك ؟ قال : لأنه لا توجد لذّة الملك إلاّ بإسعاف الراغبين ، وإغاثة الملهوفين ، ومكافأة المحسنين .

وقال : مَن انتجعك فقد أسلفك حُسْن الظنّ بك(١) .

* * *

٢٤ — وَأَرْدَشِيرَ جَاهَدَ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ بِخُرُوجِهِمْ عَنْ جَمَاعَتِكَ .

[أرد شير]

أردشير بن بابك ، من ولد بَهْمَن الملك أبي دارا الأكبر ، وكان بَهْمن قد تزوّج ابنته خُمانى على عادتهم ، فحملَت منه بدارا الأكبر ، وسألته أن يعقد التّاج على بطنها لولدها ، ففعلَ .

وكان له ولد يسمَّى ساسان من امرأة أخرى ، فلمَّا مات بَهْمن تنسّك ساسان وساحَ فى الجبال ، وعهد إلى بنيه أنه من مَلَك منهم فليقتل مَنْ قدر عليه من نسْل دارا ، وكان أرْدَشير هذا من ولد ساسان ـ على ماذكر بعض الرواة ـ وهو أوّل الفرس الثانية ، ومعنى « الثانية » أنّ الإسكندر لما قتل دارا آخر ملوك الفرس ، وفرّق(٢) مَنْ بقى منهم وسمّاهم ملوك الطوائف ، صارت المملكة لليونان ، فلمَّا توفِّىَ الإسكندر ، وتقاصر ملك اليونان بعد مدّة ، تحرّك أردَشير ـ وكان أحد أبناء ملوك الطوائف على إصطخرْ ـ وخرج طالبا للملك ، وأراهم أنّه يطلب بثأر ابن عمّه دارا ، وجمع الجموع ، وكاتب ملوك الطوائف بكتاب طويل أوله :

من أردشير بن بابك المستأثَر دونَه ، المغلوب على تُراث آبائه ، الدّاعى

---

(١) بعدها فى ط : «وله حكم لا تحصى وأقوال لاتستقصى؛ أضربت عن ذكرها خوف الإطالة » .

(٢) ت : « مزق » .

إلى الله ، المستنصر به ؛ فإنه وعد المظلوم الظَّفر والعاقبة . سلام عليكم بقدر ماتستوجبون من معرفة الحقّ ، وإنكار الباطل... ثم ذكر كلاما طويلا ، معناه الحثّ على المعاونة ؛ فمنهم من أطاعه ، ومنهم من تأخّر عنه ، فخرج بعسا كره فقتل المتأخّر ، ثمّ عطف على بقيّتهم فقتلهم وفاءً لما عهدبه جدّه ساسان إلى بنيه ؛ ورزقه الله الظَّفَر والنَّصْر ، وقتل الملك أردوان مبارزة ، ووطىء رأسه بقدميه ، وتسمّى من ذلك اليوم « شاهنشاه الأعظم » ، ومعناه ملك الملوك .

ثم قام خطيبا فقال : الحمد لله الذى خصَّنا بنعمه ، وخَوَّلنا من فضله ، ومهّد لنا البلاد ؛ وها نحن شارعون فى إقامة العدل ، وإدرار الفضل ، والإقبال على الرّأفة والرّحمة ، وإنصاف الضعيف من القوىّ[١] ، وسترَوْن فى أيامنا ما يصدِّق مقالنا بفعالنا .

ثم ساس الرعيّة ، ورتب الممالك ، وبه اقتدى الخلفاء والملوك من بعده ؛ فإنه رتب الناس على طبقات :

فالطبقة الأولى الحكماء والفُضلاء ، وكان مجلسُهم عن يمينه ، وهم بِطانته .

والطبقة الثانية الملوك وأبناؤهم ، وسمّاهم الخواصّ ، ومجلسهم عن يساره .

والطبقة الثالثة الإصبهبذيّة والمرازبة [٢]، وهم بين يديْه ، ولم يكن فيهم وضيع ولا دنىء الأصل ، ثم زادهم طبقات أُخَر من الوزراء ، والقضاة[٢] .

ورتّب لكل ربع من أرباع الدنيا قوما ينفردون بتدبيره وتحريره ، ودانت له الدنيا ، وتمكّن من الأرض . وكان من الشّجعان المشهورين فى الفُرس ، يلقى وحدَه رجالا كثيرة ، ويتشبَّه[٣] فى قوّته وشكله بأردشير الأول الذى كان يدعَى طويل الباع .

وفى أيّامه بنيت المدن المشهورة كالأُبُلّة ، وأستراباذ وكَرْخ وبَيْسان

---

(١) ت : « إنصاف القوى من الضعيف » ، وصوابه من د ، م .

(٢-٢) كذا فى د ؛ وفى ت « وهم طبقات أخر من الوزراء والقضاة » .

(٣) د : « وتشبه » ، م : « ويشبه » .

وغيرها . ووُضِع له النّرد تنبيها على أنّه لا حيلة للإنسان مع القضاء والقدر ، وهو أوّل مَنْ لعب به ، فقيل : «نردشير» . وقيل: إنّه هو الذى وضعه وشبّه به تقلّب الدنيا بأهلها ، فجعل بيوت النّرد اثنى عشر بيتاً بعدد شهور السنة ، وعدد كلابها ثلاثين بعدد أيام الشهر ، وجعل الفصّين مثالا للقضاء والقدر وتقلّبهما بأهل الدّنيا ، وأنّ الإنسان يلعب به فيبلغ بإسعاف القَدَر ما يريده ، وأنّ اللاعب الفطِن يتأتّى له ما لا يتأتّى لغيره إذا أسعده القدَر . فعارضَتْهم الهند بالشِّطْرنج .

وأقام فى الملك خمس عشرة سُنة ، ثم فوّضه إلى ابنه سابُور ، وانقطع فى بيوت العِبادات ثلاث سنين إلى أن تُوفِّىَ بعد مولد المسيح عليه السلام .

ومن كلامه : الدّين أساس ، والملك حارس ، وما لم يكن لهأساس فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع .

وقال : لا شىء أضرّ على الملِك أو على الرئيس من معاشرة وضيع ، أو مُداناة سفيه ؛ وذلك أنّ النفس كما تصلح بمعاشرة الشريف، فكذا تفسد بمخالطة السّخيف ، حتى يقدَح ذلك فيها ، كما أن الرِّيح إذا مرّت بالطِّيب حملت منه رائحة طيّبة تنعِش النفوس ، وتقوى بها الجوارح ، فكذا إذا مرّت بالنّتن فحملت منه الروائح الكريهة آلمت النفس ، وأضرّت بها ، وكان الفساد إليها أسرعَ من الصلاح .

وقال : إن للآذان مجّة ، وللقلوب مللاً ، ففرّقوا بين الحِكْمتين يكون ذلك استجماما .

وكتب إليه جماعة من بطانته يشكون سوءَ حالهم ، فوقّع : « ما أنصفكم مَنْ أحوجكم إلى الشكوى » ــ يعنى نفسه ، ثم فرّق فيهم مالا .

وكتب إليه متنصّح[1] : إنّ قوما اجتمعوا على سبّك ، فوقّع عليها : « إن

---

(١) م : « منتصح » .

كانوا نطقوا بألسنة شتّى فقد جمعتَ ما قالوه فى ورقتك ، فجرحك أعجب ، ولسانك أكذب » .

* * *

٢٥ — والضَّحاكَ استَدْعى مُسالمتَك

[الضحاك]

اختُلف فى نسب الضّحاك ، فقال قوم : إنه الضَّحاك بن الأهبوب بن عويج ابن طهمورث بن آدم . وزمنه بعد الطّوفان ؛ وهو ابن أخت جمشيد بن أوشهنج ملك الأقاليم .

وقال قوم : هو الضّحاك بن علوان ؛ أول الفراعنة ، وهو الذى ولّى أخاه سنانا مصر على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام .

وقال قوم : هو من العرب ؛ من قحطان ، واليمانية تدّعيه ، وفى ذلك يقول أبو نُوَاس :

وكانَ مِنّا الضّحاك يَحْذَرُه الْـ ... خابِلُ والْوَحْشُ فى مسارِبِها[1]

والقول الأول أكثر . وكان من سيرته أن جَمْشيد ـ ومعناه سيد الشَّعَاع ـ ملك الأقاليم السّبعة ، وهو أوّل من عمل السلاح ، واستخرج الإبرِيْسَم والقزّ ، وألزم أهل الفساد الأعمال الشاقّةَ فى قطع الصخور ، واستخراج المعادن ، وطال عمره وتجبّر ، وادّعى الربوبية ، فخرج عليه الضّحاك هذا ، وتبعه خَلْق كثير لبغضهم فى جمشيد ، فهرب جَمْشيد بين يديه ، فظفر به ، وأمر بنشره بمنشار وقال : إن كنت إلهاً فادفع عن نفسِك .

ثم ملك الضّحاك وطَغى وتجبّر وفَجَر ، ودان بدين البَرَاهمة . وهو أوّل

---

(١) ديوانه ١٥٥

من غُنِّيَ له ، وضرَب الدّنانير والدّراهم ، وليس التاج ، ووضع العُشور .

وكان على كتِفه سِلْعَتان(١) يحرّكهما إذا شاء ، وادّعى أنهما حيّتان يُهوّل بهما على الضعفاء ، وذكر أنهما يضربان عليه فلا يسكنان حتى يطليهما بدماغىْ إنسانيْن يُذبحان له فى كلّ يوم؛ وكان له وزير صالح، فكان يستحيي أحدهما ويضع مكان دماغه دِماغ كبش ، ويأمر الرجل باللّحوق بالجبال ، وألاّ يأوِىَ الأمصار . فيقال : إنّ الأكراد من تلك القوم لكردهم إلى الجبال .

ثم كَثُر فساد الضّحاك وطالت مدّته ، فاجتمع الناس على أفريدون ابن جمْشيد ، وكان قد ترعرعَ ، فاستعدّ لقتال الضّحّاك ، وكان بأصبهان رجل حدّاد يقال له كابى ، قتل له الضحاك ولديْن ، فاجتمع عليه خلْق كثير ، وكانت له قطعة جلد يَتَّقِي بها حَرّ النار ، فرفعها على رُمح وجعلها علماً ، وسار إلى الضحاك والنّاس معه ، فخرج إليه ، فلمّا رأى ذلك العلَم ألقى الله تعالى فى قلبه الرّعب ، فانهزم ، وأراد الناس أن يملّكوا كابى ، فأبى وقال: لستُ من بيت المُلْك ، فملّكوا أفريدون بن جَمْشيد ، وصار كابى عوناً له . وقتل الضّحاك ، وقيل : مات منهزماً .

وعظم عَلَم كابِى ، ورصّعته الملوك بالدرّ واليواقيت ، وكانوا يقدّمونه أمام الجيوش وقت الحرب فيُنصَرون به ، وكان عندهم كالتّابوت فى بنى إسرائيل ، ويعرف هذا العلم « بدرفش كابيان » ، ولم يزل فى خزائنهم يتوارثونه إلى زمن يَزْدَجِرد بن شَهْرِيار ، فأخذه المسلمون فى وقعة القادسيَّة ، وحمل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقسّم جواهره فى الناس .

ومما اتّفق من الحكايات المستطرَفة فى أيام الضَّحاك ؛ أنه لمّا طالتْ مدّته وفساده، اجتمع الناس على بابه وكابى الحدّاد معهم، فلمَّا دخل ــ وكان جريئاً قال له :

---

(١) السلعة هنا : غدة تظهر بين الجلد واللحم ؛ إذا غمزت باليد تحركت .

أسلِّم عليك سلامَ من يملك الأقاليم كلّها ، أمْ سلام من يملك هذا الإقليم ؟ قال : بل سلام مَنْ يملك الأقاليم كلّها ، فقال له : إذا كنت تملك الأقاليم كلها [1] فلِمَ خصصتَ هذا الإقليم بنوائبك ومَئُونتك ؟ وهلاّ انتقلت إلى الأقاليم [1] ،وساويت بينه وبينهم! ثم عدّد عليه أشياء،فصدّقه الضحاك، ووعد الناس بما يحبّون؛فانصرفوا.

وكانت له أمٌّ جبَّارة سمعت ماجرى ، فلمَّا خرجوا أنكرت عليه ،وقالت : لقد جرّأتهم عليك ، هلاقتلْتَهم ! فقال لها مع عتوّه وتجبّره : إنّ القوم بَدهُونى [2] بالحقّ ، فلما هممت بالسطوة بهم وقف الحقّ بينى وبينهم كالجبل ، فحال بينى وبين ما أردت .

ثم كان من أمره بعد ذلك ما كان مع كابى كما مرّ .

* * *

٢٦ – وَجَذِيمَةَ الْأَبْرَشَ تَمَنَّى مُنَادَمَتَكَ .

[جذيمة الأبرش]

هو جَذِيمة بن مالك بن عامر التَّنُوخىّ – وقيل : الأَزْدِىّ [3] . أوّل مَن قادالعرب ، وملك على قُضاعة ، وكانت منازله الحِيرة والأنبار ، وولايته من قِبَل أَرْدَشير بن بابك وكان أبرصَ فعُدِل عن هذا الاسم فقيل : « الأبرش » ، و « الوضَّاح » . وزعم بعضُهم أنّه كان يأنف من اسم « الأبرص » ؛ ولذلك كُنِى عنه بالأبرش .

(١–١) ساقط من ط .

(٢) بدهونى ، أى فاجئونى .

(٣) كذا ورد نسبه هنا ؛ وفى الأغانى : جذيمة بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس بن عدثان الأسدى » . وفى المعارف لابن قتيبة : « جذيمة بن فهم بن غانم بن دوس » .

وفى العرب من يفتخر بذلك ، قال الراجز يمدح أبرص :

أَبْرص فيّاض اليدين أكلفُ والبُرْصُ أدرَى بِاللُّهى وأعرفُ[١]

وهو أوّل من صنع له الشمع ، وأدلج من الملوك ، وكان ذا رأى وهمّة وتيهٍ مفرط ، ويقال له : نديم الفرقدينْ ، كان إذا شرب قدحًا صبّ لهما قدحيْن ولا ينادم غيرهما ، وكان سببُ ذلك فيما زعموا أنه كان قد تكهّن واتّخذ صنمين يقال لهما : الضّيزَنان[٢] ، يستسقى بهما و ينتصر على أعدائه .

وكانت إيادٌ قد خرج قومٌ منهم من الحجاز ، وانتشروا فيما بين البَصْرة والكوفة ، وتمكّنوا على ما يلِى الحيرة ، وكثروا بعين أُباغ ، فخرج جَذِيمة غازيًا . وكان فى إياد رجل يقال له عدىّ بن نصر ، وكان له ظَرْف وجمال ، و إليه تنسب الملوك من آل نصر ، فنزل جذيمة بساحتِهم ، فبعث إياد قوماً منهم إلى صنمىْ جَذِيمة ، فسقوا سَدَنتهما الخمر وسرقوهما ، فأصبحوا بهما فى إياد ، فبعثتْ إياد إلى جذيمة تقول : إن صنميك قد أصبحا عندنا ، زهدا فيك ورغبة فينا ، فإنْ عاهدتَنا على ألاّ تغزوَنا رددناهما إليك . فقال جَذِيمة : وتعطونى أيضا عدىّ ابن نصر يكون عندى . ففعلوا وانصرف عنهم ، وضمّ عديًّا إلى نفسه ، وولاّه شرابه وأمْرَ مجلسه .

وكان لجذيمة أخت تسمى رَقاشِ ، وهى بِكر ، فأحبّت عديًّا وأحبّها ، فسألته أن يخطبها من جذيمة إذا سكِر ، ففعل ذلك وزوّجَه بها ، وأشهد عليه من حَضَر ، فلمَّا أصبح دخل عليه بثياب العِرْس ـ وكان قد دخل بها تلك الليلة ـ فقال جذيمة : ما هذه الآثار يا عدىّ ؟ فقال : آثار عِرْس رَقاشِ ! فقال : مَنْ زوّجَكَها ، ويحك ! قال : الملك ، فأكبّ على الأرض مفكّرًا ، وهرب عدىّ ،

---

(١) الرجز لطريف ابن سوادة . الحيوان للجاحظ ج ٥ . ١٦٤ .

(٢) فى اللسان : « ضيزن » اسم صنم ، والضيزنان : صنمان للمنذر الأكبر ، كان اتخذهما بباب الحيرة ليسجد له منهما من دخل الحيرة امتحانا للطاعة » .

فلم يُعرَف له أثر ولا خبر ، وأرسل جذيمة إلى أخته يقول :

خَبِّرِيني رَقَاشِ لا تـكذِبيني أبحُرٍّ زنيتِ أم بهجينِ !
أم بعَبْدٍ فأنت أهْلٌ لعبدٍ أمْ بدونٍ فأنتِ أهْلٌ لدونِ !

قالت : بل أنت زوجتنى أمرأً غريبا[1] ؛ ولم تشاورْنى فى نفسى ؛ فـكفَّ عنها ، وآلى ألاّ ينادم إلاّ الفرقديْن ، وحملتْ رقاشِ ، فولدت غلاما وسمّته عَمْرًا ، فلمّا ترعرع ألبسته وعطّرته ودخلت به على خاله[2] ، فلمّا رآه أحبّه وجعله مع ولده .

وخرج جَذيمة متبدّيا بأهله فى سنة خِصْبة ، فأقام فى روضة ذات زهْر ونَهر ، فخرج ولده ؛ وعمرو معهم يجتنون الـكمْـأة ، فـكانوا إذا أصابوا كمأةً جيّدة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو خبأها ، وانصرفوا إلى جذيمة يتعادَوْن وعمرو يقول :

هذا جناى وخيارُه فِيهْ وكلُّ جانٍ يدُه إلى فِيهْ

فضمّه جذيمة إلى صدره ، وسرّ بقوله ، وحلاّه بطوق من ذهب ، فـكان أوّلَ عربىٍّ لبس الطّوْق .

ثم إنَّ الجنّ استطارتْه ، فطلبه جذيمة فى الآفاق زمانا فلم يقدر عليه ، ثمّ أقبل رجلان من قُضاعة ؛ يقال لهما : مالك وعَقِيل ابنا فارج ، من الشام ، يريدان جَذِيمة ، وأهديا له طُرَفًا ؛ فبينما هما يأكلان إذْ أقبل فتًى عُريان قد تلبّد شعره ، فسألاه عن نسبه فعرّفهما نفسه ، فنهضا وغسلا رأسه ، وأصلحا أمره ،

---

(١) الأغانى وابن الأثير : « بل زوجتنى امرأً عربياً » ، وفى المسعودى : فأجابته رقاش تقول :

أنتَ زوّجْتَني وما كنتُ أدرى وأتانى النّساءُ للتّزْيين
ذاكَ من شُرْبكَ المدامَةَ صِرفًا وتماديكَ فى الصِّبا والمُجونِ

(٢) ابن الأثير : « أزادته خالته » .

وألبساه ثيابا ، وقالا : ما كنّا لنهدى جَذِيمة أنفسَ من ابن أخته ؛ وخرجا به إلى جَذِيمة ، فسُرّ به ، ورأى الطّوْق ، فقال : « شبّ عمرو عن الطوق » ، فذهبت مثلا، وقال لمالك وعَقِيل: حُكْمَكُماَ ، قالا: مُنا دَمتك مابقينا و بقيتَ ، فكنهما من ذلك . وهما نَدِيما جَذِيمة اللذان يضرب بهما المثل،و إيّاهما عنى متمّم ابن نُوَيرة بقوله فى رثاء أخيه :

وكُنَّا كنَدْمانَىْ جَذِيمة حِقْبَةً   من الدَّهْر حتى قيل لن يتصدّعا[١]

وقيل : إنما عنَى الفرقديْن .

و يحكى أن جذيمة سكِر مرّة أخرى فقتلهما ، فلمَّا أصبح ندِم ، و بنى عليهما الغَرِيَّيْن[٢] ، ونادم الفرقدين . وقيل : إن صاحب الغريّيْن المنذر الأكبر .

ثم إن جَذِيمة أرسل يخطب الزَّبّاء ملكة الُحضْر الحاجز بين الفرس والرّوم ، وكان لها وِتْر عنده فأجابته ؛ واستدعته إليها ، فاستشار أصحابَه فأشاروا عليه بالمضىّ ، فخالفهم قَصِير بن سعد ـ وكان لبيبا وقال : إنّ النساء يهدَيْن إلى الأزواج ، فعصَاه ، وسارَ حتّى إذا كان بمكانٍ يدعَى بقَّة[٣] استشارهم ، فأشاروا عليه لما يعلمون من رأيه فيها ، فقال قَصِير : انصرف ودمُكَ فى وجهك ، فأبَى ، وظعن جذيمة حتى إذا عايَنَ الكتائب قد استقبلتْه قال لقصير : ما الرأى ؟ قال :« تركتُ الرأى ببقَّة» . ثم ركب قصير فرسًا لجذيمة تسمى العصا فنَجا ، وأُخِذ جذيمة ، فلمَّا أُدخِل على الزُّبّاء أمرت برواهِشه فقطعت ـ

---

(١) من قصيدة مفضلية ٦٧ ، أولها :

لعمرِى وما دهْرِى بتأبين هالكٍ   ولا جزعٌ ممّا أصابَ فأوْجَعَا

(٢) الغريان، ذكر ياقوت أنهما بناءان بظاهر الكوفة بناهما المنذر بن امرىء القيس ابن ماء السماء ؛ فى خبر طويل ورد فى معجم البلدان (٦ : ٢٨٢ ـ ٢٨٤) .

(٣) بقة ، بالفتح وتشديد القاف : موضع ذكره ياقوت ؛ وقال : إنه قرب الحيرة .

والرواهش عُروق اليد ـ واستنزفته حتى مات ؛ فى خبر طويل مشهور[١] .

وكانت مدّة ملكه ستين سنة ، وله أشعار حسنة مشهورة ، فمنها :

أَمْسَى جَذِيمَةُ فى يَبْرِينَ منزلُهُ[٢] قَدْ حَازَ ما جَمَعَتْ مِنْ قَبْلِهِ عَادُ

مستعمل الخيرِ لا تفنى زيادته فى كلّ يوم وأهل الخير تزدادُ

* * *

٢٧ ـ وَشِيرِينَ قَدْ نَافَسَتْ بُورَانَ فِيكَ .

[شيرين]

هى شيرين زَوْجة أبرويز بن هُرْمز ، من ولد كسرى أنوشِرْوان ، وكانت يَتيمة فى حِجْر رجلٍ من أشراف المدائن ، وكان أبرويز صغيراً يدخل منزل ذلك الرّجل ، فيلاعب شِيرين وتُلاعبه ، فأخذت من قلبه موضعًا ، فنهاها عنه ذلك الرَّجُل فلم تنتهِ ، فرآها وقد أخذتْ فى بعض الأيّام من أبرويز خاتماً ، فقال لبعض خواصّه : اذهب بها إلى دجلة فغرِّقْها ، فأخذها ومضى ، فقالت له : وما الذى ينفعك من تغريقى ؟ فقال : إنّى حالف ولا أخالِف مولاى . فقالت : اقذفْنِى فى مكان رقيق ، فإن نجوتُ لم أظهر ، وبرّتْ يمينك . ففعل ، وتوارت فى الماء حتى غاب ، وصعدت إلى دَيْر فترهّبت فيه ، وأحسن إليها الرّهبان .

فلما تقرّر المُلْك لأبرويز بعد أبيه هُرمز ، مرّ بذلك الدّيْر رسل قيصر إلى أبرويز ، فدفعت الخاتم إلى رئيسهم ، وقالت: ابعث به إلى أبرويز لتتخطَى عنده ، فأرسله وعرّفه مكان شيرين ، فسُرّ سروراً عظيما ، فأرسل إليها فأحضرها ، وكانت من أظرف النساء ، ففوض إليها أموره ، وهجر نساءه ، وعاهدها لا تمكن منها أحداً بعده ، وبنى لها القصر المعروف بقصر شِيرين بالعِراق .

---

(١) الأغانى ١٦ : ٣١٢ ـ ٣٢٠ ، مروج الذهب ٢ : ٩٠ ـ ٩٥ ، ابن الأثير ١ : ١٩٧ ـ ٢٠١ ، أبو الفدا ١ : ٧٠ ، ٧١ . (٢) ط : « أضحى » .

فلما قَتَل شيرويه أباهُ أبرويز ، راودها عن نفسها فامتنعت ، فضيَّق عليها ، واستأجلها ، ورماها بالزِّنَا ، وتهدّدها بالقتْلُ إن لم تفعل ، فقالت : أفعلُ على ثلاث شرائط ، قال : ما هى ؟ قالت : تسلِّم إلىّ قَتَلَةَ زوجى أقتلهم ، وتصعد المنبر فتبرّئنى مّما قذفتَنى به ، وتفتح لى ناوس[1] أبيك ؛ فإن له عندى وديعة عاهدنى إن تزوّجت بعده رددتها إليه . فدفع إليها قَتَلَة أبيه فقتلتْهم ، وبرّأها مما قال ، وفتح لها ناوسْ أبيه ، و بعث الخدم معها ، فجاءت إلى أبرويز فعانقته ، ومَصّت فَصًّا مسموماً كان معها فماتت من وقْتها . [وأبطأت على الخَدم ، فصاحوا فلم تكلّمهم ، فدخلوا فوجدوها معانقة لأبرويز ميّتة] [2] .

* * *

[بوران]

وأمّا بُوران فهى ابنة أبرويز المذكور ، وكانت من أحسن من نشأ بين التّرك والفرْس من النِّساء ، وملَكت النّاس بعد شهريار بن أبرويز ، وأصلحت القناطرَ والجسور ، ولمّا جلست على السرير قالت : ليس ببطشِ الرّجال تدوّخُ البلاد ، ولا بمكايدهم يُنال الظَّفَر ؛ وإنّما ذلك بعون الله وقدرته تعالى .

وأقامت سبعة أشهر ، ولمّا بلغ النبى صلّي الله عليه وسلّم أمرُها ، قال : « لا يفلح قومٌ ولَّوْا أمرهم امرأة » .

ويقال : إن فيروز بن رستم صاحب خراسان خطبها ، فقالت : لا ينبغى للملكة أن تتزوّج علانية ، وواعدته[3] أن يقدِم عليها سرًّا فى ليلة عيّنتْها له ، فجاءها فى تلك اللّيلة فقتلته ، فسار إليها أبوه رستم فقتلها . وقيل : إن هذه

(١) الناوس : المقبرة .
(٢) تكملة من ط .
(٣) ت : « وأوعدته » .

الواقعة مع أردى مرخت[١] .

* * *

٢٨ — و بِلقيس غايَرتِ الزَّبَّاء عَلَيْكَ .

[بلقيس]

بِلقيس ابنة [شراحيل بن] [٢] الحارث بن سبأ ، ويلقّب أبوها بالهدهاد . وقيل : بنت الشَّيْصبان ، ملكة بلاد سبأ ، المذكورة فى الكتاب العزيز .

وعن ابن عبّاس رضى الله عنهما أنه قال : سئل رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن سبأ : أرجل هو ، أم امرأة ، أم أرض ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : بل رجل ، ولده عشرة : سكن منهم اليمن ستّة والشام أربعة ؛ فاليمانيون : مذحِج ، وكِندة ، والأنمار ، والأزْد ، والأشعريّون ، وحِمْيَر ؛ وأمّا الشام : فلخْم ، وجُذَام ، وعاملة ، وغسّان .

وكانت بِلقيس من أحسن نساء العالمين ، ويقال : إن أحَد أبويها كان جِنّيًّا .

وقال ابن الكلبىّ : كان أبوها من عُظَماء الملوك ، وولده ملوك اليَمَن[٣] كلّها.

---

(١) حاشية ت : « فائدة : وبوران أيضا بنت الحسن بن سهل زوجة المأمون ، وكان المأمون قد تزوجها لمكان أبيها . وقصتها مشهورة طويلة ، من جملتها أنه لما دخل عليها المأمون ؛ فرش له حصير منسوج بالذهب ، فلما وقف عليه نثرت على قدميه لآلىء كثيرة ، فلما رأى تساقط اللآلىء المختلفة على الحصير المنسوج بالذهب قال : قاتل الله أبا نواس ! كأنه شاهد هذه الحال حين قال فى صفة الخمر والحباب الذى يعلوها عند المزاج :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِن فواقعِها ... حَصْبَاءُ درٍّ على أرض من الذهب

(٢) من ت .

(٣) ت : « الأطراف » .

وكان يقول : ليس فى ملوك اليمن مَنْ يُدانينى ، فتزوّج[١] امرأة من الجنّ يقال لها رَيْحانة بنت السَّكن ، فولدت له بلقيس ، وتسمّى بلقمة ؛ ويقال : إنّ مؤخّر قدميها كان مثل حافر الدابّة ؛ ولذلك اتّخذ سليمان عليه السلام الصَّرْح الممرّد من القوارير ، وكان بيتاً من زُجاج يُخيّل للرائى أنه ماء يضطرب ، فلمّا رأته كشفت عن ساقيْها ، فلم يرَ غير شَعرٍ خفيف ؛ ولذلك أمر بإحضار عَرْشها ليختبر به عقلها . ثم أسلمت ، وعزم سليمان على تزوّجها ، فأمر الشياطين فاتّخذوا الحمّام والنُّورة ، وهو أوّل من اتّخذ ذلك ، وطلَوا بالنُّورة ساقيْها ، فصارت كالفِضّة وتزوّجها[٢] ، وأرادت منه ردّها إلى مُلْكها ففعل ذلك .

وأمر الشياطين فبنَوْا لها باليمن الحصون التى لم يرَ مثلها ، وهى : غمْدان[٣] وَبَيْنُون وغيرهما ، وأبقاها على ملكها ، وكان يزورها فى كلّ شهر مرةً من الشام على البساط والريح ، وبقى ملكُها إلى أن توفِّى فزال بموتِه .

* * *

[الزبّاء]

وأمّا الزبّاء فهي فارعة ابنة مليح بن البراء ، كان أبوها ملكا على الحَضْر[٤] وهو الذى ذكره عدىّ بن زيد بقوله :

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دِجْـــلَةُ تُجْبى إليه والخابورُ[٥]

---

(١) د : « فاتفق أن تزوج » .

(٢) ط : « فتزوجها » ، د : « ثم تزوجها » .

(٣) ذكر ياقوت عن ابن الكلبي أن غمدان قصر بناه ليشرح بن يحصب بين صنعاء وطيوه . وقال قوم : إن الذى بنى غمدان سليمان بن داود عليه السلام ، أمر الشياطين فبنوا لبلقيس ثلاثة قصور بصنعاء : غمدان وبينون وسلحين . معجم البلدان ٦ : ٣٠٢ .

(٤) الحضر ، بضم الحاء : اسم مدينة بإزاء تكريت فى البرية ، بينها وبين الموصل والفرات .

(٥) الخابور : اسم نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة . والبيت من قصيدته فى الأغانى ٢ : ١٣٨ ، ١٣٩ (طبع دار الكتب) .

فقتله جَذِيمة الأبرش ، وطَرَد الزَّبّاء إلى الشام ، فلحقت بالرُّوم ، وكانت عربيّةَ اللسان ، كبيرةِ الهمّة.

قال ابن الكلبيّ : وما رُئِيَ أجمل منها فى نساءِ زمانها ، وكان اسمها فارعة ، لهاشعر طويل ؛ إذا مشت سحبتْه وراءها ، وإذا نشرته جَلّلها؛ فسمّيت الزبّاء — والأَزَبُّ الكثير الشعر — وبلغ من همّتها أنها جمعت الرِّجال ، وبذلت الأموال، وعادتْ إلى ديار أبيها ومملكته ، فأزالت جَذِيمة عنها ، وبنتْ على الفرات مدينتين متقابلتين ، وجعلت بينهما أنفاقا تحت الأرض ، وتحصّنت . وكانت قد اعتزلت الرجال، فهى عذراء بَتُول ، وهادنت جَذِيمة مدّة ، ثم خطبها ، فاستدعته وقتلته كما تقدّم فى ترجمته .

فأمّا مقتلها ، فإنّ قصيرا ، لمافارقَ جَذِيمة ، وعاد إلى بلادهِ ، تحيّل على قتلها فجدَعَ أنفَه ، وضرب جسدَه ، ورحَل إليها زاعماً أن عمرو بن عدىّ ابن أخت جَذِيمة صنع به ذلك ، وأنه لجأ إليها هارباً منه ، واستجار بها ، ولم يزلْ يتلطّف لها بطريق التّجارة وكسْبِ الأموال إلى أن وثقت بِه، وعلم خفايا قصرها وأنفاقه. ثم وضع رجالا من قوم عمرو بن عدىّ فى غرائر ؛ وعليهم السِّلاح ، وحملهم على الإبل على أنها قافلة مَتْجر ؛ إلى أن دخل مدينتها ، فحُلُّوا الغرائر ، وأحاطوا بقصرها ، وقتَلها قبل أن تصِل إلى نفقها؛ فى حكاية مشهورة[1] ، وذلك بعد مبعث المسيح عليه السلام .

* * *

(١) الأغانى ١٥ : ٣١٥ — ٣٢٠ .

٢٩ – وَأَنَّ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ إِنَّمَا أَرْدَفَ لَكَ .

[مالك بن نويرة]

هو مالك بن نُويرة بن شدَّاد اليربوعيّ التميميّ[1] ، فارس ذى الخِمار – وذو الخِمار فرسُه – ويلقّب بالجُفول لكثرة شَعْرِه ، وكان من فُرسان العرب وشجعانهم وذوِى الرِّدافة فى الجاهليّة ، وكانت لبنى يربوع أيّام آل المنذر . ومعنى الرِّدف أن يجلس الملكُ ويُجلس الرِّدف عن يمينه ، فإذا شرب الملك شرب الرِّدف بعده ، وإذا غاب جلس الرِّدف مكانه ، وللرِّدف إتاوة تؤخذ مع إتاوة الملك ، وفى ذلك يقول الراجز :

ومن ينافر آل يربوع يخِبْ   المجلس الأيمن والرِّدْف النجِبْ[2]

وأدرك مالك بن نويرة الإسلام وأسلَم ، وبعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على صَدَقات قومه من بنى يَرْبُوع . فلما توفِّىَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أخَّرَ الصَّدَقة ، وقيل : ارتدّ ، وبعث أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد رضى الله عنه لقتال أهل الرِّدّة ، وأوصاه ، فكان إذا صبّح قوماً تسمّع الأذان ، فإن سمعه كفّ عنهم ، وإن لم يسمعه قاتلهم ، إلى أن مرّ بالبُطاح وبه مالك وأصحابه ؛ فقيل : إنهم لم يسمعوا أذاناً ، فقاتلهم ، وأتِىَ بمالك بن نُويرة أسيراً ، فأمر خالد ضرار بن الأزور بقتله فقتله .

واحتجَّ قوم لخالد فى قتله ، وطعن عليه آخرون ، فأمّا من احتجّ ، فيزعم أن مالكا قتِل مرتدًّا ، وأنه لما وقف بين يدى خالد كان يقول فى مخاطبته : « قال : صاحبك » ، و« توفِّىَ صاحبك » – يعنى النّبى صلّى الله عليه وسلّم – فقال له خالد : أوليس هو بصاحبك أيضا ياعدوّ الله ! ثم قتله . ويحتجُّون أيضا بقول أخيه متمّم ؛ وذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما سمع متمّماً يُنشد رثاء أخيه مالك ، قال :

---

(١) الأغانى ١٥ : ٢٩٨ : « متمم بن نويرة بن عمرو بن شداد » .

وَدِدْت لو رثيتُ أخى زيداً بمثل مارثيتَ به أخاك ! قال : والله لوعلمت أنّ أخى صار إلى ماصار إليه أخوك لم أرْثِه ، ولم أحزن عليه ـ يعنى الجنّة .

وأمّا الطّاعنون فذكروا أنّ خالداً لما احتجّ على مالك بارتداده ، أنكر مالك ذلك ، وقال : أنا على الإسلام ، والله ما غيّرتُ ولا بدّلتُ ؛ وشهد قتادة وعبد الله ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ ثم إنّ خالداً أمر بقتله ، فجاءت امرأته ليلَى بنت سنان كاشفةً وجهها . وكانت من الحِسَان ـ فألقت نفسَها عليه ، فقال لها : أنت قتلتِنى ـ يعنى أنها أعجبت خالداً ، وأنه يريد قتله ويتزوّجها ـ وقام ضرار ابن الأزْور فضرب عنقَه ، وجعل رأسه أثْفِيَّةً للقِدْر ، ووجهه مما يلى النار ، فنظرته امرأة من قومه ؛ وهو على تلك الحال ، فقالت : اصرفوا وجهَ مالك عن النار ؛ فإنّه والله كان غضيضَ الطّرف عن الجارات ، حديدَ النّظر فى الغارات لايشبع ليلة يُضاف ، ولا ينام ليلة يخاف .

ثم بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما صنع خالد ؛ فحرّض عليه أبا بكر رضى الله عنه ، وقال : إنه قتلَ مسلماً وزنَى ؛ فارْجُمْه . ووافقه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال أبو بكر : إنّه تأوّل فأخطأ ، وما كنت لأشِيم سيفاً سلّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ـ يعنى أغمِده ـ وما زال عمر حاقداً على خالد بهذه الواقعة حتى عزَله عن جيش الإسلام ، وقال : والله لا ولِىَ عملا فى أيامى .

وكان متمّم بين نويرة منقطعاً إلى مالك ، مكْفِىّ المئونة ، فلمّا قُتِل حزن عليه حزناً شديداً ، ورثاهُ بقصائد مشهورة ، وحضر حين بلغه ذلك إلى مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فصلّى الصّبح خلف أبى بكر ، فلمّا فرغ من صلاته وانفتَل ، قام متمّم فاتكأ على [سِيَةِ] (١) قوسِه وهو واقف مع الناس ، ثم أنشد يقول :

---

(١) من الأغانى والكامل للمبرد ، وسية القوس : ما عطف من طرفيها .

نِعْمَ القتيلُ إذا الرِّياحُ تناوَحَتْ   خَلْفَ الْبُيوت قتلتَ يابن الأزْوَرِ[1]

ثم أومأ إلى أبى بكر رضى الله عنه فقال :

أدَعَوْته بالله ثم غدرتَه[2]   لو هُو دَعَاكَ بذمَّةٍ لم يَغْدِرِ

فقال أبو بكر : والله ما دعوتُه ولا غدرته .

فأنشد بقية أبياته المشهورة[3] ، وانحطّ على قوسه ـ وكان أعور ـ فما زال يبكى حتى دمعت عينه العوراء ؛ فقام إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ودِدت لو رثيتَ أخى زيداً ! فأجابه بما تقدّم ، ثم رَثى زيداً فلم يُجِدْ ، فسئِل عن ذلك فقال : والله إنه ليحرّكنى لأخى مالا يحرّكنى لزيد .

وسأله عمر رضى الله عنه عن حزنه ، فقال : والله إنى لا أنام اللّيل ، ومارأيت ناراً رُفعتْ بليل إلاّ ظننت أنْ نفسى ستخرج ، أذكُر بها نار أخى ، إنه كان يأمر النار فتوقَد حتى يُصبح مخافة أن يبيت ضيفه قريباً منه ، فمتَى رأى النار يأتى إلى الرحْل ؛ وهو بالضيف يأتّى متهجّرًا أسَرُّ من القوم يقدم عليهم القادم من السفر البعيد . فقال عمر رضى الله عنه : أكرم به !

وقال له عمر يوماً : حدِّثنا عن أخيك ، فقال : أسِرْتُ مرّة فى حىّ عظيم من أحياء العرب ، فأقبل أخى ؛ فما هو إلاّ أن طلع على الحاضِر ؛ فما كان أحدٌ قاعداً إلا قامَ ، ولا بقيَت امرأة حتّى تطلّعت من خلال البيوت ، فما نزل عن جمله حتى تلقَّوه بى فى رُمّتى فحلّنى . فقال عمر : إن هذا لهو الشرف ! ثم قال له يوماً : يامتمّم ، إنك لجزْل ، فكيف كان منك أخوك ؟ فقال : كان والله أخى

---

(١) الأغانى ١٥ : ٣٠٦ ، وفيه : « تناوحت تحت الإزار » ، الكامل ٤ : ٧٨ .

(٢) الأغانى : « ثم قتلته » .

(٣) د : « بقية قصيدته » وفى الأغانى : « فقال :

لا يُضمِرُ الفحشاءَ تحت ردائِهِ   حُلْوٌ شمائلُهُ عَفيفُ المئزَرِ

ولنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أنتَ وحاسِرٌ   ولنعم مأوى الطارقِ المتنوّرِ

فى الليلة الباردة ذات الأزيز والصّرير يركب الجمل الثّفال[١] ، ويجنُب الفرس الحرون[٢] ، وفى يده الرّمح الثقيل ، وعليه الشّمْلة الفَلُوت[٣] ، وهو بين المزادتين [المضرّجتيْن][٤] حتى يصبح وهو يبتسم[٥] .

ومن جيّد الرائى متمّم له ، قوله من أبيات :

وَقَالُوا أتبكِى كُلَّ قَبْرٍ أتيتَهُ ... لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ اللِّوى فالدَّكَادِكِ[٦]

فقلتُ لهم إنَّ الأسَى يبعث الأسَى ... دَعُونى فهذا كلُّه قبر مالكِ

ومن جيّد شعر مالك قوله :

ولقد علمتُ ، ولا محالةَ أنَّنِي ... للحادثات فهل ترينى أجزعُ[٧]

أفنيْن عاداً ثم آلَ محرّقٍ ... تركتهم بدَداً وما قد جَمَّعُوا[٨]

وعددتُ آبائى إلى عِرْق الثّرَى ... فدعوتُهم وعلمت أن لم يسمعُوا[٩]

---

(١) الثفال : البطىء الذى لا يكاد ينبعث .

(٢) فى الأغانى : « الجرور » ؛ وهو الذى لا يكاد ينقاد مع من يجنبه ؛ والحرون مثله .

(٣) الشملة : كساء أو مئزر يتشح به ، والفلوت : التى لا ينضم طرفاها لصغرها .

(٤) من الأغانى ؛ والمضرجتان : المشققتان .

(٥) الخبر فى الأغانى ١٥ : ٣٠٧ ،وفى آخره : « ثم يصبح ضاحكا » .

(٦) أمالى القالى ٢ : ١ ؛ من أبيات بهذه الرواية :

لقدْ لامنى عند القبور على البكا ... رفيقى لتذرافِ الدموع السوافِكِ

أمِنْ أجْلِ قبرٍ بالملاَ أنت رائحٌ ... على كلّ قبرٍ أو على كلّ هالك !

فقلت له إنّ الشجَّا يبعث الشجا ... فَدَعنِي فَهـذا كلُّهُ قبْرُ مالكِ

ألم تره فينا يقسّم ماله ... وتأوى إليه مرملاتُ الضرائك !

(٧) من المفضلية ٧ .

(٨) فى المفضليات : « فتركتهم بلدا » ، أى ترابا .

(٩) عرق الثرى ، أى آدم عليه السلام .

ذهبُوا فلم أدركهُمْ ودهَتْهُمُ   غُول الليالى والطريق المُهْيَعُ (١)

وقوله أيضا :

وقالوا لىَ استأثر فإنّك آمنٌ   فقلت إن استأسرت إنى لخائنُ

علامَ تركت المشرفيَّ مضاجِعِى   ومطرّداً فيه المنايا كوامنُ

فإنْ تقتلونِى بعد ذاك فإننى   أموت بمقدارٍ وتبقَى الضغائنُ

* * *

٣٠ — وَعُرْوَةَ بْنَ جَعْفَرٍ إنَّماَ رَحَلَ إلَيْكَ .

[عروة الرحّال]

هو عُرْوة بن عتبةَ بن جعفر من بنى عامر بن صَعْصعة ، وأهل بيته ينتسبون إلى جعفر ، فيقال : الجعفريّون ، ولذلك قال ابن زيدون : «عروة بن جعفر» ، ولم يقبل «ابن عتبة». وكان يعرَف بعروةَ الرّحال لرِحلته إلى الملوك . وكان من ذوِى العقل والشَّهامة ، وهو من أرداف الملوك .

وللعرب مبالغة فى وصفه ؛ فيزعمون أنه رحَل إلى معاوية بن الجَوْن الكِندىّ ، فغزا معاوية بنى حنظلة قومه من بنى عامر ، واستصحبَهُ معه ، فلما كان بوارِدات (٢) قال لمعاويه : إنّ لى حق صُحبة وخُلّة (٣) ، وأريدُ أن أنذر قومِى من ها هنا — وبينه وبينهم مسيرة ليلة — فعجِب معاوية منه ، فأذن له ، فصاح : ياصباَحاه ! ثلاث مرات ، فسمعه قومه من الشّعْب فاستعدُّوا .

---

(١) الغول : ما اغتال الشىء وذهب ، أو المنية . والمهيع : البين الواضح ؛ عنى به طريق الموت .

(٢) واردات : موضع فى طريق مكة ؛ وكان به اليوم المعروف بين بكر وتغلب ابنى ربيعه .

(٣) م : « رحلة » .

وبسبب مقتله قامت حرب الفِجار ؛ وذلك أنّ النّعمان كان يبعث لسوق عُكاظ فى كلّ عام لَطيمة[1] فى جِوارِ رجل شريف من أشراف العَرب يجيزها له من أحياء العرب حتى يبيعَها هناك ، ويشترى له بثمنها من أَدَم الطائف وغيرها مما يحتاج إليه . وكان سوق عكاظ يقوم فى كلّ يوم من ذِى القعدة الحرام ، فيتسوّقون إلى حُضور الحجّ ثم يحجُّون . وكانت الأشهر الحرم أربعة أشهر : ذو القَعْدة، وذو الحِجّة، والمحرّم ، ورجَب . وكانت العرب من ذى القعدة يتهيّئون للحجّ ، ويأمَنُ بعضهم بعضاً ، فجهّز النعمان عِير اللطيمة ، ثم قال : مَنْ يجيزها ؟ فقال البرّاض بن قيْس : أنا أجيزها على بنى كِنانة ، فقال النُّعمان : ما أريد إلاّ مَنْ يجيزها على أهل نَجْدٍ وتِهامة ؛ فقال : عُروة الرّحّال ـ وهو يومئذ رجل هوازن ـ أهذا الكلب يجيزها لك ! أنا أجيزها على أهل الشِّيح والقَيْصوم من أهل نَجْد وتِهامة . فقال البَرّاض : أعلَى بنى كنانة تجيزها ياعروة ! فقال : وعلى النّاس كلِّهم ! فدفَعها النعمان إلى عُرْوة ، فخرج بها، وتبعه البَرّاض ـ وكان فاتكا عَيّارا، وعروة لا يحسّ منه شيئاً ؛ لأنه كان بين ظهرانْى قومه من غَطفَان ـ فنزل بأرض يقال لها أُوارة ، فشرِب الخمر ، وغنّته قَيْنة ، ونام ، فجاء إليه البَرّاض فدخل عليه وأيقظَه ، فناشده عروة ، وقال : كانت منى زلّة ، فقتله ؛ وخرج وهو يرتجز :

قد كانت الفعلة منى ضُلّهْ هلاّ على غيرِى جعلت الزّلّهْ !

وهرب، فضربتِ العَرب المثل بفتْكة البرّاض له ، وقامت حروب عظيمة بسببه .

ومن شعر عروة :

أتعجبُ منّى أم حسّان إذْ رأتْ نهاراً وليلا أبلياني فأسرَعَا !
وقد صار إخوانى كأنّ عليهمُ ثيابَ المنايا والثّغام المنزَّعا

---

(١) اللطيمة : العير تحمل العطر .

من أبيات ،وقد قيل : إنها لعروة الرّجال ، [بالجيم][١] وهو رجل من بنى أسَد .

* * *

٣١ — وَكُلَيبَ بْنَ رَبِيعَةَ إنَّمَا حَمَى المَرْعَى بِعِزَّتِكَ ؛ وَجَسَّاساً إنَّمَا قَتَلَهُ بِأَنفَتِكَ .

[كليب بن ربيعة]

كُليب بن ربيعة بن الحارث الوائلىّ ، الذى يضرب به المثل ، فيقال : أعز من حِمَى كُلَيب ؛ فإنّه رئيس الحَيَّيْن من بَكْرٍ وتغلِب ابنىْ وائل ، وقاد مَعَدَّ كلّها يوم خُزاز ، وفضّ جموع القوم فاجتمعت عليه مَعَدٌّ ، وجعلوا له قَسْم الملك وتاجه وطاعته ، فغبَرَ بذلك حيناً ، ثم دخله زهْوٌ شديد ، وبغَى على قومه ، بما هو فيه من عِزَّةٍ ، واثقا بانقياد معدٍّ له ؛ حتّى بلغ من بغيه وعُتُوِّه أنه كان يحمِى مواقعَ السحاب فلا يُرْعَى حِماهُ ، ويقول : وَحْشُ كذا وكذا فى جِوارى ؛ فلا تهاجُ ولا يوردأحد مع أبلِهِ ، ولا توقد نارٌ مع ناره ، ولا يحتبَى فى مجلسه ، ولا يُتكلَّم إلا بإذنه ، وفى ذلك يقول أخوه بعد قتله :

نُبِّئْتُ أنَّ النَّارَ بعدكَ أوقِدتْ ... واستبَّ بعدَكَ يا كليبُ المجلِسُ[٢]

وتـكلَّمُوا فى أمرِ كُلِّ عظيمةٍ ... لو كنتَ حاضرَ أمرِهِمْ لم ينبِسُوا

وقيل : إنّه كان إذا مرّ بمرعًى قذف فيه جَرْواً يعوِى ، فلا يرعَى أحدٌ من

---

(١) من ط .

(٢) شعراء النصرانية ١٧٩

(٣) النبس : أقل الـكلام ؛ وبعدها :

وإذا تشاء رأيتَ وجها واضحاً ... وذراع باكيةٍ عليها برنُسُ

تبكى عليك ولستُ لائمَ حرّةٍ ... تأسى عليك بعبرةٍ وتَنفّسُ

ذلك الكلأ ؛ ولذلك قيل : «حِمَى كليب وائل» ، يعنون الكلب ويضيفونه إلى وائل ؛ وهو اسم الملك ، ثم غلب هذا القول حتى ظنّوه اسمه .

ومرّ يوما بمرعًى فيه حُمَّرة — وهى طائر صغير ، وقيل : قُبّرة — وقد باضت ، فلما رأته صرصرتَ وخفقت بجناحيْها ، فقال :

أمِن روعك ، أنت فى ذمّتى ! ثم أنشد :

يالكِ من قــبّرةٍ بمعمَرِ خَلاَ لَكِ الجوُّ فبيضى واصفُرِى
* وَنَقِّرى مَا شِئْتِ أَنْ تُنَقِّرِى * (١)

فما جسر صاحب بعير يدخل ذلك المرعَى .

* * *

[جسّاس بن مُرّة]

وأمّا جسّاس فهو ابن مرّة بن ذُهْل ؛ كانت أخته تحت كُلَيب ، وكان بنو جُشَم وشيبان فى دار واحدةٍ ، قبيلتى كُليب وجَسّاس ،وكانت لجسّاس خالة من بنى سَعْد تسمى البَسُوس ، جاورت بنى مرة ، فنزلتْ على ابن اختِها جسّاس ومعها ابنٌ لها ، ولها ناقة خَوَّارة من نَعَم بنى سعد ، ولها فَصِيل ، فندَّت الناقة ذات يوم ، فدخلت فى إبِل كُليب ترعَى فى حِماه ، فنظر إليها فأنكرها ، فرماها بسهْم فى ضَرْعِها فولّتْ حتى برَكَتْ بفِناء صاحبتها ، وضرعُها يَشْخَب دماً ، فلمّا نظرت إليها برزت صارخةً ويدُها على رأسها ، وهى تصيح : واذلاّه ! فلمّا سمع جساس قولَها سكّنها ، وقال : والله لَيُقتَلنّ غداً جَملٌ هو أعظم عَقْراً من

---

(١) من أبيات تنسب إلى طرفة بن العبد ، ديوانه ١٩٣ ، وبعدها هناك :

قَدْ رَحَلَ الصّيادُ عنك فأبشرى قدْ رفَعَ الفخّ فماذا تحذرِى
* لا بدّ يوماً أن تصادى فاصْبِرِى *

ناقتك - يعنى كُليباً . ثمّ انتجع الحىّ ، فمرُّوا على نَهْرٍ يقال له شُبَيْث ، فنهاهم كُلَيب عنه . وقال : لا تردَنّ منه قطرة ، ثم مرُّوا على نهر آخر ، يقال له : الأحصّ ، فنهاهم عنه ؛ فمضوا حتى أتوا الذّنائب ونزلُوا ، فمرّ جساس بكُلَيب ، وهو واقف على غدير الذّنائب منفرداً ، فقال: طردت أهلَنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشا ! فقال كُليب : ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون . فقال له جسَّاس : هذ كفعلك بناقة خالتِي ! فقال : وقد ذكرتها ! أما إنِّى لو وجدتُها فى غبر إبلى مَرّةً أخرى لا ستحللتُ تلك الإبل . فعطف عليه جَسَّاس بفرسه ، فطعنه بالرمح فأرْدَاه ؛ ووجد الموت ، فقال : يا جسَّاس ، اسقِنى ، فقال : هيهات ! تجاوزت الأحَصَّ وشُبيثا ، ثم عطف المزدلف فأجهز عليه .

ثم إنَّ جسّاساً لما فرغ من قتل كليب أمال يده بالفرس حتى انتهى إلى أهله ، فقالت أخته لأبيها : إنّ لجسّاسٍ شأنا ؛ قد جاءنا خارجا ركبتاه[1] . قال : والله ماخرجتْ ركبتاه إلا لأمرٍ عظيم - يعنى أنه كان بركبتيه وضحٌ لا يظهره ؛ فلما جاء قال : ما وراءك يا بُنىّ ؟ قال : ورائى أنى طعنت طعنة لتشتغلنّ بها شيوخُ وائلٍ زَمنا . قال : أقتلت كليبا ؟ قال : نعم ؛ قال : ودِدت أنّك واخوتك مِتّم قبل هـذا ! مابى إلا أن تسأمنى أبناءُ وائل . ثم نظر جسّاس إلى أخيه نَضْلة ، فقال :

وإنِّى قد جنيتُ عليكَ حَرْباً ... تُغِصّ الشيخَ بالماء القَراحِ[2]

مذكّرة منِّى ما يَصْحُ منها[3] ... فتًى نَشَبتْ بآخر غير صاحِ

---

(١) فى الأصول : « ركبتيه » ، وفى ابن الأثير : « بدت ركبتاه » .

(٢) أيام العرب فى الجاهلية ١٤٧ ، قبله :

تأهَّبْ مثلَ أهبةِ ذِى كفاحِ ... فإنّ الأمْرَ جَلّ عن التَّلاَحى

(٣) مذكرة : شديدة .

فأجابه نَضْلَة يُطيّب نفسه :

وإن تَكُ قد جنيتَ عليّ حرباً فلاواهٍ ولا رثّ السـلاح[1]

ثم هرب جَسّاس ، ووقعت بين الحيّيْن حرب البسوس المشهورة ، قيل : أقامت أربعين سنة .

واختُلف فى قتل جَسّاس ، فقيل : إن أبا النويرة قتله هارباً على طريق الشام بعد حِين . وقيل : إنّ ابن أختِهِ هِجْرس بن كُليب كان عند أمّه وأخواله بعد الفِتن ، فلمّا بلغ مبلغ ، الرّجال ، وعرف أنّ خاله جسّاساً قاتل أبيه ، ركبَ فرسه ، وأخذ رُمْحَه ، وأتى نادىَ قومه ، وجسّاس خاله فى النّادى مع جماعة ، فقال : ورمحِى ونَصْليْه ، وسيفى وغِراريْه ، وفرسى وأذُنيْه ، لايترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه . ثم طعن جسّاسا فقتله ولحق بعمُومَتِه .

* * *

---

(١) أيام العرب فى الجاهلية ، ١٤٧ ، وبعده :

جَمْعَتَ بِهَا يَدَيْكَ عَلَى كُلَيبٍ فلا وِكلٌ ولا رَثُّ السِّلاح
ولـكنّى إلى العَـلاّتِ أجرِى إلى الموتِ المحيطِ مع الصباح
وإنّى حـين تشتَجرُ العوالى أعيد الرّمْح فى أثْرِ الجراح
شديد البأس لَيسَ بذى عياءٍ ولـكنّى أبوء إلى الفـلاح
سألبث ثوبها وأذبُّ عنهـا بأطراف العوالى والصّفـاح
فما يبقى لعزّته ذليـلٌ فيمنعه من القدَرِ المتاحِ
فإِنى قدْ طربت وهاج شوقى طِرادُ الخيل عارضَةَ الرّماحِ
واْجمَلُ من حياةِ الذّلّ مَوتٌ وبعضُ العار لا يمحُوه ماحِ

٣٢ – وَمُهَلْهِلاً إِنَّمَا طَلَبَ ثَأْرَهُ بِهِمَّتِكَ .

[مهلهل بن ربيعة]

هو مهلهل بن ربيعة بن الحارث ؛ أخو كليب المقدّم ذكره ، واسمه عديّ ، ولقِّب مهلهلا بقوله :

لَمّا تَوغَّلَ فى الكُرَاعِ هجينهمْ هَلْهَلْتُ أثأرُ مالكا أو صِنْبِلاَ[1]

يعنى قاربت . وقيل : لقِّب مهلهلا لأنّه أوّل من هَلهل نَسْج الشعر ، أى أرقّه . وهو أوّل من قصَّد القصائد ، وقال فيها الغَزل ، وغنّى بالتشبيب من شعره ؛ وهو خال امرئ القيس بن حُجْر ، ومنه ورث إجادة الشعر . وكان أيضاً كثير المحادَثة للنساء ؛ حتى كان أخوه كليب يسمِّيه زِيرَ النّساء ؛ ولذلك يقول بعد قتل كليب وطلب ثأره :

فَلَوْ نُبِشَ المقابرُ عَنْ كُلَيْبٍ ليعلَمَ بالذَّنائب أىّ زِيرِ

وكان من خبره فى هذه الواقعة ، وطلب الثار ـ والثار بالثاء المثلثة : طلب الدم ـ وأصله الهمز ـ أنّ جسّاساً لما قتل كُليباً وفرّ هارباً ، كان همّام بن مرة أخو جساس ينادم مهلهلَ بن ربيعة أخا كليب ، وكان قد صادقه وآخاه ، وعاهَده ألاّ يكتم عنه شيئاً ، فجاءت إليه أمُّه فأسرّت إليه قتلَ جَسّاسٍ كليباً ، فقال له مهلهل : ما قالت لك ؟ فلم يخبِرْه ، فذكّره العهد ، فقال : أخبِرْت أنّ أخى قتل أخاك . فقال : لَاستُ أخيك أضيقُ من ذلك ! فسكت همّام ؛ وأقبل على شرابهما ، فجعل مهلهل يشربُ شرب الآمِنِ ، وهمّام يشرب شرب الخائف ، فلم تلبث الخمرة أن صرعتْ مهلهلا ، فانسلّ همّام وأتى قومَه ، وقد قوّضوا الخِيَم ، وجمعوا

---

(١) اللسان ـ هلل ؛ قال : « يقوله لزهير بن جناب » ، أمالى القالى ٢ : ١٢٩ ، قال : الكراع : أنف الحرة » .

الخيل والنَّعَم ورحلوا ، فرحَل معهم،فظهر أمر قتل كليب ، وفاق مُهلهل فصحّح الخبر ، واجتمعتْ إليه وجوهُ قومِه ، فقالوا : لاتعجلوا على قومكم حتى تُعذِروا[1] بينكم وبينهم ؛ فانطلق رَهْطٌ من أشرافهم حتى أتَوْا مُرّة بن ذُهْل ، فعظَّموا ما بينهم وبينه ، وقالوا : اختر منّا خِصالا ، إمّا أن تدفع إلينا جَسّاساً فنقتله بصاحبنا ــ فلم يظلِم مَنْ قتل قاتله ــ وإما أنَّ تدفع إلينا همّاماً فنقتله ، وإمَّا أنْ تقِيدَنا من نفسك ؛ فسكت وقد حضرته وجوه بكْر فقالوا : تكلَّمْ غيرَ مخذول !

فقال : أمّا جسّاس فإنه غلام حَدَث السنّ ، ركب رأسَه ؛ فهرب حين خاف ، ولا علم لى به . وأمّا أخوه همَّام فأخو عشرة ، وأبو عَشَرة ، ولو دفعتُه لكم لَصَيَّح بنوه فى وجهى ، وقالوا : دفعتَ أبانا ليُقتل فى ثأر غيره ؛ وأمَّا أنا فلا أتعجَّلُ الموت ، وهل تزيد الخيل على أن تجول جولة ؛ فأكونَ أوّل قتيل ! ولكن هل لكم فى غير ذلك ؟ هؤلاء بنىّ ، فدونكم فخذوا أحدهم فشُدُّوا نِسْعَةً[2] فى رقبته فاقتلوه ، وإنْ شئتم فلكم ألفُ ناقة .

فغضبوا وقالوا : إنَّا لم نأتِك لتبذل لنا بنيك ، أو لتسومَنا اللّبن ! فتفرّقوا . فقام مهلهل وشمّر للحرب ، وبدا القتلُ ، واستحرّ بين الفريقين إلى أن كان يوم وَاردات ، وقد عظم القتل فى بكْر ، فاجتمعوا إلى الحارث بن عُبَاد بن مالك ــ وكان قد اعتزلَ الحرب ، وقال : لا ناقة لى فيها لا جمل ؛ فذهبت مثلا ــ فقالوا له : قد فنِيَ قومُك ؛ فأرسل ابنه بُجيراً ــ وقيل : ابن أخته ــ إلى مهلهل ، وقال له : قُلْ له : أبو بُجَير يقرئك السَّلام ، ويقول لك : قد علمت أنِّى قد اعتزلتُ قومى ؛ لأنهم ظلموك ، وخلّيتُك وإيّاهم ؛ وقد أدركت وِتْرَك[3] ، وقتلت قومَك .

---

(١) حتى تعذروا ؛ أى يكون لكم عذر .
(٢) النسعة : سير مضفور يجعل زماما للبعير .
(٣) ط : « ثأرك » .

فأتى بُجير مهلهلا وهو فى قومه ، فقال له : خالى يقرئُك السّلام ، فقال له : مَن خالك ياغلام ؟ ونزا نحوه بالرّمح ، فقال له امرؤ القيس بن أبان التغلَبىّ : مهلا يامهلهل ؛ فإنّ أهلَ بيت هذا قد اعتزلوا حربنا ، ووالله لئن قتلتَه ليُقتَلنَّ به رجل لا يُسأل عن خالِه . فلم يلتفت مهلهل إلى قوله ، وشدّ عليه فقتله وقال : بؤ بِشِسْع نَعل كليب[1] . فقال الغلام : إنْ رضيتْ بهذا بنو تغلِب رضيت .

فلما بلَغ الحارث بن عُباد قتلُه ، قال : نعم الغلام أصلح بين ابنى وائل وباء بكليب ، فلما سمعوا قول الحارث قالوا : إن مهلهلا قال له : « بُؤْ بشِسْع نَعْل كُلَيب » ، فغضِب الحارثُ ، ونهض للقتال . واستمرّت الحروب بين الحيّين دهراً طويلا ، وفَنِيَ معظمهُم ، وقتِل همام وغيره إلى أن قام فى الصُّلح الحارث ابن عوف المرّىّ ، كما سيأتى عند قوله : « وإنّ الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك » . وآل أمر مهلهل إلى أن رحل إلى أخواله من بنى يَشكر فريداً وحيداً ، وأقام بين أظهرهم إلى أن مات ، وقيل : قتِل .

وكان سبب قتله — كما ذكر ابن الكلبىّ — أنه أسنّ وخرف ، وكان له عبدان يخدمانه فملاَّ منه ، وخرج بهما يريد سفرا ، فأناخا به فى بعض الفَلَوات ، وعزَما على قتله ، فلما عرف ذلك كتب بسكّين على رَحْل ناقته هذا البيت — وقيل فى بعض الروايات أنه أوصاهما أن يقولا لولديه :

مَنْ مبلغُ الحيَّين أنّ مهلهلاً ... لله درُّكما ودَرُّ أبيكما

ثم قتلاه ، ورجعا إلى قومه ، فقالا : مات ؛ وأنشداهم قوله ، ففكّر بعض ولده ، وقال : إنَّ مهلهلا لا يقول هذا الشعر الذى لا معنًى له ، وإنما أراد أن يقول :

مَنْ مُبْلِغُ الحَيَّيْنِ أنَّ مُهَلْهِلاً ... أمْسَى قَتيلاً فى الفَلاَةِ مُجَدَّلاَ

---

(١) سشع النعل : قبالها الذى يشد إلى زمامها .

لِلّٰهِ دَرُّكُما وَدرُّ أبيكُما   لا يبرح العبدانِ حَتَّى يُقتَلاَ

فضربوا العبدَيْن ؛ فأقرّا بقتله ، فقتلا به .

وشعر مهلهل من أعلى طبقات المتقدّمين ، ومن ذلك قوله :

بِكُرهِ قلوبنا يا آل بكرٍ   نُغاديكم بمرهَفة النِّصَالِ

لها لَوْنٌ من الهامات جَوْنٌ   وإن كانَتْ تحادَثُ بالصِّقَالِ

ونبكى حين نذكركمْ عليكمْ   ونقتلكمْ كأنّا لا نبالِى

وهذه الأبيات هى أصل ما اعتمدت عليه الشعراء فى هذا المعنى ، وأميرهم[(١)] البحترىّ فى قصيدته العينيّة[(٢)] .

ومن ذلك قوله — أعنى مهلهلا :

أَلَيْلتنَا بذى حُسُمٍ أنيرِى   إذا أنت انقضيتِ فلا تحورِى[(٣)]

---

(١) كذا فى م ، وفى ت : « وأمهرهم » .

(٢) ديوانه ٢ : ٣١٦ – ٣١٨ ، يمدح المتوكل ، ويذكر صلح تغلب ؛ وفيها :

أسيتُ لأخوالِى ربيعةَ إذ عَفَتْ   مصايفُ مِنْهاَ وأقوتْ ربوعُها

بِكُرْهِىَ أنْ باتَتْ خلاءً ديارُها   ووحْشاً مَغانِيها وشتَّى جَمِيعُها

إذا افترقوا عَنْ وقعةٍ جَمَّعتهمُ   لأخرى دِماءٌ ما يُطَلُّ نجيعُها

تذمُّ الْفتاةُ الرُّودُ شِيمة بَعْلِها   إذا بات دُون الثّأْر وهْو ضَجيعُها

حَمِيَّة شَعْب جاهلِىّ وعِزّةٌ   كُلَيْبيّة أعيا الرِّجالَ خضوعُها

وفرسان هَيْجاءٍ تجيش صُدورُها   بأحقادها حتى تضيق دُرُوعُها

تقتّل من وِترٍ أعزَّ نفوسِها   عليها بأَيْدٍ ما تكادُ تطيعُها

إذا احتربتْ يوماً ففاضت دماؤها   تَذَكّرتِ الْقُربَى ففاضَتْ دُموعُهَا

شواجر أرْماحٍ تقطِّعُ بينهُمْ   شواجرَ أرْحامٍ ملومٌ قطوعُهَا

(٣) أمالى القالى ٢ : ١٢٩ – ١٣٤ ، الأغانى ٥ : ٤٥ (طبع دار الثقافة). ذوحسم : موضع بعينه . وتحورى : ترجعى .

فإنْ يكُ بالذَّنائِب طَالَ لَيْلِي   فَقَدْ أبكِي مِنَ اللَّيْلِ القصير[١]
وأنقذنى بياضُ الصُّبح مِنْهَا   لقد أُنقِذْتُ مِنْ شَرٍّ كثير
كأنَّ كواكبَ الجوزاء عُوذٌ   مُعَطَّفَة عَلَى رُبَعٍ كَسِيرِ[٢]
كأنَّ الفرقدين يدا مُفِيضٍ   ألحّ على إفاضته قمير[٣]
فلو نُبش المقابرُ عن كُلَيْبٍ   لخُبِّرَ بالذنائب أىّ زيرِ![٤]
وإنّى قد تركتُ بواردات   بُجيراً فى دمٍ مثل العبيرِ[٥]
هتكتُ به بيوتَ بنى عُبَادٍ   وبعض الغَشْمِ أشفَى للصُّدُورِ[٦]
على أنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ   إذَا ما ضِيمَ جيران المجيرِ
على أنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ   إذا برزت مخبّأة الخدورِ

ومنها بعد أن كرر قوله :

* عَلَى أنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ *

فى أبيات كثيرة على عادة العرب فى تكرار القول فى الأمور العظيمة ، وتقريرها - وبهذه الأبيات استشهد المفسرون لقوله تعالى

---

(١) قال أبو على : « يقول : إن كان طال ليله بهذا الموضع فقتل أخى ؛ فقد كنت أستقصر الليل وهى حى » .

(٢) العوذ : الحديثات النتاج ، واحدتها عائذ ، والربع : ما نتج فى الربيع ؛ يقول : كأن كواكب الجوزاء نوق حديثات النتاج عطفت على ربع مكسور ، فهى لا تتركه وهو لا يقدر على النهوض .

(٣) قمير : مقامر ؛ وهذا البيت لم يذكر فى رواية القالى .

(٤) يقال : هو زير نساء وتبع نساء وطلب نساء ، والخبر محذوف كأنه قال : أى زير أنا !

(٥) بجير ، ابن أخى الحارث .

(٦) كذا فى رواية الأغانى ، وفى الأمالى : « وبعض القتل » ، وبعده هناك :

وهمّام بن مُرّةَ قد تركْنا   عليه القشعمين من النّسورِ

والقشعم من النسور : الهرم .

فى سورة الرحمن : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، وتكرير هذه الآية الشريفة ـ

كأنّا غُدْوَةً و بنى أبينـا ... بجنب عُنيزةٍ رَحيا مُديرِ[1]

كانّ رماحنا أشطانُ بئرٍ ... بعيدٍ بين جالَيها جَرورِ[2]

تظلّ الخيل عاكفةً عليهم ... كأنّ الخيل تنهض فى غديرِ[3]

فلولا الريح أُسْمِعَ مَنْ بِحُجْرٍ ... صليلَ البَيْضِ تُقْرَع بالذُّكورِ[4]

يقال : إنّ هذا أوّل كذِب ورد فى الشعر وأبلغه؛ فإنّ بين الذنائب وحُجر[5] سبع ليال .

ومن ذلك قوله :

قَتَلُوا كليبا ثم قالوا لا تثبْ ... كَلَّا وربِّ البيت ذى الإحرامِ[6]

حتّى يَعَضّ الشيخ بعـد خميَّةٍ ... مِمَّا يَرَى جزعا على الإبهامِ

وتجولُ رَبَّاتُ الخدورِ حَوَاسِراً ... يمسحْنَ عَرْض ذوائب الأيتامِ[7]

وقوله :

طَفْـلَةٌ شَثْنَةُ المخاخل بيضا ... ء لَعوبٌ لذيذةٌ فى العِناقِ[8]

---

(١) فى شرح شواهد المغنى للبغدادى : « قال أبو عبيد البكرى فى شرح نوادر القالى المسمى قرة النواظر فى شرح النوادر : الرحيان إذا أدارهما مدير أثرت إحداهما فى الأخرى ؛ وهما من معدن واحد ؛ وكذلك هؤلاء ، هم من أصل واحد يتماحقون ويقتتلون » .

(٢) الأشطان : جمع شطن وهو الحبل الشديد الفتل يستقى به . وجال البئر : ناحيتها والجرور من الآبار : البعيدة القعر .

(٣) الأمالى : « تدحض » ؛ قال : « أى تزلق ؛ يقال : مكان دحض ومزلة » .

(٤) الأمالى : « أهل حجر » . والذكور : السيوف .

(٥) حجر : قصبة اليمامة وحريمهم إنما كانت بالجزيرة ، وبينهما عشرة أيام .

(٦) شعراء النصرانية ١٧٥ ، مع اختلاف فى الرواية .

(٧) يروى « عرض تمائم الأيتام » .

(٨) الأغانى ٥ : ٤٦ (دار الثقافة) ، شواهد العينى ٤ : ٢١٢ . طفلة ، أى ناعمة .

ضربت صدْرَها إلىَّ وقالت ياعديًّا لَقَد وَقتك الأواقى[١]

ومنها يرثى كليبا :

إنَّ تحت الأحجار حَزْماً وعَزْماً وخَصِيما ألدّ ذا مِعْــلاقِ

حَيّة فى الوَغَى ، وأربَدُ لا تَنْـ ـفع منه السَّليمَ نفثة راقِ[٢]

قوله : « ذا مِعْلاَق » ؛ يروى بالعين ، وهو الرجل الكثير الخصومة الشديدها ، كأنه يعلَق بخصمه ، ويروى بالغين ، كأنه يغلِق على خصمه القول ، وجميع شعره فى هذه الغاية من التمكّن والقوّة .

* * *

٣٣ — وَالسَّمَوءَلَ إِنَّماَ وَفَى عَنْ عَهْدِكَ .

[السموءل بن عادياء]

هو السَّموءل بن عادياء ، من يهود يثرب ، الَّذِى يُضرب به المثل فى الوفاء ، فيقال : « أوفى من السّموءل » ؛ وسببُ ذلك أنّ أمرأ القيس بن حُجر الكندىّ لما قتِل أبوه وكان ملكا فى كِنْدة ، خرج يستنجد بملِك الروم كما سيأتى ذكره ، فلمّا مرّ على تيماء وبها حصن السّمَوءل المسمى بالأبلق المذكور فى شعره ، أودع السموءل مائةَ درع وسلاحا ومضَى ؛ فسمع الحارث بن ظالم — وقيل : الحارث بن أبى شَمِر الغَسّانىّ — بها ، فجاء ليأخذها منه ، فأبى السموءل، وتحصّن بحصنِه ، فأخذ الحارثُ ابن السّموءل وناداه ، وقال له : إنْ لم تسلِّم

---

(١) البيت من شواهد الألفية للعينى ، قال : الاستشهاد فيه فى قوله : « يا عديا » ؛ فإن الشاعر لما اضطر نون « عديا » الذى هو منادى مفرد معرفة ، ثم لما نونه نصبه ، تشبيهاً بالمضاف.

(٢) الحية، تطلق على الذكر والأنثى ، والوجار : جحر الضبع، ويستعار لغيرها والأربد: الذى يضرب لونه إلى السواد .

الأَدْراعَ وإلاّ قتلت ابنَك ، فأبى أن يسلِّم له الأدراع ، فضرب وسطَ الغلام بسيفه فقطعه — وأبوه يراه — وطرحه وانصرف . فقال السموءل فى ذلك قصيدته التى [يقول فيها[١]] :

أعاذِلَتِي ألا لا تعــــذُلينِي فكَمْ مِنْ أمرِ عاذلةٍ عصيتُ![٢]
وفيْتُ بأدرُعِ الكندىّ إنّى إذا ما ذُمّ أقوامٌ وفيتُ[٣]
وأوصَى عاديًا يومًا بألاّ تهدّمَ يا سموءل ما بنيتُ
دعِيني وارشُدى إن كنت أغوَى ولا تَغْوَىْ ـ زعمْتِ ـ كما غويتُ

ومات امرؤ القيس قبل أن يعود إلى تَيماء ، ومنعَ السموءل الأدراع إلى أن مات هو أيضاً ، فضرِب به المثل ؛ وفى ذلك يقول الأعشى :

كُنْ كالسَّمَوْءلِ إذْ طافَ الهُمامُ بهِ فِي جَحْفَلٍ كَسوادِ اللّيْلِ جَرّارِ[٤]
[إذْ سامَه خُطّتَىْ خسفٍ فقال له مهما تَقُلْهُ فإنّى سامعٌ حارِ][٥]
فقال : غَدْرٌ وثُكْلٌ أنت بينهما فاخترْ وما فيهما حظٌّ لمختـارِ
فشكَّ غير طويلٍ ثم قال له اقتُلْ أسيرَك إنّى مانعٌ جارِى

والسموءل هذا من شعراء الجاهلية المجيدين ، وله فى الحماسة اللاميةُ المشهورة وهى قوله[٦] :

إذَا المَرْءُ لم يَدْنَسْ منْ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ[٧]

---

(١) من د . ت « فى ذلك قصيدة » .
(٢) ديوانه ٤٩ ، ٥٠ ، الأغانى ٦ : ٣٣٢ ، مع زيادة ونقص واختلاف فى الروايات.
(٣) الأغانى : « إذا ما خان » .
(٤) ديوانه ١٢٦ .
(٥) تكملة من الديوان.
(٦) كذا فى د ، وفى ط: « اللامية المشهورة عند أرباب البديع ، أولها يقول » .
(٧) القصيدة فى ديوانه ١٠ ــ ١٧ ؛ ولم يرد فى الأصول الخطية سوى البيت الأول ، والأبيات التالية له وردت فى ط .

[وإنْ هُوَ لَمْ يحملْ عَلَى النَّفس ضَيمَها   فليسَ إلى حُسْن الثنـــاءِ سبيلُ
تعيِّرنا أنَّا قليـــلٌ عَدِيدُنا   فقلتُ لهَا إنَّ الكرام قليـــلُ
فما ضرَّنا أنَّا قليـــلٌ وجارُنَا   عزيزٌ وجار الأكثرين ذليلُ][1]

وله أيضاً :

إنِّى إذا ما المرءِ بُيِّنَ شَـكْلُهُ   وبدتْ عواقبُه لمن يتـــأمَّلُ[2]
وتبرَّأ الضُّعفَـــاء من إخوانِهمْ   وألحّ من حُرِّ الصَّمِيم الكلكلُ
أَدعُ الَّتى هى أرفق الخلاَّت بى   عنـــد الحفيظة لِلَّتى هى أجملُ

وله :

يا ليتَ شعرى حين أندبُ هالِكًا   مـــاذا تؤنِّبنى به أَنْوَاحى![3]
أيقلن لا تبعَدْ فربّ كريهـــةٍ   فرّجتُهـــا بشـــجاعةٍ وسَمَاحِ
ولقـــد أخذتُ الحقَّ غير مخاصِمٍ   ولقد بذلتُ الحقَّ غـــير مُلاحِ

* * *

٣٤ - وَالْأَحْنَفَ ، إنَّما احْتَبَى فِي بُرْدِكَ .

[الأحنف بن قيس]

هو الأحنَف المضروب به المَثَل فى الحِلْم والسِّيادة ، واسمه الضَّحَّاك - وقيل : صَخْر - بن قيس بن معاوية بن حصن السّعدىّ ، ويكنى أبا بَحْر .

أدرك النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم يرَه ، ودعا له . حدّث الأحنفُ قال : بينما أنا أطوف بالبيت فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ إذ لقيَنى رجلٌ أعرفه ، فأخذ بيدى ، فقال : ألا أبشِّرك ؟ قلت : بلَى : قال : أما تذكُر إذْ بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومِك من بنى سَعْد أدعوهم إلى الإسلام ؛ فجعلت

---

(١) تكملة من ط .

(٢) ديوانه ٥١ ، نقلا عن سرح العيون ، وفى د والديوان : « بين شكه » . وفى م : « بين سكة » .   (٣) ديوانه ٥٠ ، عن سرح العيون .

أدعوهم وأعرض عليهم ؛ فقلتَ أنت : إنّه يدعوكم إلى خير ، ولاأسمع إلاّ حَسَناً ؛ فإنّى رجعت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم فأخبرته بمقالتك ، فقال : اللهم اغفر للأحنف ! قال : فما شيء أرجى لى منها .

وسمِّىَ الأحنف لحَنَفٍ فى رِجْله، وكانت أُمّه ترقِصُه وهو طفل ، فتقول :

واللهِ لولا حَنَفٌ فى رِجْـلِهِ ما كانَ فى فتيانِـكم من مثلِهِ

يقال : تحانَفَ الرجلُ فى مِشيته ، وهوأن تقبل الرِّجْل بالإبهام على الأخرى .

وقال عبد الملك بن عُمَير : وفَدَ علينا الأحنف مع مُصْعب بنِ الزبير الكوفة ، فما رأيتُ منظرا يُذَمّ إلاّ رأيتُه فيه؛ كان ضئيلا ، أصلعَ الرأس ، متراكب الأسنان ، باخق[1] العينين ، وكان إذا تكلّم جلّى عن نفسه .

وقال الشعبيّ : أوفد أبو موسى الأشعريّ وفد البصرة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفيهم الأحنفُ بن قيس ، فلمّا قدِموا على عمر ، تكلّم كلُّ رجل منهم فى حاجة نفسه ؛ وكان الأحنف فى آخر القوم ، فحمِد الله تعالى وصلى على نبيّه ، ثم قال : أمّا بعد يا أميرَ المؤمنين ، فإنّ أهل مصر نزلوا منازل فِرْعون وأصحابه ، وأهل الشام نزلوا منازل قَيْصر ، وأهل الكوفة نزلوا منازل كِسرى ومصانعه؛ فى الأنهار العذبة والجنان المخصبة، وفى مثل عين البعير[2]، وكالحُوارِ فى السَّلَى[3] ، تأتيهم ثمارهم قبل أن تتغيّر ؛ وإن أهل البصرة نزلوا فى أرض سَبِخة

---

(١) باخق العينين ، منخسف العينين .

(٢) الفائق : «نزلوا فى مثل حدقة البعير من العيون العذاب » ، قال فى شرحه : « شبه بلادهم فى خصبها وكثرة مائها بحدقة البعير وحولاء الناقة ، لأن الحدقة توصف بكثرة الماء . وقيل : أراد أن خصبها دائم لا ينقطع » .

(٣) الحوار : الفصيل أول ما ينتج ، والسلى : الجلدة الرقيقة التى يكون فيها الولد ؛ تكون للناس والإبل والخيل . وفى الفائق : وروى « إن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا فى مثل حولاء الناقة » . قال فى شرحه: « والحولاء : جلدة رقيقة تخرج مع الحوار كأنها مرآة مملوءة ماء أصفر » .

زعِقة ، نشّاشة[١] ؛ طرف[٢] فى مِلْح أجاج ، والطّرف الآخر فى الفَلاة ، لا يأتيها الجلَب الاّ فى مثل حُلْقوم النعامة ، فارفع خسيستنا[٣] ، وانعش رَكِيستنا[٤] ؛ واعدل لنا قفيزنا ودِرْهَمنا ، ومر لنا بنهر نستعذب منه الماء[٥]. فقال عمر رضى الله عنه : أعجزتم أن تكونوا مثل هذا العبد ! هذا والله السيّد ! فما زلت أسمعها منه، ثم حبسه عنده سنَة ، ثم قال : يا أحنفُ ، إنِّى قد بلوتك فأعجبتَنى ؛ وإنما حبستُك لأعلم علمك ؛ فإنّى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « احذرُوا المنافق العالم » ؛ وأشفقت عليك منه ، فوجدتك بريئاً مما تخوَّفتُ عليك ، وسرّحه ، وأحسن جائزته .

ولم يزل يُشرَّف حتى مات ، وساد بعقله وحلمه حتى يكاد يجرّد لأمره مائة ألف سيف ، وكان أمراء الأنصار يلتجئون إليْه فى المهمّات ، وكان إذا أراد حرباً قال الناس : قد غضبتْ زبراء ، فصار مثلا . وزبراء جاريته فكان مطيعاً لها ، فكانوا يَكنون عن غضبه فى الحرب بغضبها .

وكان يقول : كنا نختلف إلى قيس بن عاصم نتعلّم منه الحلم ، كما نختلف إلى العالم نتعلم منه العلم[٦] .

---

(١) فى اللسان « سبخة نشاشة ، أى لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها » .
(٢) كذا فى ت ، وفى باقى الأصول : « طرفها » .
(٣) فى اللسان عن الأزهرى: «يقال: رفع الله خسيسة فلان ؛ إذا رفع حاله بعد انحطاطها». ومنه حديث الأحنف : « إن لم ترفع خسيستنا » وفى ت : « خسيسنا » .
(٤) يعنى الحال الضعيفة. والركيس : الضعيف .
(٥) حديث الأحنف وما فيه من غريب فى الفائق ١ : ٢٤٥ .
(٦) فى أخبار الأحنف فى ابن خلكان ١ : ٢٣١ : « وكان يقول : ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقرى ؛ لأنه قتل ابن أخ له بعض بنيه ؛ فأتى بالقاتل مكتوفا يقاد إليه ؛ فقال : ذعرتم الفتى ؛ ثم أقبل على الفتى فقال : يابنى ؛ بئس ما فعلت ! نقصت عددك ، وأوهنت عضدك ، وأشمت عدوك ؛ وأسأت بقومك ؛ خلوا سبيله ، واحملوا إلى أم المقتول ديته ؛ فإنها غريبة . ثم انصرف القاتل ، وما حل قيس حبوته ، ولا تغير وجهه » .

وحكى خالد بن صفوان ؛ قال : كنت بالرُّصافة عند هشام بن عبد الملك ، فقدِم عليه العباس بن الوليد ، فغشيْته الناس، فدخلت عليه ، فقال : حدّثنى عن تسويدكم الأحنَف ، وانقيادكم له ؛ فقلت : إنْ شئت حدّثتك عنه بواحدة تسوِّد، وإن شئت باثنتين ، وإن شئت بثلاث ، وإن شئتَ حدَّثتُك عشيّتَك حتى تنقضىَ ولم تشعر بصومك — وكان صائماً فى يوم خميس— فقال : هات الأولى؛ فقلت : كان أعظم مَنْ رأينا أو سمعنا سلطاناً على نفسه فيما أراد حملَها عليه ، أو دفْعَها عنه ، ثم أدركنى ذهنى فقلت : غير الخلفاء .

فقال : لقد ذكرتَها نجلاء كافية ؛ فما الثانية ؟ قلت : قد يكون الرّجل عظيمَ السُّلطان على نفسه ولا يكون بصيراً بالمحاسن والمساوى ، ولَم نرَ ولم نسمع بأحد أبصر منه بالمحاسن والمســاوى ؛ فلا يحمل السلطنةَ إلا على حسن ، ولا يكفها إلاّ عن قبيح .

فقال : قد جئت بصلةٍ الأولى لا تصلح إلا بها ؛ فما الثـالثة ؟ قلت : قد يكون الرّجل عظيم السلطان على نفسه ، بصيراً بالمحاسن والمساوى ، ولا يكون حظِيظاً فلا ينشر له ذكر ، وكان الأحنف عند الناس مشهوراً .

قال : وأبيك لقد وصلت الاثنتين ، فما بقيّة ما يقطع عنى الصوم العشيّة ؟ قلت : أيّامه السالفة ، مثل : فتح خراسان ، اجتمعت عليه الأعاجم بمَرْو الرّوذ ، فجاءه ما لا قبَل له به ، وهو فى منزل مضِيعة ، وقد بلغ به الأمر ، فصلّى العشاء الآخرة ودعا ، وتضرّع إلى الله تعالى أن يوفّقه . ثم خرج يمشى فى العسكر مشى المـكروب متنـكّراً ليسمع ما يقول الناس ، فمرّ بعبد يعجن وهو يقول لصاحب له : العجَب لأميرنا ! يقيم بالمسلمين فى منزل مضِيعَة ، وقد أطاف بهم العدوّ من

نواحيهم ، واتَّخذوهم أغراضاً ؛ وله متحوَّل ! فجعل الأحنف يقول : اللّهم وفِّق ، اللهمّ سدّد . فقال العبد للعبد : فما الحيلة ؟ قال : أن ينادى السّاعة بالرحيل ، وإنّما بينه و بين الغيضة فرسخ ، فيجعلها خلف ظهره فيمنعه الله بها ؛ فإذا امتنع ظهره بها بعث بمجنِّبتيْه اليمنى واليسرى ، فيمنع الله تعالى بهما ناحيته ، ويلقى عدوّه فى جانب واحد . فسجد الأحنف ثم نادى بالرّحيل من مكانه ؛ حتى أتى الغَيْضة ، فنزل فى قِبَلِها ، وأصبح فأتاه العدو، فلم يجدوا سبيلا إلّا من وجه واحد وهوَّلوا بطبول أربعة ، ورکب الأحنف ، وأخذ اللواء ، وحمل بنفسه على طبل فشقّه ، وقتل صاحبه وهو يقول :

إنَّ عَلَى كُلِّ رئيسٍ حَقَّا أن يخضب الصَّعْدَة أو تَنْدَقّا

وشقّ بقيَّة الطُّبول ، فلمّا فقد الأعاجم أصوات طبولِهم انهزموا ، وركب المسلمون أكتافهم ، وكان الفتح . ثم عدّد خالد عنه بقيّة يومه[1] إلى أن انقضى [النهار][2] .

وللأحنف حكايات حسنة ، وألفاظ محكمة ، ومؤاخذات معدودة عليه . فمن حكاياته ما حدّث بعضُ غلمانه ، قال : كان الأحنف يكثر الصّلاة بالليل ، وكان يجيء إلى المصباح فيضع إصبعه فيه ثم يقول : حَسٍّ ، ويقول : ما حملك على أن صنعت كذا وكذا فى يوم كذا ؟

وشكا إليه رجل وجعَ ضِرْسه ، فقال : لقد ذهب نور عينى منذ ثلاثين سنة ، ما علم بذلك أحد .

وقال له عمر رضى الله تعالى عنه : أىّ الطعام أحبُّ إليك ؟ قال : الزُّبد

---

(١) ط : « أيامه » .
(٢) من ط .

والكمأة ، قال عمر : ماهما بأحبّ الطعام إليه ؛ ولكنه يحبّ الخصب للمسلمين — يعنى أن الزُّبد والكمأة لا يكونان إلا فى الخِصْب .

وخلاَ به رجل فسبّه سبًّا قبيحاً ، فقام الأحنف وهو يتبعه ، فلما وصل إلى قومه وقفَ وقال : يا أخى ؛ انْ كان قد بقىَ من قولك فضلة فقل الآن ، وإلاّ يسمعك قومى فتؤذَى .

وقال له رجل : بمَ سُدْتَ قومك ولستَ بأشرفهم ؟ فقال : بتركى من أمرك مالا يعنينى ؛ كما لم تترك من أمرى مالا يعنيك .

وقال له رجل : لأشتمنّك شتما يدخل معك قبرك ، فقال : فى قبرك يدخل والله لافى قبرى .

وقيل له : بم سدتَ ؟ قال : (١لوأنَّ الناس كرهوا الماء ما شربتُه١) .

وقال يوماً : ما يسرُّنى أنى نزلت بدار مَعْجزة ؛ وأنى ألبنْت فأسْمنت . قيل له : يا أبا بحْر ، وما يراد من دار الحَزْم غير هذا ! فقال : إنى أكره سُوء العادة .

ووفد على معاوية مع أهل العراق ، فقال آذِنُه : إنّ أمير المؤمنين يُقسم عليكم ألاّ يتكلم أحدٌ منكم إلاّ لنفسه ، فدخلوا ، فقال الأحنف : لولا حرمة أمير المؤمنين لأخبرتُه أنّ نازلة نزلت ، ونائبة نابت ، وكلّهم به فاقة إلى رِفْد أمير المؤمنين ! فقال : حسبُك يا أبا بحر ؛ فقد كَفَيْت مَنْ غاب ومن شهد .

وذكَّره معاوية يوماً بصحبته لعلىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه وأيام صِفّين ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، لَلْقلوب التى أبغضناك بها بين جنوبنا ؛ والسيوف

(١ — ١) د : « قال : لو أن بينى وبين الناس شعرة ما قطعت ، ولو كرهوا الماء ما شربته » .

التى قاتلناك بها على عواتقنا ، و إن شئت استصفيت كدرَنا بحلمك ، فقال : أجلْ .

ومما عيب به وأخِذ عليه أمْر الزبير بن العوام رضى الله عنه ؛ وذلك أنّه لمـا ترك القتال يوم الجمل ، ورجع عن الحرب مرّ ببنى تميم ذاهباً إلى دياره ؛ فأتى رجل الأحنف فقال : هذا الزّبير قدم آنفا ، فقال : ما أصنع به ؟ جمع بين غارَيْن (١) يقتل بعضهم بعضا،ويريد أن ينجوَ هو إلى أهله . فتبعه ابن جُرموز فقتله غدراً ، فقال الناس : إنما قتله الأحنف بـكلامه ذلك ؛ وإنّ ابنَ جُرموز إنَّما فعل عن رأيه .

وحين أتاه كتاب الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما يستنصره ، فقال : قد بلوْنا حسناً وآل حسن فلم نجدْ عندهم إيالة الملك ، ولا صيانة المال ، ولامكيدة الحرب ؛ ولم يجبه .

وقوله للحُتات بن يزيد : اسكت يا آدر ؛ وكان الُحتات آدر .

وطاعته لجاريته زَبْراء ؛ حتى سئل عن ذلك ، فقال : كيف لا أطيع مَن لى إليه كلّ يوم حاجة !

وأتاه رجل فلطمه ، فقال : لم لطمتَنى ؟ قال : جُعِل لى جُعْل على أن ألطم سيّد بنى تميم ؛ قال : لستُ بسيّدهم ، وإنما سيّدهم حارثة بن قُدامة ، فمضى الرجل إليه فلطمه ، فقطع يده ، فقال الناس : إنما قطع يده الأحنف .

وأرسل إليه عمرو بن الاهتم رجلا يكايده ، فقال : ما كان مال أبيك ؟ ففطِن له الأحنف ، فقال : صِرْمة يقْرى منها ضيفَه ، و يكفى عياله ، ولم يـكن أهتم سلاّحا .

فهذا ما حفظ من سقطاته . وقريب منها أنه خاط عنـد رجل ثوباً ، ثم تقاضاه دهراً ، فلما ضجر أخذ بيد ولده وجاء إلى الخيّاط فقال : إذا متّ فادفع الثوب لهذا .

---

(١) الغار هنا : الجيش .

ومن كلامه : لا خير فى لذّة تُعقِب ندما . لن يفتقر مَن زهد . اقبلوا عذر مَنْ اعتذر . ما أقبح القطيعة بعد الصّلة ! أنصِفْ من نفسك قبل أن يُنتصَف منك . لا تـكونَنّ على الإسـاءة أقوى منك على الإحسان . اعلم أنّ لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ؛ فأنفق فى حق ولا تـكونن خازنا لغيرك . لا راحة لحسود، ولا مروءة لكذوب . عجبت لمن يتكبّر وقد خرج من مخرج البول مرّتين !

وقال يوماً : ما رُدِدت عن حاجة قطّ ، فقيل له: ولم؟ قال: لأنى لا أطلب المُحال.

وقال : ما نازعنى أحدٌ إلا وأخذت فى أمره بثلاث : إن كان فوقى عرفت له فضْله ، و إن كان دُونى رفعت قدرى عنه ، و إن كان مثلى تفضّلت عليه .

وقال له رجل : دلَّنى على المروءة ، فقال : عليك بالُخلق الفسِيح ، والـكفّ عن القبيح ؛ ثم قال : ألاَ أدلُّك على أدوأ الدّاء ؟ قال : بلَى ، قال : اكتسابُ الذّمّ بلا منفعة .

وقال يوماً : كانت المودة مَحْضاً ، فليتها اليوم مَذْقًا(١) !

ومن شعره :

ولو مدّ سَرْوِى بمـالٍ كثيرٍ   لجدتُ وكنتُ له باذلاَ(٢)
فإنّ المروءة لا تسـتطاعُ   إذا لم يكن مالهـا فاضلاَ

وكان يجلس إليه رجل كثير الصّمت ، فأعجب به الأحنف، ثم تـكلّم يوما فقال : يا أبا بحْر ، تقدر تمشى على شرف المسجد ؟ فقال : يا أخى ، إنِّى كبرت ولا أقدر على ذلك ، ثم أنشد يقول :

وكائنْ ترَى مِنْ صامِتٍ لك معجبٍ   زيادتُه أو نقصُه فى التّـكلُّم(٣)

---

(١) المحض : اللبن الخالص ، والمذق : المخلوط بالماء .
(٢) السرور : الشرف والسيادة . وانظر البيان ٢ : ٢٩٢ .
(٣) لزهير فى معلقته بشرح الزوزنى ، وانظر شعراء النصرانية ٥٢٤ .

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يبق إلاّ صورة اللحم والدمِ

فرواها قوم له ، وقيل : تمثّل بها وهى لغيره ، فإنها أرفع طبقة من شعره .

ومات بالكوفة سنة تسع وستين ، وخرج مصعب بن الزبير فى جنازته ماشياً بغير إزار ، وهو أوّل أمير فعل ذلك فى جنازة كبير . ولما وضع فى قبره قامت امرأة له فقالت : لله درّك من مُدْرَج فى كفن ! نسأل الله الذى ابتلانا بفقدك ، أن يوسّع لحدك ، ويكون لك يوم حشرك . أما والّذى كنت، من أمره إلى مدة ، لقد عشتَ حميداً مودوداً ، ومتّ شهيداً مفقوداً ؛ ولقد كنتَ من النّاسِ قريبا ، وفى الناس غريبا . رحمنا الله وإياك !

* * *

٣٥ — وَحَاتِمًا إنَّما جَادَ بِوَفْرِكَ .

[حاتم الطائىّ]

هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطّائىّ ، وكنيته أبو سَفّانة وأبو عدىّ . وأجوادُ[١] العرب فى الجاهليّة ثلاثة : حاتم الطائىّ ، وهرِم بن سِنان ، وكَعْب بن مامة ؛ وحاتم أشهرهم ذكراً ، أدرك مولد النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ومات قبل مَبْعثه .

وحكِي عن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه ، أنه قال يوما : سبحان الله ! ما أزْهَد كثيرا من الناس فى الخيْر ! عجبا لرجل يجيئه أخوه المسلِم[٢] فى حاجة ، فلا يرى نفسه للخيْر أهلا ![٣] فلو كان لا يرجُو ثوابا ، ولا يخاف عقابا[٣] ؛ لكان ينبغى له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق ؛ فإنها تدل على سبيل النجاح[٤] .

---

(١) ت : « أجود » . (٢) ساقطة من الأغانى .

(٣ — ٣) الأغانى : « فلو كنا لا نرجو جنة ولا نخاف نارا ، ولا ننتظر ثوابا » .

(٤) الأغانى : « النجاة » .

فقام إليه رجلٌ فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أسمعتَه من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؟ قال : نعم [وما هو خير منه][١] ؛ لما أُتِيَ بسبايا طَيِّئٍ ، وقفت جارية عَيْطاء لَعْساء[٢] ، فلمّا رأيتها أعجبت بها ، وقلتُ : لأطلبنّها من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، فلمّا تكلّمتْ أُنسِيتُ جمالَها بفصاحتها ، فقالت : يا محمد ، إنْ رأيتَ أن تُخَلِّيَ عنّى ، ولا تشمِتِ بى أحياءَ العرب ، فإنّى ابنة سيّد قومى ، و[٣] إن أبى كان يفكّ العانِيَ ، ويشبِعُ الجائع ، ويكسُو العارى ، ولم يردّ طالبَ حاجةٍ قطّ[٣] ؛ أنا ابنة حاتم الطّائىّ . فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : « يا جارية ، هذه صفة المؤمن ، ولو كان أبوكِ مسلماً لترحّمنا عليه ، خلُّوا عنها ؛ فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق ؛ [والله يحبّ مكارم الأخلاق] »[٤] .

وقال عدىّ بن حاتم : قلت للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : إنّ أبى كان يُطعم المساكين ، ويعتق الرقاب ، ويصل الرّحِم ، فهل له فى ذلك أجر ؟ قال : « إن أباكَ رام أمرا فأدركه » ــ يعنى الذِّكْر .

وأوّل ما ظَهر من جُود حاتم أنّ أباه خَلَّفه فى إبله وهو غلام ، فمرّ به جماعة من الشعراء ، فيهم عَبيد بن الأبرص ، وبِشْر بن أبى خازم ، والنّابغة الذبيانىّ ، يريدون النُّعمان ، فقالوا لحاتم : هل من قِرًى ؟ ولم يعرفهم ، فقال : تسألونى[٥] القِرى وقد رأيتم الإبل والغنم ! انزلوا . فنحر لكلّ واحد منهم ،

---

(١) من الأغانى .

(٢) العيطاء : الطويلة العنق . واللعساء : من كان لونها أدنى إلى السواد مشربا بحمرة . وفى الأغانى : « جارية حماء حوراء العينين لعساء لمياء عيطاء شماء الأنف معتدلة القامة، ردماء الكعبين ، خدلجة الساقين،لفاء الفخذين،خميصة الخصر ، ضامرة الكشحين، مصقولة المتنين » .

(٣ ــ ٣) الأغانى : « كان أبى يفك العانى ويحمى الذمار ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام، ولم يرد طالب حاجة قط » .

(٤) من الأغانى ؛ والخبر هناك فى ١٦ : ٩٣ (ساسى) .

(٥) تسألونى ؛ كذا فى الأصول ، بحذف نون الرفع ، وهو مشهور فى كلامهم من غير ناصب ولا جازم .

وسألهم عن أسمائهم فأخبروه[(١)] ، ففرّق فيهم الإبل والغنم . وجاء أبوه فقال : ما فعلت ؟ قال : طوّقتُك مجدَ الدّهر تطويق الحمامة ، وعرّفه[(٢)] . فقال أبوه : [إذاً والله لا أساكنك أبدا ولا أوويك ، فقال حاتم][(٣)] : إذاً لا أبالى ! [فاعتزله][(٣)] .

وحكى عن زوجته النّوار[(٤)] ، قالت : أصابتْنا سنة اقشعرّت لها الأرضُ ، [واغبرّ أفق السّماء ، وراحت الإبل حُدْباً حدابير][(٥)] ، وضنّت المراضِع على أولادِها ، [فما تبِضّ بقطرة ، وجلَفت السَّنةُ المالَ ، وأيقنا أنه الهلاك][(٦)] ، فوالله إنّا لَفِى ليلة صِنَّبر[(٧)] بعيدة ما بين الطَّرفين ، إذ تضاغَى[(٨)] أولادنا : عبد الله ، وعدىّ ، وسفّانة ؛ فقام حاتم إلى الصبيّين ، وقمت إلى الصبيّة ، فوالله ماسكتوا إلّا بعد هدأة من الليل ثم ناموا ، ونمت أنا وإيّاه ، فأقبل يعلّلنى بالحديث ، فعرفت مايريد ؛ فتناومتُ ومايأيتنى نوم ، فقال : مالها ؟ أنامتْ ! فسكتّ ، ثم تهوّرت النّجوم[(٩)] إذا شىء قد رفع كِسْر[(١٠)] البيت ، فقال : من هذا ؟ فولّى ثم عاد ، فقال : من هذا ؟ ، [فولّى ثم عاد فى آخر الليل ، فقال : مَنْ هذا ؟][(١١)] ، قالت : جاريتك فلانة ، قال : مالك ؟ قالت: الشرّ ! أتيتك

---

(١) الشعر والشعراء : « فتسموا له »
(٢) الشعر والشعراء : « وأخبره بما صنع » .
(٣) الزيادة من الشعر والشعراء : والخبر هناك فى الجزء الأول ص ١٩٤
(٤) وكذا فى الشعر والشعراء ، وفى الأغانى « عن امرأته ماوية » .
(٥) من الشعر والشعراء . الحدب : جمع حدباء ؛ وهى التى بدت حراقفها وعظم ظهرها . والحدابير : جمع حدبار ؛ وهى العجفاء الضامرة التى قد يبس لحمها من الهزال.
(٦) من الشعر والشعراء ، وأصل الجلف القشر ؛ فكأن السنة قشرت المال ، والجالفة : السنة التى تذهب بأموال الناس .
(٧) صنبر : باردة .
(٨) تضاغوا : تصايحوا .
(٩) تهورت النجوم : ذهب أكثرها .
(١٠) الكسر : اول الشقة السفلى من الخباء .
(١١) من الشعر والشعراء .

من عند صبية[١] يتعاوون تعاوِىَ الذئابَ من الجوع ،[فما وجدتُ معوّلاً إلا عليك أبا عدىّ][٢] ، قال : أعجليهم . فهببت إليه ، فقلت : ماذا صنعت ! فوالله لقد تضاغَى صبيتك من الجوع فما أصبتُ مايعلّلهم ! فقال: اسكتى . وأقبلت المرأة تحمل اثنين[٣] ويمشي جانبها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها ، فقام إلى فرسه حلّاب فنحره ، وكشط جلده[٤] ، ودفع المُدية إلى المرأة ، ثم قال : ابعثى صبيانك ، فبعثتهم فاجتمعنا ، فقال : تأكلون دون أهل الصِّرْم[٥] ! ثم جعل يأتيهم[٦] بيتا بيتا و يقول: دونكم النار ، فاجتمعوا فالتفع بثوبه ناحية ينظر إلينا ، فوالله ماذاق منهـا مُزْعة[٧] ، و إنّه لأحوجهم[٨] ؛ وأصبحنا وما على الأرض إلاّ عظم أو حافر[٩] .

وحكى ابن الأعرابىّ ، قال: أسِر حاتم فى عَنَزَة[١٠] ، فقالت له امرأة يوما . قم فافصد لنا هذه الناقة[١٠] ــ وكان الفصد عندهم أن يُقْطَع عِرْق من عروق الناقة ، ثم

---

(١) الشعر والشعراء : « أصيبية » . (٢) من الشعر والشعراء .

(٣) الشعر والشعراء : « ابنين » .

(٤) الشعر والشعراء : « فوجأ لبته بديته فخر ثم كشطه » .

(٥) الصرم ، بالكسر : الأبيات المجتمعة المنقطعة من الناس .

(٦) ط : « يأتى » .

(٧) المزعة : القطعة من اللحم ونحوه .

(٨) الشعر والشعراء : « وإنه لأحوج إليه منا » .

(٩) الخبر فى الشعر والشعراء ١ : ١٩٥ ـ ١٩٧ ، وفى الأغانى ١٦ : ١٠٤ ـ ١٠٥ « ساسى » ؛ وزاد فى الشعر والشعراء : « فعذلته على ذلك ، فأنشأ حاتم يقول :

مهلاً نَوَارُ أقِلِّى اللَّوْمَ والعَذَلا ... ولا تقولى لشئٍ فات : ما فعلا !

ولا تقولى لمـالٍ كنتُ مهلكَهُ ... مهلا، و إن كنتُ أعطى الجنّ والخبَلا

يَرَى البخيلُ سبيلَ المـال واحدةً ... إنّ الجوادَ يرى فى مالِهِ سُبُلاَ

لاَ تَعْذُلِينِىَ فى مالٍ وصَلتُ بِهِ ... رِحْماً ، وخيرُ سبيلِ المال ما وصلا

(١٠ ـ ١٠) رواية الأغانى ١٦ : ١٠٣ : فجعل نساء عنزة يدارئن بعيرا ليفصدنه ؛ =

يجمع الدم فيشوَى ويؤكل ـ فقام حاتم إلى الناقة فعقرها ، فلطمته المرأة ، فقال : لو غيرُ ذات سوار لطمتني ! فذهبت مثلا . ثم قال له النسوة : إنما قلنا لك : افْصدها ، قال : هذا فَزْدِى أنَهْ ، يعني فَصْدى أنا ، وهى لغة طيِّئ .

وحكى المدائنيّ ، قال : أقبل ركبٌ من بني أسَد ، ومن قيس ؛ يريدون النّعمان ، فلقوا حاتماً ، فقالوا : تركنا قومنا يُثْنون عليك خيراً ، وقد أرسلوا إليك رسالةً ، قال : وما هى ؟ فأنشده الأسديّون شعراً لعَبيد ولبشر يمدحانه[١] ، فلما أنشدوه ، قالوا : إنا نَستحيي أن نسألك شيئا ، وإن لنا لحاجة ! قال : وماهى؟ قالوا : صاحبٌ لنا قد رجِل ـ يعنى فقد راحلته ـ فقال حاتم : خُذوا فرسى هذه فاحمِلوه عليها ، فأخذوها ، وربطت الجارية فِلْوَها بثوبها فأفلت[٢] يتبع أمّه ؛ واتبعته الجارية ، فصاح حاتم : ما تبعكم من شىء فهو لكم . فذهبوا بالفرس والفِلْو والجارية[٣] .

ولحاتم أخبار كثيرة ، وشهرته مغنية[٤] . وكانت أمّه عِنبة[٥] بنت عَفيف موسرة ، لا تُمسِكُ[٦] شيئاً ، وكان إخوتها يمنعونها مالها فتأبى ، فحجروا عليها سنة

= فضعفن عنه ، فقلن: ياحاتم ، أفاصده أنت إن أطلقنا يديك؟ قال: نعم ، فأطلقن إحدى يديه؛ فوجأ لبته، فاستدمينه. ثم إن البعير عضد ــ أى لوى عنقه ، أى خر ــ فقلن : ماصنعت ؟ قال : « هكذا فصدى » ، فجرت مثلا ، قال . فلطمته إحداهن ، فقال : ما أنتن نساء عنزة بكرام ولا ذوات أحلام . وإن امرأة منهن يقال لها عاجزة أعجبت به ، فأطلقته ؛ ولم ينقموا عليه ما فعل ، فقال حاتم يذكر البعير الذى قصده :

كذلكَ فصدِي إن سألت مطيّتِي دم الجوفِ إذْ كُلُّ الفِصادِ وخيمُ

(١) كذا فى ت ، وهو يوافق ما فى الأغانى ؛ وعبيد بن الأبرص وبشر بن أبى خازم أسديان ، وفى ط : « شعرا للنابغة فيه » ، والنابغة ليس من بنى أسد .

(٢) ت : « فانقلب » .

(٣) الخبر فى الأغانى ١٦ : ١٠٤ ، وبعده هناك : « وإنهم وردوا على أبى حاتم، فعرف الفرس والفلو ، فقال : ما هذا معكم ؟ فقالوا : مررنا بغلام كريم ، فسألناه فأعطى الجسيم » .

(٤) كذا فى ت ، وفى ط : « شهرة زائدة » .

(٥) وكذا فى الشعر والشعراء ، وفى الأغانى : « غنية » .

(٦) الأغانى : « لاتليق شيئا » ، أى لا تمسك .

يطعمونها قوتها ؛ لعلّها تكفّ عمّا تصنع ، ثم مكّنوها من صِرْمة[١] من إبلها ، وقالوا : استمتعِي بها ، فأتتها امرأة من هوازن فسألتها ، فقالت: دُونك الصِّرْمة ، فقد والله ذقتُ من الفقر ما آليت ألاّ أمنع سائلا شيئا[٢].

* * *

وحاتم من فحول الشعراء ، ومن محاسن شعره قوله — رحمه الله إن شاء بكرمه :

أعاذلُ إنّ المال غير مخلّدِ ... وإن الغنى عاريَةٌ فتزوّدِ
وكم من جواد يفسد اليومَ جودَه ... وساوسُ قد ذكّرنَهُ الْفقر فى غدِ
وكم ليم آبائى فما كفّ جودَهُمْ ... ملامٌ ومن أيديهمُ خلقتْ يدى

وقوله يخاطب امرأته :

أماوِيّ إنّ المال غادٍ ورائحٌ ... وَيبْقَى من المال الأحاديث والذِّكْرُ[٣]
أماوىّ ما يغنى الثراء عن الْفتى ... إذا حَشْرَجتْ يوماوضاقَ بها الصَّدْرُ
أماوىّ إنْ يُصبح صداى بقَفْرَةٍ ... من الأرض لا ماءٌ لدىّ ولا خَمْرُ
تَرىْ أنّ ماأهلكتُ لم يك ضَرَّنِى ... وأنّ يدِى مما بخلتُ به صِفْرُ
وقد علِمَ الأقوامُ لَوْ أنَّ حاتما ... أراد ثَراء المالِ كانَ لَهُ وَفْرُ
وإنِّىَ لا آلو بمالِى صنيعةً ... فأوّلُه زادٌ وآخِرهُ ذُخْرُ

(١) الصرمة : القطعة من الإبل مابين العشرين إلى الثلاثين
(٢) الأغانى ١٦ : ٩٣ ، وبعده هناك : ثم أنشأت تقول :

لعمرِى لقدْمًا عضّنِى الجوعُ عَضّةً ... فآليتُ ألاَّ أمنعَ الدّهرَ جائعاً
فقولا لهذا اللائمى اليوم أعْفِنِى ... فإن أنتَ لم تفعل فعضّ الأصابعاَ
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكمْ ... سوى عذلِكُمْ أوعذْل مَنْ كانمانعا
وما إن ترَوْن اليومَ إلاّ طبائعاً ... فكيف بتركى يابن أمّ الطبائعا !

(٣) ديوانه ١١٨ .

غَنِنيا زماناً بالتَّصعلُكِ والغِنَى ... وكلاًّ سقاناه بكأسيهما الدَّهْرُ
فما زادنا بغياً على ذِى قرابةٍ ... غِنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الْفَقْرُ

وقوله يصف طارقاً :

عوا آيساً شبْه الجنون وما بِهِ ... جنونٌ ، ولكن كيد أمرٍ يحاولُهْ
فأثقبْتُ نارِى ثم أبرزت ضوءها ... وأخرجت كلبِى وهوفى البيت داخلُهْ
وقلت له أهْلاً وسَهْلاً ومرحباً ... رَشَدْتَ ، ولم أقعد إليه أسائلُهْ
وقمت إلى البُزْل الهِجان أعدُّها ... لوجْبة حقّ نازلٍ أنا فاعِلُه

وقوله أيضا :

حَنَنْتُ إلى الأجبالِ أجبال طَيِّئٍ ... وحَنَّتْ قَلُوصِى أن رأت سَوْطاً أحْمَرا[1]
وإنّى لمزجٍ للمطىِّ على الْوَجَى ... وما أنا من خُلاَّنك ابْنَةَ عَفْزَرا
فلا تسأليني واسألى أىّ فارسٍ ... إذا الخيل جالت فى قناً قَدْ تَكَسَّرا[2]
فلا تسأليني واسألى بى صَحابتى[3] ... إذا ما المطىّ فى الْفَلاَة تَضَوَّرَا
رأتنى كأشْلاَء اللّجام ولن تَرَىْ[4] ... أخا الحرْبِ إلاَّ ساهِمَ الْوَجْهِ أغْبَرَا
أخو الحرْب إن عَضَّتْ به الحرْب عضَّها ... وإن شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِها الحرْبُ شَمَّرَا

وقوله أيضاً :

وَعَاذِلَتَيْن هَبّتا بَعْدَ هَجْعَةٍ ... تلومان متلافاً مفيدا ملوّما[5]

---

(١) ديوانه ١٢٢ .
(٢) الديوان :

* إذا بادَرَ الْقَوْمُ الكنيفَ المتبّرا *

(٣) الديوان : « وأسألى بى صحبتى » .
(٤) الديوان : « وإنى كأشلاء اللجام » .
(٥) ديوانه ١٠٨ .

لَحَا اللهُ صُعْلُوكاً مُنَــــاهُ وَهَمُّهُ من العيشِ أن يلقى لَبُوسا ومطعَمَا
وِللهِ صُعلوك يُســـاوِرُ هَمَّهُ ويمضى على الأحداث والهول مُقْدِمَا
إذا ما رأى يوما مَــكارِمَ أعرضَتْ تيمّـــمَ كبراهُنّ ثُمّت صَمَّمَا

* * *

٣٦ – وَزَيْدَ بْنَ مُهَلْهِلٍ إنَّما رَكِبَ بِفَخِذَيْكَ .

[زيد الخيل]

هو زيد بن مهلهل بن زيد الطائىّ ، فارس مظفّر بعيــد الصِّيت ، أدرك الإسلام وأسلم ، وسمّاه رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « زيد الخير » .

وهو شاعر مفلِق ، معدود من الشّعراء والفرسان ، وإنّما سُمِّىَ زيد الخيل لكثرة خيله ؛ فإنّه لم يكن لكثير من العرب غير الفرس والفرسيْن ، وكانت له خيل كثيرة ، منها المسمّاة المعروفة التى ذكرها فى شعره ، مثل : الهطّال ، وكامل ودءول ، ولاحق[1] .

وكان زيد الخيل عظيمَ الخِلْقة طويلا جداً ، ويسمى مقبّل الظُّعُن ، لأنه كان

---

(١) وذكر منها أبو الفرج الأصفهانى أيضا : الكميت والورد ، قال : وفى الهطال يقول :

أقرِّب مربط الهطّـالِ إنّى أرى حربا ستلقَح عن حيالِ

وفى الورد يقول :

أبتْ عادةٌ للوَردِ أنْ يكرهَ القنا وحاجة نفسى فى نُميرٍ وعامرِ

وفى دءول يقول :

فأقسمُ لا يفارقنى دءول أجولُ به إذا كثر الضِّرَابُ

قال : « هذا ما حضرنى من تسمية خيله فى شعره » ، وقد ذكرها الأغانى ١٦ : ٤٦ (سامى) .

يقبل المرأة من الأرض وهى فى الهودج ، وكذلك أبو زبيد الطائىّ ، وابن جِذْل الطّعَان ، كما ذكره الرّواة .

وحكى أبو عمرو الشيبانىّ ، قال: وفد زيد الخيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه زِرّ بن سَدُوس وغيره[١] من طيّئ ، فأناخوا ركابَهم بباب المسجد ، ودخلوا ورسول الله صلّى الله عليه وسلم يخطبُ الناس ، فلما رآهم قال : « إنّى خيرٌ لكم من العُزّى ، ومما حازت مناع ، ومن كلّ ضارّ غير نفّاع ، ومن الجمل الأسود الّذى تعبدونه من دون الله » ، فقام زيد الخيل — وكان من أتمّ الرجال، يركب الفرس ورجلاه تخطّ فى الأرض كأنه على حمار — فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال : ومن أنت ؟ قال : زيد الخيل بن المهلهل ، قال : « بل أنتَ زيد الخير » ، ثم قال : « الحمد لله الذى جاء بك من سَهْلِك وجبلك ، ورقّق قلبك على الإسلام . يا زيد ، ما وصِف لى رجل فرأيته إلاّ كان دون ما وُصف إلا أنت ، فإنّك فوق ما قيل فيك » . وفى رواية أخرى : « إن فيك خَصلتيْن يحبّهما الله ورسوله : الأناة والحلم » . فلما ولى قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: «أىّ رجلٍ إن سلم من آطام المدينة!» فأخذته الحمى [فأنشد يقول:

أنختُ بآطام المدينةِ أرْبعاً ... وخمساً يغنّى فوقَها الليلَ طائرُ
شددتُ عليها رَحْلَهَا وشليلَها ... من الدّرْسِ والشَّعراءِ والبطن ضامرُ][٢]

فمكث سبعاً، ثم اشتدّت به الحمّى فخرج وقال لأصحابه: جنّبونى بلاد قيْس، فقد كانت بيننا حماسات فى الجاهليّة ، ولا والله لا أقاتل مسلما حتى ألقى الله عزّ وجلّ . فنزل بماء لجَرْم[٣] يقال له : فَرْدَة ، واشتدّت به الحمّى ، فقال :

---

(١) فى الأغانى « زر بن سدوس النبهانى وقبيصة بن الأسود بن عامر بن جوين الجرمى ومالك بن جبير المعنى ، وقعين بن خليل الطريفى ، فى عدة من طيئ » .

(٢) زيادة من الأغانى . والشليل : مسح من صوف أو شعر يجعل على جزع البعير من وراء الرحل ، والدرس : البالى ، والشعراء : ما فيه شعر .

(٣) الأغانى : « بماء لحى من طيئ » .

أَمُرتحِلٌ صحبِى المشارقَ غُدْوَةً وأتركَ فى بيتٍ بفردةَ مُنْجِدِ ! (١)
فليت اللَّواتِى عُدْنَنِى لم يَعُدْنَنِى وليتَ اللَّواتِى غِبْنَ عنّى عُوَّدِى (٢)

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم كتب معه لبنى نَبْهان كِتابا بفَدَك ، فمكث زيد الخيل بفرْدَة سبعاً ثم مات ، فأقام عليه قَبيصة بن الأسود النّياحة سبعا ، ثم بعث راحلته ورحْله ، وفيه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلمّا نظرت امرأته ـ وكانت على الشِّرْك ـ إلى الراحلة وليس عليها زيد ، ضربتها بالنار (٣) ، فاحترق الكتاب فيما احترق ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربَها الراحلة بالنار واحتراق الكتاب قال: «ويل (٤) لبنى نبهان!» (٥)

وحكى الشيبانىّ عن شيخ من بنى (٦) عامر ، قال : أصابتنا سَنَةٌ (٧) ذهبت بالأموال ، فخرج رجل من القوم بعياله حتى أنزلهم الحِيرة ، فقال لهم : كونوا قريباً من الملك ليصيبكم من خَيْره حتى أرجع إليكم ؛ وآلى ألِيَّة لا يرجع حتى يُكسبهم خيراً [أو يموت] (٨) . فتزوّد زاداً ، [ثم مشى يوما إلى الليل ،

---

(١) بعده فى الأغانى :

سقى الله ما بين القفيلِ فطابةٍ فما دون أرمام فما فوق منشدِ

ـ القفيل وطابة وأرمام ومنشد أماكن ـ

هنالِكَ لو أنّى مَرِضتُ لعادنِى عوائدُ مَنْ لم يشف منهنَّ يَجْهَد

(٢) الخبر فى الأغانى ١٦ : ٤٧ . وانظر الأبيات أيضا فى معجم البلدان ٤ : ٣٥٧ .

(٣) فى الأغانى : « وقالت :

ألاَ إنّما زيدٌ لكلِّ عظيمةٍ إذا أقبلتْ أوبَ الجرادِ رعالُهَا
لقاهُمْ فما طاشتْ يداه بضربِهِمْ ولا طعنِهم حتّى تولّى سجالَهَا

(٤) الأغانى : « بؤساً » .

(٥) الخبر فى الأغانى ١٦ : ٤٨ .

(٦) الأغانى : « من بنى نبهان » .

(٧) الأغانى : « أصابت بنى نبهان » .

(٨) من الأغانى .

فإذا هو بمهر مقيّد؛ يدٍ ورجْل حول خِباء، فقال: هذا أول الغنيمة ، فذهب يحُلّه ويركبه فنودى : خلّ عنه واغنم نفسك ، فتركه ومضى](١) ؛ ثم مشى سبعة أيام حتى انتهى إلى عَطن إبلٍ مع تطفيل الشمس ؛ فإذا خِباء عظيم، وفيه قبّة من أدَم . قال: فقلت فى نفسى: ما لهذا الخِباء بُدّ من أهل، وما لهذا العَطن بدٌّ من إبل(٢)! فنظرت فى الخِباء ، فإذا شيخٌ قد اختلفتْ ترْقُوتاه كأنّه نَسْر، فجلست خلفه مختفيا . فلما وَجَبت الشمس ، إذا بفارسٍ قد أقبل لم أرقطُّ فارساً أعظَم منه ولا أجْسَم ، على فرس مُشرِفٍ ، ومعه عبدان(٣) يمشِيان جنبيْه ؛ وإذا مائة من الإبل مع فحلها ، فبرَكَ الفحل وبرَكْنَ معه وحوله، [ونزل الفارس](١) فقال: لأحد عبديْه : احْلُب فلانة ، ثم اسقِ الشيخ . فحلَب فى عُسٍّ حتى ملأه ، ثمّ وضعه بين يدى الشيخ وتنحّى ، فكرع الشيخ منه مرّة أو مرّتين ثم نزَع ، فثرتُ إليه مختفياً فشربتُه ، فرجع العبد ، فقال : يا مولاى ، قد أتى عَلَى آخر العُس . ففرح وقال له : احلب فلانة، فحلبها ، ثم وضع العُسّ بين يدى الشيخ فكرع منه [كرعة](١) واحدة ، ثم نزع . فثرت إليه فشربت نصفه ، وكرهتَ أن آتى على آخره ؛ [فأتّهم](١) ؛ فجاء العبد فأخذه [وقال لمولاه :قد شرب وروى ، فقال: دعه].(١) ثم أمر مولاه بشاة فذبحها ، وشوى للشّيخ منها ، ثم أكل هو وعبْداه ، فأمهلت حتّى إذا ناموا وسمعتُ الغطيطَ ثُرْت إلى الفحل ، فحللت عقاله [وركبْتُه](١) فاندفع، وتبعته الإبل،فمشيتُ ليلتى حتى الصَّباح ، (٤فلما علا النهار إذا أنا بفارس قد أقبل٤) ، وإذا هو صاحبى ، فعقلت الفحل ، ونثلتُ كنانتى ، ووقفت بينها

---

(١) من الأغانى

(٢) الأغانى : « رب » .

(٣) الأغانى : «أسودان » .

(٤ـ٤) الأغانى: « فلما أصبحت نظرت فلم أر أحداً ، فشللتها إذا شلا عنيفا حتى تعالى النهار ، ثم التفت التفاتة فإذا أنا بشىء كأنه طائر ؛ فما زال يدنو حتى تبينته ؛ فإذا هو فارس على فرس » .

و بين الإبل ، فوقف بعيداً وقال [لى][١] : احلل عقاله[٢] ، فقلت : كلا ؛ لقد تركت نُسَيّاتٍ بالحِيرة ، وآليت ألاّ أرجعَ إليهنّ حتى أفيدهنّ خيراً أو أموت . قال : فإنّك ميت ، حُلّ عِقاله لا أبالك[٣] ! فقلت : هو ما أقول لك ، قال : إنّك لمغرور ، ثم قال: انصب لى خِطامه ـ وفيه ثلاث عُجَر[٤] ـ ففعلت ، فقال: أين تحب[٥] أن أضع سهمى ؟ فقلت : فى هذا الموضع ، فكأنما وضعه بيده ، [٦]ثم رمَى الثلاثة صائبا فرددت نَبلِى ووقفت مستسلماً[٦] . فدنا منّى ، فأخذ السّيْف والقوس ، ثم قال : اركب[٧] ، وعرف أنّى الذى شربت اللبن عنده ، فقال : كيف ظنّك بى ؟ قلت : أسوأ[٨] الظنّ ، قال : وكيف ؟ قلت : لما لقيت من تعبٍ ليلتَك ؛ وقد أظفرك الله بى ، فقال : أتُرانى كنت أهيّجك وقدبتّ تنادم مهلهلا ! قلت : أزيد الخيل أنت ؟ قال : نعم ، فقلت : كنْ خير آخذٍ ، قال : لا بأس عليك ، ومضى بى إلى موضعه [الذى كان فيه][٩] ، ثم قال : أمَا لو كانت هذه الإبل لى لسلّمتها لك ؛ ولكنها لابنة مُهلهل . فأقم علىّ . فأتى على شَرَف غارة ، فأقمت أياما ، ثم أغار على بنى نُمير [١٠]بالملْح ، فأصاب إبلا فأعطانيها[١٠] ،

---

(١) من الأغانى .
(٢) الأغانى : « احلل عقال الفحل » .
(٣) الأغانى : « لا أم لك » .
(٤) العجر : جمع عجرة ؛ وهى العقدة .
(٥) الأغانى : « تريد » .
(٦ ـ ٦) الأغانى : « ثم أقبل يرمى حتى أصاب الخمسين بخمسة أسهم ، فرددت نبلى وحططت قوسى ، ووقفت مستسلما » .
(٧) الأغانى : « ارتدف خلفى » .
(٨) ط : « أحسن » .
(٩) من الأغانى .
(١٠ ـ ١٠) الأغانى : « فأصاب مائة بعير ؛ فقال : هذه أحب إليك أم تلك ؟ قلت : هذه ، قال : دونكها » .

وبعث معى خفراء[1] من ماء إلى ماء حتى وردت الحيرة[2] .

وحكى الأصمعىّ ، قال : أسَرَ زيد الخيل الحطيئةَ الشاعر وكعب بن زهير فى حرب ، فأمّا كعب ففداه قومُه ، وأمّا الحطيئة الشاعر فشكا الحاجةَ، فقال زيد :

أقول لعبدِى جرولٍ إذْ أسرْتُه ⁂ أثِبْنِى ولا يغرُرْكَ أنَّك شاعرُ[3]

فقال الحطيئة :

إنّ لا يكنْ مالى بآتٍ فإنّنِى ⁂ سيأتى ثنائِى زيداً بن مهلهِلِ

فما نلتنا غدْرًا ولكن لقيتَنا ⁂ غداةَ التقينا فى المضيق بأخْيَلِ

تفَادى حُماةُ الخيل من وقع رمحِه ⁂ تفَادِى ضعافِ الطَّيْرِ من وقع أجْدَلِ

فرضى عنه زيد ، ومنّ عليه . فلمّا رجع الحطيئة إلى قومه قام فيهم شاكراً لزيد ذاكراً لنعمته . فلمّا أسرت طَيِّئٌ بنى بدر ، طلبت فزارة إلى شعراء العرب أن يهجوا بنى لأم وزيداً ، فتحامَتْهم الشعراء ، فصاروا إلى الحُطيئة فأبَى عليهم فقالوا : نجعل لك مائة من الإبل ، فقال : لو جعلتموها ألفاً ما فعلت ، ثم قال :

---

(١) ط : « خفيرا » ، وما أثبته من ت ، د والأغانى .

(٢) الخبر فى الأغانى ١٦ : ٤٩ ، ٥٠ ، وفى آخره هنالك: « فلقيني نبطى ، فقال لى : يا أعرابى ، أيسرك أن لك بإبلك بستانا من هذه البساتين ؟ فقلت : وكيف ذاك ؟ قال: هذا قرب مخرج نبي يخرج فيملك هذه الأرض ، ويحول بين أربابها وبينها ؛ حتى إن أحدهم ليبتاع البستان من هذه البساتين بثمن بعير . قال : فاحتملت بأهلى حتى انتهيت إلى موضع الشيطين ؛ فبينما نحن فى الشيطين على ماءلنا ــ وقد كان الحوفزان شريك أغار على بنى تميم ــ فجاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلنا ؛ وما مضت أيام حتى اشتريت بثمن بعير من إبلى بستانا بالحيرة » .

(٣) من أبيات فى الأغانى ، منها :

أنا الفارسُ الحامى الحقيقة والّذِى ⁂ له المكرُماتُ واللُّهى والمآثِرُ

وقومى رءوس النّاسِ والرّأس قائدٌ ⁂ إذا الحربُ شَبَّتْهَا الأكفّ المساعِرُ

فلستُ إذا ما الموتُ حُوذرَ وردُهُ ⁂ وأتْرِعَ حوضاهُ وجمّحَ ناظرُ

كَيْفَ الهِجاءُ وما تنفكُّ صالحة من آل لأم بظهر الغيب تأتينا [١]

ومن شعر زيد الخيل قوله [٢] :

بنى عامرٍ هل تعرفُون إذا غدا أبو مكنِفٍ قد شدّ عَقْد الدَّوائِرِ !

بجيشٍ تضِلُّ الْبُلْق فى حَجَراته ترى الأُكْمَ منه سُجّداً للحوافرِ

أبت عادةٌ للوَرْد أن يـكره القنا وحاجة رمحِى فى نُمَيْرٍ وعامرِ [٣]

وقوله : ــ وقد غزا غزوة فظلَع [٤] فرس من خيله ، فلم يتبع الخيل ، فأخذه بنو الصيداء :

يا بنِى الصَّيداءِ رُدُّوا فَرَسِى إنما يُصْنَع هـذا بالذليلْ [٥]

لا تذيـلوه فإنّى لم أكُنْ يا بنى الصّيْدَا لِمُهْرِى بالمُذِيلْ [٦]

عَـوِّدُوه بالذى عَوّدتُه [٧] دَلَج اللّيلِ وإيطَاءَ القتِيلْ

وقوله أيضا :

جلبنا الخيل من أجأ وسلْمَى تَخُبُّ ترابعـاً خَبَبَ الذِّئاب

ضر بْن بغمرة فخرجْنَ منهـا خُروج الوَدْق من خَلَلِ السَّحاب

وقـد عَلِمَتْ بنو عبس وبَدْر ومُرّة أننى شَقْبُ عقـــابى

* * *

---

(١) فى الأصول : « تأتينى » ، والصواب ما أثبته من الأغانى ، وبعده :

المنعمينَ أقام العزُّ وَسْطَهُمُ بيض الوجوهِ وفى الهيجا مطاعينا

والخبر فى ١٦ : ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) الأغانى ١٦ : ٥٠ ، قال : « قاله فى يوم محجر » .

(٣) لم يجى فى رواية الأغانى ، وجاء موضعه :

وجمعٍ كِمثل اللّيلِ مرتجز الوغَى كثير حواشيهِ سريع البَوادر

(٤) ظلع : غمز فى مشيه .

(٥) الأغانى ١٦ : ٤٧ ، وروايته : « إنما يفعل هذا » .

(٦) أذال فرسه : لم يحسن القيام عليه فهزل .

(٧) الأغانى : « كالذى عودته » .

٣٧ — والسُّلَيْكَ بْنَ السُّلَكَةِ إنَّمَا عَدَا عَلَى رِجْلَيْكَ .

[السُّلَيْك بن السُّلَكَة]

هو السُّليك بن عمرو بن يثربى ، أحد بنىُ مقاعس ، وأمّه السُّلَكَة . جاهلىٌّ قديم ، وهو أحدُ صعاليك العرب ولصوصهم العدّائين الّذين كانوا لا يُلحَقُون ولا تتعلّق بهم الخيل .

حكى المنتجع بن نَبْهان[1] ، قال : كان السُّليك السّعدىّ إذا كان الشتاء استودع بيض النعام ماءَ السماء ، ثم دفنه ، فإذا كان الصَّيْف وانقطعت إغارة الخيل أغار . وكان أدلّ من قَطاة ، فيجىء حتى يقف على البَيْضة ؛ وكان لا يُغير على مُضَر ؛ بل على اليمن ، فإذا لم يُفد[2] أغار على رَبيعة[3] .

وكان يقول : اللهمّ إنّك تهيِّئُ ماشئت لمن شئت ؛ اللهمّ إنِّى لو كنت ضعيفاً لكنتُ عبداً ، ولو كنت امرأة كنت أمَةً . اللهمّ إنى أعوذ بك من الخيبة ، فأمّا الهيبة فلا هيبة .

فذكرُوا أنّه أمْلَق ؛ حتى لم يبق له شىء ، فخرج على رجلَيْه رجاء أن يُصِيب غِرّةً من بعض من يمرُّ به ، فيذهب بإبله ؛ حتى أمسى فى ليلةٍ من ليالى الشّتاء المُقْمِرة ، فاشتمل الصَّمّاء[4] ثم نام ؛ فبينما هو نائم إذ جَثَم عليه رجُلٌ ، فقعد على جنْبِه ، فقال له : استأسِرْ ؛ فرفع السُّلَيك رأسَه ، وقال : الليلُ طويلٌ وأنت مقمِر ، فذهبت مثلاً[5] . فجعل الرجل يَلْهَزُه[6] ، ويقول : يا خبيث ،

---

(١) فى الأصول « ابن شهاب » ، والصواب ما أثبته من الأغانى .
(٢) الأغانى : « لم يمكنه » .
(٣) الأغانى ١٨ : ١٣٣ ، ١٣٤ (ساسى) .
(٤) قال فى الأغانى: «واشتمال الصماء أن يرد فضل ثوبه على عضده اليمنى ثم ينام عليها» .
(٥) يلهزه : يدفعه ويلكزه .
(٦) الميدانى ١ : ٢٨٤

استأسِر، فلما آذاه أخرج السُّليك يده، وضمَّ الرجل ضَمّة ضرَط منها وهو فوقه. فقال السُّلَيك: أضرِطا وأنت الأعلى! فذهبت مثلا[١]، ثم قال السُّلَيك: من أنت؟ قال: رجل افتقرت فقلت: لأخرجنّ فلا أعود إلى أهلى حتى استغنى [فآتيهم وأنا غنيّ][٢]، قال: فانطلق معى؛ فانطلقا فوجَدا رجلا قصّته مثل قصّتهما، فاصطحبوا جميعا حتى أتوا الجوْف[٣]، وهو جوف مراد، فلما أشرفوا عليه إذ فيه نَعَم كثير [قد ملأ كلّ شيء من كثرته][٢] فهابوا أن يغزوا[٤] فيطردوا بعضها فيلحقهم الطّلب، فقال لهم السُّلَيك: كونوا قريباً حتى أتى الرِّعاء؛ فأعلم لكما عِلْم الحيّ، أقريب أم بعيد؟ فإن كانوا قريباً رجعت إليكم، وإن كانوا بعيدا قلت لكم قولاً أومِئُ إليكما به. فانطلق حتى أتى الرّعاء، فلم يزل يستنطقهم[٥] حتى أخبروه بمكان الحيّ؛ فإذا هو بعيد، إن طُلبوا لم يدركوا. فقال السُّليك للرّعاء: ألاَ أغنّيكم؟ قالوا: بلَى، فرفع صوته وغنّى:

يا صاحِبيَّ ألاَ لاَحيّ بالوادِي ... إلاّ عبيدا قياماً بين أذْوَادِ[٦]

هَلْ تنظُرانِ قليلا ريثَ غفلتِهِمْ ... أم تغدُوان فإنّ الرابح الغادِي![٧]

فلمّا سمعا ذلك، أتيا السُّليك فأطردَوا الإبل، فذهبوا باكرا بأكثرها، ولم يبلغ الصريخ الحيّ حتى فاتوهم[٨].

---

(١) الميدانى ١ : ٢٨٤

(٢) من الأغانى.

(٣) ذكره ياقوت، وقال: وله ذكر فى تفسير قوله عز وجل: «إنا أرسلنا نوحا إلى قومه».

(٤) الأغانى: «أن يغيروا»

(٥) الأغانى: «يتسقطهم».

(٦) الأغانى:

* سوى عبيد وآمٍ بين أذواد *

والآم: جمع أمة إلى العشر؛ فإذا كن أكثر قيل إماء.

(٧) الأغانى: «فإن الربح للغادى»، والربح: الغلبة والقوة.

(٨) الأغانى ١٨ : ١٣٣، ١٣٤.

وحكى أبو عبيدة[١]،قال : بلغنى أنّ السُّلَيك رأى طلائع لبكْر بن وائل ـ وكانوا منحدرين ليُغيروا[٢] على بنى تميم ولا تعلم بهم ـ فقالوا : إن علم السُّلَيك أنذر بنا قومه ، فبعثوا له فارسين على جوادين ، فلما هايجاه خرج يمْحص[٣] كأنه ظبى ، وطارداه سحابة يومهما[٤] ، ثم قالا : إذا كان الليل أعيا ثم سقط أو قصّر عن العدو فنأخذه ، فلما أصبحا وجدا أثره قد عثر بأصل شجرة ، فنزا[٥] عنها ، وندرت[٦] قوسه فانحطمت ، فوجدا قِصْدة[٧] منها قد ارتزَت[٨] بالأرض ، فقالا : ماله[٩] ، أخزاه الله ! [ما أشدّه !][١٠] ، وهمّا بالرجوع ثم قالا : لعلّ هذا كان من أول الليل ، ثم فتر فتبعاه ؛ فإذا أثره متفاجًا[١١] قد بال فزعاً فى الأرض وخدّها ، فقالا : ياله أخزاه[١٢] الله ! فما رأينا أشدّ منه[١٣] ، لا نتبعه[١٤] أبدا ، فانصرفا. ووصل[١٥] إلى قومه فأنذرهم، فكذبوه لبعد الغاية ، فأنشأ يقول :

يكذِّبُ بنى العَمْران : عمرو بن جُنْدَبٍ وعمرو بن سعد والمكذِّبُ أ كذَبُ

---

(١) ت ، م : « قال أبو عبيدة » .
(٢) فى الأصول : « ليعزوا » ، والصواب ما أثبته من الأغانى .
(٣) يمحص : يسرع .
(٤) الأغانى : « يومه » .
(٥) كذا فى ت ، والأغانى ، وفى ط ، م ، د : « فتبرأ » .
(٦) ندرت : سقطت .
(٧) القصدة : القطعة المتكسرة .
(٨) ارتزت : أثبتت .
(٩) ط : « ياله » .
(١٠) من الأغانى .
(١١) يقال : فج رجليه وما بين رجليه يفجهما ؛ أى باعد ما بينهما فى المشى .
(١٢) الأغانى « قاتله الله » .
(١٣) الأغانى « ما أشد متنه » .
(١٤) الأغانى : « والله لا نتبعه » .
(١٥) الأغانى : « وتم إلى قومه » .

ثكلتهما إن لم أكن قد رأيتها كراديسَ يهديها إلى الحىّ موكب[١]

وجاء الجيش فأغاروا [على جمعهم][٢] .

وحكى الأصمعىّ أنّ السُّليك لقىَ رجلا من خَثْعم ، ومعه امرأة فأخذها ، فقال له الخثعمىّ : أنا أفدِى نفسى منك ، فقال له السُّلَيك : ذلك لك على ألاّ تخيس بى ، ولا تطلع علىّ أحداً من خثعم ، فحالفه [على ذلك][٣] .

وخلّف عنده امرأته رهنيةً ورجع إلى قومه ، فنكحها السُّلَيك ، وجعلت تقول له : احذر خَثْعَمًا ، فإنّى أخافهم عليك ، فقال :

[تهدّدنى كى أحذر العام خَثْعَمًا وقد علمتْ أنّى امرؤٌ غير مُسْلَمَ][٣]

وما خثعمٌ إلا لئـــام أذلة إلى الذلِّ والإسخاف[٤] تُنمَى وتنتمى

وبلغ خبره شبل بن قلادة وأنس بن مدرك الخثعمِىّ[٥] ، فحالفا إلى السليك ، فلم يشعر إلا وقد طوّقاه بالخيل[٦] ، فأنشأ يقول :

من مبلغ قومىَ أنّى مقتولْ[٧] يا ربَّ قِرْنٍ قد تركتُ مجدولْ

وربّ زوجٍ قد نكحتُ عُطْبولْ وربّ عانٍ قد فككتُ مَكْبُولْ

ثم عطفا عليه [وليس له طريق للعدْو] ،[٨] فقتلاه[٩] .

(١) ت : « إلى الحرب » .
(٢) من الأغانى ؛ والخبر فيه فى ١٨ : ١٣٦ (ساسى) .
(٣) من الأغانى والحماسة ٢ : ٣٨٢ .
(٤) الإسخاف : رقة الحال.
(٥) ط « الخثعميان » .
(٦) ت : « طرقاه فى الجبل » ، الأغانى : « فى الخيل » .
(٧) بعده فى الأغانى :

* يا ربّ نَهْبٍ قَدْ هويتُ عُثْكولْ *

(٨) من ط .
(٩) الخبر فى الأغانى ٢٠ : ٣٥٧ ، ٣٥٨ (طبع بيروت) ؛ وهو مما لم يرد فى طبعة الساسى .

ومن شعره وقد أغار بقوم فانصرفوا عنه خوفا من العطش ، وبقى معه رجل يسمى صُرَد فبكى ، فقال السُّليك :

بَكَى صُرَدٌ لما رأى الحىّ أعرضتْ مهامهُ رملٍ دونَهُ وسُهُوبُ[1]
فقلتُ له لا تبكِ عينكُ إنّهَا قضيَّةُ ما يُقْضَى لنا فنئوبُ
سيكفيك ضَرْبَ القوم لحم مغرّضٌ وماء قدورٍ فى القصاع مشوب[2]

الضَّرب: اللّبن الحامض. وماء القدور : المرق ، كأنه يقول : ستَستغنى وتأكل اللَّحْم بعَد اللبن .

وقوله :

ألا عتبتْ علىّ فصارمتْنِي وأعجبها ذوُو اللِّممِ الطِّوالِ
أشابَ الرّأْسَ أنّى كُلَّ يومٍ أرى لى حالةً وَسْطَ الرِّجال
يشقّ علَىّ أن يلقيْن ضيْماً ويقصر عن تخلّصهنّ مالى

* * *

٣٨ — وَعامِرَ بْنَ مَالِكٍ إنَّماَ لاَعَبَ الْأَسِنَّةَ بِيَدَيْكَ .

[ملاعب الأسنَّة]

هو عامر بن مالك بن جَعْفر ، من بنى صَعْصعة ، المعروف بملاعب الأسنَّة . ويكنَى أبا بَرَاء ، وأمّه أمّ البنين ، أنجبُ امرأةٍ فى العرب ؛ وذلك أنّهَا ولدت من

---

(١) الأغانى ١٨ : ١٣٦ ، وبعده هناك :

وخَوّفَهُ رَيْبُ الزَّمانِ وَفَقْرُهُ بلادَ عدوٍّ حاضرٍ وجُدُوبُ
ونأْيٌ بعيدٌ عن بلاد مقاعسٍ وأنّ مخاريق الأمور تريبُ

(٢) رواية الأغانى :

سيكفيك فَقْدَ الحىِّ لحمٌ مُغرّضٌ وماءُ قدورٍ فى الجفان مشوبُ

مالك بن جعفر خمسة : أبا بَرَاء ، والطُّفَيل أبا عامر بن الطُّفَيل ، وربيعة أبا الوليد ونزارا ومعاوية – ويسمى معوِّد الحكماء[1] – وقد افتخر بها لَبِيد عند النعمان، فقال :

* نَحْنُ بنى أمّ البنينَ الأربعهْ *

وإنما قال : « الأربعه » لضرورة الشعر ، ونصب « بنى » على المدح[2] .

وأبو براء من فرسان العرب[3] المشهورين وكبارهم ؛ وإنما لقب ملاعب الأسنّة لقول أوْس بن حَجَر فيه :

يُلاَعِبُ أَطْرَافَ الأَسِنَّة عامِرٌ   فراح له حظُّ الكتائب أجْمَعُ[4]

وقيل : لقول آخر ، وقد فرّ عنه أخوه فى حرب :

فررت وأسلمت ابن أمّك عامراً   يلاعب أطراف الوشيج المزعزع[5]

وقيل : لقول حسّان بن نمير – وقد رآه بين فرسان أحاطوا[6] به يقاتلهم : ما هذا إلا ملاعب الأسنّة[7] .

ووفد عامر على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ولم يُسْلِم . ويزعم[8] بنُو جعفر أنّه مات مسلماً ؛ وحدّثَ خالد بن عبد الله ، قال : قدِم عامر بن مالك أبو بَرَاء

---

(١) قيل : إنه لقب بذلك لقوله من قصيدة مفضلية :

أعوّد مِثلهَا الحكماء بعدى   إذا ما الحقُّ فى الأشياع نابا

وانظر اللالىء ١٩٠ .

(٢) من رجز له فى ديوانه ٣٤٠ – ٣٤٣ .

(٣) ط : « هو رجل من فرسان العرب » .

(٤) ديوانه ٥٨ ؛ وروايته : « وصار له » .

(٥) الروض الأنف ٢ : ١٧٤ من غير نسبة .

(٦) كذا فى ت ، د ، وفى ط ، م : « أطافوا » .

(٧) وفى اللسان (لعب) : سمى بذلك يوم السوبان ؛ وجعله لبيد « ملاعب الرماح » لحاجته إلى القافية فقال :

لَوْ أنَّ حَيًّا مُدْرِكُ الْفَلاَحِ   أدركَهُ مُلاَعِبُ الرِّمَاحِ

(٨) ط : « وزعم » .

ملاعب الأسنّة على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وأهدى له فرسين وراحلتين ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « لو قبلتُ هديّة مشرك لقبلت هديّتك » .
وعرض عليه الإسلام فلم يسلم ولم يُبعِد[١] ، وقال : يا محمد ، إنى أرى أمرك هذا حسناً شريفاً ، وقومى خلفى ؛ فلو أنك بعثتَ نفراً من أصحابك لرجوت أن يجيبوا دعوتك ، ويتّبعوا أمرك ، فإن هم اتّبعوك[٢] فما أعزّ أمرك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى أخاف[٣] عليهم أهل نجد » ، فقال عامر : لاتخف ، إنى جارٌ لهم ؛ [٤]إن تعرّض لهم أحد من أهل نجد[٤] . فبعث معه أربعين رجلا من الأنصار ــ وقيل سبعين ــ وأمّر عليهم المنذر بن عمرو ، فلما نزلوا بماء من مياه بنى سُليم يقال له بئر معونة[٥] ، عسكروا وسرّحوا ظهورهم ، و بعثوا مع سَرْحهم الحارث بن الصِّمّة وعمرو بن أميّة ، وقدّموا حَرَام بن مِلْحان بكتاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى عامر بن الطُّفَيل ، فى رجال من بنى عامر . فلما انتهى حَرَام لم يقرءوا الكتاب ، ووثب عامر بن الطفيل على حَرَام فقتله ، واستصرخ عليهم بنى عامر فأبَوْا . وقد كان عامر بن مالك خرج قبل القوم إلى ناحية نجْد ، وأخبرهم أنه جار أصحاب محمد فلا تتعرّضوا لهم ، فقالوا : لن نُخْفِر[٦] جوار أبى بَرَاء ، وأبوا أن ينفُروا مع ابن الطُّفَيل ؛ فاستصرخ قبائل من بنى سُلَيم فنفروا معه ، ورأّسوه عليهم ، فقال ابن الطُّفَيل : أقسم بالله ما أقتل هذا وحده ؛ فاتّبعوا أثْره حتى وجدوا القوم ، فقاتل القوم حتى

---

(١) ط : « يعد » ؛ والصواب ما أثبته من باقى الأصول ، وهو يوافق ما فى سيرة ابن هشام .
(٢) كذا فى ط ، وفى ت ؛ « اتبعوا » .
(٣) ابن هشام : « أخشى » .
(٤ ــ ٤) ابن هشام : « فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك » .
(٥) ابن هشام : « بئر معونة ؛ وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم ؛ كلا البلدين منها قريب » .
(٦) لن نخفر : لن ننقض عهده .

قتل أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وبقى المنذر بن عمرو[١] ؛ فقالوا له : إن شئت أمّناك ، فقال : لن أقبل لكم أمانا ، حتى آتى مقتل حَرَام ؛ فأمّنوه حتى أتى مصرعَه ، ثم برئوا من أمانه ، فقاتلهم حتى قُتِل .

وأقبل الحارث بن الصّمة وعمرو بن أميّة بالسّرْح ، وقد ارتابا بعكوف الطير قريباً من منزلهم ، فجعلا يقولان : قُتِل والله أصحابنا . ثم أوفيا على نَشَزٍ من الأرض؛ فإذا أصحابهما مقتولون والخيل واقفة ، فقال الحارث لعمرو : ما ترى ؟ قال : أرَى أن ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال الحارث : ما كنت لأتأخرّ عن موطنٍ قتِل فيه المنذر [بن عمرو] . فأقبلا فلقيا القوم ، فقاتلهم الحارث حتى قتل منهم اثنين ، ثم أخذوه فأسرُوه، وأسروا عمرو بن أميّة . وقالوا للحارث : ما تحبّ أن نصنع بك ؟ فإنّا لا نحبّ قتلك ، فقال : أبلغوا بى مصرع المنذر و برئت ذمّتكم . فبلغوا به مصرع الرجل ثم أطلقوه ، فقاتلهم وقتل منهم اثنين ، فشرعوا له الرماح حتى نظموه فيها قتلا . وقال عامر بن الطُّفيل لعمرو بن أميّة وهو أسير فى أيديهم لم يقاتل : إنّه كانت على أمى نسَمة ، فأنت حرّ عنها ؛ وجزّ ناصيتَه .

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرُ بئر معونة ، جعل يقول : « هذا عمل أبى بَرَاء ، قد كنتُ لهذا كارها » ، ودعا على مَنْ قتلهم بعد الصبح فى الركعة الثانية من صبح تلك الليلة التى جاءها فيها الخبر ، فلمّا قال : « سمع الله من حمده » ، قال : « اللهمّ اشدد وطأتك على مُضَر ، اللهم عليك ببنى ذَكْوان وعُصَيّة ؛ فإنّهم عصوا الله ورسوله » ؛ قال ذلك خمس عشرة ليلة ، حتى نزلت الآية : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام : « المنذر بن محمد بن عقبة » .
(٢) سورة آل عمران ١٢٨

ثم أقبل أبو بَرَاء سائرا وهو شيخ كبير هِمّ[١] ، فأخبر بما فعل ابن الطُّفَيل، فشقّ ذلك عليه ، ولا حركَة به من الضعف ، وقال : اخفُرنى ابنَ أخى ، مرّتين ؛ وسار حتى لحق ابنَ الطُّفَيْل فطعنه بالرمح فأخطأ مقتله — وقيل كان الطاعن ربيعة ولده — فتصايح الناسُ ، فقال ابن الطّفَيل : إنها لم تضرّنى ، وقد وهبتها لعمّى ؛ وانصرف عنه[٢] .

ونزل عامر بن مالك بقومه، فدعاهم إلى الارتحال إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وطلب ثأر القتلى الّذين كانوا فى جواره ، فتثاقلوا عليه ، وقال له بعض بنى أخيه : إنهم يقولون : إنه حدث لك عارض فى عقلك ؛ فدعا ابن أخيه لبيداً ، وقَيْنة له وقال لها : غنّى ؛ ثم قال : يا لبيد ، لو حدث بعمّك حدث ما كنت قائلا ؟ فإن قومك يزعمون أن عقله ذهب ، والموت خير من عزوب العقل،[٣] فقال لبيد[٤] :

قُوما تَنُوحان مع الأنْواحِ[٥] فأبّنَا مُـلاعب الرِّماحِ
أبا بَرَاء مِـدْرَه الشِّياحِ[٦] كان غياثَ المرمِل المْتاحِ[٧]

من أبيات . ثم شرب أبو بَرَاء الخمر صِرْفا حتى مات وهو يقول : لا خير فى العيش وقد عصتنى بنو عامر .

---

(١) ط ، م : « هرم » .
(٢) الخبر فى سيرة ابن هشام ٣ : ١٨٤ — ١٨٧ ، برواية مخالفة .
(٣) كذا فى ت ، د ، م ، وفى ط : « من ذهاب العقل، وبعضهم يرويها : من عروب العقل » .
(٤) كذا فى الأصول المخطوطة ، وفى ط : « وقال : يا لبيد اسمع » ؛ وهو خطأ .
(٥) من رجز فى ديوانه ٣٣٢ — ٣٣٤ ، وروايته : « قوما تجوبان » ويجوب : يقدّ جيب القميص . قال شارح ديوانه : وقامت المرأة تنوح : جعلت تنوح ؛ ولكنه هاهنا ضد القعود ؛ لأن أكثر نوائح العرب قيام .
(٦) مدره القوم : الذى يدافع عنهم . والشياح ، مصدر شايح ؛ وهو الجد والحذر أو القتال .
(٧) المرمل : الفقير المعدم . الممتاح : الذى يطلب رزقا .

وبنو جعفر يزعمون أنه مات مسلماً . وكان شريف بيته ، يزعمون أنه لما تنافر ابنُ أخيه عامر بن الطُّفَيل مع علقمة بن عُلاثة سأل عمّه الإعانة ، فأعطاه نعليْه ، وقال : استعِنْ بهما فى مفاخرتك ، فإنِّى ربَعْتُ فيهما أربعين مربعا ؛ مع أنه كان كارهاً للمنافرة ، وفى ذلك يقول :

أأومرُ أن أسُبَّ بنِى شُريحٍ ولا والله أفعلُ ما حييتُ

ومن أحسن ما سمعت من شعره قوله :

لحا الله أنآنا عن الضَّيْفِ بالقِرى وألأمَنا عن عِرْضِ والده ذَبّا

وأدخلَنا للبيت من قبل استِهِ إذا القُور أبدى من جوانبه ركبا

القُور : الأكَم والجبال الصغار ، يعنى أن البخيل إذا كان جالساً بفنائه فرأى راكباً قدلاح من القُور ، زحف بظهره داخلا إلى بيته فراراً من الضيف كيلا يراه فيطرقه .

* * *

٣٩ — وَقَيْسَ بْنَ زُهَيْرٍ إِنَّمَا اسْتَعَانَ بِدَهَائِكَ .

[قيس بن زهير]

هو قيس بن زهير بن جَذِيمة العبسىّ ، صاحب الحروب بين عَبْس وذِبيان ، بسبب الفَرَسَيْن : داحس والغَبْراء ؛ كما سيأتى ذِكْرُ ذلك فى موضعه .

كان فارساً شاعراً داهيةً ، يضرب به المثل ، فيقال : أدْهى من قيس . حكى المدائنىّ أن رجلا مرّ بحىّ الأحوص ، فلما دنا من القوم حيث يروْنه ، نزل عن راحلته ، فأتى شجرة فعلّق عليها وَطْبا[1] من لبن ، ووضع فى بعض أغصانها حَنْظَلة ، ووضع صُرّة من تراب وصُرّة من شَوْك ، ثم أتى راحلتَه فاستوى

---

(١) الوطب : سقاء اللبن خاصة .

عليها وذهب . فنظر الأحوص والقوم في أمره ، فعيّ به ، فقال : أرسلوا إلى قيس ابن زهير، فجاء ، فقال له الأحوص : ألم تخبرني أنه لا يرد عليك أمرٌ إلاّ عرفتَ مأتاه ؛ ما لم تر نواصي الخيل ؟ قال : وما الخبر ؟ فأعلموه ، فقال : وَضَح الصُّبْح لذي عَيْنين ؛ فصار مثلا يضرب في وضوح الشيء ، ثم قال : هذا رجل أسره جيش قاصدٌ لكم ، ثم أطلِق بعد أن أُخِذتْ عليه العهود والمواثيق ألاّ ينذركم ، فعرّض لكم بما فعل ؛ أما الصُّرّة من التراب فإنه يزعم أنه قد أتاكم عدد كثير ؛ وأما الحنظلة فإنه يخبر أن حنظلة غزَتْكُم ، وأما الشوك فأنّه يخبر أن لهم شوْكة . وأما اللّبن فهو دليل على قُرْب القوم أو بُعْدهم إن كان حلواً أو حامضاً . فاستعدّ الأحوص ، وورد الجيش كما ذكر .

وحُكِي أن النّعمان بن المنذر أرسل إلى أبيه زُهير يخطب ابنتَه ، وسأله أن يبعث إليه ببعض بنيه ، فأرسل إليه ولده شأساً ، فلمّا قدم عليه أكرمه وأحسن جائزته ، وردّه إلى أبيه ، وعرض عليه أن يوجّه معه[1] قوماً يخفُرونه ، فقال : لا شيءَ أمنَعُ لي من نسبتِي إلى أبي . وخرج وحدَه ، فمرّ بماء من مياه بني غَنِيّ فأكل وشرب ، ونزل إلى الماء يغتسل . وكان رباح بن الأشلّ الغَنويّ نازلا في بيته على الماء ، ومعه امرأته ، فرآها تحدّ النظر إلى جَسَد شأس ، وقد شمّا منه رائحة المسك ، فأخذته غَيْرة ، ففوّق إليه سهماً فقتله ، وغيّب أثره ، وأخذ ما معه ، وكان معه عيبة مملوءة مسكا [وعِطْراً من عطر النعمان][2] ، وحُلَلا من ثيابه . وأبطأ خبر شأسٍ عن زهير ، فأخْبِر بما انصرف به من عند النّعمان ، ولم يُدْرَ مَن قتله ، فقلِق لذلك ، فقال قيس : ياأبتِ أنا أكشف [لك][2] خبر أخي ، ثم دعا بامرأةٍ من نساء قومه ــ وكانت لسِنة شديدة ــ فأمرها أن تأخذ لحماً سميناً فتقدّده وتخرج به إلى بني عامر وغنيّ ، وتعرِض ذلك عليهم ، وتقول : إنّي قد زوّجت

---

(١) ط : « أن يتبعه » .
(٢) تكملة من ط .

ابنتى ، فأنا أبتغى لها طيباً وثياباً ؛ ففعلتْ إلى أن وقعت على امرأة الغنوىّ ، فقالت لها : إن كتمتِ علىَّ أعطيتُك حاجتَك ، فأخبرتْها[١] بأمر شأس ، وأعطتْها مسكا وثياباً ، وباعتها ذلك بما معها من الشحم واللحم ، وخرجت العبسيّة حتى أتت قيساً فأخبرته . فأخبر أباه ، فركب فى قوم من بنى عَبْس ، وأغار[٢] على غنىّ فقتلهم وفرّقهم .

وحكى أنه فى بعض حروبه لبنى ذُبيان ــ وهو يوم الشِّعْب المشهور ــ صعد بالجيش والنَّعَم إلى الجبل ، وعقل الإبل عشرة أيّام لا تشرب ــ والماء كثير تحت الجبل ــ فلما همّت بنو ذُبيان بالصُعود إلى الجبل حلّ عقال الإبل ، وأمسك بذنَب كلِّ بعير رجل معه سلاحه ، فمرّت الإبل طالبة الماء ، لا تمرّ بشىء إلا طحنتْه ، والرّجاَل فى أعقابها تضرب من مَرّت به ، فكانت الهزيمة على بنى ذُبيان .

وحكى أنه لما تطاولت الحروب[المشهورة] [٣] بينه وبين ابنى بدر : حَمَل وحذيفة الذّبيانيّين ــ كما سيأتى ذكره ــ جمع جمعاً عظيما ، وبلغ بنى عبس[٤] أنهم قد ساروا إليهم ، فقال قيس : أطيعونى ، فوالله لئن لم تفعلوا لأتّكئنّ على سيفى إلى أن يخرج من ظهرى . قالوا : فإنا نطيعك ، فأمرهم أن يسرّحوا[٥] السّوام والضعاف بليل ، وهم يريدون أن يظعنوا من منزلهم ذلك . ثم ارتحلوا فى الصبح ، وأصبحوا على ظهر العقَبة ، وقد مضى سوامهم وضعفاؤهم ، فلما أصبحوا طلعت عليهم الخيل من الثَّنايا ، فقال قيس : خذوا غير طريق المال ؛ فلا حاجة للقوم أن يقعوا فى شوكتكم ، ولا يريدون غير ذهاب أموالكم ؛ فأخذوا غير طريق

(١) ط : « وأخبرتها » .
(٢) ت : « فأغار » .
(٣) من ط (٤) ت : « قيس » .
(٥) ت : « فسرحوا » .

المال ، فلما أدرك حذيفة الأثر ورآه ، قال : أبعدهم الله ! وما خيرهم بعد ذهاب أموالهم ! وسارت ظُعُن عبس والمقاتلة من ورائهم ، وطلب[١] حذيفة و بنو ذبيان المالَ ، فلما أدركوه ردُّوا أولَه على آخره ، فلم يفلِت منه شيء ، وجعل الرجل يطرد ما قَدَر عليه من الإبل فيذهب بها وينفرد . واشتدّ الحرّ ، فقال قيس : يا قوم ، إنّ القوم قد فرّق بينهم المغنم واشتغلوا ، فاعطفوا الخيل فى آثارهم . فلم يشعر بنو ذُبيان إلا بالخيل ؛ فلم يقاتلهم أحد[٢] ؛ وإنما كان همّ الرجل فى غنيمته أن يحوزها ويمضى . فوضعت بنو عبس فيهم السلاح حتى ناشدتهم بنو ذبيان البقيّة ، ولم يكن لهم همٌّ غير حذيفة ، فأرسلوا الخيل تقصّ[٣] أثرهم ، وكان حذيفة قد استرخى حزام فرسه فنزل عنه ، ووضع رِجْلَه على حجر مخافة أن يُقَصَّ أثَرُه ، ثم شدّ الحزام ، فعرفوا حَنَفَ فرسه — والحَنَف أن تقبل[٤] إحدى اليدين على الأخرى — وتبعوه ومضى حتى استغاث بجَفْر الهبَاءة — وهو ماء فى موضع يسمّى الهباءة — وقد اشتدّ الحرّ ، فرمى بنفسه ومعه حَمَل بن بدر أخوه وورقاء بن بلال ، وقد نزعوا سلاحهم ، وطرحوا سروجهم ودوابّهم تتمعّك ، وجعل ربيئتهم يتطلّع ؛ فإذا لم ير شيئاً رجع فنظر نظرة ، فقال : إنى أرى شخصاً كالنعامة ، فلم يكترثوا به ، وبينما هم يتكلّمون إذ دهمهم شدّاد بن معاوية ، فحال بينهم وبين الخيل ، ثم جاء قرواش وقيس [وآخر][٥] ؛ حتى تتامّوا خمسة ، فحمل بعضهم على خيلهم فطردها ، وحمل البقيّة على مَنْ فى الجَفْر ، فقال حذيفة : يا بنى عبس ، فأين العقول والأحلام ! فضربه أخوه حَمَل بين كتفيه ، وقال : اتّق مأثور القول ؛ فذهبت مثلا ، يعنى أنك تقول قولا تخضع فيه ،

---

(١) د : « تبع » .
(٢) كذا فى د ؛ وفى ت ، ط : « كثير أحد » .
(٣) ت : « تقتص » .
(٤) ط : « تميل » .
(٥) تكملة من ت

وتقتل ، ويُشتهر عنك ، وقتِل حذيفة وحَمَل ومن معه ، وتمزّقت بنو ذُبْيان ، وأسرف قيس فى النكاية والقتل[1] ، ثم ندم على ذلك ، ورثى حمَل بن بدر بالأبياتِ المشهورة فى الحماسة[2] ، وهو أوّل من رثى مقتوله .

ولما طالت الحرب[3] وملّ ، أشار على قومه بالرجوع إلى قومهم ومصالحتهم ، فقالوا : سِرْ نَسِرْ معك ، فقال : لا والله ، لا نظرتْ فى وجهى ذبيانيّة قتلت أباها ، أو أخاها ، أو زوجها ، أو ولدها . ثم خرج على وجهه حتى لحق بالنَّمِر بن قاسط ، فقال : يا معشر النّمِر ، أنا قيس بن زهير ، غريب حَرِيب[4] ، فانظروا لى امرأة[5] قد أدّبها الغنى ، وأذلّها الفقر ؛ فزوّجوه امرأة منهم . ثم قال : إنّى لا أقيم فيكم حتى أخبرَكم بأخلاقى : إنّى امرؤ غَيُور فخور ، أنِف ، ولستُ أفخر حتى أُبتلَى ، ولا أغارُ حتى أرى ، ولا آنفُ حتى أُظلَم ؛ فرضُوا بأخلاقه . فأقام فيهم زماناً ، ثم أراد التّحوّل عنهم ، فقال : يا معشرَ النَّمِر ، إنى أرى لكم علىّ حقًّا بمصاهرتى لكم ، ومقامى بين أظهرِكم ، و إنى آمركم بخصال ، وأنهاكم عن خصال : عليكم بالأناة فبها تُدرَك الحاجة ، وتسويد من لا تُعابون بتسويده ، والوفاء فبه تَتعايشون ، وإعطاء من تريدون إعطاءه قبل المسألة ، ومَنْع من تريدون منعه قبل الإلحاح ، وخلط الضيف بالإلزام . و إياكم والرّهان ؛ فبِه ثكلت مالكا أخى ، والبغىَ فإنّه صرع زهيرا أبى

---

(١) ط : « والقتال » .

(٢) أوردمنها فى الحماسة ١ : ١٩٨ :

شفيتُ النَّفْسَ من حَمَلِ بن بَدْرٍ ... وسيفى من حُذَيفة قَدْ شفانى

فإن أكُ قَدْ بَرَدْتُ بِهِمْ غليلِى ... فَلَمْ أقْطَعْ بِهِمْ إلَّا بنانى

(٣) ت: « ولما أطال الحروب » .

(٤) ت : « حرب » ، وأثبت ما فى باقى الأصول .

(٥) ت : « نفس » .

وحَمَلاً ، والسّرفَ فى الدماء ؛ فإن قتل أهل الهباءة أورثنى العار ، ولا تُعطوا فى الفضول فتعجزوا عن الحقوق .

ثم رحل إلى عُمان ، فأقام بها حتى مات . وقيل : إنه خَرج هو وصاحب له من بنى أسَدٍ ، عليهما المُسوح يسيحان فى الأرض ، و يتقوّتان مما تنبت ، إلى أن دفعا فى ليلة قَرّة إلى أخبية لقوم من العرب ، وقد اشتدّ بهما الجوع ، فوجدا رائحة القُتار(١) ، فسعيا يريدانه ، فلما قاربا أدركت قيساً شهامة النفس والأنفة ، فرجع وقال لصاحبه : دونك وما تريد ؛ فإن لى لَبْثا على هذه الأجارعِ ، أترقّب داهية القرون الماضية . فمضى صاحبه ورجع من الغد ، فوجده قد لجأ إلى شجرة بأسفل وادٍ ، فنال من ورقها شيئاً ثم مات . وفى ذلك يقول الحطيئة من أبيات :

إنّ قَيْسًا كان ميتَتُهُ ... أنفًا والحـرُّ مُنطَلِقُ
فى دريسٍ لا يغيّبــه ... رُبَّ حُرٍّ ثَوْبُهُ خَلَقُ

ومن شعر قيس بن زهير يرثى حَمَلَ بن بدر ، يقول :

تعلّم أنَّ خـيرَ النَّاسِ مَيْتٌ ... على جَفْرِ الهباءة لا يريمُ(٢)
ولولا ظلمُهُ مازلت أبكى ... عليه الدَّهْرَ ما بدتَ النجومُ(٣)
ولـكنّ الفتَى حَمَل بنَ بَدْرٍ ... بَغَى والبَغْىُ مَرتَعُهُ وَخِيمُ
أظنّ الحِلْمَ دَلَّ علىّ قومِى ... وقد يُستجهَل الرَّجُلُ الحليمُ
ومارستُ الرّجالَ ومارسـونِى ... فمُعْوَجٌّ علىَّ ومُستقيمُ

وقوله أيضاً :

تعرَّفن مِنْ ذُبيان من لو لقيتُه ... بيومِ حفاظٍ طارَ فِى اللَّهَواتِ

---

(١) القتار : رائحة الشواء .

(٢) ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ١ : ٣٩٧

(٣) الحماسة : « ما طلع النجوم » .

ولو أنّ سافى الريح يجعلكم قَذًى   لأعْيُنِنـــا ما كنتمُ بقذاة

وقوله أيضاً :

إذا أنت أقررت الظلامة لامرئ   رماك بأخرى شعبها متفاقِم

فلا تُبْدِ للأعـــداء إلا خُشونةً   فمالك فيهمْ إن تمكّن راحمُ

* * *

٤٠ — وَإِياسَ بْنُ مُعَاوِيَةَ إِنَّمَا اسْتَضَاءَ بِمِصْبَاحِ ذَكَائِكَ .

[إياس بن معاوية]

هو إياس بن معاوية بن قُرّة المُزَنِيّ ، قاضى البصرة ، وكنيته أبو وائلة ، صاحب الفِراسة والأجوبة البديعة ، يضرب به المثل فيقال : أزْكنُ من إياس[١] . والزّكَن التفرُّس والظنّ [بالشيء بالظنّ الصائب][٢] ؛ قال الشاعر :

* زَكِنْتُ مِنْهم عَلَى مِثْلِ الَّذِى زَكَنُوا *

و بعض الناس يقول : أذكى من إياس ، وهو الذى أراده أبو تمام فى قوله :[٣]

* فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إياسِ *

حكى ابنُ عائشة ، قال : أوّل ما عرف من ذكاء إياس أنه دخل الشّام وهو صغير ، فقدّم خصما له شيخاً إلى قاضى عبد الملك بن مروان ـ وكان القاضى يعرف الخصم ـ فقال لا بأس ! أما تستحى ؛ تقدم شيخاً كبيراً ! فقال إياس : الحقّ

---

(١) هو قعنب بن أم صاحب ، مختارات ابن الشجرى ٩ ؛ وروايته : « زكنت من بغضهم » ، وصدره :

* وَلَنْ يُراجِـع قلبِي وُدَّهُمْ أبدا *

(٢) من ط.   (٣) ديوانه ٢ : ٢٤٩ ؛ وصدره :

* إقدامُ عمرٍو فى سَماحةِ حاتمٍ *

أكبر منه ، قال له : اسكت ، قال : فمَنْ ينطق بحجتى إذا سكتّ ! قال : ما أحسبك تقولُ حَقًّا حتى تقوم ! قال : أشهد أن لا إله إلا الله . فقام القاضى فدخل على عبد الملك فأخبره الخبر ، فقال : اقضِ حاجته ، واصرفه عن الشام [لئلّا][(١)] يفسد علينا الناس .

وحكى غيره ، قال : أوّل ماعرف من ذكاء إياس ، أنّه كان صبيًّا فى المكتب ، فاجتمع قوم من النَّصارى يضحكون من المسلمين ، وقالوا : إنّ المسلمين يزعمون أنّه لا يكون فى الجنّة ثُفْل الطعام ــ يعنون الغائط ــ فقال إياس لمعلّمه : يا معلّم ، أليس تزعم أن أكثر الطعام يذهب فى البدن ؟ قال : نعم ، قال : فما ينكر أن يكون الباقى يُذهبه الله فى البدَن ! فسكت النصارى ، وأعجب به المعلّم .

وحكى أنه دخل إلى الشّام مرة ثانية ، وأراد الحجّ ، فقال للمكارِى[(٢)] : انظر لى إنساناً غريباً ، فإنى أريد أن أخرج سرًّا ــ يعنى عديلَه ــ فأكراهما ، فلبثا فى المحمَل ثلاثا لا يسأل هذا هذا عن شيء[(٣)] ، فقال إياس : يا عبد الله ، أخبرْنى مَن أنت ؟ قال : غَيْلان ، فقال : غَيْلانُ القَدَرِىّ ؟ قال : نعم ، فمن أنت ؟ قال : إياس ، قال : أبو واثلة ؟ قال : نعم ، إن شئتَ سألتَنى ، وإن شئتَ سألتُك ، فقال له غَيْلان : تكلَّم ، قال : إنّ شئتَ أخبرتك بقول[(٤)] أهل الجنة والنّار ، والملائكة ، والشّيطان والعرب والعجم ، فقال غَيْلان : أخبرنى بها ، قال : قال أهل الجنّة حين دخلوها : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾[(٥)] ، وقال أهلُ النار [حين دخلوها][(٦)] : ﴿ رَبَّنَا

---

(١) كذا فى ط : وفى ت « لا » ؛ والخبر فى الشريشى ١ : ١١٤

(٢) المكارى : من يكرى دابته .

(٣) ط : « شيئا » .

(٤) ط : « بخبر » .

(٥) سورة الأعراف ٤٣ .

(٦) من د ، ط .

غلبت علينا شقوتنا ﴾[١]، وقالت الملائكة : ﴿ لا عِلْمَ لنا إلا ما علمتنا ﴾[٢]، وقال الشيطان : ﴿ رَبِّ بما أغويتني لأزيِّنَنَّ لهم في الأرض[٣] ﴾ ، وقالت العرب شعراً :

ولا يمنعنك الطير شيئاً أردته   فقد خُطَّ بالأقلام ما كنت لاقيا[٤]

وقالت العجم :

* هَرْجِه بَايِدْبَان بُوَدْهَمَان أَزْبِيشْ[٥] *

وكان سبب ولاية إياس القضاء ، أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أرسل رجلاً من أهل الشام ، وأمره أن يجمع بين إياس والقاسم بن ربيعة الجوشني ويولى القضاء أنفذهما ، فجمع بينهما ، فكان كلٌّ منهما يمتنع من الولاية ، فقال إياس للشامىّ : سلْ عنّى وعن القاسم فقيهى المِصْر : الحسن البصرىّ وابن سيرين ، فعلم القاسم أنه إن سألهما عنهما أشارا به ، فقال القاسم للشامىّ : لا تسأل عنه ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إنّ إياساً لأفضلُ منّى وأعلم بالقضاء ، فإن كنتُ ممن يصدّق[٦] فينبغى لك أن تصدّق قولى ، وإن كُنت كاذباً فما يحلُّ لك أن تولّينى القضاء وأنا كذّاب ؛ فقال إياسٌ للشامىّ : إنّك جئت برجل فأقمته على شفير جهنّم ، فافتدى نفسَه من النّار بيمين كاذبة ، يستغفر الله عزّ وجلّ منها ، وينجو من النار . فقال الشامىّ : أمّا إذا فطِنت لها فإنى أوليك[٧] ؛ فاستقضاه ،

---

(١) سورة المؤمنين ١٠٦ .

(٢) سورة البقرة ٣٢ .

(٣) سورة الحجر ٣٩ .

(٤) ت « فى الأقلام » ، وهو خطأ .

(٥) ورد هذا المصراع محرفا فى الأصول ، وقد ضبطته بمعرفة الأستاذ نصر الله الطرازى مفهرس الكتب الفارسية بدار الكتب ، قال : ومعناه : « كل ماقدر لنا يكون أمامنا » .

(٦) أخبار القضاة : « فإن كنت عندك صادقا » .

(٧) أخبار القضاة : « فأنت أفهم منه » .

فلم يزل على القضاء مدّة ، ثم هرب .

ولما ولى القضاء دخل عليه الحسن البصرىّ فبكى إياس ، وقال : يا أبا سعيد ، بلغنى أن القضاء ثلاثه : رجلٌ مال به الهوى فهو فى النّار ، ورجل اجتهدفأخطأ فهو فى النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة : فقال الحسن : إن فيما قضى[١] الله تعالى فى النبىّ داود ما يردّ قول هؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[٢] ، فحمِد سليمان ولم يذمّ داود[٣] .

وحكى المدائنىّ ، قال : أودع رجُلٌ آخر كيساً فيه دنانير ، وغاب مدّة طويلة ، فلمّا طال الأمر ، فتق الرجل الكِيس وأخذ الدنانير ، ووضع عِوَضها دراهم ، والخيط والخاتِمَ على حاله ؛ ثم قدِم صاحب المال فطلب ماله ، فدفع له الكيس بخاتمه[٤] ، فلم يقبلْه ، وقال : هذه دراهم ومالى دنانير . فقال : هذا كيسُك وخاتَمك ، فرفعه لابن هُبيرة ، فقال لإياس : انظر بينهما ؛ فقال إياس : منذ كم أودَعك ؟ قال : منذ عشرة أعوام ، فقال : فضّوا الخاتم ، ففضُّوه ، ونثروا الدّراهم ، فوجدوا فيها ضرب خمس سنين ، وستّ سنين، وأقلّ وأكثر ، فقال إياس : قد أقررتَ أنه عندك منذ عشر سنين ، وفى الكيس ضرب خمس سنين ! فأقرّ بالدنانير وألزِم بها[٥] .

ونظر إياسٌ يوماً إلى رجل لم يره قطّ ، فقال : هذا غريب واسطىّ معلم كتّاب[٦] ، هرب له غلام ، فوجدُوا الأمر كذلك ، فسئِل عن ذلك ، فقال :

---

(١) أخبار القضاة : « إن فيما قضى الله » .
(٢) سورة الأنبياء ٧٩ .
(٣) الخبر فى أخبار القضاة لوكيع ١ : ٣١٢ ، ٣١٣ ، والشريشى ١ : ١١٣ ، وابن خلكان ١ : ٢٨٢ .
(٤) ت : « بختمه » .
(٥) د : « وألزمه بها » ، ط : « وألزمه إياها » .
(٦) ط: « صبيان » .

رأيتُه يمشى ويلتفت فى الأماكن والطرق ، فعلمتُ أنه غريب ، ورأيتُ[١] على ثوبه حُمرة تراب واسط ، فعلمت أنّه من أهلها ، ورأيته يمرّ بالصبيان فيسلّم عليهم ولا يسلّم على الرّجال ؛ فعلمتُ أنه معلّم ، ورأيته إذا مرّ بذى هيئة لم يلتفت إليه ، وإذا مرّ بأسود ذى أسْمال تأمّله ؛ فعلمت أنه يطلب آبِقاً .

ووجده يوماً الحكم بن أيوب عامل البلد فسبّه وقال : إنك خارجىّ منافق ، فائتنى بكَفِيل ؛ فقال : أنت أيّها الأمير تكفُلنِي ، ولا أعلم أحداً أعرفَ منك بى ، فقال : وما علمى بك ، وأنا من أهل الشام ، وأنت من أهل العراق ! فقال إياس : ففيمَ الشهادة منذ اليوم !

وتبصّر الناس هلال شهر رمضان فلم يره أحدٌ غير أنس بن مالك الأنصارىّ ـ وقد قارب المائة سنة من العمر ـ فشهد عند إياس ، فقال إياس : أشِرْ لنا إلى موضعه ، فجعل يُشِير ولا يرَوْنه ؛ فتأمّل إياس ؛ وإذا شعرة[٢] بيضاء من حاجب أَنَس قد انثنت وصارت على عينه ، فمسحها إياس وسوّاها ، ثم قال : ياأباحَمْزة[٣] ، أرنا موضع الهلال ؛ فنظر فقال : ما أرى شيئاً .

وقيل لإياس يوماً : إن فيك عيوباً : دمامة الشكل ، وإعجابك بالقول[٤] ، وعَجَلة بالحُكْم ؛ فقال : أمّا الدمّامة فليس أمرها إلىّ ، وأمّا الإعجاب بالقول ؛ أفليس يعجبكم ما أقول ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنا أحقّ بالإعجاب بقولى ؛ وأمّا العَجلة بالحكْم ، فكم هذه ؟ ومدَّ أصابع يده ، فقالوا : خمس ، فقال : أعجلتم بالجواب ولم تَعُدُّوها إصبَعاً إصبعًا ! فقالوا : كيف نعدّ ما نعلمه ! فقال : وأنا كيف أؤخّر حُكْمَ ما أعلمه[٥] !

---

(١) ط : « وأيضا رأيت » .
(٢) ط : « بشعرة » .
(٣) أبو حمزة ، كنية أنس بن مالك . تهذيب التهذيب .
(٤) ط : « بما تقول » .
(٥) د : « قال : فكذلك أنا فى الحكم » .

ودخل إلى واسط ، فقال : يومَ قدِمت بِلدكم عرفتُ خياركم من شراركم من غير أن أكشف عنهم ، قالوا : كيف ؟ قال : معنا قوم خيار ألِفوا منكم قومًا ، وقوم شرار ألفوا قوماً ؛ فعلمت أنّ خياركم مَن ألِفه خيارُنا وكذلك شِراركم .

وكان يقول : عرفت الزَّكَن من أمّي ـ وكانت خُراسانية وأهـل بيتها يزكَنُون ـ أى يتفرّسون .

ولإياس أخبار كثيرة من هذا الباب، مجموعة فى كتاب يسمّى «زكن إياس»[1] .

ومات رحمه الله سنة إحدى وعشرين ومائة ، وهو ابن ستّ وتسعين سنة . وقال فى العام الذى مات فيـه : رأيتُ فى المنام كأنّى وأبى على فرَسَيْن ، فجريا جميعاً فلم أسبقْه ولم يسبقْنِى . وكان أبوه أيضاً قد مات وهو ابن ستّ وتسعين سنة. والله أعلم .

* * *

٤١ ــ وَسَحْبَانَ إِنَّمَا تَـكَلَّمَ بِلِسَانِكَ

[سحبان وائل]

هو سحبان بن زُفَر بن إياس الوائلِىّ ، وائل باهِلة . خطيب مُفصِح يضرَب به المثل فى البيان ، أدرك الجاهليّة والإسلام وأسلم ، ومات سنة أربع وخمسين .

وحكى الأصمعىّ ، قال : كان إذا خطب يسيلُ عرقًا ، ولا يُعيـد كلمة ، ولا يتوقّف ، ولا يقعد حتى يفرُغ .

وقدِم على معاوية وفدٌ من خُراسان فيهم سعيد بن عثمان ، فطلب سَحبان فلم يُوجد فى منزله ، فاقْتُضِب من ناحية اقتضابا ، وأُدخِل عليه ، فقال : تكلّم ،

(١) ذكره صاحب كشف الظنون ، ونسبه للمدائنى .

فقال : انظروا إلى عصًا تقوّم من أَوَدِى ، قالوا : وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربَّه وعصاه فى يده ! فضحك معاوية وقال: هاتوا عصًا ، فجاءوا بها إليه ، فركلها برجله ، ولم يرضها[1] وقال : هاتوا عصاى ، فأتوا بها فأخذها ، ثم قام فتكلّم منذُ صلاة الظّهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ماتنحنح ولاسعل ولا توقّف ، ولا ابتدأ فى معنًى، فخرج منه وقد بقى عليه منه شىء ، فما زالت تلك حالُه حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان : ألاّ تقطع علىّ كلامى ، فقال معاوية : الصّلاة ؛ قال : هى أمامك ؛ ونحن فى صلاة وتحميد ، ووعـد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطبُ العرب ، فقال سَحبان : والعجم والجنّ والإنس[2] .

ومما روِى عنه فى بعض خطبه البليغة ؛ إنّ الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ؛ فخذوا[3] من دار ممرّكم لدار مقرّكم ، ولا تهتكوا أستارَكم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدّنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ؛ ففيها حَيِيتم ، ولغيرها خُلقتم ؛ إن الرجُلَ إذا هَلك قال الناس : ما تَرك ؟ وقالت الملائكة : ما قدّم لله ؟ قدّموا بعضاً يكون لكم ، ولا تخلِّفوا كُلاًّ يكون عليكم .

ومن شعره يمدح طَلْحةَ الطَّلَحات ـ وهو طلْحة بن عبد الله الخزاعىّ :

يا طَلْح أكرم منْ بهـــا حسباً وأعطـــاهمْ لتالدْ[4]
منك العطـــــاء فأَعطِنِى وعلىّ مدحُك فِى المشـــاهدْ

فيقال: إن طلحةَ قال له : احتكم ، قال : فرسك الوَرْد[5] ، وقصرك بكذا ، فقال طلحة : أفٍّ لك ! لوسألتنى على قدرى لأعطيتك كلّ قصر لى وكلّ فرس؛

(١) ت : « يرض بها » .
(٢) الخبر فى الشريشى ١ : ٢٥٣ .
(٣) ط : « أيها الناس فخذوا » .
(٤) الشريشى ١ : ٢٥٣ ؛ وفيها : « أكرم من مشى » .
(٥) فرس ورد : لونه أحمر يضرب إلى صفرة .

ولـكن أبيت إلا بأهليّتك[١] !

* * *

٤٢ -- وَعَمْرو بْنَ الأَهْتَم إِنَّمَا سَحَر بِبَيَانِكَ .

[عمرو بن الأهتم]

هو عمْرو بن سِنان الأهتم بن سميّ التميميّ المِنقريّ ، وإنما لُقِّب سنان بالأهتم ؛ لأنَّهُ هتِمت ثنيّته يوم الـكُلاب[٢] .

وعمرو من أكابر سادات بنى تميم وشعرائهم وخطبائهم فى الجاهلية والإسلام . وهو بليغ القول ، طلق العبارة ، وكان يُدعى المـكمَّل لجماله .

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسـلم هو والزِّبْرقان بن بدر فأسلما ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمهما ؛ فسأل يوماً عمراً عن الزِّبرقان بحضوره ، فقال : مطاع فى أدْنَيْه ، شديد العارضة فى قومه ، مانع لما وراء ظهره . فقال الزّبرقان : يا رسول الله ، إنه ليعلم منى أكثر مما قال ؛ ولـكنّه حسدنى . فقال عمرو : أما والله[٣] فإنه زمِر[٤] المروءة ، ضيّق العَطَن[٤] ، لئيم الخال ، أحمق الولد ، وقريب العهد بالغنى ، [فرأى تغيّر النبى صلى الله عليه وسلم لمّا اختلف قوله][٥] ، فقال: والله يارسول الله ما كذبتُ فى الأولى ، ولقد صدقتُ فى الثانية ؛ ولـكنى رضيت فقلت أحسنَ ماعلمت ، وغضبت فقلت أقبح[٦] ماعلمت . فقال

---

(١) حاشية ت : « وقال غيره فى طلحة الطلحات :

رحِمَ اللهُ أعظُماً دفـنوهَا بسجستانَ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ

(٢) يوم الـكلاب الثانى لتميم على مذحج ؛ والـكلاب : اسم ماء بين البصرة والـكوفة . أيام العرب فى الجاهلية ١٢٤ .

(٣) جمهرة الأمثال : « والله يا رسول الله إنه لزمر المروءة » ، أى قليلها .

(٤) العطن : مناخ الإبل حول الماء ؛ وهو كناية عن البخل .

(٥) من ط .

(٦) الجمهرة : « فقلت بأسوأ ما علمت » .

رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « إنّ من البيان لسحراً »[١] .

واختلف قوم فى معنى الحديث : « إنّ من البيان لسحراً » ؛ فقال قوم : أُريدَ به المدح ؛ فإنّ البيان الفهم ؛ وإنّما سُمِّىَ سِحْرًا لحدّة عمله ، وسرعة قبول القلب له ، والتعجّب منه كما يُتعجّب من السّحر ؛ وقد اتّفق الناس على أن تصوير الحق فى صورة الباطل ، والباطل فى صورة الحق ، من أعلى درجات البلاغة . وقال قوم : أريد به الذمّ ، لأن السّحر تمويه ، والبيان كثرة الكلام والنّفاق ، واحتجُّوا بقوله عليه السلام : « الحياء والعِىّ شعبتان من الإيمان ، والبَذاء والبيان شعبتان من النفاق »[٢] ، والأول أصحّ ؛ وإنّما سمى البيان هنا نفاقاً إذا كان من البَذاء .

وحكى العتبىّ ، قال : وفد الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فأراد أن يقرِع بينهما فى الرياسة ، فلما اجتمعت بنو تميم قال الأحنف ــ وهى من سَقَطاته :

ثَوَى قدح عن قومه طُولَ ماثوى   فلمَّا أتاهم قال قوموا ففاخروا[٣]

فقال عمرو : إنّا كنّا نحن وأنتم فى دار جاهليّة ، وكان الفضلُ فيها لمن جهِل ؛ فسفكنا دماءكم ، وسبيْنا نساءكم ، ونحن اليوم فى دار الإسلام ، والفضل فيها لمن حلم ، فغفر الله لنا ولك ! فغلِّب يومئذ عمرو على الأحنف ، ووقعت القُرعة لآل الأهتم ، فقال عمرو :

وَلَمَّا دعتنِي للرّياسة معشرٌ   لدى مجلسٍ أضحى به النَّجم باديَا

شددتُ لها أزْرِى وقد كنت قبلها   لأمثالها قِدْمًا أشُدُّ إزارِيا

وتوفِّىَ فى سنة سبع وخمسين . وكان يقول : أشجعُ الناس من رَدَّ جهله بحلمه .

---

(١) الخبر فى جمهرة الأمثال للعسكرى ١ : ١٣ ، ١٤ .

(٢) نقله السيوطى فى الجامع الصغير ١ : ٢٦٠ .

(٣) د : « نفاخر » .

وكان يقول : أفٍّ للخمر ! وكان ممّن حرّمها فى الجاهليّة ، وقال : لو كان شىء يُشترى ما كانَ شىء أنفس منه ـ يعنى العقل ـ فالعَجَبُ لمن يشترى الحمقَ بمالِه فيدخله فى رأسه ، فيقىء فى جيبه ، ويسلح فى ذيله .

ومن شعره — وهو فى أعلى الطبقات ـ قوله :

ومُسْتَنْبِحٍ بعد الهُدوء دعوتُه ... وقد حَانَ مِنْ سارِى الشتاء طروقُ[(١)]

يعالج عِرْنينًا من الّليـــل باردًا ... تلفُّ رياحٌ ثوبَه وبُروقُ[(٢)]

أضفتُ فلم أُفْحِشْ عليه ولم أقُلْ ... لأحرِمَه : إنّ المكانَ مَضيقُ

وقلتُ له أهلا وسهلا ومرحبـــًا ... فهـــــذا مبيت صالح وغُبوق[(٣)]

وقمتُ إلى البَرْكِ الهواجدِ فاتّقَتْ ... مَقَاحِيدُ كُومٌ كالمجادِل رُوق[(٤)]

بأدْماء مِرباعِ النِّتاجِ كأنّها ... إذا عَرَضَتْ دُوَن العِشارِ فنيقُ[(٥)]

فقام إليها الجازران فأوفــدا ... يُطيران عنها الجلدَ وهى تَفُوقُ[(٦)]

فَجُرَّ إلينا ضرْعُهـــا وسنامُها ... وأزهرُ يَحْبُو للقيـــام عَتِيقُ[(٧)]

---

(١) من المفضلية ٢٣ . والمستنبح : الرجل الذى يضل الطريق ليلا فينبح لتجيبه الكلاب . وفى المفضليات : « وقد حان من نجم الشتاء خفوق » .

(٢) العرنين : الأنف ؛ وأراد به أول الليل ، وأصل اللف للرياح خاصة ، فأتبع البروق الرياح على المجاز .

(٣) المفضليات : « فهذا صبوح راهن وصديق » .

(٤) البرك : إبل الحى كلهم . الهواجد : النيام . والهاجد من الأضداد ؛ يقال للنائم والمستيقظ . فاتقت ؛ أى جعلت بينى وبينها الأدماء التى فى البيت الآتى . المقاحيد : الإبل المسنة والكوم كذلك ، جمع كوماء . المجادل : القصور ، واحدها مجدل . الروق : الخيار .

(٥) الأدماء : البيضاء . مرباع النتاج التى يكون نتاجها فى أول الربيع ؛ وذلك أقوى لولدها . العشار : جمع عشراء ؛ وهى الناقة التى مضى من لقاحها عشرة أشهر . الفنيق : الفحل الذى يودع للفحلة .

(٦) أوفدا ؛ أى ارتفعا وعلوا لعظمها . تفوق : تجود بنفسها .

(٧) الأزهر : الأبيض ؛ يعنى ولدها . والعتيق : الكريم ؛ أراد أنه نحر أنفس الإبل وهى العشراء .

وبَاتَ لَنَا مِنْهَا وللضَّيف مَوْهِناً ... شِواءٌ سَمِينٌ زاهقٌ ووَشِيقُ[١]
وكلّ كريمٍ يتَّقِي الذَّمَّ بالقِرَى ... ولِلخَيْر بَيْن الصَّالِحِين طَرِيقُ
لعمرُكَ ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكنَّ أخلاقَ الرّجال تضيقُ
نمَتْنِي عُروقٌ من زُرارة للعُلا ... ومن فَدَكيٍّ والأشدّ عروق[٢]
مَكَارم يجعلن الفتى فى أرومةٍ ... يَفَاعٍ ، و بعض الوالدين رقيق[٣]

وقوله أيضاً من أبيات :

وذى لوثة شَهّى الرُّقادَ بعينه ... بغام رخيم الصوت ألوث فاترُ
فقلت له كَمِّشْ ثيابكَ وارتحِلْ ... و إلاّ تَكاءدْكَ السُّرَى والهواجرُ
إذا ما نجوم الليل صَارتْ كأنّهَا ... هَجائن يطلعن الفَلاة صَوَادِرُ
شآميّة إلاّ سُهَيلا كأنّه ... فنيقٌ غدا عن شولِهِ وهو جافرُ

وقوله ـ وهو أحسن ما للمتقدِّمين فى هذا المعنى :

تَطَارَحَنِي يومٌ جديدٌ وليلةٌ ... هُمَا أبْليا جِسْمى ، وكلّ فتى بالِي
إذا ما سلختُ الشَّهْر أهللت بعدَهُ ... كَفَى قاتلاً سَلْخِي الشُّهورَ و إهلالِي

* * *

(١) موهنا: بعد وقت من الليل قريب من نصفه . والزاهق : الذى ليس بعد سمنه سمن . والوشيق : اللحم يغلى فى ملح . وقيل : المقدد الذى يحمل فى الأسفار . وفى المفضليات : « وغبوق » ،وهو شراب العشى .

(٢) نمتنى : رفعتنى ونوهت باسمى ، وأم عمرو بن الأهتم ميا بنت فدكى بن أعبد ، وأمها بنت علقمة بن زرارة ، يصف كرم آبائه وأخواله .

(٣) الأرومة ، بالضم ـ وهى لغة تميم : أصل الشيء . واليفاع : المرتفع .

٤٣ — وَأَنَّ الصُّلْح بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ تَمَّ بِرِسَالَتِكَ .

[الصلح بين بكر وتغلب]

بكر وتَغْلِب هم بنو وائل الذين قامت بينهم حَرْب البَسوس كما تقدَّم فى ذكر جسّاس ومهلهل ، واستمرَّت أعواما كثيرة إلى أن تَفانَى الحيّان ، وقُتل عظماؤهم ، فخرج مُهلهل إلى أخواله ضَجِراً من الحرب وتطاوُل المدّة، ومالَ منْ بقِيَ من القوم إلى صُلح بعضهم بعضا ، وراسلَهم الحارث بن عمرو بن معاوية الكِنديّ ملك كندة ـ وهو جدّ امرئ القيس الشاعر ـ فى الصلح بينهم ، والتملّك عليهم ، وقد كانوا قالوا : إنّ سفهاءنا قد غلبوا على أمرنا ، وأكلَ القويُّ الضعيفَ ؛ والرأى أن نملِّك علينا ملكا نعطيه البعير والشّاةَ ، فيأخذ من القوىّ ، ويردّ المظالم ، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون ، فلا تنقطع الحروب .

فأجابوا الحارث بن عمرو إلى ما أراد ، فقدم عليهم وتلافَى بقيّتهم ، وأصلح أمرهم ، وشغلهم بغزو اللخميّين من بنى غَسَّان ملوك الشام . وكان الحارث ملكا جليلاً ، رفيع الهمّة ، ويسمّى آكل المُرار ؛ وإنّما سمِّى بذلك لأنَّ زيادة بن الهَبُولة أحد ملوك الشام غزا أرضَه ـ والقوم خُلوف بالبحرين ـ فأصابَ سَبْياً وغنائم ، وسبَى هندا بنت ظالم زوجة الحارث بن عمرو ، فبلغ الحارثَ الخبر ، فخرج للقاء ابن الهَبُولة ، وأرسل سَدوس بن شيبان[1] وصُليع بن وهب[2] يتجسّسان له الخبر فى عسكر ابن الهبَولة ، فخرجا حتىهَجَما على العسكر ليلاً ، وقد أمِن الطلب ، وقَسَّم النَّهْب ، وأخذ المرباعَ ، وأوقدناراً عظيمة ، ونادى

(١) كذا فى الأغانى ، وفى الأصول : « سنان » .

(٢) الأغانى : « صليع بن عبد غنم بن ذهل »

مناديه : مَنْ جاء بحزمة حطب فله فِدْرةٌ[١] من تمر ، فأخذ كلٌّ منهما حزمة من الحطب وألقاها عند النار ، وأخذ التمر . فأما صُليع فقال : يكفى هذه آيةً[٢] وانصرف ؛ وأمّا سَدُوس فقال : لا أبرح حتى آتيه بأمر جلىّ .

فلمّا دخل ابنُ الهَبولة قُبّته ، قربَ سَدُوس منها بحيث يسمع كلامه ، وأقبل أناس يحرُسون القبّة ، فضربَ سدوس يده إلى جليس له مخافة أن يستنكره ، فقال : مَنْ أنت ؟ فقال : فلان . ودنا ابن الهَبولة من هند امرأة الحارث فقبّلها وداعَبها ، وقال : ما ظنّك الآن بالحارث ؟ قالت : ما هو الظنّ ؛ بل هو اليقين ، إنَّه لن يدَع طلبك حتى يعاين القُصور الحمرَ - يعنى الشام - وكأنى أنظر إليه فى فوارسَ من شيبان يذمّرهم و يذمِّرونه ، وهو شديد الكلَب كأنه بعير آكل مُرَارا - فسمِّى آكل المُرار ، والمرار نبت فيه مرارة ، إذا أكلت منه الإبل قلصت مشافرها - وقيل : بل سمعها سَدُوس - يعنى هنداً - تقول لابن الهَبولة ، وقد سألها عن حبّها الحارث ، فقالت : والله ما أبغضت نسمة[٣] قطّ بغضى له ، وما رأيت أحزمَ منه نائماً ومستيقظا ، وكان إذا أراد النوم أمرنى أن أجعل عنده عُسًّا من لَبن ؛ فبينما هو نائم يوما ، وأنا قريب أنظر إليه ؛ إذ أقبل سالخٌ إلى [رأسه ، فنحّى رأسه ، فمال إلى يديه ، و إحداهما مقبوضة ، والأخرى مبسوطة فأهوى إليها فقبضها ، فمال إلى رجليه وقد قبض واحدة و بسط الأخرى فأهوى إليها فقبضها ، فمال إلى][٤] العُسّ فشرب منه ، ثم مجّ فيه ، فقلت : يستيقظ فيشرب به فيموت ، فأستريح منه . فانتبه من نومه فقال : علىّ بالإناء فناولته إياه فشمّه ، ثم ألقاه فهُريق ، [ثم قال : أين ذهب الأسوَد ؟ فقلت : مارأيته ؟ فقال : كذبتِ][٥] .

---

(١) الفدرة : الكتلة من التمر .
(٢) بعدها فى الأغانى: «وعلم مايريد ، فانصرف إلى حجر فأعلمه بعسكره ،وأراه التمر» .
(٣) الأغانى : « ذا نسمة » .
(٤) من الأغانى .
(٥) من ط .

فلمّا سمع سَدُوس هـذه المقالة ، أمهل حتى نام الحرس ، وخرج يسرى ليلتَه حتى صبَّح الحارث ، فدخل عليه وهو ينشد :

أتاكَ المرجِفُون بِرَجْمِ ظَنٍّ   عَلى دَهَشٍ وجئتُك باليقينِ [(١)]

ثم قصّ عليه ماسمع ، وكان الحارث جالساً فى موضع فيه شىء كثيرمن نبت المُرار ، فجعل يسمع الحديث ويعبث بالمُرار ، ويأكل منه غضباً وأسفاً ، وهو لا يعلم أنه يأكله من شدّة الغيظ ، إلى أن فرغ الحديث ووجد طعْمه ؛ فسُمِّىَ آكلَ المُرار . ثم لحق ابن الهَبولة فقاتله ، وظفر عليه .

ولم يزل ملِكا على بنى وائل إلى أن مات . ومن شعره يقول :

رب همّ جُشِّمْتُهُ فى هواكمْ   وبعيرٍ برَكته محْسُور

وغلامٍ كلّفته دلجَ اللَّيـ   ـلِ فأضحى كأنه مخمورُ

إنّ مَنْ غرّهُ النِّساءُ بشىء   بعد هند لجاهـل مغرورُ

كلُّ أنثى وإنَ بَدَا لك منها   آيةُ الحبِّ حُبّهـا خيتَعُورُ [(٢)]

* * *

٤٤ – وَالحَمَالَاتِ بَيْنَ عَبْسٍ وَذُبْيَانَ أُسْنِدَتْ إِلَى كَفَالَتِكَ .

[حَرْب داحس والغبراء]

االحَمَالات ، جمع حَمالة ؛ وهومايتحمّله الرّجلُ عن القوم من دِيةٍ، أوغرامةٍ؛ وأصل الحروب بين بنى عَبْسٍ وذُبيان ، أنّ قَيْس بن زهير المقدّم ذكره ، كان

---

(١) الأغانى : « برجم غيب » ؛ وبعده :

فمَنْ يكُ قدْ أتاكَ بأمرِ لَبْسٍ   فقـد آتِى بأمرٍ مستبينِ

(٢) الخيتعور الباطل ؛ أو الذى لايدوم على حال. وأخبار حجر مع ابن الهبولة فى الأغانى ١٦ : ٣٥٤ ـ ٣٥٨ (طبع دار الكتب) .

قد اشترى من مكة[١] درعاً حسنة تُسمَّى ذاتَ الفُضول[٢] ، ورَد بها إلى قومه ، فرآها عمُّه الربيع بن زياد – وكان سيّد بنى عَبْس – فأخذها منه غَصْباً ، فانتقل عنه قيس بن زهير بأهله ومالِه ، ونَزَل على بنى ذُبيان ، وسيِّدهم حَمَل بن بَدْر ابن حِصْن[٣] ، وأخوه حُذَيفة ، فأكرموه وأحسنوا جِواره .

وكانت لقَيْس خيل كريمة ، من جملتها دَاحِس – وإنَّما سُمِّى دَاحِسًا لأنه كان لرجل من بنى يَرْبوع – يقال له قِرْواش – فرس تسمى جَلْوى[٤] ولرجل منهم يقال له حَوْط فرس يقال له : ذو العُقَّال ، وكان لا يُطرِقه[٥] شيئاً؛ وإنهم توجّهوا فى نُجعة ، والفحْل مع ابنتين لحَوْط تقودانه ، فمرّت به جَلْوى وديقا[٦] ، فلما استنشاها[٧] ودَى ، فضحك شباب منهم ، فاستحيت الفتاتان ، فأرسلتا مِقْوَده ، فوثب على جلوى . ثم جاء حوط –وكان سيِّئ الخلق– فرأى عين فرسه ، فقــال : ثار والله ! فأخبِر بالخبر ، فنادى بنى يَرْبوع فاجتمعوا ، فقالوا : والله ما أكرهناه ، قال : أريد ماء فرسى ، فقالوا : دونك ، فأوثقها حَوْط ، ثم جعل فى يده تراباً ، وسطا عليها ، فأدخل يده فى فَرْجها وأخرجَها ، فاشتملت الرّحِم على ما فيها ، فنتجها قرواش مُهْراً ، فسمّاه داحسا لسطوة حَوْط عليها ودَحْسه اليد إليها ، وخرج داحس كأنه أبوه[٨] .

---

(١) ت : « مكة شرفها الله تعالى » . وفى ابن الأثير : « المدينة » .

(٢) ابن الأثير : « ذات الحواشى » .

(٣) ط : « حصين » ؛ تصحيف .

(٤) ت ، د : « حنوى » ؛ تصحيف ؛ وانظر القاموس .

(٥) يقال : طرق الفحل الناقة يطرقها طروقا ؛ أى وقع عليها وضربها ؛ والضراب : نكاح الإبل ؛ ويقال : أطرقه فحلا ؛ أعطاه إياه يضرب فى إبله .

(٦) يقال : ناقة وديق ، أى تريد الفحل وتحرص عليه .

(٧) استنشاها ، أى أحس رائحتها .

(٨) فى ابن الأثير : « فسطا عليها رجل من القوم فدس يده فى رحمها ، فأخذ ما فيها فلم تزد الفرس إلا لقاحا ، فنتجت مهرا ، فسمى داحسا بهذا السبب » .

ثم إن قيس بن زُهير أغار على بنى يربوع ، فغنم وسبى ، وركب داحساً فتَيانِ من بنى أزْنم[١] ، فنجوَا وقطعا الخيل . فلمّا رآه قيس أعجِب به ، فدعا إلى أن يُجْعَل فداء السّبْى ؛ ففعلوا وصار لقيس ، فتراهن رجلان من بنى ذُبْيان عليه وعلى فرس لحُذيفة تسمَّى الغبراء : أيّهما أسبق ؛ على عشر قلائص .

وقد قيل : إنّ داحساً والْغَبْراء فَرَسا قيسٍ ، والخطّار والحنْفاء فرساحُذيفة، وأنهم أجرَوا الجميع وقيل : تراهنا على فرس قيس ، أيُّهما أسبق[٢] !

وللروّاة فى ذكر هذا السبّاق أخبار مختلفة مطوّلة جدًّا ، تشتمل على أمثال وأشعار ، اختصرتها لـكثرة ما فيها من الموضوعات .

ثم إن الرّجُلين أخبرا حذيفة بن بدر بالرّهان على فرسه وفرس قيس ،فرضى به وأمضاه[٣] ، وأتيا[٤] قيساً فقالا : إنّا راهنّا عن[٥] فرسك ، فقال : راهِنَا مَنْ شئتما وجنّبانى بنى بدر ؛ فإنَّهم قوم يظلمون ؛ فقالا: قد أوجبْنَا الرِّهان معحُذيفة، فقال : والله لتشتعلنّ علينا شرًّا . ثم جاء قيس إلى حذيفة ، فقال : إنما جئتك لأواضعَك الرهان عن صاحبىّ ، فقال : لا ، والله حتى تأْتىَ بالْعشر قَلَائص . فأحفظ ذلك قيساً وغضب ، وتزايدا حتى بلغا مائة قَلوص ، ووضعا الرّهان على يد رجل من بنى ثعلبة ، وجعلا الغاية مائة غلوة[٦] ، ووقع بينهم الاتفاق على السباق، [وجعلوا الغاية من وَارِداتٍ إلى ذاتِ الإصاد ، وجعلوا القصبة فى يد رجلٍ ، وملئوا بِرْكَةً من ماء ، وجَعَلُوا السّابق أوّلَ الخيل يـكرع فيها][٧] . ثم قادا الفرسيْن إلى الغاية ، وركبهما فتَيَان منهم . وكان حَمَل بن بدر قد جعل حَيْسا فى

---

(١) ت : أريم » ط : «رويم» ، والصواب ماأثبته من الأغانى .

(٢) د ،ط : « السابق » .

(٣) ط : « وأرضاه » .

(٤) ط : « فأتيا » .

(٥) ط : « على » .

(٦) الغلوة : مقدار الرمية بالنشابة .

(٧) من ت .

دلاء[١] ووضعه فى شِعْب من شِعاب هَضْب القَليب على طريق الفرسين ، وأكمن فيه فتيانا ، وأمرهم إن جاء داحسٌ سابقاً أن يردّوا وجهه إلى أن يسبقه ، فسبق داحس ، فأشار إليه مَنْ كان فى الشِّعب ، فردُّوا وجهه ، وجاءت الغبراء ، وعلم قيس والذى عِلى يده الرّهان بذلك [فقال :

لقد لاقيتُ من حَمَلِ بن بدرٍ ... وإخوتِه على ذات الإصادِ

هُمُ فَخَروا علىّ بغير فخرٍ ... وردّوا دُونَ غايَتِه جَوادِى

وكنتُ إذَا مُنِيتُ بخَصْمِ سُوءٍ ... دَلفتُ لَهُ بداهيةٍ نآدِ

وقد دَلَفُوا إلىَّ بفعْل سُوءٍ ... فَأَلْفَوْنِى لَهُمْ صَعْبَ الْقِيادِ

ثم قال][٢] قيس لحذيفة : أعطِنى سَبَقِى[٣] ، وقال الّذى على يده الرِّهان : يا حُذيفة ، أعطِه سَبَقه ، فقد سَبق داحس ، فأعطاه السَّبَق .

ثم إنّ جماعة من قوم حُذيفة نَدَّموه على دَفْعه السَّبَق إلى قيس ؛ ونهاه آخرون عن الشرّ وقالوا : إنّ قيساً لم يُسبَق إلى مكرُمة ؛ وإنّما سبق دابّة دابّة ، فأَبَى و بعث ابنه نُدْبة بن حذيفة إلى قَيس يطلب منه السَّبَق ، فقال : هذا سَبَقى ، فكيف أعطيكم إياه ! فتناول ابنُ حذيفة مِن عِرْض قيس وشتَمه وأغلظ، وكان إلى جانب قيس رمْحٌ فطَعنه ، فدقَّ صلبه . واجتمع الحيَّان ؛ وأدّوا دية المقتول ، وأخذها حُذيفة دفعاً للشرّ . ثم إن قومه ندّموه ، فعاد الشّرّ بينهم، فتحمّل قيس بمَنْ معه من قومه ورحل ، وجمع الفرسان ، وقامت الفِتَن بين الحيّين إلى أن قُتِل مالك بن زهير أخو قيس .

وكان الربيع بن زياد عمّهما معتزل الحرب ، فلمّا سمع بمقتل ابن أخيه مالك شقّ ذلك عليه ، وقاتل بنى ذُبيان ، وقال[٤] :

---

(١) بعدها فى مجمع الأمثال : « فسمى ذلك الشعب شعب الحيس لهذا » .

(٢) من ت . (٣) السبق : الرهان الذى يوضع بين أهل السباق.

(٤) من كلمة له فى ديوان الحماسة ٣ : ٣٥ ــ بشرح التبريزى .

مَنْ كَانَ مَسْرُورا بمقتلِ مَالِكٍ   فَلْيَأْتِ نِسْوتَنا بوجْهِ نهَارِ
يَجِدِ النِّسَاءَ حَوَاسرًا يَنْدُبْنَهُ   بالصبحِ قَبْل تبلّج الأسحارِ
أفبعدَ مقتلِ مَالك بن زُهَيْرٍ   تَرْجُو النِّساء عواقب الأطْهَارِ !

يعنى أنه أخذ ثأر مالك ، فندبه النِّساء ، وكذلك عادة العرب لا تندب القتيل حتى يؤخذ ثأره .

ولبعض الأدباء اعتراض فى قوله :

* بِالصُّبْحِ قَبْلَ تَبَلُّجِ الْأَسْحَارِ *

فإنّ الصبح لا يكون إلاّ بعد تبلّج الأسحار . وأجيب بأقوال : منها ، أن الصبح هاهنا الحق الواضح ، من وصف القتيل[١] الذى هو كالصبح ؛ كأنّها[٢] ندبته لخلاله الحسنة الواضحة .

والبيت الثالث يستشهد به العروضيون [٣]على دخول الحذف فى عروض الطويل ، كما يدخل فى ضربه ، وهو زوال السبب من « مفاعلن » المقبوضة ، وهو قليل ولا يستعمل[٣] .

ثم توالت أيّام الحروب بينهم ، وكان أعظمها يوم الهَباءَة كما تقدّم .
وسئم قيسٌ من القِتال ، فذهب إلى أخْواله كما ذكر فى ترجمته ؛ وكان الرّبيع قد مات ، وأكل بعضُ القوم بعضاً ، فقام فى الصلح الحارث بن عوف

---

(١) ت : « من وصفه » .
(٢) ط : « كأن النساء » .
(٣ ــ ٣) كذا وقع فى الأصول ، وهو خطأ . والصواب : « على دخول القطع فى عروض الكامل ، كما يدخل فى ضربه ؛ وهو زوال الحرف الثانى المتحرك من الوتد المجموع فتصير : « متفاعلن » ، « متفاعل » ، وذلك قليل لا يستعمل » . راجع كتب العروض .
(٤) انظر أخبار هذه الحرب فى الميدانى ٢ : ٣٨ ــ ٤٠ ، ابن الأثير ١ : ٣٤٣ ــ ٣٤٩ ، الأغانى ١٦ : ٢٠ ــ ٢٣ (ساسى) .

وهَرِم بن سنان المرّيّان وحمل الحمالات ، واجتهدا فى إصلاح ذات البين .
وفى ذلك يقول زُهَير بن أبى سُلْمَى الشاعر :

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَمَنْشَمِ [١]

وكانت اليدُ الطُّولَى للحارث بن عَوْف أوّلا وآخرا ، والسَّبب فى ذلك أنَّ الحارث قال يوما لخارِجة بن سِنان : أترانى أخطب إلى أحد فيردّنى ؟ قال: نعم، قال : ومَن ذلك ؟ قال أوس بن حارثة بن لأم الطّائىّ ، فقال الحارث لغلامه : ارحَلْ ، فركبا حتى لَقِيَا أوس بن حارثة فى بلاده ، فوجداه فى فِناء منزله ، فلمّا رأى الحارثَ بن عوف ، قال : مرحباً بك ياحارث . قال : وبك ، قال : وما حاجَتُك ؟ قال : جئتك خاطباً ، قال : لستَ هناك ! فانصرف ولم يكلِّمه .

ودخل أوْس إلى امرأته مغضَبا ــ وكانت من عبس ــ فقالت : مَن الرجل الواقف[٢] عليك ؟ قال : ذلك سيّد العرب الحارثُ بن عوف ، قالت : فما لك لم تستنزله ؟ قال : إنه استحمَق ، قالت : وكيف ؟ قال : جاءنى خاطبا ، قالت : أفتريد أن تزوّج بناتِك ؟ قال : نعم ، قالت : فإذا لم تزوّج سيّد العرب فمن ! قال : قد كان ذلك ، قالت : فتدارك ما كان منك ، قال : بماذا ؟ قالت : بأن تلحقه فتردّه ، قال : وكيف وقد فَرط منّى مافرط إليه ! قالت : تقول : إنك لقيتَنى وأنا مغضَب بأمرٍ لم تقدّم فيه قولا ؛ فانصرفْ ولك عندى ما تحبّ ، فإنه سيفعل . فركب أوس بن حارثة فى أثره .

قال خارجة : فوالله إنّا لنسير إذ حانتْ منّى التفاتة ، فرأيته فأقبلتُ على الحارثِ ، وما يكلّمنى غمًّا ، فقلت له : هذا أوْس بن حارثة ، فقال : وما نصنع به ! امْضِ ، فلما رآنا لا نلتفت صاحَ : ياحارث ، اِربَعْ علىَّ ، فوقف له فكلّمه

(١) ديوانه ١٥ . ومنشم ، قال شارح الديوان : « زعم الأصمعى أنها امرأة عطارة من خزاعة ، تحالف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا ، فصار هؤلاء مثل أولئك فى شدة الأمر » .

(٢) ط : « الذى وقف » .

بذلك الكلام ، فرجع مسروراً . فبلغنى أنّ أوساً لمّا دخل منزله قال لزوجته : ادعِى لى فلانة — لأكبر بناته — فأتته ، فقال : يا بُنيّة ، هذا الحارث بن عَوْف ، سيّدٌ من ساداتِ العرب ، وقد جاءنى خاطباً ، وقد أردتُ أن أزوّجَكِ منه ، فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل ، قال : ولِمَ ؟ قالت : لأنّى امرأة فى وجهى رَدّة ، وفى خُلُقى بعض العُهْدة [١] ، ولست بابنة عمّه فيرعَى رَحِمى ، وليس بجارٍ لك فى البلد فيستحيي منك ؛ ولا آمنُ أن يرى منّى ما يكره فيطلّقنى ، فتكون علىّ وصْمة . فقال : قومى بارك الله فيك ! ثمّ دعا الوسطى ، فأجابته بقريب مِن هذا الجواب ، ثمّ دعا الصغرى [٢] فقال لها كما قال لأختها ، فقالت : أنتَ وذلك ؛ فقال : إنّى عرضت ذلك على أختيْك فأبيَاه ، فقالت : لكنّى الجميلة وجهاً ، الصّناعِ يدا ، الحسيبة أبا [٣] ، فإن طَلّقنِي فلا أخلف الله عليه . قال : بارك الله عليك !

ثم خرج إلينا، فقال : قد زوّجتك [بهيسة] [٤] بنت أوْس ، قال: قد قبلت ، فأمرَ أمّها أن تهيّئها ، وتصلح من شأنها ، ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إيّاه ، فلما أدخِلتُ إليه لبثَ هُنيهةً ثم خرج إلىّ، فقلت له : أفرغتَ من شأنك ؟ قال: لاوالله ، لما مددت يدى إليها ، قالت : مهْ ! أعند أبى و إخوتى ! هذا لا يكون .

قال : فأمرَ بالرّحلة فارتحلنا بها ، فسرنا ما شاء الله ، ثم قال لى : تقدَّم فتقدّمت ، فعدلَ بها عن الطريق ، فما لبث أن لحقنى فقلت : أفرغت ؟ قال : لاوالله ! قالت لى : كما يُفعل بالأمَة الجليبة والسبيّة الأخيذة ! لا والله حتى تنحَر الجزُر ، وتذبح الغنم ، وتدعوَ العرب ، وتعمل ما يُعمل لمثلى .

---

(١) الردة : القبح مع شىء من الجمال . والعهدة : الضعف .

(٢) ط : « الصغيرة » ، وفى الأغانى : « ادعى لى بهيسة — وهى الصغرى » .

(٣) ت : « الحسنة أبا » ؛ وأثبت ما يوافق الأغانى وباقى الأصول .

(٤) من د .

قلت : والله لأرى هيئة عقل ، وإنى لأرجو أن تكون المرأة النّجيبة[(١)] .
ثم سرنا حتّى دخلنا بلادنا ، فأحضرْنا الإبل والغنم ، ثم دخل إليها وخَرج ، فقلت : أفرغت ؟ قال : لا والله ، قلت : ولم ذاك ؟ قال : دخلتُ عليها أريدها ، فقلت : قد أحضرنا من المال ما ترين ، قالت : والله لقد ذكرتَ لى من الشرف ما لا أراه فيك ، قلت : كيف ! قالت : أتفرُغ لنكاح النّساء ، والعرب يقتّل بعضها بعضا ! يعنى عَبساً وذُبيان ـ قلت : فتقولين ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلحْ ما بينهم ، ثم ارجع إلىّ ، وإنى لست فائتتك . قلت : والله إنى لأرَى عقلا وهمّة ، ولقد قالت قولا حقّا ، فاخرج بنا . فخرجنا حتى أتينا القومَ ، فمشينا بينهم بالصلح ، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى من الفريقين ، ثم يؤخذ الفضل ممّن هو عليه . فحملنا عنهم الدّيات ، فكانت ثلاثة آلاف بعير[(٢)] .

وعاش الحارث إلى أن أدرك النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ووفد عليه وأسلم ، وبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأنصار فى جواره يدعو قومه إلى الإسلام ، فقتله رجل من بنى ثعلبة ، فبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فقال لحسّان : قل فيه ، فقال :

يا حَارِ مَنْ يَغْدِرْ بذِمَّةِ جَارِه ... فيكمْ فإنَّ مُحَمَّدًا لا يَغْدِرُ[(٣)]
وأمانة المُرّىّ حيثُ لقيتَه ... مثلُ الزُّجاجة صَدْعها لا يُجبَرُ

فتألّم الحارث لهذا القول ، وأرسل يعتذر ، وبعث إليه بدية الرجل سبعين بعيرا ، فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومات الحارث عقيب ذلك .

---

(١) الأغانى : « منجبة » .
(٢) الخبر فى الأغانى ١٠ : ٢٩٤ـ٢٩٦ ؛ قال : « وفيه قال زهير بن أبى سلمى قصيدته :
* أمِنْ أمّ أوفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ *
(٣) ديوانه ٢١١ برواية مخالفة .

ومن شعره قوله:

فإن أكبَرْ فإنّى فِى لِدَاتِى وعاقبة الأصاغر أن يشيبُوا
وما كثّرت فائدتى بَغَدْرٍ لفانِى فى الفوائد ما يطيبُ

وقوله ـ ولو لم يكن للشاعر إلا هذا القول لكفاه :

كم من يدٍ لا أؤدِّى حقَّ نعمَتها عندى لمختبِط طارٍ ومن مِنَنِ
إذ جاء يَسْعى إلى رَحْلِى لأُسْعِفَه أليس قد ظنّ بى خيْرا ولم يرنى !

* * *

٤٥ — وَأَنَّ احْتِيَالَ هَرِمٍ لِعَلقَمَةَ وَعَامِرٍ حَتَّى رَضِيَا كَانَ ذَاكَ عَنْ إِشَارتِكَ .

[منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطُّفَيل]

هو هرِم بن قُطْبة بن سيّار(١) الفزارىّ ، حَكَمٌ من حكّام العرب ، يقضِى بين السّادات فيرضونْ بقضائه ، ولا يُردُّ قولُه إذا فَضّل أحدَ المُتَنافرِيْنِ(٢) عَلَى الْآخرِ . ومعنى المنافرة المحاكمة فى الحسَب والفضْل بين الرَّجُلين ، يقال : نافَرَه إذا حاكمه ، ونَفَرَه إذا غلَبه .

وعلقمة هذا ، هو عَلَقمة بن عُلاثة بن جعفر ؛ من بنى عامرِ بن صَعصعة . وعامر هو ابن الطُّفيل بن مالك بن الأحْوَص ، وكلّ منهما سيِّدٌ من ساداتِ قومه ، فارس شاعر ، وسأورِدُ من أخبارهما شيئاً .

---

(١) كذا فى ت والاشتقاق ٢٧٣ ، وفى ط والأغانى ١٦ : ٢٨٧ : « سنان » .
(٢) ط : « المنافرين » .

فأمّا سببُ منافرتهما كما حكىَ أبو عُبيدة وغيره[١] ، قال : أوّل ما هاج النِّفارَ بين علقمة بن عُلاثة وعامرِ بن الطُّفَيل ، أنَّ علقمةَ كان قاعداً ذات يومٍ يبول ، فبَصُر به عامر وقال : لم أر كاليوم عورةَ[٢] رجل أقبَح من عورتك ! فقال علقمة : لأنَّها لاتثب على جاراتها ، ولاتنال كَنّاتها[٣] ـ يعرّض بعامر ـ فقال عامر : وما أنتَ والقُروم[٤] ! واللهِ لَفَرسُ أبي المسمّى «حَنْوة»[٥] أذْكَر من أبيكَ ، ولَفَحْلُ أبِي المسمَّى « الغيهب » أعظم ذكَراً منك .

فقال علقمة : أمّا فرسكم فعارة[٦] ، وأما فحلكم فغدرة ـ وكانوا قد استعاروا هذا الفحل من رجل من كَلْب يستطرقونه[٧] فغلبوه عليه ـ ولكن إن شئتَ نافرتُك ؛ قال : قد شئتُ .

فقال علقمة : والله إنى لَبَرٌّ وإنّك لَفاجر ، وإنِّى وفىّ وإنّك لَغادر ، فبم تفاخرنى يا عامر !

فقال عامر : والله إنى لأنْزَلُ منك فى القَفْرة[٨] ، وأنحَر للبَكْرَة ، وأطعَن للثّغرة[٩] ؛ ثم تنافروا على مائة من الإبل إلى مائة ، يعطيها الحَكَم أيّهُما نفِّر عليه صاحبه[١٠] . ثم خرجَ علقمة بمن معه من بنى خالد ، وخرج عامر بمن معه من بنى مالكٍ ، وقد أتى عامر بن الطفيل عمَّه ملاعبَ الأسنّة ، فقال : يا عمّاه

---

(١) أوردها أبو الفرج بأسانيده فى الأغانى ١٦ : ٢٨٣ ـ ٢٩٦ (طبعة دار الكتب).
(٢) ط : « سوءة » ؛ وما أثبت يوافق ما فى الأصول الخطية والأغانى .
(٣) كذا فى ت ، والأغانى ، وفى ط : « إلا كفاتها » . والكنة : امرأة الابن أو الأخ .
(٤) ط : « القدوم » ، تصحيف .
(٥) كذا فى نسب الخيل لابن الكلبى ٦٦ ، والمخصص ٦ : ١٩٦ ، والتاج «حنو» .
(٦) عارة : عارية .
(٧) يستطرقونه : يتخذونه فحلا لنياقهم . (٨) ط : « للقفرة » .
(٩) كذا فى ط والأغانى ، وفى ت : « للنثرة » ؛ وهى بمعنى الخيشوم وما والاه .
(١٠) ط : «صحبه» .

أعنِّى ؛ قال : يابنَ أخِى ؛ سُبَّنِى ، قال : لا أسبُّك وأنت عمِّى ، قال : دونك نَعْلَىّ ، فإنى ربعتُ فيهما أربعين مِرباعاً ، فاستعن بهما فى نِفارك .

وجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب ، فلم يقل فيهما شيئاً[1] ، وكره ذلك الأمر لحالها وحال عشيرتهما ، فانطلقا إلى هَرِم بن قُطْبة حتى نزلا به ، فقال هرِم : لأحكُمنَّ بينكما ثم لأفضِّلَنَّ ، ثم لستُ أثِق بواحدٍ منكما ، فأعطيانى موثقاً أطمئنّ إليه ؛ أن ترضَيا بما أقول . وأمرهما بالانصراف ووعدهما ذلك اليوم من قابل ، فانصرفا حتى إذا بلغَ الأجل خرجا إليه ؛ فخرج علقمة ببنى الأحوص معهم القباب والجُزُر والقُدور ، ينحَرون فى كلّ منزلٍ ويُطعمون . وجمع عامر بنى مالك ، وخرجوا على الخيل عليهم السلاح ، فقال رجل من غنىّ : يا عامر ، ما صنعت ! أخرجتَ بنى مالك تفاخر بنى الأحوص معهم القباب والجزُر ، وليس معك شيء تطعم النّاس! ماأسوأ ماصنعت ! فقال عامر لرجلين من بنى عمّه : أَحْصِيا كلّ شيء مع علقمة من قُبّة أو قِدْر أو لَقحة . ففعلا ، فقال عامر : يا بنى مالك ، إنّها المقارعة عن أحسابكم ، فاشخصوا بمثل ما شخصوا . ففعلوا .

وأتوا هَرِمًا فأقاموا عنده أياماً ، وأرسل إلى عامر فأتاه سرًّا لا يعلم به علقمة ، فقال : يا عامر ، قد كنتُ أرى لك رأياً وفيك خيراً ، وما حَبَستُكَ هذه الأيام إلاّ لتنصرف عن صاحِبك ، أتفاخر رجلاً لا تفخر أنت وقومُك إلاّ بآبائه ! فما الذى أنت به خير منه ! فقال عامر : ناشدتُك اللهَ والرّحم ألاّ تفضّل علىّ علْقمة ؛ فوالله إن فعلت لا أفلِح بعدها ! هذِه ناصيتى جُزَّها ، واحتكم فى مالى . فإن كنتَ ولابدَّ فاعلاً فسوّ بينى و بينه . فقال : انصرف فسوف أرى رأيى .

فخرج عامر وهو لاَ يشكّ أنه ينفِّره عليه ، ثم أرسل هرم إلى علقمة سرًّا لا يعلم به عامر ، فأتاه ، فقال : يا علْقمة ، والله إنّى كنت لأحسب فيك خيراً

---

(١) ط : « فلم يقبل منهما » .

أتفاخر رجلا هو ابنُ عمّك فى النّسب ، وأبوه أبوك ، وهو أعظم منك غَنـاء ، وأجمل لقاء[١] ! فما الذى أنت به خير منه ؟ فقال له علقمة : نشدتُك الله ألّا تُنَفّر علىّ عامرا ! فأجابه بما أجاب به الآخر ، وانصرف .

ثم إنّ هَرِمًا أحضر بنيه وبنى أبيه ، فقال : إنِّى قائل غـداً بين هذين الرجلين مقالةً ، فإذا فعلت ذلك فليطرد أحدكم عشر جزائر فينحرها عن عامر ، ويطرد بعضكم عشر جزائر فينحرها عن علْقمة ، وفرّقوا بين الناس لئلاّ يكون لهم جماعة . وأصبح هرِم فجلس فى مجلسه ، وأقبل الناس ، وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقام لبيد ، فقال :

يا هرِمَ ابنَ الأكْرَمين منصِبَا   إنّك قَدْ وُلِّيتَ حُـكْماً مُعْجِبا[٢]

* فاحْـكُمْ وصوِّب رَأْىَ مَنْ تصوّبا *

فقام هرِم وقال : يا بنى جعفر ، قد تحاكمتُما عندى ، والله إنّـكما كرُكبتى البعيرِ الأدرَم[٣] ؛ يقعان معاً على الأرض ، وليس أحدٌ [منكما][٤] إلا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلا كما سيّد كريم . وعمد بنو هرِم إلى الجُزُر ، فنحروها وفرّقوا بين الناس ، وكره أن يفضّل بينهما وهما ابنا عمّ ، فيوقع بذلك عداوة بين الحيَّيْن ، وخرجا من عنده راضيَيْن .

وقد قيل إنّه قال لهما : أنتما كغَرْبَىِ السيف ، فإنّه لو قال : « كركبتى البعير » لقالا : أيُّهما اليمين ؟ وقيل : إنه لم يقل شيئا من ذلك ، وإنما اكتفيا بما قال سرًّا ، وذهبا عنه .

وادّعى الأعشى أنهما حـكّماه ، فحـكم لعامر على علقمة ، وقال فى ذلك

---

(١) ط : « وأحمد لقاء » ، وفى الأغانى : « وأحمدهم » .

(٢) ديوانه ٥٢ .

(٣) الأدرم : الذى تراكب لحمه وشحمه حتى غطى عظامه .

(٤) من ت .

قصائد ، منها الّتى أولها :

* أعلقمُ لستَ إلى عامرٍ[(١)] *

* * *

[علقمة بن علاثة]

ومات علقمة مسلما . وله وِفَادتان : إحداهما على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أسلم فيها ، والثانية على عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وجرت له معه حكاية ظريفة[(٢)] . كان علقمة صديقاً لخالد بن الوليد رضى الله عنه ، وكان عُمَر يشبَّه بخالد ، فالتقاه فى الليل ، فقال : يا خالد ، أعزلُوكَ ؟ وهو يظنّ أنه خالد ــ وكان عمر قد عزل خالداً عن جيش الشام غيظاً منه ، بسبب قتل مالك بن نويرة وتزويج زوجته كما تقدم ــ فقال عمر : نعم ، فقال علقمة : والله ماهو إلّا نفاسة عليك وحسداً لك ! فقال عمر : فما عندكَ معونة على ذلك ؟ فقال : معاذ الله ! إن لعمر علينا سمعاً وطاعة ، ولا نخرج عليه ولا نخالفه ، وانصرفا . فلما أصبَح دخل علقمة على عمر وعنده خالد ، فقال عمر رضى الله عنه له : إيهٍ يا علْقمة ! أنت القائل البارحة لخالد ما قلت ! فقال علقمة لخالد : أفعلتها ! فقال : والله ما لقيتُك البارحة ولا رأيتُك إلاّ فى هذه الساعة . ففطِن علقمة ، وعرف أنه إنما لقى عمر فظنّه خالداً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما سمعتَ إلا خيراً ، قال : أجَل . ثم ولّاه حُوران ، وخرج إليها ، فقصده الحطيئة مادحاً له ، فمات علقمة قبل أن يصل إليه ، فقال :

لعمرى لنعم المرءُ من آل جعْفرٍ بحُورانَ أمسى أعلقتْه الحبائلُ[(٣)]

---

(١) بقيته :

* الناقض الأوتار والواتر *

(٢) ط : « لطيفة » .

(٣) من مقطوعة له فى ديوانه ٩٩ ــ ١٠٠ .

وما كان بينى لو لقيتُك سالماً   وبين الغِنَى إلّا ليالٍ قلائلُ

فلما وصل وجد علقمة قد أوصى له بسهم من ماله[١] .

* * *

[عامر بن الطُّفيل]

وأمّا عامر بن الطُّفَيل فكان شجاعاً مشهوراً شاعراً مقدَّما ، قال أبو عبيدة: اجتمع العُكاظيّون على أنّ فُرسان العرب ثلاثة : ففارس تميم عُتيبة بن الحارث ابن شهاب ، أحدُ بنى ثعلبة ، صيّاد الفوارس[٢] ، وفارس ربيعة بِسْطام بن قيس، وفارس قيس عامر بن الطُّفَيل . وفد على النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه أرْبد ابن قيس مع قوم من بنى عامر ؛ فقال : يا محمد ، ما لى إنْ أسلمتُ ؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسلّم : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم . قال : لا ، إلاَّ أن تجعل لى الأمر من بعدك ؛ قال : ليس ذلك لقومك ، قال : فتجعل لى الوَبَر ولك المدَر ؛ قال : لا ، ولكن أجعل لك أعنّة الخيل ، قال : أو ليست لى ! ثم قال : يا محمد ، والله لأملأنّها عليك خيلا ورَجْلاً ، ولأربطنّ بكل نخلة فرساً ، وولَّى ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : « اللّهم اكفِنى عامراً وأرْبَد ، واهد بنى عامرٍ ، وأغنِ الإسلام عن عامر » .

ثم انصرفوا حتى إذا كانوا ببعض الطّريق ، بعث الله تعالى على عامر بن الطُّفيل الطّاعون فى عُنقه ، فاندلع لسانه من فيه كضَرْع الشّاة ، فمال إلى بيت امرأة من سَلُول ، وجعل يقول: « غُدَّةٌ كغُدَّة البعير، ومَوْتٌ فى بيت سَلُوليّة! » . ثمَّ مَات ، فواراه أصحابه ، وجعلوا على قبره أنصاباً ميلاً فى مِيل ، وجعلوه حمًى فقيل : إن بعض ولده رأى ذلك فيما بعد فقال : لقد ضيّقتمْ على أبى !

---

(١) الخبر فى الأغانى ١٦ : ٢٩٦

(٢) ط : « الفرسان » .

وأما أربد ، فأرهل الله تعالى عليه صاعقةً قتلته[١] ، وفى ذلك يقول أخوه :

أَخْشَى عَلَى أربدَ الحُتُوف ولاَ أرهب نَوْءَ السِّماك والأسدِ

ولعامر بن الطُّفَيل شعر جيّد سرىّ متمكّن ، فمن ذلك قصيدته الرّائية التى ذكر فيها عوَر عينه ، وذلك أن مسهر[٢] بن يزيد كان فارساً شريفاً ، فجنى جناية فى قومه ، فلحق ببنى عامر ، فشهد يوم فَيْف الريح[٣] مع عامرِ بن الطفيل ، وكان عامر يتعهّد القوم يومئـذ فيقول : يا فلان ، ما رأيتك فعلت ، ويا فلان ما صنعت ؟ فيقول الرجل الذى قد أبلى : أُنظر إلى سيفى وما فيه ، ورمحى ومافيه . وإنّ مسهراً قد أقبل فى تلك الهيئه ، فقال : يا أبا علىّ — يعنى عامر بن الطّفَيل — انظر إلى ما صنعتُ اليوم ، انظر إلى سِنـان رمْحى ، حتى إذا أقبل عليه عامر وجأه بالرّمح فى وجهه ففلَق الوجْنة ، وانشقّت عينُ عامر ففقأها ، وترك مسهر الرُّمح فى عينه ، وضرب فرسه ولحق بقومه .

قالوا : والذى دعا مُسهراً إلى الغدر بعامر أنّه كان يراه يصنع بقومه هـذا فقال : هذا والله مُبِير قومه ، فأراد قتله وإراحتهم منه ، فقال عامر :

لقد علمتْ عُلْيَا هوازنَ أنّـنِى أنا الفارسُ الحامى حقيقةَ جعفرِ[٤]

وقَدْ عَلِمَ المَزْنُوقُ أنّى أكُرُّهُ عَلَى جَمْعِهِمْ كَرّ المَنيحِ المشهَّرِ[٥]

ألستَ تَرَى أرماحَهُم فِىَّ شُرّعاً وأنت حَصَانٌ ماجد العِرْق فاصبر[٦]

---

(١) ط : « فقتلته » .

(٢) ط : « مشهر » ، تصحيف .

(٣) يوم فيف الريح لمذحج على عامر ؛ وفيف الريح : موضع بنجد ؛ وانظر أيام العرب فى الجاهلية ١٣٢ .

(٤) من المفضلية ١٠٦ ، والأصمعية ٧٧ وهوازن : جدهم الأعلى ، وعليا هوازن هم سعد بن بكر بن هوازن الذين استرضع فيهم رسول الله . والحقيقة : ما يحق عليهم أن يحموه من منع جار وإدراك ثأر . وجعفر هو ابن كلاب بن ربيعة بن عامر .

(٥) المزنوق : اسم فرسه ، والمنيح : قدح تكثر به القداح ولاحظ له . والمشهر : المشهور.

(٦) شرع : جمع شارع ؛ من قولهم : شرع الرمح ؛ إذا سدده .

لَعَمْرِى وَمَا عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ ... لَقَدْ شَانَ حُرَّ الوجهِ طَعْنَةُ مُسْهِرِ
فبِئس الفتى إنْ كُنْت أَعْوَرَعاقِراً ... جبانًا فما عُذْرِى لدى كُلِّ مَحْضَرِ

ومن ذلك قوله :

وكَمْ مُظْهِرٍ بغضاً لنـا وَدَّ أنَّنـا ... إذاما الْتَقَيْنا كَانَ أخفى الَّذى أبدَى
مطاعيمُ فى الَّلاوَا ، مطاعينُ فى الوغى ... شمائلُنا تُتْلَى وأيْمـانُنا تندَى

وقوله أيضاً :

وصاحبِ صدقٍ قد أخذت بَضَبْعِهِ ... وقلتُ لَهُ وازرْ أخاك فآزرا[1]
ضَرُوب بنصْلِ السَّيْف خَلْفَ صِحَابِهِ ... إذا اغبرّ أولادُ المقاريف أسْفرا

* * *

٤٦ – وَجَوابُهُ لِعُمَرَ وقَدْ سَأَلَهُ عَنْ أيِّهِمَا كَانَ يُنَفِّرُ وقَعَ عَنْ إرادَتِكَ

يعنى هَرِمَ بن قُطْبة المقدّم ذكره ، وذلك أنه كان أسلم ، وكان عمرُ ابن الخطّاب رضى الله تعالى عنه يحبّه ، فقال له يوماً : ياأبا عمرو ، أيُّهما كنت تنفِّر ؟ يعنى علقمة وعامرا . ومَنْ كان عندك الأفضل منهما ؟ فقال : لو قلتُ الآن فيهما كلمة لعادت جَذَعة — يعنى الحرب بين الحَيَّيْن — فأعجب بهذا القول منه ، وقال : بِحَقٍّ حكّمتك العرب[2] .

* * *

(١) آزره ووازره : أعانه على الأمر .
(٢) له ترجمة فى الإصابة ٣ : ٥٨٣ .

٤٧ ـ وأنَّ الحجّاجَ تقلّدَ ولايةَ العِراقِ بجَدّكَ

[الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ]

الجـدّ الحظّ ، والجِدّ الاجتهاد فى الأمور ، وكلا الوجهين يصلُح ها هنـا .

وهـذا المذكور هو الحجّاج بن يوسف بن أبى عُقَيل الثقفيّ السفّاك المشهور ، ولد سنة إحدى وأربعين ومائة ، ونشأ بالطّائف . وزعم بعض الرّواة أنه كان أوّل أمرِه معلّماً للصبيان[١] ، ويسمى كُلَيبا ، وفيه يقول الشاعر : [٢]

أينسَى كليبٌ زمانَ الهُزَال ... وتعليمَهُ سورةَ الـكوثرِ [٣]

رغيفٌ له فلْـكَةٌ ماتُرَى[٤] ... وآخرُ كالقمر الأزْهرِ

يشير إلى خبز المعلّمين ، فإنّه مختلف فى الصّغر والـكبَر، على قَدْر بيوت الصّبيان ، ثم صار دبّاغا ، ويستدلّ على ذلك بحكايته مع كعب الأشقرىّ[٥] أيّام ولايته ، وذلك أن المهلَّب بن أبى صُفرة لما أطال قِتال الأزارقة فى ولاية الحجّاج ، كتب إليه يستبطئهُ فى تأخير مُناجزة الأزارقة و يعجِّزه ، فقال المهلَّب لرسوله : قل له : إنَّ الشَّاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وقام كعب الأشقرىّ — وكان من جند المهلَّب — فأنشد :

إنَّ ابنَ يوسَفَ غرّهُ من غزوكُمْ ... خفض المقام بجانب الأمصارِ

لو شاهد الصَّفَّيْن حين تلاقيَا ... ضاقت عليه رحيبة الأقطارِ

---

(١) ط : « معلم صبيان » .

(٢) الـكامل ٢ : ١٠٤ ، ومعجم البلدان ٧ : ٢٩١

(٣) كذا فى الأصول ؛ وهى رواية الـكامل ، وفى معجم البلدان : « وتعليمه صبية الـكوثر » . قال : « وكوثر : قرية بالطائف وكان الحجاج بن يوسف معلماً بها » .

(٤) الفلـكة : مستدار كل شىء . وفى ط : « فلـكة دائر » ، وأثبت ما فى ت والـكامل.

(٥) زيادات الـكامل ١ : ٣٥٢ : « الأشقرى ، بالقاف لا غير » .

ورأى مُعَاوَدَة الدّباغ غنيمةً أيّامَ كَانَ مُحالفَ الإقتارِ

فبلغت أبياته الحجّاج ، فكتب إلى المهلّب يأمره بإشخاص كَعْب ، فأعلم كعباً بذلك ، وأوفده من ليلته إلى عبد الملك بن مروان ، وكتب إليه يستوهبه منه . فقدم كعب برسالة من المهلّب إلى عبد الملك ، فاستنطقه واستنشده ، فأعجبه ماسمع[1] منه ، وكتب إلى الحجَّاج يقسم عليه أن يعفوَ عنه ، فلمّا دخل كَعْب على الحجَّاج ، قال : إيهٍ يا كعب !

* ورأى معاودة الدّباغ غنيمة *

فقال : أيّها الأمير ، والله لوددت فى بعض ما شاهدتُه من تلك الحروب وما يوردناه المهلّب من خطرها أن أنجوَ منها ، وأكون حجّامًا أو حائكا . فقال له الحجَّاج : أوْلى لك ! لولا قسمُ أمير المؤمنين ما نفعك ما أسمَع ، فالحق بصاحبك .

وبعضُ الرُّواة ينكر هذا القول ويقول : هذه من أكاذيب الشّعراء ، ويزعم أن الحجَّاج لم يزل فى كَنَفِ أبيه ، وكان أبوه رجلا نبيلاً ، جليل القدر إلى أن اتّصل — يعنى الحجاج — بروْح بن زِنْباع ، ثم بعبدِ الملك بن مروان ، ولم يزلْ يترقّى إلى أن ولىَ العراقَ والمشرق ، وطار ذكْره ، وعظم سلطانُه .

وأوّلُ ماعرف من شهامته وجَوْره ، أنَّ أباه خرج من مصر يريد عبدَ الملك ابن مروان ، ومعه ابنه الحجّاج ، فأقبل سليم بن عمرو القاضى — وكان من أورع الناس وأتقاهم — فقام إليه يوسف فسلّم عليه ، وقال : إنِّى أريد أن آتىَ أمير المؤمنين ، فإن كانت لك حاجة فأعلِمْنِي ، قال : نعم ، حاجتِي أن تسألَه أن يعزلَنى عن القضاء ، فقال يوسف : والله لَوددتُ قضاة المسلمين كلّهم مثلك ، فكيف أسأله هذا ! ثم انصرف ، فقال ابنه الحجَّاج : مَنْ هذا

---

(١) ط : « سمعه » .

الذى قمت إليه ؟ فقال : يابنىّ ، هذا سليم بن عمرو ، عالم[1] أهل مصر وقاضيهم[2] ، فقال : يغفر الله لك باأبت ! أنت ابن أبى عُقَيل ، تقوم إلى رجل من كِنْدة أو تحيِّيه ! فقال : والله يابنىّ ، إنى أرى الناس ما يُرْحمون إلّا بهذا وأشباهه ، فقال : والله ما يفسد النّاس على أمير المؤمنين إلا هذا وأشباهه ، يَقْعدون ويقعد إليهم أحداثُ الناس ، ويذكرون سيرة أبى بكر وعمر ، فيخرجون على أميرِ المؤمنين ! والله لو صفا هذا الأمر إلىّ لسألت أمير المؤمنين أن يجعلَ لىَ السّبيل فأقْتلَ هذا وأشباهَه ، فقال أبوه : والله يا بنىّ إنى لأظنُّ أنّ اللهَ تعالى خالقك شقيًّا !

وأوّل ما أعجب عبد الملك منه أنه كان قد اُتّصل بَروْح بن زِنْباع ، وصار من جُملة أصحاب شُرْطته ـ وكان رَوْح بمنزلة نائب عبد الملك ـ ثم إنَّ عبد الملك توجَّهَ إلى الجزيرة لقتال زُفَر بن الحارث عند ما عصى عليه بقَرقيسِياء ، فأمر رَوْح بن زِنباع جماعةً من أصحابه وأصحاب شرطته يحُثّون المتأخّرين من أهل العسكر فى كل منزلةٍ ، وكان الحجّاج من جُملتهم ، وكان يجتهد فى ذلك إلى أن مرّ يوما بعد رحيل العسكر بجماعة من خواصٍّ غلمان رَوْح ، فى خيمة يأكلون ، فأمرهم بالرّحيل فَسَخِروا منه إدلالاً بمحلّهم ومحلّ سيّدِهم ، وقالوا له : انزل كُلْ واسكت . فضرب بسيفه أطناب الخَيْمة ، فسقطت عليهم ، وأطلق فيها ناراً فأحرقت أثاثهم عليهم ، فأمسكوه وأتوا به إلى رَوْح ، وسمع عبد الملك الخبر فطلبَه ، وقال : مَن فَعل هذا بغِلمانِ رَوْح ؟ فقال : أنت يا أمير المؤمنين ، أمرتَنا بالاجتهاد فيما ولّيتَنا ، ففعلنا ما أمرتنا[3] به ، وبهذه الفَعْلة يرتدع مَنْ بقى من أهل العسكر ، وما على أمير المؤمنين أن يُعَوّض عليهم [ما ذهب][4] ،

---

(١) ط : « قاضى » .

(٢) على هامش ت : « وقاضيهم » من نسخة .

(٣) ط : « ما أمرت » .

(٤) تكملة من ط

وقد قامت الحُرْمة وتمّ المراد . فأعجب عبد الملك فقال : إن شرطيّكم لجلْد ، ثم أقرّه على ما هو عليه . ولمّا طال القتال والحصار بينه وبين زُفَر بن الحارث أرسل عبدُ الملك رجاء بن حَيْوة وجماعة منهم الحجّاج إلى زُفَرَ بكتاب يدعُوه إلى الصُّلْح ، فأتوْه بالكتاب وقد حضرت الصلاة ، فقام رجاء فصلّى مع زُفَر وصلّى الحجّاج وحدَه ، فسئل عن ذلك فقال : لا أصلّي مع منافق خارج (١عن طاعة أمير المؤمنين١) ، فسمع عبد الملك بذلك فزاد عجبا بالحجاج ، ورفع قدرَه(٢) ، وولاّه بلدا تسمى تَبَالَة(٣) - وهي أوّل ما وُلّي - فخرج إليها ، فلمّا قَرُب سأل عنها ، فقيل: إنها وراء هذه الأكَمَة ، فقال: أفٍّ لبلدةٍ تستُرها أكَمَة ! فرجع ، فقيل في المَثَل : « أهوَنُ من تَبَالَة على الحجّاج » .

ثم قدم على عبد الملك ملازما خدمتَه ، فلمّا فرغ عبد الملك من قتال مُصعب ابن الزُّبير ، ورجَع إلى الشّام قال : مَنْ لابن الزبير ؟ يعني عبد الله القائم بمكة والحجاز - وندبَ الناس إلى قتاله ، فقام الحجّاج فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أنا له ؛ فقال : أقعدتم ! ثم قال : مَنْ لابن الزبير فقام الحجاج ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ابعثنِي إليه ، فلقد رأيت في المنام كأنّي أخذتُه فسَلختُه وجرّدته من جلْده . فبعثه إليه ، وجهّز معه جيشاً فقدِم إلى مكّة ، ونَصَب المنجنِيق على الكَعْبة ، وفعل ما فعل من(٤) قتل ابن الزُّبَير، وصفت الخِلافة لعبد الملك . فسرّ باجتهاده ، وأرسل إليه عهده على مكّة والمدينة والطّائف ؛ فاستخفّ بأهل الحَرَمين وأهانهم ، ثم كتب إلى عبد الملك يقول : إني قد حزت الحجاز بشِمالي ، وبقيتْ يميني فارغة - يعرِّض بالعراق - فبعث إليه عهدَه على العراق . وهذا أحد الأقوال في سبب ولايته العراق .

(١-١) ط : « خارج على أمير المؤمنين وعن طاعته » .

(٢) ت : « يده » .

(٣) تبالة الحجاج ، : بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن . ياقوت .

(٤) ط : « ختي » .

والقول الآخر ، أنه وفد على عبد الملك ومعه إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله التّيميّ ، وكان من رجال قريش علما و نُبْلاً ، وعملا وزُهْدا ومهابةً ، وكان الحجَّاج مسخّراً له لا يترك من إجلاله شيئا ؛ فلما قدم على عبد الملك أذِن للحجَّاج فى الدخول ، فلمَّا دخل سلَّم ولم يبدأ بشىء إلاّ أن قال : يا أميرَ المؤمنين ، قَدِمت عليك برجلٍ من أهل الحجاز ، ليس له نظيرٌ فى كمال المروءة والدّيانة وحسن المذهب والطّاعة ، مع القَرابة ووجوب الحقّ ، فقال : ومَنْ هو ؟ قال : إبراهيم ابن طلحة التيميّ ، فلْيفعل أمير المؤمنين معه ما يفعل بأمثاله. فقال عبد الملك : ذكّرتَنا حقًّا واجبا ، ورحِما قريبة ! ثم أذِن له ، فلمَّادخل قرَّبه وأدْناه ، ثم قال له : إنَّ أبا محمد ذكَر لنا ما [لم نزَل] [1] نعرفك به ، من الفضل وحسن المذهب ؛ فلا تَدَعَنَّ حاجةً إلاَّ ذكرتَها .

فقال إبراهيم : إنَّ أوْلى الأمور أن تُفتتحَ [2] به الحوائج ما كان لله فيه رضاً ، ولحقّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أداء ، ولجماعة المسلمين نصيحة ؛ قال : وماهو ؟ قال : لا يمكن القول إلا وأنا خالٍ ، فأخلِنى . قال : أوَ دُون أبى محمد ! قال : نعم ، فأشار عبد الملك إلى الحجاج [وإلى من كان حاضرا] [3] ، فخرج وقال : قل ، فقال [4] : يا أمير المؤمنين ، إنك عهدتَ إلى الحجّاج مع تغطرسه وتعجرفه ، وبعده عن الحقّ ، وركونه إلى الباطل ؛ فولّيتَه الحرميْن وفيهما من أبناء [5] المهاجرين والأنصار من قد علمت ، يسومهم الخسفَ ، ويتوعّدهم بالعُنْف [6] ، ويطؤهم بطغَام [7] أهل الشّام ورَعاعٍ لا رويّة لهم فى إقامة حقّ ،

---

(١) تكملة من ط .
(٢) ت : « تفتح » .
(٣) تكملة من ت .
(٤) من نسخة : « فقام هو ومن كان حاضراً ولايعرف أين يضع قدمه! » . حاشيةت.
(٥) ط : « وبهما من أولاد المهاجرين » .
(٦) ط : « ويقودهم بالحتف » . (٧) الطغام : أوغاد الناس .

ولا فى إزاحة باطل ، ثم تظنُّ أنَّ ذلك ينجيك من عذاب الله ! فكيف بك إذا جاثاك[1] محمد صلى الله عليه وسلم غدًا للخصومة بين يدى الله تعالى ! أما والله إنك لن تنجو هناك إلا بحُجَّةٍ تضمن لك النَّجاة ، فاتّق[2] لنفسك أودَعْ . وكان عبد الملك متّكئا ، فاستوى جالسا ، وقال : كذبت ومِنْتَ فيما جئت به ! ولقد ظنّ بك الحجّاج ظنّا لم يجدْه فيك ، فأنت المائن الحاسد !

قال إبراهيم : فقمت ووالله ما أبصر شيئا ، فلما جاوزتُ السّتر لحقنى لاحق ، فقال للحاجب : امنع هذا من الخروج . ثم أذِنَ للحجّاج ، فدخل فلبث مليًّا ، وما أشكّ[3] أنهما فى أمرى ، ثم خرج الإذن لى فدخلت ، فلما كشف السّتر إذا أنا بالحجّاج خارج ، فاعتنقنى وقبّل ما بين عينىّ ، وقال : إذا جزى الله المتواخييْنِ بفضل تواصُلِهما ، فجزاك الله أفضل الجزاء ! أمَاوالله لئن بقيتُ لأرفعنَّ ناظريْك ، ولأتبِعنّ الرّجالَ غُبار قدميْك .

قال : فقلت فى نفسى : إنه ليسخر بى ! فلمّا وصلت إلى عبد الملك أدنى مجلسى كما فعل فى الأول ، ثم قال : يابن طلحة ، هل أعلمتَ الحجّاجَ بما جرى ؛ أو شاركك أحد فى نصيحتك ؟ فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحداً أظهر يداً عندى من الحجّاج ، ولو كنت محابياً أحدًا بدينى لكان هُو ؛ ولكنّى آثرتُ الله ورسوله والمسلمين. فقال : قد علمتُ صدق مقالتِك ، ولو آثرتَ الدنيا لكان لك فى الحجَّاج أملٌ ، وقد عزلتُه عن الحرَمين لمّا كرهتَ ولايته عليهما ، وأخبرته أنك [أنت][4] الذى استنزلتَنى له عنهما استصغارًا للولاية ، [وأعلمتَنِى أنك

---

(١) جاثاه ؛ أى أوقفه موقف الخصومة ؛ والجاثى فى الأصل : الذى يجلس على ركبتيه ؛ وفى حديث على : « أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الله عز وجل » .

(٢) ت : « فائن » .

(٣) ط : « ولا أشك » .

(٤) من ت .

أنت الذى سألتَنى له فى ذلك لعظمهما][١] وولّيتَه العراق ، لما هنالك من الأمور التى لا يدحضها إلا أمثاله [فلا تقطع نصيحتنا عنها ما بقيت][١] ؛ وإنما قلت له ذلك ليؤدّىَ ما يلزمه من ذِمامك ، فاخرج معه فإنّك غير ذامٍّ لصحبته مع يدك عنده . فخرجت مع الحجاج ، وأكرمنى أضعاف إكرامه ، واستدللت على مكارم عبد الملك وتدبيره[٢] ، واعترافه بالحق ، وتلطُّفه فى الأمور .

وقيل فى سبب ولاية الحجاج للعراق قول آخر[٣] .

* * *

[٤]ثم دخل الحجاج إلى الكوفة، فخطب خطبته المشهورة[٤] التى يقول فيها : يا أهلَ العِراق والنّفـاق ، والله لأعصِبنّـكم عَصْبَ السَّلَمَة[٥] ، ولألحونّـكم لَحْوَ العصا ، فطالما أوضعتم فى الضّلالة[٦] ، وتماديتم فى الجهالة ! يا عبيد العصا أنا الغلام الثقفىّ ، لا أعِد إلا وفّيت ، ولا أخْلُق إلا فَرَيْت[٧] ، إنما مثلكم كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ والخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[٨] ، فإنكم أشباهُ ذلك ؛ فاستوثقوا واستقيموا . أقسِم بالله لتدعُنَّ الإرجاف ، ولتُقبلنَّ على الإنصاف ، ولتنزعُنَّ عن القيل والقال ، وكان وكان ، والهَن وما الهَن ، أو لأهبرنّـكم بالسيف هَبْرا يَدَع النِّساء

---

(١) من ت

(٢) ط : « أخلاقه » .

(٣) ت : « وهذا أحد الأقوال فى سبب ولاية الحجاج للعراق » .

(٤ ــ ٤) ط : « ثم دخل الحجاج إلى العراق ، ودخل الكوفة وبدأ بالمسجد » .

(٥) السلمة : نبت كثير الشوك . قال الجاحظ : « لأن الأشجار تعصب أغصانها ثم تخبط بالعصا لسقوط الورق وهشيم العيدان » .

(٦) أوضعتم : أسرعتم ؛ والإيضاع : ضرب من السير .

(٧) أخلق : أقدر ، وفريت : قطعت .

(٨) سورة النحل ١١٢

أيامَى ، والولدان يتامى ؛ والله لـكأنّى أنظر إلى الدّماء تترقرق بين اللِّحى والغلاَصم[(١)] .

فلمَّا سمع أهلُ الـكوفة هذه الخطبةَ ، وكان بعضهم قد أخذ حصا أراد يحصب به الحجّاج ، فتساقط من أيديهم خوفاً ورعبا ، [(٢)]وثبتت مهابتهُ فى قلوبِهم ، وتحكّم حينئذ فى رقابهم[(٢)] .

وكان القاسم بن سلاّم ، يقول : قاتلَ الله أهل الـكوفة ! أين قبائلهم وعشائرهم وأهل الأنَفَة منهم ! وأين تجبّرهم ! قتلوا عليًّا ، وطعنوا الُحسين ، وقاتلوا المختار ، وعجَزوا عن قتل هذا الملعون الدّميم الصُّورة ، وقد جاءهم فى اثنى عشر راكبا وهم فى مائة ألف! ولـكن ظهر تصديق أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كَرّم الله وجهه فى قوله : « اللّهم سلِّط عليهم الغلام الثّقفىّ » .

ثم أقام الحجَّاج بالعراق يُرهب ويفتك ، حتى استوثقتْ له الأمور . ثم خرج عليه عبدُ الرحمن بن الأشعث بأهل العراق ، فأمدّه عبد الملك بأهل الشّام ، فكانوا شيعتَه ، فاستمرّت بينه و بين ابن الأشعث الوقائع حتى هزمه الحجَّاج بدير الجماجم بعد ثمانين وقعة ، فى ستة أشهر . وكان مع ابن الأشعث أكثر من مائة ألف[(٣)] ، فلما هُزِموا قال الحجَّاج : لأصحابه : اتركوهم فليتبدَّدوا ولا تتّبعوهم، ثم نادى مناديه : مَنْ رجع فهو آمِن .

ودخَل الـكوفة ، وجاء النّاس من المنهزمين يبايعونه ، فكان يقول لمن جاء يبايعه : اشْهَدْ على نفسك بالـكفر ، و بخروجك عن الجماعة ، ثم تُب ؛ فإن شهد و إلاّ قتله . فأتاه رجل من خَثعم ، فقال : اشهَدْ على نفسِك بالـكفر ،

---

(١) الغلاصم : جمع غلصمة ؛ وهى رأس الحلقوم .

(٢ـ٢) ت : « وأخاف القوم ، وأثبت المهابة فى قلوبهم ، وتحكم فى رقابهم » .

(٣) ط : « مائتى ألف » .

فقال : إن كنتُ عبدتُ ربّى ثمانين سنة ، ثم أشهد[1] على نفسى بالكفر ، لبئس العبد أنا ! والله ما بقى من عمرى إلا ظِمْء حمار[2] ، وإننى أنتظر الموت صباحا ومساء ؛ فأمر به فضرِب عنقه ، وقُدِّم بعده شيخ آخر ، فقال الحجّاج : ما أظنُّ الشيخ يشهد على نفسه بالكفر ! فقال : يا حجّاج ، أتخادعنى أنت عن نفسى ! أنا أعرَف بها منك ، وإنّى لأكفر من فرعون وهامان ! فضحك الحجّاج وخلّى سبيله.

وكان فى الحجّاج خلال امتاز بها فى وقته[3] : الكرم ، والدهاء ، والجَوْر ، وحلم [نادر][4] فى بعض الأوقات ، والفصاحة .

فأما كرمه ، فحكى أنه لما دخل المدينة ، فرّق فى أهلها عشرة آلاف دينار ثم قال : أتيتاكم وقد غاض الماء لكثرة النوائب ، فاعذرونا . فقال رجل : لاعَذرَ الله مَنْ يعذِرك ! وأنت أمير المصريْن، وابنُ[5] عظيم القريتين ! فقال : صدقت ، واقترض أموال مَنْ هناك من التّجّار ، فكان شيئاً عظيما [وفرّقها][6] .

ولما ولى العراق كان يُطعم فى كلّ يوم على ألف مائدة ، يجتمع على كلّ مائدة عشرة أنفس ، ويُطاف به فى محفَّةٍ على أيدى الرّجال ، يشرف على القوم ويقول: يا أهلَ الشام ، اهشموا الخبز لئلّا يُعاد عليكم .

وقيل : كان فعله هذا خصيصاً بأهل الشام ، وكان يرسِل الرّسلَ إلى النّاس لحضور الطعام ، فكثر عليه ذلك ، فقال : أيّها الناس ، رسلى إليكم الشمس ، إذا

---

(١) ت : « شهدت » .

(٢) الظمء : مابين الشربين والوردين ، قالوا : ليس شىء من الدواب أقصر ظمئاً من الحمار . وقولهم : مابقى منه إلا قدر ظمء الحمار ؛ أى لم يبق من عمره إلا شىء يسير .

(٣) ط : « عن أبناء وقته » .

(٤) تكملة من ت .

(٥) ط : « وأنت » .

(٦) تكملة من د ، ت .

طلعت ، فاحضروا للغداء ، وإذا غربت فاحضروا للعَشاء ، فكانوا يفعلون ذلك .

واستقلّ الناسَ يوما، فقال : ما بال الناس قد قلّوا ! فقام رجل وقال: يأيّها الأميرُ ؛إنك أغنيتَ النّاس فى بيوتهم عن الحضور إلى مائدتك ؛ فأعجبه ذلك ، وقال : اجلس ، باركَ الله عليك !

وأما «هاؤه» ، فحكى عبد الله بن ظَبْيان ، قاتلُ مصعب بن الزبير ، قال : كنت يوماً واقفاً على بابِ الحجاج ، فإذا به قد خَرج وحده ـ وكانت القائلة ، وما بالباب أحدٌ ـ فوقع فى نفسِى أن أقتله ، فنظر إلىّ ، فقال : هل لقيتَ يزيد ابن أبى أسلم ؟ يعنى كاتبه ، قلت : لا ، قال : القَه ؛ فإنّ عهدَكَ على الرّىّ معه ؛ فطمِعْت وكففت عنه ، وتوجّهت إلى يزيد ، فلم يكن معه[1] عهد ولا شىء من ذلك ، وإنما قال الحجّاج ذلك حَذَراً وشَغْلاً[2] لى عمّا أردتُه به .

وبنى هو وعبد الملك فى بعض المساجد بابيْن ، فوقعت صاعقةٌ فأحرقت باب عبد الملك ، فداخله حسدٌ للحجّاج ، فكتب إليه الحجّاج : إنّما مثَل أمير المؤمنين ومثلى كمَثلِ ابنَىْ آدمَ ﴿ إذْ قرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتقَبَّلْ مِن الآخَرِ ﴾[3] .

ودخل يوماً على عبد الملك فدعاه للشراب[4]، فقال: يا أميرَ المؤمنين ، أعفِنى ؛ فإنّى أنهىَ أهلَ عملى عنه ، وأكره أن أخالفَ قول العبد الصالح : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾[5]، فقال عبد الملك : إنّه نبيذُ الرّمّان، يُشَهِّى الطعام ، ويزيد فى الباه ؛ فقال الحجّاج : أما كونُه يشهِّى الطعام ، فوالله لوددت

---

(١) ط : « عنده » .

(٢) ت،د : « إشغالا » .

(٣) سورة المائدة ٢٧ .

(٤) ط : « فدعا بالشراب » .

(٥) سورة هود ٨٨ .

أنّ هذه الأكلة تكفينى إلى أن أموتَ(١) ؛ وأمّا كونه يَزيد فى الباه ، فحسْبُ الرَّجل أن يُصْرَع فى الشّهر مرّة .

وصعِد يوما المِنبر ؛ فأراد أن يختبر طاعة الناس له ، فقال : ألاَ إنَّ الحجّاج كافر ؛ فلم يردّ عليه أحدٌ شيئاً ؛ فقال : باللاتِ والعُزّى ، و بالبغلة الشهباء ، و يوم الأربعاء .

ودخل عليه بعض قتلة(٢) الحسين رضى الله عنه، فقال له : أنت قاتل الحسين ؟ قال : نعم ، قال : كيف قتلتَه ؟ قال : دسرتُه بالرّمح دَسْراً ، ثم هَبَرْتُه بالسيف هَبْرا(٣) ، ووكلت أمر رأسه إلى أميرٍ غير وَكِل ، فقال الحجّاج : أمَا والله لا تجتمعان فى الجنّة . وكان قصده رضَا أهل العراق وأهل الشام ، فخرج أهل العراق يقولون : صدق الحجّاج ، لا يجتمع والله ابنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتله فى الجنّة ، وخرج أهل الشام يقولون : صدق الأمير ، لايجتمع مَنْ شقّ عصا المسلمين ، وخالف أمير المؤمنين ، هو وقاتله فى طاعة الله فى الجنة .

وأما جوره [وسفكه الدماء](٤) ، فقد ذُكِر أنه قتل أكثر من مائة ألفٍ صَبْراً ، آخرهم سعيد بن جُبَير رضى الله عنه .

ومات فى حبسه أكثرُ من عشرين ألفاً ، لم يَجِب على أحدٍ منهم حدّ ، وكان حبسُه بغير سقف ولا ظلّ ، صيفاً وشتاء ، وليس فيه مُستراح ، والنّاس بعضهم على بعض . ومرّ يوماً عليهم فاستغاثوا به ، فقال : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾(٥) .

---

(١) د،ط : « حتى أموت » .

(٢) د ،ط : « قاتل » .

(٣) الهبر : القطع .

(٤) من ط .

(٥) سورة المؤمنين ١٠٨

وقال أبو عمرو بن العلاء : كنت أقرأ : ﴿ إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غَرْفَةً بِيَدِهِ ﴾[١] بالفتح ، وبلغ الحجّاج ـ وكان يقرأ بالضّمّ ـ فطلبنى فهربت إلى وادٍ بصنعاء ، فأقمت زماناً ، فسمعت أعرابيًّا يقول لآخر : قد مات الحجّاج ، فقال الأعرابىّ :

رُبَّمَا تجزع النَّفوس من الأمْـــرِ له فَرْجَةٌ كحَلِّ العِقَالِ[٢]

فلم أدرِ بأىّ شىء كنت أشـدّ فرحاً ، أبموت الحجّاج ، أم بسماع البيت أستشهد به على القراءة !

وحكى بعضُ القُرّاء ، قال : قرأ الحجّاج فى سورة هود : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾[٣] ، فلم يدر أن يقول : «عَمَلٌ» أم «عَمِلَ» ! فقال : ائتونى بقارئٍ ، فأتوْا بى وقد قام من مجلسه ، فحبستُ ونسينى الحجّاج حتى عَرَض السِّجن بعد ستة أشهر ، فلما انتهى إلىّ قال : فيم حبِستَ ؟ فقلتُ : فى ابن نوح ، أصلح الله الأمير ! فضحك وأطلقنى .

وحكِىَ أنه أراد سفراً فصعد إلى المنبر ، فقال : إنِّى قد عزمتُ على السفر ، وخلّفت عليكم ابنى محمداً ، وأوصيته خلاف ما أوصى به العبد الصالح : ألاّ يتقبل من محسنكم ، ولا يتجاوز عن مسيئكم . ألا وإنّى أعلم أنكم تقولون : لا أحسن الله له الصحابة ! ألا وإنّى معجّل لكم الصواب بالجواب ، فأقول : لا أحسن الله عليكم الخلافة !

وحدّث رجلٌ ، قال : هربت من الحجاج حتى مررتُ بقريةٍ ، فأجد كلباً نائماً فى ظلّ جُبّ ، فقلت فى نفسى : ليتنى كنتُ هذا الكلب ، وكنت مستريحاً من خَوْف الحجّاج ! ومررتُ ثم عدتُ من ساعتى ، فأجد الكلب

---

(١) سورة البقرة ٢٤٩ .

(٢) لأمية بن أبى الصلت ، اللسان (فرج) ، وقبله :

لاتضيقنَّ فى الأمورِ فقد تُكْـــشَفُ غَمّاؤها بغيرِ احتيالِ

(٣) سورة هود ٢٢ .

مقتولا ، فسألت عنه ، فقيل : جاء أمر الحجاج بقتل الـكلاب ! فعجبت من عموم جَوْرِه .

وأما حلمه ، فحكى أنّه خرج يوماً إلى ظاهر الـكوفة منفرداً ، فرأى رجلا [أعرابيـاً] (١) ، فقال : ما تقول فى أميركم ؟ قال : الحجّـاج ؟ قال : نعم ، قال : زعموا أنه من ثمود ، وكفى بسوء مسيرته شرًّا ؛ فعليه لعنة الله والملائـكة والنّاس [أجمعين](١) ! فقال الحجّاج : أتعرفنى ؟ قال : لا ، قال : أنا الحجّاج ، فقال الأعرابىّ : أتعرفنى أيّهـا الأمير ؟ قال : لا ، قال : أنا مولَى بنى عامر ، أُجَنّ (٢) فى كلّ شهر ثلاثة أيام ، هذا اليوم علىّ أشدّها (٢) ، فضحك الحجّاج من قوله وصفح عنه .

وأُتِىَ بقوم من أصحاب ابن الأشعث ، فأمر بضرب رقابهم(٣) ، فقام رجلٌ فقال : أيّها الأمير ، إنّ لى عندك يداً ، قال : وماهى ؟ قال : شتَمك رجلٌ بحضرة ابن الأشعث ، فرددتُ عنك ، فقال : مَنْ يشهدُ لك ؟ فأشار : هذا ــ وأشـار بيده إلى رجل منهم ــ فقال : صدق أيّها الأمير ، فقال : مامنعك أن تفعل كما فعل ؟ قال : بغضِى لك ، فقال الحجّاج : أطلقوا هذا ليده عندنا ، وهذا لصدقه فى مثل هذا الوقت .

وقال يوماً لأحمد بن يونس(٤) : فـكّرت فى أمرك فوجدت دمَك ومالك حلالا ؛ فقال : أيُّها الأمير ، أشدّ ما فى القضيّة أنّ هذا الرأى بعد التّفـكّر ! فضحك وعفا عنه .

---

(١) من ت .
(٢ ــ ٢) ط : « أجن فى الشهر ثلاث مرات ، هذا اليوم أشد الصراع على » .
(٣) ط : « أعناقهم » .
(٤) ت : « يوسف » .

وكان عنده يوماً بعضُ نُدمائه؛ وقد أدركتْه سِنَة ، فعطس النَّدِيم عطسة منكَرة ، ففزِع الحجّاج وقام منكِراً مغضَباً ، وقال : ماأردتَ بهذه العَطسة إلا أن تروِّعنى ! فقال : أيّها الأمير ، هذه والله عادتى ، فقال : والله إن لم تأتنى بشاهد على ذلكَ وإلاّ ضربتُ عنقَك . فخرج الرّجل فوجَد بعض أصحابه ، فقصّ عليه الأمر ، فقال : أنا أشهدُ لك . فدخلا على الحجّاج فقال لصاحبه : بم تشهد ؟ فقال : أيّها الأمير ، أشهَدُ بأنّه عطس يوماً عطسة وقع منها ضرسه . فضحِك الحجّاج حتى استلقَى ، فقال : حسبُك ! وأمر بهما فأخرجا . وكان قليل الضَّحِك إلا أن يُغْلَب عن نفسه .

وأما فصاحته وبلاغته ، فمنها خطبه المشهورة المطوّلة [المذكورة فى الكتب بأيدى الناس ، مثل يوم دير الجماجم وغيره][1] ، وفصوله الموجزة فى المكاتبات ، وعلى المنابر .

قال مالك بن دينار : والله لربّما رأيت الحجّاج [يتكلّم][2] على المنبر ، ويذكر حسن صنيعه إلى أهل العراق ، وسوء صنيعهم له حتى يخيّل لى أنه مظلوم .

وقال الحسن البصرىّ : لقد وقذتْنى[3] كلمة سمعتها من الحجّاج ؛ يقول على هذه الأعواد : إن امرأ ذهبت ساعة من عمره فى غير ماخلِق له لجدير أن تطول حسرته ، [فقام إليه رجلٌ فقال : ياحجّاج ، ما أقبح وجهك ! تقول ماتقول وتفعل ماتفعل! فأمر به فأخِذ، فلما نزل من على المنبر قال له : لقد تجرّأت علىّ ! فقال له : ياحجّاج استح من الله ! تجرّأت عليه ولا تنكره على نفسِك ، وأتجرّأ عليك فتنكره علىّ ! فخلّى سبيله][4] .

---

(١) من ت .
(٢) من ط .
(٣) ت : « أيقظتنى » .
(٤) تكملة من ت .

وخطب يوماً فقال : أيّها الناس ، اقدَعوا هذه الأنفس ، فإنها أسألُ شيء إذا أعطِيت ، وأعطَى شيء إذا سئلت ؛ فرحم الله أمرأ جعل لنفسه خِطـامًا وزماماً ، فقادها بخِطامها إلى طاعة الله ، وعطَفها بزمامها عن معصية الله ؛ فإنّى رأيت الصبر عن[1] محارمه أيسرَ من الصبر على عذابه .

وبلغه وفاةُ أخيه وابنه ، فصعد المنبر ، وقال : محمدانِ فى يوم ! أما والله ما كنتُ أحِبّ أن يكونا معى فى الدنيا بما أرجوهما من ثواب الآخرة ، وايمُ الله ليوشكنّ الباقى منّا ومنكم أن يفنى ، والجديد أن يبلى ، وستدال الأرض منّا فتأكل من لحومنا ، وتَشرب من دمائنا ، كما أكلنا من ثمارها وشربنا من مائها[2] .

وخطب يوماً فقال : إنّ الله أمرنا بالعمل ، وكَفانا الرِّزْق ، فليتنا لو أمِرْنا بالرزق ، وكفينا العمل !

وقال : أيّها الناس ، والله ما أحبّ أنّ ما مضى من الدنيا بعمامتى هذه ؛ ولمَا مضى منها أشبه بما بَقِى من الماء بالماء .

ولمـا قتِل عبد الله بن الزبير ارتجّت مكة بالبـكاء ، فصعِد الحجاج المنبر فقال : ألاَ إنّ ابن الزبَير كان من أحْبَار هذه الأمّة ، حتى رغِب فى الخلافة ، ونازعَ فيها ، وخلَع طاعة الله ، واستكنّ بحرم الله ؛ ولو كان شيء مانعاً للعصاة لمنع[3] آدمَ حُرْمة الجنة ؛ لأنّ الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته، وأباحه جنّتَهُ ، فلمّا عصاه أخرجه منها بخطيئته ، وآدم على الله أكرم من ابن الزُّبَير ، والجنّة أعظمُ حُرمةً من الـكعبة .

وخطب يوماً فقال : أيّها الناس ، مَن ادّعى داءه ، فعندى دواؤه ، ومَن ثَقُل عليه رأسه وضعت عنه ثَقَله . إن للشيطان طيفاً، وللسلطان سيفاً ، فمَن وضعه

---

(١) م : « على » .

(٢) ط : « أنهارها » . (٣) د : « لمنعت »

ذَنبه رفعه صَلْبهُ ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عنه الهلكة .

وأرجفَ قوم بموته ؛ فخرج متحاملاً حتى صعِد المنبر ، فقال : ألاَ إنّ أهل العراق أهلُ نفاق ، نفَخ الشيطان فى مناخرهم ، فقالوا : مات الحجاج ، وإن متّ فه ! والله ما يرجَى الخير إلا بعد الموت ، وما رضىَ الله تعالى ذكره بالتخليد لأحدٍ من خلقه إلاّ لأخسّهم وأهونهم عليه ، وهو إبليس لعنه الله !

ولقد سألَ سليمان يوماً ربَّه ، فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مُلْكاً لاَ يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى ﴾ ،[١] ففعل ثم اضمحلّ كأن لم يكن ، أستغفر الله لأمير المؤمنين ولى وللمسلمين . ثم نزل .

وكتب إلى قُتيبة بن مسلم : إنّى نظرت فى سنِّى ، فإذا أنا قد بلغت خمسين سنةً ، وأنت نحوٌ منّى فى السنّ ، وإنّ أمراً قد سار خمسين حجّة إلى موردٍ لَقَمِنٌ أَن يَرِدَه .

* * *

ولما حضرتْه الوفاة ؛ كان يقول : اللّهمّ اغفرْ لى فإنّ الناس يزعمون أنك لا تفعل .

ومات بواسط سنة خمس وتسعين . وهى مدينته التى أنشأها . وكان يوم موته يسمّى عرس العراق ، ولم يعلم بموته حتى أشرفَتْ جارية من القصر وهى تبكى وتقول : ألاَ إن مطعم الطعام ، ومفلّق الهام ، قد مات .

ثم دفن ، فسمِع جَرّ السلاسل من قبره ، فقال كاتبه : رحمك الله أبا محمد ! ما تدع قراءة القرآن حيًّا ولا ميّتا . فضحك الناس من قوله .

ووقف رجل من أهل دمشق على قبره ، فقال : اللهمّ لا تحرمْنَا شفاعة الحجّاج .

وحلف رجل بالطلاق الثلاث [من زوجته][٢] ، أن الحجّاج من أهل النار ،

---

(١) سورة ص ٣٥ .

(٢) من ط .

فاستُفتى طاوس فقال : يغفر الله لمن يشاء ، وماأظنها إلا طُلِّقت ؛ فاستُفتى الحسن البصرىُّ فقال : اذهب إلى زوجتك وكُنْ معها ، فإن لم يكن الحجَّاج فى النار ؛ فما يضرّكما أنكما فى الحرام !

* * *

٤٨ – وَقُتَيْبَةَ فَتَحَ مَاوَرَاءَ النَّهْرِ بِسَعْدِكَ .

[قتيبة بن مسلم الباهلىّ]

هو قُتيبة بن مسلِم بن عمرو الباهلىّ ، وكنيتُه أبو صالح . نشأ فى الدّولة المَرْوانيّة وترقّى وتولّى(١) الإمارة ، وفتح الفتوحات العظيمة ، وعَبَر إلى ماوراء النّهر مراراً ، وأبلى فى الكفار .

وكان شجاعا جواداً ، دَمِث(٢) الأخلاق فَطِناً ، ولم يكُنْ يعاب إلاّ بأنّه باهلىّ . وكان أصحابه يمازحونه بذلك ، فيحتمل ويحلُم .

حكى أبوعبيدة ، قال : قدِم رجل من بنى سَلُول على قتيبَة بن مسلم بكتاب عامِله على الرَّىّ ـ وهو المعلّى المحاربىّ ـ فرآه على الباب قُدامة بن جَعْفر ، وكان صديقاً لقُتَيبة كثير الإدلال عليه ، فدخل على قُتَيبة ، فقال : ببابك الأمُ العرب ، فقال : ومَنْ هو ؟ قال: سَلُولِىٌّ ، رسول محاربىّ ، إلى باهلىّ ؛ فتبسّم قُتيبة تبسّم غيظ ، والتفت إلى مِرداس الأسدىّ ، وقال : أنشدنى شعراً للأقيشر ، ففهم مِرْداس مراده ، فأنشده شعراً(٣) للأقيشر ، فيه تعريض بقُدامة [يقول](٤) :

---

(١) ط : « وولى » .
(٢) نسخة بهامش ت : « سهل » .
(٣) ت : « شعر الأقيشر » ، د : « فأنشده للأقيشر »
(٤) تكملة من ط . وفى د : « فقال » .

قلت قم صَلِّ فصلّى قاعداً ... يتغشّاهُ سَمادير السُّكَرْ[1]

فتغيّر وجه قُدامه ، فقال قُتيبة : هذه بتلك ، والبادئ أظلم .

ويُرْوَى أنه مازحَ إعرابيًّا جافياً ، فقال : أيسرُّك أن تكون مثلى باهليًّا أميراً ؟ فقال : لا والله ؛ قال : فتكون باهليًّا خليفة ؟ فقال : لا والله ، ولو أنّ لى ما طلعتْ عليه الشمس ! قال : فيسرُّك أن تكون باهليًّا وتكون فى الجنّة ؟ فأطرق ثم قال : بشرط ألاَّ يعلم أهلُ الجنة أنِّى باهلىّ ! فضحك قتيبة من قوله .

وكان قتيبة من أكبر الأمراء المنتمين[2] إلى الحجّاج ؛ وهو الّذى كاتب عبد الملك بن مروان فى أمره ، حتى ولاّه خُراسان ، وذلك أن يزيدَ بن المهلّب كان قد ولى خراسان بعد أبيه ، وظهرت مناقبه ، وعظُمت آثاره ، فحسده الحجاج وعمِل على عزله وتولية قتيبة ، وكان مما أكّد أمَر يزيد عنده أن الحجّاج وفد على عبد الملك ثم عاد إلى العراق، فمرّ فى[طريقه][3] بدير فيه راهب عالم بالكتب وعلوم الأُوَل ، فسأله : هل تجدون أمورنا فى كتبكم ؟ قال : نعم ، قال : ما تقول فى عبد الملك ؟ قال : نجده فى زماننا الذى نحن فيه ، قال : ومَن يقوم بعده ؟ قال : رجل يسمّى الوليد ، قال : فهل تعلم ما إلىّ ؟ [يعنى عمله][4] قال: نعم ، قال : فمن يليه ؟ قال: يزيد ، قال : فى حياتى أم بعد مماتى ؟ قال : لاأعلم ، فوقع فى نفس الحجّاج أنه يزيد بن المهلّب .

ثم جلس يوما يفكّر ؛ وعنده عبيد بن يونس ، وهو ينكت[5] فى الأرض ،

---

(١) السمادير : الشيء الذى يتراءى للانسان من ضعف بصره عند السكر .
(٢) ت : « المنتهين » ، د : « من أكبر أمراء الدولة » .
(٣) تكملة من د ، ط .
(٤) تكملة من ت .
(٥) ت : « يكتب » .

فقال له : ما الذى بك ؟ قال: أهل[(١)] الكتاب يذكرون أنّ ما تحت يدى يليه رجل يسمّى يزيد ، وأنى نظرت فى [هذا][(٢)] الاسم ، فذكرت جماعة ، منهم يزيد بن أبى كبشه ، ويزيد بن الحصين ، ويزيد بن دينار ، وليس فيهم مَنْ يصلُح لهذا الأمر ، وما ثَمَّ غير يزيد بن المهلب ؛ قال : فأخلِقْ به ! فلم يجد شيئا يعزله به ، فكتب إلى عبد الملك بن مروان يذمّ من يزيد ويقول : إنه يميل إلى آل الزبير . فكتب إليه عبد الملك : إنّ ذلك وفاء لآل الزّبير من آل المهلّب ، وإن وفاءهم لأولئك يدعوهم إلى الوفاء لنا ؛ فكتب إليه الحجاج يخوّفه غَدْر يزيد وآل المهلب ؛ فكتب إليه عبد الملك : قد أكثرت فى يزيد ، فسمِّ رجلا لى يصلح لخراسان ، فسمى له مَجّاعة بن مسعر[(٣)] ــ ولم يكن يصلُح ، وإنما جعل ذلك دهاء منه حتى لايعلم ميله إلى قتيبة ، ويعلم أن عبد الملك لايرضى مجّاعة ابن مسعر ــ فكتب إليه عبد الملك يُسفّه رأيه ــ معناه لم يرض ابن مسعر ــ فسمّى له قتيبة بن مسلم ، فقال : ولِّه ، فولاه ، وكره أن يواجه ابن المهلب بالعَزْل ، فكتب إليه : أقدِم علىّ ، واستخلِفْ أخاك . ففعل ، وعند قدومه سار قتيبة إلى خُراسان فدخلها وصعد المنبر ، فسقطت العصَا من يده ، فتطيَّر الناس فأخذها ، وقال : ليس كما ساء الصديق ، وسرّ العدوّ ، ولكن كما قال الشاعر :

فألْقَتْ عصَاهَا واستقرَّ بها النَّوَى ... كما قَرَّ عَيْناً بالإياب المسافرُ[(٤)]

ثم نهض[(٥)] قتيبة لغزْو ما وراء النّهر ، فجمع جيوشه، وخطبهم خطبة بليغة ، فقطع النهر ، فتلقّاه من الطالِقان رسل الملوك وهداياهم ، أوّلهم صاحب طَخارِسْتان

---

(١) ط : « إن أهل » .
(٢) من د ، ط .
(٣) ت : « مسعد » .
(٤) كتاب العصا ١٩٣ من غير نسبة .
(٥) ط : « وثب » .

وهو من ملوك الترك ـ وأرسل إليه مفتاح بلده وغير ذلك من الهدايا ، فصالحه ، وأقام قتيبة على بَلخ ؛ لأنّ بعضها كان عاصياً عليه ، فقاتل أهلها وسَبَاهم ؛ وكان فيمن سبَى امرأة بَرْمك جدّ البرامكة ، فصارت إلى عبد الله بن مسلم ، أخى قتيبة فواقعها ، فيقال : إنها حملت منه بخالد ، وقيل : كانت حاملاً به .

ثم غزا قتيبة بِيكَند ـ وهى أدْنى مدائن بخارى إلى النّهر ، ويقال لها مدينة التجّار ، وهى على رأس المفازة من بخارَى ـ فلما نزل بها استنصروا بالصُّغْد ، واستنجدوا مَنْ حولهم ، فأتوهم فى جَمْع كثير ، وأخذوا على قُتيبة الطرق والمضايق ، فلم يصل إليه رسول ، ولا قَدَر على إنفاذه رسول مدة شهر ، وأبطأ على الحجَّاج خبرهُ ، فأشفق عليه وعلى مَنْ معه من المسلمين ، فأمر الناس بالدّعاء ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، وأقام قتيبة يقاتلهم كلّ يوم ؛ وكان لقتيبة عَيْن فيهم ، يقال له بُندار ، أعجمىّ ، فدفع إليه أهل بُخارَى مالاً على أن يدفع قتيبة عنهم ، فأتاه فقال: أخلِنى ، فأُخْلِىَ المجلس ، فقال : قد عُزِل الحجّاج عن العراق ، وهذا عامل جديد يقدم عليك ؛ فارجع بالنّاس إلى مَرْو ـ وكان عند قتيبة ضرار الضّبىّ ـ فقال قتيبة لغلامه: اقتل بُندار ، فضرب عنقَه ، فقال لضرار: والله لئن علم أحد بهذا الحديث قبل أن يقضى حربنا لألحقنّك به ؛ فإنّ انتشار مثل هذا الحديث يفتّت فى أعضاد المسلمين .

ثم أصبح الناس على راياتهم ، وأنكروا قتل بُندار ، وقالوا : كان ناصحاً للمسلمين ؛ فقال قُتيبة : ظهر لى غِشُّه ، فأخذه الله بذنبْه . ثم تقدَّم فقاتل ، وأنزل الله النّصر على المسلمين فهزموهم وفتح قتيبة أكنافهم ، ووصل إلى بِيكَنْد ، ففتحها عَنْوةً ، وأصاب بها من الأموال والجواهر ما لم يصبْه فى بلد آخر ؛ وكان بها صنم من ذهب فأذابوه ، فخرج منه مائة ألف وخمسون ألف مثقال من الذهب .

وكتب إلى الحجّاج بالفتح ، ثم توجه إلى سِجِسْتان ، فأرسل إليه صاحبها

فصالحه ، ثم توجّه إلى خُوارَزْم – وكان صاحبها قد راسله سرًّا خوفا من أخيه الخارج عليه – فصالحه وسلّم إليه أخاه ؛ لأنه كان شرط عليه ذلك . ثم توجّه إلى سَمَرْقَنْد ، فقاتل وثلّم السُّور ، فصاحوا : الصلح ! فصالحهم على ألف ألف ومائتى ألف فى كلّ سنة ، وعلى أن يعطوه ثلاثين ألف رأس ، ليس فيهم طِفْلٌ ولا شيخ ، وعلى أن يُخلُوا المدينَة لقُتَيبة ويُخرجوا منها المقاتلة ، ويدخلها قتيبة ويبنى بها مسجداً و يصلّى فيه ، ويخطب ويتغدّى ويخرج منها . فأجابوه إلى ذلك ، فقال : ابعثوا لنَا ما صالحناكم عليه ، فبعثوا إليه بالمال والرُّءوس ، فقال قتيبة : الآن ذَلُّوا حين صار أولادهم و إخوانهم فى أيدينا ! ثم بنوْا جامعاً ونصبوا منبرا ، وأخلوا المدينة ، وانتخب قتيبة مَنْ أراد من فرسانه ودخلها ، فأتى المسجد فصلّى وخطب ، ثم تغدّى وأرسل إلى أهلها : لست بخارج منها ؛ فخذوا ما أعطيتمونا .

وكان قتيبة يعيّر بالغدر بأهل سَمَرْقَنْد ، ثم أحرق الأصنام وبيوت النّيران ، ووجد جاريةً من بنات يَزْدَجِرْد ، فقال قتيبة : أترى ابن هذه يكون هَجينا ؟ فقالت : نعم ، من قِبَل أبيه ، فأرسل بها إلى الحجّاج ، فبعث بها إلى الوليد ابن عبد الملك ، فولدت له يزيد .

ثم غزا قتيبة الصين وكاشْغر (١) ، فبعث إليه ملك الصين : ابعث لنا رجلاً من قومك نسأله عن دينكم ؛ فانتدب له عشرة من أشراف القبائل ، لهم هيئة وجمال ، فدخلوا عليه ، وعليهم ثياب رقيقة ، فلم يكلّمهم أحد ، فنهضوا ثم دخلوا عليه فى اليوم الثانى وعليهم البِيض والمغافر والسّلاح كأنهم الجبال ، فسأل الملك أحدَهم عن صنيعهم أمسِ واليوم ، فقالوا : ذاك لباسنا فى أهلنا وهذا فى حربنا ، فقال : انصرفوا إلى صاحبكم ، وقولوا له : ينصرف ، فقد عرفت قلّة أصحابه ، وإلاّ بعثت له مَنْ يهلكه ومَن معه . فقالوا : كيف تقول هذا لمن أوّلُ خيله فى بلادك

(١) كاشغر ، ذكرها ياقوت ، وقال : هى مدينة وقرى ورساتيق هى وسط بلاد الترك .

وآخرها فى منابت الزيتون ـ يعنون الشام ـ وقد غزاك فى بلادك ودوّخها[١] وهو فى طلبك لا تردُّ له راية [ولا غاية][٢] ؛ قال : وما الذى يريد ؟ قال : إنّه أقسم ألاّ يرجع حتّى يطأ أرضَك ، ويختِمَ على أعناق أولاد الملوك ، ويأخذ الجِزْية . قال الملك : ونحن نُبرّ قسمه ؛ ثم دعا بصِحاف من ذهب ، وجعل فيها تراباً[٣] ، ثم دعا بجماعة من أبناء الملوك[٤] ، وبعث مالاً كثيراً ، وقال : ليطأ هذا التراب ، ويختم على هذه الغلمة ، ويأخذ منّا المال .

ففعل قتيبة ذلك ، وقرّر عليهم مالاً ومضَى ، وقد أذعنت له ممالك ما وراء النّهر ، واشتهرت فتوحاته ، حتى سمع معبد المغنّى أنه فتح سبعة حصون فى المشرق لا يُرتقَى إليها ، فصنع سبعة أصوات صعبة المآخذ ؛ وسمّاها مُدن معبَد ، معارضة لقتيبة .

* * *

وأقام قتيبة بالشرق والياً عليه ثلاث عشرة سنة ، عظيم الرتبة ، مرهوب الجانب ، وكان شرفَ بيتِه ، ثم عمل على خلع سليمان بن عبد الملك لما سمع أنه عازم على ولاية يزيد بن المهلّب ؛ حكى الجاحظ ، قال : لمّا بلغ قتيبةَ أنّ سليمان يريد عزلَه عن خُراسان ، كتب إليه ثلاث صحائف ، وقال للرسول : ادفع إليه هذه ، فإنْ دفعها إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه هذه ، فإن شتَمنى فادفع إليه الثالثة . فلمّا دفع له الكتاب الأوّل ، إذ فيه : يا أمير المؤمنين ، إنّ بلائى فى طاعتك وطاعة أبيك كيْت وكيْت ، فدفعه إلى يزيد ؛ فدفع إليه الرسول الكتاب

---

(١) بعدها فى ط : « وقد سبى » .
(٢) من ط .
(٣) ط : « من تراب قصره » .
(٤) ط : « بأربعة من أبناء الملوك » .

الثانى ، وفيه يقول : عجباً ! كيف تأمن ابن رحمة[١] على أسرارك ، ولم يكن أبوه يأمنه على أمّهات أولاده ! يعنى يزيد بن المهلب ، فشتم قتيبة ، فدفع إليه الثالث ، وفيه : من قتيبة إلى سليمان ؛ أما بعد ، والله لأوثقنّ لك أخِيَّةً[٢] لا ينزعها المُهر الأَرَنُّ ، فقال سليمان : جدِّدوا له عهداً على عمله .

ثم فسدت على قتيبة بطانته ، فقتلوه فى خلافة سليمان ، وقام العزاء فى المشرق عليه . وقال رجلٌ من الأعاجم : يا معشر العرب ، قتلتم قتيبة ، والله لو كان فينا [ومات][٣] لجعلناه فى تابوت ، واستفتحنا به غزونا .

ولقتيبة أخبار وألفاظ تدلّ على غزارة علمه وعقله وفصاحته ؛ كتب إليه الحجّاج :إنى قد طلّقت بنت قطن الهلاليّة عن غير ريبة فتزوجْها؛ فكتب إليه : ليس كلّ مطالع الأمير أحِبّ أن أطّلع ، فقال الحجّاج : ويل أم قتيبة ! إعجابا بقوله[٤] .

وكتب عبد الملك بن مرْوان إلى الحجّاج : أنت قِدْح ابن مُقْبل ، فلم يدر الحجَّاجُ ما أراد ، فسأل قتيبة — وكان عالمًا برواية الشّعر — فقال قتيبة : إن ابن مقبل نعَت قِدْحاً له ، فقال:

غدا وهو مجـــدولٌ فراح كأنه ... من المسّ والتَّقليب بالـكفّ أفطحُ[٤]
إذا امتحنَتْهُ من مَعَـــدٍّ قبيلةٌ ... غدا ربّه قَبْل المفيضين يقدحُ

يصف هذا القِدْح ـ وهو السهم الذى يُستقسم به على عادة العرب فى الميسر ـ وهو اصطلاح على نوع من أنواع القِمار معروف،فيقول : إنَّ هذا القِدْح لـكثرة

---

(١) د : « وجمة »
(٢) الأخية : حبل يدفن الأرض ، ويبرز طرفه فتشد به الدابة .
(٣) ن ت .
(٣) ت : « كيف ألام عليه ! » .
(٤) ديوانه . . واللآلى ٦٦ . قال أبو عبيد : غدوا بهمجدولا مدمجاً،ثم راحوا به لـكثرة استعماله لفوزه كأنه أفطح ، والفطح : العرض .

فوزه وخروجه دون قِداح الجماعة لـكثرة تقليبه والتعجّب منه ،يقدح صاحبه النار قبل خروجه ثقةً بفوزه .

وقال قتيبة : إن هذا القِدْح فاز ستّين مرة[١] ، لم يخِب منها مرة واحدة ؛ حتى ضرب به المثل .

ولما دخل قتيبة خراسان ، قام إليه بعض الشعراء ، وأنشد يقول :

شدّ العقاب على البَرِئ وما جنى حتى يكونَ لغيره تَنْكِيلاَ

والجهل فى بعض الأمور وإن غلا مستخرج للجاهلين عقـــولا

فقال قتيبة : قبَّحك الله من مُشير ! والله لا قمتَ معى فى بلد ؛ ثم أخرجه من خُراسان .

ونظر فى بعض مغازيه إلى رجل من الأزْد ، معه تُرْس من جلد بعير قد تثلّم[٢] من جميع نواحيه ، فقال : أيّها الأزدىّ[٣] ، تُرْس ابن أبى ربيعة خير من تُرسِكَ ـ يريد قول عمر بن أبى ربيعة[٤] ، يصف خروجه من خِباء محبوبته متخفّياً[٤] :

فكانَ مِجَنِّى دُونَ مَنْ كُنْتُ أُتّـقِى ثلاثُ شخوصٍ : كاعبان ومُعصِرُ[٥]

فقال الرّجل : أيّها الأمير ، هذا المِجنّ أوفَى منْ ذلك المِجَنّ .

ومنْ كلام قُتَيبة : لا تَسْتَعِنْ على مَنْ تطلب إليه حاجةً بمَنْ له عنده طمع فإنه لا يؤثرك على نفسه ، ولا بكذّاب فإنه يقرّب لك البعيد و يبعّد القريب ، ولا بأحمق فإنّه ربمـا أراد نفْعَك فضرّك .

---

(١) كذا فى ت ، وفى د ، ط : « سبعين » .

(٢) ط ، د : « تشعب » .

(٣) ط ، د ، م : «يا أخا الأزد» .

(٤ ـ ٤) ط ، د : « فى قصيدته المشهورة ، وقد تستر بنسوة من الحى » .

(٥) ديوانه ٩٢ . والمعصر : الجارية أول ما أدركت .

ومرّ يوما بـكُناسة فيها عظام وأقذار ، فقال : إنّ الذى يبخل بما يصير آخره إلى هذا ، لَبخيل .

* * *

٤٩ — وَالمُهَلَّبَ أَوْهَنَ شَوْكَةَ الأَزَارِقَةِ بِيَدِكَ ، وَفَرَّقَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ بِكَيْدِكَ .

[المهلّب بن أبى صُفْرة]

هو المهلّب بن أبى صُفْرة ، واسمه ظالم بن سراق بن صبح الأزدىّ العَتَكىّ البَصرىّ ، أمير كبير مشهور الذِّكْر ، شجاع جواد . نشأ فى دولة آل أبى سفيان ثم أمّره مُصعب بن الزُّبير على البصرة نيابةً عنه ، فى أيّام أخيه عبد الله بن الزُّبير ، ثم ولاّه عبدُ الله خُراسان وقتالَ[1] الخوارج ؛ واستمرّ على ذلك إلى أن مات فى زمن الحجّاج ، فى سنة ثلاث وثمانين من الهجرة .

وهو أوّلُ من اتّخذ الرّكب الحديد ، وكانت قبل ذلك من الخشَب .

وكان يقال : سادالأحنفُ بحِلْمِه ، ومالك بن مِسْمع بمحبّتِه للعشيرة ، وقُتيبة بدهائه ، وساد المهلّب بهذه الخلال جميعِها . وسيأتى فى آخر الترجمة نُبَذ من أخباره وألفاظه .

فأمّا الأزارِقة فهم الخوارج القائمون بمذهب نافع بن عبد الله بن الأزْرق الخارجىّ ، خرجُوا معه من البصرة والأهواز وغيرها من بلدان[2] فارس واتّبعوه ، وعظمت شوكتُهم ، وتملّكوا الأمصار . وكانت له آراء ومذاهب دانوا بها معه .

---

(١) ط ، د : « قتل » .

(٢) ط : « بلاد » .

منها أنه كفّرَ عليًّا كرَّم الله وجهه بسبب التّحكيم المشهور ، وقال : أنزل الله فى حقه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُه ... ﴾[١] الآية ، وأنزل فى حق ابن ملجَم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاةِ اللهِ ﴾[٢] .

ومنها أنه كفّر مَنْ لم يقل برأيه ، واستحلَّ دمه ، وكفّر القَعَدة عن القتال وتبرأ ممّن قعد عنه ـ [وإن كان على دينه][٣] ـ وحكَمَ[٤] أنّ من ارتكب كبيرةً خرج عن الإسلام ، وكان مخلّداً فى النار مع سائر الكفار .

واستدلّ بكفر إبليس ، وقال : ما ارتكب إلاّ كبيرة حيث أمر بالسجود [لآدم عليه السلام][٥] فامتنع ، وإلاَّ فهو عارف بوحدانيّة الله عزّ وجلّ ، إلى غير ذلك من المذاهب التى أجمعتْ عليها الأزارقة .

وحُكِى عن خالد بن خداش ، قال : لما تفرّقت الأزارقة وآراء الخوارج[٦] ومذاهبهم ، أقام نافع بن الأزرق بسوق الأهواز يعترض النّاس ـ وكان متشككا فى ذلك ـ فقالت له امرأته : إن كنت كفرتَ بعد إيمانك وشككت ، فدع نحلتَك[٧] ودعوتك ، وإن كنت قد خرجت من الكفر إلى الإيمان فاقتل الكفار حيث لقيتَهم ـ يعنى المسلمين المخالفين لمذهبه ـ وأثخِنْ فى النساء والصّبيان كما قال نوح عليه السلام : ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِن الكافرِينَ دَيّارا ﴾[٨] .

فقبلَ قولَها ، وبسطَ سيْفَه ، فقتل الرِّجالَ والنساء ، فإذا وطىء بلداً كان ذلك دأبه إلى أن يجيبه أهلها ؛ فيضع عليهم الجباية[٩] والخراج . واشتدّت شوكته ،

---

(١) سورة البقرة ٢٠٤ . (٢) سورة البقرة ٢٠٧ .
(٣) من ط .
(٤) ت ، د : « وحكمه » .
(٥) من ت .
(٦) ت ، د : « لما تفرقت آراء الخوارج »
(٧) كذا فى ت ، د ، م ، وفى ط : « كلمتك » .
(٨) سورة نوح ٢٦ .
(٩) ط : « الجاية » .

وفشا عمّاله(١) فى السواد [الأعظم] ،(٢) فارتاع لذلك أهل البصرة ، فمشوا إلى الأحنف بن قيس ؛ وشكوا إليه أمرهم ، وقالوا : ليس بيننا و بين القوم إلا ليلتان، فقال لهم الأحنف : إنّ سيرتهم فى مصركم إن ظفروا بكم مثل سيرتهم فى سواكم ، فجدّوا فى جهاد عدوّكم .

وقد حرّضهم الأحنف ، فاجتمعوا إليه زُهاء عشرة(٣) آلاف فى السّلاح ، وأمّر عليهم مسلم بن عنبس ــ وكان شجاعا ديّنا ــ وخرج بهم ، فلما صاروا بموضع يعرف بدُولاب ، خرج إليه نافع بن الأزرق على الشُّراة ــ وكانوا ستمائة نفر ــ فاقتتلوا قتالا شديداً حتى تكسّرت الرّماح ، وعُقرت الخيل ، وتضاربوا بالعُمُد ، فقتل فى المعركة ابن عنبس وهو أمير أهل البصرة ، وقتل نافع بن الأزرق أيضا ، فعجِب النّاس من قتل الاثنين . ثم ولى على أهل البصرة الربيع بن عمرو ، وعلى الأزارقة عبد الله بن الماحوز . فقتل الربيع ، وتولّى الحجاج بن ناب(٤) فقتل ، وتولّى حارثة بن بدر ، ونادى فى النّاس أن اثبتوا ، فإذا فتح الله عزّ وجلّ فللعرب زيادة فريضتين ، وللموالى زيادة فريضة ، وثبت النّاس فالتقوا ، وقد فشتْ بينهم الجِراح ، وما تطأ الخيل إلاّ على القتلى ، فبينما هم كذلك إذْ أقبل من اليمامة مددٌ عظيم للأزارقة ، فاجتمعوا وهم مريحون مع أصحابهم ، وحملوا على الناس ، (٥فلما رآهم حارثة نكص فرسه٥) ، فانهزم، وقال لأصحابه :

---

(١) ط : « أعماله » ، م : « عمله » .

(٢) من ط .

(٣) ط : « بزهاء عن عشرة آلاف » .

(٤) ط : « باب » ، تحريف .

(٥ ــ ٥) كذا فى ت ، وفى ط : « فلما رأتهم الجيوش ورآهم حارثة نكص برايته » . ومثله فى الأغانى .

كَرْنبوا ودَوْلِبــــوا   وحَيْثُ شِئْتُمْ فَاذْهَبُوا(١)

[وقال](٢) :

أيْرُ الحمار فريضةٌ لعبيدكمْ   والخُصْيَتَانِ فريضةُ الأعرابِ

فتتابع الناسُ على أثره منهزمين ، وتبعهم الخوارج ، فألقوْا نفوسهم فى دُجَيْل(٣) ، فغرق منهم خلق أكثرهم من الأزْد ، وفى ذلك يقول شاعر الأزارقة :

يَرَى مَنْ جاء ينظر فى دُجَيْلٍ   شيوخَ الأزْدِ طافيةً لِحَاهَا(٤)

وقلق أهلُ البصرة لذلك ، ودخل قلوبَهم الرُّعب من الخوارج ؛ فبينماهم كذلك إذْ وَرد للمهلّب بن أبى صُفْرة متوجِّهاً إلى خُراسان ، وقد كتب له عبد الله ابن الزُّبير عهدَه بها ؛ فلما مرّ بالبصرة قال الأحنف لوجوه أهل البصرة : والله ما للخوارح غيرُ المهلّب ! فكلّموه فى ذلك ، فقال : هذا عهدى على خُراسان وما كنت لأدَعَ أمْرَ أمير المؤمنين عبد الله بن الزُّبَيْر . فاتّفق أهلُ البصرة مع الأحنف على أن يفتعلوا كتاباً على ابن الزُّبَيْر ؛ يأمُره فيه بقتال الخوارج ، فكتبوه ، وفيه :

أمّا بعد ، فإنّ الحسن بن عبد الله كتب إلىّ يُخبرنى أنّ الأزارقة أصابوا جنداً من المسلمين ، وأنّهم قد أقبلوا نحو البَصرة ، وكنت قد كتبتُ عهدكَ على خُراسان ووجّهتك ، وقد رأيت أن تبتدئ بقتال الخوارج ؛ فإن الأجرَ فيه أعظم من سيرك إلى خُراسان .

---

(١) كرنبوا : انزلوا كرنبى ؛ وهى موضع بالأهواز . ودولبوا : انزلوا دولاب . وبعدها فى الطبرى

* قَدْ أَمَرَ المهلَّبُ *

(٢) من الأغانى ، وفى ت : « وزيد فيها » .

(٣) دجيل : نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس .

(٤) انظر الخبر فى الأغانى ٦ : ١٤٢ - ١٤٧ (طبعة الدار) .

فلما قرأ المهلّب الكتاب قال : والله ما أسيرُ إليهم حتى تجعلوا لى ما غلبتُ عليه ، وتقوُّونى من بيت المال ، وأنتخب من فرسانكم ورجالكم مَنْ شئت . فأجابوه إلاّ طائفة من بنى مِسْمع ، فعقدها عليهم [المهلّب] ،⁽¹⁾ وسار إلى الخوارج فكان عليهم أشدَّ من كلٍّ من قاتلهم . و بلغ ابنَ الزُّبير افتعالُ الكتاب فلم يقلْ شيئاً ، وأقرّه على ذلك .

ثم إن المهلّب أخذ بالحزم فى القتال و إعمال الرّأى والمطاولة ، فأذكى العيونَ ، وأقام الحرَس وخَندق ، ولم يزل الجند على مصافِّهم ، والناس على راياتهم وأخْماسهم ، فكانت الأزارقة إذا أرادوا بيات⁽²⁾ المهلَّب وجدُوا أمراً محكَما .

ثمّ خرج المهلّب يوماً على تعبية حسنة ، وخرج الخوارج على مثل ذلك إلاّ أنهم أحسن عُدّة وأكرم خيلا وأكثر سلاحاً من أهل البصرة ؛ وذلك أنّهم أكلوا ما بين كَرْمان إلى الأَهْواز ، فجاءوا فى المغافر والدُّروع يسحبونها ، فالتقى الناس ، واشتدّ القتال ، وصبر بعضهم على بعض عامّة النهار . ثم شدّت الخوارج على الناس شَدّة منكرة ، فأجفل الناس وانصاعوا منهزمين ، وأسرع المهلّب حتى سبقهم إلى مكانٍ يَفاع ، ثم نادى الناسَ : إلىّ إلىّ عباد الله ! فثاب إليه جماعة من قومه حتى اجتمع إليه مقدار⁽³⁾ ثلاثة آلاف . فلمّا نظر إلى مَن اجتمع إليه رضى جماعتهم ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أمّا بعد ؛ فإنّ الله يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فينهزمون ، ويُنزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون ؛ ولعَمرى إنّى الآن بجماعتكم لراضٍ ، وأنتم والله⁽⁴⁾ أهل النصر، وفرسان العَصر⁽⁴⁾ ، وما أحبّ أنّ أحدا ممّن انهزم معكم ، و ﴿ لَوْ كَانُوا

---

(١) من ط ، م .
(٢) كذا فى ت ، د ، م ، وفى ط : « إتيان » .
(٣) ط ، د : « نحو من » .
(٤ ـ ٤) كذا فى ت ، وفى ط : « أهل النصر وفرسان العصر » .

فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إلاَّ خَبَالاً ﴾(١) . عزمت على كلّ نفر منكم إلاّ أخذ عشرة أحجار معه ، ثم امشوا بنا نحو وَكْرهم فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيولهم فى طلب إخوانكم .

فقبلوا منه ، ثم أقبل بهم زَحْفاً ، فلا والله ما شعرت الخوارج إلاّ بالمهلّب يضاربهم فى جانب عسكرهم . ثم استقبلوا أميرهم عبد الله بن الماحوز وأصحابه ، وعليهم الدُّروع والسلاح ، فجعل الرّجل من أصحاب المهلّب يعترض وجه الرّجل بالحجارة حتى يُثخنه ، ثم يضربه بسيفه ، فلم يقاتلهم إلاّ ساعة حتى قتِل ابنُ الماحوز ، وضرب الله وجوهَ أصحابه ، وأخذ المهلّب معسكرِ(٢) القوم وما فيه ، ومضى المنهزمون إلى كَرْمان وأَصبهان .

ثم ولِّىَ مصعبُ بن الزبير العراقَ ، ورجع إليه المهلّبُ ، فقاتل معه المختار بن أبى عبيد إلى أن قتِل ، ورجع إلى الأزارقة ، فلم يزل يغاديهم القتال ويراوحهم ، وهو مع ذلك شديد الاحتراز على عسكره ، والتحفّظ واليقظة إلى أن مضت مدّة طويلة . وبلغ(٣) الخوارجَ قتلُ مصعب بن الزبير أمير العراق ، واستيلاء عبدِ الملك ابن مروان قبل أن يبلغ المهلّب وأصحابه ، فناداهم الخوارج : ماتقولون فى مصعَب ؟ قالوا : إمام هدًى ، وليّنا فى الدّنيا والآخرة ، قالوا : فما تقولون فى عبد الملك؟ قالوا : ذاك ابن اللّعين ، قالوا : فأنتم منه برآء فى الدنيا والآخرة ؟ قالوا : نعم ، ونحن له أعداء كعداوتنا لكم ، قالوا : فإنّ إمامكم المصعب قد قتله عبدُ الملك ، وإنكم ستجعلون عبد الملك غداً إمامكم ، وأنتم اليوم تتبرءون منه وتلعنون أباه ! قالوا : كذبتم يا أعداء الله ! فلما كان من الغد تبيّن لهم قتلُ مصعب ، فبايع المهلّب الناس لعبد الملك ، فناداهم الأزارقة : يا أعداء الله ، بالأمس تتبرّءون منه

---

(١) سورة التوبة ٤٧ .
(٢) ت ، د : « عسكر » .
(٣) ط ، د : « بلغ » بدون واو .

[وتلعنون أباه] (١) ، واليوم تبايعونه بالخلافة ! وقد قتل إمامكم الذى كنتم توالونه فأيّهما المهدىّ ، وأيّهما الضالّ ؟ فقالوا : رضينا بذاك ، ونرضى بهذا إذ ولى كلٌّ منهما أرواحَنا وأمورنا ، فقالوا : لا والله ، ولكنّكم إخوان الشياطين وطالبة الدنيا .

ثم وَلِيَ عبد الملك وأمّر الحجّاج على العراق ، وأمره بإمداد المهلّب ، فشمّر الحجّاج لذلك ، وتتابع المدد إلى أن قال المهلّب : لقد ولِيَ العراقَ والٍ ذَكَرٌ .

ثم إنّ الحجّاج كتب إلى المهلّب يستبطئه فى مناجزة الأزارقة ، ويستعجزه ، فحبس المهلّب رسول الحجاج أياما حتى رأى صنيع (٢) الخوارج وجَلَدهُم وثَباتهم . وكتب إلى الحجاج يقول : إنّ الشاهدَ يرى ما لا يراه الغائب ، فإن كنتَ نصبتَنى لحرب هؤلاء القوم على أن أديرَها كما أرى ، فإن أمكنتْنى فرصة انتهزتها ، وإن لم تُمكِنِّى توقّفت ، فأنا أدير ذلك بما يصلحهُ ؛ وإن أردتَ منّى أن أعمل وأنا حاضر برأيك وأنت غائب ، فإن كان صوابا فلك وإن كان خطأ فعلىّ ، فابعث مَنْ رأيتَ مكانى . والسلام .

ولما طالت الحرب بين المهلّب وبينهم ، ورأى اتّفاق أهوائهم وثباتهم ، علم أنه لا يظهر (٣) إلا بالاختلاف إذا وقع بينهم ، وكان فى عسكرهم حدّاد يسمى أبزى (٤) ، يصنع نصالاً مسمومة يرمِي بها أصحاب المهلّب ، فوجّه المهلّب رجلا من أصحابه بكتابٍ وألف درهم إلى عسكر الخوارج ، وقال : ألقِ الكتاب فى العسكر واحذر على نفسك . وكان فى الكتاب : « إلى الحدّاد : أمّا بعد فإنّ نصالَكَ قد وصلتْ إلينا ، وقد وجّهْتُ إليكَ بألف درهم فاقبضها ، وزدْنا

---

(١) من ط .
(٢) ط ، م : « صنع » .
(٣) كذا فى ت ، د ، وفى ط ، م : « لا يظفر » .
(٤) كذا فى الكامل للمبرد ٣ : ٣٨٢ ، وفى الأصول : « إيزن » .

من هذه النِّصال » فوقع الكتاب [والدراهم][1] إلى قَطَرِىّ ، فدعا أبزى وقال : ماهذا الكتاب ؟ قال : لا أدرى ، قال : فما هذه الدراهم ؟ قال : لا أعلم علمها . فأمر به فقتل ، فجاءه عبد ربّه الصغير[2] ـ وكان من كبار القَوْم ـ فقال له: قتلتَ رجلا على غير بيّنة ولا تبيّن أمره[3]! فقال : فماحال هذه الدراهم ؟ قال: يجوز أن يكون أمرها كذباً ، ويجوز أن يكون حقا . قال قَطَرىّ : قتلُ رجل فى صلاح الناس غير منكَر ، وللإمام أن يحكم بما يراه صلاحا ، وليس للرعيّة أن تعترض عليه . فتنكّر له عبدُ ربِّه وجماعة معه ، ولم يفارقوه .

فبلغ ذلك المهلّب ، فدسّ إليه رجلا نَصرانيًّا ، فقال له : إذا رأيت قَطَرِيًّا فاسجد له ، فإذا نهاك فقل له : إنما سجدتُ لك . ففعل النّصرانى ذلك ، فقال له قَطَرِىّ: إنّما السجود لله ، فقال. ماسجدتُ إلاّ لك ، فقال له رجل من الخوارج: قد عبَدك من دون الله ، وتلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾[4] ، فقال قَطَرىّ : إن هؤلاء النّصارى قد عبدوا عيسى بن مريم ، فماضرَّه شيئا[5] . فقام رجل من الخوارج إلى النصرانىّ فقتله ، فأنكر ذلك عليه ، وقال : قتلت ذميًّا ، فاختلفت الكلمة ، فبعث إليهم المهلب رجلا يسألهم عن شىء تقدّم به إليه ، فأتاهم الرجل ، فقال : أرأيتم رجلين[6] خرجا مهاجرَيْن إليكم ، فمات أحدهما فى الطريق و بلغكم الآخر فامتحنتموه ، فلم يجُز المحنة ، ما تقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أما الميّت فهو من أهل الجنة

---

(١) زيادة من كتاب الكامل .

(٢) بعدها فى الكامل : « مولى قيس بن ثعلبة » .

(٣) كذا فى ط ، وفى ت : « من غير ثقة ولا تبين » ، وفى د : « على غير بينة » .

(٤) سورة الأنبياء ٩٨ .

(٥) ط ، د : « فا ضر عيسى شيئا » ، م : « فما ضر عيسى شىء » .

(٦) ط : « أرأيتم لو أن رجلين » ، وأثبت ما فى ت ، د والكامل .

وأما الذى لم يجز المحنة فكافر حتى يجيزها . وقال قوم آخرون : بل هما كافران حتى يجيزا المحنة .

فكثر الخلاف [١] ، فخرج قَطَرِىٌّ إلى حدود إصطخر ، وأوقع المهلب بمن بقىَ منهم مع صالح بن مخراق ، وزحف إلى البقيّة ، وخندق عليهم . ثم أقام أياما ، وأقع بينهم الفتنة حتى وقع بين قَطَرِىّ وعبد ربّه ، وانحاز إلى عبد ربّه جماعة وولّوه عليهم ، وذهب قَطَرِىٌّ بأصحابه . وقاتل المهلب جيش عبدربه ، فقتِل عبد ربه بعد وقائع طويلة ، وانفلّ حدّ [٢] الأزارقة وتشتتوا فى البلاد ، وتخطّفهم الناس . وكتب المهلب إلى الحجّاج بالفتح يقول :

الحمدُ لله الكافى بالإسلام فَقْدَما سواه [الذى وصل المزيد بالشكر ، والنعمة بالحمد ، وقضى] [٣] بأن حكم ألاّ ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده . أما بعدّ ، [فقدْ كان من أمرنا ما قد بلغك] [٣] وكنا نحنُ وعدوّنا على حالين : مختلفيْن ، يسرّنا منهم أكثر مايسوءنا ، ويسوءهم منّا أكثر مايسرُّهم ، على اشتداد شوكتهم ، فقد كان عَلَن أمرهم حتى ارتاعت الفتاة ، وتوهّم [٤] به الرضيع ، فانتهزت منهم الفُرصة فى وقت إمكانها ، وأدنيت السّواد [من السّواد] [٣] حتى تعارفت الوُجوه ، فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجلَه ، ﴿ فقُطِع دابرُ القوم الذين ظَلَمُوا والحمد لله رُبّ العالَمِين﴾ [٥] .

فكتب إليه الحجّاج يشكره ويذكر بلاءه ، ويأمره بالقدوم عليه

---

(١) الكامل : « الاختلاف » .

(٢) ط : « جند » .

(٣) زيادة من الكامل .

(٤) الكامل : « ونوم » .

(٥) سورة الأنعام ٤٥ .

واستخلاف أحد بَنيه ، فقدِم الحجّاج فأجلسه على السّرير إلى جانبه ، وأظهر إكرامه وبرّه ، وقال : يا أهلَ العراق ، أنتم عبيد عتقاء المهلّب ، ثم قال : أنت والله كما قال لَقيط الإيادىّ :

وَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لِلّهِ دَرُّكُمُ رَحْبَ الذِّراع بأمْرِ الحق مُضْطَلِعا[1]
لا يَطعَمُ النّومَ إلاّ رَيْثَ يبعثُه همٌّ يكاد حَشاه يقصِم الضِّلَعا
حتى استمرَّ على شَزْرٍ مريرتُه مُسْتَحْكِمَ الرَّأْيِ لاقَحْماً ولاضَرَعا[2]

فقام رجل وقال : أصلح الله الأمير ! والله لـكأنى أسمع قَطَرِيًّا وهو يقول : المهلّب، كما قال لقيط ، ثم أنشد هذا الشعر . فسُرّ الحجّاج حتى ظهر عليه[3] .

وسئل المهلّب : ما أعجب ما رأيت من قتال الأزارقة ؟ قال : رأيت رجلا منهم يطعنه الرجل فيمشِى فى الرمح إلى طاعنه ليضربه[4] ، وهو يقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾[5] .

وكانت مدّة إقامة المهلب على قتال الخوارج ومصابرته لهم تسع عشرة سنة ، إلى أن فتح الله على يديه ، وطهّر منهم الأرض ، ومات سنـة ثلاث وثمانين للهجرة[6] .

ومن أخباره المستحسنة أنه أقبل يوماً من بعض غزواته ، فتلقّته امرأة فقالت له : أيُّها الأمير ، إنّى نذرت إن أقبلتَ سالماً أن أصوم يوماً[7] ، وتهب

---

(١) مختارات ابن الشجرى ٥ ومضطلعا ؛ أى شديدا .

(٢) قوله : « على شزر مريرته » ؛ مثل ؛ يقال : شزرت الحبل ؛ إذا كررت فتله بعد استحكامه راجعا عليه ، والمريرة : الحبل . والضرع : الصغير الضعيف . والقحم :آخرس الشيخ

(٣) انظر أخبار المهلب مع الأزارقة ، فى الـكامل للمبرد منثرة فى الجزء الثالث ما بين صفحتى ٣١٠ و ٤٠٨ .

(٤) كذا فى ت ، وفى ط : « وينال منه » .

(٥) سورة طه ٨٤ .

(٦) ط : « ومات على فراشه » .

(٧) ط : « شهرا » .

لى جارية وألف درهم . فضحك وقال : قد وفّينا نذرك فلا تعودى لمثله ، فليس كلّ أحد يفى لك به .

ووقف له رجل فقال : أريد منك حُوَيجة ، فقال : اطلب لها رُجَيلا ، – يعنى أن مثلى لا يُسْأل إلا حاجة عظيمة .

ومرَّ يوماً بالبصرة فسمع رجلا يقول : هذا الأعور ساد الناس ، ولو خرج إلى السوق لا يساوى أكثر من مائة درهم ؛ فبعث إليه بمائة درهم ، وقال : لو زدتَنا فى الثّمن زدناك فى العطيّة .

ولما هزم قَطَرِىّ بن الفجاءة دخل عليه المغيرة[1] وأنشد :

أمسَى العِبادُ لَعَمْرِى لا غياثَ لهمْ ... إلا المهلّب بعد الله والمطرُ
هذا يجود ويحمِى عن ديارهمُ ... وذا يعيش به الأنعام والشّجر

فقال : هذا والله هو الشعر ، وأمر له بعشرين ألفاً .

ومن كلامه : عجبت لمن يشترى العبيد بماله ، ولا يشترى الأحرار بأفضاله .

وكان يقول لولده : إذا غدا عليكم الرَّجل وراح ، فكفى بذلك تقاضيا .

وتذاكروا عنده الثّياب ، فقال : أحسنُ ثيابكم ما رأيتموه على غيركم .

وكان كثيراً ما يأمر بصلة الرحِم والمكيدة فى الحرب .

وحكى أن عبد الرحمن بن الأشعث لما خرج على الحجاج [بالجيش الذى كان بعثه معه إلى قتال رُتْبِيل][2] كاتب المهلّب ، وهو بخُراسان يدعوه إلى خَلْع الحجاج ، فقال المهلّب : لا غدرَ بعد سبعين سنة . ثم كتب إلى الحجّاج : أما بعد ، فإن أهل العراق مع ابن الأشعث قد أقبلوا إليك ، وهم مثل السيل المنْحطّ من عَلُ[3] ، ليس يردّه شىء حتى ينتهىَ إلى قراره ، ولأهل العراق شدّة

(١) ت : « رجل » ، وهو المغيرة بن حبناء ، التميمى ، شاعر المهلب المرزبانى ٢٧٣
(٢) من ط ، م .
(٣) ط : « من أعلى إلى أسفل » . د ، « من علو » .

فى أوّل حربهم، وبهم صبابة إلى نسائهم وأبنائهم ، فلا شىء يردُّهم دون أهليهم، فلا تستقبلهم ، وخلّ لهم السبيل حتى يأتوا البصرة فيضاجعوا نساءهم ، ويتشهّوا أبناءهم، فترقّ قلوبهم، ويخلدوا إلى المقام فى منازلهم، ويتفرّقوا عن ابن الأشعث. فأوقِعْ بمن حاربكَ منهم ، فإنّ الله ناصرك عليهم .

فلما قرأ الحجاج كتابه قال : ويلى على ابن المردىّ[1] ! والله ما لى نظر وإنما نظر إلى ابن عمّه . ولم يقبل منه ذلك ، وكان ذلك مراد المهلب – [2] أعنى دخول ابن الأشعث وتلطّفه بهذه المكيدة طىّ هذه النصيحة . ومن شعره[2] –

إنا إذا أنشأت قوماً لنا نِعَمٌ قالت لنا أنفسٌ أزْدِيّةٌ عودوا
لا يوجد الجودُ إلا عند ذى كرمٍ والمال عند لئام الناس موجودُ

* * *

٥٠ — وأنَّ هُرْمُسَ أَعْطَى بلينُوسَ ما أَخَذ مِنْكَ .

[هرمس وبلينوس]

هرمُس هذا هو الّذى تزعم الصابئة[3] أنه نبىٌّ مرسل ، وأنه إدريس عليه السلام ، ويسندون إليه شرائعهم من[4] تعظيم الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر ، والتقرّب إليها بالذبائح ، وما أشبه ذلك من مذاهبهم .

قال أبو معشر البلخىّ : هو أول من تكلّم فى الأشياء العُلْوِيّة ، من الحركات النجوميّة ، وجدُّه كيُومَرْث – وهو آدم عليه السلام – علّمه ساعات الليل والنهار. وهو أوّل من بنى الهياكل ، ومجّد الله فيها، وأوّلُ من نظر فى الطّبّ وتكلّم فيه.

---

(١) كذا فى ت ، وفى د ، ط : « المروى »
(٢–٢) كذا فى ت وفى ط ، م: وتلطف له فى طى هذه النصيحة البليغة ، ومما روى من شعره » .
(٣) ط ، د : « الذى يزعم قوم من الصابئة » .
(٤) ت : « فى » .

وصنّف لأهل زمانه كتباً كثيرةً بأشعار موزونة بلغتهم ، فى معرفة الأشياء العُلْويّة والأرضيّة . وأوّل من أنذر بالطوفان ؛ورأى أن آفة سماوِيّة تلحق الأرض من الماء والنار[١] .

وكان مسكنه مصرَ ، فعند ذلك بنى الأهرام ومدائن التراب ، وخاف ذهاب العلم بالطّوفان ، فبنى البرابىّ ، والجبل المعروف ببرباة أخميم ، وصوّر فى ذلك الموضع[٢] الصناعات وصنّاعها نقشاً ، وأشار إلى صفات العلوم لمن بعده ؛ حرصاً على تخليدها مِنْ بعده .

وتزعم الصائبة أن النبوّة من بعده لإسقيلبيوس ، وكان اسمه بلينوس فزيد فيه تعظيما لاسمه[٣] ، وكذلك يقال فى أرسطاطاليس ، فإن اسمه أرسطو . وكان كلّ مَنْ مهر فى علومه زيد فى اسمه .

وكان بلينوس قد أخذَ العلوم والأسرار عن هرمس هـذا ، وهو هُرْمس الهرامسة .

وزعم آخرون أن هُرْمس صاحب بلينوس كان بعد الطوفان، وهو غير هذا .

وقال الـكِندىّ : وهو صاحب كتاب الحيوانات[٤] ذوات السموم ، وكان طبيباً فيلسوفا ، عالماً بطبائع الأدوية ، جوّالاً فى الأرض ، طوّافاً فى البلاد ، عالماً بنصبة[٥] المدائن وطبائعها وطبائع أهلها وأدويتها ، وهو صاحب الطِّلّسمات الأندلسية مثل السودانيّة النحاس وغيرها

وكان بلينوس هذا تلميذه ، سافر معه البلاد ، فلما خرجا من الهند إلى فارس خلّفه ببابل ، وكان قد أخذ عنه جميعَ علومه وظهرت له فى الطبّ وإبراء المرضى وقائع معجزة ؛ إلى أن كثرتْ فيه أقاويلهم ، وقالوا : هو نبىّ ، وقالوا :

---

(١) ت : « أو النار » .

(٢) ت : « وصور فيها » ، م : « وصور فيه » .

(٣) ت ، م : « له » .

(٤) ت « الحيوان » . (٥) م : « بنصب » .

مَلَك. وزعموا أن مولده روحانىّ ، وأن الله تعالى رفعه فى عَمود من نور ، و إقليدس ينسب إليه .

وهو الذى وضع علم الطبِّ فى هيكل يعرف بهيكل إسقيلبيوس ؛ و يدلّ على ذلك قول جالينوس فى بعض كتبه : إن الله تعالى لما خلّصنى من دُبَيلة [1] قتّالة كانت عرضت لى ، حججت إلى بيته المسمى بهيكل إسقيلبيوس ، و يقال : إن هذا الهيكل بمدينة روميَة ، كانت فيه صورة تكلم الناس ، مركّبة على حركات نجوميَّة ، وأنه كان فيها روحانية كوكب من الكواكب السبعة .

وحكى جالينوس أن الله تعالى أوحى إلى إسقيلبيوس : أنّى إلى أن أسمِّيَك مَلَكا أقرب من تسميتك إنسانا .

وكان معظَّما عند اليونان ، يستسقُون بقبره ، و يوقدون عليه كلّ ليلة ألف قنديل ، فخلّف ابنين ماهرين فى صنعة الطبّ ، وعهدا إليهما ألاَّ يعلِّما الطبّ إلا لأولادهما وأهل بيتهما ، ولا يدخلا فى هذه الصناعة غريباً ؛ وكان تعليم الطب تلقيناً إلى أن وضع أبقراط الكتب ، وهو السادس عشر من ولده .

قال جالينوس : وأما صورته - يعنى المصوّرة التى فى الهيكل - فصورة رجل ملتحٍ قائماً متشمّراً ، مجموع الثياب ؛ يدلّ بهذا الشكل على أنه ينبغى للأطبّاء أن يستعدّوا فى جميع الأوقات ، آخذاً فى يده عصاً معوجَّة ذات شُعَب ؛ يدلّ ذلك على أنه يمكن فى صناعة الطبّ أن يبلغ بمن استعملها من السنّ أن يحتاج إلى عصًا يتوكّأ عليها .

وقيل: إنما صوّر العصا لأنها من شجرة الخطمىّ ، وأنه يطردُ بها الأمراض. وأما شُعَبها فتدلّ على كثرة أصناف الطبّ والتفنّن فيه ، ثم صوّر على تلك العصا صورة حيوان طويل العمر ، وهو التِّنِّين. و يقرب هذا الحيوان منه لأشياء كثيرة.

---

(١) الدبيلة : خراج أو دمل كبير يظهر فى الجوف فيقتل صاحبه غالبا .

أحدها أنّه حيوان حادّ البصر، كثير السّهر، وكذلك ينبغى للطبيب أن يكون فى المعرفة والاجتهاد كذلك.

والثانى أنه يسلخُ لباسه الذى يسمُّونه الشيخوخة؛ فكذلك يمكن الطبيب أن يسلخ الشيخوخة بما يفيده من الصحّة.

والثالث أنه طويل العمر، وعلى ذلك يحرص بعض الأطبّاء.

ويروى أنه عاش تسعين سنة.

ومن كلامه: الصنيعة عند الكَفُور إضاعة للنعمة.

المتعبّد بغير معرفة كحمار الطاحون يمشى ولا يبرح، ولا يعرف ما هو فاعل فى تدبيره.

* * *

٥١ — وَأَفْلاَطُونَ أَوْرَدَ عَلَى أَرِسْطَاطَالِيسَ مَا نَقَلَ عَنْكَ.

[أفلاطون]

هو أفلاطون بن أرسطو الإلهىّ، آخر المتقدمين[١] الأوائل، معروف بالتوحيد والحكمة[٢]، ولد فى زمان أزدشير الأوّل، وتتلمذ لسقراط، ولما اعتلّ سقراط ومات مسموماً قام مقامه؛ وجلس على كرسيّه، وقد أخذ العلم عن[٣] سقراط وطيماوس[٤]، وكان قد رحل إلى مصر، فأخذ أيضاً عن أصحاب[٤] فيثاغورس وغيره[٥]، وضمّ إلى علومه الإلهية العلوم الطبيعية والرياضية. وهو أحد المشّائين المشهورين، ومعنى المشّائين أنه كان من رأيه الرياضة للبدن بالسعى المعتدل؛ لتحليل الفضول، ومدارسة فى تلك الحال. ويقال إنه أمر الملوك باتّخاذ

(١) ت: «المجتهدين».
(٢) ت، د: «الحكم». (٣) ت: «من».
(٤) كذا فى م وطبقات الأطباء لابن جلجل ٣٣، وفى د، ط: «طيمارس».
(٥) د: «وغيرهم».

بيوت الحكمة لتعليم أولادهم ، فكانوا[١] يتّخذون البيوت المذهّبة والمزخرفة[٢] ، ويصوّرون فيها أصناف الصوَر المستحسنة التى ترتاح إليها النفوس ، ثم يتعلّم فيها الصبىّ ، فإذا حفظ علما أو حكمة صعد يوم عيدٍ على دَرَج إلى[٣] مجلس بديع الصنعة ، وقد اجتمع كبار أهل المملكة ؛ فيتكلّم بالحكمة التى حفظها على رءوس الأشهاد ، وعليه التّاج ، ويسمى حكيما ؛ كلّ ذلك ترغيب للصبىّ فى الاشتغال ؛ لما يحصل له من التشريف[٤] والسرور ، وفى يومٍ من هذه الأيّام ظهر أمر أرسطاطاليس كما سيأتى ذكره .

ولأفلاطون آراء ومذاهب أخذها عنه أرسطاطاليس ، وخالفه فى بعضها : مثل حدوث العالم وغيره .

وكان يصوَّر لأفلاطون الصّورة ، ويؤتَى بها إليه فيقول : (٥مِنْ خلق هذه الصورة كذا ؟ ومِنْ حالها كذا٥) ؟ فصوِّرتَ صورته ، وسئل عنها فقال : مِنْ خلق صاحب هذه الصورة كذا وكذا ، وهو محبٌّ للزنا ، فقيل : إنّها صورتك ، فقال : نعم ، ولولا أنى أحبِس نفسى عن الزّنا لفعلت .

ومن كلامه : إنّ الله تعالى بقدر ما يعطِى من الحكمة يمنع من الرزق ، فقيل له : ولِمَ ؟ قال : لأنّ الحكمة حظّ النفس الناطقة ، والمال حظّ النفس الشهوانيّة ، والنّاطقة غالبة على الشهوانيّة ، فالمال والحكمة متغايران فلا يجتمعان .

وقال : لا ينبغى أن تفعل شيئا إذا عُيِّرتَ به غضبت[٦] ، فإنّك إذا فعلت ذلك ، كنت أنت القاذِفَ لنفسك .

---

(١) ت : « فكانوا » .
(٢) كذا فى ت ، وفى ط ، م ، د : « المزخرفة » بدون واو .
(٣) ط : « فى » .
(٤) ط : « الشرف » .
(٥-٥) كذا فى ط ، م ، وفى ت ، د : « من خلق هذه الصورة كذا وكذا » .
(٦) بعدها فى ت : « أن تفعله » .

وقال : عقول الناس مدوّنة فى رءوس أقلامهم ، وظاهرة فى اختياراتهم .

وقيل له : بماذا ينتصفُ الإنسان من عدوّه[١] ؟ قال : بأن يزداد فضلاً فى نفسه .

وقال فى معنى الملِك : هو كالبحر تُستمَدُّ منه الأنهار ، فإن كانت الأنهار عذبةً فأصلُها منه ، [٢]وإن ضدّ ذلك فمنه[٢] .

وقال : ينبغى للّذين يأخذون على أيدِى الأحداث أن يَدَعُوا لهم موضعاً للعُذْر ، لئلا يضطروا إلى القِحَةَ[٣] بكثرة التوبيخ .

وقيل له : فلان لا يعرف الشرّ[٤] ، قال : فإذًا لا يعرف الخير ؛ يريد أن تكون الأمور متميّزةً عند الإنسان ، فإنّه بعد تمييزها يختار منها ، وإذا لم يوضّحها التمييز بطل اختيارُه ، ومتى بَطَل اختياره خيف عليه أن يقع فى مُهلكاتها .

وقال : من القبيح أن نمتنع من الطعام الّذيذ لتصحّ أبداننا ، ولا نمتنع من القبائح لتصفُوَ بذلك أنفسنا .

* * *

[أرسطاطاليس]

فأمّا أرسطاطاليس فهو ابن نيقوماخس ، المعروف بالمعلّم الأول ؛ وإنّما سُمّىَ بذلك لأنّه أوّل مَن وضع التعاليم المنطقيّة ، وأخرجها من القوّة

---

(١) ت : « حسوده » .

(٢-٢) ت ، م : « وضد ذلك » ، وأثبت ما فى ط .

(٣) كذا فى الأصول المخطوطة ، وفى ط : « الضجر » .

(٤) كذا فى ت وفى ط : « لا يعرف شيئاً » .

إلى الفعل، وحكمه حكم واضع النّحو وواضع العَروض .

وكان سبب محبّة أفلاطون له و إلقاء علومه إليه ، أنّ أباه كان قد أسلمه لأفلاطون صغيراً ومات ، فاستمرّ أرسطاطاليس يتيما فى خـدمته ، وكان روسطافس الملك قد اتّخذ لولده نطاقورس بيتا للحكمة ، وأمر أفلاطون بتعليمه ، وكان غلاماً متخلّفا قليل الفَهْم ، وأرسطاطاليس غلاما ذكيّا حادًّا ، وكان أفلاطون يعلّم بطاقورس الآداب والحكمة ، وأرسطاطاليس يعِى ذلك [سرّا][1] ويرسخ فى صدره، حتى إذا كان يوم العيد زيّن بيت الذّهب الذى هو بيت الحكمة ، وألبس نطاقورس التّاج ، وحضَر الملك وأهل المملكة على العادة ، وصعِد أفلاطون وولد الملك إلى مجلس الحِكْمَة والتشريف[2] على رءوس الأشهاد ، فلم يورد الغلام [3]حرفا ، ولا نطق بشىء[3] ، فأسقِط فى يد أفلاطون ، واعتذر بأنه لم يقصّر فى الإلقاء عليه ، ثم قال : يا معشر التّلامذة ، مَنْ فيكم من ينوب عن نطاقورس ؟ فبدر أرسطاطاليس وصدر إلى مجلس مجلس التشريف ، وأخذ يسرد جميع ما ألقاه أفلاطون إلى ابن الملك ، لم يغادر منه حرفاً ؛ فقال أفلاطون : أيّها الملك ، هذه الحكمة التى ألقيتُها على ولدك قد حفظها هذا اليتيم ، فما احتيالى فى الرزق والحرمان ! ثم انصرف الجمع ، وقد اغتبط أفلاطون بأرسطاطاليس ، واعتنى به بعد ذلك ، ومكث عنده نيِّفاً وعشرين سنة ، وكان كثير التعظيم له بحيث أنه كان إذا جلس واستدعِى منه الكلام يقول : اصبِرْ حتى يحضر الناس ، وربما قال : اصبر حتى يحضر العقل ، فإذا حضر أرسطاطاليس قال : تكلّموا .

ثم مات أفلاطون، وقد أخذ عنه أرسطاطاليس جميع علومه ، وخالفه فى مسائل

---

(١) من ت ، د .
(٢) د ، ط : « الشرف » .
(٣) د ، ط : « شيئا ولا نطق بحرف » .

استدركها عليه ، وكان يقول : إنّا لنحبّ أفلاطون ونحبّ الحقّ ، فإذا افترقا فالحقّ أولَى بالمحبّة .

ثم وضع علمَ المنطق ورتّب أصولَه ، وقال : إنما فُضِّل النّاس على البهائم بالمنطق ، فأحقّهم بالإنسانيّة أبلغهم منطقاً ، وأوصلهم إلى عباراتٍ من ذات نفسه بالإيجاز .

وله فى ذلك مسائل ومصنّفات معروفة ، وكذلك فى جميع علومه الحكميّة والفلسفيّة ، وكان قد تسلّم الإسكندر بن فيلبّس من أبيه ، فعلّمه وهذّبه ، وولى الإسكندر المملكة ، فكان لا يبرم أمراً ولا ينقضه[1] إلا باشارته . وكان بمنزلة الوزير والمشير إلى أن توفّى الإسكندر ، وعاش بعده قليلا ومات ، فوضعت جثّته فى إناء من نحاس – وقيل فى خشبة كالتابوت – وعلّقت فى جزيرة صقلّيّة ، وكان أهل البلد يجتمعون إليها عند المشاورة والمدارسة فى فنون الحكمة ، ويقولون : إنّ مجيئهم إلى ذلك الموضع يذكى عقولَهم ، ويصحّح فكرهم ، وربّما استسقوْا به فى الجدْب .

ومن كلامه ممّا كتب به للإسكندر وهو فى غاية البلاغة : أيّها الملك ، لا تنخدع للهوَى ، وإن خُيّل إليك أن فى انخداعك له خداعه ، فقد يسترسل الإنسان وهو يظنّ أنه متحفّظ . واجمع فى سياستك بين بِدَارٍ لا حدّة فيه ، ورَيْثٍ لا غفلة معه ، وامزج كلّ شكل بشكلِه حتى تزداد قوّة . وكن عبداً للحقّ فعبد الحقّ حُرّ . وليكن وُكْدك[2] الإحسان إلى الخلق ، ومن الإحسان وضع الإساءة فى موضعها . وكن نصيحَ نفسك ، فليس لك أرأف بك منك . وإذا أشكلَ عليك أمرٌ فاضرعْ إلى الله تعالى يبلّغك هذه الغاية ، فإنّه يفتح لك المُرْتَج ، وإذا فاتَكَ شىء فاعلم أنّ ذلك لسهوٍ عرض لك فى الشّكر على ما أفادك . ومهما أخطأك شىء

(١) ط : « وينقضه » .
(٢) بة : « فكرك » .

فلا يخطئك الفكر فى الرّحيل عن هذه الدار .

ومنه: إنّ لكل شىء صناعةً ، وصناعة العقل حسن الاختيار .

ورأى إنساناً سمين البدَن ، فقال : ما أشدّ عنايتك برفع سور جسمك[١] !

وقال : سلُوا القلوب عن المودّات ، فإنها لا تقبل الرّشا .

وقال : مقدّم الرأس للفِكْر ، ومؤخّره للذّكْر ، والدّليل على ذلك أن المتفكّر يطأطئ برأسه ، والمتذكّر يرفع رأسه .

وقال : من علم أن الفَناء مستولٍ على كونه هانت عليه المصائب .

وأكثر الأمثال فى شعر المتنبّى من قوله . وقد أفرد الحاتمىّ[٢] رسالة فى ذلك .

وحكى عبد الله بن طاهر أنّ المأمون ، قال : رأيتُ فى المنام رجلاً قد جلس مجلس الحكماء ، فقلت له : مَنْ أنت ؟ فقال : أرسطاطاليس الحكيم ، فقلت : أيُّها الحكيم ، ما أحسنُ الكلام ؟ قال : ما يستقيم فى الرأى ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما يستحسنه سامعُه ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : مالا تُخشَى عاقبته ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما عدا هذا هو ونهيق الحمار سواء .

قال المأمون : ولو كان حيًّا ما زاد على هذا الكلام شيئاً آخر ، إذ به جَمع ومنع . وقال قوم : إن هذا الكلام وُجِد فى كتبه .

* * *

---

(١) ت : « حبسك » .

(٢) ط : « الهاشمى » ، تصحيف .

٥٢ — وَبَطْليمُوسَ سَوَّى الأسطرْلَابَ بِتَدْبِيرِكَ ، وَصَوَّرَ الكُرَةَ عَلَى تَقَدِيرِكَ .

[بطليموس]

هو بطليموس صاحب كتاب المجسطى الكبير ، والجغرافيا ، والأسطرلاب ، وكتاب اللحون الثمانية . وغير ذلك .

وهو أوّل من شرح القول على هيئات الفلك ، وأخرج علم الهندسة من القوّة إلى الفعل .

وأكثر الرواة يقولون : إنه ثالث ملوك اليونان بعد الإسكندر ؛ وبطليموس لقب ملوكهم .

وكان رجلا حكيما ، وسبب ملكه أنه لما مات بطليموس الصانع ملك اليونان ، لم يكن فى بيتِ هذا الملك من أهله مَنْ يصلح للمملكة (١) ، فذكر لليونان رجل يصلُح ، فقال بطليموس : إنه لا يصلح للملك ، قالوا : ولم ؟ قال : لأنّه كثير الخصومة ، وليس يخلُو فى خصومته أن يكون ظالماً أو مظلوماً ، فإنْ كان ظالماً لم يصلح للملك لظلمه ، وإن كان مظلوماً لم يصلح للملك لعجزه وضعفه ، قالوا : صدقْتَ ، فأنت أوْلى بالملك ؛ فملّكوه عليهم .

وقال بعض محقّقى التاريخ : ليس بطليموس الحكيم من ملوك اليونان ، بل هو رجل حكيم كان فى زمن أنطينينوس ، أحد ملوك الرّوم بعد اليونان بملوك كثيرة . والدّليل على أنه ليس من ملوك اليونان ، أنه ذكر فى كتاب «المجسطى» أنه رصد الشمس بالإسكندرية ، سنة ثمانمائة وثمانين لبختنصّر ، وكان من بُخْتَنَصّر

---

(١) ط : « للملك » .

إلى قتل دارا أربعمائة وتسع وعشرون سنة ، ومن قَتْل دارا إلى زوال ملك اليونان على يد أوغسطس مائتا سنة وثمانون سنة ، ومن غَلبة أوغسطس إلى أن ملك أنطينينوس مائة وسبعون سنة ؛ فيكون ذلك موافقاً لما حكاه بطليموس في كتابه .

وأما الأسطرلاب فيزعمون أنه باللغة اليونانية « ميزان الشمس » ، وبه يعرف مقدار الساعات ، وأخذ الأرصاد ، ومطالع الكواكب وغير ذلك ، وبه مثّلتْ هيئة الفَلَك ، وكذلك الكُرَة . والأسطرلاب كرة مطبوعة مثاله كرة من شمع ضمّت عليها اليدان ، فصارت دائرة .

وزعم بطليموس أنّ الأفلاك تسعة ، فأوّلها أقربها إلى الأرض ، وهو أصغرها ، وهو فلك القمر ، ثم الّذى يليه فَلَك عُطَارِد ، ثم الزُّهرة ، ثمّ الشمس ، ثم المرّيخ ، ثم المشترى ، ثم زُحَل ، والثّامن فلك البروج — وفيه سائر الكواكب الثابتة — والتاسع الفَلك الأعظم الحاكم على جميع الأفلاك ، ويسمى الأثير ، لأنه يؤثّر فى غيره ، وغيره لا يؤثّر فيه . ويقال : القَسْرىّ لأنه يدير الأفلاك دَوْرة قسْريّة فى كلّ يوم وليلة .. وهيئات البُروج مثال البِطّيخة المخطّطة ، أعلاها وأسفلها كالنقطتين ، وكلّ بيت بين خطّين بمنزلة البُرْج[١] . ثم إنّ الفَلَك المحيط يدير الأفلاك الثمانية من الشرق إلى المغرب [كلّ يوم دورة واحدة ، والأفلاك الثمانية تدور من المغرب إلى المشرق ، وشبّهوا ذلك بسفينة تجرى مع الماء ، وفيها رجل يمشى مصعِداً][٢] .

وحكى أبو حيّان التوحيدىّ ، قال : كان ابن بكير يقول : دون فلك القمر فَلَكان ، هما سبب المدّ والجزر ، ويقطعان الفلَك كلّ يوم وليلة مرتين. وهذا من

---

(١) ت : « البروج » .
(٢) ن ط .

آرائه التى تفرّد بها ، ولم أجد أحداً يوافقه عليها ؛ والصّناعة برهانيّة ، ولا أعرف أىّ برهان قام له على هذه الدّعوى !

ومن كلام بطليموس : ما أحسَن بالإنسان أن يصبِر عمّا يشتهِى ، وأحسن منه ألاّ يشتهى إلا ما ينبغى .

وقال : ينبغى للعاقل أن ينظر كلّ يوم فى المرآة ، فإن رأى وجهه حسناً لم يشِنه بشىء قبيح يفعلُه ، وإن رآه دميما لم يجمع بين قبيحين .

وسمع جماعة من أصحابه حول خيمة له يقعون فيه ، فهزّ رمحاً بين يديه ليعلموا أنه بمسمعٍ منهم ، وأن يتباعدوا عنه قِيد رُمْحٍ ، فيقولوا ما أحبّوا .

وكان يقول : إنّما نحن كائنون فى الزّمن الّذى يأتى من بعد هذا ـ رمزاً إلى المعاد ـ إذ السكونُ والوجود الحقيقىّ ذلك السكون والعالم .

* * *

٥٣ — وَأَبقْرَاط عَلِم الْعِلَلَ وَالْأَمْرَاض بِلُطْفِ حِسِّكَ .

[أبقراط]

هو أبقراط بن إبراقليس ، كان فى زمن بَهْمن بن إسفنديار ، ويقال : إنه سابع الأطبّاء الّذين أوّلهم أسقنبليوس ، وهو قبل سقراط وأفلاطون ، وهو الذى نظر فى صناعة الطبّ فوجدها قد كادت تبيد لقلة أبناء المورّثين لها من آل أسقنبلينوس ؛ فإنّهم كانوا يلقّنونها الأبناء منهم ولا يكتبونها ؛ فيتعلّمها غيرُهم ، فبثّ أبقراط هذه الصِّناعة فى النّاس ، وعلَّم الغرباء ، وعَهِد إلى الأطبّاء عهداً طويلا مشهورا .

وقال جالينوس فى بعض كتبه : إنّ أبقراط كان يعلَم مع ما كان يعلمه فى الطبّ من أمر النّجوم ما لم يكن يُدانيه فيه أحدٌ من أبناء زمانه ، وكان يعلم

أمر الأركان التى منها تركيب أبدان الحيوان ، وكون جميع الأجسام التى تقبل الكَوْن والفساد ، وفسادها ؛ وهو الذى بَرْهَن كيف يكون المرض والصحّة فى جميع الحيوان والنّبات ، واستنبط أجناس الأمراض وجهات مداواتها وهو أوّل من اتّخذ البيمارستان ؛ وذلك أنه عمِل بالقرب من داره موضعاً مفرداً للمرضى ، وجعل لهم خدماً يقومون بمداواتهم وسمّاه «أخشيدوكن» أى مجمع المرضى ، وكذلك لفظ « البيمارستان » بالفارسىّ ، ولم يكن يرغبُ فى الاتّصال بالملوك ؛ حتّى إنّ ملك الفرس كتب إلى عامله من بلاد اليُونان ، يأمره بحمل أبقراط إليه لأجل وَباء عَرَض فى بلاده ، وأن يحمل مائة قِنْطار ذهباً ، ويضمن له أقطاعا مثلها ، وكتب إلى ملك اليونان فى ذلك الوقت يستعين به على إخراجه إليه ، وضمِن له مهادنتَه سبعَ سنين ، فلم يجب أبقراط إلى هذا ، وقال أهل المدينة : إن خرج أبقُراط خرجنا كلّنا وقُتِلْنا دونه .

وتفسير « أبقراط » ضابط الكلّ . وقيل : ضابط الحِيَل ، وهو الصّحيح.

وكتبه جليلة ، وأخباره حسنة . ومن ظريف حكاياته أنَّ ولَد أحدِ ملوك اليونان عشق جاريةً من حظايا أبيه ، فنَحل بدنُه ، واشتدّت عِلّته ، وهو كاتمٌ خبره ، فأحضر أبقراطَ ، فجسَّ نبضَه ، ونظر إلى بَشَرته فلم يَرَ عنده علّة ، فذاكره حديثَ العِشق ، فرآه يهتزّ لذلك ويطرب ، فاستخبر الحالَ من حاضنته ، فلم يكن عندها خبر ، فقال : هل خرج من الدار ؟ فقالت : لا ، فقال لأبيه : مُرْ رئيس الخُصْيان بطاعتى ؛ فأمره بذلك ، فقال : أخْرِج علىّ النساء ، فخرجن ــ وأبقراط واضع يده على نبضِ الصّبىّ ــ فلما خرجت الصبيّة الحظِيّة اضطرب عِرْقُه ، وحار طبعُه ، فعلِم أبقراط أنها المعنيّة بهواه . فصار إلى الملك فقال : إنّ ابن الملك عاشقٌ لمن الوصول إليها صعب ، قال الملك : ومَنْ تيكَ ؟ قال : هى زوجتى ، قال : فانْزِلْ عنها ولك عنها بدَل ، فتمنّع أبقراط ، وقال : هل رأيتَ أحداً كلّفَ أحداً طلاق زوجته ! ولا سيّما الملِك فى عَدْله ونَصَفته ، يأمرنى بمفارقة زوجتى

وهى عديلةُ روحى ! فقال الملك : إنى أوثِر ولدى عليك ، وأعوّضُك أحسنَ منها ، فامتنع حتى بلغ الأمرُ إلى التّهديد والسّيْف ، فقال أبقراط : إنّ الملك لا يسمّى عادلا حتّى يُنصفَ من نفسه ما ينصف من غيره ، أرأيتَ لو كانت العشيقة حظيّة الملك ! ففهم الملك المراد ، وقال : يا أبقراط ، عقلُك أتمّ من معرفتك ، ونزل عن الحظيّة لابنه ، وشُفِيَ الفتى من لاعج الهوى .

ومن كلام أبقراط : سَلُوا القلوب عن المودّات فإنّها شهود لا تقبل الرِّشَا[1] .

وقال : الإقلال من الضارّ خيرٌ من الإكثار من النافع – يعنى من المآكل والمشارب .

وقال : خَيْر الغَدَاء بواكرُهُ ، وخير العَشاء بوادره – يعنى بذلك المبادرة به فى بقايا النّهار والضَّوْء متمكّن ، وقبل الدّخول فى حدّ النوم .

وقال : استهينُوا بالموت ، فإنّ مرارته فى خوفه .

وسئل : كم ينبغى للإنسان أن يجامع ؟ فقال : فى كلّ سنة مرّة ، قيل : فإن لم يقدِر ، قال : فى كلّ شهر ، قيل : فإن لم يقدر ، قال : فى كلّ أسبوع ، قيل : فإن لم يقدِر ، قال : هى روحه ، متى شاء أخرجَها[1] .

ولما حضرته الوفاة ، قال: خُذوا منّى العلم بغير حسد ؛ مَنْ كثُر نومه ، ولانت طبيعته ، وندبتْ جلدتُه فقد طال عمرُه .

* * *

٥٤ – وَجَالِينُوسَ عَرَفَ طَبَائِعَ الْحَشَائِشِ بِدِقَّةِ حَدْسِكَ .

[جالينوس]

جالينوس هو آخر الحكماء المشهورين، ويسمّى خاتم الأطبّاء والمعلّمين، وذلك أنه عندما ظهر وجد صناعة الطبّ قد كثرت فيها أقوال الأطباء السُّوفسْطائيّين ،

---

(١) تقدم هذا الكلام لأرسطاطاليس ص ٢١٣ .

ومحيت محاسنُها ، فانتدب لذلك ، وأبطل آراءهم ، وشيّد أراء أبقراط والتابعين له ونصرها ، وساحَ وطلبَ الحشائشَ ، وجرّب وقاس أمزجتَها وطبائعها ، وشرّح الأعْضَاء ، ووضع الـكُتب النفيسة فى هذه الصناعة ، وهى مادّة الأطباء إلى يومنا هذا ؛ وأشهرها الـكُتب الستّة التى شرحها الإسكندرانيّون ، ولم يأتِ بعده إلاّ مَنْ هو دون منزلتِه ، وكانت وفاته بعد مبعث المسيح عليه السلام ، ولم يَرَه .

حكى أنّه لما بلغه دعوةُ المسيح صلوات الله عليه إحياءَ الموتَى ، وخلْق الطير ، وإبراء الأكْمَه والأبرص ، قال لمن حوله من التّلامذة : إن عُلِم من هذا المدّعى بما لاتَستقلّ به الطبيعة سَفَهٌ قَبْل ما ادّعاه لايخاطب ، ويحمَل فيما ادّعاه على ماتقدّم العلم منه من السّفه ، وإن لم يُعلَمَ منه سفه تقدم دعواه يُطالب[1] بالبيان لإمكانه من علم ما وراء عالم الطبيعة؛ وذلك سبيل كلّ ناطق يقوم فى ابتداء كلّ قرن يأتى من الزّمان للاضطرار إليه عند ظهور الفساد فى الأرض، سبيله الدعوى بما لاتستقلّ به الطبيعة لانقياد النّاس إلى طاعته بعد القيام بصحّة ما ادّعاه ، فمن سلك سبيله بعد ذلك تمّت حركته .

ثم تجهّز للاجتماع به ، وسار إليه ، فمات فى طريقة بمدينة الفَرَما ، وهى على شاطىء بحيرة تنيِّس ، وبها قبرُه .

ولما اشتدَّ به المرض قيل له : ألا تتداوى ؟ قال : إذا نزل قَدر الربِّ بطل حذر المربوب ، ونعم الدّواء الأجل ! ثم مات مبطونا ، ومات أرسطاطاليس بالسلّ ، ومات أفلاطون مبرسَماً ، ومات أبقراط مفلوَجاً .

ومن حكايات جالينوس عن نفسه ، قال : مررتُ بشيخ يَزْرَعُ شجرة ، فقلت : يا شيخ ، ما تُزرع ؟ فقال : شجرة ثمرتها لى ولك ، قلت : وما هى ؟ قال : شجرة المِشمش ، ثمرتها لى ؛ لأنى آخذ ثمنها ، ولك لأنها تـكثِر المرضى ، فتأخذَ من أموالهم .

---

(١) كذا فى د ، وفى باقى الأصول : « يطلب » .

وحكى عن نفسه في معرفة التشريح ، قال : أعرف رجلاً شكا ضعف شهوة الطعام ، فوضعت على رقبته أدوية فبرئ ؛ لأنّ فى العضوين المجاورين للعرقين النّابضين شُعبة إلى فم المعدة ، تنال منها الحسّ ، وكان فى رقبة الرَّجل خنازير فقطعها الأطبّاء ، فأضرّ ذلك بتلك القصبة التى منها الشّعبة ، وبرئت رقبته ، وصار ضعيف الشَّهوة عن الطعام ، فوضعت عليها الأدوية المقوّية فبرئ.

ومن كلامه : الإنسان سراجٌ ضعيف ، كيف يدومُ ضوءه بين رياح أربع ! يعنى الطبائع .

وقال : الإنسان إلى تجنّب ما يضرُّه أحوج منه إلى تناول ما ينفعه .

وقال : مَنْ كان له درهم ؛ فليجعل نصفه فى النَّرجس ؛ فإنه راعى الدّماغ ، والدِّماغ راعى العقل .

ورأى مُصارعا كان لا يرمى أحدا قد صار طبيبا ، فقال : الآن كما صرعت الناس !

* * *

٥٥ — وَكِلاَهُمَا قَلَّدَكَ فِى الْعِلاَجِ ، وَسأَلكَ عَنِ الْمِزَاجِ .

العلاج والمعالجة فى اللغة المغالبة ، وسمِّىَ الطبُّ علاجا لكون الطبيب يغالب المرض .

وقال أبقراط : يُعَالَج الجسَد على خمسة أضربُ : ما فى الرأس بالغرغرة ، وما فى المعدة بالقىء ، وما فى أسفل المِعدَة بالإسهال ، وما بين الجلدين بالعَرَق وإسهال الدَّم ، ويحتاج ذلك إلى علوم الأصُول من الاستقصّات ، والطبائع ، والأخلاط ، والقوى ، والأرْواح ، والأسباب ، وغير ذلك .

والمِزاج في اللغة خَلْط الشَّراب بغيره ؛ وعَبَّر عنه الأطبّاء بأنه عبارة عن تكافؤ الطبائع واختلاطها في البدَن ، والمزاج عندهم تسعة : واحد معتدل ، وثمانية غير معتدلة ، وفي الثمانية أربعة مفردة ؛ وهي الحارّ والبارد ، والرَّطْب واليَابس . والأخلاط أربعة ؛ وهي : الدَّم ، والمِرّة الصفراء ، والمِرَّة السوداء ، والبلغم ؛ فالدَّم حارٌّ رطْب ، والمِرَّة الصفراء حارّة يابسة ، والبلغم بارد رطب ، والمِرّة السوداء باردة يابسة . ومعرفة أمزجة الإنسانِ من أقسام الأسباب والعلامات ، ويعرف مزاج غير ذلك بالتجرِبة ، وبالقياس ؛ فليعلم ذلك .

* * *

٥٦ – وَاسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الْأَعْضَاءِ ، وَاسْتَشَارَكَ فِي الدَّاءِ والدَّوَاءِ .

يشير بمعرفة الأعضاء إلى ذِكْر صفات التَّشريح التي ذكرها جالينوس ، وحكى فيها عن نفسه الحكايات العجيبة . والأعضاء عندهم على قسمين : بسيط ومركَّب ، فالبسيط كالعظْم والعَصَب والعروق ، والمركّب كالرأس واليدين والرجلين ، ومن الأعضاء أعضاء رئيسة[1] وأعضاء مرءوسة ، وأعضاء ليست برئيسة ولا مرءوسة ، فالرئيسة أربعة : كالدِّماغ ، والقلْب ، والكبِد ، والأُنثيين . والمرءوسة ما تخدم هذه الرئيسة ، وذلك أن الدِّماغ يخدمه العَصَب ، والقلب يخدمُه الشرايين ، والكبد تخدمها[2] العروق . والانثيان أوعية المنيّ ، وما ليس برئيس ولا خادم كالعظام والغضاريف والشحم واللحم ، والأعضاء التي لها قوى كالمعدة والكُلَى .

والدّاء هو المرض الدّاخل على الأبدان ، وأجناسه ثلاثة : الأول فساد المزاج ،

---

(١) ط : « رئيسية » .
(٢) د : « تخدم » .

والثانى تفرُّق الاتصال ، والثالث المَرض المشترَك ، والدَّوَاء ما يُحفظ به الصحّة المائلةعن البدَن،أو مايجلب به الصحّة للبدن المزايلة له ؛ وهو نفْس القِسْم العمليّ ، ومداره على الحِذْق .

وكان أبقراط يقول : الطّبيب الحاذق يصيِّر بحذقه السمّ دواء نافعاً، والجاهل يصيّر الدَّواء سُمّا قاتلا ؛ مثال ذلك أنّ الجاهلَ بالطبّ إذا أخذ الصَّنْدل وسَحَقه كالكُحْل ، ثم طلاه على بدن حارٍّ كثير الحرارة طَليا ثخيناً ، دخلت تلك الأجزاء الدقيقة فى منافسِ الجسد ومسامِّه ، فتؤذى العليل؛ والطبيب الحاذق يأخذ العود الهندىَّ فيسحَقه ناعماً ، ثم يطليه على البدَن طَلْياً رقيقاً ، فيتّصل ما فيه من الرُّطوبة إلى حرارة البدن فيبرّدها ، ويجد الحرّ سبيلا إلى الخروج ، فتكون حرارة العود مبرّدة بتدبير الطبيب [الحاذق][1] ؛ فاعلم ذلك[2] .

* * *

٥٧ — وَأَنَّكَ نَهَجْتَ لأَبِي مَعْشَرٍ طَرِيقَ الْقَضَاءِ .

النّهج بيان الطريق ووضوحه ، ومنه : نهج الثوبُ : إذا بان فيه البلى[2] .

والقضاء فَصْل الأمر قولا كان أوفعلا ، وأصله « قضاىْ » ، من «قضيت » فقلبت الياءُ همزة ، والمرادُ به هاهنا حكمُ المنجمين وقولهم بتأثير الكواكب ، قال الشاعر[3] :

* يَقْضُون بالأمْرِ عَنْها وَهْىَ غَافِلَةٌ *[4]

---

(١) من م .

(٢) ساقط من د .

(٣) هو أبو تمام .

(٤) ديوانه ١ : ٥٠ وبقيته :

* مَادَارَ فِي فَلَكٍ مِنْهَا وَفِي قُطُبِ *

[أبو معشر الفَلَكىّ]

وأبو معشر هذا هو جعفر بن محمد بن عمر البَلْخىّ ، المنجِّم المشهور فى علم النِّجامة ؛ كان فى الأوّل من أصحاب الحديث ببغداد ، وكان يشنّعُ على الكِندىِّ الفيلسوف بعلوم الفلسفة ، ويغرى به العامّة ، فدسَّ له الكِندىُّ مَنْ حسّن له النّظر فى علم الحساب والهندسة ، فدخل فى ذلك ، ثم عدل إلى أحكام النّجوم فتفنّن ومَهَر ، وانقطع شرُّه عن الكِندىِّ ، لأنه من جنس علوم الكندىِّ .

ويقال : إنّه اشتغل بالنُّجوم بعد سبع وأربعين سنةً من عمره ، وصنَّف الكتب الحسنة فى هذا العلم ، مثل كتاب : الألوف ، وكتاب المدخل ، وكتاب المذكّرات وغير ذلك ؛ وظهرت له إصاباتٌ عَجيبة ، وحكى عنه فيها حكايات بَديعة ، قال فى كتاب المذكّرات : حضرت وشَيْلمة والزّيادىّ عند الموفّق ، وكان الزيادىُّ أستاذَ زمانه فى النُّجوم ، فأضمر الموفّق ضميرا ، فقال الزيادىُّ : أضمر الأمير فقد أمر جليلٍ رفيع ، فقال له : كذبتَ ! فقال شيلمة قولا قريبا منه ، فقال الموفّق : كذبت ! ثم قال لى : هات ما عندك ؛ فقلت : أضمر الأمير «الله عزّ وجلَّ » ، فقال: أحسنتَ والله ! ويلكَ أنَّى لك هذا ! قلت: الرئيس يرى فعله ، ولا يرى نفسه . وكان فى أرفع درجة الفَلَك فى الضَّمير ، ولم أعرف له مَثلاً إلا الله عزّ وجلَّ ؛ لأنَّ الله تعالى يُرَى فعلُه ولا يُرى هو ، وهو فوق كلِّ عزّة وسلطان ؛ ليس فوقه شىء .

وحِكَى عنه أنه كان قد تنقّل فى البلاد ، فاتّصل ببعض مُلوك العجَم ، وأنَّ الملك طلب رجلا من أتباعه وأكابر دَوْلته ، ليطالبه بجريمة وقعت منه ، فاستخفَى الرَّجل ، وعلم أن أبا معشر يدلُّ عليه بالطريق الذى يستخرج بها الخفا ، والأشياء الكامِنة ، فأراد أن يصنع شيئا لا يهتدَى إليه ، ويبعد عنه الحدْس يا

فأخذ طستاً وملأه دماً ، وجعل فى الدّم هاونا من ذهب كبير، يتمكّن من القعود عليه ، ثم جلس عليه عليه أيّاماً ، وتطلّب الملك ذلك الرَّجُل فأعياه ، فأحضر أبا معشر، وقال له : عَرِّفْنِي بموضعه كما جرت عادتُك، فعمل المسألة التى يستخرج بها المجهولات ، وسكت زماناً حائرا ، فقال الملك : ما سبب حَيْرتك ؟ قال : أرَى شيئا عجيبا ؛ قال: وما هو ؟ قال : أرى الرَّجُل المطلوب على جبلٍ من ذهب ، والجبل فى بحرِ دمٍ ، ولا أعلم فى العالم موضعاً على هذه الصفة ! فلما يئس الملك من القُدْرة عليه نادى فى البلد بأمان الرجل ومن أخفاه ، فلما اطمأنّ الرجل بذلك ظهر ، وحضر بين يدى الملك ، فسأله عن الموضع الذى كان فيه ، فأخبره بما اعتمد ، فأعجبه حسن احتياله ، وإصابة أبى معشر فى استخراجه[١] .

ولأبى معشر فى هذا الباب أخبار كثيرة ، والله أعلم بحقيقتها . وكان مع تقدُّمه فى هذه الصناعة يُصيبه الصَّرعُ عند امتلاء القمر فى كلِّ شهر ، وكان لا يعرف لنفسِه مولداً ؛ ولكن كان قد عمل مسألة عن عمره وأحواله ، وسأل عنها الزياديَّ المنجّم ليكون أصحَّ دلالة ، إذا اجتمع عليها طبيعتان : طبيعة المسئول ، وطبيعة السائل ؛ فخرج طالع تلك السَّنة السُّنبلة، والقمر فى العقرب فى مقابلة الشمس ، والمرِّيخ ناظرٌ إلى القمر من الدَّلْو .

وهذه الصورة توجب الصَّرَعَ . ومات به سنة اثنتين وسبعين ومائتين .

وقيل : كان سبب موته أنَّ المستعين ضربه أسواطاً ؛ لأنه أخبر بشىء قبل كونِه فأصاب ، فكان يقول : أصبتُ فعوقبت !

* * *

(١) ساقط من م .

٥٨ ـ وَأَظْهَرْتَ جَابِرَ بْنَ حَيَّان عَلَى سِرِّ الكِيمِياَءِ .

الكيمياء معروفة الاسم ، باطلةُ المعنى ، وليعقوب الكندىّ رسالة بديعة سماها « إبطال دعوى المدّعين صنعة الذهب والفضة » ، جعلها مقالتين يذكر فيهما[1] تعذّر فعل الناس لما انفردت الطبيعة بفعله ، وخُدَع أهل هذه الصناعة وجهلهم .

ويقال : إنّ أبا بكر الرازىّ ردّ عليه ردًّا لا طائل فيه . وأعرف[2] لأبى عثمان الجاحظ فى كتاب « الحيوان » عند ذكر خلق الفأر من الطين كلاما فى الكيمياء بعّد فيه وقرّب ، ولم يخرج على شىء من إبطالها ولا تحقيقها ، والصحيح الأشهر عدم الصحّة فيها . ولذكرها هاهنا عقيب صناعة النّجوم مناسبة لأقوالِ الناس فيهما .

* * *

[جابر بن حيّان]

وأمّا جابر بن حيّان المذكور فلا أعرف له ترجمةً صحيحة فى كتاب يعتمد على نقله[3] ، وهذا دليل على قول أكثر الناس : إنّه اسم موضوع ، وضعه المصنّفون فى هذا الفنّ ، ويزعمون[4] أنّه كان فى زمن جعفر الصادق رضى الله عنه ، وأنه إذا قال فى كتبه : « قال لى سيدى » ، و« سمعت من سيدى » ، فإنه يعنى به جعفرًا الصادق رضى الله عنه ؛ ومع ذلك فإنّ الله تعالى أعلم بحقيقتها[5]

(١) ت ، م : « فيها » .
(٢) ط ، م : « ورأيت » .
(٣) د ، ط : « عليه » . (٤) د ، ط ، م : « وزعموا » .
(٥) ترجم لجابر بن حيان ابن النديم ، والقفطى فى أخبار الحكماء ؛ وانظر أيضا الأعلام ٢ : ٩٠ ، ٩١ .

٥٩ - وَأَعْطَيْتَ النَّظَّامَ أَصْلاً أَدْرَكَ بِهِ الحَقَائِقَ .

[النّظام]

هو إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصريّ ، المعروف بالنظّام ، ويكنى أبا إسحاق . شيخ من كبار المعتزلة وأئمتهم ، متقدّم فى العلوم ، شديد الغوْص على المعانى ، وإنّما أدّاه إلى المذاهب التى استبشِعت منه تدقيقه وغوصه[١] ؛ فإنه كان قد اطّلع على كثير من كتب الفلاسفة ، ومال فى كلامه إلى الطبعيّين منهم والإلهيّين ، فاستنبط من كلامهم رسائل ومسائلَ ، وخلطَها بكلام المعتزلة ، وانفرد بها عنهم ؛ مثل قوله : إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصفُ بالقدرة على الشّرور والمعاصى ؛ خلافاً لأصحابه ؛ لأنهم قضوْا بأنه قادر عليها ، لكنّه لا يفعلها .

ومثل قوله : إنّ الجوهر مؤلّف من أعراض اجتمعت .

وقوله : إنّ الله تعالى خلق الموجوداتِ دفعةً واحدة على ما هى عليه الآن ، معادنَ ونباتاً ، وحيواناً ، وإنسانا ، ولم يتقدّم خلقُ آدم على خلق أولاده ، غير أنّ الله تعالى أكمن بعضها فى بعض ؛ وهذا قول أهل الكوْن من الفلاسفة .

وقوله فى القرآن : إنّ فى قوى البشر أنِ تأتِيَ بمثله ، إلّا أنّ الله تعالى صرف أذهانهم عن ذلك .

إلى غير ذلك من مسائله المذكورة فى كتب[٢] الأصوليّين .

ومراد ابن زيدون بالحقائق ، غير ذلك من مسائله الحسنة المعجِبة ، فإنّها كثيرة ، وإنّما عدُتّ سَقَطات النّظّام لكثرة إصابته .

وكان من صغره يتوقّد ذكاء ، ويتدفّق فصاحة ؛ حُكِي أن أباه جاء به وهو صغير إلى الخليل بن أحمد ليعلّمه ، فقال له الخليل يمتحنه ، وفى يده قدَح زجاج :

---

(١) ط ، م : « وتغلغله » . (٢) ت : « كتاب » .

يا بنىّ ، صفْ لى هذه الزُّجاجة ، قال : أبمدح أم بذمّ ؟ قال : بمدحٍ ، قال : تريك القذى ، ولا تقبل الأذى ، ولا تستر ما ورا ؛ قال : فذمّها ، قال : يسرع إليها الكسر ، ولا تقبل الجبْر .

قال: فصف لى هذه النّخلة - وأومأ إلى نخلة فى داره - [١]قال : بمدح، أم ذمّ قال: بمدْح[١] ، قال : حُلْوٌ جناها ، باسق منتهاها ، ناضرٌ أعلاها . قال : فذمَّها ، قال : صعبة المرتقى ، بعيدة المجتنَى ، محفوفة بالأذى ؛ فقال الخليل : يا بنىّ ، نحن إلى التعلّم منك أحوج .

ثم اشتغل على أبى الهُذَيْل العلّاف بمذهب الكلام إلى أن برَع ، وظهر فى أيام المعتصم ، وتبعَه خلق كثير ، وكان أصلُ مذهبهم أنّه مَنْ زعم أن الله تعالى شىء فهو كافر .

ثم ناظر شيخه أبا الهُذَيل ، وظهر عليه مراراً ، وقيل له : أتناظر أبا الهُذيل! قال : نعم ، وأطرح له رُخًّا من عقْلى[٢] .

وحكى الجاحظ عنه - وكان من أكبر تلامذته وأصحابه - قال : دخل أبو إسحاق النّظّام على أبى الهُذَيل - وقد أسنّ ، وبعد عهده بالمناظرة ، وأبو إسحاق حديث السنّ - فقال : ياأبا الهذيل ، أخبرنى عن فراركم أن يكون جوهرا مخافة أن يكون جسما ، فهلاّ فررتم من أن يكون جوهراً مخافة أن يكون عرضاً ، والجوهر أضعف من العرض ! فبصق أبو الهذيل فى وجهه ، فقال أبو إسحاق : قبَحك الله من شيخ ! فما[٣] أضعفَ حجّتك !

وحكى عنه ، قال : مات لصالح بن عبد القدوس ولد ، فمضى إليه أبو الهُذَيل

(١-١) ت : « قال : بمدح ؟ قال : نعم » .

(٢) حاشية ت : « قوله : وأطرح له رخا من عقلى تشبيه ، كما يفعل الماهر فى لعب الشطرنج بطرحه رخاً أو فرزاً ، أو فرساً لمناظره ؛ لسعة ميدانه » .

(٣) د : « ماأضعف »

والنظّام معه ، وهو غلام حَدَث كالتبع له ، فرآه محترقا ، فقال أبو الهُذَيل : لاأعرف لجزَعك وجهاً ، إذا كان النّاس عندك كالزرع ! فقال صالح : ياأبا الهُذَيل، إنَّما أجزع عليه ، لأنّه لم يقرأ كتاب «الشكوك» ، فقال أبو الهُذيل : وما كتاب الشّكوك ؟ قال : كتاب وضعتُه ، مَن قرأه شكّ فيما كان حتى يتوهّم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظنّ أنه قد كان . فقال له النّظّام : فشُكّ أنت فى موت ابنك، واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشكّ أيضا فى أنه قد قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه ! فحصِر صالح .

وكان مذهبه مذهب السّوفسطائيّة ، فإنّهم يزعمون أنّ الأشياء لا حقيقة لها ، وأن ما يستبعده[١] الإنسان يجوز أن يكون على ما يُشاهده ، ويجوز أن يكون على غير ما يُشاهده ، وإنّ حال اليقظان كحال النائم .

وحكى الجاحظ ، قال : تجاذبت يومًا وإيّاه حديثَ الطِّيَرة ، فقال : أخبرك ، أنّى جعت حتى أكلت الطين ، وما صرت إلى ذلك حتى قلّبت قلبى ؛ أتذكر هل ثَمّ رجل أصيب عنده غداء أو عشاء ! فما قدرت عليه — وكان علىّ جبّة وقميص — فبعت القميص ، ثم قصدت الأهواز وما أعرف بها أحدا ، وما كان ذلك ناشئاً إلا عن الحيرة والضّجَر ، فوافيت الفُرضة فلم أصِب[٢] بها سفينة ، فتطيّرت من ذلك . ثم إنّى رأيت سفينة فى صدرها خَرْق وهَشْم فتطيّرت أيضا ، فقلت للملاّح : تحملنى؟ قال : نعم ، قلت : ما اسْمك ؟ قال: «داوداذ» بالفارسية — وهو اسم الشيطان — فتطيرت وركبت معه ، فلما قربت من الفُرْضة صحت : يا حمّال — ومعى لحاف سَمَل ، ومضربة خَلَق ، وبعض ما لابدّ لمثلى[٣] منه — فكان أول حمّال أجابنى أعور ، فقلت لبقّار كان واقفاً : بكم تكرِى ثورك

---

(١) كذا فى ت ، وفى ط ، د : « نستبعده » .
(٢) ط ، د : « أجد »
(٣) ت : « لى » ، وهى ساقطة من م .

هذا إلى الخان؟ فلمّا أدناه منى إذا هو أعْضب[١]، فازدادت طِيرةً إلى طِيَرة ، وقلت في نفسى : الرّجوع أسلم ، ثم ذكرت حاجتى إلى أكل الطّين ، وقلت : ومَنْ لى بالموت ! فلما صرت إلى الخان وأنا حائر ما أصنع ، إذ سمعت قرع باب البيت الذى أنا فيه ، فقلت : مَن هذا ؟ فقال : رجل يريدك ، فقلت : مَنْ أنا ؟ فقال : إبراهيم بن سيّار النَّظّام ، فقلت : هذا عدوّ ورسول سلطان ! ثم إنى تحامات وفتحت له الباب ، فقال : أرسلنى إليك إبراهيم بن عبد العزيز ، ويقول لك : إن كنّا اختلفنا فى المقالة ، فإنا نرجع بعد ذلك إلى حقوق الأخلاق والحرّية ، وقد رأيتكَ حيث مررتَ بى على حالٍ كرهتها ، وينبغى أن تكون نزعتْ بك حاجة ، فإن شئت فأقم بمكانك مدّةَ شهر أو شهرين ، فعسى نبعث إليك ببعض ما يكفيك[٢] زمانا من دهرك ؛ وإن اشتهيتَ الرّجوع ؛ فهذه ثلاثون ديناراً فخذها وانصرف ، وأنت أحقّ مَنْ عَذَر .

قال : فورد علىّ أمرٌ أذهلنى ، أمّا واحدة ؛ فإنّى لم أكن ملكت قبلُ فى جميع دهرى ثلاثين ديناراً ، والثانية أنه لم يُطلْ مقامى وغيبتى عن أهلى ، والثالثة ما تبيّن لى من الطِّيَرة أنها باطل .

وتوفّى النظام سنة إحدى وعشرين ومائتين ، وله من العمر ستٌّ وثلاثون سنة . وله كلام حسن ، وشعر رقيق .

ومن كلامه : العلْم شىء لا يعطيك بعضَه حتى تعطيَه كلَّك ، فإذا أعطيتَه كلَّك فأنت من إعطائه لك البعض على خطرٍ .

وقال : كنّا نلهو بالأمانىّ ، ونَعِدُ أنفسنا بالمواعيد ، فذهب مَنْ كان ينجز ، ثم اشتغلنا بالهموم عن الأمانىّ[٣] .

وقال : مما يدلّ على لؤم الذهب والفضة صيرورتهما عند اللئام ، فالشىء

---

(١) الأعضب : مكسور القرن ؛ وكانوا مما يتطيرون به .

(٢) ت : « بما يكفيك » . (٣) ط ، م : « الآمال » .

يصير إلى شبهه ، والجنسية علة الضم .

وقال : إذا كان فى جيرانك جنازة ، وليس فى بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة ، فإن المصيبة عندك أكثر منها عند القوم ، و بيتك أولى بالمأتم .

وقال أبو العيناء : أنشدت النظام :

إذا هَمَّ النَّديمُ له بلحظٍ ... تمشّت فى مفاصله الكلومُ

فقال : ماينبغى أن ينادِمَ هذا إلا أعمى ، ثم نظم المعنى فى شعره[1] .

ومن شعره :

ذكرتُكِ والرَّاحُ فى راحتِي ... فشُبتُ المُدامَ بدمعٍ غزيرِ

فإن يُنْفدِ الدمعَ فرطُ الأسى ... بكَتْك الحشا بدموعِ الضَّميرِ

ومنه أيضا :

يا تاركى جسداً بغير فؤادِ ... أسرفْتَ فِي الهِجْرانِ والإبْعادِ

إن كان يمنعُك الزيارةَ أعينٌ ... فادخُلْ إلىّ بعلّةِ العُوّادِ

إنّ العيون على القلوب إذا جَنَتْ ... كانت بليّتُها علَى الأجسادِ

ومنه :

أريدُ الفِراقَ وأشْتَاقُكُمْ ... كأنّا افترقْنَا وَلَمْ نفْترقْ

وأسْتغنِمُ الوصلَ كى أشتفِي ... وهلْ يشتفِي أبداً مَنْ عَشِقْ !

ومنه :

يروعُ مُناجيه بِهارُوت لَفْظِهِ ... ويؤنِسُهُ مِنْهُ بصورةِ آدَمِ

ترى فيه لاماً فردة فوق وردةٍ ... وفَصًّا من الياقوت من فوق خاتِمِ

ومنه :

وشادنٍ ينطق بالظَّرْفِ ... يَقصُرُ عَنْهُ مُنْتَهى الْوَصْفِ

رقّ فلو بَزّتْ سرابيله ... علّقه الجوّ من اللّطفِ

---

(١) ط : « نظر إلى المعنى » .

يَجْرَحُهُ اللَّحْظ بتكرارهِ ويشتكى الإيماء بالطَّرْفِ
أفديهِ مِنْ مغرًى بما ساءنِى كأنَّه يعلمُ ما أُخْفِى

وقيل له وهو فى مرضه ، وفى يديه قَدَحٌ من زُجاج[1] مملوء من بعض الأدوية : ما هذا ؟ فقال : أصْبَحْتُ فى دار بلِيَّاتٍ ، أدفع[2] آفاتٍ بآفاتٍ .

٦٠ — وَجَعَلْتَ لِلْكِنْدِىِّ رَسْماً اسْتَخْرَجَ بِهِ الدَّقَائِق .

[الكِنْدىّ]

الكندىّ ، هو يعقوب بن إسحاق بن الصبّاح ؛ المسمّى فى وقته فيلسوف الإسلام ، من ولد الأشعث بن قيس ، كان أبوه ابن الصبّاح من وُلاة الأعمال بالكوفة وغيرها ، فى أيّام المهدى والرّشيد ، وانتقل يعقوب إلى بغداد ، واشتغل بعلمِ الأدب ، ثم بعلوم الفلسفة جميعها فأتقنها[3] ، وحلّ مشكلات كتب الأوائل ، وحذا حذو أرسطاطاليس ، وصنّف الكتب الجليلة الجمّة ، وكثُرت فوائده وتلامذته ، وكانت دولة المعتصم تتجمّل به و بمصنّفاته ؛ وهى كثيرة جدًّا ؛ ومن أجودها : كتاب أقسام العقل الإنسىّ ، وكتاب الجوامع الفكرية ، وكتاب الفلسفة الأولى .

وله أخبار حسنة ، ونوادر فى البخل وغيره ، فمن أخباره ما حكى أنَّه كان حاضراً عند أحمد بن المعتصم ، وقد دخل أبو تمام ، فأنشده قصيدته السّينيّة ، فلما بلغ إلى قوله :

إقْدَامُ عَمْرٍو فِى سَمَاحَةِ حَاتمٍ فِى حِلْمِ أَحْنَفَ فِى ذَكَاءِ إيَاسِ[4]

---

(١) ت : « قدح دواء » .
(٢) ت : « دفع » .
(٣) ت ، د : « فأثبتها » .
(٤) ديوانه ٢ : ٢٤٩

قال الـكندىّ : ما صنعتَ شيئاً ! قال : كيف ؟ قال : ما زِدْتَ على أن شبَّهت ابْنَ أمير المؤمنين بصعاليك العرب ! وأيضا إنّ شعراء دهرنا تجاوزوا بالممدوح مَنْ كان قبله ،ألا ترى إلى قول العَـكَوَّك فى أبى دُلَفٍ ، حيث قال :

رَجُلٌ أبرَّ عَلَى شَجاعَةِ عامِرٍ بَأْسـاً وغبَّر فى مُحَيَّا حَاتِمِ

فأطرق أبو تمّام ، ثم أنشد :

لاَ تُنْـكِرُوا ضَرْبى لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُوداً فِى النَّدَى والْباسِ

فاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقَلَّ لِنُورِهِ مَثَلاً مِن المشـكاةِ والنِّبراسِ

ولم يكن هذا فى القصيدة ، فتعجّب منه [ومن بديهته][1]، ثم طلب أن أن تـكون الجائزة ولاية عمل، فاستُصغرعن ذلك ، فقال الـكندىُّ : ولّوه ، فإنّه قصير العمر ، لأنّ ذهنه ينحتُ من قلبه ؛ فـكان كما قال ، ولعلَّ الـكندىّ رأى من سجيّة أبى تمام فى ذلك الوقت ما يدلّ على قرب أجله .

وسمع الـكندىّ إنساناً ينشد ، و يقول :

وفى أربعٍ منّى حَلَتْ منك أربَعٌ فما أنا أدرى أيّهَا هاج لى كَرْبِى

خَيَالُكَ فِى عَيْنِى ، أمِ الذِّكْرُ فِى فَمِى أمِ النُّطقِ فى سمعى،أم الحبّ فى قلبى

فقال : والله لقد قسّمها تقسيماً فلسفيًّا .

وقال يوما لجارية كان يهواها : إنّى أرى فرط الاعتياضات، من المتوقّمات ، على طالبى المودّات ، مؤذنات بعدم المعقولات ؛ فنظرت إليه ــ وكان ذا لحية طو يلة ــ فقالت: إنَّ اللّحى المسترخيات ، على صدور أهل الرّكاكات ، محتاجات إلى المواسى الحالقات .

---

(١) من ت .

ومن نوادره وكلامه فى البخل ، كان يقول : من شرف البخل أنك تقول للسائل : لا ، ورأسك إلى فوق ، ومن ذلّ العطاء أنك تقول : نعم ، ورأسك[١] إلى أسفل .

وكان يقول : سماع الغناء بِرْسام[٢] حادّ ؛ لأنّ الإنسان يسمع فيطرب ، فينفق فيسرف ، فيفتقر فيغتمّ ، فيعتلّ فيموت .

وقال عمر بن ميمون : تغدّيت يوما عند الكندىّ ، فدخل جار له ، فدعوته إلى الطعام ، فقال الرّجل : والله تغدّيت ، فقال الكندىّ : ما بعد الله شىء ! فكتفه كتافا لو نشط ليأكل معه لكان كافراً .

ومن وصيّته لولده : يابنىّ ، كن مع الناس كلاعب الشِّطْرنج تحفظ شيئك وتأخذ من شيئهم ، فإنّ مالك إذا خرج عن يديك لم يَعُد[٣] إليك ؛ واعلم أن الدّينار محموم ، فإذا صرفته مات . واعلم أنّه ليس شىء أسرعُ فناء من الدّينار إذا كُسِر ، والقرطاس إذا نُشِر ؛ ومَثَل الدرهم كمثل الطّير الذى هو لك مادام فى يدك ، فإذا طار عنك صار لغيرك . وقال المتلمّس :

قَلِيلُ المالِ تُصْلِحُه فيبقَى ... ولاَ يَبْقَى الكثيرُ مع الفسادِ[٤]

لحفظ المال خيرٌ من نفادٍ ... وسيرٍ فى البلاد بغير زادِ

وأعرف هنا بيتاً بيّت أكثر من مائة ألف فى المساجد . وهو قول القائل :

فسرْ فى بلاد الله والتمس الغنى ... تعِشْ ذا يسار أو تموت فتعذَرا

فاحذر يا بنىّ أن تلحق بهم .

* * *

---

(١) ط : « وأنت رأسك » .

(٢) البرسام : علة يهذى فيها المريض .

(٣) د : « ما يعود » .

(٤) الشعر والشعراء ١٣٦ .

ومن كلامه فى الفلسفة : علوم الفلسفة ثلاثة : فأولها العلم الرياضىّ فى التعليم ، وهو أوسطها فى الطَّبْع ، والثّانى علم الطبيعيات وهو أسفلُها فى الطّبع ، والثّالث علم الربوبيّة ، وهو أعلاها فى الطبع ؛ وإنما كانت العلوم ثلاثة لأنّ المعلومات ثلاثة : إمّا علم مايقع عليه الحسّ وهو ذوات الهَيُولى ، وإمّا علم ماليس لذى هَيُولى ، إما أن يكون لايتّصل بالهَيُولى البتّة ، وإما أن يكون قديتصل بها ، فأما ذاتُ الهيولى فهى المحسوسات وعلمها ، وهو العلم الطبيعى ، وإما أن يتّصل بالهَيُولى فإن له انفرادًا بذاته ، كعلم الرياضيّات التى هى العدد ، والهندسة ، والتنجيم ، والتأليف ، وإمّا لا يتصل بالهيولى البتّة ، وهو علم الرُّبوبية .

ومن شعره فى وصف قَصيدة :

تَقْصّرُ عَنْ مداها الريح جَرْياً ... وتعجِزُ عن مواقعها السِّهَامُ
تناهبَ حسنَها حادٍ وشادٍ ... فحُثَّ به المطايا والمُدامُ

ومنه له :

أناف الذُّنابَى على الأرؤُسِ ... فغمِّضْ جُفُونَكَ أو نَكِّسِ
وعند مليكك فابغ العلوّ ... وبالوَحْدة اليوم فاسْتأْنِسِ
فإن الغنى فى قلوب الرِّجالِ ... وإنّ التعــزُّزَ بالأنفسِ
وكائنْ تَرَى مِنْ أخى عُسْرَةٍ ... غَنِىٍّ وذى ثَرْوةٍ مُفْلِسِ
وكَمْ كائمٍ شخصُهُ مَيِّتٍ ... عَلَى أنّه بَعْدُ لَمْ يُرْمَسِ

وسمع رجلا ينشد قول ربيعة الرّقّىّ :

لو قيل للعبّاس يابنَ مُحَمَّدٍ ... قل « لا » وأنت مخلَّدٌ ما قالَها

فقال : ليس يجب أن يقول الإنسان فى كلّ شىء « نعم » ، وكان الوجه أن يستثنى ، ثم قال :

هَجَرْتُ فى القول «لا» إلا لعارضةٍ ... تكون أولى بـ«لا» فى اللَّفظ من نَعَمِ

٦١ــ وَأَنَّ صِناعَةَ الأَلْحانِ اخْتِراعُك، وَتأْلِيفَ الأَوْتارِ والأَنْقارِ
تَوْلِيدُكَ وَابْتِداعُكَ .

الألحانُ: الأصواتُ ذواتُ النَّغَم والإيقاع المؤلّف على أعدادٍ هندسيَّة. وزعمَ قومٌ أنّ الألحانَ هى موضوعة على أعاريض؛ وليس كذلك. (١وكان إسحاق الموصلىّ — وهو خاتَم القوم — يقول١): هذا قول من لم يَدْرِ هذه الصناعة.

واختلف فيمن وضعها، فقيل: بطليموس. وقيل: غيره. والصحيح أنها قديمة موجودة فى تعاليم الفلاسفة الأولى، وإنّما الأشهر(٢) أنّ بطليموس أوّل من أفرد لها كتاب «اللحون الثمانية»، ولها ألقاب [مختلفة](٣)، وأوضاع معروفة.

وكان بَطْليموس يقول: الألحان أشرف المنطق؛ ولذلك ترتاح إليها النّفوس أكثر من كلّ نطق، وأشرف النفوس ما كان إليها أكثرَ ارتياحا.

وقال غيره: النَّغَم فضْلٌ بِقِيَ من المنطق، لم يقدر اللسان على استخراجه(٤) فاستخرجتْه الطبيعة بالألحان؛ على التَّرْجيع لا على التّقطيع، فلمّا ظهر عشقته النفس، وحنّ إليه القلب.

وقال إفلاطون: مَنْ حزِن فليسمع الأصوات المطربة؛ فإنّ النّفس إذا حزنت خَمَدَ نورها، فإذا سمعت ما يطربها(٥)، اشتعل منها ما خَمَد.

وسئل أبوسليمان المنطقِىّ: لم صارت الطبيعة محتاجة إلى الصناعة فى أن الشخص يكون بغيض المنظَر والقرب، فإذا غنّى بألحان مطربة عشق قربه،

(١ــ١) كذا فى ت د، وفى ط، م: «فقال إسحاق الموصلى وهو خاتم القوم».
(٢) ط: «والأشهر». (٣) من ت.
(٤) كذا فى ت م، وفى ط: «إخراجه». (٥) ت، م: «من يطربها».

وأقبل الظّرف عليه ؟ فقال : إن الطبيعة إنّما احتاجت إلى الصناعة فى هذا المكان لأنّ الصناعة هاهنا تستملِي من النفس والعقل ، وتملِي على الطبيعه ، وقد صحّ أن الطبيعة مرتبتها دون مرتبة النفس، و إنّما تعشق النفس وتقبل آثارها ، وتكتب بإملائها . وللموسيقى حاصل للنفس موجود فيها على نوع لطيفٍ ؛ فالموسيقار إذا صادف طبيعةً قابلة ، ومادّة منقادةً ، أفرغ عليها بتأييد العقل والنفس لبوسا شريفا ، وأعطاها صورة معشوقة ؛ فمن هاهنا احتاجت الطبيعة إلى الصناعة ؛ [لأنها وصلت إلى كمالها من ناحية النفس الناطقة ، بواسطة الصناعة] [١] الحاذقة ، التى من شأنها استملاء ما ليس لها ، و إملاء ما يحصل فيها مستكملا ؛ استكمالا بما تأخذ لما تعطِى .

فأمّا الأوتار والأنقار فإشارة إلى الآلات المطربة الملهية من العيدان والدِّفَفَة وما أشبه ذلك .

ويقال : إنّ أوّل من اتّخذ العود لَمَك بن مَتُّو شلح ، على مثال فخذ ابنه الميت ، وهو قول منكَر [٢] .

وقيل : بطلميوس . وقيل : بعض حكماء الفرس ، وسماه البَرْبَط ، وتفسيره باب النّجاة ؛ ومعناه أنه مأخوذ من صرير باب الجنّة ، وقد جعلت أوتاره أربعة بإزاء الطبائع ؛ فالزّير بإزاء المِرّة السّوداء ، والمثْنَى بإزاء الدم ، والمثلّث بإزاء البلغم ، والبمّ بإزاء المِرّة الصفراء . فإذا اعتدلَتْ [٣] أوتاره المرتّبة [٤] على ما يجب جانست الطبائع ، فأنتجت الطرب ، وهو رجوع النّفس إلى الحالة الطبيعيّة دَفعةً واحدة .

وأوّل من اتّخذ الدِّفَفة لوبا بن لَمَك ، واتّخذت العرب القصب والتّوقيع

(١) تكملة من ت .
(٢) ط : « ضعيف » .
(٣) ط : « أحكمت » .
(٤) ط : « المركبة » .

عليها ، واتَّخذت الفرس الصُّنُوج وأشباهها ؛ وكلٌّ ذلك موضوع على نَقَرات معدودة ، ووقَفات بينها .

وأوَّل من غنّى من العرب على العُود بألحان الفرس النَّضْر بن الحارث ابن كَلَدة ، وفَد على كسرى بالحِيرة ، فتعلّم ضرْب العود والغناء ، وقدِم مكّة ، فعلّم أهلها .

وأوّل من غنّى فى الإسلام بألحان الفُرس سعيد بن مِسْجح ، وقيل : طُوَيس ؛ وذلك أنّ عبد الله بن الزُّبير لما وَهى بناء الكعبة رفعها ، وجدّد بناءها ، وكان فيها صنّاع من الفُرْس يغنّون بألحانهم ، فوقّع عليها ابن مسجح الغناء العربىّ ، ثم دخل إلى الشّام ، فأخذ الألحان عن الرُّوم ، ثم دخل إلى فارس ، فأخذ الغِناء وضرب العود ، واتّبعه مَن بعده ؛ وبدئ هذا العلم ببطلميوس ، وختم بإسحاق بن إبراهيم الموصِلىّ .

* * *

٦٢ — وَأَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنَ يَحْيَىٰ بارِى أَقْلَامِكَ .

[عبد الحميد الكاتب]

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرىّ (١الكاتب البليغ المقدم١) ، يقال : إنه كان فى أوّل أمره معلم صبيان بالكوفة ، ثم اتَّصل بمرْوان بن الجعدىّ[٢] قبل أن يصل إلى الخلافة ، وصحبه وانقطع إليه ، فلما جاء مروانَ الخبرُ بالخلافة[٣] سجد وسجد أصحابُه إلّا عبد الحميد ، فقال له مرْوان : لمَ لا سجدت !

(١-١) ط : « البالغ إلى أعلى المراتب فى الكتابة البليغة » .

(٢) فى ابن خلكان : « مروان بن محمد بن الحكم الأمدى آخر ملوك بنى أمية المعروف بالجعدى » .

(٣) ط : « فلما جاء الأمر بالخلافة » . د : « فلما جاء الخبر بالخلافة »

فقال : ولِمَ أسجد ؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنّا ! يعنى بالخلافة ، فقال : إذاً تطير معى ؛ قال : الآن طاب السُّجود ، وسجَد . وكان كاتبَ مرْوان طول خلافته .

وهو أوّل من اتَّخذ التحميدات فى فصول الكتب ، واستعمل فى بعض كتبه الإيجاز البليغ ، وفى بعضها الإسهاب المفرِط ، على ما اقتضاه الحال .

فمن الإيجاز أنّ بعض عمّال مَرْوان أهدى إليه عبدًا أسود ، فأمره بالإجابة ذا مًّا مختصرا ، فكتب : لو وجدتَ لوناً شرًّا من السَّواد ، وعدداً أقلّ من الواحد ، لأهديتَه .

وأما الإسهاب ، فإنّه لما ظهر أبو مسلم الخراسانىّ بدعوة العباس ، كتب إليه عن مرْوان كتاباً يستميله ويضمّنه ما لو قرئ لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبى مسلِم ؛ وكان مَن كبَر حجْمه يُحمَل على جمل ، ثم قال لمرْوان : قد كتبتُ كتاباً متى قرأه بطل تدبيرهُ ، فإن يك ذلك ؛ وإلاّ فالهلاك .

فلمّا ورد الكتابُ على أبى مسلم لم يقرأْه ، وأمر بنارٍ فأحرقه ، وكتب على جريدة[1] منه إلى مَرْوان :

محا السّيفُ أسطارَ البلاغةِ وانتَحَى　　　عليكَ ليوثُ الغابِ من كُلِّ جانِبِ

ولما اشتدّ الطّلب على مَرْوان ، وتتابعت هزائمُهُ المشهورة ، قال لعبد الحميد : القوم محتاجُون إليك لأدَبك ، وإنّ إعجابَهم بك يدعُوهم إلى حُسْن الظّنّ بك ، فاستأمِن إليهم ، وأظهر الغدْرَ بى ، فلعلّك تنفعنى فى حياتى أو بعد مماتى ! فقال عبد الحميد :

أسِرٌّ وفاءٌ ثُمّ أظهرُ غَدْرَةً　　　فمَنْ لِى بِعذْرٍ يوسِعُ النَّاسَ ظَاهِرُهْ !

---

(١) د ، ط : « جزازة » .

ثم قال : ياأمير المؤمنين ، إنّ الذى أمرتَنِي به أنفعُ الأمرين إليك ، وأقبحُهما بى ؛ ولكنىّ أصبر حتىّ يفتح الله عليك أو أقتلَ معك ، فلما قتِل مروان استخفى عبدُ الحميد ، فغمز عليه بالجزيرة عند ابن المقفّع ـ وكان صديقَه ـ وفاجأهما الطَّلب وهما فى بيت ، فقال الذين دخلوا [البيت][1] : أيّكما عبد الحميد ؟ فقال كلّ واحد منهما : أنا ، خوفًا على صاحبه ؛ إلى أن عُرِف عبد الحميد فأخِذ ، وسلّمه السّفّاح إلى عبد الجبّار صاحب شُرْطته ، فكان يُحمِى له طَسْتًا ؛ ويضعه على رأسه ، إلى أن مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وكان أبو جعفر المنصور يقول : غلبَنا بنو أميّة بثلاثة أشياء : بالحجّاج ، وعبد الحميد ، والمؤذن البعلبكىّ .

وقيل لعبد الحميد : ما الّذى مكّنك من البلاغة ؟ قال : حفظ كلام الأصلع ـ يعنى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه.

قيل له : أيّما أحبّ إليك ، أخوك أم صديقك ؟ قال : إنّما أحبّ أخى إذا كان صديقى .

وقال : أكرموا الكتّاب فإنّ الله تعالى أجرى الأرزاق على أيديهم .

وقال : العلْم شجرة ، وثمارها الألفاظ .

وكان إبراهيم بن جَبَلة يكتب خطًّا رديئا ، فقال عبد الحميد : أطِل جِلْفة[2] قلمك وأسْمِنْها ، وحَرّف قَطّتك وأيْمِنها ، يصلح خَطُّكَ . وإلى هذا أشار ابنُ زيدون بقوله : « وعبد الحميد بارِى أقلامك » .

ومن رسائله ما كتب عن مَروان إلى هشام يعزّيه بامرأة من حظاياه :

إن الله تعالى أمْتع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته متاعا مدّه إلى أجل

(١) من ت .

(٢) الجلفة : القشرة .

مسمًّى ، فلمّا تمت له مواهبُ الله وعاريته ، قبض إليه العارية ، ثم أعطى أمير المؤمنين من الشكر عند بقائِها ، والصّبر عند ذهابها أنفسَ منها فى المنقلَب ، وأرجح فى الميزان ، وأسْنَى فى العِوَض . فالحمد لله رب العالمين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون !

وكتب موصّيًا بشخص ، يقول : حقّ موصِّل كتابى إليك كحقّه علىّ ، إذ جعلك موضعاً لأملِه ، ورآنِى أهلاً لحاجته ، وقد أنجزتُ حاجتَه ، فصدّق أملَه .

وكتب يعرّض بشعار بنى العباس الأسود من رسالة : فرويدًا حتى ينضب السَّيل ، وتُمحْى آية الليل[١] .

وكتب فى فتنة بعض العمّال من رسالة :

حتى اعترانى حنادِسُ جَهالة ، ومهاوى سُبُل ضلالة ، ذلّلاَ لسياقِه ، وسلّمانى قياده، إلى نُزُل من حَمِيمٍ ، وتَصلية جحيم، سوى ما أنتجت الحفيظة فى نفسه من عوائد الحسَك[٢] ، وقدحت الفتنة فى قلبِه من نار الغَضب ؛ مضادّةً لله تعالى بالمناصبة ، ومبارزةً لأمير المؤمنين بالمحاربة ، ومجاهدة المسلمين بالمخالفة ؛ إلى أن أصبح بفلاة قَفْر ، وتيهٍ صِفْر ، بعيدة المناطِ ، يُقطع دونها النّياط ، وكذلك يفعل الله بالظّالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون[٣] .

وكتب من رسالة أخرى إلى أهله ، وهو منهزم مع مروان :

أمّا بعد ، فإنّ الله تعالى جعل الدّنيا محفوفة بالكُرْه[٤] ، والسرور ، فمن

---

(١) أوردها محمد كرد على فى أمراء البيان ١ : ٥٧ ، قال : ومن رسالة كتب بها عن مروان لفرق العرب حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد ، قائمين بالدولة العباسية : « فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية ، من يد الفئة الأعجمية ، واثبتوا ريثما تنجلى هذه الغمرة ، وتصحو من هذه السكرة ، فسينضب السيل ، وتمحى آية الليل ، والله مع الصابرين ، والعافية للمتقين » .

(٢) الحفيظة : الغضب . والحسك : الحقد والعداوة . وعوائد : رواجع .

(٣) هذه الرسالة لم ترد فى ت .

(٤) ت : « المكروه » .

ساعده الحظّ فيها سكَن إليها ، ومَنْ عَضّتْه بنابها ذمّها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيدًا لها ، وقد كانت أذاقتْنا أفاويقَ[١] استحلَيناها ، ثم جمحت بنا نافرةً ، ورمحتنا[٢] مولّية ، فملَحَ عذبُها ، وخشن ليّنُها ، فأبعدتْنَا عن الأوطان ، وفرّقتنا عن الإخوان ، فالدّار نازحة ، والطّير بارحة[٣] . وقد كتبتُ والأيّام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وَجْداً ، فإن تتمّ البلية إلى أقصى مدّتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظُفْرُ جارح من أظفار مَنْ يليكم[٤] ، نرجع إليكم بذلّ الإسار ، والذّل شرّ جار . نسأل الله الّذى يعزّ مَن يشاء ، ويذلّ مَن يشاء ، أن يهب لنا ولكم ألفةً جامعة ، فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأدْيان ، فإنّه ربّ العالمين ، وأرحم الراحمين .

ومن كلام عبد الحميد وصيّتُه المشهورة عند الكتّاب .

ومن شعره رحمه الله :

ترحّل ماليس بالقافلِ ... وأعقب ما لَيْس بالزّائلِ
فلَهفى لذى خلفٍ قادمٍ ... ولَهفى على سلفٍ راحلِ !
سأبكى على ذَا وأبكى لذَا ... بكاء مولَهةٍ ثاكِلِ
فتبكى من ابنٍ لها قاطعٍ ... وتبكى على ابنٍ لها وَاصِلِ

ومنه أيضاً :

كفى حَزنًا أنى أرَى مَنْ أحبُّه ... قريباً ولا غير العيون تترجمُ
فأقسم لو أبصرْتَنا حين نلتقِى ... ونحن سكوتٌ خِلْتَنَا نتكلَّمُ

* * *

(١) الأفاويق : ما اجتمع فى السحاب من ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعة .

(٢) رمحتنا : رفستنا .

(٣) البارح من الطير : مامر من ميامنك إلى مياسرك ؛ وهو مما يتشاءم منه .

(٤) ت : « ممن يليكم » .

٦٣ — وَسَهْلَ بْنَ هَارونَ مُدَوّن كَلاَمِكَ .

[سَهْل بن هَارون]

هو سهل بن هارون بن راهبون[١] ، ويكنَى أبا عمرو ، من أهل نَيْسابور . نزل البَصْرة فنسِب إليها ، ويقال : إنّه كان شُعُوبيًّا ، والشُّعوبيّة فرقة تبغض العرب وتتعصّب عليها للفرس .

وانفرد سهل فى زمانه بالبلاغة والحكمة ، وصنّف الكتب [الحسنة][٢] ، معارضاً بها كتب الأوائل ، حتى قيل له : بُزُرْجُمِهر الإسلام ، وله اليد الطُّولَى فى النَّظم والنَّثْر .

وكان فى أول أمره خصيصاً بالفَضْل بن سَهْل ، ثم قدّمه إلى المأمون فأعجِب ببلاغته وعَقْله ، وجعله كاتباً على خِزانة الحكمة ، وهى كتب الفَلاسفة الّتى نقِلت للمأمون من جزيرة قُبْرس ؛ وذلك أنّ المأمون لما هادن صاحبَ هذه الجزيرة ، أرسل إليه يطلب خِزانة كتب اليُونان ، وكانتْ مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليها أحدٌ أبداً ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانَتَه وذَوِى الرّأى ، واستشارهم فى حمل الخِزانة إلى المأمون ، فكلّهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطراناً واحداً ، فإنّه قال : الرّأى أن تعجّل بإنفاذها إليه ؛ فما دخلت هذه العلوم العقليّة على دولة شرعيّة إلا أفسدتْها ، وأوقعت بين علمائها . فأرسلها إليه ، واغتبط بها المأمون [وأمر العلماء بتعريبها][٢] ، وجعل سهل بن هارون خازنا لها ، فتصفّحها ونسج على منوال كتب منها . وصنف كتاب «عفراء وثعلة» فى معارضة كتاب « كليلة ودمنة » ، [وكتاب « سيرة المأمون » ، وغير ذلك][٢] .

---

(١) ت : « راهون » .   (٢) من ت .

وصنّف كتاباً فى مدح البخل ، ثم أهداه للحسن بن سهل واستماحه ، فكتب إليه الحسن : قد مدَحتَ ما ذمّه الله ، وحسّنت ما قبّحه الله ، وما يقوم بفساد معناكَ صلاحُ لفظِك ؛ وقد جعلنا ثواب مدحك فيه قبولَ قولك ، فما نعطيك شيئاً .

وكان سهلٌ من أبخل الناس ، وله فى البخل وغيره نوادر حسنة ؛ حكى الجاحظ قال : لقىَ رجلٌ سهلَ بن هارون ، فقال : هبْ لى مالا ضررَ به عليك ، فقال : وما هو يا أخى ؟ قال : درهم ، قال : لقد هوّنتَ الدرهم ، وهو طائع الله فى أرضه [الذى][1] لا يَعصِى ، وهو عُشْر العشرة ، والعشرة عُشْر المائة ، والمائة عُشْر الألْف ، والألف عُشْر دِية المسلم ؛ ألاَ ترى إلى أين انتهى الدرهم الذى هوّنتَه ! وهل بيوتُ الأموال إلا درهم على درهم ! فانصرف الرجل ، ولولا انصرافه لم يسكت .

وحكى دِعبل الخزاعىّ ، قال : أقمنا يوماً عند سَهْلِ بن هارون ، وأطلْنَا الحديث حتى أضَرّبه الجوع ، فدعا بغدَائه ، فأُتِىَ بصحفة فيها مَرَق ، تحته ديك هَرِم ، فأخذ كِسْرة وتفقّد مافى الصَّحْفة ، فلم يجد رأسَ الديك ، فبقى مطرِقا ، ثم قال للغلام : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ، قال : ولِمَ ؟ قال : لم أظنّك تأكله ، قال : ولم ظننتَ ذلك ؟ فوالله إنى لأمقت مَنْ يرمى برجله ، فكيف برأسه ! والرّأس رئيس يتفاءل به ، وفيه الحواسّ الخمس ، ومنه يَصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فَرْقه الذى يُتبرّك به ، وعينُه التى يضرب بصفائها المثل ، ودماغه عجيب لوجع الكلية ، ولم أر عَظْماً قطّ أهشّ من رأسه ؛ فإن كان بلغ من قِبَلك ألاّ تأكله ، فعندنا من يأكله . أمَا علمتَ أنه خيرٌ من طرف

(١) من ت .

الجناح والسّاق ! انظر أين رميتَه ؟ فقال : والله ما أدرى ، قال : لـكنى أدرى أنك رميتَه فى بطنِك .

وحكى الجاحظ ، أن أبا الهُذيل العلاّف المتـكلّم سأله رُقعة يكتب بها إلى الحسَن سَهْل ، يستعينه على ضائقةٍ لحقتْه ، فـكتب رُقعةً وختَمها ، ودفَعها إليه ، فأوصلَها إلى الحسَن ، فلمّا رآها ضحك ، وأوقف عليها أبا الهذيل ، وإذا فيها مكتوب :

إنّ الضميرَ إذا سألْتُكَ حاجةً   لأبى الهذيل خلافُ ما أبدِى
فامنْحه رُوحَ اليأس ثم امْدُدْ له   حَبْل الرّجاء المخلف الوَعْدِ
حتى إذا طالت شقاوة جَدِّه   وعنـــائِه فاجْبَهْه بالرَّدِّ
وإن استطعتَ له المضرّة فاجتهدْ   فيما يضرّ بأبلغ الجهـــدِ
وانظُر كلامى فيه فارْمِ بهِ   خَلف الثريّا مِنْك فى الْبُعْدِ(١)
وكـذاكَ فَافْعَلْ غَيْر محتَشِمٍ   إن جئت أشفع فى أبى هنْد

ثم قال الحسن : هذه صفتهُ لا صفتنا ؛ وأمر لأبى الهذيل بمالٍ ، فعاد إليه وعاتبَه ؛ فقال سهل : ترى أين عَزَب عنك الفهم ! أما سمعت قولى: « إن الضمير خلاف ما أبدى » ! فلو لم يكن ضميرى الخير ما قلت هذا .

وهذه من مغالطات سهل وبلاغته ، وستأتى فى ترجمة الجاحظ حكاية مثل هذه .

ومن محاسن تعريضات سَهْل ، أنه خاطب بعض الأمراء ، فقال له : كذبتَ ! فقال : أيُّها الأمير ، إنّ وَجْه الـكذّاب لا يقابلك ـ يعنى الأمير يذلك ؛ لأنّ وَجْه الإنسان لا يقابله .

---

(١) هذا البيت وتاليه لم يذكر فى ط .

ويُرْوَى أنّ المأمون كان قد انحرفَ عن سهل إلى أن دخل عليه يوماً فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّك ظلمتَنى ، وظلمت فلاناً الكاتب ، فقال : وَيْلك ! وكيف ؟ قال : رفعتَه فوق قدره ، ووضعتَنِي دون قدري ، إلاّ أنك له فى ذلك أشدّ ظلما ، قال : كيف ؟ قال : لأنك أقمتَه مقام هُزء ، وأقمتَنى مقام رحمة . فضحك المأمون ، وقال : قاتلك الله ! ما أجهاك ! ورضى عنه .

وقد رويت هذه الحكاية لغيره .

وحُكِيَ عن سبب رضا المأمون عنه أنه تكلّم بكلام حسن فى محفِل ، فقام سهل ، وقال : ما لكم تسمعون ولا تعون ولا تعجبون ! أما والله إنّه ليقول ويفعل فى اليوم القصير مثل ما قالت وفعلت بنو مَرْوان فى الدّهر الطويل ؛ فأعجب المأمون قولُه ورضى عنه .

ومن كلامه يعزّى : التهنئة على آجل الثواب ، أولى من التعزية على عاجل المصاب[1] .

وقال فى المعنى : مصيبة فى غيركَ لك ثوابُها ، خير من مصيبة فيك لغيرك ثوابُها .

وقال : حقٌّ على كلّ ذى مقالة أن يبدأ بحمد الله قبل استفتاحها ، كما بُدِئَ بالنعمة قَبل استحقاقها .

وكتب إلى صديق له أبلّ من ضَعْف : بلغنى خبر الفَتْرة[2] فى إلمامها وانحسارها ، والشَّكاة فى حُلولها وارتحالها ، فكاد يشغل القَلق بأوّله عن السكون لآخره ، وتُذهل الحيْرة فى ابتدائه عن المسرّة فى انتهائه ، وكان تغيّرى فى الحالين بقدرها ، ارتياعا للأُولى وارتياحًا للأُخرى .

---

(١) ط : « المصيبة » .   (٢) الفترة : الضعف .

وكتب لآخر : أما بعد ، فالسّلام على عهدك ، وداع ذى وُدّ ضنين بكَ فى غير مقلية لك[١] ، ولا سلوةٍ عنك ، بل استسلام للبلوى فى أمرك ، و إقرار بالعجز عن استعطافك إلى أوان فيئتك ، أو يجعل الله لنا دولة من رجعتك[٢] .

وقال يفضّل الزجاج على الذهب ، من رسالة : الزّجاج مجلوّ نورىّ ، والذّهب متاعٌ سائر ، والشّراب فى الزّجاج أحسن منه فى كلّ معدن ، ولا يُفقد معه وجه النّديم ، ولا يثقُل فى اليدِ[٣] ، ولا يرتفع فى السّوْم[٤] ؛ واسم الذهب يُتطيَّر منه ؛ ومن لؤمه سرعته إلى اللئام ، وهو فاتن فاتك[٥] لمن صانه ، وهو أيضاً من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا : أهلك الرجال الأحمران[٦] . والزجاج لا يحمل الوضَر[٧] ولا يتداخله الغَمَر ، ومتى غسل بالماء وحده عاد جديداً ؛ وهو أشبه شىء بالماء ، وصفته عجيبة ، وصناعته أعجب . . .

من رسالة طويلة . وكان سبب قوله لها أن شَدّاداً الحارثىّ كان قد وصف الذهب فأطنب ، وكان النظّام قد ذمّ الزّجاج ، وقال : تعلّموا العلم فلأَن يُذمّ الزمان لكم خير من أن يذمّ بكم .

قال يوما : ثلاثة من المجانين : الغَضْبان ، والغَيْران ، والسّكران ، فقال شخص من العوامّ : فما تقول فى المنعِظ ؟ فضحك حتى استلقى وأنشد يقول :

وَمَا شَرُّ الثّلاثة أُمَّ عمرٍو بصاحِبِكِ الذِى لا تصحبينا[٨]

---

(١) مقلية : كراهية .

(٢) ط : « رمقك » ، أى نظرك .

(٣) ط : « ولا يثقل اليد » .

(٤) السوم فى المبايعة : المساومة .

(٥) انظر جمهرة الرسائل ٣ : ٤٧٢ .

(٦) فى اللسان : « أهلك النساء الأحمران ، أى الذهب والزعفران ، أى أهلكهن الحلى والطيب » .

(٧) الوضر : وسخ الدسم .

(٨) لعمرو بن كلثوم ، من معلقته ص . . . بشرح التبريزى .

ومن كلامه فى كتاب « عفراء وثعلة » : اجعلوا أداءَ ما يجب عليكم من الحقوق مقدّما قبل الذى تجودون به من تفضّلكم ؛ فإنّ تقديم النافلة مع الإبطاء فى أداء الفريضة شاهدٌ على وهَن العقيدة وتقصير الرويّة ، ومضرٌّ بالتّدبير ، ومخلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفعٍ تحمدُ به عوضٌ من فساد المروءة ، ولزوم النقيصة .

ومن شعره قوله :

إنْ كنتُ أخطأت أو أسأت فَفِي ... عفوكَ مأوَى للفضْل والمِنَنِ
أتيتُ ما أستحقّ من خطأٍ ... فَجُدْ بما تستحقّ مِنْ حَسَنِ

ومنه :

أعَانَ طَرْفِى عَلَى جِسْمِى وأعضائِى ... بنظرةٍ وقفتْ جِسْمِى عَلَى دائِى
وكنتُ غِرًّا بما تجنى علىّ يَدِى ... لا علمَ لِى أنّ بعضِى بعضُ أعدائى

وقوله :

هدًى لا يستريح ولا يريحُ ... وقلبٌ من جوائحه مريحُ[(١)]
فإن يَكُ سَرّ قلباً أعجميًّا ... فإنّ الدمع لمّامٌ فَضُوحُ
سأجمح فى الهوى وألحّ فيه ... وليس أخو الهوى إلا الجموحُ
على أن الهوى لم يُبْقِ منّى ... سِوَى كَبِدٍ عَلَى بَدَنٍ يَنُوحُ

وقوله يهجو رجلا :

مَنْ كان يَعْمُر ما شادت أوائله ... فأنت تهدِم ما شادُوا وما سَمكُوا
ما كانَ فى الحقّ أن تأبى فعالَهُمُ ... وأنت تحوى من الميراث مَا تَرَكُوا

وقوله :

---

(١) هى الأبيات لم ترد فى ط .

تكنّفني همّانِ قد كسفا بالي ... وقد تركا قلبي محلة بَلبالِ
همَا أجريا دمعي ولم تدرِ أدمعي ... ربيبة خِدرٍ ذات سِمطٍ وخلخالِ
ولكنّما أبكي بعَينٍ سخينةٍ ... على خلَلٍ تبكي له عينُ أمثالي
فراقُ خليلٍ فقده يُورثُ الأسَى ... وخَلّةُ حُرٍّ لا يقومُ لهَا بالي
فوَاحَربَا حتّى متى أنا موجَعٌ ... بفقد حبيبٍ أو تعذّر أفعالِ ![1]

وقوله :

إذا امرؤٌ ضاق عنى لم يَضِقْ خُلقي ... مِنْ أن يَرانِي غنيًّا عنه باليَاسِ
لا أطلبُ المالَ كيْ أغنَى بفَضْلَتِه ... ما كانَ مطلبُه فقراً إلَى النّاسِ

* * *

٦٤ — وَعَمْرو بْنُ بَحْرٍ مُسْتَمْلِيكَ .

[الجاحظ]

هو عمرو بن بحر بن محبوب ؛ ويكنى بأبى عثمان ، ويعرَف بالجاحظ ، وبالحدقىّ[2] ، والأوّل أشهر . إمام الفصحاء والمتكلّمين ؛ الذى ملأت الآفاقَ أخبارُه وفوائده ، حتى قيل : مما فضّل الله تعالى به أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم على غيرها من الأمم : عمر بن الخطاب بسياسته ، والحسن البصرىّ بعلمه ، والجاحظ ببيانه .

ولد بالبَصْرة ، ونشأ ببغْداد ، واشتغلَ على أبى إسحاق النظّام المقدّم ذكره

---

(١) بعده فى أمراء البيان ١ : ١٦٤ :

وَمَا العَيْشُ إلاّ أن تَطُولَ بنائلٍ ... وإلاّ لِقاء الأخ بالخلُق العالى

(٢) الحدقى ، منسوب إلى حدقة العين .

بمذهب الاعتزال ، وتأمّل كتبَ الفلاسفة ، ومال إلى الطبيعيّين منهم ، وسادَ على المتكلّمين بفصاحته ، وحُسْن عبارته .

ومما تفرّد به القول بأنّ المعرفة طبائع(١) ، وهى مع ذلك فعل العِباد على الحقيقة .

وكان يقول فى سائر الأفعال : إنّها إنّما تنسَب إلى العباد على أنّها وقعت منهم طباعاً ، وأنّها وجبتْ بإرادتهم ، وليس بجائز أن يبلغ أحدٌ ولا يعرف الله تعالى .

والكفّار عنده بين معاندٍ ، وبين عارفٍ قد استغرقه حبّه لمذهبه وعصبيّته ، فهو لا يشعر بما عنده من المعرفة بخلافه .

إلى غير ذلك من آرائه التى تَبِعه عليها أصحابُه المعروفون بالجاحظيّة .

فأمّا مصنفاته الأدبيّة ، مثل كتاب «البيان والتبيين» ، وكتاب «الحيوان» ، وكتاب «الأمصار» ، وغيرها من الرسائل ، فكثيرة جدًّا ، مشحونة بأنواع الفضائل .

وكان منقطعاً إلى الوزير محمّد بن عبد الملك بن الزيات [منحرفاً عن ابن أبى دوَاد](٢) . ولما قبض عليه وعوقب فى التنور ، هرب الجاحظ ، فقيل له : لم هربت ؟ قال : خفت أن أكون ثانىَ اثنين إذْ هُماَ فى التَّنُّور ـ يريد بذلك ما صنعوا بابن الزيّات ، من إدخاله تَنُّورًا فيه مسامير محمّاة ، كان هو صنَعَه ليعذّب الناس فيه ، فعذّب به حتى مات ـ ثم أُتِىَ بالجاحظ بعد موت ابن الزيّات ، وفى عُنُقه سِلسلة ، وهو مقَيّد فى قميص سَمَل ، فلمّا نظر إليه ابن أبى دُواد قال : واللهِ ما علمتك إلا كَفُوراً للنّعمة ، معدِناً للمساوى . . . فى كلام يُقرّعه به ؛ فقال الجاحظ : خَفِّض عليك أيّدك الله ! فوالله لأنْ يكون لك الأمر علىّ خيرٌ

---

(١) ت : « طباع » .

(٢) من ت .

من أن يكون لى عليك ، ولأنْ أسيء فتحسِن أحسنُ فى الأحدوثة عنك من أن أحسِن فتسيء ، ولأنْ تعفُوَ عَنّى فى حالِ قدرتك ، أجملُ بك من الانتقام منّى . فقال ابن أبى دُوَاد : قبّحك الله ! فوالله ما علمتك إلّا كثير تزويق اللسان ؛ يا غلام ، سرْ به إلى الحمّام ، فأدخل الحمام ، وحمل إليه تختٌ من ثياب فاخرة ، ولبس ذلك ، وأتاه فصدّره فى مجلسه ، ثم أقبل عليه فقال : هاتِ الآن أحاديثك يا أبا عثمان !

ولم يزلْ عزيزَ الجانب ، موفور المال والجاه ، من مبتدأ أمره إلى أن مات سنة خمس وخمسين ومائتين ، وبعد أن بلغ أكثر من تسعين سنة .

وله أخبار ظريفة كثيرة ، ونثر طائل ، ونظم ضعيف . فمن أخباره ونوادره ، قال : أتيتُ منزل صديقٍ لى ، فطرقت الباب ، فخرجتْ إلىّ جارية سِنْديَّة ، فقلت : قولى لسيّدك : الجاحظ بالباب ، فقالت : أقول : « الجاحد بالباب » ؟ على لغتها ، فقلت : لا ، قولى : الحَدَقِىّ ، فقالت أقول : « الحَاقِىّ » ؟ فقلت : لا تقولى شيئاً ، ورجعت .

وقال : ما أخجلنى أحدٌ مثل امرأتيْن ، رأيتُ إحداهما فى العسكر[(1)] وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردتُ أن أمازحها فقلت : انزلى كلى معنا ، فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا . وأمّا الأخرى فإنّها أتتنى وأنا على باب دارى ، فقالت : لى إليك حاجة ، وأريد أن تمشىَ معى ، فقمتُ معها إلى أن أتتْ بى إلى صائغ يهودىّ ، فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت ! فسألتُ الصائغَ عن قولها فقال : إنّها أتت إلىَّ بفصّ ، وأمرتْنى أن أنقش لها عليه صورة شيطان ، فقلت : ياستّى ، ماأيتُ الشّيطان ! فأتتْ بك ، [وقالت : ماسمعت][(2)] .

---

(١) العسكر : اسم مكان فى سامرا ؛ كان مصيفاً للخلفاء العباسيين .
(٢) من ط .

وكان الجاحظ بَشِع المنظر ، إلاّ أن بيانَه كان يجلىّ عنه . وقال : دخلت ديوان المكاتبات ببغداد ، فرأيت قوماً قد صقلوا ثيابهم ، وصفّوا عمائمهم ، وسوّوا طرَرهم [١] ، ثم اختبرتهم فوجدتهم كما قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ [٢] ، ظواهر نظيفة ، و بواطن سخيفة : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [٣] .

وقال : وقفت يوما على قاصّ ، فأردت الولَع به ، فقلت لمن حوله : إنه رجل صالح لا يحب الشّهرة ، فتفرّقوا عنه ، فنظر إلىّ وقال : حسبك الله !

وقال : قلت يومًا لعبيد الكلابىّ : أيسرّك أن تكون هجيناً ولك ألف دينار ؟ قال : لا أحبّ اللُّؤْم بشىء ، قلت : فإنّ أمير المؤمنين ابنُ أَمَة ، قال : أخزى الله من أطاعه : قلت : نبيّا الله : محمد و إسماعيل كانا ابنىْ أَمَةٍ ، قال : لا يقول هذا إلا قَدَرِىّ ، قلت : وما القدَرىّ ؟ قال : لا أدرى إلا أنه رجل سوء .

وقال : أتانى بعض الثّقلاء ، فقال : سمعت أن لك ألف جواب مُسكِت ، فعلّمنى منها ، فقلت: [إنّها لا تُتَعلّم ، فإن الجوابَ على قدر الكلام ، فقال: على كلّ حال] [٤] فقلت : نعم ، فقال: إذا قال لى شخص : يازوج القَحْبة ، ياثقيل ، أيْش [٥] أقول له ؟ قلت : قل له : صدقت .

وقال : أنشدْت أبا شعيب القَلاَّل شعرا لأبي نواس ، وهو :

ودارِ نَدَامَى عَطَّلُوها وأدْلَجُوا ... بهَا أثرٌ منهمْ جديدٌ ودَارسُ
مساحِبُ من جَرِّ الزّقان على الثّرى ... وأضعاث ريحان : جنىٌّ و يابِسُ [٦]

---

(١) ط : « ووشوا طروزهم » .
(٢) سورة الرعد ١٧ (٣) سورة البقرة ٧٩ .
(٤) من ت. (٥) ط : « أى شىء ».
(٦) ديوانه ٢٩٥ ، أمالى المرتضى ١ : ١٩٨ ، الكامل - بشرح المرصفى ٧ : ٤ .

حَبَسْتُ بها صحْبِي فجدّدْتُ عَهْدَهُمْ وإنّى على أمثـال تلك لحابسُ
ولم أدْرِ منهُمْ غيرَ ماشهدتْ به بشرقيّ ساباط الدّيارُ البسابسُ[1]
أقمنا بها يومـاً ويومـاً وثالثـاً ويوماً له يَوْمُ الترحّل خامسُ
تُدَارُ عَلَينا الرّاحُ فى عَسْجَديّةٍ حَبَتْهَا بأنْواعِ التّصـاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارتُها كسرى وفى جَنَبَاتِهَا مَهاً تَدَّرِيهَا بِالْقِسِىّ الْفَوارِسُ[2]
فلِلْخَمرِ ما زُرّت عليه جيوبُهَا ولِلْمَاءِ مَادَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلاَنِسُ[3]

فقال : لا أعرف شعراً يفضل عليه ، ثمّ قال : هذا شعر لو نَقرتَهُ لطَنّ[4] ، فقال : ويلك ! ما تفارق الجرار والخزَفَ حيث كنت !

واشترى خصيًّا أسود ، فقيل له فى ذلك، فقال: أخذتُهُ أسْوَد لئلا يُتَّهَم بِي، وخَصِيًّا لئلا أتّهم به .

واجتمع فى بالبصرة بالجمّاز فى مجلس ، فقال له الجمّاز : كم ناراً فى اللغة ؟ فقال : نارُ الحبّ ، ونار الشّجر ، ونار الحبا حبٌ ، ونار المعدة ، والنّار المعروفة ؛ قال : تركتَ أبلغَ النّيران ، قال : وما هى ؟ قال : نار حِرِأمّك ؛ التى كلّما ألقى فيها فوجٌ سألهم خزنتُها . فقال الجاحظ : أمّا نار حِرِأمىّ ، فقد قضيتَ أن لها خُزّاناً[5] ، فما الشّأن فى نار حِرِأمّك التى يقال لها : ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ فَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾[6] !

وسأله شخص كتابا إلى بعض أصحابه بالوصيّة ، فكتب له رُقْعة وختمها ، فلمّا خرج الرجل من عنده فضّهَا ، فإذا فيها : كتابى إليك مع مَنْ لا أعرف ولا أوجب حقّه ، فإنْ قضيتَ حاجتَه لم أحمَدْكَ ، وإن رددته لم أذمَّك .

---

(١) البسابس : الخوالى . (٢) تدريها : تختلها .
(٣) تكملة من ت .
(٤) ط : « هذا شعر لو نثر لطف » ، وانظر أمالى المرتضى ١ : ١٩٨
(٥) ط : « حداً » . (٦) سورة ق ٣٠ .

فرجع إليه الرجّل ، فقال الجاحظ : كأنك فضضتَ الرقعة[1] ! قال : نعم ، قال : لا يضرّك مافيها ؛ فإنه علامة لى إذا أردتُ العناية بشخص ، فقال الرجل : قطع الله يديك ورجليك ، ولعنك ، فقال : ما هذا ! قال : علامةٌ لى إذا أردتُه أن أشكرَ شخصا .

وقال : نزلت على صديق لى فلم آكل عنده لحما ، فعرّضت له فقال : إنّى لا أكثر من اللحم منذ سمعت الحديث : « إنّ الله يكرَهُ البيت اللحِمَ » . فقلت : يا أخى ، إنما أراد البيت الذى تؤكل فيه لحوم الناس بالغِيبة ؛ فلم يؤخّر حضورَ اللحم من ذلك اليوم .

وحكى أنّ أبا طاهر ، قال : صِرْتُ إلى الجَاحظ ومعى جماعة ، وقد أسنّ واعتلّ فى آخر عمره، وهو فى منظرةٍ له ، وعنده ابن خاقان جارهُ ، فقرعْنا الباب فلم يُفتَحْ لنا ، وأشرف من المنظرة فقال : ألاَ إنى قد حَوْقلت ، وحملت رُميح أبى سعد ، وسقت الغنم[2] ، فما تصنعون بي ؟ سلّموا سلام الوداع ، فسلّمنا وانصرفنا .

قوله : « حَوْقلت » ، أكثرت من قولى : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ؛ لتتابع الأمراض ، وقوله : « رميح أبى سعد » هو رجُلٌ من العرب ، أسنّ فاستعان بالعصا ، وهو أوّل من فعل ذلك ، فقيل لـكلّ من شاخ: « أخذ رميح أبى سعد » . وقوله : « سقت الغنم » ، هو عند العرب كناية عن الهرَم ، لأنّ سائق الغنم يطامن رأسَه .

وكان سبب علّة الجاحظ أنه حضر مائدة ابن أبى دوَاد ، وفى الطعام سَمك ولبن ، وكان ابن بخْتَيْشوع الطّبيب حاضرا ، فنهاه عن الجمع بينهما ، فقال الجاحظ : إنّ السمك إن كان مضادًّا للبن ، فإنى إذا أكلتُهما دفع كلّ منهما ضرر الآخر ، وإن كانا متساويين فكأنّى أكلت شيئا واحدا . فقال ابن

---

(١) ط : « الورقة » .
(٢) ت : « العنز » .

بختيشوع : أنا لاأحسن الكلام ، ولكن إن شئتَ أن تجرب فكُلْ، فأكل فأصابه فالِجٌ عظيم ونِقْرس حتى دخل عليه بعضُ أصحابه ، فقال له: كيف حالك؟ فقال اصطلحت عليّ الأعلال ، لو خرج شِقِيّ الأيمن[1] ماأحسست به من الفالج ، ولو مرت على شقى الأيسر[2] ذبابةٌ أوجعتْنِي ، وأشدّ ما أشكو التسعون !

وحكى بعض أبناء البرامكة ، قال : تقلّدت السِّنْد ، وحصل لى ما شاء الله ، ثم صُرِفت عنها ، وكنت قد اكتسبت[3] بها ثلاثين ألف دينار ، فصغتها عشرة آلاف إهليلجة ، وجاء الصّارف ، فركبت البحر ، وانحدرتُ إلى البصرة ، فخُبرّت أن الجاحظ بها ، وأنه عليل بالفالج ، وأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه فقرعت الباب ، فخرجت إلىّ خادمة صغرى[4] ، فقلت: رجلٌ غريب أحِبّ أن أنظر إلى الشيخ ، فبلّغتْه ، فسمعته يقول : قُولى له : ما تصنع بشقٍّ مائل ، ولعابٍ سائل ، ولونٍ حائل ! فقلت للجارية : لابدّ من النظر إليه ، فقال : هذا رجلٌ ورد البصرة ، وسمع بى ، ويريد أن يقول : رأيت الجاحظَ . فأذِن لى ، فدخلت وسلّمت ، فرد ردًّا جميلا ، وقال : مَنْ تكون ـ أعزك الله ؟ فانتسبْتُ له ، فقال : رحِم الله أسلافك وآباءك السُّمَحاء ! فلقد كانتْ أيّامهم رياضَ الدهر ، ولقد رأى بهم الخلق خيراً كثيراً ، فسَقْياً لهم ورعياً ! فدعوتُ له ، وقلت له : أنشدنى شيئاً ، فقال :

لئن قدِّمَتْ قبلى رجالٌ فطالَمَا مشيتُ على رِسْلِي فكنتُ المقدَّمَا
ولكنّ هذا الدَّهرَ تأتى صروفُه فتبرِمُ منقوضاً وتَنْقُض مُبْرَمَا

ثم نهضت ، فلما قربت مِن الباب قال : يا فتى ، أرأيت مفلوجاً ينفعه الإهلِيلج ؟ قلت : لا ، قال : إنّ الإهليلج الذى معك ينفعنى ، فابعث إلىّ منه

(١) ت : « الأيسر » .
(٢) ت : « الأيمن » .
(٣) ت : « كسبت » .
(٤) ت : « جارية صفراء » .

فقلت : نعم ، وعجبت من وقوعه على خبرِى مع كتْمى له ، و بعثت له منه شيئا .

ومن كلامه فى رسالة :

أبقاكَ الله بقاء أياديك ، ولا نقلنا عن ظلّك ، ولا أضلّنا عن سُبُلك ، فما صان وجهَ الأحرار سواكَ ، ولا أخذ الملهوف مظلمته فى دهرٍ إلاّ بِعَدْ وَاكَ .

وكتب إلى قُليب المغربىّ :

والله يا قُليب ، لولا أنّ كبدى فى هواكَ مَقْروحة ، ورُوحى بك مَجْروحة ، لساجلتُك هذه القطيعة ، وما ددْتك حَبْلَ المُصارمة ، وأرجو أنّ الله تعالى يديلُ صَبْرِى من جفائك ، فيردّكَ إلى مودّتى ، وأنف القِلَى راغم ؛ فقد طال العهدُ بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند الالتقاء !

وكتب إلى ابن أبى دُوَاد يستعطفُه :

ليس عِنْدِى ـ أعزّكَ الله ـ سببٌ ، ولا أقدر على شفيع إلا ما طبعَك الله عليه من الكرمَ والرّحمة والتّأميل ؛ الذى لا يكون إلا من نتاج حُسْنِ الظّنّ ، وإثبات الفضل بحالِ المأمول ، وأرجُو أن أكون من العُتَقاءِ الشّاكرين ، فتكون خير معتِب[1] ، وأكون أفضل شاكرٍ ، ولعلّ الله أن يجعل هذا الأمر سبباً لهذا الإنعام ، وهذا الإنعام سبباً للانقطاع إليكم ، والسكون تحت أجنحتكم ، فيكون : لا أعظم بركة ، ولا أنمى بقيّةً من ذنب أصبحت فيه ، وبمثلك ـ جعلت فداكَ ـ عاد الذنب وسيلة ، والسيّئة حسنة ، ومثلك من انقلب به الشرُّ خيرا ، والغرم غنْمًا .من عاقب فقد أخذ حظَّه ، وإنما الأجْر فى الآخرة ، وطيبُ الذّكر فى الدّنيا على قَدْر الاحتمال وتجرّع المرائر ، وأرجو ألاّ أضيع وأهلِك فيما بين عقْلك وكرمك ، وما أكثر مَنْ يعفو عمّن صغُر ذنبه ، وعَظُم حقه ! وإنّما الفضل والثناء والعفو عن عظيم الُجرم ، ضعيف الُحرْمة ، وإن كان العفو العظيم

---

(١) أعتبه : أرضاه .

مستطرَفاً من غيركم ، فهو تلادٌ فيكم ، حتّى رُبّما دعا ذلك كثيراً من النّاس إلى مخالفة أمرِكم ، فلا أنتم عن ذلك تَنْكلُون[1] ولا على سالفِ إحسانكم تَنْدَمون ، وما مَثَلكم إلا كمثل عيسى بن مريم حين كان لا يمرُّ بملأٍ من بنى إسرائيل إلا أسمعوه شرًّا ، وأسمعهم خيرا ، فقال له شمعون الصّفا : ما رأيتُ كاليوم ؛ كلّما أسمعوك شرًّا أسمعتَهم خيرا ! فقال : كلُّ امرئٍ يُنفق مما عنده ، وليس عندكم إلا الخير ، ولا فى أوعيتكم إلا الرّحمة ، وكل إناء بالذى فيه ينضح .

ومن كلامه فى المعنى :

زينّك الله بالتقوى ، وكفاك ما أهمّك من الآخرة والأُولى . مَنْ عاقب — أبقاكَ الله تعالى — على الصّغيرة عقوبة الكبيرة وعلى الهَفْوة عقوبة الإصرار ، فقد تناهَى فى الظُّلم . ومَنْ لم يفرّق بين الأسافل والأعالى ، والأدانِى والأقاصى فقد قصرّ ، والله لقد كنتُ أكره سَرَف الرضا مخافةَ أن يؤدِّىَ إلى سَرَف الهوى ، فما ظَنُّك بسرَف الغيظ ، وغَلَبة الغضب ، من طيّاشٍ ، عَجُولٍ فحّاش ، ومعه من الْخُرْق بقدر قسطه من التهاب المِرّة الحمراء ! وأنت روحٌ كما أنت جسم ، وكذلك جنسك ونوعُك ، ألا إنّ التأثّر فى الرّقاق أسرع ، وضدّه فى الغِلاظ الجفاة أكمل ، ولذلك اشتدّ جَزعى عليك من سلطان الغيظ وغلبته ، فإذا أردتَ أن تعرِف مقدار الذّنْب إليك مِنْ مقدار عقابك عليه فانظر فى علّته ، وفى سببِ إخراجه ، إلى معدنه الذى منه نَجَم ، وعُشِّه الذى منه درَج ؛ وإلى جهة صاحبه فى التسرّع والثّبات ، وإلى حلمه عند التَّعْريض ، وفِطْنته عند التوبة ، فكلُّ ذنبٍ كان سببُه ضيق صَدْر من جهة القبض فى المقادير ، أو مِن طريق الأنفَة ، وغلَبة طباع الحميَّة من جهة الجَفْوة

(١) ت : « تنكلون » .

أو من جهة استحقاقه فيما زيّن له عملُه أنه مقصّر به فى حقه ، مؤخّر عن رتبته ، أو كان مبلَّغاً عنه ، مكذوباً عليه ، أو كان ذلك جائزاً فيه ، غير ممتنع منه .

فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل فليس يقف عليها كريم ، ولا ينظر فيها حليم ، ولستُ أسمّيه بكثرة معروفه كريماً ؛ حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمُه غالباً على طِباعه ، كما لا أسمِّيه بكفّ العقاب حكيما ؛ حتى يكون عارفاً بمقدار ما أخَذَ وترك . ومتَى وجدتَ الذَّنْب بعد ذلك لا سبب له إلاّ البغض المحْض ، والنِّفار الغالب ، فلو لم ترض لصاحبه بعقابٍ دون قعر جهنم ، لعذَرك كثير من العقلاء ، وصوّب رأيَك عالمٌ من الأَشراف ؛ والأناة أقرب من الحمْد ، وأبعد من الذمّ ، وأنأى من خوف العجَلة ؛ وقد قال الأوّل: عليك بالأناة ، فإنّك على إيقاع ما تتوقّعه أقدرُ منك على ردّ ما قد أوقعته . وليس يصارع الغضبَ أيام شبابه شيء إلا صرعَه ، ولا ينازعه قبل انتهائه إلا قهرَه ، وإنّما يحتالُ له قبل هَيْجه ، فمتى تمكّن واستفحَل ، وأذْكى نارَه وأشعل ، ثم لاقَى من صاحبه قُدرة ، ومن أعوانه سمعاً وطاعةً ، فلو استَبطنته بالتّوراة ، وأوجَرْته[1] بالإنجيل ، ولَدَدْته[2] بالزّبور ، وأفرغت على رأسه القُرآن إفراغا ، وأتيته بآدم شفيعاً ؛ لما قصّر دون أقصى قُوّته ، ولن يسكنَ غضبُ العبد إلا ذِكْره غضب الربّ .

فلا تقف ــ حفظك الله ــ بعد مضيّك فى عِتابى التماساً للعفو عنّى ، ولا تقصّر عن إفراطك من طريق الرحمة بى ، ولكن قِفْ وقفة من يتّهم الغضب على عَقْله ، والشيطانَ على دينه ، ويعلم أن للكرم أعداء ، ويُمسك إمساكَ من لا يُبرّئ نفسَه من الهوى ، ولا يبرّئ الهوى من الخطأ ، ولا تنكرْ لنفسك أن تزِلّ ،

---

(١) وجرته الدواء ، وأوجرته إياه ؛ جعلته فى فيه .

(٢) اللدود ، كصبور وكريم : مايصب بالمسعط من الدواء فى إحدى شق الفم .

ولعقلك أن يهفُوَ ، فقد زلّ آدم صلى الله عليه وسلم وقد خلَقه بيده . ولستُ اسألك إلاّ ريثما تَسْكُن نفسُك ، ويرتدّ إليك ذهنك ، وترى الحلم وما يجلب من السّلامة وطِيب الأحدوثة ، والله يعلم ـ وكفى به عليما ـ لقد أردت أن أفديَك بنفسِي في مكاتباتي ، وكنت عند نفسي في عدادِ الموتى ، وفي حَيّز الهلكى ، فرأيت أن من الخيانة لَك ، ومن اللّؤم في معاملتك ؛ أن أفديك بنفسي ميّتة ، وأن أريك أنّي قد جعلت لك أنفس ذُخْر ، والذّخر معدوم ، وأنا أقول كما قال أخو ثَقيف : مودّة الأخ التالد و إن أخلَق ، خيرٌ من مودة الأخ الطّارِف وإن ظهرت مساعِيه ، وراقت حِدّتُه ؛ سلّمك الله ، وسلّم عليك ، وكان لك ومعك .

ومن فصوله القصار ، قال :

البخل والجبْن غريزة واحدة ، يجمعهما سوء الظنّ بالله تعالى .

وقال :

مَنْ قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف الربّ في تدبيره ، وظنّ أن رحمته فوق رحمة الله جل ثناؤه ؛ والناس لا يصلحون إلا على الثواب والعقاب .

وقال من رسالة :

مِن العدل المحض أن تحطّ عن الحاسد نصفَ عقابه ؛ لأنّ ألم حسدِه لك قد كفاك شرّ مثونة[1] غيظه عليك .

وقال : لما مُسخ الإنسان قرداً أنزل فيه مشابهَ من الإنسان ، ولما مسخ زماننا لم ينزل فيه مشابه من الأزمان .

ومن شعره يقول :

يَطِيبُ العيشُ أنْ تَلقَى حَكِيماً غَذاه العِلْمُ والفهمُ المُصِيبُ

---

(١) ط : « مؤنة » .

فيكشف عَنْك حيرة كُلِّ جهلٍ وفضل العــلم يعرفه اللّبيبُ
سَقام الحِرْص ليس له شفاءٌ وداء الجهل ليس له طبِيبُ

ومنه :

إن حالَ لونُ الرّأسِ عن حالهِ ففى خضاب المــرء مستمتَعُ
هب أنّ مَنْ شاب له حيلةٌ فما الذى تُحْنَى له الأضلعُ

ومنه :

وكم كانَ مِن أصــــدقاء له وأعدا تفانَوْا فما خلّدُوا
تساقَوْا جميعا كُئُوس الرَّدَى فمات الصديق ومات العَـدُو

وله من أبيات يتمدح بها :

بدا حين أثرى بإخــــوانِهِ يفلِّلُ عنهم شَبَاةَ الْعَـدَمْ[1]
وذكّره الحالُ صَرْف الزّمانِ فبادر قبل انتقالِ النِّعَـمْ
فتى خَصَّـــة الله بالمكرُماتِ فمازج منه الحيــا بالكَرَمْ

ومما أورد له الشريف المرتضى ـ والعُهدة عليه ، فإن هذا الشعر أرفع طبقة من شعره ، يذكر فيه الخضاب :

رُبَّ فتاةٍ من بنى هــــلالِ[2] قـد عجلت إلىّ بالسؤالِ[3]
مالى أراكَ قانئَ السِّبــــالِ كأنّما كَرَعْتَ فى جِرْيالِ[4]

---

(١) أمالى المرتضى ١ : ١٩٧ .
(٢) أمالى المرتضى ١ : ١٩٧ ، وروايته : « زرت فتاة » .
(٣) الأمالى :

* فاستعجلْت إلىّ بالسؤال *

(٤) الكرع : أن يشرب الرجل بفيه من النهر . والجريال : صفوة الخمر . قال المرتضى: قوله : « كأنّما كرعت فى جريال » مليح قوى ، ولا يشبه شعر الجاحظ للينه وضعف كلامه .

[ما يبتغِى مثلُكَ من أمثالى][١]   تنحّ عن فكرِى وعن خيالى[٢]

* * *

٦٥ ــ وَمَالِكَ بْنَ أَنَسٍ مُسْتَفْتِيكَ .

[مالك بن أنس]

هو مالك بن أَنَس بن مالك بن أبى عامر التّميمىّ ، وكنيته أبو عبد الله ، إمام دارِ الهجرة . وُلد بالمدينة سنة سبع وتسعين ، ويقال : إنّه أقام فى بطن أمّه ثلاث سنين .

وكان يقول : قد يكون الحْمل ثلاث سنين ، وقد حمِل ببعض الناس ثلاث سنين ــ يعنى نفسه .

وكان طويلاً شديدَ البياض ، مائلا إلى الشُّقرة ، مَهِيباً ، سوى اللباس والمجلس ، وهو أوّل من صنّف فى الفقه كتابا ، فوضع « الموطّأ » ، كذا قال العسكرىّ فى « الأوائل » ، ولعلّه أراد : بالمدينة .

وكان مالك إذا أراد أن يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣]يغتسل ويتبخّر ويتطيّب[٣] ، فإذا رفع أحدٌ صوتَه ، قال له : اخفِضْ صوتك ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىّ ﴾[٤] ، فمن رفع صوته عند حديثه فكأنّما رفعه عند صوته .

---

(١) من الأمالى .

(٢) الأمالى .

* تنحَّ قُدّامِى ومِن خيالِى *

(٣ ــ ٣) ت : « اغتسل وتبخر وتطيب » .

(٤) سورة الحجرات ٢ .

وقال زيد بن داود : رأيت فى المنام كأن القبر انفرج ، و إذا رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم قاعد ، والنّاس مصفوفون ، فصاح صائح :أين مالك بن أنس ؟ فجاء مالك حتّى انتهى إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأعطاه شيئاً ، فقال : فرّقه على الناس[١] ، فإذا هو مِسْك .

وقال الشافعىّ رحمه الله تعالى : قال لى محمّد بن الحسن : أيّهما أعلم ؟ صاحبنا أم صاحبكم ؟ يعنى أبا حنيفة ومالكاً رضى الله تعالى عنهما ، فقلت : على الإنصاف ؟ قال : نعم ، فقلتُ : ناشدتك الله ! مَنْ أعلم بالقرآن ؟ قال : اللّهمّ صاحبُكم ، قلت : فمن أعلمُ بالسنّة ؟ قال : اللهمّ صاحبُكم ، قلت : فَمن أعلمُ بأقاويل الصحابة ؟ قال : اللهمّ صاحبُكم ، قلت : فلم يبقَ إلا القياس ، والقياسُ لا يكون إلاّ على هذه الأشياء ، فعلى أىّ شىء يقيس ؟

وقال وهب : سمعتُ منادياً ينادى : ألا لا يُفْتى النّاسَ إلا مالك بن أنس وابن أبى ذُؤيب .

وقال محمد بن جعفر : لمّا دُعِى مالك وأشار وقبل منه ، حسده النـاس و بغوْهُ بكلّ شىء ، فلمّا ولِّىَ جعفر بن سليمان سَعَوْا به إليه ، وقالوا : إنه لايرى أيمان بيعتكم هذه بشىء ، وهو يأخذ بحديث رواه الأحنف فى طلاق المكرَه ؛ أنّهُ لايجوز ، فدعا جعفر بمالك ـ وقد غضب ـ فاحتجّ عليه بما قيل عنه ، ثم جرّده وضرَبه بالسياط ، ومدت يده حتى خلعت يداه وكتفاه[٢] ، فو الله مازال مالك بعد ذلك فى رفعة من الناس ، وعلوّ من قدره ، وإعظام من الناس له ؛ حتى كأنّما كانت تلك السياط التى ضرب بها حُلِيًّا حُلِّىَ به .

---

(١) ت : « قسم هذا على الناس » .
(٢) ت : « ومدت يداه حتى خلع كتفاه » .

وقيل : إنّما ضُرِبَ مالك لأنّه سأل عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية الأمويّ الدّاخل إلى الأندلس ، والمتملك بجزيرته ، فقيل له : إنّه يأكل خبز الشعير ، ويلبس الصوف ويجاهد فى سبيل الله ... وعُدّت مناقبه ، فقال مالك : ليت أنّ الله زيّن حَرَمنا بمثله ! فنَقم عليه بنو العباس هـذا القول ، وبلغ عبدَ الرحمن ، فسرّ بقوله ، وجمع أهلَ الأندلس على مذهبِ مالك ؛ فهذا سبب اجتماع المغاربة على مذهبه .

وتوفِّيَ رضى الله عنه سنة تسع وسبعين ومائة .

ومن أخباره ما حكى الشافعيّ رضى الله تعالى عنه ، قال : رأيتُ عَلَى باب مالك رضى الله عنه كُراعاً[1] من أفراس خُراسان ـ ويقال مِصْر ـ قلَّما رأيتُ مثله ، فقلت لمالك: ما أحسنَه ! قال: هو هديّة منى إليك ، فقلت: يا أبا عبد الله ، دَعْ لنفسك منها ماتركبُه ، فقال: أنا أستحيي من الله أن أطَأ تربةً فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافرِ دابّة .

ووجّه الرّشيد إلى مالك رضى الله تعالى عنه ليأتيَه فيحدّثه ، فقال مالك : إنّ العلم يؤتَى ؛ فصار الرّشيد إلى منزله ، واستند إلى الجِدار ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين ، من إجلال رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلال العلم ، فقام فجلس بين يديه ، فحدّثه ، فبعث[2] الرّشيد إلى سفيان بن عُيَينة فأتاه سُفيان ، فقعد بين يديه فحدّثه ، فكان الرّشيد يقول : يا مالك ، تواضعْنا لعلمك فانتفعنا به ، وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به .

وحكيَ أن أبا يوسف القاضى حضر مجلسَ مالك ، فقال أبو يوسف من

(١) الكراع ، يطلق على جماعة الخيل .
(٢) ت : « وبعث » .

جملة كلام : الإنسان تارةً يخطىء ، وتارةً يصيب ؛ فقال مالك : هكذا عرّفنا مشايخُنا ، فضحك بعض الحاضرين ، فلما خرجوا قال بعض أصحاب مالك : إنّ أبا يوسف قال كذا ، ولعله متعمّد ، وأجبت كذا فخجل مالك ، ودعا على أبي يوسف ألاّ ينتفع بعلمه ، فكان كذلك مع جودة كتبه عند الحنفيّة .

وحكى ابن حمدون فى تذْكرته : أنّ حسن بن نعمان قال : كنت بالمدينة فخلا بى الطريق نصفَ النهار ، فجعلت أتغنّى فى شعر ذِى يزن ، وأقول :

مَابَالُ قَوْمِكِ يَارَبَابُ   خُزْراً كأَنَّهُمُ غِضابُ

فإذا كُوَّة قد فتحت ، و إذا وجه قد بدا منها تتبعه لحية حمراء ، فقال : يا فاسق ، أسأتَ التأدية ، ومنعتَ القائلة ، وأذعتَ الفاحشة ! ثم اندفع فغنّى الصوت غناء لم أسمعْ بمثله ، فقلت : أصلحك الله ! من أينَ لك هذا الغناء ؟ قال : نشأتُ وأنا غلام ، فأعجبنى الأخذ عن المُغنّين ، فقالت أمىّ : يابنىَّ ، إن المغنّى إذا كان قبيح الوجه لم يُلتفَت إلى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفِقه ؛ فتركت المغنين ، وتبعت الفقهاء ، فبلَغ الله أبى إلى ما ترى . فقلت : أعِد الصوت ، جعلت فداك ! فقال: لا ولا كرامة ! تريد أن تقول: أخذتُه عن مَالك بن أنس ! و إذا به مالك رضى الله تعالى عنه .

ومن كلامه : إذا ترك العالِم قولَ : « لا أدرى » أصيبت مقاتله .

وقال : ليسَ العلم بكثرة الرّواية ، و إنما هو نورٌ يقذفه الله فى القلب .

وسأله رجل عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾(١) ، فقال : الاستواء معقول ، والكيف مجهولٌ ، وما أظنك إلا رجل سوء !

* * *

---

(١) سورة طه ٥ .

٦٦ – وأنَّكَ الَّذِى أَقَامَ الْبَرَاهِينَ ، وَوَضَعَ الْقَوَانِينَ .

البُرهان فى اللّغة بيان الحجّة وظهورها ، وهو مصدر بَرِه يبرَهُ ، إذا ابيضّ ، وامرأة بَرْهاء وبَرَهْرَهة : شابّة بيضاء . وقال الرّاغب : البُرهان أوكد الأدلّة ، وهوَ الذى يقتضى الصّدق أبداً لا محالَة ، وذلك أنّ الأدلّة خمسة أضرب : دلالة تقتضى الصّدق أبداً لا محالة ، ودَلالة تقتضى الكذب أبدا ، ودلالة إلى الصّدق أقرب ، ودَلالة إلى الكذِب أقرب ، ودَلالة هى إليهما سواء[1] .

وقال بعض الحكماء : مبادىء البُرهان خمس : الأوليّات ، والمشاهدات ، والمتواترات ، والمجرّبات ، والحدْسيّات .

وَقال آخر : البُرهان حجّة تنتِج يقينا ، وينقسم إلى برهان أنّىّ وبرهان « لمّى » ، وأمثلته معروفة .

وقد ذكرتُ أن أوّل مَنْ حرّر كتب المنطق أرسطاليس ، وقد تقدّم ذكره .

والقوانين واحدها قانون، وهو لفظ روميّ ، ومعناه عند المنطقيّين صورة كلّية تتعرّف منها أحكام جزئياتها المطابقة لها .

* * *

٦٧ – وَحَدَّ الْمَاهِيَّةَ ، وَبَيَّنَ الْكَيْفِيَّةَ وَالْكَمِّيَّةَ .

ماهيّة الشىء ، تصوّره فى الفكر ، ومعرفة ماهو ؛ وأوجز حدوده فى المنطق قولهم : ماهيّة الشىء ما يحصل فى الذّهن من صورة كلّيّة مطابقة له بعد حذف المشخّصات عنه إن كان جزئيًّا ، وهى أحدّ حدود العلم عند الحكماء ، فإنّ العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام : علم ما ، وعلم كيف ، وعلم كم ؛ فالعلم الذى يُطلب منه

---

(١) مفردات الراغب ٤٤ .

ماهيّات الأشياء هو العلم الإلهىّ ، والّذى يُطلب منه كيفيّات الأشياء هو الطبيعىّ ، والّذى يطلب منه كمّيّات الأشياء هو الرياضىّ ، والـكمّيّة والـكيفيّة النسبة إلى « كم » و « كيف » .

وكَمْ عبارة عن العدد ، ومن النّحاة من يجعله اسماً ناقصاً مبنيًّا على السكون، والنّسبة إليه الـكمية بالتخفيف . ومنهم من يجعله اسماً تاما فشدّد آخره وصرفه ، فقال : أكثرت من الـكم ، والنّسبة إليه الـكمّيّة بالتشديد ، وهو عند المنطقيّين قسم من أقسام العَرَض ، وهو نوعان : منفصل ومتّصل ، فإن لم يكن بين أجزائه حدٌّ مشترك فهو الـكمّ المتّصل[1] [وهو العدد] ،[2] وإن كان بين أجزائه حدٌّ مشترك فهو الـكمّ المنفصل ، وهو إن كان قارًّا بالذات فهو المقدار ، وإن لم يكن قارًّا بالذّات فهو الزمان .

وكيف اسم مبهمٌ غير متمكّن ، وإنّما حُرِّك آخره لالتقاء الساكنين ، وبنى على الفتح دون الـكسر لمكان الياء . قال الرّاغب : يُسأل به عمّا يصحّ أن يقال فيه : شبيه وغير شبيه ، كالأسود والأبيض ، والصّحيح والسقيم ، ولهذا لا يصحّ أن يقال فى الله عزّ وجلّ : كيف .

وقال بعض الحـكماء : هو كلّ هيئة قارّة فى جسم لا تقتضى قسمة ولا نسبة ، فقولنا : قارّة . يخرج الزّمان ، وقسمة يخرج الـكمّ ، ونسبة تخرج المقولات فى العَرَض ، والله تعالى بكلّ شىء عليم .

* * *

---

(١) فى ط : « المنفصل » .

(٢) من ت .

(٣) مفردات الراغب ٤٤٤ .

٦٨ – وَنَاظِرَ فِي الْجَوْهَرِ وَالعَرَضِ ، وَمَيِّزَ الصِّحَّةَ مِنَ الْمَرَضِ .

قال بعض الأدباء : الكلامُ فى الجوهر والعَرَض على رأى الحكماء طويل غامض ، وإنما أنقل نُبذةً من أقرب ما سمعت ؛ فالجوهر هو الجسمُ ، كالإنسان والفرس والحجر ونحو ذلك . والعرَض : الحال والوصف المتعاقب عليه ، كالألوان ؛ من بياضٍ وسواد وحُمْرة ، والحرَكات المختلفة من قيام وقُعود واضطجاع وجميع ما عدا الجوهر ، فاسم العرَض واقع عليه ، وإنما مثّلنا الجوهر بالجسم دون غيره مّما يقع عليه اسم الجوهر ؛ لأنّ الذين أثبتوا جواهرَ ليست بأجسام كالعقل ، والنفس والجزء الّذى لا يتجزأ ، ليس يمتنع أحد منهم أن يسمّى الجسم جوهرا ، فصار الجسم هو الجوْهر المتّفق عليه .

وقال بعض الحكماء : الجوهر خمسة أنواع : المادّة ، والصّورة ، والجسم ، والنّفس ، والعقل ؛ ووجه الحصر أنه إن كان حالاً فى محلّ فهو الصّورة ، وإن كان محلاً لحالٍ فهو المادة ، وإن كان مركّباً منهما فهو الجسم ، وإن لم يكن كذلك فهو الجوهر المفارق ؛ وهو إن تعلّق بالجسم بالتدبير فهو النفس ، وإلاّ فهو العقل .

والعَرض عند أكثرهم أحدٌ وعشرون ضربا ، وعند بعضهم ثلاثة وعشرون: عشرة منها تختصّ بالأحياء ، وهى. الحياة والقُدرة والشَّهْوة ، والقوّة ، والإرادة ، والكَراهة ، والاعتقاد ، والظنّ ، والنظر ، والألم . وأحد عشر تكون للأحياء وغير الأحياء ، وهى : الكون ؛ وتشتمل على أربعة أشياء : الحرَكة ، والسّكون ، والاجتماع ، والافتراق ، والتأليف والاعتماد كالثّقل والخفّة ، والبُرودة واليبوسة ، والرّطوبة ، واللّوْن والرائحة ، والطّعم . والاثنان اللّذان زادهما بعضهم هما : البقاء والموت .

والصّحّة هى وجود الاعتدال الخاصّ[1] بالإنسان وتُستعار لغيره . والمرض الخروج عن الاعتدال .

والتّمييز الفصل بين الشيئين ، والمعنى أنك الّذى حرّر صناعة الطبّ ؛ وذكر الطبّ عقب الجوهر والعَرَض ؛ لأن الجميع من العلوم العقليّات، وقد يكون مرادُه التّمييز بين صحّة الأشياء ومرضها ، كالحقائق والشّكوك ، والفضائل والرّذائل ، وإنما شُبّهت الشكوك والرذائل بالمَرَض لكونها مانعة عن إدراك الفضل ، كالمرض المانع للبدَن عن إدراك التصرّف الكامل ؛ وعلى كلاَ الوجهين فالمراد أنك أنت الحكيمُ الّذى نظر فى هذه العلوم وأظهرها .

* * *

٦٩ — وَفَكَّ الْمُعَمَّى .

عمِيَ الأمر ؛ إذا التبس ، وعمَّيتُ معنى البيت من الشعر ، إذا أخفيتَه ، ومنه المعمّى اللّغز ، والمراد هاهنا حُروف يصطلح عليها الكاتب مع نفسه ، ويكاتب بها ، ويسمّى الآن المترجم ، ولها طرائق مذكورة تعين على استخراجها .

وأوّل من وضَعها الخليل ، واضع العروض . ولا بأس بإيراد نبذة من أخباره وفوائده ، وكذلك أفعلُ عند كلّ بيت أو لفظة تمثّل[2] بها ابن زيدون فى هذه الرسالة [مما أحفظه من ألفاظ المتقدمين][3] فإنى أذكر قائلَها ،وشيئا من نوادره ؛ إذ لا بدّ فى ذلك من فائدة ونكتة ، والكلام عليها أولى من الكفّ عنها .

* * *

(١) ط : « الخالص » ، وأثبت مافى ت .
(٢) ط : « يمثل » ، وما أثبت من ت .
(٣) من ط .

٣٦٨ـ

[الخليل بن أحمد]

والخليل هو ابن أحمد بن عمر الفَراهيديّ الأزديّ . ويكنَى أبا عبد الرّحمن . وُلِد بالبصرة سنة مائة ، ونشَأ بها ، واشتغل بالعلوم وصنّف الكتب الكثيرة ، مثل كتاب « العين » ولم يتمّه ، وكتاب « النّقط والشكل » ، وكتاب « النّغم » ، وكتاب « الشواهد » ، وأجودها « العروض » ، وهو أوّل من وضعه ، فجاء من عجائب المخترعات كالشطرنج وشبهه ، ثم تبعه فيه الناس . واستخرج من بحر المتقارب بَحْراً[1] مَخْبُون[2] الأجزاء ويسمّى الخَبَب . ووصل الأمر إلى أبى نَصْر الجوهريّ فأوضحه ـ أعنى العروض ـ واختصَره أحسن اختصار . وأوّل ما خالفه فيه أنّ الخليل جعل الأحرُف التى يُوزن بها الشعر ثمانية : اثنان خُماسيان : فعولن ، وفاعلن ، وستة سباعيّة : متفاعلن ، فاعلاتن ، مستفعلن ، مفاعيلن ، مفاعلتن ، مفعولات ؛ فنقص الجوهرى منها جزء « مفعولات » ، وأقام الدّليل على أنه مقول فى « مستفع لن » مفروق الوتد ؛ لأن « مفعولات » مركب من سببين خفيفين ، ووتد مفروق مؤخر ، وزعَم أنّ « مفعولات » لو كان جزءا صحيحا لركّب من مفرده بحْر كما يركّب من سائر الأجزاء ، يريد أنّه ليس فى الأوزان وزن انفرد به « مفعولات » ، ولا يكرر فى قسم منه .

ثم استخرج المعمّى ، وهو أيضا أوَّل من نظر فيه ؛ وذلك أنّ بعض اليونان كتب بلغتهم كتاباً إلى الخليل ، فخلا به شهراً حتى فهمه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : علمت أنه لابدّ وأن يفتتح باسم الله تعالى ، فبنيت على ذلك ، وقست ، وجعلته أصلاً ففتحته ، ثم وضعت كتاب المعمّى .

وكان الجاحظ يقول : ليس المعمّى بشىء ، قد كان كَيْسان مستِملى

---

(١) فى الأصول : « بحر » .

(٢) الخبن : حذف الحرف الثانى الساكن .

أبي عبيدة ، يسمعُ خلاف ما يقال ، ويكتبُ خلاف ما يسمع ، ويقرأ خلاف ما يكتب ؛ وكان أعلمَ الناس باستخراج المعمّى . وكان النّظام على قدرته على أصناف العلوم ، لا يقدر على استخراج أخفّ ما يكون من المعمّى .

وللجاحظ تحامُلٌ على مصنّفات الخليل ، ليس هذا موضع ذكره .

ثم استخرج الخليل أيضا اتفاق الحروف مع النّجم ، فقال : عدد الحروف العربية عدد منازِل القمر ، ثمانية وعشرون ، وغاية مابلغ الكلام إليه مع الزّيادة سبعة على عدد النجوم السَّبعة ، وصوّر الزوائد اثنى عشر على عدد البرُوج ، وأربعة عشر تُدْغم مع لام التعريف ، مثل منازل القمر التى يسيّرها تحت الأرض ، وأربعة عشر فوقها .

ثم وضع فى الشِّطْرنج جَمَلين فى طرفِ الرّقعة لعب بها زمانًا ، ثم تركت . ثم أراد أن يخترع شيئا فى الحساب فقال : أريد أن أقررّ نوعاً من الحساب ، تمضى الجارية بدرهم إلى البيّاع فلا يمكنه ظلمُها ، فدخل المسجد وهو يُعمِل فكره فى ذلك ، فصدمته سارية وهو غافل عنها لفكره ، فانقلب على ظهره ، فكان سبب موتِه .

ومات سنة ستين ومائة ، وكان من العُقلاء الزُّهّاد .

واجتمع هو وابن المقفَّع يتحدّثان إلى الغَداة ، فلما تفرّقا قيل للخليل : كيف رأيت ابنَ المقفع ؟ قال : رأيتُ رجلاً علمُه أكثرُ من عقله ؛ وقيل لابن المقفّع : كيف رأيت الخليل ؟ قال : رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه ، فكان كذلك ، أدّى الخليلَ عقلُه إلى أن مات زاهدا ، وابن المقفع إلى أن مات قتيلاً بسبب كتابٍ كتبه .

وحكِيَ أن سُليمان بن المهلّب بعث إليه يوما بألف دينار ليتجهّز بها ، ويأتيه إلى الأهواز ، فدخل عليه الرسول وهو يَبلّ كسرة يابسة ويأكلها ، فردّ

الألف دينار وقال للرسول : ما دمت أجد هذه فلا حاجة لى إلى سُلَيمان .

وقرأ عليه شخص كتاب العروض مدّة ، فلم يفهم منه شيئا وأتعبه ، فقال له الخليل يوما : قَطِّع هذا البيت :

إِذَا لَمْ تستطِـعْ شيئاً فَدْعهُ ‏ ‏ ‏ ‏ وجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

ففهم الرجل التعريض ولَمَ يُعد .

ودخل يوما إلى مريض يعوده ، فقال أَخُو المريض : افتح « عيناك » ، فإن « أبو » عبد الرحمن حَضَر ، فقال الخليل : ما داء أخيك إلا من كلامك .

وكتب إليه بعض الثقلاء معمًّى يحله ، فإذا هو بيت من الشعر يقول فيه :

أنَا إن لَمْ أكُ أهْوَا ‏ ‏ ‏ ‏ كَ فرأسِى فى خِرأمىّ

فكتب الخليل تحته : « وإن هويت أيضا » .

ومن كلامه : الزاهد من لم يطلب المفقود ، حتى يفقد الموجود .

وقال : مَن استعمَل الحزم فى وقت الاستغناء عنه غَنِيَ عن الاحتيال فى وَقْت الحاجة إليه .

وقال : بحسْب امرىء من الشرّ أن يرضى من نفسه فساداً لا يصلحه ، ومن علِم بفساد نفسِه علم بصلاحِها ، وأقبَح التحوُّل أن يتحوَّل المرء من ذنبٍ إلى غيرِ توبةٍ منه .

وقال : من الأبواب مالو شئنا شرحناه حتى يستوىَ فى علْم القوى والضعيف كفعلنا ، ولكنّا نحبّ أن يكون للعالم مؤنة .

ومن محاسن شعره ما أورده أبو حيان التوحيدىّ :

زُرْوادِيَ القَصْرِ نعمَ القَصْرِ والوادِى ‏ ‏ ‏ ‏ لا بُدَّ من زَوْرَةٍ مِنْ غَيْرِ ميعادِ

زُرْهُ فَلَيْسَ لَهُ شِبْهٌ يماثِلُهُ ‏ ‏ ‏ ‏ من منزل حاضرٍ إن شئتَ أو بادِى

تلقى سفائنه والعيسُ سائرةٌ والنُّون والضبُّ والملاَّحُ والحادِى

ومنه ما قاله فى سُليان بن المهلب :

إنّ الَّذى شقَّ فَمِى ضامنٌ للرِّزقِ حتى يتوفانِى[1]

حَرمتَنِى خيراً قليلا فما زادكَ فى مالِكَ حِرْمَانِى

وقال فيه وقد قطع عنه برًّا :

يا زَلَّةً يكثرُ الشيطانإن ذُكِرَتْ مِنْها التعجُّبِ جاءَتْ مِنْ سُلَيْمَانا[2]

لا تعجبنَّ لرفدٍ زَلَّ من يدِه فالكوكبُ النَّحسُ يسقى الأرض أحيانا

وقال أيضاً :

أَبْلِغْ سُلَيْمَانَ أَنِّى عَنْهُ فى سَعَةٍ وفى غنًى غيرَ أَنِّى لستُ ذَا مالِ

شُحًّا بنفسىَ إِنِّى لاَ أرَى أحداً يموتُ هَزْلاً ولا يبقى على حال

وقال : نظرت فى علم النجوم ، فهجمت منه على ما لزمنى تركه ، فقلت منشدا إذ ذاك :

بلِّغا عنِّى المنجِّمَ أنِّى كافرٌ بالذى قضته الكواكبْ

عالمٌ أنّ ما يكون وما كان قضاء من المهيمنِ واجبْ[3]

* * *

٧٠ — وَفَصَلَ بَيْنَ الاسْمِ وَالْمُسَمَّي .

الاسمُ ما يعرف به ذات الأصْل ، وأصله من السموّ ، وهو الذى ذكر به المعرّف ، ويقال : سِمٌ واسم وسُمٌ ، واختلف فى تقدير أصله .

---

(١) مراتب النحويين (٢) ابن خلكان . .

(٣) من ت .

والمسمّى هو المعنى الذى وضع له الاسمُ ، وللقدماء مباحث طويلة فى معنى الاسم والمسمّى ، فمنها قول بعضهم ـ وعليه الجمهور : الاسم غير المسمّى ، وهو الّذى يراد به التسمية ؛ كقولك للرجل : عرِّفنى ما اسمُك ؟ لستَ تسأله أن يعلِّمَك بذاته ، وإنّما تلتمس منه العبارة المعبّر بها عنها ، واستشهد بقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[1] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مَنْ أحصاها دخل الجنة » .

ولو كان الاسم هاهنا هو المسمّى لكان الله تعالى تسعة وتسعين شيئا ، وهذا كُفْر .

وقول عائشة رضى الله تعالى عنها : والله يا رسول الله ، ما أهجر إلا اسمَك .

وقال آخرون : الاسمُ هو المسمّى ، لا على أن معنى العبارة عيْن المعبَّر عنه ، وأنّ اللفظ هو الشّخص ، فإنّ ذلك محال ، ولكن الاسم هو المسمّى على معان ثلاثة :

الأول : إنما وضعت الأسماء ليتصوّر بها المسمّيات فى نفوس السامعين ، وتقوم عند الغيبة مقامها لو شاهدوها ، فلمّا ناب الاسم من هذا منابَ المسمّى فى التصوير جاز أن يقال : إنّ الاسم هو المسمّى .

الثانى : إنّ أكثر ما يتبيّن فى الأسماء التى تشتق للمسمّى من معانٍ موجودة فيه قائمة به ، كقولنا لمن وجدت فيه الحياة : حىّ ، فالاسم من هذا النوع لازم للمسمّى ، يرتفع بارتفاعه ، ويوجد بوجوده ، ألاَ ترى أن الحياة إذا بَطَل وجودها من الجسم بطل أن يقال له : حىّ ، وإذا بطل أن يقال له : حَىّ ، بَطَل أن يكون به حياة ، فيجوز من هذا أن يقال : إنّ الاسم عَيْن المسمّى ، يوجد بوجوده ، ويرتفع بارتفاعه .

---

(١) سورة الأعراف ١٨٠ .

الثالث : أنّ العرب قد تذهب بالاسم إلى المعنى الواقع تحت التّسمية ، فتقول : هذا مسمّى زيد ، أىّ هذا المسمّى بهذه اللفظة التى هى « الزاى والياء والدال » ، ويقولون فى هذا المعنَى : هذا اسم زيد ، وهو باب ظريف من كلام العرب يحتاج إلى فَضْل نظر ؛ ويجىء فى كلامهم على ضربين :

الأوّل : ما صرّح فيه بلفظ الاسم حتى بانَ لمتأمِّله ، مثل قول ذى الرُّمة يصف بذلك خِشْفا :

ما يرفع الطّرْف إلا ما تخوّفَهُ   داعٍ يناديِه باسم الماء مَبْغُومُ(١)

يعنى أن هذا الخِشف لا ينتبه من النّعاس إلاّ إذا تفقدته أمّه للرّضاع ، فصاحتِ به : « ما ما » .

وكان أبو عبيدة يذهب فى تأويل هذا اللّفظ إلى أن الاسم زائد ، والتقدير : يناديه بالماء ؛ وأبو علىّ الفارسىّ يحمله على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، فالتّقدير : يناديه باسم معنى .

والثانى : ما لم يصرّح فيه بذكر معنى الاسم ، إلاّ أنه موجود من طريقِ المعنى ، مثل قولهم : كتبتُ اسمَ زيد ، فليس المراد أنه كتب هذه الأحرفَ ، وإنما يريد أنه كتب اسم المسمّى الواقع تحتها .

وقال قوم : يكون الشىء الواحدُ مسمًّى من جهة ، وتسميةً من أخرى ، فإن قولنا : «اسم» لفظة تحوى الجنس والنّوع؛ لأنه يوقع تحتها الألفاظ التى يعبّر بها عن المعانى ، كجوهر وعرَض ، ورجل ، وفرس ، وزيد ، وعمرو ، فكلّ واحد من هذه الألفاظ يقال له : اسم ، وهو تسمية لما تحتَه من معناه ، فيكون بإضافته

---

(١) ديوانه ٦٧ ، وروايته : « لا ينعش الطرف » .

إلى الاسم الذى فوقه مسمًّى، ويكون بإضافته إلى المعنى الذى تحته تسمية واسما، مثال ذلك قولنا : زيد ، وإنسان ، وحيّ ؛ فإنك تجدُ الإنسان الّذى هو الواسطة بين زيد والحيّ مسمًّى إذا كان يقال على الحيّ ، واسما إذا كان يقال على زيد . وتجد زيدًا والإنسان وإن كان أحدهما مسمّى والآخر اسماً قد تساويا فى أنهما مسمّيان للحيّ ؛ إذا كان الحيّ يقال على كلّ واحد منهما ، ونجد الحيّ الذى هو اسم الإنسان والإنسان الذى هو مسمّى قد تساويا فى أنهما اسمان لزيدٍ .

وقد طال هذا الفصل عن الغَرض فى هذا الكتاب ، وإنما ذكرته لتعلّق بعضه ببعض ، بعد حذف حشوٍ كثير .

* * *

٧١ — وَصَرَفَ وَقَسَّمَ ، وَعَدّلَ وقوَّمَ .

لم أتحقق المعنى المراد بهاتين السّجعتين ، فسألت عنهما بعض علماء الإسلام ، فقال : الصّرف نوع من المعاوضة ، وهو ما كان العِوَضان فيه من النَّقدين ـ أعنى الذّهب والفضة .

وقوله : « وقسّم » كأنه يريد به تقسيمَ الأموال المشتركة ، ووجْه مناسبة الصَّرْف أنّ المالَ المشتركَ إذا كان ذهباً قليلا فقد يتعذر قسمُه بالدنانير ، فيصرف بالدراهم ، ثم يقسم .

وقوله : «وعدّل وقوَّم» يريد به تعديلَ الأقسام وتقويمَها ، فإنّ المال المشترك إذا كانتْ أجزاؤه مختلفة فى الصُّورة والقيمة كالدُّور والبساتين ، فإذا أريد قسمتَها ولا بدّ فتعدّل بالتقويم ثم تقسّم ، مثلا إذا كان البستان بين ثلاثة بالسويّة يُقوّم البستان فى الأوّل ، ثم تعدّل الأجزاء باعتبار ذلك ، فتجعل الثلاثة أجزاء متساوية ؛ ثم تقسم بالإقراع أو بتعيين الحاكم ، كلّ هذا داخل فى أبواب الفقه .

وقد قيل : إنّ مالكاً أوّل مَنْ صنّف فيه ، وقد تقدّم ذكره .

* * *

٧٢ — وَصَنَّفَ الْأَسْمَاءَ وَالْأَفْعَالَ .

الأسماء والأفعال هنا : ما اصطلح عليه النّحويون فى أقوالهم ، وقسّموه فى كُتبهم الموجودة ، والاسم عندهم ما وقع على معنًى غيرِ مقرونٍ بزمان ، ويعرَف بدخول الجرّ عليه ، ويصلح فيه « نفعنى » ، و« ضرّنى » ، ويدخل عليه أيضا الألف واللّام ، وهو أصل والفعل فَرْعٌ عليه .

وقسّمه بعض القدماء على ثلاثين قسما ، وهى : مُعرَب ومبنىّ ، وظاهر ومكنىّ ، ومعرفة ونكرة ، ومُعيّن ومبهَم ، وعربىّ وأعجمىّ ، وذكر وأنثى ، ومقصور وممدود ، وعامل وغير عامل ، ومشتّق وغير مشتق ، ومضارع وغير مضارع ، ومعتلّ وصحيح ، وزائد وناقص ، ومنصرف وغير منصرف ، ومفرد ومضاف ، ومدغم ومظهر ؛ وشَرْح ذلك موجود فى كُتبهم .

والفعل ما تصرّف بالزمن كقولك : ضرب ويضرب .

وقال السِّيرافِىّ : وهو محتمل للزوائد التى هى الياء والتاء والنّون والألف ، وهو الحال .

قال التوحيدىّ : وسمعتُ أبا حفصٍ الأشعرىّ ، يقول : لامعنى للحال ، إنّما هو الماضى والمستقبل ، وتحصيل الحالِ محالٌ وتوهُّمٌ باطل ؛ لأنّك لا تفرغ من الماضى إلاّ إلى المستقبل ، ومتى فرضت بينهما واسطة كنتَ فيهما واهِماً ، فقيل له : إنّ الذى يوضّح الحال أنك إذا أتيتَ بالسّين فى « سيصلى » ، لم يكن المعنى إلاّ فى الاستقبال ، فلولا أن الغرض قد كان كامناً فى قولنا « يصلى » لم توضّحه

السّين ، فكأن الشبهة[١] أن «يصلِّى» دالٌّ على الحال متضمّن معنى الاستقبال؛ حتى يقترن باللفظ ما ينصب دليلاً على الغرض الواضح ؛ فكان يكابر عند هذا البيان ويقول : لوصحّ هذا لصحّ قول الفلاسفة فى الفصل بين الشيئين ، أى ما يكون مشتركاً بين شيئين كأنه مركّب من بدئهما ، فقيل له أيضا : هذا كما قاله من خالفته ، وأنت فى ذلك أجهلُ من هِرَّة ، فإنها تمشى على حافّة الجدار غير متمكنة من سمته[٢] ، وتريغ مع ذلك مكاناً آخر للفضل الذى يلوح لها ، وهى[٣] لاتمسك نفسها ولا ترسلها ، فما ظنك يا أبا حفص بشبهة تكشفها هرّة ؟

والأفعال تنقسم أيضا إلى أقسام كثيرة : كالماضى والمضارع والأمر ، والمتعدّى إلى واحدٍ واثنين وثلاثة ، وغير المتعدّى ، والتامّ والناقص ، وما سمّى فاعله وما لم يسمّ فاعلُه ، وأفعال القلوب وغيرها ، وأفعال المقاربة ، وأفعال التعجبّ وغيرها ، وأفعال المدح والذمّ وغيرها .

* * *

[أبو الأسود الدؤلىّ]

وأوّل مَنْ وضع علم النّحو أبو الأسود الدؤلىّ[٤] ، واسمُه ظالم بن عمرو بن سُفيان ؛ وكان من فقهاء البَصْرة وعلمائهم ونصحائهم ، وشيعة أمير المؤمنين علىّ ابن أبى طالب كرّم الله وجهه ، وولّاه البصرة .

وسبب وضعه لذلك ؛ أنّه دخل على ابنته بالبصرة ، فقالت له : يا أبتِ ، ما أشدُّ الحرّ ! فقال : شهر آزار ، فقالت : يا أبت ، إنّما أخبرتك ولم أسألك ، وكان مرادها التعجّب ، فأتى أميرَ المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ،

---

(١) ت : « الشبه » .
(٢) ت ، م : « على سمته » .
(٣) ساقطة من ت .
(٤) م : « الديلى » .

فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ذهبتْ لغة العرب لمّا خالطت الأعاجم ، و يوشِك أن تضمحلّ ، وأخبره[١] خبر ابنتِه . فأمره فاشترى صُحفاً ، فأملَى عليه : الكلام كلّه لا يخرج عن اسم ، وفعل ، وحرف جاء لمعنى ، ثم قال له : انحُ هـذا النّحو ؛ فسمى النّحو ، [ثم رسم رُسوم النحو كلها][٢] .

وقيل: [٣] كان سببُ وضع النّحو أنّ معاوية أرسل إلى زيادٍ يطلب ابنَه ، فأدخِل عليه فسمعه يلحن[٣] ، فأرسل إلى أبيه يلومه ، فأرسل زياد إلى أبي الأسود أن يضع فى النحو شيئا ـ وكان أبو الأسود من أفصح الناس ، و يقول : إنّى لأجد اللحن غَمَرًا كغَمَر اللحم ـ فأبى أبو الأسود ، وكره إجابة زياد ، فوجّه زياد رجلا وقال له: اقعد فى طريق أبى الأسود ، فإذا مرّ بك فاقرأ شيئا من القرآن وتعمّد اللّحن ، فقعد ، فلما مرّ به أبو الأسود قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِه ﴾[٤] بالجرّ ، فاستعظم أبو الأسود ذلك ، وعادَ إلى زياد فقال : قد أجبتك . ثم وضع مختصره فى أصول النحو . وأول ما وضع باب التعجب ، ثم وضع بعده عنبسة ، ثم أبو عمرو بن العلاء وغيرهما ، إلى أن وصل إلى سيبو يه ، فأخذ الغاية على مَن قبله و بعده .

وكانت وفاة أبى الأسود سنة تسع وستين بالبصرة بالطاعون الجارِف[٥] ، وهو ابن خمس وثمانين سنة .

وكان عالمًا شاعراً ذا رأيٍ ، إلاّ أنه كان شـديد البخل والتشيّع ، فمن أخباره ما حدّث أبوعمرو ، وقال : كان أبو الأسود نازلا فى بنى قُشَير ، وكانوا يخالفونَهُ فى المذهب ، لأنّ أبا الأسود كان شِيعيًا ، فكانوا يذمّونه بالليل ، فإذا

---

(١) ط : « وأخبر » . (٢) تـكملة من ط ، م .

(٣ـ٣) ت : « ثم إن معاوية أرسل إلى زياد يطلب ابنه ، فأدخل عليه فسمعه يلحن »

(٤) سورة التوبة ٩ . (٥) الطاعون الجارف وقع بالبصرة سنة ٦٩ فى خلافة ابن الزبير ، قال المدائنى : حدثنى من أدرك الطاعون الجارف قال : كان ثلاثة أيام ، فمات فيها نحو من سبعين ألفا . تاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ٣٧٣ .

أصبح شكا ذلك ؛ فشكاهم مرّة ، فقالوا : نحن مانَرْمِيك ، ولكنّ الله يرميك ؛ فقال : كذبتمْ ، لو كان الله يرميني ما أخطأني !

وقال لهم يوماً : يابني قُشير ، ما أحبّ إليّ طول بقاء منكم ، قالوا : ولم ذاك ؟ قال : لأنكم إذا ركبتم أمراً علمت أنه غيّ فاجتنبته ، وإذا اجتنبتم أمراً علمت أنه رُشد فاتّبعته .

وقال له رجل : أنتَ والله ظَرْف عِلْمٍ وحِلِم ؛ غير أنك بخيل ، فقال : وما خير ظرفٍ لا يمسك ما فيه !

وسأله رجل فمنَعه ، فقال : يا أبا الأسود ، أما أصبحت حاتمناَ ! فقال : بلَى ، قد أصبحت حاتمكم من حيث لا تدرى ، أليس حاتم يقول :

أماوِيّ إمّا مانعٌ فمبيّنٌ وإمّا عطاء لا ينهنهُ الزَّجْرُ ![1]

وحكى أن أعرابيًا مرّ به وهو يأكل رُطَبًا على باب داره ، فقال : السّلام عليكم ، فقال أبو الأسود : كلمة مقولة ، فقال : أأدخل ؟ قال : وراءك أوسعُ لك . قال : أنا ابن الحمَامة ، قال : انصرف ، وكن ابن أيّ طائر شئت ! قال : سألتك بالله إلاَّ اطعمتَنى ممّا تأكل ! فألقى إليه ثلاث رطبات ، فوقعت إحداهنّ فى التّراب ، فأخذها فمسحها بثوبه ، فقال : دَعْها ، فإن الذى تمسحها منه أنظف مِنَ الّذى تمسحها به ، فقال : إنما كرهتُ أن أدَعها للشيطان ، فقال : لا ، والله ولا لجبريل وميكائيل تَدَعُها !

وجلس يوماً إلى معاوية يتحدّثان فى خَلْوَةٍ ، ثم تحرّك فضرَط ، فقال لمعاوية : استرها علىّ ، قال : نعم ، فلما خرج حدّث بها معاويةُ عمرَو بن العاص ومَرْوانَ بن الحكم ، فلما غدا إليه أبو الأسود قال له عمرو : ما فعلت ضَرْطتك

---

(١) ديوانه ١١٨

يا أبا الأسود ؟ قال : ذهبت مع الرّيح كما تذهب من شيخ ألان الدهر أعضاءه عن إمساك مثلها ؛ وكلّ أجوفَ ضَرُوط ، وإنّ امرأً ضعفتْ أمانته عن كتمان ضَرْطةٍ لحقيق ألاّ يؤتمنَ على المسلمين !

وأسرّ يوماً إلى معاوية بشيء ـ وكان أبخر ـ فأصغى إليه معاوية ماسكاً أنفَه ، فنحّى أبو الأسود يدَه عن أنفه ، وقال : لا والله ، لا تسود حتى تصبِر على سِرارِ البَخَر !

ومن شعره يقول :

وكنتَ مَتَى لَمْ تَرْعَ سِرَّكَ منشراً نوازعه[1] من مخطىء ومصيبِ[2]

فما كلّ ذى لبٍّ بمؤتيك نصحَهُ ولا كلُّ مؤتٍ نصحَه بلبيبِ

وكتب إلى معاوية ـ وقد وعده فأبطأ عليه ـ يقول :

لاَ يَكُنْ بَرْقُكَ بَرْقًا خُلَّبًا إنّ خَيْرَ البَرْقِ ما الغيثُ مَعَهْ[3]

لا تَهِنّى بعد أنْ أكرمتَنِى فشديدٌ عادةٌ منتزَعَهْ

وقال يخاطب ولدًا له كان لا يطلب الرّزق :

وَمَا طلَبُ الْمعيشَةِ بالتَّمنِّى وَلَكِنْ أَلْقِ دَلْوَكَ فى الدِّلاَءِ[4]

تَجِىء بمثلِهَا طَوْراً وطوْراً تجىء بحمْأةٍ وقليلِ ماء

وقال أيضاً :

يقولُ الأرذلونَ بَنُو قُشَيْرٍ: طَوَالَ الدَّهْرِ لا تنسى عليًّا![5]

بنو عمِّ النبىّ وأقربُوه أحبُّ النَّاسِ كُلِّهُمُ إليَّا

أحبّهُمُ كحبّ الله حَتَّى أجىء إذا بُعِثْتُ عَلَى هَوَيَّا

فإنْ يَكُ حُبُّهم رُشْداً أُصِبْهُ ولستُ بمخطىءٍ إنْ كانَ غَيًّا

---

(١) ت : « بوادره » م ، بوارقه . (٢) ديوانه ٤٥ .

(٣) ديوانه ١٤ . (٤) ديوانه ٤٣ .

(٥) قالها فى رثاء على بن أبى طالب ، ديوانه ٣٢.

فروى أن بنى قُشير قالوا له : قد شككت يا أبا الأسود ! فقال : كلاَّ ، ما شككت ، أما سمعتم قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِين ﴾ ، أفترون أن الله تعالى شكّ !

وقوله : « هَوَيًا » بلغة هُذَيل ، قال أبو ذُؤيب :

سَبَقوا هَوَىَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ ... فَتُخُرِّمُوا ولِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[1]

* * *

٧٣ — وَبَوَّبَ الظَّرفَ وَالْحَالَ .

الظّرف فى النّحو يقال للزّمان والمكان ، وإذا جعل محلاًّ لأمورٍ تقع فيه[2] ، كقولك : أعجبنى الخروجُ اليومَ ، فـ«اليوم» محلٌّ للخروج الذى أسندتَ إليه الحديث ، فإذا قلت : أعجبنى اليومُ ، لم يسمّ ظرفا ؛ لأنك إنما تحدّث عنه لا عن شىء وقع فيه ، فمن خاصّة الظرف ألاّ يكون محدَّثاً عنه ، وأن يصلح فيه تقدير « فى » .

وكان الخليل يقول : أنا أوّل من سمّى الأوعية ظروفاً لما يحلّ فيها

والحال ما يعرف من هيئة الفاعل والمفعول فى حال وقوع الفعل ، كقولهم : جاء زيد راكبا ، وضربت اللصّ قائما ؛ فالركوب هيئة زيد فى وقت مجيئِه ، والقيام هيئة اللصّ فى وقت ضربِه . والحال إمّا أن يكون نكرةً ، أو فى حكمها ، وبعد كلام تامّ أو حكمه ، أو بعد[3] اسم معرفة أو حكمها ، ولها أقسام مثل : المستصحبة ، والسادّة ، والمحكيّة ، والموطّئة ، والمؤكدة ؛ وغير ذلك .

* * *

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٢ .
(٢) ت ، م « فيها » .
(٣) ط : « وبعد » .

٧٤ — وَ بنىَ وَأَعْرَب ، وَ نفَى وَتَعجبَ .

المبنىّ ما لم يتغيّر آخره من الـكلام بدخول العامِل عليه .

والمعربَ ما تغيّر آخره بدخول العامِل عليه بحركة[١] أو حرف ، ولا يُعرَبُ من الـكلام إلا الاسم المتمكّن ، والفعل المضارع .

وأشار بالنفى والتعجّب إلى أنّ الـكلمة الواحدة قد يراد بها النفى ، وقد يرادُ بها التعجّب ؛ فمن لا يدرى النحو لا يميِّز بين محلّيْهما كما فى قولهم : ما أحسن زيدٌ ، وما أحسن زيدا ! فإنها فى الأول للنفى ، ولهذا ارتفع « زيد » لأنها نفت المسند إلى « زيد » ، وفى الثانى للتعجب ؛ ولهذا انتصب « زيدا » ؛ لأنّ فاعل « أحسن » هو ضمير مستكنٌّ فيه يعود على « ما » ، فإنّ معناها فى الأصل : « شىء أحسن زيدا » ، وبسبب هذه المسألة وُضِع علم النَّحو ، كما تقدّم فى ذكر أبى الأسودِ [الدُّؤَلِىّ][٢] مع ابنته .

* * *

٧٥ — وَوَصَلَ وَقَطَعَ ، وَ ثنَّى وَجَمعَ .

أشار إلى معرِفة مواقع هَمْزة الوصل من[٣] مواقع هَمْزة القطع ، وقد أنشِد البيت المشهور فى مَدْح النبىّ صلى الله عليه وسلم على وجهين وهو :

وشقّ لَهُ مِنْ إسْمِهِ لِيُجِلّه[٤] فذو العرش محمود وهـذا محمدُ

---

(١) حاشية ت : « كان على الشارح أن يزيد هنا : « حقيقة أو تقديرا » ؛ لئلا يدخل المعرب تقديرا فى حد المبنى ؛ وإن لم يكن هذا موضع ذلك ؛ لـكن قد أورده بصفة الحد ؛ فـكان الأحسن أن يكون جامعا مانعا » .

(٢) من ط .

(٣) ت : « مع » .

(٤) ط : « فشق له » .

فقيل : « شقّ له مِنْ إسْمه » بإثبات الهمزة ، وسلامة النظم من الزّحاف .

وقيل : « وشقّ له من اسمه » باستعمال الوصل ، ويكون ذلك مع دخول القبض في الجزء الثاني من الطويل ، وهو «مفاعيلن» بحذف الياء ، فيصير «مفاعلن » ، وهو زحاف مستعمَل في هذا البحر ، تقع المعاقبة بينه و بين الكفّ ، وهو أخفّ منه وأكثر استعمالا .

والتّثنية زيادة ألف أو ياء مفتوح ماقبلها في آخر الكلمة مع نونٍ مكسورة ، كقولهم : الرّجُلان والرّجُلَيْن .

والجمع ضربان : أحدُهما جمع التّصحيح ، وهو ما سلم فيه بناء مفرده ، وهو قسمان : جمعُ المذكّر، ويكون بزيادة واو أو ياء مكسور ما قبلها في آخر الكلمة ، ونون مفتوحة نحو المسلمين والمسلمون ، وجمع المؤنث ويكون بزيادة ألف وتاء في آخر الاسم كثمرات ومسلمات في جمع ثمرة ، ومسلمة .

والضرب الثاني جمع التكسير ، وهو ما لم يسلَمْ فيه بناء مفرده ، كرجال وأصحاب ، في جمع رجُل وصاحب .

* * *

٧٦ — وَأَظهَرَ وَأَضْمَرَ ، وَاسْتَفْهَمَ وَأَخْبَرَ .

الإضمار أن يؤتَى في الكلمة بلفظٍ مضمرٍ ، وهو ماوضع لمتكلّم أو مخاطب أو غائب ، كأنا وأنت ، وهو مأخوذ من الضّمْر ، وهو الخفاء .

والإظهار أن يؤتَى باللفظ المظهَر وهو ما عدا المضمَر ، مأخوذ من ظَهَر الشيء ، إذا كان على ظاهر الأرض واضحاً .

والاستفهام : طلب الإخبار بشيء ، واللفظ الدالّ عليه بالوضع ؛ إمّا اسم

كقولنا : ما الإنسان ؟ ومَنْ زيد ؟ وكيف أنت ؟ ومتى تقوم ؟ وإما حرف، وهو الهمزة فى نحو قولك : أقام زيد ؟ وهل فى : هل قام زيد ؟

والإخبار : الإتيان بالجملة المحتمِلة للصدق والكذب ، كقولك : قام زيد ، [وما أشبه ذلك][1] .

* * *

٧٧ — وَأَهْمَلَ وَقَيَّدَ ، وَأَرْسَلَ وَأَسْنَدَ ، وَبَحَثَ وَنَظَرَ .

إمّا أن يكون أراد الحروفَ المهملَة الّتى هى غير المقيّدة بالنّقط والشكل ، وعلى ذلك وضع الخليل كتاب « النّقط والشكل » . وإما أن يكون أراد بالمهمل المطلَق ، وعدل عنه إليه لموازنة قوله فى السجعة الثانية : « أرْسَل وأسْند » .

والمطلَق ما لم يقيّد ، والمقيّد ما ضمِّن وصفاً ، كقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ[2] ﴾ ، فأطلق . وقال فى الرّبائب : ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾[2] ، فقيّد .

والمرسَل والمسنَد ما اصطلح عليه فى علم الحديث ؛ فالمرسَل عند المحدّثين قول التابعىّ الكبير : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ، وفعل كذا ؛ فهذا مرسَلٌ عندهم باتفاق .

وأما قول التابعىّ الصغير كالزهرىّ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال قومٌ : يسمَّى مُرْسَلاً ، وقال قوم : بل يسمَّى منقطعا ؛ لأن أكثر روايتهم عن التابعىّ .

---

(١) من ط .　　　(٢) سورة النساء ٢٣ .

وأما المسنَد ؛ فهو ما اتَّصل سندُه من روايه إلى منتهاه ، وفيه أقوال .
وينقسم إلى صحيح ، وحسن ، وضعيف .

فالصّحيح ما اتّصل سنده برواية العدْل الضَّابط عن مثله ، وسلِم من شُذوذٍ وعلّة ؛ والشاذّ ما يرويه الثّقة ممّا يكون مخالفاً لما رواه النّاس ، والمعتلّ ما فيه سبب قادح على نصٍّ ظاهره السلامة .

وأما الحسن فهو ماعرِف مخرَجه ،واشتهر رجالُه . وقال بعضهم : هو الّذى فيه ضعف يحتَمل ، ويصلح العمل به .

والضعيف كلّ حديثٍ لم يجتمع فيه شروط الحديث الصحيح ولا الحسن المتقدّم ذكرهما .

والبحث الكشف عن الشيء والطلب ، يقال : بحثتُ عن الأمر ، وبحثت كذا .

والنّظر تقليب البصيرة لتأمّل الأمر ، مأخوذ من تقليب البصر لإدراك الشيء .

* * *

٧٨ — وَتَصَفَّحَ الْأَدْيَانَ .

صَفَح الشيء : عرضه ، كصفحة[(١)] الكتاب والوجه ، وتصفّحتُه استعرضته وتأمّلت وجهه .

والأديان : جمع دين ؛ وهو الشريعة والملّة ، والأصل فى الدّين الطّاعة ، واستُعير للشّريعة للانقياد إليها والطّاعة ، والمراد النّظر فى مذاهب أهل الأديان وشرائعهم ، واختلاف فرقهم كالمسلمين . والإسلام على ضربين : أحدهُما دُون

(١) ط : « كصفح » ؛ وأثبت ما فى باقى الأصول .

الإيمان ، وهو الاعتراف باللّسان ، وبه يحقَنُ الدم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾[1] .

والثانى فوق الإيمان ، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقادٌ بالقلب ، ووفاء بالفعل ، والاستسلام لله تعالى فى كلّ ما قضى وقدّر ، كقوله تعالى فى قصّة إبراهيم : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] .

والتصفّح لمذاهب المسلمين وفرقهم كالمعتزلة ، والأشعرية ، والإمامية وغير ذلك ، وكاليهود وفرقهم من العنانيّة ، والموشكانية[3] ، والعبرانية ، والقرّائين ، والسامرة ، وما أشبه ذلك[4] .

واسم اليهود مأخوذ من هادَ الرجُل ، إذا رجع وتاب ، وإنما لزِمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾[5] . أى رجعنا وتضرّعنا ، وكان فى الأوّل اسم مدح ، ثم صار بعد نسخ شرائعهم لازمًا لهم[6] ، والنّصارى وفرقهم من المَلْكانية ، واليَعقوبية ، [والنّسطورية ، والأرْمن ، والرُّوم ، والمارونية وغيرهم ، واسم النصارى مأخوذ][7] من قول عيسى عليه السلام : ﴿ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ﴾[8] ، ثم صار لازمًا لهم بعد نسخ شريعتهم أيضا . وقيل : مأخوذ من نسبتهم إلى قرية يقال لها : نَصْران .

والمجوس وفرقهم من الكيومرثيّة ، والزردشتيّة ، وما أشبه ذلك[9] ،

---

(١) سورة الحجرات ١٤ .
(٢) سورة البقرة ١٣١ .
(٣) ت : « الوسكانية » م :
(٤ـ٤) كذا فى ط ، وفى ت : « والسامرية وما أشبه ذلك » .
(٥) سورة الأعراف ١٥٦ .
(٦) ط : « ذمالهم » .
(٧) من ط .
(٨) سورة آل عمران ٥٢ .
(٩) ت : « وما أشبه ذلك » .

وقد استوفى ابنُ حزم الكلام على جميع هذه الأصول والفروع ، فى كتاب الملل والنحل[١] .

* * *

٧٩ — وَرَجَّحَ بَيْنَ مَذْهَبَيْ مَانِى وَغَيْلَانَ .

[مانى الثَّنَوِىّ]

هو مانى بن فاتك[٢] الثَّنَوِىّ ، الذى تنسب إليه المانوِيّة ، كان راهباً بنجْران قائلا ببنوّة المسيح ، معظَّماً فى أساقِفة النّصارى، محمودَ السِّيرة فيهم، فزنَى فسقطت مرتبته، وكان له حَسَدَة من بطارقة زمانِه ، فوجدوا السَّبيل إلى ما أرادوا منه ، فلما رُئِيَ حالُه أخذ فى الردّ على أصحابه ، وقال : لم أزْنِ ، ولكنّهم حسدونى وأنكروا مخالفتى لهم فى أصل دينهم ، إذ كانوا يقرّون بالمسيح اللاهوتىّ ، رسول الشيطان .

وكان مانى فى الأصل مجوسيًّا عارفاً بمذاهب القوم، فأحدث ديناً ودعا إليه ، وظهر فى أيام سابور بن أَرْدشير ، وتبِعه خَلْقٌ عظيم من المجوس ، وادَّعَوْا له النبوّة[٣] ، ونسبوه لها ، إلى أن قتل فى زمان بهرام بن سابور كما سيأتى ذكره .

حدّث النوبختىّ وغيرُه ، قال : زعم مانِى وأصحابُه أن صانع العالم اثنان : فاعل الخير نور ، وفاعل الشرّ ظُلْمة ، وهما قديمان ، لم يزالا ولن يزالا حسَّاسَيْن سميعيْن بصيريْن ، وهما مختلفان فى النَّفس والصورة ، متضادّان فى الفعل والتدبير ، فجوهر النور فاضل حَسَن نيِّر ، ونفسه خيِّرة حليمة نفّاعة ؛ منها الخيْر والسرور والصَّلاح ، وليس منها من الشرّ شىء ، وجوهر الظلمة على ضدّ ذلك جميعِه ؛ والنُّور مرتفعٌ فى ناحية الشّمال ، والظّلمة منحطّة فى ناحية الجنوب ، وزعموا أنّ

---

(١) الملل والنحل لابن حزم ١ : ٣٤ وما بعدها .
(٢) ت : « مانى » .
(٣) ت ، م : « نبوته » .

لكلٍّ واحدٍ منهما أجناساً خمسة ، أربعة منها أبدانٌ ، وخامس هو الرُّوح . فأبدان النّور الأربعة : النَّار ، والنور ، والرّيح ، والماء ، وروحها الشَّبَح المتحرّك فى [هذه الأبدان][1] ، وأبدان[2] الظلمة أربعة : الحريق ، والظلام ، والسّموم ، والضباب ، وروحها الدّخان ، وسمّوا أبدان النور ملائكة ، وأبدان الظلمة [وبعضهم يقول: أبدان النور تتولّد ملائكة وأبدان الظلمة تتولد شياطين][1] ، وأنّ النّور لا يقدر على الشرّ ، ولا يجوز منه ، والظلمة لا تقدِر على الخير ، ولا تجوز منه .

قال بعض المتكلّمين : والّذى حَمَلَهم على هذا أنَّهم رأوْا فى العالم شرًّا[3] واختلافا ، فقالوا : لا يكون من أصل واحد شيئان متضادّان ، كما لا يكون فى عنصر النّار السّخْن[4] والبرد .

وقد ردّ عليهم بعضُ العلماء فى قولهم : [إنّ][1] الصّانع اثنان ، فقال[5] : لو كانا اثنين لم يخلُ من أن يكونا قادرَيْن أو عاجزين ، أو أحدهما قادراً والآخر عاجزا ، [لا جائز أن يكونا عاجزين][1] ، لأن العجز يمنع ثبوتَ الإلهيَّة ، ولا يجوز أن يكون أحدُهما عاجزاً ، فبقى أن يقال : هما قادران ، فيتصوّر أن أحدهما يريد تحريكَ هذا الجسم فى حالةٍ يريد الآخر تسكينه فيها ، ومن المحال وجود ما يريدانه ، فإنْ تمّ مرادُ أحدهما ثبت عجز الآخر .

وردّ عليهم آخر فى قولهم : إنّ النور يفعل الخير ، والظلمة تفعل الشرّ، بأنه لو هرب مظلوم فاستتَر بالظلمة ، فهذا خيرٌ وقع من[6] شرٍّ ، ومن هاهنا أخذه المتنبىّ فقال :

---

(١) تكملة من ط .
(٢) ت : « وفى أبدان » .
(٣) ت : « نشرا » .
(٤) م : « التسخين »
(٥) ت « فقالوا » .
(٦) كذا فى ت ، م ، وفى ط : « فى » .

وكم لظلامِ اللَّيلِ عِندكَ مِنْ يَدٍ   تُخَبِّرُ أَنَّ المانَوِيَّةَ تَكْذِبُ(١)

وقال الجاحظ : المانويّة تزعُم أنّ العالم بما فيه مركّب من عشرةِ أجزاء ، يعنى أجناساً خمسة منها خير ونور ، وخمسة منها شرّ وظلمة ، والإنسان مركّب من جميعها ، فمن(٢) نَظَر نظرة رحمة فتلك النَّظْرة من الخير والنور ، ومن(٢) نظر نظرة قَسْوة ، فتلك النّظْرة من الشرّ والظلمة ، وكذلك جميع الحواسّ .

وكان المأمون يسأل المانويّة عن مسألة قريبة المأخذ قاطعة ، فناظر أحدهم فقال : أسألك عن حرفين فقط : هل ندِم مسىء على إساءته ؟ قال : بلى ، قد ندم كثير. قال : فخبّرنى عن النّدَم على الإساءة: إساءة أم هو إحسان ؟ قال: إحسان، قال : فالّذى ندِم هو الذى أساء ؟ قال : نعم ، قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشرّ ، وقد بطل قولكم : إنّ الذى ينظر نظَر الوعيد غير الذى ينظر نظر الرحمة ؛ قال : فإنى أزعم(٣) ، أن الذى أساء غير الذى ندم ، قال : فندم على شىء كان من غيره ، أو على شىء كان منه ؟ فقطعه [بهذه الحجّة](٤) .

ولمانى وأصحابه فى امتزاج النّور والظُّلمة ، وحُدوث الشمس والقمر ، والنجوم لاستصفاء النور من الظلمة إلى ألاّ يبقى شىء منه فى هذا العالم ، وتنطبق السماء على الأرض ، ويرجع كلّ شكلٍ إلى شكاه أقوال عجيبة ؛ إلى غير ذلك من أنّه لا يرى التناكح(٥) يستعجل فناء العالم ، ويسرع بجمع الأشكال .

ولم تزل أتباعه تكثر ، وشوكته تعظم، إلىأن أحضره بهرام بن يزدجرد — وقيل : سابور — وأراد قتله باتّفاق المو ابذة ، فأمر أدرياد مَوبذ مَوبذان ، بأنه

---

(١) ديوانه ١: ١٧٨ .

(٢) كذا فى ت، م ، وفى ط : « فتى » .

(٣) كذا فى ، م ت ، وفى ط : « فإن الذى زعم » .

(٤) من ط .

(٥) كذا فى ت ، م ، وفى ط ، د : « المناكح » .

بأن يناظره فناظره فى مسألة قَطْع النسل ، وتعجيل فراغ العالم . فقال مَوْبذان : أنتَ الذى تزعُم وتقول بتحريم النِّكاح تستعجل فناء العالم ، ويرجع كلّ شكل إلى شكله ، وأنّ ذلك حق واجب !

فقال مانِى : واجبٌ أن يعانَ النّور على خلاصه بقطْع النسل ممّا هو فيه من الامتزاج .

فقال له أدريار : فمن الواجِب أن يعجَّل لك هذا الخلاصُ الذى تدعُو إليه ، وتعان على إبطال هذا الامتزاج المذموم ! فانقطع مانى ، فأمر بهرام بصلبه على الخشب ، فجعل يصيح ويقول : أيّها المعبود النّورانىّ ، بلّغتُ ما أمرتَنى به ، وهذه عادتهم فىّ [وفى أمثالى][1] ، وأنت الحكيم ، وها أنا الآن مارٌّ إليك ، وما آذيت صامتاً ولا ناطقا ، فتباركت أنت وعالمك النورانىّ الأزلىّ[2] ، فكان آخر قوله ، ثم حَشى[3] جلده تِبْنا !

وكان بهرام فى الأول قد أظهر متابعتَه حتى أحاط علماً بمن تبعه ، فلما قتله أمر بقتل أصحابه ، ثم ظهر ممّن يسلك مسلكهم فى الإسلام بشرٌ عظيم يُسَمَّوْن الزّنادقة ، قتلهم المهدى وأبادهم .

* * *

[غَيْلان القدَرِىّ]

وأمّا غيلان فهو ابن يونس القَدرِىّ الدمشقى ، كان أبوه مولًى لعثمان بن عفّان ؛ وغَيْلان أوّل من تكلّم فى القَدَر ، وخلْق القرآن فى الإسلام .

---

(١) من ط .
(٢) ت : « النورانيون : الأزليون » .
(٣) كذا فى ت ، وفى ط . « ثم ملئ » .

وقيل : أوّلُ من تكلم فى القدَر رجلٌ من أهل العراق ، كان نصرانيًّا فأسلم ، ثم تنصّر ، وأخذ عنه مَعْبد الجهنىّ ، و غَيْلان الدّمشقى .

وروى أن مكحولاً[1] قال لغَيْلان : وَيْلك ياغيلان ! ألم أجدك ترامِى النساء بالسفاح فى شهر رمضان ، ثم صرت حارثيًّا تخدم امرأة الحارث الكذّاب ، وتزعم أنّها أم المؤمنين ، ثم تحوّلت بعد ذلك قدَريًّا وزنديقا !

ورُوِى أنّ غَيْلان وقف يوماً على رَبيعة[2] ، فقال له : أنْتَ الّذِى تزعُم أن الله يحب أن يعصَى ! فقال له ربيعة : أنت الذى تزعم أن الله يُعْصَى قَسْرا !

وقيل لغَيْلان : مَنْ كان أشدُّ عليك ؟ قال : عمر بن عبد العزيز ، كأنّما كان يلقَّن من السَّماء .

وحكى ابن مهاجر ، قال : بلغ عمر بن عبد العزيز أن غَيْلان وفلانًا نطقا فى القَدَر ، فأرسل إليهما وقال : ما الأمرُ الذى تنطقان به ؟ فقالا : هو ما قال الله يا أمير المؤمنين ، قال : وما قال الله ؟ قال : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُوراً ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ ، ثم سكتا ؛ فقال عمر : اِقرآ ، فقرآ حتى بلغا : ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً * وَمَاتَشَاءُونَ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ . . . ﴾[3] . إلى آخر السورة ، قال : كيف تريان يابنى الأتانة ! تأخذان الفروع وتَدَعان الأصول !

قال ابن مُهاجر : ثم بلغ عمر بن عبد العزيز أنّهما أسْرَفا ، فأرسل إليهما

---

(١) هو مكحول الشامى الفقيه ، تابعىّ ، إلا أنه كان يرى القدر . توفى سنة ١١٣ . تهذيب التهذيب .

(٢) هو ربيعة الرأى ، كان أبو العباس السفاح قد أقدمه للقضاء ، توفى سنة ١٣٦ . صفه الصفوة ٢ : ٨٣ .

(٣) سورة الدهر ١ ـ ٣١ .

وهو مغضَب ، فقام عمر ، وكنت خلفه قائماً حتى دخلا عليه ، وأنا مستقبلهما ، فقال لهما : ألم يكن فى سابق علم الله حين أمر الله إبليس بالسجود ألاّ يسجد ؟ قال : فأومأت إليهما برأسى أن قولا : نعم ، [وإلاّ فهو الذّبح][1] ، فقالا : نعم ، فقال : أو لم يكنْ فى سابق علم الله حين نهى آدم وحوّاء عن الشجرة أن يأكلا منها ، فألهمَهُما أن يأكلا منها ؟ فأومأتُ إليهما برأسى ، فقالا : نعم ، فأمر بإخراجهما ، وأمر بالكتاب إلى سائر الأعمال بخلاف ما يقولان ، وأمسكا[2] عن الكلام ، فلم يلبثا إلاّ يسيراً[3] حتى مرض عمر ومات ، ولم يفد الكتاب ، وسال بعد ذلك منهما السيل[4] .

وكان غيلان قد تاب على يد عمر بن عبد العزيز ، فقال عمر : اللهمّ إن كان كاذباً فلا تمتْه حتى تذيقه حَدّ[5] السيف ؛ فقطعت يداه ورجلاه ، وصلِب فى أيام هشام [بن عبد الملك][6] .

حدّث ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : أرسل هشام بن عبد الملك إلى غيْلان ، فقال له : يا غيلان ، ما هذه المقالة التى بلغتنى[7] عنك فى القَدَر ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هو ما بلغك ، فأحضِر مَنْ أحببتَ يحاجُّنى ، فإن غلبنى ضربتَ رقبتى ؛ فأحضر الأوزاعىّ ، فقال له الأوزاعىّ : ياغَيْلان ، إن شئتَ ألقيتُ عليك سبعاً ، وإن شئتَ خمسا ، وإن شئتَ ثلاثا ! فقال : ألقِ ثلاثا ، فقال له : أما قَضَى[8] الله على عبدٍ ما نَهَى عنه ! قال : ما أدرى ما تقولُ ! قال : أفأمر

(١) من ط .
(٢) ت : « وسكتا » .
(٣) ت « فلم يلبثا إلا قدراً » .
(٤) ت « السبيل »
(٥) ط : « حر » .
(٦) من ت
(٧) ت : « تبلغنى » .
(٨) كذا فى ت ، وفى ط : « أقضى الله » .

الله بأمرٍ حال دونه ؟ قال : هذه أشدّ من الأولى ، قال : أفحرّم الله حرامًا ثم أحلّه ! قال : ما أدرى ما تقول ! قال : فأمر به هشام فقطِعت يداه ورجلاه ، فمات ، وقيل[١] صلب حيًّا على باب كَيْسان بدمشق .

ثم قال هشام للأوزاعىّ : يا أبا عمر ، فسِّر لنا ما قلتَ ، قال : قضى الله على عبدٍ ما نهى عنه ؛ نهى آدم أن يأكل من الشجرة ثم قضى عليه ، فأكل منها ، وأمر إبليس أن يسجد لآدم ، وحال بين إبليس والسجود . وقال : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ ، ثم قال : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ[٢] ﴾ ، فأحلّها بعد ماحرّمها .

* * *

وممّن كان يميل إلى هذا المذهب أيضاً غيلان [بن عقبة][٣] ، وهو ذو الرُّمة الشّاعر ، قال : اختصم ذو الرُّمة ورؤبة الرّاجز عند بلال بن أبى بُرْدة ، فقال رُؤْبة : والله ما فحص طائر أفحوصا ، ولا تقرمص سبعٌ قُرْموصا[٤] إلا بقضاءٍ من الله وقدَرٍ ، فقال ذو الرُّمَّة : والله ما قدّر الله على الذئب أن يأكل حَلوبة عَيايِيل ضَرائك ! فقال رؤبة : أفبقدرته أكلها ! هذا كذب على الذّئب . فقال ذو الرمة : الكذب على الذئب خير من الكذب على ربِّ العالمين .

قوله : « عياييل » جمع عيّل ، وهو ذو العيال . وضرائك : جمع ضَرِيك ، وهو الفقير .

---

(١) كذا فى ط ، وفى ت : « فمات وصلب حيا » .
(٢) سورة المائدة ٣ .
(٣) من ت .
(٤) الأفحوص : مجثم الطائر . والقرموص : حفرة للاصطياد ، وانظر اللسان ٨ : ٣٤٠

وعن إسحاق بن سعد، قال : أنشدنى ذو الرُّمة قوله :

وَعَيْنَانِ قَالَ اللهُ كُونَا فَكَانَتَا   فَعُولَانِ بالألباب ما تفعل الخمرُ[(١)]

فقلتُ له : «فعولين» خبر الكون ، فقال لى : لو سبّحت ربحتَ ، إنما قلت : «فعولان» . وإنما تحرّز ذو الرّمة بهذا الكلام عن القول بخلاف مذهبه . والله تعالى أعلم بالصواب .

* * *

٨٠ — وَأَشَارَ بِذَبْحِ الْجَعْدِ .

[الجعْد بن درهم]

أما الجَعْد فهو ابنُ درْهم ، مولى بنى الحكَم ، كان يسكن دمشق ، ويعلّم مَرْوان بن محمّد آخر خلفاء بنى أمية ، فنسب إليه ، فقيل[(٢)] : مرْوان الجعْدىّ .

ويروى أن أمّ مروان كانت أمَةً ، وكان الجعْد أخاها ؛ وهو أوّل من تكلّم بخلْق القرآن من أمّة محمد بدمشق ، ثم طُلب فهرب ، ثمّ نزل الكوفة فتعلّم منه الجهْم بن صفوان القول الّذى نسب إليه الجهميّة .

وقيل : إن الجعْد أخذ ذلك من أبان بن سمعان ، وأخذه أبان من طالوت بن أعصم اليهودىّ الذى سَحَر النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول بخلْق القرآن ، وكان طالوت زِنديقاً ، وهو أوّل من صنّف لهم فى ذلك ، ثم أظهره الجعْد بن درهم ، فقتله خالد بن عبد الله القسْرىّ .

---

(١) ديوانه ٢١٣

(٢) ط : « وقيل » .

[ودخل عليه يوماً بُهْلول ، فقال : أحسن الله عزاءك فى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، فإنّها ماتت ! قال : وكيف تموت ؟ قال : لأنك تقول : إنها مخلوقة ، وكل مخلوق يموت (١) .

ولم يزل الجعْد على مذهبه إلى أن قتله خالد بن عبد الله القسْرِىّ] (١) يوم الأضحى بالكوفة ، وكان والياً عليها ، أتى به فى الوَثاق فصلّى وخطب (٢) ، ثم قال فى آخر خطبته : انصرفوا وضحُّوا بضحاياكم ، تقبّل الله منّا ومنكم ؛ فإنّى أريد اليوم أن أضحِّىَ بالجعْد بن درهم ؛ فإنه يقول : ما كلّم الله موسى تكليما ، ولا اتّخذ الله إبراهيم خليلا ، تعالى الله عمّا يقول علوًّا كبيراً ! ثم نزل وحزّ رأسه بالسكِّين بيده ، وطفئت نار فتنته إلى أن نشأت فى أيام ابن أبى دُوَاد .

* * *

[خالد بن عبد الله القسرىّ]

وأما خالد ، فهو ابنُ عبد الله بن يزيد بن أسد القَسْرِىّ (٣) البَجَلىّ ، كان من أمراء الدّولة الأمويّة ، ولِىَ اليمن ومكّة من قِبَل الوليد بن عبد الملك ، وولّاه هشام العراقَيْن بعد عُمر بن هبيرة ، [ثم عزله لما بلغه من كثرة أمواله و بلاده وأنصاره] (٤) .

وله [مع ابن هبيرة] (٤) مكايدات وأخبار ، فمن أعجبها ماحكى [أن] (٥) ابن هبيرة لما هرب من سجن خالد ، ووفد على هشام وأمّنه ، أرسل خالد مائة

(١) من ت .
(٢) ت : « وحين صلى وخطب » .
(٣) ط : « القشيرى » ، تحريف .
(٤) من ت .
(٥) من ط .

من خيل المِضْمار[١] قد انتخبها ، وأمر السوّاس أن يعارضوا بها هشاماً إذا ركب؛ وكان هشام معجَباً بالخيل لايشتهى أن يكون عند غيره من جيّدها شىء ، فلمّا ركب هشام رأى خيلاً راقته ، فسأل القوم عنها : لمن هى ؟ فقالوا : لابن هبيرة ، فاستشاط غيظاً[٢] ، وقال: واعجبى ! اختان ما اختان ؛ [٣]ثم قدم على قومه وقال لهم : مارضيت عنه بعد[٣] ، وهو يرائمنى[٤] فى الخيل ! علىّ بعُمر ، فدعا به وهو يسيرُ فى عَرْض الموكب ، فجاء مسرعاً ، فقال له هشام : ماهذه الخيل ! فكأنه فطِن لما صنع خالد ، فقال : يا أمير المؤمنين[٥] ، اخترتها وطلبتها من مَظانّها حتى جمعتُها[٦] لك ، فمُرْ بقبضها[٧] ، فأعجبه ذلك، وسكت خالد عن أمرها ، وفسدت مكيدته . ولم يزل ابن هبيرة يبغى به الغوائل إلى أن عزل ، وأقام بالشام برهة ، ثم عذِّب إلى أن مات سنة ست وعشرين ومائة فى خلافة الوليد بن يزيد .

وكان جواداً فصيحاً ، عظيم الهمّة ، إلاّ أنه كان مارقاً من الدين[٨] .

فأمّا جوده ، فإن ابن بيض[٩] الشّاعر دخل عليه يوماً ، فقال : إنّى مدحتك ببيتين قيمتهما عشرة آلاف درهم ، فأحضرها حتى أنشدهما ، فأحضر الدراهم ، ثم أنشده ابن بيض[٩] يقول :

قَدْ كَانَ آدمُ قَبْل حين وفاتِهِ ... أوْصَاكَ وهو يجود بالحَوْبَاءِ

ببنيه أن ترعاهمُ فرعيتَهُمْ ... وكفيت آدمَ عَيْلَةَ الأبْنَاءِ

---

(١) كذا فى ت ، وفى ط : « من الخيل فى المضمار » .

(٢) ط : « غضبا » ؛ وأثبت مافى ت .

(٣-٣) كذا فى ت ، وفى ط : « ثم قدم فوالله ما رضيت عنه بعد » .

(٤) حاشية ت : « يرائمنى ، أى يوافقنى » .

(٥) كذا فى ت ، وفى ط : « خيل أمير المؤمنين » .

(٦) ط : « حتى جعلتها » .

(٧) ط : « فمن يقبضها » .

(٨) كذا فى ت ، وفى ط : « فى الدين » .

(٩) ط : « حيص بيص » ؛ تصحيف .

فدفع إليه خالدٌ الدّراهم ، وأمر أن يُضرَب أسواطا ، وينادَى عليه : هذا جزاء مَنْ لايعرف قيمة شعره . ثم قال له : إنّ قيمتهما مائة ألف .

وروى أنه دخل على خالد شيخٌ كبير ، فمثلَ بين يديه ، فقال : شيخ جَذَبَه إليك سَنَةٌ أبدت العِظام ، فإن رأيتَ أن تجبره بفضْل ، وتُنعشه بسَجْل !

قال خالد : على أن أقارعك (١) ، فإن قرعتُكَ لم أُعطِك شيئاً ، وإن قرعتَنِي أعطيتُك ! فقارعه خالد فقرَعه ، فقال : أقِلْنى ، فأقاله ، ثم قارعه أخرى فقرعه (٢) أيضاً ، فقال : أقلنى ، فأقاله ثانية ، ثم قارعه ، فقرع خالداً ، فقال : أقِلْنى ، فقال (٣) : لا أقالنى الله إذاً ، فقال : أعطوه بَدْرة يُدخلها فى حِر أمّه ، فقال : وأخرى أيها الأمير أُدخِلها فى أُستها ! فضحك ، وأمر له ببَدْرتين .

وكان يقول : أيهـا الناس ، لو رأيتم البخلَ لرأيتموه مشوّهاً تنفر منه القلوب .

وقال له بعض أصحابه : والله إنا لنسألُك أموراً لاحاجة إلينا بها، فقال: ولِمَ ؟ قال : لعلمنا بمحبّتك فيمن سألك حاجةً .

وأمّا فصاحته ، فمنها أنه قام على المنبر بواسط ، فحمد الله وصلّى على نبيّه ، ثم قال : أيّها الناس ، تنافسُوا فى المكارِم ، وسارعوا إلى المغَانم (٤) ، ومَهْما يكن لأحدكمْ (٥) عند أحدٍ نعمة فلم يبلغ شكرَها ، فالله أحسن له جزاء ، وأجزلُ عليه عطاء . واعلموا أنّ حوائج الناس إليكم نعمٌ من الله عليكم ، فلا تملُّوها فتحولَ نِقماً ؛ وأفضلُ المـال ما أكسب أجْراً ، وأورث ذِكْراً ، وأجْوَد

---

(١) ت : « هل لك أن أقارعك ؟ » .
(٢) ت : « ثم قارعه فقرعه خالد » .
(٣) ط : « فقال لخالد » .
(٤) ت : « المعالم » .
(٥) ت : « لأحد » .

النَّاس من أعطى من لايرجوه ، ومَنْ لم يَطِب حرثه لم يَزْكُ [١] نَبْتُه ، والأصول عن مغارسها تنحُو ، و بأصولها تسمُو . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولـكم .

ومنها أنه صعِد يوماً المنبر ، فأرتج عليه الـكلام ، فقال : أيّها الناس ، إنّ الـكلام يجِىء أحياناً ، و يعزُب أحياناً ؛ وربّما طُلِب فأبى ، وكُوبر فعصَى ، والتأتى [٢] لمجيّه ، أيسر من التعاطى لأبيّه ، وقد يُختلجُ من [٣] الجرىء جنانه ، و يتعاصى [٤] على الذَّرِب لسانه ، ثم لا يكابِر القول إذا امتنَع ، ولا يردّ إذا اتّسع ، وأوْلَى الناس من عَذَر على النّبْوة ، ولم يؤاخِذْ [٥] على الـكَبْوة . مَنْ عُرِف ميدانُه ، اشتهر إحسانه ، وسأعود وأقول . ثم نزل .

وأمّا مُروقه من الدين واستهتاره [٦] ، فحُـكِى أنه حَفَر بئراً بمكّة عَذْبة الماء ، ثم نصب طسْتاً إلى جانب زَمزم ، ثم خطب فقال : قد جئتـكم بمـاء العاذِبة ، لاتشبه ماء أمّ الخنافس – يعنى زمزم – ثم قال : إنّ نبىّ الله إسماعيل استسقى ربَّه فسقاه مِلْحاً أُجَاجا ، وسقى أمير المؤمنين عَذْباً زُلالا فُراتاً – يعنى هذه البئر .

وحكيَ [أن] [٧] سفيان بن أبى عبد الله ، قال : سمعت خالداً القسرىّ [٨] على

---

(١) ت : « يزل » تحريف .

(٢) ط : « التأنى » .

(٣) ط : « فى » .

(٤) ت : « ويغتاظ » .

(٥) ت : « يؤخذ » .

(٦) ت : « واشتهاره » .

(٧) من ط .

(٨) ط : « القشيرى » تحريف .

المنبر ـ وكانت بنو أميّة تأمر بلعن عليٍّ بن أبى طالب على المنابر يقول : اللهمّ افعل بعليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب ، زوج فاطمة ، وأبى الحسن والحسين كَيْت وكيت ، [هل أكْنَيْتُ !][1] .

وكان مع ذلك يبرّ قومًا من بنى هاشم ، فحكى أنّ محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان أتاه يستميحه[2] ، فلم يَرَمنه ما يحبّ ، فقال ! أمّا المنافع فللهاشميّين ، وأمّا نحن فما حَبوتُنا منه إلاّ شتمه عليّا على منبره ؛ فبلغ خالداً ذلك ، فقال : إنْ أحبّ تناولنا له عثمانَ بشيء !

* * *

٨١ — وَقَتْل بَشَّار بْن بُرْد .

[بشّار بن برد]

هو بشار بن بُرد بن يرجوخ[3] الشاعر المقدّم ، من مخضرمى الدّولتين : الأموية والعبّاسية ، كان جدّه من طخارِسْتان مِنْ سَبْى المهلّب بن أبى صفرة ، ويدعَى أنه مولى بنى عَقِيل ؛ وحدّث عن نفسه قال : لمّا دخلتُ على المهدىّ قال لى : فيمن تُعَدّ يابشار ؟ فأجبته[4] وقلت : أمّا اللسان فعربىّ ، وأمّا الأصل فعجمىّ ، كما قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين :

ونُبّئْتُ قَوْمًا بِهِمْ جِنَّةٌ ... يَقُولَون مَنْ ذَا وَكُنْتُ العَلَمْ[5]
ألاِ أيّهـا السّائلى جاهلاً ... ليعرِفَنِى أنا أنفُ الكَرَمْ

---

(١) من ت . (٢) ط : « يستمنحه » وهما سواء .
(٣) كذا ضبط فى الأغانى ٣ : ١٣٦ (طبعة دار الكتب) .
(٤) ت : « فقلت » .
(٥) الأغانى ٣ : ١٣٩ .

نَمَتْ فِي الكرام بَنِي عامرٍ فرُوعى وأصلِي قُرَيش العجَمْ

وكان يتلوّن فى ولائه ، فتارة يفتخر بقيْس ، وتارة بغيرهم ، وتارة يقول[١] :

أَصْبَحْتُ مَوْلَى ذِى الْجلالِ وَبَعْضُهُمْ مَوْلى الْعُرَيب فجُدْ بفضلك وافْخَرْ

وارجع إلى مولاكٍ غير مدافِعٍ سبحان مولاى العلىّ الأكبرْ !

وكان يلقب بالمرعّث ، لرِعاث [كان][٢] فى أذنه وهو صغير ، والرِّعاث : القُرْط ، وقيل : لبيت ذكر فيه الرِّعاث .

وولد أعمَى ، فكان يقول : أشدُّ ما هُجيت به قول الباهلىّ[٣] :

وَعَبْدى فَقَا عينيك فى الرَّحم أَيْرُه فجئتَ ولم تعلم لعينيك فاقِئاَ

وكان يشبّه الأشياء بما لا يقدر عليه البُصَراء ، وسئِل عن ذلك فقال : عَدَمُ النَّظر يقوِّى ذكاء القَلْب ، ويقطع عنه الشُّغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفّر حِسُّه[٤] .

---

(١) ط : « ينشد ويقول » .

(٢) من ط .

(٣) بعدها فى ط : « حيث يقول » .

(٤) حاشية ت : « وهو من الثلاثة المطبوعين الذين لايقدر على جمع شعرهم لكثرته ، وهم بشار بن برد ، والسيد الحميرى ، وأبو العتاهية . ويقال : إن بشارا ولد على الرق أيضا ، وأعتقته امرأة عقيلية ؛ فيقال : العقيلى ، وهذه النسبة إلى عقيل بن كعب ؛ وهى قبيلة كبيرة ؛ وكان بشار أكمه ؛ ولد أعمى ، جاحظ الحدقتين ، قد تغشاه لحم أحمر ؛ وكان ضخما عظيم الخلق والوجه مجدرا طويلا ، هو فى أول مرتبة المحدثين ، ومن الشعراء المجيدين فيه ؛ فمن شعره فى المشورة :

إِذَ بلغ الرّأى المشورة فاستعِنْ بحزم نصيحٍ أو نصاحة حازِم

ولا تجعل الشورَى عليك غضاضةً فريش الخوافى قُوّة للقوادِم

وما خيرُ كفّ أمسك الغلّ أختها وما خير سيف لم يؤيّد بقائم

وله البيت السائر المشهور ؛ وهو :

هَلْ تعلمينَ وَرَاءَ الحبِّ منزلةً تُدْنِى إليكِ فإن الحبّ أقصانى =

وسئل أبوعبيدة : مَنْ أشعُر عندك ؟ بشّار أم مَرْوان بن أبي حفصة ؟ فقال : إنّ بشاراً حكَمَ لنفسه بأمورٍ لم يُعطَها غيره ، وذلك أنه قال : لى اثنا عشر ألف بيت جيّد ، فقيل له : كيف ذلك ؟ فقال : لى اثنتا عشرة قصيدة ، إنْ لم يكن فى كلّ قصيدة بيت جيّد فلعَنَها الله، ولعن قائلها !

وكان يُتَّهم بالزَّندقة ، وروَى الجاحظ قولَه :

الأرضُ مظلمةٌ ، والنَّار مُشْرِقَةٌ والنَّارُ مَعْبُودةٌ مذ كانت النَّارُ [1]

وقال : بهذا البيت وَجَد واصل بن عطاء السّبيلَ إلى تكفير بَشّار ، وخطب فيه خطبته المحذوفة الراء .

وحكى سعيد بن مسلم ، قال : كان بالبَصْرة ستة من أصحاب الكلام : عَمْرو ابن عُبيد ، ووَاصل بن عطاء ، وبَشّار الأعمَى ، وعبد الكريم بن أبي العوْجاء ، وصالح بن عبد القدّوس ، ورجلٌ من الأزْد ــ يعنى جرير بن حازم ــ فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدىّ ويختصمون عنده ؛ فأمّا عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ؛ وأمّا عبد الكريم وصالح فصارا إلى الثنويه [2] ؛ وأما الأزدىّ ، فمال إلى السمنية ــ وهو مذهب من مذاهب أهل الهند ــ وأما بَشّار فبقى متحيِّرا ،

= أى أبعدنى عنك .ومن شعره ؛ وهو أغزل بيت قاله المولدون :

أنا واللهِ أشتهِى سِحْرَ عَيْنيْكِ وأخشى مصـارعَ العُشّاقِ

ومن شعره أيضا :

يا قوم أذْنى لبعض الحىِّ عاشقةٌ والأذْنُ تَعْشَق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لاترَى تَهْذى ! فقلت لهم الأذن كالعين توفى الْقلْبَ ما كانا

من تاريخ ابن خلكان .

(١) البيان والتبيين ١ : ١٦ .

(٢) التنوية : أصحاب الاثنين : النار والظلمة .

فقيل : إنّه قال بعدُ بمذهب الثَّنويّة وعدم الرّجعة (١) .

وقال أحمد بن خالد (٢) : كنت أكلّم بشاراً ، وأردُّ عليه سوءَ مذهبه بميله إلى الإلحاد ؛ فكان يقول : لا أعرف إلا ما عاينت أو عاينه مُعاين ، وكاد يطول الكلام بيننا ؛ فقال لى : ما أظنّ الأمرَ يا أبا مخلد إلاّ كما يقال : إنه خِذلان ، ولذلك أقول :

طُبِعْتُ على ما فىَّ غير مخيَّرٍ هَوَاىَ وَلَوْ خُيِّرْتُ كُنْتُ المهذَّبَا
أُرِيدُ فلا أعطَى وَأُعْطَى وَلَمْ أُرِدْ وَغُيِّبَ عَنِّى أن أنال المغيَّبا
وأُصرَفُ عن علمى وعِلمىَ مبصَرٌ فَأُمْسِى وما أعقبتُ إلا التعجّبَا

وروى المازنىّ ، قال : قال رجل لبشار : أتأكل اللحم وهو مباينٌ لمذهبك ؟ فقال : إنَّما أدفع به شرّ هذه الظُّلْمة .

وبمثل هذه الحكايات المنسوبة إليه ، دبَّر عليه [يعقوب] (٣) وزير المهدىّ حتى قُتِل .

حكى ابن نصر ، قال : قدِم بشار من البَصْرة إلى بغداد ، وقد مدح المهدىّ بقصيدته الرّائية (٤) ، ثم أنشده إياها فلم يحْظَ منه بشىء ، فقيل : إنه لمْ يستجِدْ شعرَك ، فقال : والله لقد مدحتُه بشعرٍ لومدح به الدهر لم يحسن صرفه على أحدٍ ، ولكنّا نكذِب فى القول ، فنكذَب فى الأمل . ثم مدح يعقوب بن داود وزيرَه ، فلم يحفِل به ، ولم يعطه شيئاً ، وأقام ينتظر جائزته بُرهة ، فمرّ يعقوب يومًا ببشّار فصاح بشّار :

---

(١) ط : « وبعد تزندق » .
(٢) ت : « خلاد » .
(٣) من ط .
(٤) هى القصيدة التى مطلعها :

تجاللتُ عَنْ فِهرٍ وعن جارتىْ فِهْرِ وودّعتُ نعمَى بالسلام وبالهجْرِ

ديوانه ٣ : ٢٧٢ ـ ٢٩٠

* طَالَ الثَّواءُ عَلَى رسُوم المنزِلِ *

فقال يعقوب :

* فإذا تشاءِ أبا مُعاذٍ فارحلِ *

فغضب بشّار ، وقال يهجوه :

بنى أميّة هُبُّوا طالَ نومُـكمُ   إنَّ الخليفةَ يعقوب بن داودِ
ضَاعَتْ خلافتُكم يا قوم فالتَمِسوا   خليفةَ الله بَيْن النَّاى والعودِ

ثم رحل وحضر حَلْقة يونس النحوىّ ، فقال : هاهنا من نحتشمه ! فقال: لا ، فأنشد هجاء فى المهدىّ ، وهجاء فى يعقوب ، فسعى به إلى يعقوب .

وكان المهدىّ قد قدِم عليه البصرة ، فدخل عليه يعقوب ، وقال للمهدىّ : إنّ بشاراً زنديق ، وقد قامت عليه البيّنة ، وقد هجا أمير المؤمنين ، فأمر ابن نُهيك ـ وهو صاحب الشرطة ـ بأمره ، ثم أزِف خروجُهم ، فأخرجه ابن نُهيك معه فى زَوْرق ، فلما كانوا بالبُطَيْحة ذكره ، فأرسل إلى ابن نُهيك يأمره[(١)] بضرب بشار بالسِّياط ضرب التَّلف ، و يلقيه بالبُطيحة ، فأمر به فأقيم فى صدر السفينة ، وأمر الجلاّدين أن يضربوه ضرباً متلفاً ، فجعل يقول كلما وقع عليه السوط :«حَسّ» ، وهى كلمة تقولها العرب عند الألم. فقال بعضهم: انظروا إلى زندقته ، ما نراه يحمد الله تعالى ، فقال بشّار : و يلك ! أثريدٌ هو أحمد الله عليه ! فلما بلغ سبعين سوطًا أشرف على الموت ، فأُلقِىَ فى صدر السفينة ، فقال : ليت عين أبى الشمقمق ترانى حين يقول :

إنّ بشّـــارَ بن بردٍ   تيس أعْمَى فى سفينهْ[(٢)]

---

(١) ط : « أن يضربه بالسياط » .

(٢) وفى حاشية ت : « قوله :

إن بشـار بن برد   تيس أعمى فى سفينه   =

ثم مات من ساعته ، فألقى فى خرّارة البُطيحة ، فحمله الماء إلى البصرة ، فأخذه أهله ودفنوه [بها ، وذلك فى سنة سبع . وقيل: ثمان وستين ومائة، وقد نيّف على تسعين سنة ، والله أعلم][1] .

وحكى ابن خلاّد قال : لما ضُرِب بشّار بعث المهدىّ إلى مَنْزله من يفتّشه على كتب الزَّندقة ، فوجدوا طوماراً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . إنّى أردت[2] هجاء آل سليمان بن علىّ ، فذكرت قرابتَهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتركتُهم إجلالا له صلى الله عليه وسلم فلما قرأه بكى وندم على قتله ، وقال : لاجزى الله يعقوب خيراً ! فإنه لما هجاه لفق عليه شهوداً على أنه زنديق ، فقتله ، وندمت حين لا ينفع الندم[3] :

ومن مستظرَف أخبار بشار ، قال له هلال بن عطية يوما يمازحه ،

= ويروى بالباء الموحدة تحت والتاء المثناة من فوق ، وعندى أن روايته بالباء الموحدة أولى؛ لأن فى روايته بالمثناة حذف التنوين ؛ وهو لحن معيوب جداً فتأمل .أو يكون بتنوينه ؛ ولكن همزة « أعمى » تكون للوصل ، وفيه نظر ، ويستقيم البيت بالمثناة فاعرف .

(١) من ت .

(٢) ط : « أريد » .

(٣) ت « الندامة » . وفى حاشية ت : « وروى الطبرى فى تاريخه : كان سبب قتل المهدى لبشار ، أن المهدى ولى صالح بن داود أخا يعقوب بن دأود وزير المهدى ولايته ،فهجاه بشار بقوله ليعقوب :

لقد حَملُوا فوق المنابر صالحًا ... أخاك فضجّت من أخيك المنابر

فبلغ يعقوب هجاؤه ، فدخل على المهدى وقال: إن بشارا هجاك ،فقال : ويلك ! ما قال ؟ فقال : يعفينى أمير المؤمنين من إنشاد ذلك ، فقال : لابد ، فأنشده :

خليفةٌ يُزْنى بعمّاته ... يلعبُ بالدَّبّوقِ والصَّوْلجانْ

أبدلنا الله به غيرَه ... ودسّ موسَى فى حِرِ الخيزُرَانْ

فطلبه المهدى ، فخاف يعقوب أن يدخل عليه فيمدحه فيعفو عنه ، فوجه إليه من ألقاه فى البطيحة » .

وكان صديقاً له : إنَّ الله تعالى لم يذهب بصر[1] أحدٍ ، إلا عوَّضه منه شيئاً ، فما عوّضك ؟ قال : الطويل العريض ، قال : وما هو ؟ قال : أنى لا أراكَ ولا أمثالَكَ من الثُّقلاء ، ثم قال : يا هلالُ ، أتطيعنى فى نصيحة أنصحك بها ؟ قال : نعم ، قال : إنّك كنت تسرق الحمير زماناً ثم تبت ، وصرت رافضيًّا ، فعدْ إلى سرقة الحمير ، فهى والله خير لك من الرّفض !

ومرّت به نسوة حِسان ، فقلن له : أيسرّكَ أننا بناتك يا أبا معاذ ؟ فقال : اِى والله ، والدِّين كسروىّ ، ويقال : إنه كفر بهذا اللفظ ، فإنه أراد يسرّنى أيضاً أنّ الدِّين كسروىّ .

ودخل يوماً الحمام وفيه بعض ولد قتيبة ، فقال : يا بشّار ، وددتُ أنك تبصر فترانى فى الحمام ، وتعلم كذبَك فى قولك حيث قلت :

عَلَى أسْتَاهِ سَادَتِهِمْ كِتَابٌ   موالى عامرٍ وسْمٌ بنارِ

فقال بشار : يا بن أخى ، ذهب عنك الصواب ، إنما قلت : « سادتهم » ولستَ منهم .

وكان يوماً فى مجلس المهدىّ ينشده قصيدةً فى مدحه ، فدخل خال المهدىّ ، وكان فيه غَفْلة ، فقال لبشّار : ما صناعَتك ؟ فقال : أثقب اللؤلؤ ! فضحك المهدىّ وكلّ مَنْ حضر .

وجلس إليه رجل فاستثقله ، فضرَطَ ، فظنّ الرجل أنها انفلتت[2] منه [غَضَبا][3] ، ثم ضرطَ أخرى ، ثم أخرى ، فقال له الرّجل : ما هذا الفعل ! فقـال : مَهْ : أرأيت أم سمعت ؟ فقال : بل سمعت صوتاً قبيحاً ، قال : فلا تصدّق حتى ترى ! فقام الرجل من ساعته وتركه .

---

(١) ط : « لم يذهب ببصر أحد » ، وأثبت ما فى ت .
(٢) د : « أفلتت » .   (٣) من ط .

ووقف عليه بعضُ المُجّان وهو يُنشد شعراً له ، فقال : يابشّار ، أُستر شعرَك كما تستر عورتك ؛ فغضب بشّار وصفّق بيديْه ، وتفلَ عن يمينه ويساره ـ وكان يفعل ذلك إذا غضب ـ وأراد أن يقول هجاء ، ثم قال : ويلك ! مَن أنت ؟ فقال : أنا [أعزّك الله][1] من باهلة[2] ، وأخوالى من سَلُول ، وأصهارى من عَكّ ، ومنزلى نهر بِلال . فضحك بشّار ، وقال : اذهب فأنت عتيقُ لؤمك !

وحكى أبو عبيدة ، قال : كان حمّاد عَجْرد يُتّهم بالزندقة ، وكان يعيِّر بشاراً بقبح خلقته ، فلما قال فيه :

وَاللهِ مَا الخنزير فى نَتنِهِ   بِرُبعه فى النَّتْن أو خُمسِهِ
بل وجهُهُ أحسنُ من وجهِهِ   ونفسُه أفضَلُ من نفسِهِ

فقال بشّار : ويلى على الزّنديق ! لقد نفث بما فى صدره ، قيل : وكيف ؟ قال : ما أراد الزنديق إلا قول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[3] ؛ فأخرج الجحود بها مخرج الهجاء . وهذا خبثٌ شديد من بشّار وتغلغل .

وقد وقع بشّار أيضا فى مثل هذه الوقعة ، حدّث السّرىّ بن الصبّاح ، قال : دخلتُ على بشّار بالبصرة ، فقال : أما إنِّى قد أوجعت صاحبَكم ، وبلغته منه ـ يعنى حمّاد عجرد ـ قلت : بماذا يا أبامعاذ ؟ فقال : بقولى هذا ، وأنشد يقول :

يا بن نِهْيَا رأسِى علىّ ثقيــلُ   واحتمال الرَّأْسين خطبٌ جليلُ
فادع غيرى إلى عبــادَةِ ربَّيْـ   ـنِ فإنِّى بواحدٍ مشغول

فقلت له : قد بلغ حمّادا هذا الشعر ؛ ولكنه يرويه على خلاف هذا ، قال : فما يقول ؟ قلت له : يقول :

---

(١) من ت .   (٢) بعدها فى ط : « وإخوانى من باهلة » .
(٣) سورة التين ٤

فادْعُ غيرى إلى عبادة ربَّيْـ ـنِ فإنّى عن واحدٍ مشغولُ

فلمّا سمعه أطرق ، وقال : أحسن والله ابنُ الفاعلة ! ثم كان يقول إذا سئل عن هذين البيتين : ليس هُما لِى.

ومن كلام بشَّارٍ ـ وكان الجاحظ يعدّه مع شعره من الخطباء المذكورين ـ قوله : لقد عشت فى زمان، فأدركت أقواماً لو أخلقَت الدنيا ما تجمَّلتْ إلا بهم ، وإنِّى لِفى زمانٍ ما أرى فيه عاقلاً حصيفا ، ولا جواداً شريفاً ، ولاجليساً ظريفاً ، ولا من يساوى على الخيرة رغيفاً.

وقال الأصمعىّ : قلت لبشار : إنَّ الناس يعجبون من أبياتك فى المشورة ، و يعنى بذلك قوله :

وما خيْرُ كفّ أمسكَ الغُلّ أختَها وما خَيْرُ سَيفٍ لم يؤيَّدْ بقائمِ[1]

ولا تجعل الشُّورى عليك غَضاضةً فرِيشُ الخوافى عُدَّةٌ للقوادم

إذا بلغَ الرأىُ المشورةَ فاستَعِنْ بحزم نصيحٍ أو نصاحة حازم

فقال : يا أبا سعيد ، إنّ المشاور بين صوابٍ يفوز بثمرته ؛ أوخطأ يشارَك فى مكروهه .

ومات لبشار ولد ، فقيل له : أجرٌ قدّمتَه ، وذخر أحرزته ، فقال : بلَى ، ولدٌ دفنتهُ ، وثـكل تعجّلته ، وغَيب وعِدته فانتظرته ، وإن لم أجزع للنّقص لم أفرح بالزِّيْد[2] .

ومن محاسن شعره قوله :

حرَّمَ اللهُ أن ترى كابن سَـلْمٍ عُقبةِ الخيرِ مُطعِمِ الفقـــراءِ[3]

ما لـكىٌّ تنشقُّ عن وجهه الحرْ بُ كما انشقّتْ السّما عن ذُكاء

---

(١) المختار ٢٥٥ ؛ وهذا البيت لم يرد فى ط .

(٢) كذا فى ت وفى ط : «بالمزيد» . (٣) ديوانه ١٠٧ـ ١١٣ ، يمدح عقبة بن سلم.

ليس يُعْطيك للرّجاء ولا الخوْ ... فِ ولكن يلذُّ طَعْمَ العطاء
لا ولا أن يقال شيمته الجوُ ... دُ ؛ ولكن طبائع الآباء

وقوله من قصيدة فى المهدىّ :

تسلّى عن الأحباب وَصّالُ خُلّةٍ ... وَصَرّامُ أُخرى ما يقيم على أمرِ[1]
وركّاض أفراسِ الصبابة والهوَى ... جرت حِجَجاً ثم استقرّتْ فما تَجْرِى
إلى ملكٍ من هاشمٍ فى نبوّةٍ ... ومن حميرٍ فى الملك والعدد الدَّثْرِ
من المشترين الحمدَ تَنْدَى من النَّدَى ... يَدَاهُ ويَنْدَى عارضاهُ من الْعِطْرِ
فألزمت حَبْلِى حَبْلَ من لا يُغِبُّه ... عُفاةُ النَّدى من حيث يدرى ولا يدرى

وقوله فى البائية المشهورة :

إذا كُنْتَ فِى كلِّ الأمورِ مُعاتباً ... صديقَكَ لَمْ تَلْقَ الّذى لا تعاتِبُهْ[2]
فعشْ واحداً أو صِلْ أخاكَ فإنَّهُ ... مُقارِفُ ذَنبٍ تارةً ومُجانِبُهْ
إذَا أنْتَ لم تشربْ مِراراً على القَذَى ... ظَمِئتَ، وأىُّ النَّاس تصفو مَشارِبُهْ !

ويقول فيها أيضا :

ولما تولّى الحرّ واعتصر الثّرى ... لَظى القَيْظِ من نجمٍ توقّد لاهبُهْ
غَدَتْ عانةٌ تشكو بأبصارها الصَّدَى ... إلى الجأْب إلا أنّها لا تخاطِبُه[3]

ومنها قوله :

إذا الملكُ الجبّارُ صَعّرَ خَدَّهُ ... مَشَيْنَا إليه بالسيوفِ نُعَاتِبُهْ
كأنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فوق رُءوسِنَا ... وَأَسْيافَنَا لَيْلٌ تهاوَى كواكبُهْ

وقوله من قصيدة لخالد البرمكىّ ـ يقال : إن خالداً كتب هذه الأبيات فى صدر مجلسه ـ وهى :

---

(١) ديوانه : ٣ : ٢٧٤ .

(٢) ديوانه ١ : ٣٠٩ . (٣) العانة : جماعة حمر الوحش ، والجأب فحلها .

أخالدُ إنَّ الحمدَ يَبْقَى لأهـلِهِ   جَمالاً ولا يَبقى الكثير على الكَدِّ (١)
فأطعِم وكلْ من علرةٍ مستَرَدَّةٍ   ولا تُبقِهَا إنّ العوارىَ للرَّدِّ

وقوله :

دَعَتْنِى حِينَ شِبْتُ إلى المعاصى   محاسنُ زائرٍ كالرِّئمِ غَضٍّ
كأنّ كلامَــــــه يوْمَ التقينا   دُقَّى يأخُذْنَ فى طولِى وعَرْضِى

وقوله :

رُبَّمَا ثَقلَ الجليسُ وإن كا   نَ خَفيفاً فى كِفَّةِ المـيزَانِ (٢)
ولقد قلت حين وتَّد فى الأرْ   ض : ثقيـلٌ أرْبَى على كيْوان
كيف لا تَحمل الأمانة أرضٌ   حَملَتْ فوْقَها أبا مَرْوانِ !

وقوله :

رأيتُ السُّهيْلَيْنِ استوى الجود فيهما   على بُعْدنا من ذاكَ فى حكم حاكمِ (٣)
سُهيل بن عثمان يجودُ بمـــاله   كما جادَ بالوجْما سهيلُ بن سالم (٤)

وقوله :

ارفقْ بعمرٍو إذا حرَّكتَ نسبتَه   فإنَّهُ عَرَبِىٌّ من قــواريرِ (٥)

* * *

وأمّا يعقوب الذى أشار بقتل بشار ، فهو ابن داود بن طهمان السُّلَمىّ ، كان فى الأصل هو وإخوته كُتّابًا لإبراهيم بن عبد الله بن حسن ، المتغلّب فى أيام المنصور ، فلمّا قتِل استخفَوا ، فمَنّ عليهم المهدىّ وأطلقهم ، وكانوا أدباء ألبّاء فصحاء ، وكان المهدىّ يتطلّب الحسَن بن إبراهيم بن عبد الله ، فضمِن له يعقوب إحضاره ، وتوسّط إلى أن أحضر له الحسن من مكّة بأمانِ المهـدىّ ، ودخل

---

(١) الأغانى ٣ : ١٢٦ .
(٢) الأغانى ٣ : ١٨٧ .
(٣) الأغانى ٣ : ١٥٣ .
(٤) الوجماء : الدبر .
(٥) الأغانى ٣ : ١٩٠ .

في الطاعة . وتمكّن يعقوب وولِيَ وزارة المهديّ ، وغلَب على أمره وسرّه ، ودانت له الدنيا إلى أن طلبه المهديّ يوما .

قال [يعقوبَ][١] : فدخلت عليه وهو فى مجلس مفروش فى غاية الحسن ، وبستان عظيم ، وعنده جاريةٌ ما رأيتُ أحسنَ منها ، فقال : كيف ترى ؟ فقلت : متّع[٢] الله أمير المؤمنين ، لم أرَ كاليوم ! فقال : هو لك بمافيه ، والجارية ؛ ليتمّ سرورك ، فدعوتُ له ، ثم قال لى : أَلَكَ حاجة ؟ فقلت : الأمر لكَ ، فقال: ضع يدك على رأسِى واحلفْ ، ففعلت ، فقال : هذا فلان من ولدِ فاطمة أحِبّ أن تريحَنى منه ؛ فاستوحش الحسن من صنيع يعقوب ، وعلم أنه [إن][٣] كانتْ لهم دولة لم يعشْ فيها ، وأنّ المهديّ لا ينظر إلى ذلك لـكثرة السعاية [٤]فيه إليه والحسد له[٤] ، فمال يعقوب إلى إسحاق بن الفضل الهاشميّ ـ وكان معظّما فى دولة المهديّ ، وهو الذى أخرجه من سِجْن المنصور ـ فترامى إليه يعقوب ، وأقبل يُريضُ له الأمور ، فسعوْا فيه إلى المهديّ ، وقالوا : إنّ البلاد فى يده وأصحابه ، وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثوروا فى يوم واحد على ميعاد ، فيأخذوا الدّنيا لإسحاق بن الفضل ؛ فملئوا مسامعَ المهديّ ، فأمهله قليلا ، ثم تجنّى عليه جناياتٍ ، ووضعه فى السّجن[٥] إلى أن عَمِيَ ، وأخرِج فى أيّام الرشيد ، فلما حضر بين يديه ، قال : السّلام عليك يا أمير المؤمنين المهديّ ! قال : لستُ به ، قال : الهادى ! قال لستُ به ، قال : الرّشيد ! قال : نعم ، فسلّم ، ثم لحق بمكّة [المشرّفة][٦] ، ومات فى دولته .

* * *

---

(١) من ت . (٢) ت : « بلغ » .
(٣) من ت .
(٤ ـ ٤) ط : « السعاة به إليه والحسدة له » .
(٥) ت : « الحبس » .
(٦) من ط .

٨٢ — وَأَنَّكَ لَوْ شِئْتَ خَرَقْتَ الْعَادَاتِ ، وَخَالَفْتَ الْمَعْهُودَاتِ .

الخَرْق : قطع الشيء وتغييره على سبيل الفساد من غير تدبّر ، وهو ضدّ الخلق ، فإنّ الخلق فعل الشيء بتقدير ، والخَرْق بغير تقدير ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾[1] ؛ أى حكموا بذلك على سبيل الخَرْق .

وقولهم : رجل أخرق ، وامرأة خرقاء ؛ لا تفعل الأمر بإحكام ولا تدبير .

والعادة تكرير الفعل ، مأخوذ من أعاد الحديث ، إذا كرّره ؛ فخرق العادات تغيير ما تكرّر أفعاله من المخلوقات ، واستقرّ على مرور الأيّام والليالى ، وكذلك الأمر فى قوله : « وخالفت المعهودات » .

* * *

٨٣ — فَأَحَلْتَ الْبِحَارَ عَذْبَةً ، وَأَعَدْتَ السِّلَامَ رَطْبَةً .

البحْر : كلّ مكانٍ واسعٍ جامع للماء الكثير[2] ، ويقال فى الأصل الماء الملح دونَ العذْب ، وإنما قيل : البَحْران ، للمِلْح والعذب للتّغليب ، كما يقال : العُمَرَان .

واختلف فى عدد البحار ، فقيل : إنّها سبعةُ أبحر ، ستّة ظاهرة وواحدٌ محيط بالدُّنيا مظلم ، ومنه تستمدّ . وقيل : خمسة ، وقيل : أربعة ، والأوّل أصحّ لقوله تعالى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾[3] .

قال بعض العلماء : ولأنّ السموات سَبْع ، والأرضين سَبْع ، والنّجوم السّيارة

---

(١) سورة الأنعام ١٠٠ .
(٢) ط : « الكثار » ؛ وهما بمعنى .
(٣) سورة لقمان ٢٧ .

سبْع ، والأيّام سبْع ، وخلق الإنسان من سبع ـ يعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . . ﴾ الآية[١] ، ورُزق من سبع ، لقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . . ﴾[٢] الآيات .

وذكر فى جغرافيا[٣] أنّ البحار مختلفة المقادير ، فمنها ما هو على هيئة الطَّيْلسان ، ومنها ما هو على هيئة الشبّور[٤] ، ومنها ما هو على صُورة التَّدْوير ، وهو الغالبُ عليها ، وأشدّها البحر الشرقىّ ، وهو لفارس والغربىّ وهو للرّوم ، يأخذان من البحر المحيط ، ويقال له : قنطس[٥] ، والبحار تستمدّ منه ، وهى بالنسبة إليه كالخُلْجان ، ولا يتأتّى فيه ركوب ، ولا يعيش حيَوان . ويقال : إن أطراف السماء عليه كالخيمة ، ولا يعلم ما وراءه .

فأمّا البحر الشرقىّ فيأخذ من أقصى المغرب ، وينتهى إلى أقصى الهند والصِّين ، ومنه خُلْجان عظيمة تتّصل بأرض الحبشة ، ومنه بحرُ فارس أوّله من الأبُلّةِ والْبَصْرة ، وآخره بحر الهِنْد عند جبل يقال له رأس الجمجمة ، ومنه مغاصُ اللؤلؤ من جزيرة كيش[٦] .

وأمّا البحر الغربىّ فإنّه يأخذ من المحيط من المغرب فى الخليج الّذى بين المغرب والأندلس ، ويسمى زُقاق سَبْتة ؛ حتى ينتهى إلى الثُّغور الشاميّة ، وقدره فى المسافة أربعة أشهر ، ومن القُلْزم الذى هو لسان بحر فارس ، ومن بحر الرّوم على سَمْت الفَرَما أربع مراحل .

وزعم بعض المفسّرين فى قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا

---

(١) سورة المؤمنين ١٢ . (٢) سورة عبس ٢٤–٣١ .

(٣) هو كتاب بطليموس ، منه نسخة مصورة فى دار الكتب رقم ٧٠١ ـ جغرافيا .

(٤) الشبور : البوق . (٥) ت : « قسطس » .

(٦) ط : « كش » ، ت : « ليس » ، قال ياقوت : « كيش » ، تعجيم « قيس » ، جزيرة فى وسط البحر تعد من أعمال فارس ؛ لأن أهلها فرس .

بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَان ﴾[١] : إنّه هذا الموضع ، وزعموا أن بحر الرّوم[٢] متّصل بالشرقيّ ، وأنه وُجِد فيه شيء من النّارَجيل الذى يكون فى البحر الشرقىّ ، وهذا بعيد ؛ لبُعْد ما بينهما من المفاوز والجبال .

واختُلف فى مبادئ البِحار على أقوال :

أحدُها : أنّها من الاستُقُصّات الأربعة ، خَلَقها الله تعالى يوم خَلَق السّموات والأرض .

والثانى : أنها بقيّة طوفان نُوح عليه السلام .

والثالث : أنها من عِرْق الأرض لما ينالها من حَرّ الشمس .

والرّابع : أنّها من مِياه الأرض ، فالمِلْح ينحدر إلى الأماكن المنخفضة ، والكلّ مِلْح ، وإنما يتصعّد منها للجوّ فيلطّفه ويحلّيه[٣] ، ثم يهبط إلى الأرض فمنه الأنهار العذبة .

ومراد ابن زيدون أنّك لو شئت فعلتَ ما لا يمْكِن ، وهو تفسير قوله : « خرقْتَ العادات » ، ومثله « وأعَدْت السِّلامَ رَطْبَةً » . والعَوْد : الرُّجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه .

والسِّلام : الحجارة الصُّلبة ، وإنما عَنَى بإعادتها إلى الرَّطْبة ، مازعم قوم أنّ الحجارة كانت فى الزّمن الأوّل على عهد نوح ليّنة ، وعلى ذلك قول الراجز حيث يقول :[٤]

---

(١) سورة الرحمن ١٨ ، ١٩

(٢) ت : « البحر الرومى » .

(٣) ت : « ويجليه » .

(٤) لرؤبة — الحيوان ٤ : ٨ ، ٢٣ ، ثمار القلوب ٣٢٢ .

إنّكَ لَوْ عُمِّرْتَ عُمْرَ الحِسْلِ[١] أو عمرَ نوحٍ زمَنَ الفِطَحْلِ[٢]
والصَّخْر مبتلٌّ كطين الوَحْلِ كنت رهين هَرَمٍ أو قَتْلِ

* * *

٨٤ — وَنَقَلْتَ غدًا فصار أَمْسا ، وزِدْتَ فِي العناصِرِ فكانَتْ خَمْسا .

أصل الغد « غَدْو » ، فحذفوا الواو بلا عِوَض ، وفى هذا المعنى قال الشّاعر :

وَمَا النّاسُ إلاّ كالديارِ وأهلِها بها يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدْوًا بَلاَقِـعُ[٣]

وأمسِ : اسم حُرِّكَ آخره لالتقاء الساكنين ، واختلف فيه ، فأكثرهم يبنيه على الكسر ، ومنهم من يُعرِبه إذا دخل عليه الألف واللام ، يقول : مضى الأمسُ ، وقال سيبويه : جاء فى ضرورة الشعر كقوله :

لَقَدْ رأيت عَجَبًا مُذ أَمْسَا عَجَائِزًا مِثْلَ السَّعَالِي خَمْسَا[٤]

ولا يصغر « أمس » كما لا يصغر « غد » ؛ والمعنى أنك لو شئت قلبت الأشياء ، إمّا قدرة ، وإمّا تسمية يقتدى النّاس بك فيها .

والعناصر أصول الخلْق ، وهى أربعة [لا غير][٥] : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب ، ثنتان تذهبان صُعُدا ، وهما : النّار ، وطبيعتها حارّة يابسة ، والهواء ، وطبيعته حارّة رَطْبة ، وثنتان تذهبان سفلاً ، وهما : الماء وطبيعته باردة

---

(١) الحسل : ولد الضب ؛ وزعموا أنه لا تسقط له سن .
(٢) زمن الفطحل : زمن نوح ، قيل : سئل رؤبة عن قوله : « زمن الفطحل » ، فقال : أيام كانت الحجارة فيه رطابا .
(٣) للبيد ، ديوانه ١٦٩ .
(٤) سيبويه ٢ : ٤٤ ، قطر الندى ١٧ .
(٥) من ط .

رطبة ، والتراب وطبيعته باردة يابسة . وقيل فى قول فيثاغورس : والذى وهب لنا الينبوع[١] الأربع ، أراد العناصر .

* * *

٨٥ — وَأَنْتَ الْمَقُولُ فِيه : كُلُّ الصَّيْدِ فِى جَوْفِ الْفَرَا

هذا مثال قديم ، يُضْرب فى وصْف الشَّىء المزْبِى على غيرِه ، وأصله أنّ قوماً خرجوا للصَّيد فصادَ أحدهُم ظَبياً ، وآخر أرنباً ، وآخر فراً — وهو الحمار الوَحشىّ — فقال لأصحابه : كلُّ الصَّيْد فى جوف الفرا ، يعنى أن جميع صيدكم[٢] يسيرٌ فى جنب ما وجدتُه[٣] .

وزعم بعضهم أن الفرأ اسم وادٍ كثير الصيد ، وهو قول مردود ، وأما قول الشاعر :

* وَوَادٍ كَجَوْف الْعَيرِ قفرٍ قَطعْتُهُ *[٤]

فليس من هذا ، وإنما أراد الوادى المعروف بجوف حمار ، وحمار اسم رجل قديم كان فى وادى خصيب ، فظلم عشيرته[٥] ، فأرسل الله تعالى عليه ناراً فأحرقته[٦] ، وأحرقت الوادى ، فخلا وسكنته الجِنُّ ، فقيل : « أَخْلَى من جَوْف الحِمار » .

---

(١) حاشية ت « صوابه الينابيع » ؛ إلا إذا كان الأربع ليس على معناه المتبادل .
(٢) ت : « ما صدتموه » . (٣) الميدانى ٢ : ٥٥ .
(٤) ينسب لامرئ القيس ، وبقيته :

* بِهِ الذِّئبُ يَعْوى كالخليعِ الْمُعَيَّلِ *

ديوانه ٣٧٢
(٥) ت « غيره » . (٦) ت : « أحرقته » .

وحُجب يوما أبو سفيان بن حرب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أذن له ، فقال : يا رسول الله ، ما كدت تأذن لى حتى تأذن لحجارة الْجُلْهَمَتَيْن[1] ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياأباسفيان ، كلّ الصيد فى جوْف الفرا ».

ثم اشتهر ذلك المثل فقيل فى كلّ شىء حاوٍ لغيره ، جامع له ، قال الشاعر :

يَقُولُونَ كَافَاتُ الشّتاءِ كثيرةٌ وما هى إلاّ واحدٌ غير مُفْتَرَى[2]

إذا صحّ كاف الكيس فالكلّ حاصلٌ

لَدَيْكَ وكلّ الصيدِ فى جوف الفرا[2]

* * *

٨٦ - وَلَيْسَ لله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِى وَاحِدِ

هذا البيت لأبى نُواس ، من جملة أبيات يقولها فى الفضل بن يحيى يخاطب بها الرشيد ، وهى :

قُولاَ لهَارُونَ إمامِ الهَدى عِنْدَ احْتِفَالِ الْمَجْلِسِ الْحَاشِدِ[3]

أَنْتَ عَلَى مَا بِكَ مِنْ قُدْرَةٍ فَلَسْتَ مِثْلَ الْفَضْلِ بِالْوَاجِدِ

وَلَيْسَ لِلهِ بمُستنكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِى وَاحِدِ

* * *

[أبو نُواس]

وأبو نواس هو الحسن بن هانئ بن الجرّاح الحكَمىّ البَصرىّ ، وكنى نفسه بأبى نُواس ؛ لأنه ينتسب إلى قَحْطان ، وكانت تعجبه كُنَى ملوكها مثل ذى رُعَين ؛ وذى نُواس ، فا كتنى بأبى نُواس .

---

(١) الجلهمتان : جانبا الوادى ، وفى ط : « الجلهتين » ، وهما بمعنى واحد .

(٢) من ت . (٣) ديوانه ٨٧ .

وكان مولده بالأهْواز سنة مائة وخمس وأربعين ، ثم نشأ بالبَصْرة ، وتأدّب بها على أبى زيد وخَلَف الأحمر ، ونظر فى كتاب سيبويه ، وقال الشّعر البارع ، ومدحَ الخلفاء والأمراء ؛ وكان يقال : هو فى المحدَثين مثل امرئ القيس فى المتقدّمين .

وكان العتّابىّ يقول : لو أدركَ الخبيثُ الجاهليَّةَ لم يُفضّل عليه أحد .

وسئل المرزبانىّ : أيُّهما أشعر : أبو نواس أم الرّقاشىّ ؟ فقال : ضُراط أبى نواس فى جهنّم ، أشعر من تسبيح الرقاشىّ فى الجنة .

ثم مدح الأمين واختصّ به ، وصار من نُدمائه بذلك ، وبذلك كان أخوه المأمون يشنِّع عليه ويقول : كيف يصلُح للخلافة وجليسه أبو نواس ، القائل فى مجلسه كذا وكذا ! من الأشعار المحتوية على الفسق والكفر !

وكان أبو نواس قد انفرد فى زمانه بإتقان الشعر ، وأفراط المجون والتَّهتُّك؛ قال أبو العتاهية : عاتبته مرّة على المجون فأنشد يقول[1] :

أتراني يا عتاهي تاركاً تلك الملاهي !
أتراني مفسدا بالنُّسكِ عِنْدَ القومِ جَاهِي !

فلما ألححت عليه قال :

لاَ تَرْجِعُ الأنفسُ عَن غَيِّهَا مَا لَمْ يكُنْ مِنها لها زاجرُ

فوددت أن هذا البيت لى بجميع ما قلتهُ ، وعلمت أنّه لا يُصغى إلى عَذَل ، ولم يزل على حاله إلى أن توفِّىَ ببغداد سنة مائتين هو ومعروف الكَرْخىّ فى يوم واحد ، فخرج مع جنازة مَعْروف زهاء ثلثمائة ألف ، ولم يخرج مع جنازة

(١) ت « فقال » .

أبى نُواس غير رجلٍ واحد ، فلمّا دفن معروف قال قائل : أليْس جَمَعنا وأبا نُواس الإسـلام ! ودعا الناس فصلُّوا عليه ، فرُئِىَ فى المنـام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غَفر لى بصَلاَة الّذين صلّوا على معروف وعلىّ . وأوصى أن يكتب على قبره هذا :

وعظتْك أجداثٌ صُمتْ ونعتْـك أزمنةٌ خُفُتْ[1]
ياذَا المُنَى ياذَا المُنَى عِشْ مَا بَدَا لَكَ ثُمّ مُتْ[2]

وأخبار أبى نواس وأشعاره مجموعة ، ومنها الزّائدة والناقصة .

فمن مستظرَف أخباره ، قيل : تحاكم فى سؤالٍ رافضىّ وسَنىّ ، فيمن أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأتيا أبا نُواس فسألاه ، فقال : أفضلهم بعده يزيد بن الفضل ، فقالا : ومَن يزيد بن الفضل ؟ فقال : رجُلٌ يعطيني كلّ سنة ثلاثة آلاف درهم .

وسئل عن الخمر ، فقال : خمر الدنيا أجود من خمر الآخرة ، وقد جعلَها تعالى لَذةً للشاربين ، فقيل : كيف هى أجود ؟ قال : لأنها أنموذج ، والأنموذج خيارُ الشيء .

وكان يوماً جالسا وفى يده كأس خمر ، وعن يمينه عُنقود عِنَب ، وعن يساره زبيب ، فقيل : ما هذا ؟ فقال : الأبُ والابنُ والرُّوح القُدس .

وقيل له : أتشرب الخمر ؟ قال : نعم ، إذااشتُرِىَ بثمن خنزيرٍ سُرِق ؛ حتى يكون حراما ثلاث مرّات .

وحكى عن نفسه ، قال : دخلت إلى دمشق وخلوت بأمردَ ، ودفعت له ديناراً فلما رأى متاعى استعظَمه ، فقلت له : إمّا أن تردّ الدينار وإما أن تحتملَه ،

---

(١) ديوانه ١٩٩ .

(٢) الديوان :

وأرَتْكَ قَبْرَكَ فى القُبو رِ وأنت حىٌّ لمَ تمُتْ

وإما أن تشتم معاوية ، فأذعن ، فرضى بالوَسط ، فلما دفعتُه فيه سمعته يقول : هذا فى رضاك قليل يا أبا يزيد .

وقال له أمرد : متى تعطينى درهما ؟ قال : إذا جرى الماء فى العُود .

وكان أبوعبيدة يجلس إلى أسطوانة فى جامع البصرة ، فكتب أبو نواس فى أعلاها :

صَلَّى الإلٰهُ على لوطٍ وشيعتِهِ   أبا عبيدة ، قل بالله : آمينا

فلما حضر أبوعبيدة رأى البيت ، ولم يعرف مَنْ كتبه ، فأمر بعض تلامذته بحكّه من السارية فلم يصِلْ ، فتطامن له أبوعبيدة ، وصعد على ظهره إلى أن حكّه ، فلما طال عليه الأمر ، قال له : أفرغت ؟ قال : نعم ، حككت الكلّ إلا حرفا ، قال : وما هو ؟ قال : كلمة « لوط » ، قال : لقد بقى الكلّ .

ومن شعره ، قيل : إن سليمان بن المنصور دخل على الأمين فرفع إليه أنه هجاه ، وأنه زِنديق ، وأشار عليه بقتله ، فقال : ياعمّ ، كيف أقتله وهو القائل :

صدَق الثَّناء على الأمين محمّدٍ   ومن الثَّناء تكذُّبٌ وتخرُّصُ[1]

وإذا بنو المنصور عُدّ حَصاهمُ[2]   فمحمّدٌ ياقوتُها المستخلَص

فانقطع سليمان عن الرّكوب ، فأمر الأمين بحبسِ أبى نواس ، فكتب إليه من السجن يقول :

تَذكَّرْ أمين الله والعهد يذكَرُ   مقامِى وإنشادِيكَ والناسُ حُضَّرُ[3]

ونثرِى عليك الدرّ يادرّ هاشمٍ   فيامَنْ رأى دُرًّا على الدُّرّ يُنثَرُ !

وَمَنْ ذَا الذِى يرمى بسهمك فى العُلا   وعبدُ منافٍ والداكَ وحِمْيَرُ

(١) ديوانه ١١٣ ، والتخرص : الافتراء .
(٢) الديوان : « وإذا بنو العباس » .
(٣) ديوانه ١٠٦ .

فإن كنتُ لم أذنب ففيم عقوبتى ! وإن كان لى ذنب فعفوك أكبرُ

فلما قرأ الأبيات قال : أخرجوه ، ولوغضب ولد المَنْصور كلُّهم .

ومن شعره قوله من قصيدة :

يا كَثِيرَ النَّـوْحِ فِى الدِّمَنِ لاَ عَلَيْهَا بَلْ عَلَى السَّكَنِ
سُنّة العُشَّاق واحـدةٌ فإذا أحببت فاستَنِنِ
ضَنَّ بى مَنْ قد كلفتَ به فهو يجفونِى على الضَّنَن

ومنها :

تضْحكُ الدّنيا على مَلِكٍ قام بالآثارِ والسُّنَنِ
سَنّ للنـاس النّدى فغدَا فكأنّ البخـلَ لم يَكُنِ

وقوله أيضاً يمدح الأمين :

أنْتَ الّذى تأخُذُ الأيدى بِحُجْزته إذَا الزّمَانُ على أبنائه كَلَحاَ(١)
وكلْتَ بالدّهر عيناً غـير غافلةٍ من جودِ كفِّك تأسو كلّ ماجرحا

وقوله أيضاً :

علقتُ بحبلٍ من حبـال محمّدٍ أمنتُ به من طارِق الحدَثَانِ(٢)
تغطّيْتُ من دهرِى بظلِّ جَنَاحِهِ فعينى تَرَى دهرِى وليس يَرَانِى
فلو تُسأل الأيّامُ ما اسِمىَ مَا دَرتْ وأيْنَ مكانى ما عرفْن مكانى !

وقوله أيضاً :

ألم تر أنّى أفنيتُ عُمْرى بمطلبِهـا ومَطْلَبُها عَسِيرُ
فلما لم أجِدْ شيئا إليهـا يقرّبنى وأعيتنى الأمُورُ

---

(١) ديوانه ٤٢٦ . والحجزة : معقده الإزار . وكلح : كشر فى عبوس .
(٢) ديوانه ٩٧ . (٣) ديوانه ٣٧٧

حَجَجْتُ وقلتُ قد حَجَّتْ جنانٌ ... فيجمعُنى وإيّاها المسيرُ

وقوله أيضا :

أيّها العاتب فى الخمْـــــرِ متى كُنْتَ سَفِيها ! [1]

لو تركناهـــا لَعتْبٍ لأطعنا اللهَ فِيها

وقوله :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِى فإنَّ اللَّوْمَ إغْراء ... ودَاوِنِى بالَّتِى كَانَتْ هِى الدَّاء [2]

صَفْرَاء لا تنزلُ الأحزانُ ساحَتَهَا ... لو مَسَّها حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاء

مِنْ كَفِّ ذَاتِ حِرٍ فى زِىِّ ذِى ذَكَرٍ ... لَهَا مُحِبَّـــانِ لُوطِىٌّ وزَنَّاء

ومنها :

دَارتْ عَلَى فِتْيةٍ ذَلَّ الزَّمان لَهُمْ ... فما يصيبهمُ إلاَّ بما شـــاءوا

ومنها يعنى إبراهيم النظام :

فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِى فِى الْعِلْمِ فلسفةً ... حفظتَ شيئا وغابَتْ عَنْكَ أَشْيَاء

لا تحظر العفو إن كُنْت امرأ فَطِناً ... فإنَّ حَظْرَكَهُ بالدِّين إزْرَاء

وقوله أيضاً :

قالوا ظَفِرْتَ بمن تهوى فقلتُ لَهُمُ ... الآن أطولُ ما كانت صَبَابَاتِى [3]

لا عذْر للصبِّ أن تهوى جوارحُه ... وقـــد تطَعَّم فوه بالمُدَارَاةِ

وقوله أيضاَ :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوها وَأَدْلَجُوا ... بها أثرٌ مِنهمْ جديدٌ ودَارِسُ [4]

مَساحِبُ من جَرِّ الزِّقَاقِ على الثَّرَى ... وأضغاث ريحانٍ : جنىٌّ ويابسُ

حبَسْتُ بها صَحْبى فجدّدت عهدهمْ ... وإنّى عَلَى أمثَـالِ تِلْكَ لحابسُ

---

(١) ديوانه ٣٥١ (٢) ديوانه ٢٣٥ .

(٣) ديوانه ٢٥٠ ، وروايته : « أكثر ما كانت صباباتى » .

(٤) ديوانه ٢٩٥ .

ولم أَدرِ منهمْ غـيرَ ما شهدتْ به ... بِشرقِ ساباطَ الدّيارُ البَسابسُ
أقمنا بهـــا يوماً ويوماً وثالثاً ... ويوماً له يومَ الترحُّلِ خامِسُ
تدور علينـا الرّاحُ فى عَسْجديّةٍ ... حبتْها بأنواع التّصاويرِ فارسُ
قرارتها كسرى وفى جَنَباتها ... مهًا تَدَّريهـا بالقسىِّ الفوارسُ
فللرّاحِ مازُرَّت عليه جُيوبُنـا[1] ... وللماء ما دارت عليه القَلانِسُ

كان الجاحظ يقول: وجدْنا الشعراء تجاذبوا المعانىَ إلاقول عنترة فى وصف الذُّباب:

هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بذراعِهِ ... قَدْحَ المُـكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ[2]

وقول أبى نواس يصف الـكأس ـ يعنى فى هذه الأبيات السينية ـ فإنّ أحداً من الشعراء لم يجسر على التعرض لها.

وقوله:

كيف النُّزُوع عن الصِّبَا والـكاسِ ... قِسْ ذَا لنَا ياعاذِلِى بقيـاسِ[3]
قالوا كَبِرْتَ فقلت ما كَبِرَتْ يَدِى ... عَن أن تجىءَ إلى فمِى بالـكاسِ

وقوله:

يَقُولُونَ فِى الْشَّيب الوقارُ لِأَهْلِهِ ... وشَيْبِى بحمدِ اللهِ غيرُ وَقارِ
إذا كنتُ لا أَنفكّ عن أريحيّةٍ ... إلى رشأٍ يَسْعَى بكأس عُقَارِ

وقوله:

ظَلَّتْ حُمَيَّا الْـكأسِ تبسُطُنَا ... حتّى تهتَّك بيننا السِّتْرُ[4]
فى مجلسٍ ضَحِك السُّرورُ به ... عن ناجذَيْه وحَلّت الخمرُ
ولقد تجوبُ بِىَ الفلاةَ إذا ... صامَ النَّهار وقَالَت العُفْرُ[5]

---

(١) ديوانه: « جيوبهم ».

(٢) من معلقته ١٨٢ بشرح التبرزى.

(٣) ديوانه ٢٩٥

(٤) ديوانه ١٠١.

(٥) صام النهار، أى جاء وقت الظهيرة. والعفر: الظباء التى يعلو بياضها حُمْرة.

شَدَنِيّةٌ رعتِ الحِمَى فأتت[1] مِثْلَ الجبال كأنَّها قَصْرُ

ومنها :

يَسْعَى إليك بها بَنُو أملٍ عَتَبُوا فأعتبهمْ بكَ الدَّهْرُ

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ فتدفَّقا فكِلا كُما بَحْرُ

ذكر بعض العلماء فى قوله : « وحَلّت الخمر » أربعة أوجه :

الأول : أن طِيب المكان وتكامل السرور صار مقتضيا لشرب الخمر ، وملجئا إلى تناولها ، ورافعا للحرج فيها ، على مذهب الشعراء فى المبالغة ، وفائدة وصفها بأنها « حلّت » المبالغةُ فى الوصف بالحسن والجمال .

الثانى : أن يكون آلَى عَلَى نفسه ألاّ يتناول الخمر إلاّ بعد الاجتماع بمحبوبه ، فكان الاجتماع به مخرجا من يمينه على عادة العرب ، وعلى ذلك قول امرئ القيس :

حَلَّتْ لِيَ الخمر وكنتُ امرأً عن شُرْبها فى شُغُلٍ شاغِلِ[2]

الثالث : يريد بـ « حلّت » نزلت، من الحلُول لا من الحلال ، كأنه وصف بلوغ آرابه ، وأنها تكاملت بحضور الخمر .

الرابع : أننّا استحللنا الخمر بسكرنا وذهولنا ؛ وإلى ذلك أشار فى المعنى بقوله :

ذَرِينِي أُكَثِّرْ حَاسِدِيك برحلةٍ إلى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ[3]

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيبِ ركابُنا فأىَّ فتًى بعد الخصيبِ تزور !

ومنها :

فإن تولِنى منكَ الجميل فأهلُه وإلاّ فإنى عاذِرٌ وشكورُ[4]

وقوله أيضا من أبيات رويتُ منها هذين البيتين :

---

(١) الشدنية : الناقة الكريمة ، منسوبة إلى شدن ، موضع باليمن .

(٢) ديوانه ٢٥٨ . (٣) ديوانه ٩٩ . (٤) ديوانه ١٠١ .

لقد اتَّقيتَ الله حقَّ تُقاتِهِ   وجهدتَ نفسك فوق جهد المتَّقِي[1]
وأخفْت أهل الشِّرْك حتى إنَّه   لتخافك النُّطَفُ التى لم تخلَقِ

احتجّ له بعض العلماء فى هذا البيت ، فقال : الإنسان إذا خاف شيئا خافه لحمه ودمه ، فكأنّ الأعداء خافته ، ونُطَفها فى ذلك الوقت دم ، فجرى الخوْف فى الدّم، فجرى الدم فى الأخلاط فجرت الأخلاط ، واستحالت إلى مَنِيٍّ بعد الانعقاد والنُّضج التام ، فانعقد فى الرَّحِم ، فتكوّن منه إنسانٌ؛ فخافته من هذا القبيل . وهذا أمر غامض ، والأمر فيه محتمَل .

وقال آخر : خافته ذرّيّة آدم منذ أخذ الله تعالى عليها الميثاق ، وهى فى ظهر أبينا آدم حين قال الله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بلى ﴾[2] ، فلبّث فى ظهر آدم صلوات الله وسلامه عليه .

والقول الأول أمكن عند الحُكماء ، وأما القول الثانى فهو قريب من باب الاحتمال .

وقوله :

مَرَّ بنا والعيونُ ترمُقُه   تجرحُ منه مواضعَ القُبَلِ[3]
أفرِغَ فى قالَبِ الجمال فمَا   يصلُح إلا لذلك العمَلِ

وقوله أيضا ، وقد هجا بعضهم فسمع منه ما لا يرضيه ، فقال :

ما أنت بالحرّ فيُلحَى ولا   بالعبْدِ يُرْجَى نفعُه بالعصاَ
فرحمة الله على آدمٍ   رحمة مَنْ عمَّ ومَنْ خَصَّصاَ
لَوْ كَانَ يدرِى أنه خارجٌ   مثلُك من إحليله لاخْتَصىَ

وأما قوله فى أمرِ الزهد ، فأنشد يوما هذين البيتين ، يقول :

---

(١) ديوانه ٦٢ .
(٢) سورة الأعراف ٤٣٢ .   (٣) ديوانه ٣٢ .

أيا رُبَّ وجهٍ فى التُّراب عتيقٍ ويا رُبَّ حُسْنٍ فى التُّراب رقيقِ[1]
إذا اختبر الدّنيا لبيبٌ تكشَّفتْ لَهُ عن عدوٍّ فى ثياب صديق

وقوله من أبيات يرثى بها الأمين ، وكأنها مطوّلة ، والله أعلم :

طَوَى الدَّهْرُ مَا بيْنى وبَيْنَ مُحمَّدٍ وليس لما تطوى المَنِيَّةُ نَاشِرُ[2]
وكنتُ عليه أحذر الموت وحدَهُ فلم يبق لِى شىءٌ عليه أحاذرُ

* * *

٨٧ — والمعنىّ بقول أبى تَمَّام :

فَلوْ صَوَّرتَ نَفْسَكَ لم تَزِدْهَا عَلَى ما فيكَ مِن شَرَفِ الطِّبَاعِ

هذا البيت لأبى تمّام من قصيدة مطوّلة ستأتى إن شاء الله تعالى فى آخر ترجمته.

[أبو تمام]

وهو حبيب بن أوس بن الحارث الطائىّ ، الشّاعر الفاضل الكامل ، صاحب كتاب « الحماسة » .

أقول بأنّه ولد فى سنة تسعين ومائة ، ومات فى سنة ست وعشرين ومائتين من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بقرية يقال لها جاسم ، وهى من أعمال حُوَّارين ، من بلاد دمشق ، وكان أبوه نصرانيًّا ، وكان إذ ذاك أبو تمّام بمصر القاهرة فى حداثته ، يسقى الماء بالمسجد الجامع ، ثم جالس الأدباء وأخذ عنهم من النظم والنثر والأدب والفضل ما لا مزيد عليه .

---

(١) الديوان ١٩٢ . (٢) الديوان ١٩٢ .

وكان فطِناً ذكيًا ، محبًّا للشعراء وأصحاب الفضل ، فلم يزل يعانيه حتى ملَكه ، وسار ذكره فى العصر ، و بلغ المعتصمَ إذْ ذاك خبره ، فرحَل إليه سِرًّا برأى بعض أصدقائه ومحبّيه ، فعرض عليه قصائده ، فقدّمه على جميع شعراء وقته وزمنه .

حدّث علىّ بن الجَهْم ، قال : كان الشعراء يجتمعون فى كلّ جمعة فى القبَّة المعروفة بهم بجامع بغداد ، ينشدون الشِّعر ، و يعرضُ كلٌّ منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم فى الجمعة التى قبلها ، فبينا أنا فى جُمْعة من تلك الجُمَع، ودِعبل وابن أبى الشِّيص[1] ، وابن أبى فَنَن ، والنّاس مجتمعون يسمعون إنشاد بعضهم بعضا ، أبصرت شابًّا فى أخريات الناس جالساً فى زِىّ الأعراب فلما فرغ كلّ منهم وقطع إنشاده ، التفت الشابّ إلينا، وقال: قد سمعت إنشادكم منذ اليوم ، فاسمعوا إنشادى ، فقلنا : هات ، فأنشد :

* فَحْوَاكَ عَيْنٌ عَلَى نَجْوَاكَ يا مَذِلُ[2] *

ثم مرّ فيها منشدا حتى أتى إلى قوله :

تغايرَ الشِّعر فيه إذ سهرتُ لَهُ حتى ظننتُ قوافيهِ سَتَقْتَتِلُ

فعقدابن أبى الشّيص عند هذا البيت خِنصره ، ثم مرّ فيها الشابّ إلى أن أتى على آخرها . ثم أنشد قصيدة أخرى فقلنا له : أيّها الشابّ، لمن هذا الشعر؟ فقال: لمن أنشدكموه ، قلنا له : ناشدناك الله! من تـكون ؟ فضحك ، وقال : أنا أبو تمام الطائىّ ، فرفعنا مجلسه حينئذ ، وعظمناه تعظيما كبيرا ، واشتدّ إعجابنا به لدماثة أخلاقه ، وفصاحة منطقه ، وجودة شعره ؛ ثم إننى ما عرفت عقد خنصر

---

(١) هو عبد الله ، ذكره ابن المعتز فى طبقات الشعراء ٣٦٥ .

(٢) ديوانه ٣ : ٥ يمدح فيها المعتصم ، وبقيته :

* حَتَّامَ لاَ يَتَقضّى قولُكُ الخطِلُ *

ابن أبي الشيص ، هل كان إعجاباً به مما سمع فى البيت من البديع المرقص ، أو أخذاً عليه فى اسكان الياء فى قوله : « حتى ظننت قوافيه » ، أعنى من لفظة « قوافيه » ، وهى ضرورة جائزة عند الشعراء !

ثم ترقّت حال أبى تمام وتموّل بالمال الجزيل حتى عاد إلى بلده ، فضرب خياماً ، وأظهر نعمة وأثاثا ، فخرجت امرأة من بعض أحياء العرب ومعها أختها يستقيان ، فتأمّلته زمانا ثم التفتت إلى صاحبتها وقالت : أتدرين الرّجل ؟ قالت : لا والله ، قالت : بلى والله أنا أعرفه ، قالت : ومَنْ هو ؟ قالت : إنه والله أُقَيْرِعُ جَاسم ، فلما سمع ماقالت النسوة ، رحَل من وقته وساعته ، وعاد إلى الموصل ، فما زال بها إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه .

وحكى البحترىّ ، قال : دخلتُ على سعيد بن سلم الطائىّ ، فأنشدته قصيدتى فى مدحه التى أوّلها :

* أَأَفَاقَ صَبٌّ مِنْ هَوًى فأفيقا *[1]

و إلى جانبه شخص لا أعرفه ، فلمّا فرغت منها أقبل علىّ ذلك الشخص ، وقال : أما تستحِى أن تنتحل شعرى ، وتنشده بحضورى ! ثم مرّ فى القصيدة فأنشدها من حفظه ، فتغيّر وجه سعِيد ، والتفت إلىّ وقال : يا بنَ أخى ، قد كان فى الوَسائل عندنا مندُوحةٌ عن سرقة الشّعر ، فخرجت كاسفَ البال ، وسألتُ عن الرّجل ، فقيل : إنه أبو تمّام الطائىّ ، فلما بعدت لحقنى الحاجبُ وأمرنى بالعوْد ، وإذا أبو تمّام يضحك ، فاستدنانى ، وقال : يا سيّدى ، الشعر لك ، و إنما هذه عادتِى فى حفظ القصيدة من مرّة واحدة . ولقد نعيْتَ إلىّ نفسى

---

(١) ديوانه ١ : ١٤٥ وبقيته :

أم خانَ عَهْداً أم أطاعَ شقيقاً

وفيه « : يمدح محمد بن يوسف »

فإنّه ما نبغ من قبيلة مُجيد أو شريف إلاّ مات مَنْ كان قبله ، أو ما سمعت قول الشاعر :

إذَا مُقْرَمٌ مِنَّـا ذَرَا حَدُّ نابِه   تخمّط منّا ناب آخر مُقْرَمِ[1]

فقلت : بلىَ يجعلنى الله فداكَ ! ثم لزمته ، وكان محسنا إلىّ إلى أن مات .

وحكى أبو حيّان ، قال : كان لأبى تمام صديق يسكر من قَدَحَيْن ، فكتب إليه يستدعيه إلى الشراب : إن رأيتَ أن تنام عندنا الليلة ؛ فافعل .

ومن محاسن شعره قوله :

إلى قُطُب الدّنيا الذى لو بفضلِهِ   مدحتُ بنى الدّنيا كَفَتْهُمْ فضَائِلُهْ[2]

تعوَّدَ بَسْطَ الكفّ حتّى لو أنّهُ   ثَنَاها لقبضٍ لم تُطِعْهُ أنامِلُهْ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِى كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ   لجادَ بها ، فلْيتّقِ اللهَ سائِلُهْ

وقوله أيضا :

ومرحّبٍ بالزّائرين وبِشْرُه   يغنيك عَنْ أهلٍ لديه ومرحبِ[3]

يعطى عطاءَ المنعم الخضِلِ النّدَى   عَفواً ويعتذر اعتذار المذنبِ

وقوله أيضاً :

قومٌ إذا وعَدُوا أوْ أوْعَدُوا غَمرُوا   صِدْقاً ذوائبَ ما قالُوا بما فعلُوا[4]

يسْتعذِبُونَ مَنَايَاهُمْ كأنّهُمُ   لاييأسون من الدّنيا إذا قُتِلوا

وقوله أيضا :

لاتُنكِرِى عَطَلَ الكريم من الغِنَى   فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكان العالِى[5]

وتنظّرى خَبَبَ الرّكاب ينصُّها   مُحْيِ القريض إلى مميتِ المالِ

---

(١) لأوس بن حجر ، ديوانه ١٢٢ .

(٢) ديوانه ٣ : ٢٥ .

(٣) ديوانه ١ : ١٠٦ .

(٤) ديوانه ٣ : ١٧ .

(٥) ديوانه ٣ : ٧٧ .

وقوله أيضا :

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ … طُوِيَتْ أتاحَ لها لسان حَسُودِ[(1)]
لولا اشتعالُ النّار فيما جاورتْ … ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقوله أيضا :

ليْسَ الحِجَابُ بمقصٍ مِنْكَ لِي أمَلاً … إنَّ السَّمَاءَ تُرجَّى حِينَ تحتجِبُ

وقوله أيضا :

تُوفِّيت الآمَالُ بعد مُحَمَّدٍ … وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عن السَّفَرِ السَّفْرُ[(2)]
فتًى مات بَيْن الضَّرب والطعن مِيتةً … تقوم مَقَامَ النَّصْرِ إنْ فاتَهُ النَّصْرُ
مَضَى طَاهِرَ الأثْواب لم تبق رَوْضَةٌ … غَدَاةَ ثَوَى إلاّ اشتهتْ أنَّهَا قَبْرُ
كأنَّ بنِي نَبْهَانَ عِنْدَ وَفَاتِهِ … نجومُ سَماء غابَ من بينها الْبَدْرُ
لَئن أبعَدَ الدَّهْرُ الخؤونُ بفَقْدِهِ … لعهدِي به ممّن يُحَبُّ لَهُ الدَّهر

وقوله أيضا :

إذَا فُقِدَ الْمَفْقُودُ مِنْ آل مالكٍ … تَقَطَّع قَلْبِي رَحْمَةً لِلْمَكَارِمِ[(3)]
ألم تَرَ بالأيّام كيف فجعننَا … به ثمّ قَدْ شارَكْنَنَا فى المآتِمِ !
رَواكد تُقصِي الكفّ من متناولٍ … وفيها عُلاً لا يُرْتَقى بالسَّلالِمِ
بنِي مالكٍ قد نبّهتْ خاملَ الثرى … قبورٌ لكمْ مُستشرِفات المعالِمِ

وقوله أيضا :

ورأت شحوباً رَابهاَ فى جِسْمِهِ … ماذا يريبُكِ من جوادٍ مُضْمَرِ !
عتقتْ به الأيّام حتى أنها … لتكاد تفجؤه بما لم يَقْدِرِ

وأكثر شعر أبى تمام مختار ، وهو فى الشّهرة كأبى الطيّب ، فيكفى من

---

(١) ديوانه ١ : ٤٠٢ .

(٢) مختارات البارودى ٣ : ٣٠٣ ، فى رثاء محمد بن حميد الطوسى مع اختلاف فى الرواية.

(٣) مختارات البارودى ٣ : ٣٠٧ فى رثاء هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعى مع اختلاف فى الرواية .

شعره هذا القدْر ، وما أذكر في هذا الشرح من بعض هذه التراجم ـ التي من باب لزوم مالا يلزم ـ إلاّ لما يتضمنّ من فائدةٍ تحسِّنُه ، وترغّب فيه .

وأمّا القصيدة التي منها البيت المذكور أبو تمام بسببه ، فهي هذه :

خُذِي عَبَرَاتِ بَيْنِك عَنْ زَمَاعِي   وَصونى ما أزلتِ من القِنَاعِ[١]

أآلفة النَّحِيب كَمِ افْتِرَاقٍ   أجدّ فكانَ دَاعِيَةَ اجْتِمَاعِ !

وَلَيْسَتْ فَرْحَةُ الْأَوْبَاتِ إلاَّ   لموقوفٍ عَلى تَرحِ الْوَدَاعِ

تَوَجَّعُ أنْ رأت جسمى ضئيلاً   كأنّ المجد يُدْرَكُ بالصِّرَاع

فَتَى النَّكَبَاتِ مَنْ يَأْوِى إذَامَا   قَطَفْنَ بِه إلَى خُلُقٍ وَساعِ

أَبَنَّ مع السِّبَاعِ الماءِ حَتَّى   لخَالَتْهُ السِّبَاعُ مِنَ السِّبَاعِ

فلبٍّ الْحَزْمَ إنْ حَاوَلْتَ يَوْماً   بِأَنْ تَسْطِيعَ غَيْرَ الْمُسْتَطَاعِ

قال المرزوقىّ فى شرح هذا البيت : يقول : إنْ أردت أن تقدم[٢] على مالا يُقدر عليه ، فأجب حَزْمك وعَزْمك ، واصطبر عليه[٣] ولا تُخالِفه ، فإن ذلك يؤدّيك إلى النُجْح ؛ وهذا على رأى مَنْ روى : «فَلَبِّ الحزم» ، من التّلبية. ونسب بعضهم هذا البيت إلى المُحال ، فقال : الحزْم فى ترك طِلاب مالا يطاق فكيف يعزم[٤] على إدراكه حتى يجيبه بالتلبية !

قال المرزوقىّ : وهذا مِن قائله بعيد[٥] ، إذْ معنى البيت : أجبِ الحزْمَ وعايك به فيما تطلبُ من المهمّات ، فإنّ الحزم يُعين على كلّ شىء حتّى على مالا يُتأتَّى ولا يتسهَّل ، وهذا كما يقال : كلّ مالا يقدر عليه خَلْق فاستعِن فيه

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٣٦ ومابعدها .
(٢) شرح الديوان : « تقدر » .
(٣) شرح كذا فى الديوان .
(٤) شرح الديوان : « يعين » .
(٥) شرح الديوان : « تعد » .

بكذا وكذا[١] ، يريد أنه مبارك السعى ، ويُراد بذلك المبالغة فى تأتِّيه[٢] .

وقال آخر : أراد إن حاولتَ يوما ما لا يدخل تحت قدرتك فأجب الحزم فإنَّه يدعُوك إلى ترك طلبه[٣] .

وروى أيضا : « فَلَبِّ العَزْمَ » .

ومن القصيدة أيضاً فى المدح :

أَطَالَ يدِى على الأيَّام حتّى ... وفيتُ صُرَوفَها صاعاً بصاعِ

جعلت الجود لَأْلاءَ المساعِى ... وهَلْ شَمْسٌ تكونُ بلا شُعَاعِ !

وَرأْيُكَ مثلُ رأى السَّيْفِ صَحَّتْ ... مشورةُ حَدِّهِ عند المِصَاعِ[٤]

وَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا ... عَلَى ما فيك من كَرَمِ الطِّبَاعِ

* * *

٨٨ – وَالمرَاد بقَوْلِ أَبى الطَّيِّب :

ذُكِرَ الأَنَامُ لنَا فَكانَ قَصيدَةً ... كُنْتَ الْبَدِيعَ الفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا

* * *

هذا البيت لأبى الطيب المتنبّى ، وقد تقدَّم ذكره ، وإنّما أذكر هاهنا محاسنَ القصيدة الّتى منها هذا البيت ، وهى قصيدة يمدح بها محمد بن أحمد بن عمران ؛ التى يقول فى أولها[٥] :

---

(١) شرح الديوان : « بزيد » .

(٢) شرح الديوان : « فى شأنه » .

(٣) نقله التبريزى فى شرح الديوان ٢ : ٣٣٧ ، ٣٣٧ .

(٤) المصاع : المضاربة والمجالدة

(٥) ديوانه ١ : ٢٢٥ ـ ٢٣٦ ، وفيه : « يمدح أبا أيوب أحمد بن عمران » .

* سِرْبٌ مَحاسِنُه حُرِمْتُ ذَوَاتِها(١) *

[يقول فيها](٢) .

ومَطالبٍ فيها الهَـــلاَكُ أتيتُها   ثبْتَ الجنَـــان كأنّنى لم آتِهَا

ومَقَـــانبٍ بمَقَـــانبٍ غادَرْتهَا   أَقْوَاتَ وَحْشٍ كُنَّ مِنْ أقواتها

يعنى كم جيشٍ لقِيتُه بجيش حتى اقتتلوا ، وصاروا قوتاً للوحش بعد ما كان الوحش قوتاً لهم فى الصيد ، وفى هذا المعنى خلَل ؛ لأنّ الوحش الذى يقتات القَتْلى لايقتاته الفرسان فى الصيد .

أَقْبَلْتُها غُرَر الجيَاد كأنَّمـــا   أيدِى بنى عِمْران فى جَبَهاتها

يعنى وجّهت الخيل قبل وجوه هذه المقانِب، وهى غُرّ، فكأنّ بياض أيدى بنى عمران الممدوحين فى جَبَهاتها . وإن كان أراد ببياض أيديهم اللّون ، فليس فيه كبير معنى ، وإنْ كان أراد بالأيدى النّعم فهو مدح ، وإن كان من باب تشبيه العَرَض بالجوهر .

الْعَـــارِفِينَ بِهَا كَمَا عَرَفَتْهُمُ   والرّاكبين جدودهُمْ أُمّاتِهـــا

كان ينبغى أن يقول : «والرّاكب جدودهم أمّاتها » ، وإنّما حملتْه الضرورة على وجه ضعيف فى قولهم : « أكلونى البراغيث » .

قال الواحدىّ : والّذى ذكره النّاس فى معنى هذا البيت ، أنّ هذه الخيل تعرفُهم ويعرفونها ؛ لأنّها من نتائجهم تناسلتْ عندهم ، فجُدُود الممدوحين كانت أمّهات هذه الخيْل ، وسياق الأبيات قبله يدلّ على أنه يصف خيلَ نفسه لاخيل الممدوحين ، وهو قوله :

---

(١) بقيته :

دانى الصِّفاتِ بعيدُ مَوْصُوفاتها

(٢) من ت .

«أقبلتُها غُرَر الجياد» وإذا كان كذلك لم يستقم المعنى ، إلاّ أن يدّعىَ مدَّعٍ أنه قاتل على خيل الممدوحِين ، وأنهم يعطون الخيل للشُّعَراء ؛ والّذى يزيل الإشكال أن يقال: الجياد اسم جِنس ، فى قوله: « غُرَر الجياد » أراد خيلَ نفسه وفيما بعدُ أراد خيلَ الممدوحين ، والجياد يعمّ الخيلْين جميعاً ، ثم قال :

فَكَأَنّهَا نُتِجتْ قِياماً تحتهمْ وكأنَّهمْ وُلِدوا على صَهَواتِهَا
إنّ الكرام بلا كرامٍ منهمُ مثلُ القُلوب بلا سُوَيْدَاوَاتِهَا
عَجَباً له حِفْظُ العنان بأنملٍ ما حِفْظُها الأشياء من عَادَاتِها
لو مَرّ يركُض فى سطور كتابهِ أحْصَى بحافِرِ مُهْرِهِ مِيمَاتِهَا

يعنى أنه لفروسّيته وحسن تصرّفه فى الخيل فى الكرّ والفرّ ، لو ركض بفرسه فى طِرْس مكتوب ، وأراد أن يحصى بحافر مُهره الميات لفعل ، وخصّ الميات لأنها أشبه بالحوافر ، وأدقّ من العينات التى هى أيضا تشبه الحوافر وأكثر وجوداً فى الحروف ، وخَصَّ المُهْر لأنه أشغَبُ من غيره .

لاخَلْقَ أسمحُ منك إلا عارفٌ بكَ راء نفسك لم يقلْ لَكَ هاتِهَا

راء مقلوب« رأى » ، ومثله ناء ونأى .

أعْيَا زوالُكَ عنْ محلٍّ نلتَه لا تخرُج الأقمار عَنْ هَالاَتِهَا
ذُكرَ الأنام لَنَا فَكَانَ قصيدةً كُنْتَ الْبَديعَ الفرْدَ مِنْ أبياتِهَا

* * *

٨٩ – فَكَدَمتْ فى غَيْرِ مَكْدَمٍ ، وَاسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ ، وَنَفَخْتَ فِى غَيْرِ ضَرَمٍ .

الكدْم : العضّ ، والمكدَمُ: موضع العضّ ، يضرب مثلا لمن يطلب شيئا لايتمكّن منه . وفى بعض النّسخ « كرمت» بالراء ، وهوخطأ . والورَم : الانتفاخ يقال ، ورِم يرِم .

والسمن ضدّ الهزال ، مأخوذ من قول المتنبيّ :

أعيذُها نظراتٍ مِنْكَ صادقةً   أن تحسِبَ الشَّحْمَ فيمن شحْمُه وَرَمُ[١]

وكذلك قوله : «ونفخت فى غير ضرم» ، هو مأخوذ من قول عمرو بن معدى كرب ، حيث قال :

وَلَوْ نارٌ نفخت بهـا أضاءتْ   ولـكنْ أنتَ تنفُخ فى رَمَادِ

وسيأتى ذكر عمرو فيما بعد [إن شاء الله تعالى][٢] ، والمعنى أن هذه المرأة احتالت ولم تتمّ على شىء من حيَلها .

* * *

٩٠ — وَلَمْ تَجِدْ لِرِيحٍ مَهَزًّا ، وَلاَ لِشَفْرَةٍ مَحَزًّا .

الهزّ : التحريك الشديد ، كأنه قال: لم تجد لريح كلامِها ـ يعنى المرأة المرسَلَة ـ ما يُهَزّ ويُستمال ، وكذلك لشفْرة احتيالها ما يحزُّ وما يقطع .

* * *

٩١ — بَلْ رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بالإِيَابِ .

[امْرُؤُ القيس]

هذا مَثَلٌ يضربَ لمن قنع بسلامة نفسه فى مطابه ، وهو من بيتٍ لامرئ القيس بن حُجْر بن الحارث ، من بنى آكل المُرار ، وأمّه فاطمة بنت ربيعة أخت مهلهل وكلُيب ابنى وائل .

وكان أبوه حُجْر ملكاً من مُلوك العرب بتِهامة والحِيرة ، وله إتاوة على

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٦ .

(٢) من ت .

بنى أسَدٍ وغَطفان ، وكان قد طَرد أبنه لقولِ الشعر أَنفةً منه ثم قتل ، ونهض امرؤ القيس يطلب ثأره ، فى خبر طويل ، وقال : ضيّعني صغيراً ، وحمّلني عناءه كبيراً . ثم قتل جماعة من بنى أسَد ، وتفرّق عنه قومُه ، فلحق بقيصر فاستنجده ومات مسموماً فى طريقه ، فى قصة معروفة ، وسُمِّىَ المَلِكَ الضِّلّيل ؛ لأنَّه أضلّ مُلْك أبيه ، وذا القُروح لأن قيصر أرسل إليه حُلَّةً مسمومة تقرّح منها بدنه ، ومات .

فأما شِعره فهو الذى لاينازَع فى تقديمه ، وهو إمام المتقدّمين حقيقة ، ومن محاسن شعره قصيدته المعلَّقة(١) .

وقوله من قصيدة :

سَمَالكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أقْصرا ... وحَلَّت سُلَيْمَى بَطْنَ قَوٍّ فَعرْعَرا(٢)

كِنَانِيَّةٌ بانتْ وفى الصَّدْرِ وُدُّهَا ... مجـاورة غسّانَ والحىّ يعمُرَا

[ومِنْها](٣) :

أشيمُ مُصَاب المزنِ أين مُصابهُ ... ولا شىءَ يَشْفِى منك يا ابنة عَفْزَرا

مِن القاصِرات الطَّرْف لَودبَّ مُحْوِلٌ ... من الذَّرِّ فَوْق الإتب منها لأثَّرا

يعنى لو دبّ الصغير من الذرّ على ثوبها لأثّر فى جسدها ، ولم يُرد بالمحوِل ما بلغ الحوْل ، وإنّما أراد ما هو لصغره بمنزلة الحوْلىّ فى الإبل .

فَدَعْها وسلّ الهمَّ عنك بجَسْرةٍ ... ذَمُولٍ إذا صام النَّهارُ وَهَجَّرا

كأنّ الحصَى من خَلْفها وأمامَها ... إذا نجلتْه رجلُها حَذْفُ أَعْسَرا

خصّ الأعْسر لاختلاف رَمياته .

ومنها :

عَلَى لا حبٍ لا يُهْتَدى بمناره ... إذا سافَه العَوْدُ النّبَاطىّ جَرْجرا

---

(١) ديوانه ٨ ــ ٢٦ .

(٢) ديوانه ٥٦ .

(٣) من ت .

يصف قَفْرا لا أعلام فيه . وقوله : «لايهتدَى بمناره » ، يعنى ليس فيه منار يهتدى به ، لا أن فيه مناراً إلا أنه لا يهدى . والعوْد : الجمل البالغ تمام سنِّه ، وسافَه،إذا شمّه ، وجَرْجر، إذا حنّ. وعادة الإبل أن تشمّ الأرض التى لاتعرفها ، فتحنّ لعلمها ببعد المسافة .

ومنها قوله :

أَلاَ رُبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ قد شهدتُه ... بتاذِفَ ذاتِ التَّلِّ من فَوْقِ طَرْطَرَا

ولا مثل يومٍ فى قذارَانَ ظَلْتُهُ ... كأنّى وأصحابى على قَرْنِ أَعْفَرَا

اختلف المفسّرون فى هـذا البيت ، فقال بعضهم : وصفَ اليوم بالشدّة ونفسه بالقَلق والاضطراب فيه حتى كأنّه وأصحابه من عدم الاستقرار مقيمون على قَرْن ظبيٍ . وقال بعضهم : بل وصفَ أماكن كان فيها مسرورا منعّما ؛ لأنه قال قبل البيت : « ألا ربَّ يوم صالح » ، والمعنى أنّه كان على مكان مشرفٍ عالٍ، فشبّهه لارتفاعه بقرن الظبى ، وإنما خَصّ قرن الظبى لأنه أعلى مافى جسده.

وقصيدته اللاّمية[1] التى أولها :

* أَلاَ عِمْ صَبَاحاً أيّها الطَّللُ البالِي *[2]

وأما القصيـدة التى منها نصف البيت المذكور من أجله ، فإنه يقول فيهـا هذه الأبيات :

فَبَعْضَ اللَّومِ عَاذِلَتِي فإنِّى ... سَيَكْفِينِى التَّجارِبُ وانتسابِى[3]

إلى عِرْقِ الثَّرَى وشَجَتْ عُرُوقى ... وهذا الموتُ يَسْلُبُنِى شبَابِى

يعنى أن مصيّره إلى التراب . وقيل : عِرْق الثرى آدم ، وسيموت كما مات آباؤه وأجداده إلى آدم ، ثم قال :

---

(١) ديوانه ٢٧ـ٣٩ (٢) بقيته :

* وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فى الْعُصُرِ الخالِى *

(٣) ديوانه ٩٧ ـ ١٠٠ .

أرانا مُوضِعين لِحَتْمِ غيبٍ ونُسْحَرُ بالطّعَامِ وبالشرابِ
أبعد الحارث الملك بن عَمْرو وبعد الخيرِ حُجْرٍ ذى القِبابِ
وَبَعْدَ مُلوكِ كِنْدة قَدَ تَوَلَّوْا بأكرمِ شِيمَةٍ وأقلِّ عابِ
أرجّى من صُروفِ الدَّهْرِ لِينًا ولم تغْفُلْ عَنِ الصُّمّ الصِّلابِ
ألَمْ أُنْض المطىّ بكلّ خَرْقٍ أمَقِّ الطُّول لَمّاع السَّراب![1]
وقد طوّفْت فى الآفاق حتّى رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ
فأرجعُها وقد نقبتْ وكَلَّتْ لَفرط الأينِ تركَعُ للضِّرابِ
وأعْلَمُ أننى عمَّا قليلٍ سأنشَبُ فى شبا ظفرٍ ونَابِ
كما لاقَى أبى حُجْرٌ وجَدّى وَلاَ أنْسَى قتِيلاً بالكُلاَبِ

* * *

٩٢ ـ وَتَمنَّت الرُّجُوعَ بِخُفَّىْ حُنَيْنٍ .

اختُلف فى حُنين هذا ، فقال قومٌ : كان رجلاً ادّعى أنه من بنى أسدٍ ابن هاشم بن عبد مناف ، فأتى عبد المطّلب وعليه خُفَّان أحمران ، فقال : يا أبا عمرو ، أنا ابن أسد بن هاشم ، فقال عبد المطلب : لا وثياب هاشم ، ما أعرف فيك شمائلَه ؛ فارجع ، فرجَع ، فصار مثلا يضرب للراجع بالخيْبة .

وقال قومٌ : كان حُنين إسكافا من أهلِ الحِيرة ، ساومه أعرابىٌّ بخفّين ، ولم يشترِ منه شيئا ، فغاظه ذلك ، فخرَج وعلّق أحد الُخفَّيْن عَلَى شجرة فى طريقه ، وتقدّم قليلا وطرح الآخر كَمَنَ ـ فجاء الأعرابىّ فرأى أحدَ الُخفّين فوق الشجرة فقال : ما أشبَه هذا بخفّ حُنَين ! لو كانَ معه آخر لتكلّفت أخذَه ! ثم تقدّم قليلا فرأى الخفّ الآخر مطروحاً ، فنزل وعَقَل بعيرَه ، وأخذه ورجع ليأخذ

---

(١) ألم أنض المطى ؛ أى ألم أهزلها بطول السفر ! والأمق : الطويل .

الأوّل ، فخرج حُنين من المكمن،وأخذ بعيره وذهب ، ورجع الأعرابىّ إلى حيّه بخُفَّىْ حُنين .

وقيل : كان حُنين يهوديًّا نخسَ بامرأة مسلمة حماراً ، فقمص ، فصرعها ، فتكشّفت ، فكتِب بخبره إلى عمر ، فكتب : ليس على هذا صالحناهمْ ، وقد خلع ربْقة الذّمّة من رقبته ، فاصْلُبوه حيًّا ، فلما نُصِب على خشبته أتت امرأته وعليه خُفّان فقالت : الآن تموت ، فما تصنع بالخفّين ! فأخذتهما من رِجْليه ، فقال الناس : انقلبتْ بخُفَّىْ حُنَين[1] .

* * *

٩٣ — لأَنّى قُلْتُ :

* لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ *

هذا نصف بيت لرجل من العرب يسمّى غاوىَ[2] بن ظالم السُّلَمِىّ، وكان سبب قوله أنه كان لبنى سُليم صنم يعبدونه فى الجاهليّة ، وكان غاوى سادِنه ، فبينما هو ذات يومٍ جالس إذ أقبل ثعلبان يشتدّان ، فشغَر[3] كلٌّ واحدٍ منهما رجلَه ، وبال على الصّنم ، فقال : يا بنى سُلَيْم ، والله ما يضرّ ولا ينفع ، لا يعطى ولا يمنع، ثم أنشد :

أَرَبٌّ يبولُ الثّعلبانِ برأسهِ لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عليه الثعالب

ثم كسر الصّنم وفرّ ، فأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فأسلم ، فقال له : كيف اسمُك ؟ فقال : غاوى بن ظالم ، فقال : بل أنت راشد بن عبد ربِّه[4] .

---

(١) انظر الميدانى ١ : ١٩٩ ، ٢٠٠ . (٢) معجم الشعراء ونقله صاحب الإصابة : «غوى»
(٣) شغر الثعلب : رفع إحدى رجليه ليبول (٤) الإصابة ١ : ٤٨٢ ، ٤٨٣ .

وروى فى هذا البيت « الثّعلبانِ » ، بكسر النون على التثنية ، وروى أيضاً بضمّ النون والثاء على أنه ثُعلَبٌ واحد ، وضرب به المثل فيمن يدّعى العزّ و يراد به الذلّ .

* * *

٩٤ ــ وأنشدْتُ :

عَلَى أَنَّهَا الأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا ⁂ عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ

هذا البيت لأبى تمام المقدّم ذكره ، فى أبيات يَرْثى بها غالب بن السعدىّ ، وهى هذه :

هُوَ الدَّهْر لا يُشْوِى وهنَّ المصائبُ ⁂ وأكثر آمالِ الرّجال كواذبُ[1]

فياغالباً لا غالبـــــاً لرزيّة ⁂ بل الموتُ لا شكَّ الّذى هو غالبُ

وقلت أخى ، قالُوا أخٌ ذو قرابةٍ ⁂ فقلتُ لهم إنَّ الشُّكُولَ أقاربُ

عجبتُ لصبرى بعده وهو ميِّتٌ ⁂ وكنت امرأ بكّى دماً وهو غائِب

على أنّها الأيّام قد صِرْنَ كُلُّهَا ⁂ عجائبَ حتّى ليس فيهـا عجائبُ

* * *

٩٥ ــ وَنَخَرْتُ وَبَسَرْتُ ، وَعَبَسْتُ فَكَفَرْتُ .

النّخير : صوتٌ من الأنف أكثرُ ما يكون عند الغَضب ، ويسمَّى خَرْق الأنف الّذى يخرج منـه النّخير مُنْخِراً ، وفى المثل : « ما فى الدار نخير » ومنه نخرت الشّجرة ، أى بليت ، فهبَّ صوت الريح منها .

---

(١) مختارات البارودى ٣ : ٣٠١ .

والبَسْر : الاستعجال بالشّيء قبل أوانه ، ويقال للجين قبل النضج : بُسْر ، ومنه قيل لما لم يدرك من التمر بُسْر ، وفى قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾[1] ، أى أظهر العُبوس قبل أوانه .

والتعبيس : قطوب الوَجْه من ضِيق الصدر ، ومنه قيل : يومٌ عَبوس .

والكُفر فى اللغة : ستر الشيء ، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص ، واستعمل فى جاحد النّعمة لستره إيّاها ، ولما كان يقتضى جحود النعمة صار يستعمل فى الجحود مطلقا ؛ فيقال : الكافر لمن جَحد الوحدانية وما أشْبهَه ، ولما جُعل كلّ فعلٍ محمود من الإيمان ، جعِل كل فعلٍ مذموم من الكفر ، وقد يشتدّ غضب الإنسان فيفعل ما يذمّ عليه فيسمى كُفْراً ، وقد يُعبّر أيضا بالكفر عن التبرؤ من الشيء ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يكفُرُ بَعْضُكُمْ ببعضٍ ﴾[2] ، فيكون المعنى فى قول ابن زيدون : إنّنى غضبت إلى أن فعلت ما فعلت ، وإنّنى تبرّأت منك .

* * *

٩٦ — وأَبْدَأْتُ وَأَعَدْتُ ، وأَبْرَقْتُ وَأَرْعَدْتُ .

يعنى كرّرت ما يسيئك ذكرُه ، وأصل البَرْق لمَعان السَّحاب ، والرعد صوته ، ويكنى بهما عن التّهديد . يقال : أرعد فلان وأبرق ، إذا هدّد . وكان الأصمعىّ ينكر قولهم فى ضرب المثل ، يعنى : « أبرق وأرعد » . قال مهلهل :

أبْرَقوا ساعةَ الهِيَاجِ وأرعَدْ نا كما تَرْعُدُ الفحولُ الفحولا[3]

---

(١) سورة المدثر ٢٢ . (٢) سورة العنكبوت ٢٥

(٣) من كلمة له فى العقد ٥ : ٢٨٧ ، وروايته هناك :

انتضوا مَعْجِسَ القِسِيِّ وأبرقْـنا كما تُرْعِد الفحول الفحولا

٩٧ — وَهَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ ، وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي .

يعني هممتُ بقتل هذه المرأة ؛ وهذا من باب الحذف والإيجاز ، للدلالة بعض الكلام على بقيته المحذوفة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوتَى ، بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾[1] ، تقديره لكان هذا القرآن ؛ وهو كثير في كلام العرب ؛ وقد استعملوه حتى في الحروف ، وقالوا : دَرَس المنا يلهجون به ، بمعنى « المنازل » ، وقالوا : وُرْق الحمَا ، بمعنى الحمام .

وهذا لفظ شعر لضابئ بن الحارث بن أرطاة البُرْجمي ، كان رجلا بذيًّا كثير الشرور ؛ وكان صاحب صيد ، أوطأ دابّته صبيًّا فقتله ، فرُفع إلى عثمان رضى الله تعالى عنه أيام خلافته ، فاعتذَر بضعف بصره فحبسه ثم خلص ، وكان قد استعار كلباً للصيد من بني نَهشل ، فلم يردَّه ، فطلبوه منه ، وألحُّوا عليه ، فقال يهجوهم ويتّهم أمّهم بالكلب :

فأمُّكمُ لا تتركُوها وَكَلْبَكُمْ ... فإنّ عقوق الأمّهــاتِ كبيرُ[2]
إذا اكتنفتْ من آخر الليل شخصَه ... يَظلّ لهُ فوق الفراش هَرِيرُ

فاستعدوْا عليه عثمان ، فقال : وَيلك ! ما سمعت أحداً يرمى امرأةً بكلبٍ غيرَك ! والله إني أراك لو كنت على عَهْد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنزل الله فيك قرآنا ، ثم حبسه . وعرض يوماً أهل السجن فوجَده قد أعدّ حديدةً ليقتل بها عثمان ، فأخذتْ منه وضُرِب ، وتُرِك مهملا في السجن ، فقال :

لا يعطينْ بعدى امرؤٌ ضيمَ خطّه ... فراراً يقيه الموتَ والموت نائــلُه[3]
هَمَمْتُ ولَمْ أفعَلْ وكدتُ وليتَنِي ... تَركتُ عَلَى عثمانَ تبكِي حلائلُه

---

(١) سورة الرعد ٣١ .
(٢) رغبة الآمل ٤ : ٩٠ .   (٣) الكامل ١ : ٣٨٧

وقائلةٍ لا يُبعِـد الله ضابِئاً إذا القِرْن لم يوجَدْ لَه من ينازلهْ

ثم لم يزل فى السجن حتى مات ، فلما قتل عثمان ، وثب عُمير بن ضابىء على ضِلع من أضلاعه فكسرها . فقتله الحجّاج بالكوفة.

* * *

٩٨ — وَلَوْلاَ أَنّ لِلجِوَار ذِمَّةً ، وَللضِّيَافَةِ حُرْمَةً ، لـكَانَ الجواب فى قَذَال الدُّمُسْتُق .

يعنى لولا أنه صار لهذه المرأة حُرمة بدخول المنزل والمؤاكلة لفعلتُ بها فعل سَيْف الدولة بالدُّمستق .

وهذا حلّ بيت المتنبى فى المعنى ، وذلك أن ملكَ الرّوم أرسل جيشاً إلى بلاد سَيْفِ الدّوْلة ، وقدّم عليه بِطْريقاً يقال له : الدُّمستُق — وقيل : الدُّمستق لقب عندهم لكل مقدّم على جيش — فهزمه سيفُ الدَّوْلة ، وخرج مُوَلِّيًا ، وعاد إلى ملك الروم مهزومًا مرعوباً . ثم إن ملك الروم أرسلَ رسلاً وكتاباً إلى سَيْف الدولة يطلب الصُّلْحَ والهدنة ، فنظم المتنبِّى فى هذه الواقعة قصيدةً يشير فيها إلى هزيمة الدُّمستق ، فقال :

وَكُنْتَ إذا كاتبتَه قبل هذِهِ كتبتَ إليه فى قَذَال الدُّمْستقِ

وهذه قصيدة تُطوَى على أبياتٍ حسنة ، ويتعلّق بها خبر ظريف . قيل : دخل السّرىّ الرّفّاء الشاعر على سَيْف الدولة يوماً ، فقال : يامولانا ، كم تفضّل علينا هذا الكندىّ — يعنى المتنبىّ — ولو أمرتَنى أن أنظم على وزن أىّ قصيدة شئت من قصائده لنظمت ما هو أجود منها ، فقال سيف الدولة : انظِمْ على وزن قصيدته الّتى أوّلها :

* لِعَيْنَيْكِ مَا يَلْقَى الْفُؤَادُ وَمَا لَقِى[1] *

فخرج السرىّ من عنده على ذلك ، وفكّر فى القصيدة فلم يجدها من طنّانات المتنبىّ ، فعلم أن سيف الدولة أراد له بتخصيصه هذه القصيدة فى الاقتراح، فنظر فى أبياتها ، فإذا هو يقول فيها مادحاً لسيف الدولة ، ومفتخراً بنفسه :

إذَا شاءَ أن يلهُو بلحيةِ أحمقٍ ... أراهُ غُبارِى ثم قال له الْحَقِ

فعلم أنّ سيف الدولة أراده بهذا المعنى ، فكفّ عن النظم .

وفى هذه القصيدة يقول للتنبى :

وما كنتُ ممّن يدخل العشق قلبَه ... ولكنّ مَنْ يُبصِر جفونَكِ يَعشَقِ

سَقَى اللهُ أيَّامَ الصِّبا ما يَسُرُّها ... ويَفْعَلُ فعل البابلىّ المعتَّقِ

إذا ما لبِسْتَ الدّهْرَ مستمتِعاً به ... تخرّقْتَ والملبوس لم يتخرّقِ

هذا المعنى جيّد ، ولكن استعمال التخريق للأجساد بَشِع .

ومن جملة هذه القصيدة أيضا :

نُوَدِّعُهمْ والبَيْنُ فينا كأنّهُ ... قنا ابن أبى الهَيْجاءِ فى قَلْبِ فَيْلَقِ

هوادٍ لأملاكِ الجيوش كأنّها ... تخيّرُ أرواحَ الكُماةِ وتنتقِى

يُغيرُ بها بين اللُّقانِ وواسطٍ ... ويَرْكُزُها بين الفُرات وجِلّقِ

وَيُرْجِعُها حُمْراً كأن صَحِيحها ... يُبَكِّى دَمًا من رحمة المتدقِّقِ

فلاَ تُبلِغاهُ ما أقول فإنّه ... شُجاعٌ متى تُذْكَرْ له الحرب يَشْتَقِ

قوله : « فلا تبلغاه » ، هذه من السماجات المعدودة ؛ لأنه ينشد القصيدة هو سماعا ، عفا الله تعالى عنه !

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٤ – ٣١٦ ، وبقيته :

* وللحبِّ ما لَمْ يَبْقَ مِنِّى وما بقِى *

كسائله مَنْ يسأل الغيث قطرةً كعاذله مَنْ قال للفَلَكِ أَرْفُقِ
لقد جُدْتَ حتَّى جُدْتَ فى كلِّ ملة وحتى أتاكَ الحمدُ فى كلِّ منطق
رأى ملك الرُّوم ارتياحَك للنّدى فقام مقـــام المجتدِى المتملِّق
وكنتَ إذا كاتبته قَبْل هذه كتبتَ إليـه فى قذال الدُّمُسْتُق
وما كمَـــدُ الحساد شيئاً قصدتُه ولـكنَّه مَنْ يَزْحَمِ البَحر يَغْرَقِ

* * *

٩٩ — والنَّعْلُ حاضِرَةٌ إنْ عادَتِ الْعَقْرَبُ ، وَالْعُقُوبَةُ مُمْكِنةٌ إن أصَرَّ الْمُذْنِبُ.

السَّجعة الأولى حلّ بيت للفضل اللَّهبىّ ، من جملة أبيات ، وهو مَثلٌ يهدَّد به مَنْ عوقب .

[الفضل اللَّهَبِيّ]

وهذا هو الفَضْل بن العبّاس بن عُتْبة بن أبى لَهَب ، كان من شُعراء الهاشميِّين وفصحائهم ؛ توفِّى فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، وكان طويلا آدم اللَّوْن .

حكى أن الفرزدق مرّ به يوما وهو ينشد مفتَخِرا :

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِى أخضَرُ الجِلْدَةِ مِنْ بَيْنِ الْعَرَبْ[1]
مَنْ يُساجِلْنِى يُساجِلْ مَاجِداً يَملأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الـكَرَبْ

يعنى بالخُضْرة آدمَ اللون[2] ، والعربُ تفتخر بأنها سُمْر وسُود ، وقيل : عَنَى

(١) اللسان ٥ : ٣٢٧ ، نسب قريش ٩٠ .
(٢) اللسان ١٣ : ٣٤٦ .

بالأخضر البحْر ، وأنّه في نفسه وكرمه كالْبحر ، وعَنَى بالمساجلة المفاخرة ، وأصْلُ المساجلة أن يملأ الشخصان بدلْوين من بئر ، فأيّهما ملأ أكثر كان الغالبَ ، واستعمِل في المفاخرة . وأصلُ المساجَلة كما ذكر ، فلمّا سمع الفرزدق قوله تشمّر ، وقال : أنا أساجلك ، فقال :

بِرَسُولِ اللهِ وابنَيْ عَمِّهِ   وبعبّاس بْنِ عَبْدِ المطّلِبْ

فرجع الفرزدق ، وقال : ما يساجلُك إلا مَنْ عَضّ ببظْر أمّه .

وحكى أبو عبيدة ، أنّ عمر بن أبي ربيعة قال : بينما أنا جالس في المسجِد الحرام في جماعةٍ من قريش ، إذ دَخَلَ علينا الفضل بن العبّاس اللّهبيّ ، فوافقني وأنا أنشد :

وَأَصْبَحَ بَطْنَ مكّةَ مُقْشَعِرًّا   كَأَنَّ الأَرْضَ لَيْسَ بِها هِشامُ[1]

فقال : يا أخا بني مَخْزوم ، إن بلَدة تبجّح[2] بها عبد المطلب ، وبُعِث منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستقرّ بها بيت الله عز وجلّ لحقيقة ألاّ تقشعرّ لهشام ، وأنّ أشعر من هذا البيت [وأصدقه][3] قول الآخر :

إنّمــــا عبد مناف جَوْهَرٌ   زَيّنَ الجوهرَ عَبْدُ المطّلِبْ[4]

[فأقبلت عليه ، وقلت : يا أخا مخزوم ، إن أشعر من صاحبك من يقول :

اِبنُ مخزومٍ الحريقُ إذا حَـــرَّكْتَهُ تارةً تَرَى ضَرَما
يَسطَعَ منـــه الشَّرارُ في لهبٍ   من حاد عن حَرّه فقد سَلِما][5]

فو الله ما عتّم أن أقبل عليّ وقال : يا أخا بني مخزوم ، أنا أشعر من صاحبك الذي يقول هذين البيتين .

---

(١) الكامل ٢ : ١٤٦ ، وينسب للحارث بن أمية ، وانظر الفاضل ٤٩ .
(٢) تبجح : أقام .   (٣) من ت .
(٤) نسب قريش ٩٠ .   (٥) من ت .

هاشمُ بحرٌ إذا سَمـــاَ وطَماَ أخمَدَ حَرَّ الحريقِ واصْطَلَما(١)
فاعْلَمْ وخيرُ المَقـــال أصدقُه بأنَّ مَنْ رام هاشمـــا هُشِماَ

فاسودّت الدنيا فى عينى ، ولم أُحِرْ جوابا . وقد أطال أبو عبيدة الحكاية إلى أن ظهر عليه التوليد .

ومن جيّد شعر الفضلِ بنِ العبّاس قوله :

يا ميُّ إن تَفقِدى قوماً وَلَدْتِهِمُ أو تُخْلَسِيهِمْ فإنَّ الدهرَ خَلاَّسُ(٢)
عمرو وعبدُ مناف والذى عهدتْ بِطاحُ مَكَّةَ آبى الضَّيم عَبّاسُ
ليثٌ هِزَبْرٌ مُدِلٌّ عنـــد خِيسَتِه بالرَّقْمتَين له أجْرٍ وأَعراسُ

يستشهد النحاة بقوله : « أجرٍ » على جمع جِرْو ، والأصـل « أجْرُو » ، فحذفت الواو لوقوعها طرفاً مضموماً ما قبلها .

وحكى عنه الجاحظ حكاية ظريفة ، قال : شَرِب ليلةً مع بعض ولد جعفر على سَطْح ، فلما سِكر الجعفرىّ رمى بنفسه إلى أسفل ، وقال : أنا ابن الطيّار فى الجنّة ، فتكسّر وتهشم ، فتشبَّث الفضل بالحائِط وقال : أنا ابن المقصُوص فى النار .

* * *

وأما البيت الذى ذكر بسببه ، فحكى أنه كان بالمدينة تاجرٌ من تجّارها يسمّى العقْرب ، وكان أمطل الناس ، فعامله الفضل ، وكان أشدَّ الناس تقاضياً ، فلما حلّ المال قعد الفضل على باب العقْرب يقرأ : وعَقْرَبُ على سجيّته فى المَطْل . فلما أعياه ذلك قال يهجوه :

---

(١) اصطلحه : استأصله .
(٢) الصحيح أن هذا الشعر لمالك بن خالد الخناعى الهذلى . ديوان الهذليين ٣ : ١ .

قَدْ تَجَرَتْ عَقْرَبُ فى سوقِنا   لا مرحباً بالعقربِ التّاجِرَهْ[1]
كلُّ عــدوٍّ كَيْدُه فى اسْتِه   فغــيرُ مَخْشِيٍّ ولا ضائِرَهْ
إنْ عادت العقربُ عُدنا لها   وكانتِ النّعلُ لهـا حاضِرَهُ

فصار هذا اللفظ مَثَلا .

وقول ابن زيدون : « إن أصرَّ المُذْنب » الإصرار : العُقدَ فى الذّنب ، وأصله من صَرّ الشىء .

* * *

١٠٠ — وَهَبْهَا لَمْ تُلاَحِظْكَ بِعَيْنٍ كَلِيلَةٍ عَنْ عُيوبِكَ، مِلْؤُهَا حَبِيبُهَا، حَسَنٌ فِيهَا مَنْ تَوَدّ .

يعنى : هبْ أنّ هذه الواصفة لم تنظرك بعين المحبّة الساترة للعيوب فيما وصفتك به من الفضائل ، أليس منظرك كما نرى من القُبْح والسَّماجة ! كما سيأتى ذكره .

وفى هذا اللّفظ حَلُّ ثلاثةِ أبياتٍ لثلاثةٍ من الشعراء ، ولكلٍّ منهم أخبار وأشعار تشتمل على محاسن .

[الهاشمىّ]

فالأوّل قول الهاشمىّ :

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ   وَلَـكِنَّ عينَ السُّخْطِ تُبْدِى الْمَسَاوِيَا[2]

---

(١) الأغانى ١٥ : ٧ (ساسى).

(٢) الأغانى ١٢ : ٢١٤ (طبعة دار الكتب) ، وبعده :

وأنت أخِى مالم تـكُنْ لِىَ حاجةٌ   فإنِ عَرِضَتْ أيقنتُ أن لا أخا ليا

وهو عبدُ الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، كان من فِتيان بنى هاشم وأجوادِهم وفصحائِهم ، على أنه كان يُتّهم بالزندقة فى دينه لصحبةِ قوم عُرِفوا بذلك ، وأشهرهم رجل يقالُ له : البَقْلىّ ، وإنّمَا سُمِّىَ بذلك لأنه كان يقول : الإنسان كالبَقْلة، إذا مات لم يرجِعْ.

وكان عبد الله ممن ترقّى للخلافة ، واشتهر ذكره فى آخر أيام بنى أمية .

حكى المدائنى أن عبد الله بن معاوية قدم زائراً لعبد الله بن عمر بن عبد العزيز مستمنِحاً[1] له ، فتزوّج بالكُوفة بنت الشرقى بن شَبَث بن رِبْعىّ ، فلما وقعت العصبيّة أخرجه أهلُ الكوفة على بنى أميّة [وقالوا له : اخرج فأنت أحقّ بهذا الأمر من غيرك ، واجتمعت له جماعة ، فلم يشعر به عبد الله بن عمر إلا وقد خرج عليه][2]. وقيل : إنّما خرج فى أيّام يزيد بن الوليد ، ودعا النّاس إلى بيعة الرِّضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : إنّمَا دعا إلى نفسه ، ولبِس الصّوف ، وأظهر سيما الخيرِ ، فاجتمعَ عليه ناسٌ من الكُوفة فبايعوه ، ولم يجتمع عليه جميعُ أهل المِصْر ، وقالوا له : ما بقىَ فينا بقيَّة ؛ فقد قتِل جمهورنا مع أهل هذا البيت ، وأشاروا عليه بالخروج إلى فارس ونواحى الشَّرْق ، ففعل ذلك وجمَع جموعًا من النَّواحى ، فخرج ، فغلب على مياه البصرة والكوفة ، وهمذان والرّىّ ، وقُمْ ، وأصفِهَان ، وأقام بأصفهان ، وكان الّذِى أخذ له البيعةَ محارب ابن موسى اليَشْكُرىّ[3] ،فدخل دار الإمارة بنعلٍ ورداء ، وجعل الناس يجتمعون عليه ، فأخذهم بالبَيْعة ، فقالوا : على ماذا ؟ فقال : على ما أحببتم وكرهتم ، [فبايعوا على ذلك][4] وكتب إلى الأمْصار يدعُو إلى نفسه [لا إلى الرضا][5]

---

(١) استماحه : سأله العطاء .

(٢) من الأغانى .

(٣) الأغانى : مولى بنى يشكر » .

(٤) من الأغانى ، والخبر هناك فى ١٢ : ٢٢٨-٢٢٩ .

(٥) من الأغانى .

واستعمل إخوتَه على كَرْمانَ وشِيرازَ وغيرها .

وقصدتْه بنو هاشم : السفّاح والمنصور ، وعيسى بن علىّ ، ووجوه قريش من أمية وغيرهم ، فَمَنْ أراد عَمَلاً ولاّه ، ومَنْ أراد صِلةً وصلَه، وأحسن إليه ، وكان سَمْح الكفّ كريم الأخلاق[1] .

حكى ابن هرْمة[2] قال : قصدته فوجدتُ النّاس بعضهم على بعض ببابه ، فرآنى بعضُ خَدَمه ، فعرّفنى أنّ عامتهم غُرَماء له ، أرباب ديون ، فقلت : هذا شرٌّ لى ، ثم دخلت عليه ، فقلت : لم أعلم والله بهؤلاء الغُرماء ، فقال : لا عليك ، أنشدنى ، فاستحييت ؛ فأبى إلا أن أنشده ؛ فأنشدته أبياتاً حسنةً منها[3] :

تَرَى الْخَيْرَ يَجْرِى فِى أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... كما لألأتْ فى السَّيْف بهجة رَوْنَقِ

فأمر لى بما كان عنده من المال لبعض الغُرَماء ، ووالله لا يملك غيره[4] .

ثم لم يزل عبد الله مقيماً بنواحى فارس التى غلب عليها ، حتى ولّى مروان ابن محمد الجعدىّ ، فوجه إليه عامر بن ضباعة فى جيش كثيف ، فسار إليه حتى إذا قرب من أصبهان ، ندب عبد الله أصحابَه للخروج ، فتثاقلوا عليه ، ولم يفعلوا ، فخرج على دهَشٍ هو وإخوته قاصدين خراسان ، وقد ظهر أبو مُسلِم بها ، وطمع فى نصرته ، فأخذه أبو مسلم فحبسه عنده ، وجعل عليه عيناً ، فرُفع عنه أنه يقول

---

(١) الأغانى ١٢ : ٢٣١ .

(٢) فى الأصول : « هرم » ، صوابه من الأغانى .

(٣) الأغانى : « فأبى إلا أن أنشده قصيدتى التى أقول فيها :

حَلَلْتِ محلّ القلبِ من آل هاشمٍ ... فعُشُّك مأوَى بيضها المتفلّقِ

إلى أن قال :

فمن مثلُ عبدِ الله أو مثلُ جعفرٍ ... ومثل أبيك الأريحىّ المرهّقِ

(٤) الأغانى ١٢ : ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

ليس فى الأرض أحمقُ منكم يا أهلَ خراسان فى طاعتكم لهذا الرَّجل ، قبل أن تراجعوه فى شىء وتسألوه عنه ، والله ما رضيَتِ الملائكةُ بهذا عند الله عزّ وجلّ حتى راجعتْه فى أمر آدم عليه السلام ، فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ حتى قال تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فشدّد عليه أبو مسلم ، ثم كتب إليه عبد الله رسالته التى يقول فيها : «إلى أبى مسلم ، من الأسير فى يديه ، بغير [ذنبٍ إليه،ولا] (٢) خلافٍ عليه.أمّابعد فإنّك مستودِع ودائع ، ومُولِى صنائع ، وإنّ الودائع مرعيّة ، والصنائع عاريّة ، فاطلب الخلاص ، وإلّا اذكر القصاص (٣) ، فإنك لاقٍ ما أسلفْت ، وغير لاقٍ ما خلّفت ، وفّقك الله لما ينجيك ، وألهمك شكر ما خوّلك» (٤) .

فلما قرأ كتابى (٥) به رَمَى به ، ثم قال : أفسد علينا أصحابَنا وهو محبوس فى أيدينا ، فلو خرج وملك أمرنا لأهلكنا . ثم أمضى تدبيره فى قتله ، فدسّ إليه سُمّا فمات ، ووجَّه برأسه إلى ابن ضبارة ، فحمله إلى مروان (٦) .

ومن شعره وما يتعلّق به ، حكاية حكاها إبراهيم الموصلىّ ، قال : بينا أنا عند الرّشيد وعنده ابن جامع وعمر الغَزّال وغيرنا من الندماء والمغنّين ، إذ قال صاحبُ السِّتارة لابن جامعٍ : تغنَّ من شعر عبد الله بن معاوية ـ ولم يكن ابن جامع يغنى فى شىء من شعره ولا يعرفه ، وكنت قد تقدّمت فيه ـ فأُرْتِج على ابن جامع ، فلما رأيت ماحلّ به اندفعتُ فغنيت لعبد الله :

---

(١) سورة البقرة ٣٠
(٢) من الأغانى .
(٣) الأغانى : « واذكر القصاص » .
(٤) الأغانى : « وأنال شكر ما يبليك » ، والإبلاء هنا : الإنعام والإحسان» .
(٥) ط : « كتابه » .
(٦) الأغانى ١٢ : ٢٣٠ ، ٢٣١ .

يَهِيمُ بجُمْلٍ ومَا إنْ يَرَى لَهُ مِنْ سَبِيلٍ إلى جُمْلِهِ
كأن لم يكن عاشقٌ قبلَه وقَدْ عَشِق النَّاسُ من قبلِهِ
فمنهم مَنِ الحبُّ أودَى بِهِ ومنهم من أُشْقِىَ على قَتْلِهِ

فإذا يدٌ رَفَعت الستارة ، ونظر إلَىَّ ، وقال : أحسنت والله ! أعِدْه ، فأعدتُه ، فجاء فرّاش ببَدْرَةٍ ، فوضعها تحت فخذِى ، ثم قال : اجعلها[1] لك ، ثم انقضى المجلسُ ، فلمّا كان المجلس الثانى قال صاحب الستارة : يا بن جامع ؛ تغنَّ من شعر ابن جعفر - يعنى عبد الله بن معاوية - فوقع فى مثل الذى وقع فيه بالأمس ، فغنَّيت من شعر عبد الله :

يا قومِ كيف سِواغُ عَيْشٍ ليس تُؤْمَنُ فاجعاتُهْ
لَيْستْ تزالُ مُطِلّةً تغدو عليكَ منغِّصاتُهْ
الموتُ هولٌ داخلٌ يومًا على كُرْهٍ أناتُهْ
لابدَّ للحذِرِ النُّفو رِ مِنَ أنْ تَقَنَّصَه رُماتُهْ
قَدْ أمنحُ الودّ الخليلَ بغيرِ ماشىءٍ رَزَاتُهْ
وَلَهُ أقيمُ قناةَ وُدِّى ما اُستقامَتْ لى قناتُهْ

قال : فأومأ إلىّ صاحب السّتارة أن أمسك ، ووضع يده على عينه كأنه يومى إلىّ أنّه يبكى . قال : فأمْسَكْتُ ، ثمّ انصرفنا ، فقال لى ابن جامع : ماصبّ أميرُ المؤمنين على ابن جعفر ؟ قلت : صبّه الله عليه لبدرةِ الدّنانير التى أخذتُها . قال : ثم حضر بعد ذلك ، فلمّا اطمأنّ بنا مجلسنا قال ابن جامع بكلام خفىّ : اللهمّ أنسه ذِكْر ابن جعفر . قال : فقلت : اللهمّ لا تستجب ؛ فقال صاحب السّتارة : يابن جامع ، تغنَّ فى شعرعبد الله بن معاوية ، فقال ابن جامعٍ : لوكان عندهم فى عبد الله بن معاوية خيرٌ لطار مع أبيه ، ولم يُقْبِل على الشعر . قال

---

(١) الأغانى : « اجعلها تكأتك » .

إبراهيم : فسمعنا ضحكه من وراء الستارة . قال إبراهيم : [فاندفعت أغنّى فى شعره] (١) :

سَلاَ ربّةَ الخِدْرِ ماشأنُها ... ومن أيِّمَا شأننا تعجبُ !
فلستُ بأوّل مَن فاتَهُ ... على إرْبِهِ بعض ما يَطْلُبُ
[وكائن تعرَّض مِن خاطبٍ ... فزُوّج غير الّتِي يَخْطبُ
وأُنْكِحَهَا بعده غيرُهُ ... وكانت له قبلَهَ تُحجَبُ
وكنّا حديثاً صفيَّيْن لا ... نخاف الوُشاةَ وما سَبّبُوا
فإن شطّت الدّار عَنّا بها ... فبانتْ وفى النّاس مُسْتَعْتَبُ] (١)
وأصْبح صَدْعُ الذى بيننَا ... كصَدْعِ الزّجاجةِ لا يُشْعَبُ
[وكالدَّرّ ليست له رَجْعَةٌ ... إلى الضَّرْعِ من بَعْدِ ما يُحْلَبُ] (١)

فأومى صاحب الستارة أن أمسك ، وأشار بيده إلى أنه يبكى ، فأمسكت ، ثم قال : تغنَّ لابن جعفر ــ وكان ابن جامع شديد الحسد فقال ــ : لو كان فى ابن جعفر خيرٌ لطار مع أبيه ، ولم يقبِلْ على قول الشعر ، فسمِعْنا ضَحِكَ الرّشيد ، ثم أرسل إلىَّ بَدْرةً ، وإلى ابن جامع مِثلها (١) .

وأما الشّعر الذى ذكر بسببه ، فإنه كان صديقا للحسين بن عبد الله بن العباس ثم وقع بينهما أمرٌ ، فتهاجَرا ، فقال عبد الله :

إنَّ حُسينا كان شيئا مُلَفَّفاً ... فمَحّضَهُ التكشيف حتى بَدَاليا
وأنت أخى ما لم تكن لىَ حاجةٌ ... فإنْ عرضتْ أيقنتُ أن لا أخاليا
وعيْنُ الرِّضا عَنْ كلّ عيب كَليلةٌ ... ولكنّ عينَ السّخط تبدِى المساوِيَا (٢)

* * *

وأما البيت الثانى فهو قول المجنون :

---

(١) الزيادة من الأغانى . (٢) الخبر فى الأغانى ١٢ : ٢٣٥ ــ ٢٣٨

أهابُكَ إجلالاً وما بك قدرةٌ عليَّ ولكن مِلْءُ عينٍ حبيبُها

* * *

[مجنون ليلى]

هو قيس بن الملوّح بن مُزاحم ، من بني عامر بن صَعْصعة ، شاعر غزِل ، سكنَ البادية عُمْره ، وتوفّى فى آخر دولة بنى أمية .

وهو المعروف بمجنون ليلى ، ويقال : إنه لم يكن مجنوناً ، وإنّما الرُّواة وضعتْ ذلك عليه .

وحكى ابن دأب ، قال : قلتُ لرجلٍ من بنى عامرٍ : أتَرْوِى من شعر المجنون شيئا ؟ فقال : أوَ فرَغنا من العقلاء حتى نروى للمجانين ! إنّهم لكثير ، فقلت : إنّما أعنِي مجنونَ بنى عامر الشّاعر ، الذى قتَله العِشْق ، فقال : هيهات ! بنو عامر أغلظُ أكبادا من ذلك ! إنما يكون هذا فى اليمانية الضِّعافِ عُقُولها ، الصَّعلة[1] رءوسها ، فأمّا نزار فلا[2] .

وقال الأصمعىّ : الصحيح أن الأشعار والوجْد لقيس ، ولكنه لم يكن مجنونا ، وإنما كانت فيه لُوثَةَ أحدثَها العشق ، وكان قد عشق جارية من قومه تسمّى ليلى بنت سعد ، وعَلِق كل منهما بصاحبه ، وهما حينئذ صبيّان يرعيان مواشى أهلِهما ، فلم يزالا كذلك حتى كبرا ، وحُجِبتْ[3] عنه ، وفى ذلك يقول :

تعشَّقْتُ لَيْلَى وهى ذاتُ ذُؤابةٍ[4] ولم يَبْدُ للأتْرابِ مِن ثَدْيِها حَجْمُ[5]

---

(١) الصعلة رءوسها ؛ أى الصغيرة ، وفى ط : « النغلة » ، وفى ت : « النفلة » ، والصواب ما أثبته من الأغانى .

(٢) الأغانى ٢ : ٣ (طبعة دار الكتب) .

(٣) الأغانى : « فحجبت » .

(٤) الذؤابة : شعر الناصية .

(٥) الأغانى ٢ : ١١ ، وديوانه ٢٣٨ .

صَغِيرَيْن نَرْعَى البَهْمَ يا لَيْتَ أنّنا إلى الآن لم نكبُرْ ولم تكبرِ البَهْمُ [(١)]

حكى ابن عمارة المرّىّ ، قال : حضرت إلى أرض بنى عامر لألقى المجنون ، فدُلِلت على مجلسه ؛ فلقيت أباه شيخاً كبيراً وحوله إخوة المجنون ، فسألته [عنه] [(٢)]، فقال : إنه كان والله عندى أبرَّ من هؤلاء جميعاً ؛ وإنه عشق امرأة من قومه ما كان يطمع مثلُها فى مثله [(٣)] ، فلما فشا أمرهما كره أبوها أن يزوّجه إيّاها بعد ماظهر من أمرهما ، فزوّجها من غيره . وأوّل ماظهر من حبّه لها أنه طرقَنا أضياف ذات ليلة ، ولم يكن عندنا أُدْم ، فبعثتُه إلى أبِى ليلى ، فوقف على خِبائه وصاحَ به ، فقال : ما تشاء ؟ فقال : طرقَنا أضياف ولا أُدْم لنا ، فأرسلَنى أبى إليك ، فقال : يا ليلى ، أخرِجى ذلك النِّحىَ فاملئى له إناءه من السمن . فأخرجته ومعه قعب ، فجعلت تصبّ السمن فى الإناء وهما يتحدّثان ، فألهاهما الحديث وهى تصبّ السمن ، وقد امتلأ القعب [ولا يعلمان] [(٢)]، وقد سال [(٤)] ، واستنقعت أرجلهما فى [(٥)] السَّمْن ولا يشعران به ، فرآهما أبوها على تلك الحال ، فأمره بالانصراف وحجبها عنه ، [وزوَّجها] [(٢)] . فلما زوّجها زاد هُيامه . وكانا فى بعض الأوقاتِ يتحدّثان ، ففطِنَ بها زوجُها ، فتدلّه وجُنّ جنونُه ، وهام مع الوحش، يأكل معها من البَقْل ، ويردُ المياه، ولا يجِدُ مَنْ يطلبه إلا قليلا . فعجبت من أمره ، ويئست من لقائه وانصرفتُ [(٦)] .

وحكَى بعضُ بنى عامر، قال : مَرَرْتُ بالمجنون ، وهو على تلِّ رَمْلٍ، قد خطَّ بأصابعه خطوطاً ، فدنوْت منه ، فنفَرَ كما ينفِر الوَحْش ، فجلست معرِضا عَنْه ،

---

(١) الأغانى والديوان : « إلى اليوم » . (٢) من ت والأغانى .

(٣) كذا فى ط ، وفى الأغانى : « ما كانت تطمع فى مثله » ، وفى ت : « ما كان يطمع مثله فى مثلها » .

(٤) ت : « وهو يسيل » . (٥) كذا فى ت ، وفى ط : «ـمس » .

(٦) الأغانى ٢ : ٨٨ ، ٨٩ .

فلما طال جلوسى سكن ، وأقبل يَخُطُّ بأصابعه ، فقلت : أحسنَ واللهِ القائل[١] :

وَإِنِّى لمفنٍ دَمْعَ عَيْنَىَّ بالْبُكَا   حِذَارَ الَّذِى قَدْ كَانَ أو هو كائنُ[٢]

فلما سمعنى بكى[٣] حتى ابتلّ الرّمل الذى بين يديه[٣] . ثم قال : أنا والله أشعَر منه حيث أقول :

وَأَدْنيتنِى حَتَّى إذا ماملَكْتنِى[٤]   بقولٍ يُحِلُّ الْعُصْمَ سَهْلَ الأباطحِ[٥]

تجافيتِ عَنِّى حيث لالِىَ حيلةٌ   وَخَلَّفْتِ ما خلّفتِ بين الجوانحِ

ثم سنحت له ظبيةٌ فقام يعدو معها[٦] وعدْت أطلبه أياما إلى أن وجدتُه فى وادٍ كثيرِ الحجارة خشِنٍ، وهو بين تلك الحجارة ميّت . فأتيت أهله، فأعلمتهم فاحتملوه ودفنوه ، ولم تبقَ فتاة من بنات الحىّ من بنى جَعْدة و بنى الحريش إلا خرجتْ حاسرةً ، ولم يُرَ باكيا أحدٌ مثل ذلك اليوم[٧] .

ومن محاسن ما روى من شعره :

أَبَى الْقَلْبُ إلاَّ حُبَّها عامِريَّةً   لها كُنيةٌ عَمْرٌو وليس لَهَا عَمْرُو[٨]

تَكَادُ يدى تَنْدَى إذا ما لمستُها   ويَنْبُتُ فى أطرافها الورقُ الْخُضْرُ

وقوله :

---

(١) فى الأغانى : « أحسن الله قيس بن ذريح حيث يقول » :

(٢) الأغانى : « حذاراً لما قد كان أو هو كائن » ، وبعده :

وَقَالُوا غدًا أَوْ بَعْدَ ذاكَ بليلةٍ   فراقُ حبيبٍ لم يَبِنْ وهو بائِنُ

وما كنتُ أخشى أن تكون منيّتى   بكفَّيْكِ إلاَّ أنّ ما حانَ حائِنُ

(٣-٣) الأغانى : « حتى ظننت أن نفسه قد فاضت ، وقد رأيت دموعه قد بلت الرمل الذى بين يديه » .

(٤) الأغانى : « سَبَيْتنِى » .

(٥) العصم : جمع أعصم ، وهو الوعل الذى فى ذراعيه بياض .

(٦) الأغانى : « ثم سنحت له ظبية فوثب يعدو خلفها » .

(٧) الأغانى ٢ : ٨٩ - ٩١ مع اختلاف فى الرواية .

(٨) ديوانه : ١٣٠ .

أأقطعُ حبْلَ الوَصْلِ، فالموتُ دُونَهُ ... أم أُشربُ رَنْقاً منكمُ ليس يُشرَب (١)

فوَ اللهِ ما أدْرِي عَلامَ صَرمْتِنِي ... ولاأى أمرى فيكِ باللّيل أركب!

ولو تلتقى أصداؤُنا بعد موتنا (٢) ... ومِنْ فوقِ رَمْسَيْنا صفيحٌ مُنَصَّبُ

لظلّ صدَى رَمْسِي و إن كنتُ رِمَّةً ... لصوتِ صدَى ليلى يَهَشُّ و يَطْرَبُ

وقوله:

أقولُ لأصحابِي هِي الشَّمْسُ ضَوءها ... قريبٌ ولكنْ فى تناوُلها بُعْدُ (٣)

وَقَدْ يُبْتَلَى قَوْمٌ وَلاَ كَبَلِيّتِي ... ولامثل جَدِّى فِي الشّقاء بِكمْ جَدُّ

وما فىّ إلاّ العظمُ والجِلْدُ عاريا ... ولا عظمَ لى إن دام هذا ولاجِلْدُ

وقوله:

أرِدُّ عَنْكِ النَّفسَ والنَّفسُ صَبَّةٌ ... بذكراكِ والممشى إليك قريبُ (٤)

مخافة أنْ يَسعَى الوُشاةُ بِظَنَّةٍ ... وأكرمكم أنْ يستريبَ مُرِيبُ

ولوأنّ ما بى بالحصا فَلَقَ الحصا ... وبالرِّيح لم يُسْمَع لَهُنَّ هُبُوبُ

ولو أنَّنِي أستغفرُ الله كُلَّمَا ... ذكرتك لم تُكْتب عَلَيَّ ذُنوب

وَلَوْ أنَّ أنفاسِي أصابتْ بحرِّهَا ... حَديداً إذًا ظلّ الحديد يذوبُ (٥)

كَتَمْتُ الهوَى فى الصَّدْرِ حَتَّى أَعَلَّنِي ... ونَمَّتْ لَهُ مِن مُقْلَتَيَّ غُرُوبُ

وقوله:

وَماذا عَسَى الْوَاشُونَ أن يتحدَّثُوا ... سوى أنْ يقولُوا إنَّنِى لَكِ عاشقُ (٦)

نَعَمْ صَدَق الواشُون أنتِ حبيبةٌ ... إلىّ، و إنْ لَمْ تَصفُ مِنك الخلائق

---

(١) ديوانه ٤٥ .

(٢) الديوان : « ولو تلتقى أرواحنا » .

(٣) ديوانه ٩٧ . (٤) ديوانه ٥٩ .

(٥) هذا البيت وتاليه مما لم يرد فى ط ، وأثبتهما من ت .

(٦) ديوانه ٢٠٣

كأنّ عَلَى أنيابها الْخَمْرَ شَجَّهَا ... بماءِ سحابٍ آخرَ الليل غابقُ (١)
وما ذُقْتُه إلاّ بعيني تفرُّسًا ... كما شِيمَ فِي أعلى السَّحَابَةِ بارِق

وأما الأبيات التي ذُكر من أجلها فهي قوله ـ عفا الله تعالى عنه وسامحه :

دَعَا المحرمُون اللهَ يستغفرونَهُ ... بمكّه يوماً أن تُمحىَّ ذُنُوبُها (٢)
وناديتُ ياربّاه أوّلُ سُؤْلَتِي ... لنفسيَ لَيْلَى ثم أنتَ حسيبُها
فإن أُعْطَ ليلى فى حياتِيَ لم يتُبْ ... إلى الله عبدٌ توبةً لا أتوبها
أهابُكِ إجلالاً وما بكِ قُدْرةٌ ... عَلَيَّ وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا
وما هجرتْك النَّفسُ يا لَيْلَ أنَّهَا ... قَلَتْكِ، ولكن قلّ منك نَصيبُها

* * *

وأما البيت الثالث فهو قول ابن أبي ربيعة :

فَتَضاحَكْنَ وَقَدْ قُلْنَ لَهَا ... حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدْ

* * *

[عمر بن أبي ربيعة]

وهو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ القرشيّ ، ويكنى أبا الخطاب . شاعر مجيد ، صاحب ثروة ومجون ، وجميع شعره فى الغزل ، ولا يمتدح أحداً ، ولذلك قال له سليمان بن عبد الملك: لم لا تمدحنا ! فقال: إنما أمدح النساء لا الرجال .

وكان يقال : إنَّ العرب كانت تُقِرّ لقريشٍ بالتقدّم عليها إلاّ فى الشّعر ، حتى كان ابنُ أبي ربيعة ، فأقرّت لها فى الشّعر أيضاً ، ولم تنازعْها شيئاً .

ولد ليلةَ قتِلَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكان يقال : أىّ حق رُفع ،

---

(١) شجَّ الخمر : مزجها بالماء . والغابق : الذى يسقى الشراب بالعشى .

(٢) ديوانه ٦٧ .

وأىّ وباطل وُضع ! يعنون كثرةَ معاشرته للنّساء وتغزّله بهنّ .

ومات بعد أن تابَ وقد ناهز الثّمانين ، وقيل : إنه فَتَك أربعين ، ونَسَك أربعين .

ودخل عليه أخوه عند موته وقد جزِع عليه ، فقال له عُمَر : أحسبك تجزع لما تظنّه بى ! والله ما أعلم أنى ارتكبت فاحشةً ، فقال : ما كنتُ أشفِق عليكَ إلاَّ مِنْ ذلك .

وحكى الحرمىّ [١] أن عمر بن أبى ربيعة كان مشتَهرًا [٢] بحبّ الثّريّا بنت عبد الله بن أميّة الأصغر ، وكانت حريّةً بذلك ، جمالاً وتماماً ، وكانت تَصيفُ بالطّائف [٣] ، وكان عمر يغدُو [عليها] [٤] كلّ غداة من مكّة ، يسأل الرّكبان الذين يحملون الفاكهة من الطائف عن الأخبار قِبَلهم ، فلقى يوماً بعضهم ، فسأله عن أخبارهم ، فقال: مااستطرفْنَا خبرا [٥] ، إلاّ أننى سمعت عند رحيلنا صوتاً وصياحاً عالياً على امرأة من قريش ، اسمها [اسم] [٦] نجمٍ فى السماء قدذهب عنى اسمه [٧] ، فقال عمر : الثّريا ؟ فقال : نعم ــ وقد كان بلغ عمر قبل ذلك أنها عليلة ــ فوجّه فرسه [على وجهه] [٨] إلى نحو الطائف يركضه ملءَ فروجِه [٩] ، ويسلك طريق كَدَاء [١٠] وهى أخشن الطرق وأقربها ، حتى انتهى إلى الثّريا ــ وقد توقّعتْه وهى تتشوّف له وتتشوّق ــ فوجدها سليمة ومعها أختها [١١] ، فأخبرها الخبر ،

---

(١) فى الأصول : « الجرمى » ؛ بالجيم ، صوابه من الأغانى ؛ وهو الحرمى بن العلاء .
(٢) الأغانى : « مسهباً » ، والمسهب : من أسقمه الحب وأذهب عقله .
(٣) تصيف ؛ أى تقيم فى الصيف . (٤) من الأغانى .
(٥) مااستطرفنا خبرا ، أى ليس عندنا شىء طريف حادث .
(٦) من ت .
(٧) فى الأغانى : « سقط على اسمه » .
(٨) من ت والأغانى .
(٩) يركضه ملء فروجه ، أى لحمله على أشد العدو .
(١٠) كداء ، كسحاب : جبل بأعلى مكة عند المحصب .
(١١) فى الأغانى : « ومعها أختاها ضيا وأم عثمان » .

فضحكت ، وقالت: أنا والله أمرتهم لأخبرُ[١] ماعندك ، فلذلك يقول قصيدته :

تَشَكَّى الكُمَيتُ الجَرْىَ لَمَّا جَهَدْتُهُ   وَبَيَّنَ لَوْ يَسْطِيعُ أن يتكلما[٢]

وحُكِيَ أنّها واعدته يوما ، فجاءت فى الوقت الذى ذكرته ،[٣] فصادفت أخاه الحارث قد نام مكان عمر ، فلم يشعر الحارث إلا والثُّريا قد ألقت نفسها عليه[٣] ، فانتبه ، وجعل يقول : اعزُبى فلستُ بالفاسق ، أخزاكما الله ! فلما علمت بالقصّة[٤] انصرفت ، ورجع عمر فأخبر الحارث ، فاغتمّ لما فاته ، وقال له : أما والله لا تمسّك النار أبداً وقد ألقت نفسها عليك ! فقال الحارث : عليك وعليها لعنة الله ![٥]

وقال عمر : ما أخجلنى إلا ليلَى بنت [الحارث بن][٦] عمرو ، لقيتها وهى تسير على بغلة لها ـ وكنت أشبّب بها ـ فقلت لها : جعلت فداك ! قفى واسمعى بعض ما قلت فيك ، فقالت : أوَفعلت ! فقلت : نعم ، فوقفت فأنشدتُها :

ألا يا لَيلَ إنّ شِفاء نفسى   نوالُكِ لو علمتِ فنَوّلينا[٧]

وقد أزِف الرَّحيلُ وحان منَّا   فراقُكِ فانظرى ما تأمرينا !

فقالت : آمرك بتقوى الله ، وإيثار طاعته ، وترك ما أنت عليه . ثم انصرفتْ[٨] .

وحكى أنّه كان يوما يسايرُ عُرْوة بن الزّبير ، فقال عمر : وأين زينُ

---

(١) الأغانى : « لأختبر » .

(٢) ديوانه ٤٦٢ ، الأغانى ١ : ٢١١ ـ ٢١٣ .

(٣ ـ ٣) الأغانى : « فصادفت أخاه الحارث قد طرقه وأقام عنده ، ووجه به فى حاجة له ، ونام مكانه ، وغطى وجهه بثوبه ، فلم يشعر إلا بالثريا قد ألقت نفسها عليه تقبله » .

(٤) كذا فى ت والأغانى ، وفى ط : « بالقضية » .

(٥) الأغانى ١ : ٢٣٢ .   (٦) من الأغانى .

(٧) الأغانى : « إن بخلت فنولينا » .

(٨) الأغانى ١ : ١٥٦ ، وفيه : « ثم صاحت ببغلتها ومضت » .

المواكب؟ يعنى [ابنه][1] محمد بن عُرْوة ـ وكان يسمّى بذلك لجماله ـ فقال عُرْوة : هو أمامَك ، فركض يطلبه ، فقال له عروة : يا أبا الخطاب ، أو لسنا أكفاءً لمحادثتك ومؤانستك ! فقال : بلَى ، ولكنّى مُغرًى بهذا الجمال أتبعه حيث كان ، ثم أنشد يقول :

إنّى امرؤٌ مغرَمٌ بالُحسْنِ أَتْبَعُهُ ... لا حظَّ لى فيه إلا لَذّة النَّظَرِ

ثم مضى حتى لحقه ، وجعل عُرْوة يضحك منه[2] .

وروى أنه شبّب بزينب بنت موسى الجمحىّ ـ وكان ابن أبى عتيق ذكرها له ، فأطنب فى وصفها ـ فصنع فيها قصيدته التى يقول فيها :

يَا خَلِيلَيَّ مِنْ مَلَامٍ دَعَانِي ... وأَلِمَّا الْغَدَاةَ بِالْأَظْعَانِ

وبلغ ذلك ابنَ أبى عتيق ، فلامه فى ذكرها ، فقال :

لا تلُمنِي عتيقُ حَسْبِي الَّذِى بِي ... إنَّ عندى عتيقُ ما قَدْ كَفَانِي

* لَا تَلُمْـنِي فَأَنْتَ زَيَّنْتَهَا لِي *

فبدره ابن أبى عتيق ، فقال :

* أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطانِ لِلإِنْسَانِ *

فقال عمر : هكذا والله قلتُه ، فقال ابن أبى عتيق : أما علمتَ أن شيطانك ربّما ألمّ بى ، فيجد عندى من عصيانه كما يجد عندك من طاعته[3] !

ومثل هذا ما حكى أنه أنشد عبدَ الله بن عباس رضى الله عنهما قصيدته الدّالية ، فلما قال :

* تَشُطُّ غَدًا دَارُ جيرانِنَا *

---

(١) من الأغانى .
(٢) الأغانى ١ : ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٣) الأغانى ١ : ٩٨

فبدره ابن عباس ، فقال :

* وَللدَّارُ بَعْدَ غدٍ أبْعَدُ *

قال : هكذا والله قلت ، فقال ابن عباس : إنه لا يكون إلا هكذا[١].

ورُوِىَ أنَّ عَبْد الملك بن مَرْوان جَمَعَ بينه و بيْنَ جميل وكُثَيِّر عَزّة ، وقال : لينشدْ كلٌّ واحد منكم بيتا فى الغزَل ، فأيّكم كان أغزلَ فله هذه الناقة وما عَليها ـ وكان قد أحضر ناقة موقورة دراهم ـ فابتدر جميل فى الأول وقال :

وَلَوْ أنَّ راقِي الموتِ يَرْقِي جنازتِي ... بمنطقها فى النّاطقين حييتُ[٢]

وقال كثيّر :

وَسَعَى إلىّ بِعَيْبِ عَزَّةَ نِسْوةٌ ... جَعَلَ الإلهُ خُدَودهنّ نِعالَها

وقال عمر بن أبى ربيعة :

فليتَ الثريّا فى المنام ضجيعتِي ... لدى الجنّة الخضراء أو فى جهنّمِ

فقال عبد الله : خذها يا صاحب جهنّم .

ومن محاسن شعر عمر قوله فى قصيدته الرّائية[٣] :

تَهِيمُ إلى نُعْمٍ فَلاَ الشَّمْلُ جَامعٌ ... وَلاَ الْحَبْلُ موصولٌ ولاأنت مُقْصِرُ[٤]

أشارت بِمِدْارها وقالت لِتِرْبِها[٥] : ... أهذا المغيرىّ الذى كان يُذْكَرُ !

لئن كانَ إيّاه لقدْ حالَ بعدنَا ... عن العهدِ ، والإنسان قد يتغيّرُ

رأتْ رجلا أمّا إذا الشمس عارضَتْ ... فيضحَى وأمّا بالعشىّ فيخْصَرُ[٦]

أخا سفرٍ جَوَّابَ أرضٍ تقاذفتْ ... به فَلَواتٌ فهو أشعثُ أغبرُ

---

(١) الأغانى ١ : ٧٣ .

(٢) ديوانه ٣٨ .

(٣) ديوانه ٩٢ ـ ١٠٠ .

(٤) الديوان : « أهيم » .

(٥) رواية الديوان :

* قفى فانظرى أسماء هل تعرفينه *

(٦) يضحى : يظهر للشمس ولا يستتر . ويخصر : يبرد .

وليلة ذِى دَوْران جَشّمتِنِى السُّرَى ... وقد يجشَمُ الْهَوْلَ المحبُّ المغرَّرُ
وبتّ رقيبًا للرِّفاقِ على شفاً ... ولِى مجلسٌ لولا اللُّبَانَةُ أَوْعَرُ
فلما فقدت الصَّوت منهم وأطفِئت ... مصابيحُ شُبَّتْ بالعِشاء وأنؤرُ
وخُفِّضَ عنى الصَّوْتُ أقبلت مِشْيَةَ الـ ... حُباب وركنى خيفةَ القوم أزْوَرُ
فحَيَّيْتُ إذ فاجأتها فتولَّهَتْ ... وكادت بمخفوض التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ
وقالتْ وعَضَّتْ بالبَنَانِ: فضحتَنِي ... وأنت امرؤٌ ميسورُ أمرِك أعْسَرُ
أريتَك إذْ هُنَّا عليكَ أَمْ تَخَفْ ... رقيباً وحَوْلِى من عَدُوِّك حُضَّرُ!
فلمّا تقضّى اللّيلُ إلاّ أقلَّهُ ... وكادت توَالِى نَجْمِه تَتَغَوَّرُ
أشارت لأختيها: أعينا على فتًى ... أتى زائراً، والأمر للأمرِ يُقْدَرُ
فأقبلتا، فارتاعتا، ثم قالتَا: ... أقلّى عليكِ اللَّوم فالخطب أيْسَرُ
يقوم فيمشِى دُونَنَا مُتنكِّرًا ... فلا سِرُّنَا يَفْشُو ولا هو يَظْهَرُ
فكان مِجَنِّى دُونَ مَنْ كنت أتّقِى ... ثلاث شخوص: كاعبان ومعصِرُ[1]
هنيئا لبعلِ العامرية نشرها الـ ... لذيذ وريَّاها الّذى أتذكّرُ

أطلت فى ذكر هذه القصيدة لِما رأيت فيها من اللّفظ المطبوع، والانسجام الذى لا يتهيّأ لغيره من الشعراء.

ومن محاسن شعره قوله:

أحقًّا لَئِنْ دارُ الرَّبَاب تباعدتْ ... أوانبَتَّ حبلُ الْوَصْلِ قلبُك طائرُ![2]
أَفِقْ قَدْ أفاق الواجدُون وفارقوا الـ ... هوى واستمرّتْ بالرِّجال المرائرُ[3]
أمِتْ حُبَّهَا، واجعل قديمَ وِصَالها ... وَعِشْرَتها كبعض من لا تعاشرُ

---

(١) المعصر: الجارية أول ما أدركت.

(٢) ديوانه ١٠٩.

(٣) المرائر: جمع مريرة؛ وهى العزيمة.

وهَبْهَا كشىءٍ لم يكن ، أو كنازحٍ   به الدَّارُ ، أو مَنْ غيّبتْه المقابرُ

هذا البيت من أحسن ماذكره أرباب البديع ، وفيه نوع من أنواع التقسيم.

وقوله أيضاً :

بَيْنَمَا ينعتْنَنِي أبصرنني   مثل قيد الميل يَعْدُو بِي الأغرّ[١]

قالت الكبرى: ترى مَنْ ذا الفتى ؟   قالت الوسطى لها : هذا عُمَرْ

قالت الصغرى وقد تيَّمتُها :   قد عرفناه ، وهل يخفى الْقَمرَ ![٢]

يقال : إنه رتّب كلامهنّ على قدر عقولهنّ ، فالكبرى تجاهلت عن معرفتِه ، والوسطى أظهرت معرفته ، والصغرى أظهرت معرفته ووصفه

وقوله معارضاً لقصيدة جميل[٣] :

جَرَى ناصحٌ بالودّ بينِي وبَينَهَا   فقَرَّبنِي يومَ الحِصَاب إلى قتلى[٤]

فلما توافقنا عرفتُ الّذِي بها   كمِثْلِ الّذى بى حَذْوَكَ النَّعْل بالنَّعلِ

وسَلّمتُ فاستأنَسْتُ خيفة أن يَرَى   عدوّى مكانِي أو يرى كاشحٌ فعلِي

فقالت وأرْخت جانب السّتر : إنّمَا   معِى فتحدَّثْ غير ذى رِقْبَةٍ أهلِى

فَقُلْتَ لهَا : ما بِي لَهمْ من ترقُّبٍ   ولكنَّ سِرِّى ليس يحملُه مثلِى

يقال : إن هذا البيت أحسن ما قيل فى وصف السرّ .

وقوله أيضاً :

أيُّها الرائح المجِدّ ابتكارَا   قد قضى من تِهامة الأوطارَا[٥]

---

(١) ديوانه ١٥١ والأغر ، أراد به فرسه .

(٢) رواية الديوان :

قُلْن : تعرفْن الفتَى ؟ قلن : نعمْ   قد عرفناه ، وهل يخفى القمرْ !

(٣) فى قصيدته التى مطلعها :

لقدْ فرحَ الواشونَ أن صرمتْ حبلِي   بثينةُ أو أبدَتْ لنا جانبَ البُخْلِ

(٤) ديوانه ٣٣٤ . ويوم الحصاب ، أراد به يوم رمى الجمار .

(٥) ديوانه ٤٩٣.

مَنْ يــكُنْ قلبه الغداةَ سليما ففؤادى بالخَيْف أضْحى معارا
ليتَ ذا الدّهرَ كانَ حَتْماً علينا كلّ يومٍ حَجّةً واعتمارا

يروى أن سعيد بن المسيّب رضى الله تعالى عنه ، لما سمع هذا البيت قال : لقد كلفَ المسلمين شططاً عظيما ! وإن الله لأرحمُ بهم من أن يبلغه أمنيّته .

وأما الشّعر الذى ذكر من أجله، فقوله فى هند بنت الحارث بن عوف المرّية :

لَيْتَ هندً أنجزتْنا ما تعِدْ وَشَفَتْ أنفُسَنَا مِمَّا تَجِدْ[1]
واستبدّتْ مَرّةً وَاحِــدَةً إنَّمــا العاجزُ مَنْ لا يَسْتَبِدّْ
ولقد قالت لأترابٍ لَهــا ذاتَ يوم وتعرَّتْ تبترِدْ
أكما ينعتُنى تُبصِرْنَنى عَمْرَكُنَّ الله أمْ لا يقتصِدْ !
فتضاحَكْنَ وقد قلْنَ لَهــا حَسَنٌ فى كُلِّ عينٍ مَنْ تَوَدّْ
حسدًا حُمِّلْنَهُ من أجلِها وقديماً كانَ فى النَّاسِ الحَسَدْ

* * *

١٠١ ــ وَكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِحُلاكَ ، وَوَسَمَتْكَ بِسِيماكَ ، وَلَمْ تُعِرْكَ شَهَادَةً ، وَلاَ تــكلّفَتْ لكَ زِيَادَةً .

قوله : « وكانت » عطف على « وهَبْها » .

والُحلَى : الأوصاف التى يُوصف بها الشّحص ؛ كأنها مأخوذة من الحلْى ، وهو الزّينة .

والسِّيما : العلامَة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مِنَ الْمَلاَئِـكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[2] .

والشّهادة : العِلْم بالشىء والإقرار به .

* * *

(١) ديوانه ٣٢٠ . (٢) سورة آل عمران ١٢٥

١٠٢ — بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بَكْرِهَا فِيمَا ذَكَرْتُهُ عَنْكَ .

هذا مِثْلٌ يُضرب فى الصدّق ، وأصلُه أنّ رَجلا ساوم رجلا فى بعيرٍ ، فقال: ما سنُّه ؟ فأخبره أنه[1] بَكْر ، ففرّ عنه ـ أى رأى سنَّه ، واحد الأسنان ـ فقال: صدقَتْنِى سنُّ بَكْره ، يروى «سنَّ بكْره» بفتح النون على أنه مفعول ، و«سنٌّ» بضمها على أنه فاعل ، وكلاهما صحيح المعنى .[2]

* * *

١٠٣ — وَوَضَعَتِ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النَّقْبِ بِمَا نَسَبْتُهُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتْ بِهِ عَلَيْكَ .

هذا مثلٌ يضرَب لمن يضع الأمور فى محلّها ، وأصلُه أن الهانئ — وهو واضع القطِران على البعير الأجرب — يتتبع النُّقَب التى فى جسد البعير ، وهى مبادئ الجرب ؛ وهذا المثل نصف بيت من الشعر لدُرَيد ، يقوله فى الخَنْساء .

* * *

[دُريد بن الصِّمّة]

وهو دُريد بن الصّمّة بن الحارث الُجشمىّ ، من هَوازن ، فارس معروف من فُرسان الجاهليّة وشُعرائها ، مشهورٌ بالرّأى والظّفَر ، وأُمّه ريحانة بنت معديكرب أخت عمرو ، وقتل فى غزَاةِ هَوازن مشركاً حين غزاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد أسنَّ وعَجَز عن الحرْب ، وإنّما حُمِل مع القوم لرأيه وتدبيرِه ، وهى الواقعة التى أشار فيها برأىٍ ولم يسمع منه ، فقال :

---

(١) كذا فى ت ، وفى ط : « بأنه »

(٢) انظر الميدانى ١ : ٢٦٥ .

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَــذَعْ أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ (١)

وهُزمت هوازن ، وقتل أكثرُهم . وقتله ربيعة بن رُفَيع السُّلَمِيّ ، فى خبر يطول ؛ وقال : لمّا ضربتُه بسيفه وقع متكشّفا ، فإذا عِجانُه وفَخِذاه مثلُ القَراطيس من رُكوبِ الخيل .

حكى الأصمعىّ أن أمّه ريحانة قالتْ له بعد مقتل أخيه عبد الله بن الصّمَّة : يا بُنَىّ ، إن كنتَ عجزتَ عن ثأر أخيك ، فاستعِنْ بخالك وعشيرته من زُبَيْد ، فأَرِقَ (٢) لذلك ، وحلفَ لا يأكلُ لحماً ، ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره ، ثم وَجد غِرّةً من غَطَفان فغزاهم ، وقتل منهم قوماً ، ثم أسر ذُؤاب بن أسماء ، وأتى به إلى فِناء [أبيه] (٢) فقتله ، فأخذت [أمه] (٣) السيف وجعلت تلحس الدَّم بلسانها إلى أن انقطع منه شيء ، وهى لا تعلم من الفوح ، ثم قال فى ذلك :

جَزَيْنَا بَنِي عَبْسٍ جَزَاءً مُوَفَّرًا بمقتلِ عبدِ الله يوم الذَّنَائبِ

قتلْنَا بعبد الله خيرَ لِداتِهِ ذُؤاب بن أسماء بنِ زيد بن قاربِ

قال الأصمعىّ : كان عبدُ الملك بن مَرْوانَ يقول: لولا القافية لنسبه إلى آدم. وهذا النوع يسمّيه أرباب البديع الاطّراد لتوالِى الأسماء منظومة .

وحكى أبو عبيدة ، قال : هجا دُريد بن الصّمة عبدَ الله بن جُدْعان ، فلقيه عبدالله بعُكَاظ وحيّاه ، وقال : هل تعرفني يادُرَيد؟ قال : لا ، قال : فلِمَ هجوتَني؟ قال : ومَنْ أنت؟ ولم يكن رآه ، قال : أنا ابن جُدْعان ، قال : هجوتُك لأنّك كنت امرأ كريماً ، فأحببتُ أن أضعَ شعرى موضعَه ؛ فقال له عبدُ الله : لئن

---

(١) الأغانى ١٠ : ٣١ (طبعة دار الكتب) ، وبعده هناك :

أَقُودُ وطْفَاءَ الزَّمَعْ كَأَنَّهَا شاةٌ صَــدَعْ

(٢) الأغانى : « فأنف من ذلك »

(٣) من ت . (٤) الأغانى ١٠ : ١٣ .

كنتَ هجوتَ لقد مدحتَ ؛ وكساه وحمله على ناقة ، فقال يمدحه :

إليكَ ابنَ جُدْعَان أعملتها مُسَوّمةً للسُّرَى والنَّصَبْ[١]
فَلاَ خَفْضَ حَتَّى تلاقِي امرأً جوادَ الرِّضَا حليم الغَضَبْ
سبرتُ الأنام فما إن أرَى شبيه ابن جُدعانَ وسْطَ العرب[٢]

ومن شعر دريد يرثى أخاه :

تَنادَوْا فَقَالُوا أَرْدَتِ الخيلُ فارسًا فقلت : أعبدَ الله ذلِكُم الرَّدِى ![٣]
فإن يكُ عَبْدُ اللهِ خَلَّى مَكَانَهُ فما كان وَقَّافًا ولا طائِشَ الْيد
صَبُورٌ عَلَى وَقْع النَّوائِب حافظ من اليومِ أَعْقَابَ الأحاديث فى غدِ
أغاذلتِي كلّ امرئ وابن أمّـهِ متاعٌ كزادِ الرّاكب المتزوّدِ

وقوله :

أَيَا ذُفَافَةَ مَنْ لِلْخَيْل إنْ طُرِدَتْ واضطرّها الطَّعْنُ فى وعْثٍ و إيجافِ ![٤]
يا فارسَ الخيلِ فى الهيجا إذا اشتغَلَتْ كلتا اليدين كرورًا غير وَقَّافِ

قوله : « اشتغلت كلتا اليدين » ، يعنى يمسك العنان بيد و يضرب بالأخرى .

ثم قال :

عبر الْفَوارِس معروف بشِكَّتِهِ كافٍ إذا لم يكن من كُرْبَةٍ كافِ

ـ يعنى أن الفوارس ترى منه ما يُبكى أعينهم و يستعبرها .

وقوله فى يَزيد بن عبد المدَان حين سأله ردَّ مالِ جاره :

أمرتكمو تردّوا مال جارِى وأسْرَى فى كُبُولِهم الثِّقالِ[٥]

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢١ ، وروايته : « مخففة للسرى » .
(٢) الأغانى : « رحلت البلاد » .
(٣) الأغانى ١٠ : ٨ ، ٩ .
(٤) الأغانى ١٠ : ١٠ . الوعث : الطريق الخشن .
(٥) الأغانى : ١٠ : ٣٦ ، وروايته :
* بنى الديّان ردّوا مالَ جارى *

فأنتُمْ أهلُ عائدةٍ وَفَضْلٍ   وأيدٍ فى مواهِبِكُمْ طِوَالِ
متى ما تمنعوا شيئا فليست   حبائل أخذه غيرَ السؤال

وقوله أيضاً :

أبى القتلُ إلاّ آل صِمَّةَ إنَّهمْ   أَبَوْا غيره والقَدْرُ يجرى إلى القَدْرِ
يُغار علينا واترِين فيشتفَى   بنا إن أصَبْنَا أو نغير على وَتْرِ
قسمْنَا بذاكَ الدّهر شطرين بيننَا   فما ينقضى إلاَّ ونحنُ عَلَى شَطْرِ

وأما الشّعر الذى ذُكِر بسببه ، فإنّه مرّ بالخنساء بنت عمرو بنَ الشَّرِيد ، ـ وسيأتى ذكرها ـ وهى تَهْنَأ بعيراً لها ، وقد تبذَّلَتْ حتى فرغت منه ، ثم نَضَتْ عنها ثيابَها واغتسلتْ ـ ودُريد يراها وهى لا تشعر به ـ فأعجبتْه ، وانصرف إلى رَحْله ، فقال :

حَيُّوا تُماضِرَ وارْبَعُوا صَحْبِى   وقِفُوا فإنَّ وقوفَكُمْ حَسْبِى[1]
ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بِهِ   كاليومِ هانئَ أينُقٍ جُرْبِ
مُتَبذِّلاً تبدُو محاسنه   يَضَعِ الهَنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقْبِ

وتُماضر اسم الخَنْساء ـ ثم خطبها ، فردّته لكبرِ سِنّه، فهجاها ، فقيل لها : ألا تجيبينَهُ ؟ فقالت : ما كنتُ لأجمع عليه أن أردّه وأهجوه !

* * *

١٠٤ ـ فالْمُعَيْدِيُّ تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ .

هذا مثلٌ يُضرب لمن يكون خُبْره خيراً من منظره ؛ وأوّل مَنْ قاله النعمان لشقّة بن ضمرة[2] ، فى خبر طويل[3] . معناهُ أنه كان يُغير على مال النّعمان ، و يُطلَب

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢٢ .
(٢) فى الحاشية من نسخة : « لسعيد بن ضمرة » .
(٣) انظر الميدانى ١ : ٧٦ .

فلا يقدَر عليه ؛ إلى أن أمّنه النعمان ، وكان يعجبه ما يسمع عنه ، فلمّا رآه استزْرَى منظرَه ؛ فقال : « لأنْ تسمع بالمُعيديّ خير من أن تراه » ، فقال : أبيتَ اللعن ! إن الرجال ليسوا[1] بجزر ، وإنّما يعيش المرءُ بأصغريْه : قلبه ولسانه.

ومُعَيد اسم قبيلة ، وفيها يقول الشاعر :

* سَتَعْلَمَ ماتغنى مُعَيْدٌ ومعرِض *

* * *

[النعمان بن المنذر]

والنعمان هذا هو ابن المنذر بن النعمان بن عمرو ، آخر ملوك العرب بالحيرة من قبَل كسرى .

وله أخبار وأقوال ؛ ومن أغرب ما ذكر منها كلامُه عند كسرى فى فضل العرب ؛ وذلك أنه وفَد على كسرى، وعنده وفود الرُّوم والهِند وغيرهم، فذكروا ملوكهم وفضْلهم ، وأفاض النعمان فى ذكر العرب وفضلهم على الأمم ، لا يستثنِى فارسَ ولا غيرها ؛ فتمعّر وجه كسرى[2] ، وذكر كلامًا ينتقص فيه العرب ، ويفضّل عليهم الأمم ، فقال النعمان : أصلح الله الملك ! أمّا أمّتك فليست تنازَع فى الفضل لموضعها الّذى هى به؛ من عَقْلها وحلمها، وبسط حِكَمها ، وما أكرمها الله تعالى به من ولاية آبائك ، وولايتك . وأما الأمم التى ذكرتَ فأىّ أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتْها . فقال كسرى : بماذا ! قال : بعِزّتها ومنَعتها ، وبأسها وسخائها ، وحُسن وجوهها ، وحِكْمة ألسنتها ، ووفائها ، وأحسابها وأنسابها .

فأما عزّتها ومنَعتها فإنها لم تزل مجاورةً للملوك الّذين دوّخوا البلاد ، وقادُوا الجنود ، لم يطمع فيهم طامع ؛ حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرضُ

---

(١) ت : « ليست » .

(٢) تمعر وجهه : تغير فى غضب .

وجُنَّتُهم السيف[١]، وعدّتهم الصبر ، إذْ غيرهم من الأمم إنّما عزّها الحجارة والطّين ، وجزائر البحار .

وأمّا سَخاؤها ؛ فإن أدْنَى رجل منهم يكون عنده البَكْرة أو النّاب ، عليها بلاغُه من حَمُولتها ، وشبَعه ورِيّه ، فيطرقُه الطارق الذى يكتفى بالفِلْذة ، ويجتزى بالشَّرْبة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج له عن دُنياه كلِّها فيما يكسبه حسنَ الأحدوثة ، وطيب الذّكر .

وأمّا حسنُ وجوهها وألوانها ؛ فقد يُعرف فضلُهم فى ذلك على غيرهم من الهند المتحرّقة ، والرّوم المقشّرة ، والتّرك المشوّهة .

وأمّا ألسنتُها ؛ فإنَّ الله أعطاهم فى أشعارهم، ورونقِ كلامهم وحسنه ووزنه، وضربِهم الأمثالَ ، ومعرفتهم بالإشارة ، وإبلاغهم فى الصفات ما ليس فى ألسنة الأجناس .

وأمّا وفاؤها ، فإنّ أحدَهم ليَبلغه أنّ أحدَ الرّجال استجار به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره ، فيصابَ فلا يرضى حتى يفنِى تلك القبيلة التى أصابتْه ، أو يصاب قبْله؛ لِما أُخْفِرَ من جواره . وإنّ أحدهم ليرفع عودًا من الأرض فيكون رَهْنا لا يغلَق ولا تخفر ذِمّتُه .

وكذلك تمسّكها بشريعتها ، وهو أنّ لهم أشهراً حُرُمًا ، وبيتاً محجوجًا ، ينسكون منه مناسكَهم ، فيلقَى الرّجلُ قاتلَ أبيه وأخيه وهو قادرٌ على أخذ ثأره فيمنعه دينُه ، ويحجزه كرمُه [عن تناوله بأذًى] .[٢]

وأما أنسابُها وأحسابُها ؛ فليست أمّةٌ من الأمم إلا وقد جهلت أصولَها ، وكثيراً من أوّلها وآخِرها ، حتّى إنَّ أحدهم يُسأل عمّا وراء أبيه فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليسَ أحدٌ من العرب إلاّ يسمى أباءه أبا فأبا ؛ حاطوا بذلك

---

(١) ت : « السيوف » .
(٢) من ت .

أحسابهم ، فلا يدخلُ رجلٌ فى غير قومه ، ولا يُدْعَى لغير أبيه .

وأمّا قول الملِك : إنَّهم يئدون أبناءهم ؛ فإنما يفعله منهم مَنْ يفعله بالإناث ؛ أنفَةً من العار ، وغَيْرةً من الأزواج .

وأمّا قوله : إنّ أفضل طعامِهم لحومُ الإبل ، فما تركوا مادونَها إلا احتقاراً ؛ فعمَدوا إلى أجلّها قَدْرًا ، وأغلاها ثمنا ؛ فكانت مراكبهم وطعامهم ؛ مع أنها أكثر البهائم لحومًا وشحوماً .

وأمّا تحاربهم وَترْك انقيادهم لرجل يسوسُهم ، فإنما يفعل ذلك مَنْ يفعله من الأمم إذا أنِست من نفسها ضعفاً ، وتخَوّفت نهوض عدوها ، وإنه إنما يكون فى بيت الملك واحد يعرفون فضله[1] ، فيلقون أمورهم إليه ؛ فأمّا العرب فإنّ ذلك كثير منهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين ، مع أَنفتهم من أداء الخراج والعُشْر وما أشبه[2] ذلك .

فعجب كسرى من منطقِه ، وكساه من كِسْوتِه ، وردَّه إلى الحيرة .

* * *

ومن ظريف أخبار النعمان ، أنه كان قد حمَى ظَهْرَ السكوفة وشقائقها ــ ومن هنالك يقال : شَقائِق النعمان ــ فانفردَ يوما عن عسكره ، فإذا هو بشيخ يخصِف نعلاً ، فقال : ما أنزلك هاهنا ؟ قال : طَرَدَ النّعمان الرِّعاء ، فأخذوا يمينا وشمالا ، فانتهيتُ إلى هذه الوَهْدَه،فنُتِجت الإبل، وولدت الغنم ــ والنّعمان معتمٌّ لايعرَف ــ فقال : أو ماتخاف من النُّعمان ! قال : وما أخاف منه ، ولربما سَرَتْ يدى هذه بين عانة أمّه وسرّتها ! فلمّا سمع النُّعمان قولَه ،سَفَر عن وجهه ، فإذا خرزاتُ الملك تلمع ، فلمّا رآه الشيخ ، قال : أبيت اللعن ! لا ترى أنك

(١) ت : « يعرفون فصله » .

(٢) ت : « ونحو ذلك » .

ظفرت بشيء ، فقد علمت العرب أنه ليس بين لابتَيها[١] شيخ أكذب منّى !
فضحك النعمان ، وحلم عنه ، مع تجبّره وعظمته .

ومات النُّعمان بساباط المدائن ، طرحه كسرى تحت أرجل الفِيَلة فخبطته حتى ماتَ ، وذلك بتحيّل عدىّ بن زيد كاتبه ؛ وذلك أن كسرى أرسل يخطب ابنةَ النعمان لنفسه ، فقال النعمان للرّسول : أما كان في عَيْن السّواد ما يكفى الملك! فلماسمع كِسْرَى هذا الكلامَ لم يفهمه ، فسأل عنه عديًّا ،فقال: إنه أَنِف من مصاهرة الملك ، وقال : يكفيه بَقر العراق ؛ فغضب واستدعى النعمان وقتله[٢] .

* * *

١٠٥ — هَجينُ الْقَذَالِ ، أَرْعَنُ السِّبال ، طويل العُنُقِ والعِلاوة ، مُفْرط الحمق والغَبَاوَةِ .

الهجين من الناس : مَنْ فى نسبه هُجْنة ، أى قُبْح ، وكذلك المقرِف، وهوأنْ يكونَ أحدُ أبويه قد دخل فى العُبُوديّة . ويقال : إنّ المقرِفَ من قِبَل الأب ، والهجين من قبل الأمّ . وتقول العرب : فلان هَجِين القَذَالِ ، أى يتبيّن لؤمُ نسبِه فى قذَاله .

والقَذَال: جماع[٣] مؤخّر الرّأس ، وخصّ القَذَال لأنّ الذى يُعرَف لؤم نسبه، إذا وُلّى طأطأ رأسه حياء وذلاًّ ، فكأنّ اللؤم يتبيّن من قَذاله . وقيل : لكثرة انهزامِه فى الحروب .

والأرعن[٤] : الأحمق ، مأخوذٌ إمّا من الرّعَن ، وهو الاسترخَاء ، وإما من الرَّعْن بالتّسكين ، وهو أنف الجبل المائل ، فكأنّ الأحمق مائل عن الصواب .

---

(١) كذا فى ت ، وفى ط : « بينها » .
(٢) ت : « فقتله » .
(٣) ت : « جميع » .
(٤) بعدها فى ت : « والراعن » .

وذكر بعض المفسّرين أن المراد بقوله تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا﴾[(١)] هذا المعنى ، فإنّهم كانوا يقولونه للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم على سبيل التهكّم ، يقصِدون به رَمْيَه بالرُّعونة ، و يوهمون أنّهم يقولون : « راعنا » من المراعاة ، أي احفظنا .

والسِّبَال: جمع سَبَلة : وهي شعر الشّفة العليا ، شُبّهت بسبَل المطر لما فيها من التحدّر ، وخصّت الرعونة بالسّبال لأنّها علاَمة الرَّجُل ؛ والمعنى أنّ هذه المرأة تُسمِعنا عنكَ الأوصاف الجميلة ، فإذا نُظِرْتَ واختُبِرْتَ فأنتَ على هذه الأوصاف الذميمة .

والعِلاوة : الرأس ما دام على العُنُق ، يقال : ضربت عِلاوته ؛ ويقال في الفِراسة : إنّ طول العنق والرأس من دلائل الُحْمق .

* * *

١٠٦ – جَافِي الْطبعِ ، سَيِّئُ الْجَابَةِ وَالسّمْعِ ؛ بَغِيضُ الْهَيْئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ والْجِيْئَةِ ؛ ظَاهِرُ الوَسْوَاسِ ، مُنْتِنُ الأَنْفَاسِ ؛ كَثِيرُ الْمَعَايِبِ ، مَشْهورُ المثالِبِ .

الجفاء : النّبُوّ والتّباعد ، والأصل ، من جَفَا السَّرْج عن الفَرس إذا نبا .

والطَّبْع: السجيّة ، وهو نقش النَّفْس بصورةٍ مَا، وذلك إما من جهة الِخلْقة ، أو من حيث العادَة ، مأخوذٌ من طبْع الدِّرْهم ، أي تصوّره بصورة مَا .

وسيّئ الجابة[(٢)] : يعني يسمع الشيء على غير حقيقته ، ويُجيب كذلك ، إمّا من البَلَه ، أو الطَّرَش،وهو مثَل للعرب ، يقولون:«ساءَ سمعا – أو أساء سمعا –

(١) سورة البقرة ١٠٤ .
(٢) ت : « الإجابة » .

فأساء[1] جابة » ؛ قاله سهيل بن عمرو ، وكان قد تزوّج صفيّة بنت أبى جَهْلٍ ، فولدتْ له أنس بن سُهَيل ، فخرج ذات يوم وهو مَعَه ، فوجده الأخنس بن شَرِيق فقال : مَنْ هذا ؟ فقال : ابنى ، فقال الأخنس : حَيَّاكَ الله يا فتى ! فقال : لا والله ما أمّى فى البيت ، فقال أبوه : « أساء سمعا فأساء جابةً » .

ولسُهَيْلٍ هذا حكايةٌ فى الكرَم عَجيبة ، وذلك أنه كان أسلم بعد فَتْح مكّة ، وسكن البادية إلى أن حضر اليَرْموك واستُشهد ، فقيل : إنه لما صرِع مَرَّ به رجل وهو بآخر رَمَقٍ[2] ، فقال : اسْقِنِى ، فأتاه بشربةٍ من ماء ، فنظر إلى الحارث بن هشام وهو صَرِيعٌ ينظر إليه ، فقال : اذهب إليه بالشَّرْبة ، فلمّا تناولها رأى عِكْرِمة فى حاله ، فقال : اذهب إليه بالشَّرْبة ، فذهب بالشربة إلى عكرمة فوجده قد مات ، فرجع بها إلى الحارث فوجده مَيِّتاً ، فرجع بها إلى سُهَيل فوجده ميتاً ، ومات الثلاثة قبل أن يذوقوها .

والهيئة : الحالة التى يكون عليها الشىء ، محسوسة كانت أو معقولة ، وهى فى المحسوسة أكثر .

والسُّخْف : رقَّة العَقْل ، وقد سَخُفَ سخافةً ، فهو سَخِيف .

والوَسواس : الخطرات الرَّدِيئة من حديث النفس ، مأخوذ من وسواس الحلىّ ، وهو صوته الخفىّ . ودخل الحسن بن سهْل على المأمون وإبراهيم بن المهدىّ عنده ، فاقترح الحسن على إبراهيم أن يغَنِّيَه فغَنَّى :

* تَسْمَع للحَلْيِ وَسواساً إذا انصرفتْ *

يعرِّض بوسواس كان فى الحسن .

والمثالب : النقائص ، مأخوذٌ من ثُلْب الرّمح إذا تثلّم .

---

(١) ت : « فاءه » .   (٢) ت : « نفس » ؟

١٠٧ ــ كَلَامُكَ تَمْتَمَةٌ ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ ، وَبيَانُكَ فَهْفَهَةٌ ، وضَحِكُكَ قَهْقَهَةٌ .

التَّمْتَمَة والغَمْغمةُ : مِنْ مَعَايِبِ النُّطقِ المَعْدُودَة ، قال الجاحظُ : التّمتمة التردّد فى التّاء ، والفأفأة التردّد فى الفَاء ، والعُقْلة التواء اللّسان عند إرادة الكلام ، والحُبْسة تعذُّر الكلاَم عند إرادته ، واللّفف إدخالُ حرفٍ فى حرف ، والرُّتّة تمنُّع الكلام ، فإذا جاء منه بشىء اتّصل ، وقيل : العجمة فيه ، واللُّثغة أن يعدل من حرف إلى حرف ، والغُنّة أن يُشْرَب الحرفُ صوت الخيشوم ، والخُنّة أشدّ منها ، واللُّكنَة أن يعترض الكلامَ حرف أعجمىٌّ ، والطَّمْطَمة أن يكون الكلام شبيهاً بالعجمىّ . والغَمغمة أن يُسمع الصوت ولا يبيّن تقطيع الحروف .

قال أبو عبيدة : كان رجلٌ من المشركين يحدّ حربته عند فتح مكة ، فقالت له امرأته : ما تصنع ؟ قال : أحدّ الحرْبة لقتل محمد وأصحابه ؛ فلما هزِمَ المشركون قال [منشداً هذه الأبيات][1] :

إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ إذْ فَرَّ صَفْوانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ
وإذْ عَلَتْنَا بالسُّيُوف المُسْلِمَة ضرباً فما نَسْمَعُ إلاَّ غَمْغَمَهْ

وقال معاوية يوماً : مَنْ أفصحُ الناس ؟ فقال : رجلٌ من السّماط : قومٌ تباعدوا عن كَشْكَشة تميم ، وتنافَرُوا عن كَسْكَسة بَكْر ، ليس فيهم غمغمة قُضاعة ، ولا طمطَمة حِمْيَر. فقال معاوية : مَنْ أولئك ؟ قال : قومى ، قال : مَنْ أنت ؟ قال : أنا رجل من جرْم .

قوله : « كشكشة تميم » ، فإن بنى عمرو بن تميم ، إذا ذكرتْ كاف المؤنث

---

(١) من ت ؛ والرجز فى أنساب الأشراف ١ : ٣٥٦ ، ونسبه إلى حماس بن قيس مع اختلاف فى الرواية .

فوقفت عليها ، أبدلت منها شيناً . قال بعضهم : هل لك أن تنفعيني وانفعُشِ ، وتُدخلين اللّذْمِعِي فى اللّذْمَعْشِ ؟ يعنى وأنفعكِ ، واللّذْمعكِ .

وكسكسة بكْر أنهم يثبتونَ حركة كاف المؤنث ، ويزيدون عليها سيناً ، يقولون : تنفعكس ، واعطيتكس .

والغمغمة لقضاعة ، وقد ذكرت . والفَهْفهة : عيّ فى المنطق . والقهقهة : صفة الضحِك الشديد ، كأن الضاحك يقول : قه قه ، وهى[(1] ، خَصْلة مذمومةٌ فى الإنسان ، دالّة على قلّة العقْل[1)] .

* * *

١٠٨ ــ وَمَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ؛ وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ .

الهَرْولة : ضربٌ من العَدْو ؛ وهو بَيْن المشيِ والعدْو ، وعدّها هنا من المعايب ؛ لاقترانها بذكر المسألة ، يعنى أنه سائل نَهِم[(2)] سريع المشى ، للطّلب والكُدْية .

والزّنادقة فى الأصل : الثَّنَوِيّة ، وذلك أن زرادشت المجوسىّ لما ظهر ببلاد الشرق ، ودعَا إلى عبادة النّيران لما رأى فى تلك الأماكن من البَرْد والثّلْج ، ورغبة أهلها فى النار[(3)] اتّبعوه . وكان صاحب حيَلٍ وسِحْر ، ويقال : إنه كان صحِب شعيبا عليه السلام ، وكان يخبره بوقائعَ تقع ، ثم كفر ، ووضع كتابا زعم أنه أنزل عليه مكتوباً بماء الذّهب ، فصعبت عليهم قراءته ، فوضع له شرحا سماه الزَّنْد ، ثم لما ظهر مَزْدَك زاد فى شرحه ، وفى اسم الكتاب ، فقال : « زندين » فلما جاءت العرب قالت : « زنديق » ، ويسمّى مَنْ مال إلى هذا المذهب

(١ ــ ١) ت : « وهو مذموم من الإنسان » .

(٢) ت : « لهم » . (٣) ت : « واتبعوه » .

أو ما قاربه من الخروج عن الشريعة زنديقا ؛ وأكثرهم فى الإسلام نوع من الجهميَّة، أصل اعتقادهم أنه ليس ينبغى لأحدٍ أن يثبت لنفسه ربًّا ؛ لأنه لا يمكنه الإثبات إلا بالعين أو الإدراك بالحواسّ ، وقالوا : مالا يدرك ليس[١] بإلهٍ لأنه مجهول ، وما يدرك فلا ينبغى أن يثبت ، وسلكوا على هذه[٢] الطريقة ، وأباحوا إتيان المحرَّمات ، وترك العبادات ، لإنكارهم البعْث ، وجُحودهم الشريعة ، وسبيلهم مذهب مزدك فى إباحة النِّساء ، وأنّ الناس كلّهم سواء فيهنّ ، ولذلك قيل للمنهمك فى لذّاته واللعب والبطالة : يا زنديق . وقيل له : أظْرَف من زنديق .

وسئل بعضهم عن الأضحى ، فقال : وباء يقع فى البقورة والأغنام .

وقتل منهم المهدىّ خَلْقًا كثيراً ؛ وذلك أنَّه رأى فى المنام كأنّ الكعبة قد مالت فدعمها هو وشخص حتَّى قامتْ ، فلما انتبه سأل عن صفة ذلك الشخص الذى رآه فى المنام ، فأُتِىَ بزنديق يقال له : حمدون على الصّفة ، فاستتابه فتاب فأمره[٣] بتتبّع الزَّنادقة ، فإنَّه كان يعرف عامّتهم ، فدلّه على خَلْق كثيرٍ فقتلهم .

وكان جيّد الفِراسة فيهم حتى إنه مَرّ بمؤذّن مظهر للصلاح ، فسمعه يقول فى أذانه : أشهد أنّ محمدًا رسولَ الله ، بفتح اللام ، فوقع فى ظنه أنه زنديق؛ لأنه لم يضمّ اللام ؛ فقبض عليه ، وقرّره ، فوجده زِنْديقًا وكان يمتحنهم بمسائل مختلفة ، ويبرز لأكثرهم خِرقة مصوّراً[٤] فيها صورة مانِى ، وهى صورة سَمِجة غليظة المشافر ، فيأمره أن يبصق عليها فيأبَى ، ويختار القتل دون ذلك فيُقتل ، وكان أكثرهم ثنويَّةً .

والمخَرقة : نوع من التوصّل [إلى][٥] حيَل بإظهار الخُرْق الذى هو ضدّ الرِّفق

---

(١) ت : « فليس » . (٢) ت : « بهذه » .
(٣) ت : « أمره » .
(٤) من ت . (٥) ت : « حيلة » .

والتذبير[١] ، ومنه يقال : المخراق ، وهو شيء يُلعَب به ، كأنه يخرج لإظهار الشيء بخلافه .

* * *

١٠٩ — مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ عَلَى الْغَوانِي   لمـا أُمْهِرْنَ إلاَّ بِالطَّلاَقِ

هذا البيت لأبي تمّام الطائيّ ، من أبيات يهجو بها [خالدا][٢] الأعمش ، وهي :

دَعِ ابْنَ الأعمشِ المسكينَ يَبْكِي   لـداء ظَلَّ مِنْهُ في وَثَاقِ[٣]

لبئس الدّاء والدّاء استكفّا   عليه من السّماجة والحُلاقِ

كَلِتُ بقبح صورته فأضْحَى   لها إنسانُ عيني في السِّيَاقِ

مَساوٍ لو قُسِمْنَ على الغوانِي   لَمَا أُمْهِرْنَ إلاّ بالطّـلاقِ

يعني أن صفاته لو تقسّمت على الغواني ـ وهن النّساء اللواتي غنين بأزواجهن ـ لم يعطهنّ الأزواجُ مَهراً غير الطلاق ، بغضا فيهنّ ، وراحة منهنّ ، لما اكتسبن من المساوئ والقبائح :

* * *

١١٠ — حَتَّى إِنَّ بَاقِلاً موصوفٌ بِالْبَلاَغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ .

[باقل]

يعني باقل بن عمرو بن ثعلبة الإياديّ ، الّذي يُضْرَب به المثل في العيّ فيقال : « أعيا من بَاقِلٍ » .

قال أبو عبيدة : بلغ من عِيِّهِ أنه اشترى ظبياً بأحَدَ عشر درهما ، فلقيه

---

(١) ت : « والتقدير » .

(٢) من ت ، وفي مختارات البارودي : « يهجو الأعمش » .

(٣) مختارات البارودي ٤ : ٤٠٧ .

شخصٌ وهو مَعَهُ ، فقال : بكم اشتريْتَهُ ؟ ففتح كَفيْه ، وفرّق أصابعه ، وأخرج لسانه ـ يشير بذلك إلى أحد عشر ـ فهرب الظّبي مِن كفه .

وضربوا به المثل فى العيّ ، قال حُميد الأرقط يهجو ضيفاً له :

أتانا وما داناه سَحبانُ وائلٍ   بيانا وعِلماً بالّذِى هو قائلُ[(1)]
فما زال عنه اللّقم حَتّى كأنّهُ   مِنَ العِيّ لما أن تَـكَلّمَ باقلُ

سَحْبان: رجُلٌ من بنى وائل، يضرب به المثل فى البلاغة . واللّقم ـ بالفتح ثم السكون : سدّ الفم باللُّقَم .

وقال أبوالعلاء المعرّى فى لاميّته :

إذا وصَفَ الطّائِىّ بِالْبُخْلِ مَادِرٌ   وَعيّرَ قُسًّا بالفَهاهِةِ باقِــلُ[(2)]
وقالَ السُّهَا للشّمْس أنت خفيّةٌ   وقال الدُّجَى للصُّبح لَوْنُك حائل
وَطَاوَلَتِ الْأَرْضُ السّمَاءَ سَفَاهَةً   وَفَاخَرَتِ الشُّهْبَ الْحصاَ والجنادلُ
فيا موتُ زُرْ إنّ الحيَاةَ ذَمِيمَةٌ   ويا نفسُ جِدّى إنّ دَهْرَكِ هازلُ

الطائىّ :هو حاتم المشهور بالـكَرَم. ومادر: اسم رجل من بنى هلال بن عامر ابن صعصعة ، يُضْرب به المثل فى البخل ؛ لأنّه سقى إبله من حَوْضٍ فبقىَ فى أسفله قليلُ ماء ، فسَلَح فيه ، ومَدَرَبه ـ أى لطخه فى جوانب الحوض ـ بخلاً أن يسقى غيره ، فصار مثلا يضرب ، قال الشاعر :

لَقَدْ جَلّلَتْ خِزْياً هلال بن عامرٍ   بنى عامرٍ طُرًّا بسَلْحَةِ مادرِ[(3)]

وقسّ بن ساعدة الأيادىّ ، أُسقفّ نجْران ، وكان أحد حكماء العرب وخطبائهم ، يضرب به المثل فى الفَصاحة . والفهاهة : العِىّ ، يقال : رجل فهٌّ ، وامرأة فَهّةٌ ، قال بعضهم :

ولم تُلفِنِى فَهًّا ولم تُلْفَ حُجّتِى   ملجلَجةً أبغِى لَهَـا مَنْ يقِيمها

---

(١) ١ : ٣٢٩   (٢) سقط الزند ٥٣٣
(٣) الميدانى ١ : ٧٥ ، واللسان (مدر) .

والسُّهَا : كوكب خفىّ فى بنات نعْشٍ الكبرى ، والنّاس يمتحِنون به أبصارَهم ، وفى المَثَل : « أريها السُّها وتريني القمر »[1] .

وقد ضمَّن هذا المثلَ الشيخُ شمس الدين النَّواجِىّ ، صاحبُ «حَلْبة الكميت» حيث قال :

مرضتُ فعادَتْ وأبدتْ سَنَاً محيَّا يَروقُ لعينى النظرْ
وبتُّ ولى جسدٌ ناحلٌ أُرِيها السُّها وترينى القمَرْ

وضمَّنتُ أنا عجز بيت المعرّى فقلت :

وأعْيَا فصيح الوقت نبت عذارِه وعيّر قُسًّا بالفهاهةِ باقلُ

والبلاغة بلُوغ الدرجة العالية فى النطق ، والمعنى فى قوله : إنّ باقلاً بالنسبة إليك يكون بليغا .

* * *

١١١ ــ وَهَبَنَّقَةَ مُسْتَوْجِبٌ لاسْمِ الْعَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ .

[هَبَنَّقَة]

يعنى يزيد بن ثَرْوان أحد بنى قيس بن ثعلبة الملقّب هَبَنَّقة ، والمكنى بأبى الودَعات ، لأنّه نظم وَدَعاً لنفسه فى سِلْكٍ وجعله فى عنقه علامةً لنفسه لئلاّ يضيع ؛ قيل : إنَّ أخاه راقبه إلى أن نام ، فأخذ العِقْد من عنقه ، وجعله فى عُنْق نفسه ، فلما انتبه هبَنَّقة ورأى أخاه قال له : أنت أنا ، فأنا ترى من هو أنا ! ولهذا يضرب به المثل فى الُحمْق . وهو جاهلىّ .

ومن أخباره أنه كان إذا رعَى غنما أو إبلاً جعل يختار المراعى للسّمان

---

(١) الميدانى ١ : ١٩٦ .

ونحّى المَهازيلَ ، وقال : لا أصلِح ما أفسد الله !

ومنها أنه اختصم إليه بنو رَاسب وبنوطُفَاوة فى شخص يدّعونه ، فقال هبنّقة : ارموه فى البَحْر ، فإن رسب فهو من بنى راسِب ، وإن طفا فهو من بنى طُفَاوة .

ومنها أنه رأى مع الناس جراداً قد أقبل ، فقال : لا يهولَنّكم ما ترون ، فإن أكثرها موتى .

واشترى أخوه بقرةً بأربعة أعنُز ، فركبها، فأعجبه عَدْوُها، فالتفت إلى أخيه وقال : زدهم عنزاً أخرى ، فضُرِب به المثل للمعطِى بعد إمضاء البيع ، ثم سار بها فرأى أرنباً تحت شجرة ، ففزع منها ، وركض البقرة ، وقال :

الله نجَّانِى ونجّى البقـــــرهْ   من جاحظِ العينين تحتَ الشَّجَرهْ

وروى أن مالك بن مسمع قال للأحنف بن قيس مازحاً ، وهو يفتخر بالرَّبعيّة على المُضَرية : لَأحمقُ بكر بن وائل أشهر من سيّد بنى تميم — يعنى بالأحمق هبنّقة القيسىّ ، فقال الأحنف : لَتيسُ بنى تميم أشهرُ من سيّد بكر ابن وائل ، يعنى تيس بنى حمّان الذى يقال فيه : أغلم من تيس بنى حمّان ، يزعمون أنه نزَا على عنزٍ بعد أن فرتْ أوداجَه .

* * *

١١٣ — وَطُوَيْسًا مَأْثُورٌ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِرِ إِذَا قِيسَ عَلَيْكَ .

[طويس]

هو عِيسى بن عبد الله ، مولَى بنى مَخْزوم ، وكنيته أبوعبد النَّعِيم ، كان مخنّثا ماجنا ظريفاً ، يسكن المدينة ، وهو أوّل مَنْ غنّى بها على الدّفّ بالعربيّة ، ويُضْرب به المثل فى الشؤم ، وذلك أنه ولِد يوم قُبِض رسول الله صلى الله عليه

وسلم، وفُطِم يوم مات أبو بكر، وخُتِن يوم قُتِل عُمَر، وتزوّج يَوْم قتِل عثمان؛[1] وكانت أمُّه تمشى بالنَّميمة بين نساء الأنصار.

وله أخبار تدلّ على مكرِه وفطنته، قال: كان عبد الله بن جعفر - ومعه أخدانٌ له- فى عشيّة من عَشَايا الرّبيع، فراحت عليهم السّماء بمطر جَوْدٍ[2] أسالَ كُلَّ شىء، فقال عبد الله: هل لكم فى العقيق؟ وهو متنزَّه أهل المدينة فى الربيع والمطر - فركبوا ثم أتوُا العقيق فوقفوا على شاطِئه، وهو يرمى بالزّبد [مثل مدّ الفرات][3] فإنّهم لينظرون إذ جادت[4] السماء، فقال عبد الله لأصحابه: ليس معنا جُنّة نستجنُّ بها، وهذه سماء خليقةٌ أن تبلَّ ثيابنا، فهل لكم فى منزل طُويس، فإنه قريب منا، فنسكن فيه، ويحدّثنا ويضحكنا! قال: وطُويسٌ فى النّظّارة يسمعُ كلام عبد الله بن جعفر مع أصحابه ولم يروْه - فقال [له][5] عبد الرحمن بن حسان: جُعِلت فداك! وما تريد من منزلِ طويس، عليه غضب الله! مخنَّثٌ شائن لمن عرفه. فقال عبد الله: لا تقلْ ذاك، فإنه [مليح][5] خفيف لنا، فيه أُنس، فلما استوفى طويس الكلامَ تعجّل إلى منزله فقال لامرأته: وَيْحك! قد جاءك[6] سيّد الناس؛ عبد الله بن جعفر، فما عندكِ؟ قالت: نذبح هذه العَنَاق[7]، وكانت [عندها عتيقة] قد ربّتْها للّبن، واختبز رقاقاً فبادر فذبحها، وعجنتْ هى، وخرج وتلقّاه مقبلا إليه، فقال له طويس: بأبى أنت وأمى، هذا المطر! هل لك فى المنزل فتسكن به إلى أن تكفّ السماء؟ قال: إيّاك أريد. قال: فامضِ ياسيدى على بركة الله، وجاء يمشى بين يديه حتى نزلوا،

---

(١) الأغانى ٣ : ٢٧، وبعده: «وولد له يوم قتل على رضوان الله عليه».

(٢) ط: «جودى»؛ وأثبت ما فى ت والأغانى.

(٣) من الأغانى.

(٤) الأغانى: «هاجت».

(٥) من الأغانى.

(٦) الأغانى: «جاءنا».

(٧) العناق: الأنثى من ولد المعز.

فتحدّثوا إلى أن أدرك الطعام[(١] ، فاستأذنه عليه[١)] ، وأتى بعَناق سمينة ورُقاق ، فأكل وأكل القوم [حتى تملئوا] [(٢)] ، وأعجبه طعامه ، ثم قال : بأبي أنت وأمّي [(٣] أمَا أُغنِّيك ؟ قال : بلَى ، فأخذ الدُّفَّ وغنَّى [٣)] :

يَا خَلِيلَيَّ نابَنِي سُهُدِي ... لم تَنَمْ عَيْنِي ولَمْ تَـكَدِ
كيف تلحونى على رجلٍ [(٤)] ... آنسٍ تلتذُّه كَبِدى ! [(٥)]
[مثل ضوءِ البدْرِ طلعتُه ... ليس بالزُّمَّيْلةِ النَّـكِدِ] [(٦)]

فطرب القومُ وقالوا : والله أحسنتَ يا طُويس] ، فقال : ياسيّدى ، أتدرى لمن هذا الشّعْر ؟ قال : لا [والله ما أدرى لمن هو ، إلا أنى سمعت شعراً حسنا] قال : هذا لفارعة بنت حسان ، وهي تعشق عبد الرحمن بن الحارث المخزوميّ ، وتقول فيه [هذا الشعر] [(٧)] . فسكت القوم ، وضرب عبد الرحمن برأسه [(٨)] ، فلو نُقبتْ له الأرض لذهب فيها ، وعلم عبد الله أنه اقتصّ من عبد الرحمن [(٩)] .

ولطويس شعر ركيك لافائدة فى ذكره .

واليُمْن : البركة ، وأيامِنُ الطير ماكانت العرب تتفاءل به للمسافر إذا أوْلاه الطير يمينَه ، وهوخلاف الأشائم ، وفى الحديث : « اللهم لاطيْرَ إلاّ طيرُكَ » .

(١ ــ ١) فى الأغانى : « فقال : بأبى أنت وأمى ، تكرمنى إذا دخلت منزلى بأن تتعشى عندى ، فقال : هات ما عندك .
(٢) الأغانى : « جاءنا » .
(٣ ــ ٣) الأغانى : « أتعشى معك وأغنيك ، قال : افعل يا طويس ، فأخذ ملحفة فأتزر بها ، وأرخى لها ذنبين ، ثم أخذ المربع فتمشى وأنشأ يغنى »
(٤) تلحونى : تلومنى .
(٥) من ت والأغانى ، والزميلة : الرذل الجبان الضعيف .
(٦) من الأغانى .
(٧) الأغانى : «فنكس القوم رءوسهم» .
(٨) ضرب برأسه على صدره : أطرق استحياء وخجلا .
(٩) الأغانى ٣ : ٣٢ ، ٣٤ .

١١٣ — فَوُجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالاغْتِبَاطُ بِكَ نَدَمٌ ، وَالْخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالْجَنَّةُ مَعَكَ سَقَر .

قوله : « وُجودك عدم »[1] ، هو مأخوذ من قول المتنبّى :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمُ   وِجْدَانُنَا كُلَّ شىءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ[1]

والغِبْطة: حسنُ الحال ، وفى الحديث «اللهم غَبْطا لاهَبْطاً»[2] أى نسألك الغبطة ، ونعوذ بك أن نهبط عن حالتِنا . والاغتباط تمنّى حال المغبوط من غير أن يريد زوالَها .

والخيبة : فَوْت المطلوب . والظفر : الفوز به ، مأخوذ من ظفر ، أى نشب ظُفره فيه .

والجَنّة: كلّ بستان ستر الأرض بشجره ، مأخوذ من جَنَّ الشىء إذا ستره، قال الراغب :[3] وسميّت الجنّة جنَّة إمّا تشبيها بما يرى فى الأرض ، وإن كان بينهما بونٌ ، وإما لستر النعم المشار إليها بقوله تعالى : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[4] .

وسَقَر : اسم علَم للجحيم ، وهو من سقرتْه الشمس ، وصقرتْه ؛ إذا لوَّحتْه ، ولما كان السّقر يقتضى التلويح ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ ،[5] أى أن ذلك السقر مخالف لما تعرفونه من سَقَر الشمس المعلوم بينكم .

* * *

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٧٠   (٢) نهاية ابن الأثير ٣ ١٤٨٠ .
(٣) المفردات ٩٨.   (٤) سورة السجدة ١٧
(٥) سورة المدثر ٢٧ . .

١١٤ — كَيْفَ رَأَيْت لُؤْمَكَ لِكَرَمِى كِفاء ، وَضَعَتَكَ
لِشَرَفِى وَفَاءَ !

اللّؤم : الدّناءة فى الأصل والأخلاق ، والكرمُ ضدّه .
والأكفاء : الأنظار ، ويستعمل فى المناكحة والمحاربة .
والضّعة : مقابلة الرّفعة ؛ وهو مأخوذ من وضعتُ الشىء ، إذا حَطَطْتَهُ .
والشّرف : علوّ المقدار ؛ وهو مأخوذ من شرف المكان ؛ وهو أعلاه ؛
والمعنى : كيف تكون كُفئاً إلى عُلاَ شرفِى وضَعَتك !

* * *

١١٥ — وَأَنّى جَهِلْتَ أَنّ الأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكالِهَا
وَالطَّيْرَ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى أُلاَّفِهَا !

يعنى كيفَ جهِلتَ أنّى إنما أميل إلى شكلِى و إلْفِى ، ولستَ من أشكالى
وألاّفى ، والكلمة الأولى منظومة فى قول المتنبِّى ، والكلمة الثانية منظومة
فى قول بعض العرب :

* وعلى أُلأفِهَا الطَّيْرُ تَقَعْ *

قال الأصمعىّ : كنت أسمع بهذا المثل فلم أفهمه حتى رأيت غِرْباناً تقع البُقْع
منها مع البُقْع ، والسُّود مع السود ، إلى أن رأيتُ غُراباً أعرج قد سقط ، فجاء
آخر مَهِيض الجناح ، فسقط عنده ، فعلمتُ أن المثل ما ضاع .

* * *

١١٦ — وَهَلاَّ عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لاَ يَجْتَمِعَانِ ، وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكافِرَ لاَ يَتَقَارَبَانِ ، وَقُلْتَ : الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لايَسْتَوِيَانِ !

شعَرت ، أى علمت علماً دقيقاً ، مأخوذٌ من دِقة الشَّعَر ، ويُلْمَح من السجعة الأولى قول عليٍّ كرم الله وجهه : الدنيا والآخرة ، كالمشرق والمغرب ، كلّما ازددت من أحدهما قرباً ، ازددت من الآخر بعداً . ومن السجعة الثانية قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : « المؤمن أطيب من عمله ، والكافر أخبث من عمله » ، ويدلُّ على ذلك لفظ القرآن العظيم فى السجعة الثالثة[1] فتأمله .

* * *

١١٧ — وتمثّلت :

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ !

هذا البيت لعمرو بن أبى ربيعة المخزومىّ ، يقوله فى الثُّريّا بنت عبد الله ، وقد تقدّم ذكرها ، وسبب قوله أنّ سهيل بن عبد العزيز بن طلحة قدِم من الشام إلى الطائف ، فتزوّجها ورحل بها إلى الشام ، فقال عمر :

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ![2]
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقلَّ يَمَانِ

واتفقت له تورية حسنة باسم النجمين والمقصدين . وقوله : « عمرك الله »

(١) وهو قوله تعالى فى سورة المائدة ١٠٠ : ﴿ قُلْ لايَسْتَوِى الخبيثُ والطّيّبُ ﴾ .
(٢) ملحق ديوانه ٥٠٣ .

يعني سألت اللهَ عَمْرَكَ ، أي يعمّرك؛ والعَمْر والعُمْر واحد، وإنما خُصّ العَمْر بالقسم، وأصل العَمْر من العِمارة ، وهو عمارة البدن بالحياة .

* * *

١١٨ — وَذَكَرْتَ أَنِّى عِلْقٌ لاَ يُبَاعُ مِمَّنْ زَادَ ، وَطَائِرٌ لاَ يَصِيدُه مَنْ أَرَادَ ، وغَرَضٌ لا يُصِيبُهُ إلاَّ مَنْ أَجَادَ .

ذكرتَ ، عطف على قوله : « وهلاَّ علمت » . والعِلْق : الشيء النفيس الذى يتعلّق به صاحبه ، فلا يبرح عنه ، واللفظ مأخوذ من شعر حُرَيث بن قحطان التميمىّ ، وكانت له فرس يسميها سَكاب ، فأراد بعض ملوك اليمن أخذها منه ، فهرب بها وقال :

أبيتَ اللعْنَ إنّ سَكابِ عِلْقٌ نفيس لا يعارُ ولا يبـــاعُ[1]
مفدّاةٌ مكرَّمَةٌ علينـــــا تُجاعُ لها العيــال ولا تجاعُ
سليلةُ ســابقين تنَاجلاها إذا انتسبا يَضُمُّهما الـكُرَاعُ
فلا تطمع أبيتَ اللعن فيهـــا فدون منـــالِها أمدٌ شَنَاعُ

والغرض: الهدف المقصود بالرّمى، ثم صار اسما لكل غاية يتحرّى الإنسان إدراكها .

* * *

١١٩ — ماأَحْسِبُكَ إلاَ كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِئِةِ، وتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِيَةِ .

يعنى طِمعت بحصول القَصْد ، فانتظرت الهَناء به .

والتَّرْشيح: الاستعدادُ للشيء ، مأخوذٌ من ترشَّح الفصِيلُ، إذا قوىَ على المشى .

والترفية والرّفاهية : التّنعّم والتوسّع فى العيش .

---

(١) الأبيات فى ديوان الحماسة ١ : ٢٠٨ بشرح التبريزى .

١٢٠ – لَوْلاَ أَنَّ جُرْحَ الْعَجْمَاءِ جُبَارٌ ، لَلَقِيتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لاَقَى يَسَارٌ .

جُرْح العجماء جُبار ، لفظ الحديث[1] ؛ والعجماء : الْبَهيمة ، سُمِّيَتْ بذلك لأنها لا تعرب عن نفسها بالعبارة ، والجُبَار : الدَّم الهدَر ؛ والمعنى عدم القِصاص في جرح البَهيمة ، وضُرِب به المَثَلُ لمنْ يُستهان به .

والكواعب : جمع كاعِب ، وهي الجَارية التي تكعَّب ثدياها ، تشبيهاً بالكَعْب ويَسار اسم عبد .

وهذا مثَل معروف ، وسببه أن يسارا هذا كان عبداً دَمِيا ، يقال له : يَسار الكواعب ؛ لأنّ النساء إذا رأينه ضحِكْنَ منه لقبحه ، فكان يظنّ أنهنّ يضحكن من عَجَبِهنّ به ، حتى نظرتْ إليه امرأةُ مولاه فضحكت ، فظنّ أنها خضعت له ، فقال لصاحبٍ له أسود كان يكون معه في الإبل : قد والله عشِقتْنِي مولاتى ، فلأزورنَّها الليلة – ولم يكن يفارق الإبل – فقال له صاحبه : يا يسار ، اشرب لبن العِشار[2] ، وكل لحم الحِوار[3] ، وإياك وبناتِ الأحْرَار ؛ فقال له : يا صاحب ، أنا يسار الكواعب ، والله مارأتْني حُرّةٌ إلا عشقتْنِي . فلمّا أمسى قال لصاحبه : احفظ علىّ الإبِل حتى أنصرفَ وأعودَ إليك ، فنهاه فلم ينتهِ حتى دخل على امرأةِ مولاه يُراودُها عن نفسِها ، فقالتْ له : مكانَك ، فإنّ للحرائر طيبا أشمّك إياه ، فقال : هاتيه ، فأتته بطيب وموسى حَذِمة – أي قاطعة – فأشمَّته الطيب ، ثم أنحت بالموسى على أنفه فقطعته . وقيل : وضعت تحته بخوراً ، وقطعت مذاكيرَه ، فصاحَ ، فقالت : صبراً

---

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ١٤٢ .

(٢) العشار : اسم يقع على النوق .

(٣) الحوار ، بفتح الحاء وكسرها : ولد الناقة من حين يوضع إلى أن يفطم .

على مجامر الكرام ! ثم خرج هارباً حتى أتى صاحبه ودمه يسيل ، فضُرب به المثل .

وأيضاً مما قيل : إن اسم المرأة مَنْشِم ، وأنها التى ضرب بها المثل بقولهم : « عطر منشِم » ، وهذا على أحد الأقوال فى ذلك مما رويناه .

* * *

١٢١ — فَمَا هَمَّ إلاَّ بِبَعْضِ مَا بِهِ هَمَمْتَ ، وَلاَ تَعَرَّضَ إلا لأَيْسَرِ مَالَهُ تَعَرَّضْتَ .

يعنى ماطلب يسار من مولاته ، وتعرّض له ، إلاّ دونَ ما تعرّضت إليه منّى ؛ لأنى أشرف من تلك ، وأنت أقلّ من ذاك .

وهممتُ بالشىء ؛ إذا جعلتَ طلبه همَّ نفسِك . وتعرّضتُ للشىء ، إذا وقفت عرضاً فى طريقه .

* * *

١٢٢ — أَيْنَ ادّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ ، وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السِّيَرِ وَالْأَخْبَارِ ! أَمَا ثَابَ إليكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

بَنو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ ... وَتُنْكَحُ فى أَكْفَائِهَا الْحَبِطَاتُ

ثاب إليك ، أى رجع إلى ذهنك ، وهذا البيت للفرزدق[1] ؛ يقوله لرجل من بنى الحارث بن عمرو ، خطب إلى بنى دارم .

---

(١) ديوانه ١٢٦ ، وروايته : « بنو مسمع أكفاؤهم بنو دارم » .

ودَارِم هو مالك بن حنظلة التميمىّ ، وهو أبومجاشع ، و بيتُه أ كبر بيوت بنى تميم .

وآل مِسْمَعٍ بيت بكْر بن وائل فى الإسلام ، وهومن بنى قيس بن ثَعْلَبة .

والحبِطات بنو الحارث بن عمرو بن تَمِيم ، يجمعهم البيت مع بنى دارِم ، و إنما نَقصَ قَدْرُ الحبِطات عنهم لقول الشاعر فيهم :

وَجَدْنَا النِّيبَ مِنْ شرِّ الْمَطَايا   كما الحبِطات شَرُّ بنى تَمِيمِ

فلزمهم هذا القول ، وقيل : إنّمَا سمى الحارث حَبَطًا ؛ لأنه كان فى سَفر ، فأ كل أ كلا فانتفخ بطنه فمات ، فسمِّىَ حَبَطا ، وعُيِّرُوا بذلك ، والحَبَط : أن تأ كل الماشية فتكثِر حتى تنتفخ بطونها ، ولايخرج عنها ما فيها ، وذلك معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إنّ مما يُنْبِت الرَّبيع ما يقتل حَبَطا ، أو يلمّ »[(1)] .

ومعنى قول الفرزدق ، أنَّ بنى دارم لاينبغى أن يخطُبَ إليهم إلاّ بنومسمع ؛ لأنهم أ كفاؤهم فى الشَّرَف ، فأمّا الحبِطات فلا . وذكر المبّرد أن الرجل الخاطب أجاب الفرزدق ، فقال :

أما كان عتَّابٌ كفيئًا لدارمٍ   بلَى ولأبْياتٍ بها الحُجُراتُ[(2)]

عتّابٌ أحد آباء بنى الحارث ، وقوله : « أبيات بها الحجُرات » ، يعنى بنى هاشم ، لقوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُراتِ ... ﴾[(3)] .

* * *

[الفرزدق]

والفرزدقُ هذا ، هو همام بن غالب بن صعصعة التميمىّ الدارمىّ ، الشاعر

---

(١) نهاية ابن الأثير ١ : ١٢٦ ، قال فى شرحه : « وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب فتستكثر منه الماشية » .

(٢) الكامل ١ : ٦٤   (٣) سورة الحجرات ٤ .

المشهور ، صاحب جرير ، ولقِّبَ الفرزدق لجهامة وجْهِهِ ، لأنّ الفرزدق ، القطعة الضخمة من العَجِين ، وكنيته أبو فِراس .

وذكره الشريف المرتضى فقال : كان الفرزدق مع تقدّمه فى الشعر ، وبلوغه فيه إلى الذِّرْوة العُلْيا ، شريفَ الآباء ، كريم البَيْت ، [له ولآبائه مآثر لاتدفع ، ومفاخر لاتُجْحد][1] . وكان شيعيًّا مائلا لبنى هاشم ، ونَزَع فى آخر عمره عمّا كان عليه من الفسق والقَذْف ، وراجَع طريقة الدّين ، على أنه لم يكن فى خلال ذلك منسلخاً [من الدين جملة ، ولا مهملا أمرَه][1] .

حدّث ابن عمران ، قال : جاء الفرزدق فتذاكرنا رحمةَ الله تعالى وسَعتها ، فكان أوثقَنا بالله تعالى ، فقال رجل : ألك هذا الرّجاء وهذا المذهب ، وأنت تفعل ماتفعل ! فقال : أترونى لو أذنبتُ إلى والدىّ ، أكانا يقذفانِنِي فى تَنُّور ، وتطيب أنفسهما بذلك ! قلنا : لا ؛ بل كانا يرحمانِك ، فقال : أنا والله برحمة الله أوثق منّى برحمتهما .

وقيل : إنه كان يخرج من منزله فيرى بنى تميم ، وفى حُجورهم المصاحف ، فيفرح بذلك ويقول : إيهِ ، فِداكم أبى وأمّى ! هكذا والله كان آباؤكم[2] .

واستدلّ الشريف على تشيُّعه بحكايته مع هشام بن عبد الملك ، وذلك أن هشامًا حجّ فى خلافة أبيه ، فأراد أن يستَلِمَ الحجر ، فلم يتمكن لازدحام الناس ، فجلس ينتظر خلوةً ، فأقبل علىّ بن الحسين رضى الله تعالى عنهما ، وعليه إزار ورداء ، وهُوَ من أحسن الناس وجهاً ، وبيْن عينيه سجّادة ؛ فجعل يطوف بالبيت ، فإذا بلغ الحِجْر تَنحَّى النّاس له هيبةً وإجلالا ؛ فغاظَ ذلك هشاما ، فقال رجلٌ من أهل الشّام : من هذا الذى قد هابه الناس ! فقال هشام : لاأعرفه ،

---

(١) من الأمالى . (٢) أمالى المرتضى ١ : ٦٢ ومابعدها .

لئلاّ يرغب فيه أهل الشام ، فقال الفرزدق ــ وكان حاضِرًا ــ : لـكنِّى : أنا أعرفه ، فقيل له : مَن هو ؟ فأنشد يقول :

هَذَا ابنُ خيرِ عباد الله كلِّهِمِ   هَذَا التقىُّ النقىّ الطّاهِرُ العَلَمُ(١)
هَذا الّذِى تعرف البطحاء وطأَتَه   والبيتُ يعرفه والحِلّ والحَرَمُ(٢)
يَـكادُ يمسِـكه عرفانَ راحتِه   رُكنُ الحطيم إذا ما جاء يستلِمُ(٣)

فغضب هشام ، وأمر بحبس الفَرزدق بعسفان ، وفى ذلك يقول :

أيحبسِنى بَيْنَ المدينـةِ والّتى   إليها رقابُ النَّاسِ يهوِى مُنِيبُها(٤)
يُقَلِّبُ رَأْسًا لم يكن رأس سَيِّدٍ   وعَيْناً لَهُ حَوْلاَء بادٍ عُيوبُها

وبعض الرواة يروى الأبيات الميمية لأبى الطمحان القينىّ . والذى يرويها للفرزدق يستدلّ لها بحبسه ، وقوله هذه الأبيات .

ومات الفرزدق بالبادية سنة مائة وعشر .

ومن أخباره المستطرَفة : دخل يوماً على بلال بن أبى بُرْدة ، وهو أميرٌ على البصرة ، وعنده أصحابه ، فنقصوا بنى تميم ، ورفعوا اليَمن ، فقال الفرزدق : لولم يكنْ لليمن إلا أبو موسى وما تولاّه من خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لـكفاهمْ ، فقال بلال : إنَّ فضائله كثيرة ، فما أردتَ منها ؟ فقال: حِجامته إيّاه ، فقال : صدقت ، قد فعل ذلك ؛ وما فعله بأحد قبله ولا بعده ، فقال الفرزدق : الشّيخ كان أتقى الله من أن يقدم على نبيِّه بغير حِذْق ، فيجرّب عليه ! فأمسك

---

(١) ديوانه ٨٤٨ .

(٢) البطحاء : أرض مكة المنبطحة . والحل ، بالـكسر : خارج المواقيت من البلاد ، والحرم : ما بين المواقيت المعروفة ؛ وأراد بهما أهل الحل والحرم .

(٣) الحطيم : الجدار الذى عليه ميزاب الـكعبة ، ونصب « عرفان » على أن مفعول له ، أى يكاد يمسكه ركن الحطيم لأنه عرف راحته ، ويستلم بمعنى يلمس الحجر الأسود . وقد ذكر أبو تمام فى (الحماسة ــ بشرح التبريزى ٤ : ١٦٧ ــ ١٦٩ ؛ الأبيات منسوبة إلى الحزين الليثى . وانظر تفصيل الخبر وتحقيق نسبة الأبيات فى الأغانى (١٤ : ٧٤ ــ ٧٧) .

(٤) ديوانه ٥١ .

جِلال ، وعجب الناس من حِذْقه فى هذا التَّعريض

ونظر يوما إلى ابن هُبَيرة وعليه ثياب تَتَقعقع ، فقال : إنّ ثيابه لتسبّح ، أراد بذلك قول الشاعر :

إذا لَبِستْ قَيْسٌ ثياباً لزينَةٍ تسبِّح من لؤم الجلود ثيابُها

وكان قد هجا الأزْد ، فلمّا قدم يزيد بن المهلّب البصرة قال لأبى الجعْد ـ وكان صديقاً للفرزدق : ابعث إلى الفرزدق ، فقال له يوماً : ماذا يعوقك عن يزيد ! أعظم الناس عفواً ، وأسخاهم كَفًّا . فقال : صدقتَ ، ولكنّى أخشى أن آتِيَه فأجد العُمَانية ببابه ، فيقوم إلىّ رجل منهم ، فيقول : هذا الذى هجانا ، فيضرب عُنق ، فيبعث إليه يزيد فيضرب عنقَه ، ويبعث إلى أهل بيتى بديَتِى ، فإذا يزيد صار أوْفى العرب ، وإذا الفرزدق قد ذهب فيما بين ذلك ؛ لا والله لا أفعل ، فقال يَزيد : أمّا إذ فطن لها فدعْه إلى لعنة الله . وقيل : إنّ هذا كان مراده .

وسمع الفرزدق رجلا يقرأ : «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيم» ، فقال الفرزدق : « فاقطعوا أيديهما ... والله غفور رحيم » ! لا ينبغى أن يكون هكذا . قيل : إنما قال : ﴿ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) ، فقال : هكذا ينبغى أن يكون ! ثم أخذ نفسه بحفظ القرآن بعد ذلك .

وسمع رجلا ينشد قول لبيد هذا البيت :

وَجَلاَ السّيولُ عَنِ الطُّلول كَأَنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُهَا(٢)

فسجد ، فقيل له : ماهذا ؟ فقال : موضع سجدة فى الشعر ، أعرفه كما تعرفون مواضع السجود فى القرآن !

---

(١) سورة المائدة ٣٨

(٢) ديوانه ٢٩٩

وسمع راوية جرير ينشد قصيدته البائيّة[1] ، فلما قال :

* بِهَا بَرَصٌ بأسْفَلِ إِسْكَتَيْهَا *

وضع يده على عُنُقه ، وأنشد :

* كَعَنْفَقَةِ الفرزْدَقِ حِينَ شابا *

فقال : علمت أنه يقول هكذا ، فإنّ شيطاننا فى الشِّعر واحد .

ومرّ يوما بقومٍ فدعوْه للنزول ، فقال : لماذا ؟ قالوا : لنبيذ ، وجدى حنيذٍ ، وغناء لذيذ ؛ فقال : وهل يأبى هذا إلا ابن المراغَة ! يعنى جريراً ، ثم نزل .

واستسقى الحَكَم بن المنذر ذاتَ يوم لبَنًا ، فأمر غلامَه أن يجعل فى القَعْب خمراً ، ويحلُب عليه لبناً ويسقيه ، فلما كَرَع ، جعل الخمر ينبع من تحت اللبن فشرب ، وقال : بأبى أنت ! إنك ممن تُخْفِى الصدقات وتؤتيها الفقراء .

وقال : ما أفحمنى أحدٌ إلا نبَطِىٌّ من أهل تِيرَى ، قال لى : أنت الفرزدق الشاعر ؟ قلت : نعم ، قال : إنْ هجوتَنى تموت زوجتى عيشونة ؟ قلت : لا ، قال : فتموت حمارتى ؟ قلت : لا ، قال : فمن رجلى إلى عنقى فى رحِم أمّك ! قلت : ويلك ! فلم تركتَ رأسك ؟ قال : حتى أنظر ما تَصْنَع !

وكان الفرزدق يقول : لقد استراح النَّبَطىّ من حيث تعِب الكرام .

ومن محاسن شعره قوله :

تَصَرَّمَ مِنِّى وُدُّ بَكْرِ بن وائلٍ وَما خِلْتُ باقى وُدِّهَا يتصرَّمُ[2]

قوارصُ تأتينى ويحتقرونَهـا وقد يملأُ القطْرُ الإناء فيفْعَمُ

---

(١) يهجو فيها الراعى النميرى ، مطلعها :

أقِلِّى اللَّوْمَ عاذِلَ والعِتابا وقُولِى إنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أصابا

ديوانه ٦٤ ـ ٨٠ .

(٢) ديوانه ٧٥٦ .

وقوله :

إنّ الذي سَمك السّماء بنى لنا
بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ[1]

بيتٌ زُرارةُ محتبٍ بفنائه
ومجاشعٌ وأبو الفوارسِ نَهْشَلُ

أينَ الذين بهم تُسامى دارمًا
أمَّنْ إلى سَلَفَيْ طُهيَّةَ تجعلُ

أحلامُنا تَزِنُ الجبالَ رزانةً
وتخالُنا جِنًّا إذا ما نَجهلُ

فادْفَعْ بكفكَ إنْ أردت بناءنا
ثَهلانَ ذا الهضبات، هل يتحلحلُ!

إنّي ارتفعتُ عليك كلَّ ثنيَّةٍ
وسموتُ فوق بني كليب مِنْ علُ

وقوله :

ومُستنبحٍ طاوِي المصير كأنّما
يُساوِرُه من شدّة الجوع أولَقُ

دَعوتُ بحمراء الفروع كأنّها
ذُرا رايةٍ في جانب الجوّ تخفقُ

وإني سَفيهُ النار للمبتغي القِرَى
وإني حَليمُ الكَلْبِ للضيف يطرُقُ

إذا مِتّ فابْكِيني بما أنا أهلُه
فكلُّ جميلٍ قلتِ فِيّ يُصَدَّقُ

وكم قائلٍ مات الفرزدقُ والنَّدَى
وقائلةٍ ماتَ النَّدَى والفرزدقُ

كان الجاحظ يكثر التعجّب والاستحسان ، لقوله : «سفيه النار » ،و « حليم الكلب » .

وقوله يرثي ابنيه :

يُذَكِّرُني ابنيّ السّما كانِ مَوْهِناً
إذا ارتفعا فوق النُّجُوم العوائمِ

وقد رزئَ الأقوامُ قبليَ بنيهمْ
وإخوتهم فاقْنَيْ حياء الكرائمِ

وماتَ أبي والمنذرانِ كلاهُما
وعمرو بن كلثوم شِهاب الأراقم

ومَا ابْناك إلاّ من بنِي النَّاس فاعلِمِ
فلم يرجع الموتَى حنينُ المآتمِ

---

(١) ديوانه ٧١٤ .

وقوله فى الفائية التى أولها :

عَزَفْتَ بأَعْشاشٍ وَمَا كِدْتَ تَعْزِفُ ... وأنكَرْتَ مِن حَدْراءَ ما كنتَ تعرفُ[(١)]

إذا اغبرّ آفاقُ السَّماءِ وكَشَّفَتْ ... بيوتًا وراء الحىّ نكباءُ حَرْجَفُ[(٢)]

وَأَصْبَحَ مبيضٌ الصَّقيعِ كأنَّه ... على سَرَواتِ النِّيبِ قُطْنٌ مُنَدَّفُ[(٣)]

ـ هذا البيت يروى : « بالنَّيب » ، و « البيت » ، و« النبت » ، وأفصح ذلك كلّه « النيب » ـ

تَرَى جارَنَا فِينَا يُجيرُ وإن جَنَى ... فَلاَ هُوَ مِمَّا يُنْطِفُ الجارَ يُنْطَفُ[(٤)]

وكنّا إذا نامت كليبٌ عن القِرَى ... إلى الضَّيْفِ نمشى بالعَبِيطِ ونَلْحَفُ

ومنها أيضا ؛ وهو أحسن ما قيل فى الفخر ، ويقال : إنه غصبه من جميل :

تَرَى الناس مَا سِرْنَا يسيرونَ خَلْفَنَا ... وإنْ نَحْنُ أوْمأْنا إلَى النَّاسِ وَقَّفُوا[(٥)]

وإنك إذ تسعى لتدرِكَ شأوَنا ... لأَنت المعنَّى يا جرير المكلَّف

وقوله :

لاَ خَيْرَ فى الحبّ لا تُرْجَى نوافلُه ... فاستمطروا من قريش كلَّ منخدِعِ[(٦)]

تَخَالُ فِيه إذا خادعته بَلَهًا ... عَنْ مالِه وهو فِى العقل والوَرَعِ

وقوله يرثى جارية له حاملا :

وجَفْنِ سلاحٍ قد رزِئتُ فلم أَنُحْ ... عَلَيْهِ ، ولم أبعث عليهِ البواكيَا[(٧)]

---

(١) ديوان ٥٥١ وما بعدها .

(٢) الحرجف : الريح الشديدة الهبوب .

(٣) الديوان : «موضوع الصقيع» . سروات النيب : مسان الإبل، وسرواتها: أسنمتها.

(٤) يقول : جارنا يجير لعزنا وهو سليم من أن يصيبه شر . والنطف : الدبرة تدخل جوفه .

(٥) هو قوله :

تَرَى النَّاسَ ما سِرْنَا يسيرون خَلْفَنَا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقَّفُوا

(٦) ديوانه ٥٢٨ .

(٧) ديوانه ٨٩٤ ، وروايته : « وغمد سلاح » .

وفى بطنه من دارمٍ ذو حفيظةٍ[1] لو أنّ المنـــايا أنسأتْهُ لَيَالِيا[2]

أرباب البديع يستحسنون قوله : « وجفن سلاح » للكناية عن الولد ، ويقولون : إنها إن كانت سوداء فإنه أبدع فى التشبيه .

وقوله :

وتَقُولُ كَيْفَ تَميلُ مَيْلَكَ فى الصِّبَا وعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ الحليمِ وَقَارُ[3]

والشَّيْبُ ينهضُ فى الشَّبَابِ كأنَّهُ صُبْحٌ يصيحُ بجانبيه نهارُ

قوله : « يصيح » يعنى يظهر ، يقال : صاح الشجر بنفسه ، إذا طالَ ، كأنه ينادى على نفسه بالظهور .

* * *

١٢٣ — وَهَلاَّ عَشَّيْتَ وَلَمْ تَغْتَرَّ ! وَمَا أَشُكُّ أَنَّكَ تَكُونَ وَافِدَ الْبَرَاجِمِ .

فى النسخة « عسيت » بالسين المهملة ، وهو خطأ ، ولا يصح به المعنى ، يقال : عسيت أن أفعل ، فلا يصحّ أن يقول : قاربت أن تغترّ ، والكلام يقتضى أنه قد اغترّ ، وإنما هى « عشيت » ، أى رفقت ، وعشّيت الإبل وعشيتها إذا أطعمتها عشيًّا ، وفى المثل : « عَشّ ولا تغتّر »[4] .

* * *

---

(١) الديوان : « وفى جوفه » .

(٢) بعده :

ولــكنْ رأيتُ الدَّهرَ يعثُر بالفتَى ولا يستطيع ردَّ ما كان جائيَا

وكَمْ مثلُهُ فى مِثلِهَا قَدْ وضعتُه وقدْ كنتُ وثابا أجرُّ الدَّواهيا

ولــكن وقانى ذو الجلالِ بقدْرةٍ شُرُورَ زوانى النَّاس إذ كنت زانيا

(٣) ديوانه ٤٦٧ .

(٤) الميدانى ١ : ٣١١ ، قال : « أصل المثل فيما يقال إن رجلا أراد أن يسير بإبله ، واتكل على عشب يجده هناك ، فقيل له : عش ولا تغتر بما لست منه على يقين » .

[قصة وافد البراجم]

وأمّا وافد البراجم فهو رجلٌ من تميم ، والبَراجم خمسة من أولاد حَنظلة ، والعرب تضرب المثل بوافِدِ البراجم ، وذلك أن الملك عمرو بن هند أحرق تسعةً وتسعين رجلا من بنى تميم ؛ لثأرٍ له عندهم ، وقد كان آلَى أن يحرق منهم مائة ، فبينا هو يلتمس بقيّة المائة إذ مرّ رجل من البَراجم ، يسمى عَمّارا ، قادم من سفر ، فاشتمّ رائحة القَتَار ، فظنّ أنّ الملكَ اتّخذ طعامًا ، فعدل إليه ، فقيل له : ممّن أنت ؟ قال : من البراجِم ، فأُلقِىَ فى النار ، وقيل : « إنّ الشقىّ وافد البراجم »[1] ، ومن هناك عُيِّرتْ بنو تميمٍ بحبّ الطّعام ، وستأتى قصة عمرو بن هند فى أصل تسميتِه محرّقا ، وما السَّبب فى ذلك .

* * *

١٢٤ — أوْ تَرْجِعَ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ .

صحيفة المتلمّس مثل يضرب لمن يحصل له الضرر من جهة النفع .

[المتلمّس]

والمتلمّس ، هو جرير بن عبد المسيح ، أحَد بنى ضُبَيعة . شاعرٌ مُجيد من شعراء الجاهلية ، وفد هو وابن أختِه طَرَفة بن العَبد على عمرو بن هند ، أحدِ ملوك الحيرة ، فنزلاَ منه فى خاصّته حتى نادماه ، فبينماَ طَرَفة يوما يشربُ معه ، وفى يده جامٌ من ذهب ، فيه شراب ، أشرفَتْ أخت عمرو ، فرآها طَرَفة ، وقيل: إنَّماَ رَآها فى الإناء ، فقال : ألا بأبى الظبْى الّذى تبرق شفاه ، ولولا الملك القاعد ألثمنى فاه ! فسمعها عمرو ، فاضْطَغَنها عليه ، وأمسَكها فى نفسه ، ثم خرج عمرو ،

---

(١) الميدانى ١ : ٧ .

يَصيد ومعه عبد عمرو بن بِشر ــ وكان طَرَفة هجاه ــ فرمى عمرو حمارا ، وقال لعبد عمرو : انزل فاذبحه ، فنزل إليه فعالجه ، فأعياه ، فقال عمرو : قد عرفك طَرَفة حيث يقول فيك :

وَلاَ خَيْرَ فِيه غير أنّ له غِنًى وَأَنَّ لَهُ كَشْحاً إذا قام أَهْضَما(١)

فقال له عبد عمرو : وما هجاك به أشدّ ، قال : وما هو ؟ قال : قوله :

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ المَلْكِ عَمْرٍو رَغوثاً حول قبّتنا تخورُ

فهمّ بقتل طَرَفة ، وخاف من هجاء المتلمّس له ، وأن يجتمع عليه بكْر بن وائل متى قتلهما ظاهرا ، فقال لهما يومًا : أظنكما قد اشتقتُما إلى الأهل ! قالا : نعم ، فكتب لهما كتابيْن إلى عامل البحرين ، وقال : إنّى كتبت لكما بِصلة فاقبضاها من عامل البحريْن ، نخرجا من عنده والكتابان فى أيديهما ، فمرّا بشيخ جالس على ظهر الطريق ، منكشفًا يقضى حاجتَه ، وهو مع ذلك يأكل ويتفلّى ، فقال أحدهما لصاحبه : هل رأيتَ أعجب من هذا الشيخ ! فسَمِع الشيخ مقاله ، فقال : ما ترى من عجبى ! أخرِج خبيثًا ، وأدخِل طَيِّباً ، وأقتل عدوًّا ! وإنَّ أعجب منّى مَنْ يحمل حتَفهُ بيده وهو لا يدرى ! فأوجس المتلمّس فى نفسه خيفةً ، وارتاب بكتابه ، فلقيه غلام من أهل الحيرة ، فقال له : أتقرأ يا غلام ؟ فقال له : نعم ، ففضّ كتابه ، فقرأه ، فإذا فيه : إذَا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه ، واصلُبْه حيًّا . فأقبل على طَرَفة ، فقال : والله لقد كتبَ لك بمثل هذا ، فادفع كتابك إلى الغلام يقرؤه ، فقال : كَلاَّ ، ما كان ليجترئ على قومى بمثل هذا ، وأنا أقدم عليهم فأكون أعزّ منه . فألقى المتلمّس صحيفته فى نهر الحِيرة(٣) ، وقال :

---

(١) ديوانه ١٤١ .
(٢) ديوانه ٩٢ .

رَمَيْتُ بها لمّا رأيت مدادَها   يجولُ به التيّار فى كلّ جدْوَلِ[١]

ثم قال يخاطب طرَفة :

أطريفة بن العبد إنك حائنٌ   أبساحَةِ الملك الهُمام تمرّسُ![٢]

ألْقِ الصَّحيفة لا أبالك إنَّهُ   يُخْشى عليك من الحِباءِ النِّقْرِسُ

ثم مضى طرَفة بكتابه إلى صاحب البحرين فقتله ، فلمّا سمع المتلمّس ما جرى عليه ، قال :

عَصَانِى فما لاَقى رشادا وإنَّمَا   تَبَيَّنُ من أمر الغوىّ عواقِبُهْ[٣]

فأصبَح مَحْمُولاً على آلة الرَّدَى   تمجُّ نجيعَ الجوفِ منه ترائبُهْ

فإلاّ تجلِّلْها يعالُوك فوقَهَا   وكيف توَقّى ظَهْرَ ماأنت راكبُهْ!

ثم لحق بالشام وهجا عمرًا .

وبلغه أنّ عمراً يقول : حرام عليه حَبَّ العراق أن يُطعم منه حَبّةً ، ولئن وجدته لأقتلنّه ، فقال :

آليتُ حَبَّ العِراق الدّهْرَ أطعَمُهُ   والحبُّ يأكلُه فى القرْيَةِ السُّوسُ[٤]

أغنيت شاتِى فأغنوا اليوم تيسَكُمُ   واستحمِقُوا فى مراسِ الحرب أوْكيسُوا

قال أبو حاتم : قرأت هذه الأبيات على الأصمعىّ ، فتصحّفتْ علىّ ، فقلتُ :

* أغنيت شاتِى فأغنُوا اليومَ شاتَكُمُ *

فقال الأصمعىّ : قل : « فأغنوا اليوم تيسَكم » .

ومن جيّد شعر المتلمّس قوله من قصيدة :

---

(١) الشعر والشعراء ١٣١ .

(٢) شعراء النصرانية ٣٣١ ، الشعر والشعراء ١٣٢ .

(٣) شعراء النصرانية ٣٣١ .

(٤) الشعر والشعراء ١٣٥ ، شعراء النصرانية ٣٣٣ .

أَلمْ تَرَ أنَّ المرْءَ رَهْنُ مَنيَّةٍ صريعٌ لعافِى الطَّيرِ أوسوف يرمَسُ[١]
فلا تَقْبَلَنْ ضَيْماً مخافة مِيتَةٍ ومَوتَنْ بِها حُرًّا وجلدك أمْلسُ

وقوله يصف البخل ويمدحه :

لَحِفْظُ المال خير من بُغَاهُ وضربٌ فى البلادِ بغير زادِ[٢]
وإصلاح القليل يزيد فيه ولا يَبْقَى الكثيرُ مَعَ الفسادِ

وقوله :

إلى كلّ قومٍ سُلَّمٌ يرتَقَى بِهِ وليس إلينا فى السَّلالِيمِ مَطْلَعُ[٣]
ويهرب مِنَّا كُلُّ وحْشٍ وينتمِى إلى وَحْشِنَا وحشُ الفلاةِ فيرتَعُ

وقوله وهو أحسن ما ورد فى المسْتنحات :

ومستنبحٍ تستكشف الريحُ ثوبَهُ ليسقُطَ عَنْهُ وَهْوَ بالثَّوب مُعْصِمُ[٤]
عَوَى فى سَواد الليْلِ بعد اعتسافِهِ لينبَحَ كَلْبٌ أو ليوقَظَ نُوَّمُ
فجاءوا بِهِ متسمّع الصَّوْت للنَّدَى له عند إتيان المهِبِّينَ مَطْعَمُ
يكادُ إذا ما أبصر الضيفَ مُقْبِلاً يكلِّمُه مِنْ حُبِّهِ وهُوَ أعجَمُ

١٢٥ — أَوْ أَفعلُ بِكَ مَا فَعَلَهُ عُقَيْلُ بنُ عُلّفَةَ بالجُهَنِى إِذْ جاءَهُ خَاطِباً ، فَدَهَنَ اسْتَهُ بِزَيْت ، وَأَدْنَاهُ مِنَ قَرْيَةِ النَّمْلِ .

* * *

[عقَيل بن عُلّفة]

هو عَقِيل بن علّفة بن الحارث اليربوعىّ ، يكنى أبا العَملّس ، وأمّه

---

(١) شعراء النصرانية ٣٣٤ ، ٣٣٥ .
(٢) الشعر والشعراء ١٣٦ (٣) ديوانه ١١ .
(٤) شعراء النصرانية ٣٤٨ ، وفيه : « تستكشط » .

عمرة[١]، بنت الحارث بن عوف المُرّىّ ، وأمّها بنت بدر بن حصن بن حذيفة[٢]، شاعر من شعراء الدّولة الأموية ، وكان أهوجَ جافيا ، شديد الغيرة والعجرفة والبَذَخ[٣] بنسبه . وهو من بيت شرف فى قومه من كِلاَ طرفيه ، وكان لا يرى أن له كفئاً ، وكانت قُرَيش ترغب فى مصاهرته وتزوّج إليه من خلفائها[٤]، وأشرافها[٥].

وخطب إليه عبد الملك بن مروان بعض بناته لبعض ولده ، فأطرق ساعة ثم قال : إن كان ولا بدّ فجنِّبنِي هُجَناءك . فضحك عبد الملك ، وعجب من كِبْر نفسه على ضائقته ، وشدّة عيشه بالبادية . وتزوَّج يزيد بن عبد الملك بعض بناته[٦].

ودخل على عثمان بن حَيَّان وهو أمير المدينة ، فقال له عثمان : زوّجْنى بعض بناتك[٧]، فقال : أبَكْرَةً من إبِلِى تعنى ! فقال له عثمان : [وَيْلَكَ !][٨]، أمجنون أنت ! قال : أىّ شىء قلت لى ؟ قال : قلت لك : زوّجنى ابنتَك ، فقال : إن كنت تريد بَكْرَةً من[٩] إبلى فنعم ، فأمر به فوُجِئَتْ عُنقه ، فخرج وهو يقول :

لَحَى اللهُ دهراً ذَعْذَعَ المالَ كُلَّهُ وسَوَّدَ أبنـــاءَ الإماءِ العَوارِكِ[١٠]

وكان له جارٌ جُهَنىّ[١١]، فخطب إليه ابنتَه ، فغضب عُقيل ، وأخذ الجهنىّ

---

(١) فى الأغانى ١٢ : ٢٥٤ : « وأم عقيل بن علفة العوراء » .
(٢) فى الأغانى : « وأمها زينب بنت حصن بن حذيفة » .
(٣) البذخ : الكبر وتطاول الرجل بكلامه » .
(٤) الأغانى : « تزوج إليه خلفاؤها » .
(٥) بعدها فى الأغانى : « منهم يزيد بن عبد الملك تزوج ابنته الجرباء ، وكانت قبله عند ابن عم لعقيل يقال له مطيع بن قطعة بن الحارث بن معاوية ، وولدت ليزيد بنيا درج » .
(٦) الأغانى ١٢ : ٢٥٤ .
(٧) الأغانى « زوجنى بنتك » .
(٨) من الأغانى .
(٩) الأغانى : « أفعل إن كنت عنيت بكرة من إبلى » .
(١٠) الأغانى ١٢ : ٢٥٥ : ذعذع المال : فرقه وبدده . وسوده : جعله سيدا . العوارك : الحيض ، وقبله فى الأغانى .

كنا بنى غَيْظِ الرّجال فأصبحتْ بنو مالك غيظاً وصرْنا كمالكِ

(١١) الأغانى : « من بنى سلامان بن سعد » .

فكتفه[١] ، ودهن استَه بشحم أو بزيتٍ ، وأدْناه من قَرْية[٢] النّمل ، فأكل خُصْيَتيه[٣] حتى ورِم جسدُه ، ثم حلّه وقال : أيخطب إليّ عبد الملك بن مروان وأردّه ، وتجترئ أنت عليّ أن تخطب إليّ ![٤] .

وممّا حُكِي عنه أنّه خرج هو وابناه : جَثّامة وعَملّس[٥] ، وأختهما المسمّاة بالحَوْراء حتى أتوا ابنةً له ناكحا[٦] في بنى مَرْوان بالشام [فآمت][٧] ، ثم قفلوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال عَقِيل :

قَضَتْ وَطَرا مِنْ دَيْرِ سَعْدٍ وَطَالَمَا ... عَلَى عُرُضٍ ناطحنَه بالجماجِم

[إذا هبطت أرضا يموت غُرَابُها ... بها عطشاً أعطينَهُمْ بالخَزَائم][٨]

ثم قال ، أجز يا جثّامة[٩] فقال :

وأَصْبَحْن بالمَوْمَاةِ يحملن فِتْيةً ... نَشَاوَى من الإدلاَجِ مِيلَ العَمائِم[١٠]

ثم قال : أجز ياعَملّس ، فقال :

إذا عَـــلَمٌ غادرنَه بتَنُوفَةٍ ... تَذارعْنَ بالأيدى لآخرَ طاسِم[١١]

ثم قال : يا حوراء[١٢] ، أجيزى ، فقالت :

---

(١) كتفه : شد يديه من خلفه بالكتاف ، وهو ما شد به .
(٢) قرية النمل : مجتمع ترابها .
(٣) فى الأغانى : « خصييه » ، وفى اللسان : « الخصيتان : البيضتان . والخصيان : الجلدتان اللتان فيهما البيضتان » .
(٤) الأغانى ١٢ : ٢٥٥ .
(٥) الأغانى : « وعلفة » .
(٦) ناكحا : ذات زوج . وآمت : فقدت زوجها .
(٧) من الأغانى
(٨) منت والأغانى ، والخزائم : جمع خزامة ؛ وهى حلقة من شعر تجعل فى أحد جانبي منخرى البعير لينقاد بها ، يريد أن الإبل منقادة .
(٩) فى الأغانى : « أنفذ يا عافة ، فقال علفة » .
(١٠) الموماة : المفازة الواسعة . نشاوى : سكارى . الإدلاج : السير من أول الليل .
(١١) العلم : شيء ينصب فى الفلوات تهتدى به الضالة . التنوفة : المفازة : تذارعن : سرن ؛ وأصله أن يذرع البعير بيديه فى سيره ذرعا ، إذا سار على قدر خطوه . رسم طاسم : دارس .
(١٢) الأغانى : « ثم قال : أنفذى يا حرباء ، قالت: وأنا آمنة ؟ قال: نعم » .

كانّ البكرى سقّاهم صرخديّةً تدبّ دبيباً فى المَطا والقوائِمِ[1]

فقال عَقِيل : شربتِها وربّ الكعبة[2] ! ثم شدّ عليها بالسيف ليقتلها،فقال أخوها : ما ذنبُها ؟ إنما أجازت شِعْراً ، فشدّ عليه ، فخدشه أحدهم بسهم فوقع يتمعّك فى دمه ، ويقول :

إنّ بنىّ ضرّجُونى بالدّمِ مَنْ يَلْقَ أَبْطَالَ الرِّجَالِ يُكْلَمِ

* شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ *

الشنشنة : السجيّة ، وأخزم : فحل منجِب لرجل من العرب . وقيل : أخزم جدّ حاتم الطائىّ .

ثم توجّه ولده إلى الطريق[2] ، فلما مرّوا ببنى القين ، [ندم عَقِيل على فعله بجثامة] ،[3] فقال لهم : هل لكم فى جَزُورٍ انكسرتْ ؟ قالوا : نعم، قال: فالزموا أثر هذه الرّواحل[4] ، حتى تجدوا الجُزور . فخرج القومُ حتى انتهوا إلى عَقِيل فاحتملوه ، وعالجوه إلى أن برئ ، ولحق بهم[5] .

وقد رويت الحكاية على غير هذا الوجه ، وأنّ المخدوش بعض ولده ؛ والذى عليه أكثر الرّواة هذه .

وروى أنّ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، عاتب رجلاً من قريش ، أمّه أخت عَقِيل بن عُلّفة ، فقال له : قبّحك الله ! لقد أشبهتَ خالك فى الجفاء ،

---

(١) الصرخدية : نسبة إلى صرخد ، بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق . العقار : الخمر . المطا : الظهر .

(٢-٢) العبارة فى خبر الأغانى: «لولا الأمان لضربت بالسيف تحت قرطك ، أما وجدت من الكلام غير هذا ؟ فقال جثامة : وهل أساءت ! إنما أجازت ، وليس غيرى وغيرك ، فرماه عقيل بسهم فأصاب ساقه ، وأنفذ السهم ساقه والرحل ، ثم شد على الجرباء فعقر ناقتها، ثم حملها على ناقة جثامة ،وتركه عقيرا مع ناقة الجرباء ، ثم قال : لولا أن تسبنى بنو مرة ما ذقت الحياة ، ثم خرج متوجها إلى أهله» .

(٣) من الأغانى .

(٤) الأغانى : « الراحلة » .

(٥) الأغانى ١٢ : ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

فبلغت عَقِيلاً ، (١فرحل من البادية حتى دخل على عُمر١) ، فقال له : أمَا وجدْتَ لابن عمّك شيئاً تعيّره به إلاّ خئولتى ! [فقال له صُخير بن أبي الجهم العدوىّ — وأمه قرشيّة — : آمين ياأمير المؤمنين](٢) ، قبح الله شرّكما خالاً [وأنا معكما](١) . فقال له عمر : إنّك لأعرابىٌّ [جِلْف](٢) جافٍ ، أما لو كنت تقدّمتُ إليك لأدّبتك ، والله ما أراك تقرأ من كتاب الله شيئاً ، قال : بَلى ، إنى لأقرأ ؛ ثم قرأ : « إنّا بعَثْنَا نوحا » ، فقال له عمر : ألم أقل : إنك لم تقرأ ! فقال : ألم أقرأ ! فقال : إنّ الله تعالى قال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ ، فقال عَقِيل :

خُذَا بَطْنَ هَرْشَى أو قَفَاها فإنَّهُ ... كِلا جَانِبَيْ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ

فجعل القوم يضحكون من عَجْرفيّته ويعجَبون منه(٣) .

وقدم عَقيل المدينــة فدخل المسجدَ وعليه خُفَّان غليظان ، فجعل يضرب برجليْه ، فضحكوا منه ، فقال : ما يضحككم ؟ فقال له يحيى بن الحكم — وكانت ابنةُ عَقِيل عنده ، وكان أميراً على المدينة : إنهم يضحكون من خُفَّيْك ، وضربك برجليْك ، وجفائك ، فقال : لا ، ولـكنهم يضحكون من إمارتك ؛ فإنها أعجب من خُفِّي ، [فجعل يحيَى يضحك](٤) .

وحكِىَ أنّ يحيى بن الحـكَم حين خطب ابنةَ عَقِيل بعث إليها جارية من عنده ؛ لتنظر إليها ، فغمزت الجارية عَضُدَها(٥) ، فرفعت يدها فدقّت أنف الجارية ، فرجعتْ إلى يحيى ، وقالت : بعثتَنِي إلى أعرابية مجنونة فصنعتْ بى ما ترى ! فلما اتّصلت بيحيي قال لها : مالكِ مع الخادم ؟ فقالت : أردت أن يكون نظرك إلىّ قبلَ كلّ ناظر ، فإن كان حسنا كنتَ أوّلَ من تراه ، وإن كان قبيحا كنتَ

(١–١) الأغانى : « فجاء حتى دخل على عمر ، فقال له » .

(٢) من الأغانى . (٣) الأغانى ١٢ : ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٤) الأغانى ١٢ : ٢٦٢ .

(٥) الأغانى : « فجعلت تغمز عضدها » .

أولى من واراه[١] .

وبهاتين السجعتين يُستشهد فى التجنيس بقولها : « أوّل » و « أوْلى » ، و « رآه » و « واراه » .

ومن جيّد شعر عقيل يرثى ولده عُلّفة ، يقول :

لَعَمْرِى لقد جاءتْ قوافلُ أَخْبَرَتْ بأمرٍ من الدّنيا علىّ ثقيلِ[٢]
تَحُلُّ المنايا حَيْثُ شاءت فإنّهاَ مُحَلَّلَةٌ بعد الفتَى ابن عَقِيلِ
فتًى كان مولاه يَحُلُّ بنجْوةٍ[٣] فحلّ الموالِى بعدَهُ بمسيلِ
كأنّ المنايا تنتقى من خيارِنا لها تِرَةٌ أو تهتدى بدليلِ

وقوله أيضاً يحرّض قومه ، وذلك بسبب جارٍ لهم :

فإمّا هلكتُ فلم آتِكُمْ فأبلغ أماثِلَ سَهْمٍ رسُولاَ[٤]
أذلّ الحياة وذلّ المماتِ[٥] ! وكلاًّ أراه وَخِيماً وَبِيلا
فإنْ لم يكنْ غيرُ إحداهُماَ فسيرُوا إلى الموت سَيْراً جَمِيلاَ
وَلاَ تَقْعُدوا وبكمْ مُنَّةٌ كَفَى بالحوادث للمرءِ غُولاَ

وقوله وقد خطب إليه رجل كثير المال يُغمزُ فى نسبه ، فامتنع :

لَعَمْرِى لئن زوّجتُ من أجل مالِهِ هَجِيناً لَقَدْ حُبَّتْ إلىَّ الدّراهمُ[٦]
أبى لىَ أنْ أرضى الدنيّةَ أنّنى أمدّ عِناناً لم تَخُنه الشّكائمُ[٧]

* * *

(١) الأغانى ١٢ ، ٢٦٣ .
(٢) الأغانى ١٢ : ٢٦٨ .
(٣) الأغانى : « بربوة » .
(٤) الأغانى ١٢ : ٢٦٦ .
(٥) الأغانى : « هوان الحياة » .
(٦) الأغانى ١٢ : ٢٦٥ ، وبعده :

أأُنكحُ عبداً بعد يحيى بن خالد أولئك أكفانى الرجال الأكارمُ

(٧) الشكيمة فى اللجام : الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

١٢٦ — وَمَتَى كَثُرَ تَلاَقِينا ، وَاتَّصَلَ تَرَائِينا ، فَيَدْعُوَنِى إلَيْكَ مَادَعَا ابْنَةَ الْخُسِّ إلى عَبْدِهَا ، مِنْ طُولِ السَّوَادِ ، وَقُرْبِ الْوِسَادِ !

[ابنة الْخُسّ]

ابنة الُخسّ هذه هى هند بنت الخسّ ، والُخصُّ ، والُخسْف ، الإيادىّ . حكى ذلك الشريف المرتضَى[1] . قديمة فى الجاهليّة ، أدركتُ القلمّس[2] أحدُ حكّام العرب الذى يقال : إنَّه أوّل مَنْ وصل الوَصِيلة ، وسيَّب السّائبة[3] ، وتحاكمتْ هى وأختها جمعة إليه فى كلامٍ لها ، ومدحتْه بأبيات حَسَنة ، منها :

إذَا اللّهُ جَازَى مُحْسِناً بوَفَائِهِ   فجازاكَ عنّى يا قلمّس بالكَرَمْ

و بعض الرُّواة يزعم أنها أقامت فى زمن النُّعمان عند هند ابنته ، و يستشهد على ذلك بقول الفرزدق :

وَفَيْتَ بعهدٍ كانَ منكَ تَكَرُّماً   كما لابنة الُخسّ الإيادى وفَتْ هِنْدُ[4] .

---

(١) أمالى المرتضى ١ : ٢٢٠ ، وفى ط : « الرضى » تحريف .

(٢) ذكره صاحب بلوغ الأرب ١ : ٣٣٥ ، وقال : « القلمس الكنانى ، كان أحد حكام العرب فى الجاهلية ، وكان أيضا من نسأة الشهور ؛ كان يقف عند جمرة العقبة ويقول : « اللهم إنى ناسىء الشهور وواضعها مواضعها ، ولا أعاب ولا أجاب ؛ اللهم إنى قد أحللت أحد الصفرين ، وحرمت صفر المؤخر ؛ وكذلك فى الرجبين — يعنى رجبا وشعبان » .

(٣) قال صاحب الكشاف ١ : ٥٣٤ ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ : كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها — أى شقوها — وحرموا ركوبها ، ولاتطرد عن ماء ولا مرعى ، وإذا لقيها المعي لم يركبها واسمها البحيرة ، وكان يقول الرجل : إذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى فناقتى سائبة ، وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها . . . وإذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم ؛ فإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم ؛ وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من رعى ولا ماء » .

(٤) ديوانه .

وليس الأمر كذلك ، وإنما مُراد الفرزدق أنّ هنداً هى التى وَفَتْ لأختها جمعة ابنة الُخسّ ، لا أنها هند ابنة النعمان .

وكانت ابنة الُخسّ قد زَنتْ بعبدٍ لها فلِيمَتْ ، وقيل لها : ما حَمَلكِ على الزنا ؟ فقالت : قرب الوِساد ، وطول السِّوَاد . والسِّوَاد : السِّرَار . يقال: ساودته إذا سارَرْتَه ، وفى الحديث: « السِّواد من السحر »، وألحق بعض الرواة فى قولها : « وحبّ السِّفَاد » ؛ لأنَّ أباها كان قد منعها من الزواج .

ولها أسجاع كثيرة ، وشِعْرٌ قليل ، وكانت تحاجِى[1] الرِّجال إلى أن مرّ بها رجلٌ ، فسألته المحاجاةَ ، فقال لها : « كاد . . » فقالت : « كاد العروس يكون أميراً » فقال : « كاد .. » ، فقالت : « كاد المنتعل يكون راكبا » ، فقال : « كاد .. » فقالت : « كاد البخيل يكون كلبا » وانصرف . فقالت له : أُحاجيك ؟ فقال : قولى ؛ فقالت : « عجبت . . . » ، فقال : « عجبت للسبخة لا يجفّ ثراها ، ولا ينبت مرعاها » ، فقالت : « عجبت ... » ، فقال : « عجبت للحجارة لا يكبر صغيرها ، ولا يهرم كبيرها» فقالت : «عجبت...» فقال : «عجبت لحفرة بين فخذيك ، لا يُملأ حَفْرُها ، ولا يدرك قَعْرُها » فخجلت وتركت المحاجاة[2] .

ومن أسْجَاعها ، ماقيل : أىّ الخيل أحبُّ إليك ؟ قالت : ذو الميْعة[3] الصنيع السّليط التليع[4] ، الآيد الضّليع ، الملهب السّريع[5] ، فقيل لها : أىّ الغيوث أحبُّ إليكِ ؟ قالت : ذُو الهيدب المنبعِق[6] ، الأصخم المؤتلِق ، الصخب المنبثِق[7]

---

(١) يقال : حاجيته محاجة : فاطنته فغلبته .
(٢) أورد هذه القصة الحريرى فى درة الغواص ٥٥ ونسبها إلى امرأة من الجن .
(٣) ماع الفرس : جرى على الأرض منبسطا فى هينة .
(٤) السليط : الشديد . والتليع : الرافع رأسه .
(٥) الآيد : القوى . والضليع : التام الخلق . والملهب : الذى يجتهد فى عدوه .
(٦) المنبعق : السحاب المتصبب بشدة .
(٧) المؤتلق ، من ائتلق البرق ؛ إذا أضاء . والمنبثق : المنفجر .

فقيل لها : أىّ الأيور أحبُّ إليك ؟ فقالت : الّذى إذا حفز حفرَ ، وإذا أخطأ قشر ، وإذا خرج عَقَر .

وقيل لها : ما مائة من المعز ؟ قالت : مُوَيْل يشفُّ الفقر من ورائه ؛ مال الضّعيف ، وحرفة العاجز . قيل : فما مائة من الضأن ؟ قالت : قَرْيةٌ لا حَمَى لها . قيل: فما مائة من الإبل ؟ قالت : بَخٍّ ! جمال ومال ، ومُنَى الرجال قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت : طغَى مَنْ[1] كانت له ، ولا توجد . قيل : فمامائة من الُحمُر ؟ قالت : عازبة اللّيل ، وخزى المجْلِس ، لا لبنٌ فتحلب ، ولا صوف فَيُجَزُّ ، إن رُبط عيرها أَدلى[2] ، وإن ترك ولّى .

وقيل لها : مَنْ أعظمُ النّاس فى عينك؟ قالت : مَنْ كانت لى إليه حاجة[3] .

ومن شعرها :

أشَمُّ كنصل السّيف جَعْدٌ مرجَّلٌ شُغِفت به لو كان شىءٌ مُدانيَا
وأُقسِم لو خيِّرتُ بين لقـــائهِ و بين أَبِى لاخترتُ ألاَّ أباليَا

* * *

١٢٧ — وَهَلْ فَقَدْتُ الْأَرَاقِمَ فَأَنْـكِحَ فِي جَنْبٍ !

الأراقم : حىّ من تغلِب . وجَنْب : حىّ من اليمن .

وهذا اللفظ من جملة شعر لمهلهل التغلَبىّ ، وقد تقدّم ذكره[4] ، كان قد هرَب حين طالت عليه الحروب من أجل حرب البَسُوس ، فنزل فى طريقه على حىٍّ من اليمن ، فخطبوا إليه ابنته ، فأبى ، فساقوا المهر ، وهو جلود من أدَم وغصبوه على الزواج ، فقال :

---

(١) أمالى المرتضى : « طغى عند من كانت عنه »

(٢) الأمالى : « دلى » بتشديد اللام .

(٣) أمالى المرتضى ١ : ٢٢٠ ، المزهر ٢ : ٥٤٥ ، وانظر بلوغ الارب ١ : ٣٣٦ ـ ٣٤١

(٤) ص ٩٦ ـ ١٠٢ .

أعززْ عَلَى تغلبٍ بما لقيَتْ أختُ بنى الأكرمين من جُشَمِ [1]
أنكحها فقدُها الأراقمِ مِنْ جَنْبٍ وَكَانَ الحِبَاءُ مِنْ أَدَمِ [2]
لوْ بأبانينَ جاء خاطِبُها رُمِّلَ ما أَنْفُ خاطبٍ بِدَمِ [3]

* * *

١٢٨ – أَوْ عَضَلَنِي هَمَّامُ بْنُ مُرَّةَ فَأَقُولُ : زَوْجٌ مِنْ عُودٍ ، خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ .

عَضَل الولىُّ المرأةَ ، إذا مَنَعها من النِّكَاح ، والعَضْلُ : المَنْعُ الشَّدِيد ؛ مأخوذ من عَضل اللَّحم .

وزَوْجٌ من عُودٍ خيرٌ من قعود ؛ قول إحدى بنات هَمَّام بن مُرّة بن ثعلبة ، كان له أربع بناتٍ ، وكنّ يُخْطَبْنَ إليه ، فيعرض ذلك عليهنَّ فيستحيين فلا يزوّجهن ، وكانت أمّهنّ تقول له : زوّجْهن ، فلا يفعل ، فخرج ليلة إلى متحدَّثٍ لهنّ ، فاستمع عليهنّ وهنّ لا يعلمْنَ ، فقلن : تعالَيْن نتمنّى ولنصْدُق ، فقالت الكبرى :

أَلا لَيْتَ زَوْجى من أناسٍ ذوِى غِنًى حديثُ شبابٍ طيّبُ الرّيح والعِطْرِ
طبيبٌ بأدْواءِ النساء كأنَّه خليفة جانٍ لا يبيت على وِتْرِ

فقلن لها : أنت تحبّين رجلا ليس من قومِك . ثم قالت الثانية ، وهى الوُسطى :

---

(١) البيتان : الثانى والثالث فى الكامل ٣ : ٩٠ ، ٩١ .

(٢) الحباء فى الأصل : العطاء ؛ أراد به المهر ؛ يقول : لأنهم لم يكونوا أرباب نعم فيمهروها الإبل ؛ وجعلهم دباغين للأدم وهو الجلد .

(٣) أبان : جبل ، وهما أبانان ؛ أبان الأسود وأبان الأبيض ؛ ذكر ذلك المبرد ؛ واستشهد بالبيت . ورمل : لطخ ، وما زائدة .

أَلاَ هَلْ أَرَاهَا مَرّةً وضجيعُها أشمُّ كنَصْلِ السَّيْف غَيْرُ مُهَنَّدِ (١)

لَصوقٌ بأكبادِ النساء وَرهطُه إذا ما انتمى من أهل بيتي ومحتدِي

فقالت الثالثة :

ألا ليتَهُ يَملأ الجفانَ بديهةً (٢) له جَفْنَةٌ يَشْقَى بها النِّيب والُجزْر (٣)

لهُ حَكَماتُ الدَّهرِ من غير كَبْرَةٍ (٤) تَشِينُ فلاَ الفانى ولا الضَّرَعُ الغُمرْ (٥)

فقلْن لها : أنت تحبين رجلاً شريفاً .

قال : وقلن للرابعة ، وهى الصغرى : تمنَّىْ ، فقالت : «زوْج من عودٍ، خير من قعود » .

فلما سمع أبوهنّ ذلك زوّجهنّ ، فمكثن برهة ثم اجتمعن عنده .

فقالت الكبرى : يا أبتِ ، سَلْ عنّا ، قال : يا بنيّة ، ما مالُكم ؟ قالت : الإبل ، قال : كيف تجدونَها ؟ قالت : خير مالٍ ، نأكل لُحمانَها مُزَعاً (٦) ، ونشرب ألبانها جُرَعاً ، وتحملنا وضعيفنا معا ، قال : فكيف تجدين زوجك ؟ قالت : خير زوجٍ ، يكرم الحليلة ، ويعطى الوسيلة (٧) . قال : مالٌ عَميم ، وزوْج كريم .

ثم قال للثانية : ما مالكم ؟ قالت : البَقَر ، قال : كيف تجدونَها ؟ قالت : خير مالٍ ، تألف الفناء ، وتملأ الإناء ، وتودِّك (٨) السّقاء ، ونساء مع نساء .

---

(١) كذا فى الميدانى ؛ وفى الأغانى : « غير مبلد » .

(٢) كذا فى الأصول والكامل ، وفى الأغانى : « يملا الجفان لضيفه » .

(٣) النيب : جمع ناب ؛ وهو الناقة المسنة . والجزر ، بضم الزاى — وسكن للضرورة : جمع جزور ؛ وهو الناقة المجزورة .

(٤) كذا فى الأصول والكامل ؛ والحكمات : جمع حكمة ؛ وأصلها الحديدة فى اللجام تمنع الفرس من مخالفة راكبه ؛ والمراد بها هاهنا التجارب التى يكسبها المرء فى حياته .

(٥) الضرع : الضعيف . والغمر : من لم يجرب الأمور .

(٦) المزع : جمع مزعة ؛ وهى القطعة من اللحم .

(٧) الوسيلة : ما يتقرب به إلى الغير ؛ وفى الكامل : « ويقرب الوسيلة » .

(٨) تودك السقاء : تجعل فيه الودك ،وهو الدسم.

قال : فكيف تجدين زوجَك ؟ قالت : خير زوجٍ يكرم أهلَه ، وينسى فضلَه . قال : حظيتِ ورضيت .

ثم قال للثالثة : ما مالكم ؟ قالت : المعز ، قال : فكيف تجدونها ؟ قالت : لا بأسَ بها ، نولدها فُطُما[١] ، ونسالخها أدَما[٢] ، لم نَبْغِ بها نَعماً ، فقال: جذوٌ مُغْنية[٣] . قال : فكيف تجدين زوجَك ؟ قالت : لا سَمْجٌ بَذِر ، ولا بخيل حَكِر[٤] .

ثم قال للرابعة : يا بنيَّة ، ما مالكم ؟ قالت : الضّأْن ، قال : فكيف تجدونَها ؟ قالت : شرّ مال ، جُوفٌ لا يشبعنَ ، وهِيمٌ لا ينقَعْنَ[٥] ، وصُمٌّ لا يسمَعْن[٦] ، وأمرَ مغويتهنّ يَتْبعْن[٧] ؛ قال: فكيف تجدين زوجك ؟ قالت : شرّ زوج ، يكرم نفسَه ، ويهين عُرْسَه ، قال : « أشبه امرؤٌ بعض بزّه » .[٨]

و بعض الرواة يعْزِى هذه الحكاية إلى ذى الإصبع العدوانىّ و بناته[٩] .

* * *

(١) فطم : جمع فطيم ؛ وهو ما يفصل عن الرضاع .
(٢) الأدم : اسم لجمع الأديم ؛ وهو الجلد ، أو الأحمر منه ، أو مدبوغه .
(٣) كذا فى الكامل، الجذو : جمع جذوة ؛ وهى القطعة ؛ وأصل ذلك فى الخشب، ما كان منه فيه نار ، وفى الأغانى : « جذوى مغنية » .
(٤) الحكر : المستبد بالشىء .
(٥) الجوف : عظام الأجواف . والهيم : العطاش ؛ واحده أهيم وهيماء . ولا ينقعن : لا يروين .
(٦) قولها : « وصم لا يسمعن » ؛ قال المبرد : « يقال لكل صحيح البصر ولا يعمل بصره : أعمى ، ويقال للسميع الذى لا يقبل : أصم » ؛ فالكلام على التشبيه ،وتقول العرب : « أبلد ما يرعى الضأن » .
(٧) قولها : وأمر مغويتهن يتبعن » ؛ قال المبرد: قال على بن عبد الله: قلت لابن عائشة: ما قولها : « وأمر مغويتهن يتبعن »؟ قال : أما تراهن يمرون فتسقط الواحدة منهن فى ماء أو وحل وما أشبه ذلك فيتبعنها إليه » !
(٨) مثل يضرب للمتشابهين أخلاقا .
(٩) القصة فى الأغانى ٣ : ٩٤ ـ ٦ ، (طبع دار الكتب) والكامل ٢ : ١٤٩ .

١٢٩ — وَلَعَمْرِى لَوْ بَلَغْتَ هَذَا الْمَبْلَغَ ، لَأَرْتَفَعْتَ عَنْ هَذِهِ الْحَطَّةَ ، وَلاَ رَضِيتَ بِهٰذِهِ الْخُطَّةِ .

الحطّ : إنزالُ الشيء من العلوّ ، والحطّة : الحدْرَة من الأرض ، وهو المكان المنخفض . والخُطّة : الأمر والمقصد ، قال تأبّط شرًّا :

هُما خُطّتا إمّا إسارٌ ومِنّةٌ وإمَّا دَمٌ والقتلُ بالحرّ أجدرُ[1]

أراد « خُطّتان » فحذف النّون استخفافاً ، والمعنى أنه لو عَضَلَنى همّام ، وفقدتُ الأراقم ، وكنت كابنة الُخسّ لما رضيتُ لنفسى بك ، ولرفعت قدْرِى عنك ، ولستُ أعبأ بكلامِك ، ولا أستمع لخطابك .

* * *

١٣٠ — فَالنَّارُ وَلاَ الْعارُ ، وَالمنِيّةُ وَلاَ الدَّنِيَّةُ ، وَالْحُرَّةُ تَجُوع وَلاَ تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا .

هذه أمثال تُضرب لمن يختار التّلَف على قُبْح الأحدوثة ، وجاء قولهم : « النارَ ولا العارَ » ، و « المنيةَ ولا الدنيّةَ » بالنصب ـ أى أختار النّارَ والمنيةَ ، وبالرّفع أى النارُ والمنيّةُ أحبُّ إلىّ .

وقال العسكرىّ فى قولهم : « الُحرّة تجُوع ولا تأكل بثديَيْها » ، يعنون : لا تكون الحرّة ظِئرَ القوم على جُعْل تأخذه منهم ، فيلحقها عيب ، وكان أهل بيت زرارة حضّان الملوك ، وفى ذلك يقول حاجب :

* حضنّا ابن ماء المزنِ وابنى مُحَرِّقٍ *[2]

فعابه النّاس بذلك ، وقالوا : ما رأينا مَنْ يفتخر بالمعايِب غيره ، وذلك

---

(١) اللسان (خطط) .

(٢) هو حاجب بن زرارة ، وبقيته :

* إلى أن يرى فيهم لحى وشوارب *

أن الظئر خادم ، والخدمة تَضع ولا ترفع .

والمثل للحارث بن سليل الأزدىّ ، أتى علقمة بن خصفة الطائىّ يخطب ابنَته الزَّبّاء ، فقال لأمها : أبينى عَمَنْ فى نفسها ، فقالت لها : يا بنيّة ، أىّ الرجالُ أحبُّ إليك الكهل الجحجاح الميّاح . أم الفتى الوضّاح ؟ قالت : بل الفتى ، قالت : إن الشيخ يميرُك ، والفتى يُغيرك ، قالت : يا أمّاه ، أخشى من الشيخ أن يُبْلِى شبابى ويُشْمتَ أترابى ؛ فلم تزل أمّها بها حتى زوّجتها من الحارث ، فرحل بها إلى قومه ، فبينا هو جالسٌ بفنائه ، وهى إلى جانبه ؛ إذ أقبل شباب من بنى أسد يعتلجُون ، فتنفّست الصُعَداء ، فقال لها مالكِ ؟ قالت : مالى وللشيوخ ، الناهضين كالفروخ ! فقال : ثكلتك أمّك ! تجوع الحرّة ولا تأكل بثديها ! أمّا وأبيك لربّ غارةٍ شهدتها ، وسَبِيَّةٍ أردفتُها ، الحقِى بأهلك ؛ فلا حاجة لى فيك .

قال العسكرىّ : وليس هذا الحديث موافقا للمثل[1] .

قال أبو عبيد : أصله ولا تأكل ثدييها ، أى من الحسرة ، وليس هذا بموافق أيضا ، ولكنّه حكى على ما قيل ، والله تعالى أعلم .

* * *

١٣١ - فَكَيْفَ وَفِى أَبناء قَوْمِى مَنْكَحٌ
وفتيان هِزّانَ الطِّوالِ الْغَرانِقَهْ

يعنى كيف أرضى بهذا ، وفى قومى كثير من أكفائى .

وهِزّان : اسم قبيلة . والغرانقة : الشّباب ، وهذا البيت للأعشى الأكبر .

[الأعشى]

وهو أعشى بنى قَيس بن جَنْدل ، من فحول شعراء الجاهليّة المتقدّمين ،

(١) جمهرة الأمثال ٢ : ١٨٣ (على هامش الميدانى) .

وكان يقال : أشْعَر النــاس امرؤ القيس إذا رَكِب ، وزُهير إذا رغِب ، والنابغة إذارَهِب ، والأعشى إذا طَرِب .

وكان بعضُ الأدباء يقول : الأعشى أشعر الأربعة ، فقيل له : فأين الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ امرَأ القيس بيده لواء الشّعراء ؟ فقال : بهذا الخبر صحّ للأعشى التقدّم ، وذلك أنه ما مِنْ حامِل لواء إلاَّ على رأس أمير ، فامرؤ القيس حامل اللّواء ، والأعشى الأمير .

وكان الأصمعيّ يقول:مامدَح الأعشى أحداً إلّا رفَعه ، ولاهَجَاهُإلا وضَعه؛ فمن ذلك أنه مرّ باليمامة على المحلّق بن جُشم الـكلبيّ ، وكان خاملَ الذ كر ، وله بنات لا يُخْطَبْن رغبةً عنه ، فنزل عنه ؛ فنحر له ناقةً لم يكن عنده غيرُها ، وسقاه خمرا ، فلمَّا أصبح قال له الأعشى : ألك حاجة ؟ قال : تشيد بذ كرى ؛ فلعلّى أشهَر فتُخْطَب بناتى ، فنهض الأعشى إلى عُـكاظ وأنشد قصيدته القافية ، التى يمدح بها المحلّق ويقول فيها :

لَعَمْرِى لَقَدْ لاَحَتْعُيونٌ كَثيرَةٌ ... إلىِ ضَوْءِ نارٍ باليفـاعِ تحرّقُ[1]

تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَليانِهـا ... وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى والمحلّقُ

فما أتَتْ على المحلّق سنة حتى زَوّج البنات على مئين ألوف[2].

ومن ذلك أنه امتدح الأسوَد العَنْسِيّ ، فأعطاه ذهبا وحُلَلاً ، فلمَّا مرّ ببلاد عامر، خافهم على مأمعه ، فأتى عَلْقمة بن عُلاثة ، فقال : أجِرْنى ، فقال:أجرْتُك؛ قال: مِن الإنس والجنّ والموت ؟ قال: نعم، قال: كيف تجيرنى من الموت؟قال: إنْ متَّ فى جوارى بعثتُ إلى أهلك بالدِّية ، قال : الآن علمت أنك أجرتَنِى من الموت[3] ثم مدح عامرا وهجا علقمة ، فـكان علقمة يبكى إذا ذكر قوله :

تَبِيتُون فِى الْمَشتَى مِلاءً بُطونُـكُمْ ... وجَاراتكمْ غَرْثَى يَبِتْن خَمائصا[4]

(١) ديوانه ١٤٥ (٢) الأغانى ٩: ١١٤ .
(٣) من الأغانى. (٤) ديوانه ٢٤٧

ويدعو عليه إن كان كاذبا[١] ويقول : أنحنُ نفعل بجاراتنا هذا ! وما زال منكسر النفس من هذا البيت .

وحكى ابن خلاد ، قال : كان الأعشى كثيرَ التَّطْواف ، فأصبح ليلةً بأبيات علقمة بن عُلاثة ، فلمّا نظر قائده إلى قِباب الأَدَم ، قال : ياسوء صباحاه! هذه والله أبياتُ علقمة ، فلما مَثَل بين يديه قال له : أتدرِى لِمَ أظفرنى الله بك بغير ديةٍ ولا عَقْل ؟ قال لا : قال : لتقوُّلِك علىّ الباطل من غير جرْم . قال الأعشى : لا ، ولكن ليبلوَ الله قَدْر حلمِكَ فىّ ! فأطرق علقمة ، فاندفع الأعشى يقول :

أعَلْقَمُ قَدْ صَيَّرَتْنِى الْأُمُورُ إلَيْكَ ومَا كَانَ لِى مَنْكَصُ[٢]
فهبْ لىَ نفسِى فدتْك النُّفُوسُ ولا زِلْتَ تَنمِى ولا تَنْقُص

فقال : قد فعلتُ ، والله لو قلتَ فىّ ما قلتَ فى ابن عمّى عامر لأغنيتُك ، ولو قلتَ فى عامر ماقلتَ فىّ ما أذاقك بَرْد الحياة .

وحكى الأصمعىّ ، قال : وفد الأعشى على كِسرى فأنشده من شعره ، فسأله عن معنى قوله :

أرِقْتُ وَمَا هَذَا السُّهاد المؤرِّقُ وَمَا بِىَ مِنْ سُقْمٍ ومَا بِىَ مَعْشَقُ

فقيل : إنه سهر وما به عشق ولا مرض ، فقال كسرى : هذا لصّ فأخرجوه .

ورحل الأعشى آخرَ عمره إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم طالباً للإسلام ، وقد مدحه بقصيدته التى يقول فيها :

---

(١) فى الأغانى ٩ : ١٢١ : « فرفع علقمة وقال : لعنه الله إن كان كاذباً » .
(٢) شعراء النصرانية ٣٩٠ .

فآليتُ لا أرثِي لهَا مِنْ كَلاَلَةٍ ‏ وَلاَ مِنْ وَجًى حَتَّى تلاقِي مُحَمَّدَا[١]

مَتَى مَاتُنَاخِي عند باب ابن هاشمٍ ‏ ترَاحِي وَتَلْقَيْ مِنْ فَواضِله نَدَى

نَبِيٌّ يَرَى مَالا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ ‏ أغارَ لَعَمْرِي فى البلاد وأنجدا

فبلغ قريشاً خبره ، فقالوا : هذا صَنَّاجَة العرب ، ما مدحَ أحدا إلا ارتفع ، فرصدُوه على طريقه ، فقالوا له : يا أبابَصِير، أين أردت ؟ قال : صاحبَكم لأُسْلِم . قالوا : إنّه ينهى عن خلال كلّها لك موافق ، قال : وما هى ؟ قالوا : الزّنا . قال : لقد تركنى الزنا وماتركتُه . قالوا : والقِمار ، قال :لعلىّ أصيب منه عِوَضاً . قالوا : والخمر ، قال : أوّه ! أرجِعُ إلى صُبابة لى فى المهراس[٢] ، فأشربُها ثم أرجع . فعاد إلى رَحْلِهِ ، فلبث أياماً ، ثم رَمَى به بعيره فقتله[٣] .

وزعم بعضُ الرّواة أنّ الذى أمره بالرجوع أبو جهل ؛ وهو غلط ، فإنّ الخمر لم تحرَّم إلّا بالمدينة بعد أن مضت بَدْر ، والصحيح أن القائل عامر بن الطفيل ، وأما قوله :

٭ أغَارَ لَعَمْرِى فى البلاد وأنجدا ٭

فقال المعرّى : حكى الفرّاء وحده، «أغار» فى معنى «غار»، إذا أتى الغَوْر ، وإذا صَحّ هذا البيت عن الأعشى ؛ فلم يُرِدْ بالإغارة إلا ضدّ الإنجاد .

وروى الأصمعى روايتين : إحداهما أن« أغار » فى معنى عَدَا عَدْوًا شديدا ، والأخرى أنه كان يقدّم و يؤخّر ، فيقول : لعمرى أغار فى البلاد وأنجد ، فيأتى به على زِحاف القبض .

وكان ابن مسعدة يقول : « غَار لعمرى » فيأتى به على استعمال الخَرْم فى النصف الثانى .

---

(١) ديوانه ١٠٢ ، ١٠٣

(٢) المهراس : حجر منقور يسع كثيرا من الماء .

(٣) الأغانى ٣ : ١٢٥ ، ١٢٦ .

ويروى أن الأعشى كان يؤمن بالبعث والحساب ، ولذلك كان يقول :

فما أيبُلِيٌّ عَلَى هَيْكلٍ   بَنَاهُ وصَلَّب فيه وصارا[1]
بأعظمَ منك تُقًى فى الحسابِ   إذا النَّسَمات نَفَضْنَ الغُبارا

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : كان لَبيد قدريًّا ، وكان الأعشى عَدْليًّا ، وأنشد للبيد :

منْ هَدَاه سُبُلَ الخير اهتدَى   ناعمَ البالِ وَمنْ شاء أضلّْ[2]

وأنشد للأعشى :

اِسْتَأْثَرَ اللهُ بالوفاء وبالـ   ـعدْلِ وَوَلَّى الملامةَ الرَّجُلاَ[3]

ومن محاسن شعره قوله فى القصيدة النبويّة :

إذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِن التُّقَى   وَلاَقَيْتَ بَعْدَ الموت مَنْ قدتزوَّدَا[4]
ندِمتَ على ألاَّ تكونَ كمثلِه   فترُصِدَ للأمرِ الّذى كان أرصَدَا

وقوله يمدح إياس بن قَبيصة :

وَ لَوْ أنّ عِزَّ النَّاسِ فى رأس صخرةٍ   مُلَمْلَمَةٍ تُعْيِى الأَرَحَّ المخدَّما[5]
لأعطاه ربُّ الناس مفتاحَ بابِها   وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَابٌ لَاعْطَاهُ سُلّمَا

وقوله من قصيدة يمدح بها الأسود بن المنذر :

ربَّ خَرْقٍ مِنْ دُونِها يُخْرِسُ السَّفْـ   ـرَ وميلٍ يُفْضِى إلى أمْيَالِ[6]
وقَلِيبٍ أَجْنٍ كأنّ من الرِّيـ   ـشِ بأرجائه سُقُوطَ نِصالِ
لاتشكّىْ إلىّ وانتجعى الأسـ   ـود أهلَ الندى وأهلَ الفعَالِ

---

(١) ديوانه ٤١ . الأيبلى : صاحب أيبل ، وهى عصا الناقوس . صلب : صور فيه الصليب . صار : سكن .

(٢) ديوانه ١٧٤ .   (٣) ديوانه ١٥٥ .   (٤) ديوانه ١٠٣ .

(٥) ديوانه ٢٠٣ . ململة : مجتمعة . والأرح المخدم : الوعل الأعصم ، والعصمة: بياض فى يديه .

(٦) ديوانه ٤

أرْيَحِيٌّ صَلْتٌ يَظَلُّ له القوْ م رُكُوداً قيامَهم للهِــلالِ

فَرْعُ نَبْـعٍ يهتزُّ فى غُصُنِ المجْـ دِ غزيرُ اللُّها عظيمُ المِحـالِ

عندكَ الحزْم والتقى وأسا الصَّدْ عِ وحَمْـلٌ لمغرمِ الأثْقالِ

وَهَوانُ النَّفْسِ العزيزة للذكْـــرِ إذا ما التقَتْ صُدورُ العَوالي

فإذا مَنْ عصاكَ أصبح مَحْرُو مًا وجَدُّ الذى يُطِيعُكَ عالِ

وقوله يمدح المحلّق :

إذا حاجَةٌ وَلَّتْكَ لاَ تَسْتطيعها فَخُذْ طَرفا من غيرِها حين تَسْبِقُ[1]

فذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تنالَ جَسِيمَها وللْقَصْدُ أبقَى فى الأمورِ وأرْفَقُ

أبا مالكٍ سار الّذى قد صَنَعْتُمُ وأنجد أقوامٌ بذاكَ وأعرقُوا

وإنَّ عِتاقَ الْعِيسِ سَوْفَ يَزُورُكُمْ ثَناءٌ عَلَى أَعْجازِهِنَّ مُعَلَّقُ

يعنى أنّ الحُداة تحدُو الإبل بثناء الممدوحين ، فكأنّه معلّقٌ على أعجازها .

ومنها أيضا :

وَكَمْ دُونَ ليلَى من عدوٍّ وبلدةٍ وَسَهْبٍ بهِ مستوضِحُ الآلِ يَبْرُقُ[3]

وإنّ امرأً أسْرَى إليكِ ودُونَهُ سُهُوبٌ ومَوْماةٌ وبَيْداءُ سَمْلَقُ[4]

لمحْقُوقة أن تستجيبي لصَوته وأنْ تعلمِي أنّ المُعانَ مُوَفَّقُ

يعنى أن الموفّقَ مُعانٌ ، وهذا من القَلْب المستعمل فى كلام العرب ، مثل قول الآخر : « أو بلغت سوآتِهم هَجَرُ »[5] .

---

(١) ديوانه ١٤٨ ــ ١٥٠

(٢) ديوانه : « أبا مسمع » . (٣) ١٤٩

(٣) السهب : مابعد من الأرض واستوى، وجمعه سهوب . (٤) السملق : القاع المستوى الأجرد الذى لا نبات فيه .

(٥) قطعة من بيت للأخطل ، وهو بتمامه :

مِثْلُ القَنافِذِ هَدَّاجُونَ قَدْ بلغتْ نجران أو بُلّغَت سوآتِهمْ هجرُ

ديوانه ١١٠

وعلى ذلك فسّر بعض العلماء قوله تعـالى : ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ[1] ﴾ ، أى خُلِق العَجَلُ من الإنسان .

ومنها :

لعمرِى لَقَدْ لاَحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ ... إلى ضوءِ نارٍ باليَفَاعِ تَحرَّقُ[2]

تُشَــبُّ لمقرورَيْن يَصْطَلِيانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى والمُحَلَّقُ[3]

رَضيعىْ لبانٍ ثَدى أمٍّ تَحالَفَا ... بأَسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لاَ نَتفرَّقُ

يعنى أن المحلّق و النَّدى حليفان لاَ يتفرّقان ، كأنهما تحالفا على ذلك عند النار [ولذا كانت عادة للعرب أن تَحلِف عند النار][4] .

وفى قوله : « أسحم داج » سبعة أقوال : قيل : هو الرماد ، كانوا يحلفون به . وقيل : اللّيل ، وقيل : الدّم ، فإنّهم كانوا يغمسون أيْديَهم فيه ويحلفون ، وقيل حلَمَة الثدى ، [ويقال بزق الخمر][5] ، وقيل : دماء الذبائح للأصنام ، وقيل الرَّحِم .

وقوله : « رضيعى لبان ثدى أمٍّ » واحدةٍ ، مبالغة فى الوصف بالكرم .

وعَوْضُ : اسم صنَم لبكْر بن وائل ، وقيل : من أسماء الدهر ، وأصلُه أنْ يكون ظَرْفا ، تقول : لا أفعله عَوْض العائضين ، وَدَهْر الدَّاهرين ، ثم كبّرُوه حتى أحلُّوه محـلَّ ما يقسَم به ، ومن جعل « عَوْض » اسم صنم كأنه قال : عوض قسَمنا الذى نقسم به .

ومنها :

ترى الجودَ يجرِى ظاهراً فوق وجْهِهِ ... كما زَانَ ضَوْءَ الهندُوانىّ رَوْنَقُ[6]

---

(١) سورة الأنبياء ٣٧ (٢) اليفاع : المرتفع من الأرض والجبل .

(٣) تشب ، من شب النار : أوقدها . والمقرور : الذى أصابه القر ؛ وهو البرد . والاصطلاء : الاستدفاء ، والندى : الكرم .

(٤) تكملة من ت . (٥) زيادة من اللسان (٦) فى ت « متن الهندوانى » .

نَفَى الذَّمَّ عن آلِ المحلّقِ جَفْنَةٌ ... كجابيَــةِ الشَّيْخِ العراقيّ تَفْهَقُ

يروى: « كجابية الشيْخ العراقيّ » ، يعنى أنّ العِراقىّ الذى يتعوّد الحضَر ويسلُك البادية[1] يكون حريصا على مائه ؛ لأنه لا يعرف مواقع المياه فتكون جابيته التى هى من أوانى الماء ملآنة أبداً.

ويروى « السَّيْح » بالسين والحاء المهملتين ؛ يعنى الماء السائح من العراق.

ومنها :

كَذلِكَ فافْعَلْ ما حَيِيت إذا شَتَوْا ... وأَقْدِمْ إذا ما أعينُ النَّاسِ تَبْرُقُ

وأمّا الشعر الذى ذكر بسببه ، فيحكى أنه تزّوج امرأة من عَنَزة ، فلم يرَ َها فطلّقها ، وقال بديهة :

أيا جارتى بِينِى فإنَّكِ طالِقَهْ ... كذاكِ أمورُ الناس غادٍ وطارِقَهْ[2]

وبِينِى حصانَ الفَرجِ غير ذميمةٍ ... وموموقة فِينا كذاكِ ووامِقَهْ

وبِينِى فإنّ البَيْن خيْرٌ من العصا ... وإلاّ تزالُ فوق رأسك بَارِقَهْ

وذُوقِي فَتَى قومٍ فإنِّىَ ذائقٌ ... فتاةَ أناسٍ مثل ما أنتِ ذائقَهْ

وكيفَ وفِى أبناء قومِكِ مَنْكَحٌ ... وفتيانِ هِزّانَ الّطوال الغَرانِقَهْ[3]

وبهذه الأبيات استدلّ قومٌ على أنّ الطلاق فى الجاهليّة كان ثلاثاً ؛ لأنه كرر قول : « بِينى » فى ثلاثة أبيات .

وتمثّل ابن زيدون فى هذه الرسالة بالبيت الأخير ، واستعمل فيه نوع الاهتدام[4] ، وهو تغيير « قومك » ، فجعلها « قومى » .

* * *

(١) د : « البرية » .
(٢) ديوانه ١٨٣ .
(٣) الغرنوق : الشاب الأبيض .
(٤) الاهتدام : جعله ابن رشيق من السرقات الشعرية . وانظر العمدة ٢ : ٢٧١ -

١٣٢ – ما كنتُ لأتخطّى المِسْكَ إلَى الرَّمَادِ ، وَلَا أَمْتَطِى الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوادِ .

يعنى ما كنتُ لأدَعَ الفتيان من قومى لأرغبَ إليكَ ، وأنت بالنسبة اليهم كالرّماد إلى المِسك ؛ ولعلّه أشار بذلك إلى رسالة لأبى عثمان الجاحظ فى ذِكْر الرّماد والمسك .

وأما قوله : « أمتطى الثور بعد الجواد » ، فهو قول المتنبّى فى قصيدة من قصائده يقول فيها :

وَمَا لاَقَنِي بَلَدٌ بَعْدَكُمْ   وَمَا اعْتَضْتُ مِنْ رَبِّ نُعْمَايَ رَبْ[1]

وَمَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعْدَ الجْوَادِ   أَنْكَرَ أَظْلاَفَهُ وَالْغَبَبْ[2]

* *

١٣٣ – فإِنَّمَا يَتَيَمَّمُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاء ، وَيَرْعَى الْهَشِيمَ مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ مَنْ لاَذَلُولَ لَهُ .

الهشيم من النّبات : اليابس المتكسّر .

والجميم : النبت المقتبل الذى طال ولم يبلغ النّهاية .

والصّعب : مالا يطيع ، والذّلُول : ضدّه .

ومثّلتْ بهذا القولِ عدمَ حاجتها إليه ، واستغنائها عنه بمَنْ هو خيرٌ منه .

* * *

---

(١) ديوانه ١ : ٩٨ .

(٢) الغبب والغبغب للديك والبقر : ما تدلى تحت حنكهما .

١٣٤ – وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبْوَتِي إِلَيْهِ ، وَشَهِدْتَ مُسَاعَفَتِي لَهُ ، مِنْ أَقْمَارِ العَصْرِ ، وَرَيَاحِينِ المِصْرِ ؛ الَّذِينَ هُمُ الْكَوَاكِبُ عُلُوَّ هِمَمٍ ، وَالرِّيَاضُ طِيبَ شِيَمٍ .

العصر : الدّهر . والمِصْر : كلُّ بلدٍ ممصور ، أى محدُود .

والمراد بالأقمار هنا والرّيحان وصف قوم بحسن الوجوه والأخلاق ، ومرادها بهذهِ الصِّفات التّعريض بذكر ابن زيدون وأمثاله ممن تصحبهم ، ونكاية المكتوب إليه بمدحهم وذمّه بهذه الألفاظ ، والتّهكُّم عليه .

* * *

١٣٥ – مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاَقَيْتُ سَيِّدَهُمْ
مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

يعنى هؤلاء الموصوفين .

[العرندس]

وهذا البيت من جملة أبيات منسوبة لرجل من العرب ، يسمّى العَرَنْدَس .

ويقال : إنّه أحدُ بنى بكر بن كلاب ، يمدح بها بنى بَدْر الغنويّين ، وكان أبوعبيدة إذا أنشدوها له يقول: هذا والله مُحال ، كلابىّ يمدح غَنَوِيًّا ! يعنى عداوة الحيّين ، وهى هذه [الأبيات][1] :

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيْسَارٌ ذَوُو كَرَمٍ ... سُوّاسُ مَكْرُمَةٍ أَبْنَاءُ أَيْسَارِ[2]
إنْ يُسألُوا الخيرَ أَعْطَوْه وإن خُبِرُوا ... فى الجُهْدِ أُدرِكَ منهم طِيبُ أخبارِ

---

(١) تكملة من ت   (٢) ديوان الحماسة – بشرح التبريزى ٤ : ١٤٦ .

وإن تَوَدَّدْتَهُمْ لانُوا وإن شُهِمُوا(١) كَشَفْتَ أَذْمَارَ شَرٍّ أىّ إذْمَارِ(٢)

فِيهِمْ ومنهم يعدُّ المجـــدُ مُتَّلِدًا ولا يُعَدُّ ثَنَا خِزْىٍ وَلاَ عَارِ(٣)

لا ينطقُونَ عن الفحشاء إن نَطَقُوا ولا يُمَارُون إن مَارَوْا بإكْثَارِ

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاَقَيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتى يَسْرِى بها السَّارِى

* * *

١٣٦ – فحنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْها . ما أَنْتَ وَهُمْ ! وَأَنَّى تقَعُ مِنْهُمْ !

قوله : « حنّ قدح » مَثَل يضرب لمن يتشبّه بقومٍ ليس منهم ، ويتمدَّح بما ليس فيه ، ويقال : «حَنَّ قِدْحًا» على التميز ، و«قِدْحٌ» ، على أنه الفاعل ، والقِدْح : أحدُ قِداح الميسِر ، وهى السّهام التى توضع فى خريطة ويُقترَعُ بها ، فإذا كان أحد القِداح من غير جوهر إخوته ثم أجاله المفيضُ خرج له صوتٌ يخالف أصواتَها ، فعرف به أنه ليس من جملة القِداح(٤) .

وتمثّل به عمر رضى الله عنه حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل أبى عمرو بن أميّة يوم بدر ، فقال أبوعمرو : أُقتلُ من بين قريش صبراً ! فقال عمر رضى الله عنه : حَنّ قِدْحٌ ليس منها ؛ يعنى أنّك لستَ من قريش .

ويروى أن أبا عمرو كان عبدا ، وكان أميّة قدعمِىَ ، وكان يقوده ، فتبنّاه .

قلت : كذا روى .

* * *

---

(١) شهموا ، من الشهامة . وهى الخشونة .

(٢) فى الحماسة : « غير أشرار » .

(٣) متلد ، مفتعل ؛ من التليد . وثنا خزى ، أى ثنا سوء يذل صاحبه .

(٤) الميدانى ١ : ١٢٩ .

١٣٧ – وَهَلَ أَنْتَ إِلاَّ واوُ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَكَالْوَشِيظَةِ فِي الْعَظْمِ بينَهُمْ !

يعنى أنك مستلحَق بهم ، ولست منهم كواو عمرو الملحقة بلفظه ، وليست منه ، وأوّل من أفاد هذا المعنى أبو نواس [بقوله][1] فى أشجع السُّلَمِيّ :

أَيُّها المدَّعِى سُلَيْمَى سَفَاهًا   لَسْتَ مِنْهَا ولاَ قُلاَمَةَ ظُفْرِ[2]
إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ سُلَيْمَى كَوَاوٍ   أُلحقتْ فى الهِجاء ظُلْمًا بعمرو

ورأى انسان فى النوم كأنه يكتب على ظفره واوا ، فقصّ رؤياه على مُعَبِّر ، فقال : رائى هذا المنام دَعِيٌّ فى نسبه ، وأنشد هذا الشعر من قول أبى نواس .

وكالوشيظة، وهى قطعة عَظْمٍ تكون زائدة فى العظم الصّميم ، ومنه يقال : فلان وشيظةٌ فى قومه ، أى هوَ حَشْو فيهم . وتمثّل به الحسن بن علىّ صوات الله عليهما ، فقال لعمرو بن العاص وقد تلقاه بكلام كَرِهه : أليس من وَهَن الدين ، وإماتة السُّنَّةِ، أن يكون معاوية رئيسا ، وهو الطليق ابنالطَّلِيق، ويكون مثلك لى خصما ، وأنت شانئُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وغلْتَ فى قريش ؛ وإنما أنت منها كالوشيظةِ فى العَظْم !

* * *

١٣٨ – وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا بَلَغْتَ قَعْرَ تَابُوتِك، وَتَجَافَيْتَ عَنْ بَعْضِ قُوتِك ؛ وَعَطَّرْتَ أَرْدَانَكَ ، وجَرَرْتَ هِمْيَانَكَ ؛ واخْتَلْتَ فِي مِشْيَتِكَ ، وَحَذَفْتَ فُضُولَ لِحْيَتِكَ .

يعنى لازمتَ منزلك ، وأظهرت الغِنى والقرى بما تستفضله من قوتك ،

---

(١) من د .
(٢) ديوانه ١٧٩

وعطّرْت أكمام ثيابِك ، وجَرَرْتَ هِميانَك أو سِرْوالك ، وما أشبه ذلك ، قال الشاعر :

يَشُدُّ هِمْيانَهُ عَلَى هِـــدَمٍ   وذاك من حُمقِه ومن تيهِهْ

والهِميان غيرُ عربيّ ، واختَلْتَ[في المَشْيِ][1] أى أظهرت الخُيَلاَء والكبر ، وقَصَصْتَ ما استطال من لحيتك معتمداً على الوَضَاءة والنظافة .

* * *

١٣٩ — وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ ، وَمَطَطْتَ حاجِبَكَ ، وَرقَّقْتَ خَطَّ عِذَارِكَ ، واسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إزارِكَ ، رَجاءَ الاكْتِنَانِ فيهِمْ ، وطَمَعاً فِي الاعتِدَادِ مِنْهُمْ ، فَظَنَنْتَ عَجْزاً .

المطّ : المدّ ، كأنه إذا تخايل مدّها . والإزار : الطيلسان وما أشبهه ؛ والمعنى أنك إن كنت تصنع هذه الأشياء لِتُعَدّ من هؤلاء القوم ، وتكتنّ بهم — والاكتنان : ستر الشىء بثوب أو غيره — فقد خِبْتَ وظننت ظنّا عاجزاً ؛ وهذا اللفظ منظوم فى قول الخنساء حيث تقول :

وَمَنْ ظَنَّ مِمَّنْ يُلاقِي الحروبَ   بألاَّ يُصاب فقَدْ ظنّ عَجْزَا[2]

* * *

[الخنساء]

واسم الخنساء تُماضر بنت عمرو بن الشّريد السُّلَمىّ ، كانت من شواعر العرب المعترَف لهنّ بالتقدّم ، حكى الأصمعىّ قال : كان النابغة الجعدىّ يجلس

---

(١) تكملة من د   (٢) ديوانها ١٤٧ .

فى الموسم بعكاظ وتتحاكم إليه الشعراء ، فدخلت الخنساء فأنشدته من قولها فى أخيها :

وإنَّ صَخْرًا لتأتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ كأنَّهُ عَلَمٌ فى رأسِهِ نارُ[1]

فقال : أنتِ أشعر من كلّ ذات ثَدْيين ، فقالت : ومِنْ كل ذى خُصيتَين.

وقال : بشار : لم تقل امرأة شعراً قطّ إلاَ تبيَّن الضعفُ فيه ؛ فقيل له : أو كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك كان لها أربع خُصًى . وأكثر شعرها فى مراثى أخويها : معاوية ، وصخر . وأدركت الخنساء الإسلام وأسلمت .

حُكِى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه نظر إليها وفى وجهها نُدوب فقال : ما هذا يا خَنْساء ؟ فقالت : مِنْ طولِ البكاء على أخوىّ ؛ قال لها : أخواك فى النار ، قالت : ذاك أطوَلُ لحزنى ، إنّى كنت أبكى لهما من الثار ، وأنا اليوم أبكى لهما من النّار .

ورأت عائشةُ رضى الله عنها على جسد الخنساء صِدارا من شَعَر ـ وهو ثوب صغير ـ فقالت : يا خَنْساء ، أتلبسين الصِّدار وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ! قالت : لمْ أعلم بنهيه ، وله سبب ، فقالت : وما هو ؟ قالت : زوّجنى أبى رجلاً متْلافا لمالِه ؛ فأسرع فيه حتى نَفِد ، [ثم فى مالِى حتى نفد][2] فقال لى : إلى أين يا خَنساء ؟[3] فقلت : إلى أخِى صخر ، فلقيناه ، فقسَم ماله بيننا شطرين ، ثم خيّرنا، فقالت زوجته : أما كفاك أن تقسِم مالك حتى تخيّرهم ! فقال :

وَاللهِ لاَ أَمنحُهَا شِرَارَهَا وهى حَصانٌ قد كفتْنى عارَها
وَلَوْ أَمُوتُ مَزَّقَتْ خِمَارَهَا وَجَعَلَتْ من شَعَرٍ صِدارَهَا

فجعلتُ هذا الصِّدار تصديقا لظنّه ، فلا أنزعه حتى أموت .

---

(١) ديوانها ٧٩ ، وروايته هناك .

أَغَرُّ أبلجُ تأتمُّ الهُدَاةُ بِهِ كأنه عَلَمٌ فى رأسِهِ نارُ

(٢) من ت . (٣) ط : « إلى أين تذهبين » ، وأثبت ما فى ت ، م .

وحدّث علقمة بن جرير ، قال: استؤذِن لجماعة على معاوية ، وكنتُ فيهم ، فلما دخلْنا عليه أجلَسَنا وأكلْنا ، ثم قال : يا علقمة ، هل عندك ظريفةٌ تُحدّثنا بها ؟ قلت : نعم ، أقبلتُ قبل مُخَرجِي إليك أسوق شارفا [١] لي أريد نحرَها عند الحيّ ، فأدركني الّليل بين أبيات بني الشريد ، فإذا عَمْرة ابنة مرداس عَرُوساً ، وأمّها الخنساء بنت عمرو ، فقلت لهم : انحروا هذه الجزور ، واستعينُوا بها ، وجلستُ معهم ، فلما هيِّئت أذِن لنا ، فدخلنا ، فإذا هي جارية وضيئة ـ يعنى عَمْرة ـ وإذا أمُّها الخنساء جالسة ملتفّة بكساء أحمر ، وقد هَرِمت ، وإذَا هي تلحظ الجارية لحظاً شديداً ، فقال القوم : بالله ياعمرة إلاّ تحرشْتِ بها فإنّها الآن تعرف بعض ما أنت فيه ، فقامت الجارية تريد شيئا ، فوطئت على قدمها وطأةً أوجعتها ، فقالت وهي مغيظةٌ : حَسّ ! إليك ياحمقاء ! والله لـكأنما تطئين أمَةً وَرْهاء ؛ أنا والله كنت أكرم منك عرساً ، وأطيب وَرْساً ، وذلك زمانَ إذْ كنتُ فتاةً أُعجب الفِتيان ، لا أذِيب الشحم ، ولا أرعى البَهْم ، كالمُهرة الصَّنيع ، لا مُضاعة ولا عند مضِيع . فعجب القوم من غيظها من ابنتها ، وضحِك معاوية حتى استلقى .

وماتت الخنساء في زمنه بالبادية .

ومَنْ محاسن شعرها قولها في رثاء أخيها :

فاذْهَبْ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ مِنْ رَجُلٍ ... درَّاكِ ضَيمٍ وَطَـلاَّبٍ بأوْتَارِ [٢]

قَدْ كُنْتَ تَحْمِلُ قلباغيرمؤتشِبٍ [٣] ... مُرَكَّبا في نِصَابٍ غيرِ خَوّارِ

فسوف أبكيكَ ما ناحَتْ مُطَوَّقَةٌ ... وما أضاءتْ نجومُ الليلِ للسَّارِي

شُدُّوا المآزِرَ حتى يُسْتقادَ لَـكُمْ [٤] ... وشَمِّرُوا إنّهـــا أيَّامُ تَشْمَارِ

---

(١) الشارف : الناقة المسنة . (٢) ديوانها ١١٠ .

(٣) مؤتشب : دنى ، وفى الديوان : « غير مهتضم » .

(٤) الديوان : « حتى يستذف لـكم » ؛ أي يتهيأ .

وابكُوا فتًى الحيِّ لاقتْهُ مَنِيَّتُه وكلّ حَيٍّ إلى وقتٍ ومقْدار

وقولها من قصيدة :

فَأَقْسَمْتُ آسَى عَلَى هَالِكٍ وَأَسْأَلُ نَائِحَةً مَا لَهَا [1]

أَبَعْدَ ابنِ عمرٍو مِنْ آلِ الشَّرِيدِ حَلتْ بِهِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا !

قولها : « حلّت به الأرض أثقالها » ، يحتمل وجهين : أحدُهما أن السيّد الشجاع ثقيل على الأرض لسؤدُده وسطوته ، فإذا مات انحلّ بموته ثقله عنها . والثّانى أنّ الأرض حلّت به أمواتها ، من الحِلية ، وسمّت الموتى «ثقلا» للأرض تشبيها بالحَمل ، والحْملُ يسمى ثِقْلا ، وفى قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[2] . قال بعض المفسرين : أى موتاها ؛ وقال بعضهم : كنوزها .

وقولها :

لَعَمْرُ أبيكَ لنعمَ الفتى تَحُشّ به الحَرْب أجذالها[3]

وخَيْلٍ تكدَّسُ مشى الوعُو لِ نازَلْتَ بالسيف أَبْطَالَها

لدَى مأزِقٍ بينها ضيّق تجرّ المنيّة أذْيَالَهَا

تُهينُ النُّفوسَ وهَوْنُ النفو سِ يَوْمَ الكريهة أبقَى لَهَا

وَمُحْصَنةٍ من بنات الملو كِ قَعْقَعْتَ بالليل خَلْخَالَهَا

وقافيةٍ مثلِ حدّ السِّنا نِ تَبْقَى ويَهلِكُ مَنْ قالَهَا

نطقْتَ ابن عمرو فأوضحتَها ولم يَنطِق النّاسُ أمثالَهَا

فإن تكُ مُرّةُ أوْدَتْ به فقد كان يُكثِر تَقْتالَهَا

---

(١) ديوانها ٢٠١ ، مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات

(٢) سورة الزلزلة ٢

(٣) تحش : توقد . والأجذال : أصول الشجر ، أى توقد الحرب حطبها به .

وقوله أيضاً :

وإنَّ صَخْراً لَمَولانَا وسَـيِّدُنا ... وإنَّ صَخْرًا إذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ[١]

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهُـداةُ به ... كأنَّه عَلَمٌ فى رأسِـه نار

مثـل الرُّدَيْنِيِّ لم تَدْنسْ شبيبتُه ... كأنَّه تحت طيِّ البُرْد إسْوَار[٢]

وقوله أيضاً :

فمَا بَلغَتْ كَفُّ امرئ مُتَنَاوِلٍ ... من المجد إلاَّ والَّذِى نلتَ أطوَلُ[٣]

وما بلغ المُهدون للنَّاس مِدْحَةً ... وإن أطنَبوا إلاَّ الَّذى فيك أفْضَلُ

أخو الجود معروفا له الفضل والنَّدى ... حليفانِ ما دامت تِعار ويَذْبلُ[٤]

وقولها تمدح أخاها وأباها :

جَارَى أباه فأقبَـلاَ وَهُمَا ... يتعـاوران مُلاءة الحُضْرِ[٥]

حَتَّى إذا بدتِ القـلوب وقَدْ ... لزَّتْ هُنـاك العُذْر بالعُذْر

بَرَزتْ صحيفةُ وجـهِ والدِه ... ومَضَى عَلَى غُـلَوَائه يَجْرِى

أوْلى فأوْلى أن يسـاوِيَهُ ... لولا جـلالُ السِّنّ والكِبْرِ

وهُما كأنَّهما وقـد بَرَزَا ... صَقْران قَدْ حَطَّا إلى وَكْرِ

يعنى أنه إنما أفرج له عن السَّبْق مع قدرته على المساواة معرفةً بحقِّه، وتسليما لكبرَ سِنِّه .

وقيل لأبى عبيدة : إن هذه الأبيات ليست فى مجموع شعر الخنساء، فقال : لعلّه أُسقِط من أن يجاء عليها بمثل هذا .

ومن الشعر الذى ذكرت بسببه قولها هذه الأبيات :

---

(١) ديوانها ٨١ .

(٢) الرديني : الرمح ؛ منسوب إلى ردينة، امرأة كانت تقوم الرماح .

(٣) ديوانها ١٨٤ .

(٤) تعار : جبل بأرض بنى سليم . ويذبل : جبل لغطفان .

(٥) ديوانها ١٣٨ . والملاءة : الريطة . والحضر : الجرى .

تَعَرَّفَنِي الدَّهْرُ نَهْساً وَحَزًّا وأوجعنِي الدَّهر قَرْعا وغَمْزَا [(١)]
وأفْنى رجالى فبـــادُوا معاً فأصبح قلبِي بهـم مستَفَزّا
كَأَنْ لَمْ يـكونُوا حِمًى يُتّقَى إذِ النّاس في ذَاك مَنْ عَزَّ بزّا
وخيـــلٍ تـكدَّس بالدَّارِعين وتحت العجاجة يَجْمِزْن جَمْزَا [(٢)]
بِبيضِ الصِّفاح وسُمْرِ الرِّمَاح فبالبيض ضَرْبا و بالسُّمْرِ وَخْزَا
جَزَزْنَا نَوَاصِيَ فُرْسـانِهاَ وكانُوا يَظُنُّونَ ألاَّ تُجزَّا
ومَنْ ظنَّ مِمَّن يُلاقِي الحروبَ بألاَّ يُصابَ فقد ظَنَّ عَجْزَا

* * *

١٤٠ ــ وَأَخْطَأَت استُكَ الْحُفْرَةَ .

هذا مثل يُضرب لمن يطلب أمراً فيخطئه ولا يناله . حكى أن المختار بن أبي عُبيد قال وهو بالكوفة : والله لأدخلنّ البصرة ، ولا أرمِي دونها بكتَّاب [(٣)] ، ثم لأملِّـكَنَّ الهند والسّند والبند ــ أراد بالبند العلَمَ ــ أنا والله صاحب الخضراء والبيضاء ، والمسجد الذى ينبع منه الماء .

فلما بلغ هذا الحجّاج بن يوسف قال : أخطأت است ابن أبي عُبيد الحُفرة ! أنا والله صاحب ذاك ، كأن الحجّاج تمثّل بذلك . [(٤)]

* * *

---

(١) ديوانها ١٤٣ .
(٢) التـكدس : مشى ليس بالسريع ولابالبطىء ؛ ولا يكون هذا إلا فى القتال .
(٣) كتاب ، كشداد : السهم لا نصل له ولا ريش .
(٤) الميدانى ١ : ١٦٥ . وفى ت « به » .

١٤١ — وَاللهِ لوْ كَسَاكَ مُحَرِّقُ الْبُرْدَيْنِ .

[محرِّق ، وهو عمرو بن هند]

محرِّق ، هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء . وهو عمرو بن هند ، وكان يعرَف بأمّه هند بنت الحارث بن حُجْر آكل المُرار الكندىّ . وكان يقال لعمرو : مضرِّط الحجارة ، لشدّة بأسه ، وسمِّى محرّقا لقصة استوفى أبو الفرج شرحها فى كتاب الأغانى ، فقال[1] : كان قد عاقد حيَّ طيّئ على ألا ينازعوا ولا يفاخروا ولا يغزوا ، ثمَّ إنّه غزا اليمامة ورجع مغتبطاً ، ومرّ بطيّئ ، فقال له زُرارة بن عُدُسٍ التميمىّ — وكان من خواصّه : أبيت اللعن ! أصبتَ من هذا الحىّ شيئاً ؟ فقال : ويلك ! إنّ لهم عَقْدا ، قال : وإن كان لهم ؛ فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأذْواداً ، فقال فى ذلك قيس بن وجرة الطّائىّ[2] :

أراكَ ابنَ هندٍ لمَ تَعُقْكَ أمانةٌ ... وما المرء إلاّ عهدُهُ ومواثِقُهْ[3]

---

(١) فى ج ١٩ : ١٢٨ (ساسى) وما بعدها .

(٢) الأغانى : « قيس بن جروة » .

(٣) رواية الأبيات فى الأغانى :

ألاَ حيِّ قبلَ اليومِ مَنْ أنتَ عاشِقُهْ ... ومَنْ أنتَ مشتاقٌ إليه وشائقُهْ
ومَنْ لا تواتِي دَارُهُ غيرَ فَيْنَةٍ ... ومَنْ أنت تبكى كلّ يوم تفارقُهْ
وتعْدو بصحراء الثّويّةِ ناقتِى ... كعَدْوِ النّحُوصِ قَدْ أَمخّتْ نواهِقُهُ
إلَى الملِكِ الخيرِ ابن هندٍ تزورهُ ... ولَيسَ من الفوتِ الذى هو سابِقُهْ
وإنّ نساءً هنَّ ما قال قائِلٌ ... غنيمةُ سَوْءٍ بينَهنّ مهارِقُهْ
ولو نِيلَ فى عهدٍ لنا لحم أرنبٍ ... رددنا ، وهَذَا العهدُ أنتَ مُعالِقُهْ
فهبْكَ ابن هندٍ لم تَعُقْكَ أمانةٌ ... وما المرء إلاَّ عَهْدُهُ ومواثقُهْ =

فأقسمتُ جهدى بالأباطح من مِنًى ... وما خَبَّ فى بطحائهن درادقُهْ[١]

لئن لم تغيّر بعض ما قَدْ فعلتَه ... لَانتَحِيَنْ لِلعظمِ ذُو أَنْتَ عارِقُهْ[٢]

سمّى عارقاً بهذا البيت .

وبلغ الشعر عمرَو بن هنـد ، فقال له زرارة بن عُدُس : أبيت اللعن ! إنَّهُ يتوعَّدُكَ ! فقال عمرو لرُمَيْلة بن شعار الطائىّ[٣] : أيهجونى ابن عمّك ويتوعّدنى ! قال : لا والله ما هجاك ، ولـكنه قال :

وَاللهِ لَوْ كَانَ ابنُ جَفْنة جارَكُمْ ... ما إن كَساَكُمْ ضَيْعـةً وهَوانَا[٤]

وأَرَادَ رُمَيْلَةُ أن يسلّ سخيمتَه ، فقال : والله لأقتلنّه ، فبلغَ ذلك عارقاً ، فقال منشداً :

أيُوعِدُنِى والرَّمْلُ بينى وبينَهُ ... تَبَيَّنْ رُوَيْدًا ما أمامةُ مِنْ هِنْدِ[٥]

= وَكُنّا أناساً خافضين بنعمةٍ ... يسيلُ بناَ تلْعُ الملاَ وأبارقُهْ

فَأقسمتُ لا أحتلُّ إلاّ بصَهْوةٍ ... حرامٌ علىّ رملُه وشقائقُهْ

وأقسمتُ جهداً بالمنازلِ مِنْ منًى ... وما خبَّ فى بطحائهن درادقُهْ

(١) الدرادق : أولاد الوحش .

(٢) انتحى : قصد . عرق العظم : انتزع منه اللحم .

(٣) الأغانى : لترملة بن شعاث الطائى ، وهو ابن عم عارق » .

(٤) بعده فى الأغانى :

وسلاسلاً يبرقن فى أعناقـكم ... وإذاً لقطّـع عنـكمُ الأقرانا

ولـكان عادتُه على جـيرانهِ ... ذهبـاً وريطـاً رادعاً وجفانا

(٥) قبله فى الأغانى :

مَنْ مبلغٌ عمْرَو بن هندٍ رسـالةً ... إذا استحقبتْهاَ الْعِيسُ تنضَى من الْبُعْدِ

وبعده :

ومِنْ أجإِ دوني رِعانٌ كأنّهاَ ... قنابلُ خيلٍ من كُمَيْتٍ وَمِنْ وَرْدِ

غدرتَ بعهدٍ كنت أنت أخذتَنا عليه ، وشرُّ الشّيمة الغدرُ بالعهدِ
وقد يترك الغدرَ الفتى وطعامُهُ إذا هو أمسى جُلُّه من دم الفَصْدِ

فبلغ عمرَو بن هند قوله ، فغزا طيِّئًا ، فأسر أسرى من بنى عدىّ بن أخزم رهط حاتم ، فوفد حاتم عليه ، وسأله فى الأسرى فأطلقهم له .

وكان المنذر بن ماء السماء ، أبو عمرو ، قد وضع ابنا له صغيراً يقال له مالك ، عند زرارة بن عُدُس ، وإنّ مالكاً خرج يوما يتصيّد ، فأخفق ولم يجد شيئاً فرجع ، فمرّ بإبل لرجلٍ من بنى عبد الله بن دارم ، يقال له : سُويد ـ وكان عند سويد ابنة زرارة ، فولدت له سبعة غلمة ـ فأمر مالك بن المنذر بناقةٍ سمينة منها فنحرَها ثم اشتوى وسويد نائم ، فلما انتبه شدّ على مالكٍ بعصًا فضربَه فأمّه[1] فمات ، وخرج سويدٌ هاربا حتى لحق بمكة .

وكانت طيّئ تطلب عثرات زُرارة وبنى أبيه ، حتى بلغهم ما صنعوا بأخى الملك ، فقال ثعلبة بن عمرو الطائىّ :

مَنْ مبلغٌ عَمْراً بأنّ المرء لمْ يُخْلَقْ صُبارَهْ[2]
وحوادث الأيّام لاَ يَبْقَى لهَا إلاَّ الحِجارَهْ
إن ابنَ عِجْزة أمِّهِ بالسَّفح أسفل من أوارَهْ[3]
تسفِي الرياح خلال كَشْحَيْهِ وقد سَلَبُوا إزارَهْ[4]
فاقْتُلْ زُرارةَ لا أَرَى فى القوم أوفَى من زُرارهْ

(١) فى الأصول : « فأماته » ؛ والتصويب من الأغانى . أمه : شجه .
(٢) الصبارة : الحجارة.
(٣) يقال : فلان عجزة أبويه ، أى آخرهم .
(٤) رواية الأغانى :

تسفِي الرياح خلالَهُ سَحْياً وقد سلبُوا إزارَهْ

سحيا ، أى قشرا .

فلما بلغ هذا الشعر عمرو بن هند ، بكى وفاضت عيناه .

وبلغ الخبرُ زرارةَ فهرب ، وركب عمرو فى طلبه فلم يقدر عليه، فأخذ امرأته وهى حبلى، فقال : أذكَر فى بطنكِ أم أنثى؟ قالت: لاعلم لى بذلك ، فبقَر بطنها . فقال قومُ زرارةَ لزُرارة : واللهِ ماقتلتَ أخا الملك، فأته فاصدقه الخبر ، فأتاه فأخبره الخبر، فقال: علىّ يسويد ؛ فقال: إنه لحق بمكة. قال: فعلىّ ببنيه، فأُتِىَ ببنيه السبعة وأمهم بنت زرارة وهم غلمة بعضهم فوق بعض ، فأمر بقتلهم ، فتناولوا أحدهم ، فضربوا عنقه ، وتعلّق بزرارة الآخرون فتناولوهم ، فقال زرارة : «يابعضى أرسل بعْضى» ، فذهبت مثلا وقتلوا، وآلى عمرو بن هند أليّة ليحرقنّ من بنى حنظلة مائة رجل ، فخرج يريدهم، وبعث على مقدّمته عمرو بن ثعلبة ، فوجد القوم قد نذِروا ، فأخذ منهم ثمانية وتسعين رجلا بناحية البحرين فحبسَهم، ولحقه ابنُ هند، فضربت فيه قبته ، وأمر لهم بأخدود ، ثم أضرم فيه نارا، فلما احتدمت وتلظّت قذف بهم فيه ، فاحترقوا ، فأقبل راكب من البَراجم ــ وهم بطن من بنى حنظلة ــ لايدرى بشىء مما كان يُصنع بغيره ، فأخِذَ وأُلقِىَ فى النار . وأقام عمرو بن هند لايرى أحدا ، فقيل له : لو تحلّلت بامرأة منهم ، فقد أحرقت تسعةً وتسعين رجلا ! فدعا بامرأة من بنى حنظلة ، فقال لها : مَنْ أنتِ ؟ قالت: الحمراء بنت ضَمرة ، فقال : إنى لأظنّك أعجميّة ، فقالت : ما أنا بأعجميّة ، ولا ولدتْنى العجم :

إنِّى لبنتُ ضَمْرة بن جابرِ   سَادَ مَعَدًّا كابرًا عن كابرِ

فقال عمرو : أما والله لولا مخافتى أن تلدِى مثلك لصرفتُك عن النار . فقالت : أمَا والذى أسأله أن يضعَ وِسادَك ، ويخفِض عمادَك[1] ، ماتقتل إلا نِساءً أعاليها ثُدِىّ ، وأسافلها دمىّ ، قال : اقذفوها فى النار ، فالتفتت وقالت : ألا فتًى

---

(١) بعدها فى الأغانى : « ويقرب هلـكك » .

يكون مكان عجوز ! فلما أبطئوا عليها قالت : هيهات ! صار الفتيان حُمَما ، وسُمّى من ذلك اليوم محرّقاً .

* * *

ومن ملوك جفنة أيضا المحرّق ، لكنه غير صاحب البُرْدَيْن ؛ فأمّا أمرُ البُرْدين فحكى أن الوفود اجتمعت عند محرِّق ، فأخرج بُرْدَيْنِ من لباسه يَبْلُو الوفود ، وقال : ليقم أعزّ العرب فليأخذها . فقام عامر بن أحَيْمر فأخذها ، فأتَزَر بالواحد وارتدى بالآخر . فقال له : أنت أعزُّ العرب قبيلة ؟ قال : العزّ كلّه فى مَعَدٍّ ، والعَدد فى معدّ ، ثم فى نزار ، ثم فى مُضر ، ثم فى خِندف ، ثم فى تميم ، ثم فى سعد ثم فى كَعْب ، ثم فى بهدلة ، فمن أنكر هذا فلينافِرْنى . فسكت الناس ، فقال : هذه عشيرتك كما تزعُم ، فكيف أنت فى نفسك وأهل بيتك ؟ قال : أنا أبوعشرة ، وأخوعشرة ، وعمّ عشرة ، وخالعشرة ، وها أنا فى نفسى ، وشاهد العزّ شاهدى ، ثم وضع قدمه على الأرض وقال : مَنْ أزالها من مكانها فله عشرة من الإبل ؛ فلم يقم إليه أحد ، وخرج بالبُرْدين ؛ فضربت العرب بعزّه المثل وببُرديه .

* * *

١٤٣ – وَحَلَّتْكَ مَارِيَةُ بالقُرْطَيْنِ .

[ذكر قُرطَىْ مارية]

القُرْط : نوع مما تحلّى به المرأة أذنها ، ومارِيةُ ، هى ابنة ظالم بن وهب الكندىّ : زوجة الحارث الأكبر الغسانىّ ، أحد ملوك العرب بالشام ، وهى أمّ الحارث الأصغر ، وأمّها هند الهنود ، امرأة آكل المُرار ، وكان فى قُرْطيْها لؤلؤتان

عجيبتان ، يتوارثهما الملوك ، وصلتا إلى عبد الملك بن مروان ؛ فوهبهما لابنته فاطمة ، لما زوّجها لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فلما وُلِّىَ عمرُ الخلافة قال لها : إن أحببتِ المُقام عندى فضعِى القُرْطيْن والحلْى فى بيت مال المسلمين ، فوضعتهْ . فلما مات ووَلِّىَ يزيد بن عبد الملك ، أرسل إليها يقول : خذِى القُرْطين والحلْى من بيت مال المسلمين . فقالت: لا والله ؛ ماأوافقه فى حال حياته، وأخالفه بعد وفاته .

وروى الميدانىّ أنّ مارية أهدتْ قُرطَيها إلى الكعبة ، وهما دُرّتان كبيضتى الحمام ، لم يُرَ فى عصرها ولا قبله مثلُهما ، هكذا روى الميدانىّ [1] ، والله أعلم بحقيقتهما .

* * *

١٤٣ — وَقلّدكَ عَمْرُو الصّمْصامَة .

[عمرو بن معدِ يكرِب]

هو عمرو بن معدى كِرب بن عبد الله الزُّبيدىّ ، وكنيته أبو ثَوْر ، الفارس المشهور ، صاحب الغارات والوقائع المذكورة فى الجاهليّة والإسلام .

وفَدَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السّنَة العاشرة من الهجرة ، قال عمرو : قدِمت المدينة فرأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قافلاً من تَبُوك ، فأردت أن أدنُوَ إليه ، فمنعنى مَنْ حوله ، فقال : دَعُوه ، فدنوت منه ، فقلت : أنعم صباحا أبيت اللعن ! فقال : ياعمرو ، أسلِم تَسْلَمَ ، ويؤمِّنك الله من الفزع الأكبر ، فأسْلَمت [2] .

وعاش عَمْرو إلى أيّام عثمان ، وأبلَى فى وقائع الاسلام بلاء حسنا ، مثل

---

(١) مجمع الأمثال ١ : ١٥٦ ، ولفظ المثل هناك : « خذه ولو بقرطى مارية » .
(٢) انظر الأغانى ١٥ : ٢١٢ (طبعة دار الكتب) .

وقعة القادسيّة ؛ وهو الّذى ضرب خَطْم الفيل بالسيف فانهزم ، وانهزمت الأعاجم ، وكان سبب الفتح . ومثل وقعة اليرموك وغيرها .

قال الخثعمىّ : ما رأيت رَجُلا أشرفَ من رجل رأيتُه يوم اليرموك ، خرج له عِلْجُ فقتله ، ثم آخر فقتله ، ثم انهزموا فتبعهم وتبعتُه ، ثم انصرف إلى خِباء له أسود ، فنزل فدعا بالجِفَان ، ودعا مَنْ حوله ، فقلت : مَنْ هذا ؟ قالوا : عَمْرو ابن معد يكرب .

وحدّث ابنُ أبي حاتمٍ ، قال : مررنا يوم القادسيّة بعمْرو بن معدِ يكرِب وهو يحضّ النّاس بين الصّفّيْن ، ويقول : أيُّها الناس ، كونوا أشدّ منا شأنًا ، إنّ هذا الرّجل من الأعاجم إذا لقى مزراقا[1] فإنما هو تَيْس ؛ فبينما هو كذلك يحرّضنا ، إذ خرج رجلٌ من الأعاجم ، فوقف بين الصَّفّيْن فرماه بنشّابة ، فما أخطأت سِيَةَ قوسٍ كان متنكّبهاَ ، فالتفت ثم حمل عليه فاعتنقه ، ثم أخذ بمنطقته فاحتمله ، فوضعه بين يديه ، وجاء حتى إذا دنا منّا كسر عنقَه ، ثم أمرّ الصَّمصامة على حلْقِه فذبحه ، ونزع سواريه ومنْطقته وألْقاه ، وقال : هكذا فاصنعوا بهم . فقلنا : مَنْ يستطيع يا أبا ثَوْر أن يصنع كما تصنع[2] !

وحكى أبوعبيدة ، قال: لما كان فتح القادسيّة أصابَ المسلمون أموالاً عظيمة ، فعزل سعد بن أبي وقّاص الخُمس، ثم قسم البقيّة ، فأصاب الفارسَ ستة آلاف ، و بقى مال دَثْر[3] ، فكتب إلى عمر بما فعل . فكتب إليه أن ردّ على المسلمين الخمس ، وأعطِ مَنْ لحق بك ممن لم يشهد الوقعة ، ففعل ذلك ، ثم كتب إليه [يذلك ، فكتب إليه][4] : أن أعطِ ما بقى حَمَلة القرآن ، فأتاه عمرو بن معد يكرب ، فقال : ما منَعك من حفظ القرآن ؟ قال : إنى أسلمت ، ثم شُغلت

---

(١) المزارق : رمح قصير .　(٢) انظر الأغانى ١٥ : ٢١٧ .
(٣) دثر : كثير .　(٤) من ت .

بالغزو عن حفظ القرآن ، [قال : مالك فى هذا المال نصيب] (١) .

وقيل : أتاه بِشر بن ربيعة، فقال له : مامعك من حفظ القرآن ؟ قال : معى « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ فضحك القوم ، فقال سعد : مالك فى هذا المال من شىء ولا من نصيب ؛ فقال عمرو منشدا :

إِذَا قُتِلنا ولا يَبْكِي لَنَا أَحَدٌ   قالتْ قُرَيشٌ : أَلاَتلك المقاديرُ
نعطى السّوِيّةَ مِنْ طَعْنٍ له نَفَذٌ   ولاسويّة إِذْ تُعطَى الدنانيرُ (٢)

وقال بشر أبياتا (٣) ، فكتب سعد إلى عمر بما قالا ، فكتب إليه : أعطهما على بلائهما ، فأعطاهما أربعة آلاف درهم (٤) .

وحكى المدائنىّ قال : كان عمرو بن معديكرِب فى سريّة أميرها سَلْمان (٥) ابن ربيعة ، فعرض الخيل ، فمرّ عمرو على فرسٍ له ، فقال سلمان : هذا هَجِين ،

(١) من الأغانى ، والخبر فيه فى ١٥ : ٢٤٢ .

(٢) السوية : العدل .

(٣) ذكرها صاحب الأغانى ، وهى :

أَنَخْتُ ببَابِ القادِسِيَّـةِ ناقَتِى   وَسَعْدُ بن وقاصٍ علىّ أميرُ
وسعدٌ أميرٌ شرّه دون خيره   وخيرُ أميرٍ بالعراقِ جريرُ
وعندَ أميرِ المؤمنينَ نوافِلٌ   وعند المثنىَّ فِضّةٌ وحريرُ
تذكّرْ هداكَ الله وَقْعَ سيوفنا   بباب قُدَيسٍ والمكَرُّ عسيرُ
عشيّة ودّ القومُ لو أنّ بَعْضَهُمْ   يُعارُ جناحىْ طائرٍ فيطيرُ
إذا ما فرغنا من قراعِ كتيبةٍ   دلفنا لأخرى كالجبال نَسيرُ
ترى القوم فيها واجمين كأنّهم   جِمال بأحمالٍ لهنّ زفيرُ

(٤) الأغانى ١٥ : ٢٤٣ .

(٥) ت : « سليمان » وأثبت مافى ط والأغانى ؛ وهو سلمان بن ربيعة بن يزيد الباهلى، ويعرف بسلمان الخيل ؛ ويقال : إن له صحبة . وانظر تهذيب التهذيب .

فقال عمرو : عتيق . قال: فأمر به فعُطِّش ، ثم دعا بقَدَسٍ(١) ، فقلبَ فيه ماء(٢) ، فدعا بخيل عتاق فشربت ، فجاء فرس عمرو فثنى يديه وشرب ، وهكذا يصنع الهجين . فقال له : ألا ترى ؟ فقال عمرو : أجل ، الهجين يعرف الهجين . فبلغ عمرَ ، فكتب إليه : قد بلغَنى ماقلت لأميرك ، وبَلغَني أن لك سيفا تسمّيه الصمصامة ، وعندى سيف مصمّم بالله ، لئن وضعتُه على هامتك لا أقلِع حتى أبلغ به شراسيفَك ، فإنْ سرّك أن تعلم أحقّ ما أقول فعُدْ(٣) .

ويروى أن عمر رضى الله تعالى عنه سأله يوما فقال : ماتقول فى الحرْب؟ قال: مرّة المذاق ، إذا كشفت عن ساق ؛ فمن صبر عرف ، ومن ضعف تلف ؛ قال : فما تقول فى الرّمح ؟ قال : خليلك ؛ وربما خانك ، قال : فالنّبْل ؟ قال : منايا تخطىء وتصيب . قال : فالتُّرس ؟ قال : عليه تدور الدوائر . قال : فالسّيف ؟ قال: عبدك ، ثكِلَتْك أمّك! قال عمر: بل أمّك، فقال: «الحمى أضرعتْنى لك» ، فأغلظ له عمر فى الكلام، فقال :

أتوعدنى كأنك ذو رُعَيْنٍ بأنعم عيشةٍ أو ذو نُوَاسِ

فلا تفخَرْ بمُلْكِكَ ، كلُّ مَلْكٍ يصير لذلّةٍ بَعْدَ الشِّمَاسِ

فقال عمر: صدقت، فاقتصّ منى قال : لا، بل أعفو يا أمير المؤمنين ، ولا آية سمعتها منك لجلّلتُك السيفَ ؛ أخذ منك أم ترك ؛ قال : وماهى ؟ قال : سمعتك تقرأ : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجرِماً فإنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهاَ وَلاَ يَحْيَا ﴾(٤)، والله لو علمت أنى إذا دخلتها متّ لفعلت(٥) .

---

(١) القدس ، بالتحريك : السطل ، وفى الأصول : « بترس » ، تحريف .
(٢) فى الأصول : « فلبث » .
(٣) الخبر فى الأغانى ١٥ : ٢٤٤ مع اختلاف فى الرواية .
(٤) سورة طه ٧٤
(٥) الميدانى ١ : ١٣٨ .

وحكى أنّ عينية بن حصن لمّا قدم الكوفةَ أقام أيّاماً ، ثم قال : والله مالى بأبى ثور عهد [منذ قدمنا هذا الغائط](١) ، ثم ركب فرسًا ،وسأل عن مَحِلّة بنى زُبَيدٍ، فأرشِد إليها ، وسأل عن عمرو، فوقف ببابه ، ثم قال : يا أبا ثور،اخرُج إلينا ، نخرج مؤتزرا ، كأنما كسِر وجبر ، فقال : أنعم صباحا أبا مالك ! فقال : أوَليس قد بدّلنا الله تعالى بهذا :« السلام عليكم! » ؛ فقال : دَعْنا مما لانعرف ، انزل فإنّ عندى كبشا سمينا ، فنزل فعَمَد إلى الكبش فذبَحه ، ثم ألقاه فِى قِدْرٍ وطبخه،وجلس يتحدّث إلى أن أدرك ؛ فثَرَد فى جفنة عظيمة،وألقى القِدْرعليها ، وقعدا فأكلا منها ، ثم قال: أىّ الشراب أحبُّ إليك : آللبن ، أمْ ما كنّا نتنادم عليه فى الجاهلية ؟ فقال : أو ليس قد حَرّمها الله تعالى فى الإسلام ! فقال : أأنت أقدم إسلاما ، أم أنا ؟ قال : أنت ، قال : فإنّى قد قرأت مابين دفّتى المصحف ، فو الله ما وجدت لها تحريما إلا أنه قال: ﴿ فهل أنتم مُنْتَهون ! ﴾(٥) ، فقلنا : لا . ثم جاءا بنبيذ وجلساَ يشربان و يتحدّثان ، و يذكران أيّام الجاهليّة حتى أمسياَ ، فلمَّا أراد عيينة الانصراف قال عمرو : لئن انصرف أبو مالك بغير حِباء إنَّها لوصْمة ، فأمرله بناقة أرحبيّة(٦) وحمله عليها ، ثم أتى بمزْوَدٍ فيه أربعة آلاف درهم ، فوضعه بين يديه فقال : أمّا المال فو الله لا آخذه ولا أَلَمسه ، فانصرف وهو يقول(٧):

---

(١) من الأغانى .
(٢) الأغانى : « ساحا » ، أى بالغاً فى السمن .
(٣) الأغانى : « أكبر سنا أم أنا » .
(٤) كذا فى ت والأغانى ، وفى ط : « سمعت » .
(٥) سورة المائدة ٩١ .
(٦) أرحبية : نسبة إلى بنى أرحب ، بطن من همدان .
(٧ ـ ٧) فى الأغانى : « فقال : أما المال فوالله لا قبلته ، قال : والله إنه لمن حباء عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فلم يقبله عيينة وانصرف وهو يقول » .

جُزِيتَ أباَ ثَورٍ جزاء كِرامةٍ   فنعمَ الْفَتَى المزدارُ والمتضيِّفُ[١]

وقيل : إنه لم يكُن فى عمرو خَصْلة رديئة إلا الـكذب ، حكى أبو عمرو بن العلاء ، قال : وقف عمرو يوما بِالمِرْبديتحدّث على عادتهم ، فقال : أغرْتُ[٢] فى الجاهليّة على بنى مالك ، فخرجوا مسترعفين[٣] بخالد بن الصقعب [يقدمهم][٤] ، فحملت عليه بالصمصامة ، فأخذت رأسه[٥] ـ وكان خالد بن الصقعب حاضرا ـ ، فقال بعض الجماعة : مهلا أباثور ! قتيلك يسمع كلامك ـ وأشار إليه ـ فقال : اسكت، إنَّما أنت محدَّث فاسمع أو قم ؛ ثم التفت إلى خالد ، وقال : إنما نُرْهِب هذه المعدِّيَّةبهذه الأخبار؛[٦] ومضى فى حديثه ، فلم يقطعه ، فقال له رجل : إنك لشجاع فى الحرب والـكذب ، فقال : إنى كذلك !

وحكى أبو عمرو بنالعلاء ، قال : جاء رجلإلى عمرو ، وهو واقفبالمِرْبد على فرس له وقد أسنّ ، فقال :لأنظرنّ مابقِيَ من قوة أبى ثور ، فأدخل يده بين ساقه وجَنْب الفرس ، ففطن عمرو لذلك ، فضمّ رجله وحرّك الفرس ، فجعل الرَّجل يعدُو مع الفرس لايقدر أن ينزِعَ يده حتى إذا بلغ منه صاح به، فقال :

---

(١) الأغانى ١٥ : ٢١٩، ٢٢٠ ، وبعده هناك :

قريتَ فأكرمْتَ القِرَى وأفَدْتَنا   نخيلةَ علِمٍ لم يَكُنْ قطُّ يُعْرَفُ
وقلت : حلالٌ أن تُدِيرَ مُدَامَةً   كلونِ انعقاقِ البرقِ والليلُ مُسْدِف
وقدّمْتَ فيهاَ حُجّةً عَــرَبيَّةً   تَردُّ إلى الإنصافِ مَنْ ليس بنصِفُ
وأنتَ لنا والله ذِى العرْشِ قُدْوةٌ   إذا صدّنا عن شُرْبِهاَ المتَـكلِّفُ
تقول : أبو ثور أحلَّ حرَامَها   وقولُ أبى ثورٍ أسَدُّ وأعرَفُ

(٢) ط : « غزوت » ، والصواب ما أثبته من ت والأغانى .

(٣) الاسترعاف : السبق والتقدم .

(٤) من الأغانى   (٥) الأغانى : « حتى فاضت نفسه » .

(٦) إلى هنا ، الخبر فى الأغانى ١٥ : ٢٢٣ .

يابنَ أخي ، مالك ؟ قال : يدى تحت ساقك ، فخلّى عنه ، وقال . إنّ فى عمّك بقيّةً بعد[١] !

ومن كلامه ؛ حكى أنّه أتى مجاشع بن مسعود فقال : أسالك حُمْلان[٢] مثلى ، وسلاح مثلى ؛ فأمر له بفرس جَواد وسيف صارم وعشرين ألف درهم ؛ فمرّ ببنى حنظلة ، فقالوا : يا أبا ثوْر ، كيف رأيتَ صاحبَك ؟ فقال : لله بنو مجاشع ! ماأشدّ فى الحروب لقاءها ، وأجزل فى اللّزْبات[٣] عطاءها ، وأحسن فى المكرمات بناءها ! والله لقد قاتلتُها فما أجْبنتُها[٤] ، وسألتها فما أبخلتُها ، وهاجيتها فما أفحمتُها[٥] .

ومن جيّد شعره :

وَلَمّا رأيت الخيلَ رَهْوًا كأنَّها ... جداولُ ماء أرسِلتْ فاسبطرّت[٦]

وجاشَتْ إلىّ النَّفسُ أوّلَ وَهْلَةٍ ... ورُدَّت على مكروهها فاستقرَّتِ

ظلِلتُ كأنّى للرماح دريئةً ... أقاتل عن أحساب جَرْم وَفَرَّتِ

ولو أنّ قومِى أنطقتْنِى رماحُهُمْ ... نطقتُ ، ولكنّ الرِّماح أجَرَّتِ

قوله : « أقاتل عن أحسابِ جَرْم » ، من الهجاء الممضّ ؛ وذلك أنه ذكر أن قوما فرّوا ، وليس هو منهم غير أنه يقاتل غضبا لهم وعصبيّه .

وقوله : « ولو أن قومى أنطقتْنِى » ، يعنى لو قاتلوا وطاعنوا نطقت بمدحهم ، ولكنهم فرُّوا فأسكتونى عن المدْح ؛ والأصل فى الإجرار أن الفصيل إذا أرادوا فطامه شقوا لسانه فلم يقدر على الرضاع .

---

(١) الأغانى ١٥ : ٢٢٢ .
(٢) الحملان ، مصدر حمل ، عنى به ما يحمل عليه .
(٣) اللزبة : الشدة والقحط ، والجمع بسكون الزاى .
(٤) الأغانى : « فما أقللها » ، أى عددتها قليلة .
(٥) الأغانى ١٥ : ٢٢٢ .
(٦) الأصمعية ٣٤ . رهواً : سراعا . اسبطرت : امتدت بسرعة .

وقوله فى القصيدة الّتى أوّلها :

*أمِنْ رَيْحَانَة الدَّاعى السميعُ *(١)

وقد عجبتْ أُمامـــةُ أنْ رأتنِى | تَفرّعَ لِمّتى شيبٌ فظيـــعُ(٢)
أشابَ الرّأسَ أيامٌ طِوَالٌ | وهَمٌّ ما تَبَلّعُهُ الضُّـــلوع(٣)
وزحفُ كتيبـــةٍ للقاء أخرى | كأنّ زُهاءها رأسٌ صليعُ(٤)
وإسناد الأسنَّةِ نحـــو نَحْرِى | وهَـــزُّ المشرفيّةِ والوقوعُ
فإن تنبِ النوائبُ آلَ عُصْمٍ | تُرَى حكَمَاتُهم فيها رفوع(٥)
إذا لم تستطعْ شيئاً فدَعْـــهُ | وَجَاوِزْهُ إلى ما تستطيع
وصِـلْهُ بالزّموع فـكلّ شىء | سَما لكَ أو سموتَ ولوع(٦)

وقوله أيضا :

يأيّهـــا المتنابِنَـا | جَهْلا بنا ووُلِدْتَ عَبْدا(٧)
لَيْسَ الجمـــالُ بمئزرٍ | فاعْلَمْ وإن رُدِّيتَ بُرْدَا
أنّ الجمـــالَ معادنٌ | ومناقبٌ أوْرَثْنَ مَجْدَا
أعددتُ للحـــدَثان سا | بغةً وعَدَّاءً عَلَنْدَى(٨)
نَهْدًا وذا شُطَبٍ يَقُدُّ البَيْـــضَ والأبْدَانَ قَدًّا(٩)

---

(١) الأصمعية ٦١ ، وبقيته :

* يُؤَرِّقنى وأصحابى هُجُوعُ *

(٢) تفرعه : علاه ، أو صار فى فروعه ، وفرع كل شىء أعلاه .

(٣) تبلعه ؛ تتبلعه : أى تسعه .

(٤) الزهاء : القدر . رأس صليع : لا شعر فيه .

(٥) الحكمات : جمع حكمة ؛ وهى ما أحاط من اللجام بحنكى الدابة . رفوع ، مصدر بمعنى الارتفاع

(٦) الزماع : المضاء فى الأمر والعزم عليه .

(٧) ديوان الحماسة ١ : ١٧٠ ــ بشرح التبريزى ولم يرو البيت الأول .

(٨) سابغة ، أى درعا وسيعه : وعداء علندى ، أى فرسا ضخما شديد العدو .

(٩) فرس نهد : ضخم طويل .

كلّ امرئٍ يجرى إلى يَوْمِ الهَياجِ بما أُستعدّا
لمّا رأيتُ نساءنَا يفحصن بالمَعْزَاء شَدّا(١)
وبدتْ محاسنها الّتى تَخْفَى وعادَ الأمرُ جِدّا
نازلتُ كبشَهُمُ ولَمْ أرَ من نزالِ الكَبْش بُدّا(٢)
هُمْ يَنذِرون دمِي وأنـــ ذِرُ إن لقيتُ بأنْ أَشُدّا
كم من أخٍ لىَ صالحٍ بوّأْتُهُ بيدىّ لَحْدَا
ذهبَ الّذين أحبّهمْ وبقيتُ مِثلَ السَّيْفِ فَرْدَا

قلتُ : لو لم يكن له إلا هذه القصيدة لاستحقّ بها التقدّم على بشر كثير .

* * *

وأمّا الصّمصامة فهى سيفه المشهور ، قال عبد الملك بن عُمَير : أهدتْ بلقيسُ إلى سليمانَ عليه السلام خمسة أسياف ، وهى : ذو الفقَار ، وذو النّون ، ومِخْذَم ، ورَسَوب ، والصّمصامة ؛ فأمّا ذو الفقار فكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذه من عُقْبة بن الحجاج يوم بَدْر ، ومِخْذَم ورَسُوب للحارث ابن جَبَلة الغسانىّ ، وذو النون والصَّمْصامة لعمرو بن معد يكرب .

وحكى أنّ عمر بن الخطاب قال لعمرو : ابعثْ لى الصّمصامة ، فبعث به إليه ، فلم يره كما بلَغه ، فقال له فى ذلك ، فقال : إنى بعثت إليك الصّمصامة ، ولم أبعث لك باليد التى تضرب به !

وحكى أبو عبيدة أنّ الصمصامة انتقلت إلى سعيد بن العاص ، وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بنى زُبيد ، وكان خالد بن سعيد من جملة أمرائه أوقع بهم ، وأسَر ريحانة أخت عمرو بن معد يكرب ، ففداها خالد ، وأثابه عمرو

---

(١) المعزاء : الأرض الصلبة ذات الحجارة .
(٢) كبش الكتيبة : رئيسها .

الصَّمصامة ، ثم فقد يوم الدار فى مقتل عثمان ووجد ، ولم يزل إلى أن صعد المهدىّ إلى البصرة ، فلما كان بواسط أرسل إلى بنى العاص يطلب الصَّمْصَامة ، فقالوا : إنه فى السبيل محبَّسا . فقال : خمسون سيفا قاطعا فى السبيل أغنى من سيف واحد ، وأعطاهم خمسين سيفا ، وأخذه ، فلما صار إلى الهادى أحضره ، وأمر الشعراء بوصفه ، فقال بعضهم من أبيات :

حازَ صَمْصامةَ الزّبيدىِّ عَمْرٍو من جميع الأنام موسى الأمينُ

ما يُبـالى مَنِ انتضاه لضربٍ أشمـال سطتْ به أم يمينُ!

ثم وصل إلى المتوكّل ، فدفعه إلى غلامه باغر التركىّ ، فقتله به ، ومن عند باغر انقطع خبره .

* * *

١٤٤ — وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعامةِ .

النعامة فرس الحارث بن عُباد التغلَبىّ ، أكبر سادات بنى وائل ، وهو الّذى اعتزل حرب البَسُوس ، وقال : «لا ناقة لى فيها ولا جمل» ، فلما قتِل ولده نهض حينئذ وقال :

قَرِّبا مَرْبِطَ النَّعَامَـة مِنِّى لَقِحَتْ حَرْبُ وائلٍ عن حيالِ[1]

يعنى هذا الفرس ، ويكرر قوله : « قَرِّبا مربِط النّعامة منى » ؛ فى أبيات كثيرة من هذه القصيدة . وقد تقدّم شىء من ذكره .

ويقال : إنّ هذه الفرس كانت لُحزز بن لَوْذان ، وهى التى يقول فيها يخاطب زوجته :

إنّ الرّجالَ لَهُمْ إليكِ وسيلةٌ إن يأخذوك تـكحّلى وتخضَّبى[2]

(١) أمالى القالى ٣ : ٢٦ ، أمالى المرتضى ١ : ١٢٦ .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٣١٧ .

وأنا امرؤ إن يأخذونِيَ عَنْوَةً أُقْرَنَ إلى سَنَن الرّكاب وأجنَبِ
وبكون مركبُك القَعودَ وحِدْجَهُ وابنُ النعامة يومَ ذلكِ مَركبى

يعنى أنكِ إن أسرتِ كانت لك وسيلةعند الرّجال،من كحلك وخضابك ، وأنا إن أسرت جنِبت إلى جانب فرسِى ، فأ كون را كب ظلّها .

قال أبو عبادة : النّعامة عرْق فى باطن القدم ؛ ولذلك يقال للميّت : شالت نعامتُه ، أى ارتفعت رجلاه .

وقولهم : إنّ فرس الحارث بن عُبَاد هى فرس خُزَز فيه نظر ، فقد قيل : إن خُزَز بعد الحارث بزمان .

* * *

١٤٥ — مَا شَكَكْتُ فِيكَ ، وَلاَ سَتَرْت أَبَاكَ ، وَلاَ كُنْتَ إِلاَّ ذَاكَ .

يعنى لو تجمّلت بهذه الذخائر لما تدلّس علىّ أمرُك ، ولا خِفِىَ عَنِّى نسبُك الذى أعرفه قبل الآن .

* * *

١٤٦ — وَهَبْكَ سامَيْتَهُمْ فِى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ ، وَجَارَيْتَهُمْ فِى غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ .

المساماة: المماثلة فى السّمو . والذِّروة : أعلى الشىء ، ومنه ذِرْوة السَّنام .

والمجد : التوسّع فى الكَرم والجلالة ، وأصل المجد من قولهم: مَجَدت الإبلُ؛ إذا حصلت فى مرعًى كبير واسع ، وأمجدَها الراعى .

والحسَب : مايعدّه الإنسان من مفاخره ، ويحسبه من مفاخر آبائه ، قال ابن

الأعرابىّ : الحسب والكرم يكونان فى المرء وإن لم يكن له أباء لهم شرف .

والظَّرْف: الكيس. والأدب: جَمْعُ أنواعٍ من المحاسن ، مأخوذ من المأدُبة ، وهى الجمع على الطعام والدعاء إليه ، ومنه سمّى الأديب الجامع لفنون كثيرة ، [كالنظم والنثر والعلم والأدب والتفنُّن فى كلّ مقولة] (١) .

* * *

١٤٧ ــ أَلَسْتَ تأْوِى إِلَى بَيْتٍ قَعِيدَتُهُ لَكَاعِ ، إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبٌ خالِى الذّراع !

القعيدة : امرأة الرجل، كأنها مُقاعدته . ولَكَاع : اللئيمة النفس ، مبنىّ على الكسر . والعَزَب: البعيد عن الزّوجة ، مأخوذ من العازِب فى طلب الكلأ ، وهو المتباعد .

وخالى الذراع ؛ مثل خالى اليد ، كناية عن الفراغ .

والمعنى : لو أنّك جامع للمحاسن ، ألستَ متزوّجا ! وكلّ مَنْ شئت من هؤلاء القوم الذين يختارون صحبتى عَزَب ، فكيف أفضِّلك عليهم !

وقوله : « إلى بيت قعيدته لَكاع » . هو نصف بيت من شعر الحطيئة ، وهو قوله :

أُطَوِّفُ ما أطوِّف ثُمّ آوِى إلى بَيْتٍ قعيدتُه لَكاعِ

* * *

(١) من ط .

[الحُطَيئة]

واسم الحطيئة جَرْول بن أوْس بن مالك العبسيّ ، والحُطيئة: لقب وقع عليه — قيل : لِقصَرِه من الأرض . وقيل: لأنَّهُ ضَرَط يوما، فقيل له : ماهذا ؟ فقال : إنما حطأتُ حُطَيْئة [١] .وكانَ من أكبر الشعراء المخضرَمين ، أدرك الجاهليّة والإسلام ، والغالب على شعره الهِجاء ، وكان دنىء النفس والهمّة ؛ قدم المدينة فمشى أشرافُها بعضهم إلى بعض ، وقالوا : قدم علينا هذا الرجل ، وهو شاعر ، والشّاعر يظنّ فيحقّق ، فيأتى الرجل منكم ، فإن أعطاه جَهد نفسه [بَهَرَها][٢] وإن حرمه هجَاه . فأجمع رأيهم على أن يجعلوا له شيئًا من بينهم ، فجمعوا له أربعمائة دينار وأتوْه ، وقالوا : هـذه صِلة آل فلان ، وآل فلان ، وآل فلان ، فأخذها وظنّوا أنهم كفوه عن المسألة ، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل الإمام قائلا : مَنْ يحملنى على بَغْلين كفاه الله كَبّة [٣] جهنّم [٤] .

وحكى أبو عبيدة ، قال : مضى الحطيئة إلى عتيبة [٥] بن النَّهاس ، فسأله ، فقال : ما أنا على عملٍ فأعطيَكَ ، ولا فى مالى فضلة عن قومِي ، فقال له : فلا عليك . ثم انصرف . فقال بعض قومه : عَرَّضْتَنا ونفسك للشرّ ! فقال : كيف ؟ قالوا : هذا الحطيئة وهو هاجينا أخبث هجاء ، قال : ردّوه ، فردّوه إليه ، فقال : كتمتَنا نفسك ؛ كأنك تطلب [٦] العِلَل علينا ! اجلس ولك عندنا ما يسرّك ، فجلس فقال له : مَنْ أشعر الناس ؟ فقال : الذى يقول :

---

(١) حطيئة : تصغير حطأة ؛ فعلة ، من قولهم : حطأ حطأ ، إذا ضرط .
(٢) من الأغانى ، أى كلف نفسه فوق طاقتها .
(٣) كبة النار : صدمتها .
(٤) الأغانى ٢ : ١٦٤ (طبعة دار الكتب) .
(٥) ط : « عبيد » ؛ وأثبت ما فى ت والأغانى .
(٦) ت : « تريد » ؛ وأثبت ما فى ت والأغانى .

وَمَنْ يَجْعَلِ المعروفَ مِنْ دُونِ عِرْضه يَفِرْهُ ومن لا يتّق الشّتمَ يُشْتَمِ (١)

فقال عتَيبة : هذا والله من مقدِّمات أفاعيك ، ثم قال لوكيله : اذهب به إلى السوق ، فلا يطلب شيئاً إلا اشتريتَه ، فجعل يعرض عليه الخزّ والرقيق من الثياب فلا يريدها ، فيعرض الأكسيةَ الغلاظ والكرابيس(٢) فيشتريها . ثم مضى ، فلما جلس عُتَيبة فى نادى قومه ، أقبل الحطيئة وقال :

سئِلتَ فلم تَبْخَلْ ولم تعطِ طائلاً فسيَّانِ لا ذمٌّ عليك ولا حمدُ(٣)

ثم ركض فرسه ، وولّى(٤) .

وحكى أن الزِّبْرِقان بن بدر كان عاملاً على صدقات قومه ، فورَد فى سنة مجدِبة على عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ليؤدِّيَ ما اجتمع من الصَّدَقة ، فلقيَ الحطيئةَ ومعه زوجتُه وبناتُه ، فقال له الزِّبرقان ـ وقد عرفه ولم يعرفه الحطيئة : أين تُريد ؟ قال : العِراق . فقد حطَمتنا هذه السَّنَة . قال : وما تصنع ؟ قال: ودَدت أنْ أصادف بها رجلا يكفينى مئونة عيالى، وأصفِيه(٥) مدحِى ما حَييتُ ، فقال له الزِّبرقان : فهل لك فيمن يوسِعك لبناً وسَمْناً(٦) ، ويجاورك أحسن جوار ؟ فقال الُحطيئة : هكذا وأبيك العيش ، [وما كنتُ أرجو هذا كلّه](٧) فقال : قد أصبتَه ، قال: عند مَنْ ؟ قال: عندِى ، قال: ومَنْ أنت ؟ قال: الزِّبرقان بن بدر ، قال : فأين محلُّك ؟ قال : اركبْ هذه الإبل قال:

---

(١) لزهير ، ديوانه ٣٠ يفره : يتمه ولا ينقصه .

(٢) الكرابيس : جمع كرباس ، وهو ثوب من القطن الأبيض .

(٣) بعده فى الأغانى :

وأنتَ امرؤٌ لا الجودُ مِنْكَ سَجيَّةٌ فتعطِى ، ولا يعدى على النّائِلِ الوُجْدُ

(٤) الأغانى ٢ : ١٦٨

(٥) أصفيه : أخلصه .

(٦) الأغانى و« د » : « وتمرا » .

(٧) من الأغانى .

واستقبلْ مطلعَ الشمس،واسألْ عن القمر ـ يريد الزِّبرقان، فإنه من أسماء القمر ، وسمّى به لحسنه ـ وسرْ إلى أمّ هند بنت صعصعَة ـ يعنى زوجته ـ ففعلوا كرمته المرأة ، فبلغ ذلك بغيض بن عامر بن شمّاس ـ وكانوا ينافِسون[1] الزِّبرقان ـ فأرادوه على جِوارهم فأبَى ، فدسُّوا إلى امرأة الزّبرقان ؛ أنّه يريد أن يتزوّج مُلَيكة ابنة الحطيئة ـ وكانت جميلة ـ فقصّرت فى حقِّ الحطيئة ، وظهر له منها الجفاء ، فانتقل إلى بنى شمّاس فضربوا له قُبّةً ، وضربوا له أثاثًا ، وربطوا له بكلّ طُنُب جُلّة[1] ، وأراحوا عليه إبلَهم وكسوْه .

ثم ورد الزِّبرقان فقال :ردُّوا علىّ جارى ، فأبوا، وكاد يكون بينهم حرب ، فقال أهلُ الرأى منهم : خيِّروه ، ففعلوا ذلك ، فاختار بَغيضا ، فصار يمدحُهم ، وهم يطلبون منه هجاء الزِّبرقان فيمتنع ، إلى أن أرسل الزّبرقان إلى رجل من النَّمِر ، فهجا بَغيضاً ، فحينئذ قال الحطيئة يهجو الزِّبرقان ويناضل عن بَغيض :

وَاللهِ ما معشرٌ لاموا امرأً جُنُبا[2] ... فى آل لأْيِ بن شماسٍ بأكياسِ
لَمّا بدَا لىَ منكمْ غَشُّ أنفسِكُمْ[3] ... ولم يكن لجِراحى منكمُ آسِى
أزمعتُ يأسا مبيناً من نوالكُمُ ... ولن يُرَى طارداً للحرّ كالياس
دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتها ... واقعدْ فإنّك أنت الطّاعم الكاسى
مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يعدم جوازِيَهُ ... لا يَذهب العُرْفُ عند الله والنّاسِ

فاستعدى عليه الزِّبرقانُ عمرَ بن الخطّاب رضى الله عنه ، فقال عمر للزِّبرقان : ما أرى هَجْوًا ولكن معاتَبة . فقال الزّبرقان : أما تبلغ مروءتى إلاّ أن آكل وألبس ! فقال عمر رضى الله عنه : علىّ بحسّان ؛ فجىء به ، فسأله : أهجاه ؟ قال : لا ، بل سَلَح عليه بعد أن أكل الشّبرم[4] ، فأمر عمر بقطْع لسان الحطيئة

---

(١) الجلة وعاء من خوص يتخذ للتمر .

(٢) الجنب : الغريب . (٣) الأغانى : « غيب أنفسكم » .

(٤) الشبرم : حب يشبه الحمص ، يطبخ ويشرب ماؤه للتداوى . وقيل : إنه نوع من الشيح .

ليرهبه . فقال : يا أميرَ المؤمنين ، والله لقد هجوتُ أبي وأمّي وزوجتي ونفسي ؛ فضحك عمر وقال : ما قلتَ ؟ قال : قلتُ في أبي وأمّي :

وَلَقَدْ رأيتُكِ في النِّساء فسؤتِني ... وأبا بَنيكِ فساءني في المجلسِ

وقلت في زوجتي :

أُطَوِّفُ ما أطوفُ ثمّ آوِي ... إلى بيتٍ قعيدتُهُ لَكَاعِ

وقلت في نفسي :

أرَى لِيَ وجهاً قَبَّحَ الله خلقَه ... فقُبِّح مِنْ وجهٍ وقُبِّح حاملُهْ

فأمر به عمر فحبس في بئر وغطّاه ، فقال :

مَاذَا تقُولُ لأفراخٍ بذي مرخٍ ... حُمْرِ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شجرُ[1]

ألقيتَ كاسبَهم في قعرِ مظلمةٍ ... فاغفرْ عليكَ سلامُ الله ياعمرُ[2]

فأخرجه ، ثم قال : إيّاك وهجاء الناس ! قال : إذا يموت عيالي جوعا . فقال : إياكَ والمقذِع ! قال : وما هو ؟ قال : أن تخاير بين النّاس ، قال : فأنت والله أهجَى منّي ؛ فسلّمه إلى الزِّبرقان ، فشدّ في عنقه حبلا ، فعارضتْه غطفان وسألته أن يهبَه لهم ، ففعل، ثم اشترى منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعراضَ الناس بثلاثة آلاف درهم ، ولم يزل مقيما بالبادية إلى أنْ تُوفِّيَ في خلافة عمر رضي الله عنه[3] .

ولما حضرتْه الوفاة قالوا له : يا أبا مُلَيكة ، أوصِ ، فقال : ويلٌ للشّعر

---

(١) في ن « خمص » .

(٢) بعده في الأغاني :

أنتَ الإمامُ الّذي مِنْ بَعْدِ صاحِبِهِ ... أَلْقَى إليكَ مقاليدَ النُّهَى الْبَشَرُ

لَمْ يُؤثِروكَ بِهَا إذْ قَدَّمُوكَ لَهَا ... لَكِنْ لأنفسِهِمْ كانت بك الاثَرُ

(٣) انظر الأغاني ٢ : ١٧٩ وما بعدها .

من رُواة السّوء ! فقالوا له : (١ أوصِ يرحمك الله ! قال : أبلغوا أهلَ امرئ القيس أنّ صاحبهم أشعرُ النّاس بقوله : « فيالكَ من ليلٍ » ،فقالوا له : أوصِ ١) فقال :

الشِّعْرُ صعْبٌ وطويلٌ سُـلَّمُهْ   إذ ارتقى فِيه الّذِى لاَ يَعْلمُهْ
زلّتْ بهِ إلى الحضيضِ قَدَمُـــهْ   يريد أنْ يُعربَهُ فَيُعجِمُهْ (٢)

قالوا : ألكَ حاجة ؟ قال : لا ، ولـكن أخشى على المدْح الجيّد يُمدح به من ليس له أهلا (٣) ، قالوا : أتوصى للفقراء بشىء ؟ فقال : بالإلحاح فى المسألة ، فإنها تجارة لن تَبُور ، واستُ المسئول أضيق . ثم مات (٤) .

(١ ـ ١) فى الأغانى « أوص رحمك الله يا حطيئة ؟ قال : من الذى يقول :

إذا أنبضَ الرّامونَ عَنْها ترنّمتْ   ترنُّمَ ثَكْلَى أوجعتها الجنائزُ

قالوا : الشماخ ، قال : أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب ، قالوا : ويحك ! أهذه وصية ! أوص بما ينفعك ، قال : أبلغوا أهل ضابئ أنه شاعر حيث يقول :

لـكلّ جديدٍ لَذّةٌ غــير أنّنى   وجدتُ جديدَ الموت غيرَ لذيذِ

قالوا : أوص ويحك بما ينفعك ! قال : أبلغوا أهل امرئ القيس أنه أشعر العرب حيث يقول .

فيالكَ مَنْ ليلٍ كأنّ نجومَه   بكلّ مُغار الفَتْلِ شُدّت بيذْبُلِ

قالوا : اتق الله ودع عنك هذا ، قال : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حيث يقول :

يُغْشَوْن حتّى ما تهرّ كلابُهُمْ   لا يَسألون عن السّوَاد المقبلِ

قالوا : هذا لا يغنى عنك شيئا ، فقل غير ما أنت فيه » .

(٢) بعده فى الأغانى : قالوا : هذا مثل الذى كنت فيه ، فقال :

قَدْ كنتُ أحيانا شديدَ المعتمَدْ   وكنت ذا غربٍ على الخصم الألدّ

* فوردَتْ نفسى وما كانت تَرِدْ *

(٣) بعده فى الأغانى : « قالوا : فمن أشعر الناس ؟ فأومأ بيده إلى فيه ، وقال : هذا الجحير إذا طمع فى خير ـ يعنى فمه ـ واستعبر باكيا ، فقالوا له : قل : لا إله إلا الله ، فقال :

قالت وفيها حيدةٌ وذُعْرُ   عوذٌ بربّى منكمُ وحُجُرُ

فقالوا له : ما تقول فى عبيدك وإمائك ؟ فقال : هم عبيد قن ما عاقب الليل النهار .

(٤) الخبر فى الأغانى ٢ : ١٩٥ ـ ١٩٧ ، وفيه زيادة وتفصيل .

ومن محاسن شعره قوله :

جَزَى اللهُ خيراً والجزاء بكفِّه عَلَى خَيْرِ ما يجزى الرِّجالُ بَغيضا[1]
فلو شاء إذْ جئناه ضَنّ فلم يُلَمْ وصادف مِنَّا فى البلادِ عريضا

هذا معنى حسن غريب ، يقول : كثرت محاسنه ، فاستغنى أن يكثر مادحيه وأنه لو منع أو أساء إساءة واحدةً لكانت له فى البلاد حسنات كثيرة تكفيه ، ولا يصدُق هاجيه .

ومن محاسن شعره قوله :

فَتًى غيرُ مِفْراحٍ إذِ الخير مَسَّهُ وَمِنَ نَكَبَاتِ الدَّهْرِ غَيْرُ جَزُوعِ[2]
كَثيرُ النَّدَى إن تأته بصنيعةٍ إلى ماله لم تأته بشفيع

وقوله فى أبى موسى الأشعرىّ :

وَجَحْفَلٍ كسوادِ اللّيلِ منتجِعٍ أرضَ العدوِّ ببؤسٍ بعد إنعامِ[3]
من كلِّ أجْرَدَ كالسِّرحان أترزَهُ مسح الأكفِّ وسقْىٌ بعد إطعام
مستحقباتٍ رواياها جَحافِلَها يسمُو بها أشعرىٌّ طرفُه سامِى

الرّوايا : الإبل التى تحمل الأثقال تجنَب الخيل إليها ، فتضع جحافلها على أعجاز الإبل مكان الحقائب لطولها ، فكأنها مستحقبة لها . وكان الحطيئة قد سأل أبا موسى أن يكتبه فى الجيش ، فقال : تمت العِدّة ، فمدحه بهذه القصيدة فكتبه ، فبلغ عمر فلامه على ذلك ، فقال : اشتريتُ عِرْضى منه ، فقال : أحسنت .

وقوله :

وفتيانِ صدقٍ من عدىٍّ عليهمُ صفائحُ بُصْرى عُلِّقتْ بالعواتِقِ[4]

---

(١) ديوانه ١٥ (٢) ديوانه ص ٨٧ .
(٣) ديوانه ٣٥ (٤) ديوانه ملحق ١٧

إذا مَا دُعُوا لم يَسألوا مَنْ دعاهمُ ولم يُمسِكوا فوق القلوبِ الخوافقِ

وقوله :

سيرِى أمامُ فإن المــــال يجمعُه سَيْب الإله وإقبالى وإدبارى (١)

نسرى إلى ضوء أحسابٍ أضاء لها كما أضاءت نجومُ الليل للسارى

وقوله :

أتَتْ آلَ شمّاسِ بن لأىٍ وإنما أتاهم بها الأحْلام والحسَبُ العِدُّ (٢)

أقِلّوا عليهمْ لا أبا لأبيكمُ من اللوم أو سُدُّوا المكانَ الّذِى سَدُّوا

أولئك قومٌ إن بنَوْا أحسنوا البُنىَ وإن عاهدوا أوفَوْا وإن عَقَدُوا شَدُّوا

وإن كانتِ النَّعْماء فيهم جَزَوْا بها وإن أنعموا لا كَدّرُوها ولا كَدُّوا

وإن قال مولاهم على جهل حادثٍ من الدّهر رُدُّوا فضلَ أحلامِكمْ ، رَدُّوا

شياطينُ فى الهَيْجا مكاشيف للدُّجَى بنَى لهمُ آباؤهُمْ وبنَى الجَدُّ

وتعذِلنى أبناء سَعْــــدٍ عليهمُ وما قُلْتُ إلاّ بالذى عَلِمَتْ سَعْدُ

* * *

١٤٨ — وَأَيْنَ مَنْ أَنفَرِدُ بِهِ مِمَّنْ لاَ أُغْلَب إلاَّ عَلَى الأَقَلِّ الأَخَسِّ منه !

هذا تفسير لما تقدّم من الكلام ، فإن الذى تنفرد به العزَب ، والذى يغلب على الأقلّ منه المتزوّج .

(١) ديوانه ٨٩ .

(٢) ديوانه ١٩ . الحسب العد : القديم .

والغَلَب : الاستيلاء على الشىء ، كأنها لا تستولى إلا على مافَضَل من من زَوْجَتِه .

* * *

١٤٩ — وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِى بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ ، وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَىَّ ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَىَّ .

كلّ هذه الألفاظ كناية عن كثرة النّكاح المعجِب للنساء .

حكَى بعض الغُزاة مع قتيبة قال : لمّا فتحنا بلد كذا من الروم سُبِيت امرأةٌ منهم ، فواقعتُها فى ليلةٍ سبعَ مرات ، فقالت : أ كلُّ العرب تفعل هذا ؟ قلت : نعم ، قالت : بهذا العمل نِصروا علينا !

* * *

١٥٠ — وَبَيْنَ آخَرَ قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ ضُرَاطُهُ .

الـكلام معطوف على ما قبله ، وهذه الألفاظ كناية عن عَجْز الرجل عن النّـكاح إذا شاخ وضعف ، وهو مأخوذ من قول بعض العرب وقد أسنّ ، وسئل عن حاله فقال : والله لقد ذهب منّى الأطيَبان، وهما: الجِماع والنوم ، و بقى فىّ الأرْطَبان وهما : السُّعال والضُّراط .

* * *

١٥١ – وَهَلْ يَجْتَمِعُ لِى فِيكَ إِلاَّ الْحَشَفُ وَسُوءُ الكِيلَةِ .

يعنى لو وَصَلْتُكَ لاجتمع علىَّ سوء منظرك ، وسوء مخبرك ؛ وهذا مثل للعرب يضرب فى الخلّتين السيّئتين يجتمعان ، ويقال : إنّه لعمرو بن معديكَرِب ، والحشَف : أردأ التمر . والكِيلة : فِعْلة من الكَيْل ، وهى تدلّ على الهيئة ، نحو الجِلْسة ، والرِّكبة ، فليعلم ذلك .

* * *

١٥٢ – ويَقْتَرِنُ عَلَىَّ بِكَ إلاَّ الْغُدَّةُ ، والموت فى بيت سَلُولِيّة !

هذا مَثَل آخرُ فى معنى الأوّل ، وقائله عامر بن الطُّفيل عند ماتوعّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا عليه ، وقال : « اللهمّ اكفنى عامراً بما شئت » ، فظهر فى رقبته غُدّة مات منها فى بيت امرأة من سَلُول ، وجعل يقول : غُدّة كغدّة البعير ، وموت فى بيت سلوليّة (١) ! وقد تقدّم خبره (٢) .

* * *

١٥٣ – تعَالَى اللهُ ياسَلْمَ بْنَ عَمْرٍو
أَذلَّ الحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

[أبو العتاهية]

هذا البيت لأبى العتاهية ، واسمُه إسماعيل بن القاسم بن سويد [بن كيسان] ، مولى عَنَزة ، ومنشؤه الكوفة .

---

(١) الميدانى ٢ : ٣ .

(٢) ص ١٦٧ .

وهو من الثّلاثة المطبوعين الّذين لا يُقدَر على جمع شعرهم لكثرته : بشّار ، والسّيّد الحِمْيَرىّ ، وأبو العتاهية .

كان أوّل أمره يبيع الجِرار على رأسه ، ثم تولّع بالنّظم ، وكان فيه من العجائب ؛ قيل له : كيف تقولُ الشعر ؟ قال : ما أردتُه قطّ إلا تمثّل لِى فآخذ منه ما أريد ، وأترك ما لا أريد .

وكان أبو نُوَاس يقول : ما رأيتُه قطُّ [إلاّ][1] تمثّل لى أنه سماوىّ ، وأننى أرضىّ .

وأكثرُ شعرِ أبى العتاهية فى الزُّهد ، وكان قدتنسّك وتزهّد إلى أن مات.

قال أحمد بن الحارث : كان مذهبُ أبى العتاهية القولَ بالتوحيد ، وأنّ الله تعالى خلق جوهريْن متضادّين لا من شىء ؛ ثم إنّ الله تعالى بنى العالم هذه البِنية منهما ، وأنَّ العالَمَ حديث العين والصِّفة [2] لامحدِثَ له إلاّ الله ؛ وكان يزعُم أنّ الله سيعيد كلَّ شىء إلى الجوهرين المتّصلين قبل أن تفنى الأعيانُ جميعاً ؛ وكان يقول بالوعيد ، وتحريم المكاسب ؛ وكان يتشيّع[3] على مذهب الزَّيْديّة ، ولا ينتقص أحداً ، ولا يرَى الخروج على السُّلطان .

وكان مجبِراً ؛[4] حدّث الجاحظ ، قال : قال أبو العتاهية لثمامة بن أشرس بين يدى المأمون ـ وكان كثيراً مايعارضه بقوله فى الأخبار : أسألك عن مسألة ، فقال له المأمون : عليك بشعرك ! فقال : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى مسألته[5] ، و يأمرَه بإجابتى ! فقال : أجبه إذا سأل ، قال : أنا أقولُ : [إنّ][6] ما يفعله العباد من خير وشرّ فهو من الله تعالى ، وأنت تأبَى ذلك ، فمن حرَّك

(١) من ت والأغانى ٤ : ١ (طبعة دار الكتب) .
(٢) الأغانى : « والصنعة » (٣) ت الأغانى : « ويتشيع » .
(٤) أى منسوباً إلى الجبر ؛ وهو القول بأن الله يجبر العباد على الذنوب ؛ أى يكرههم عليها
(٥) ط : ٨ « مسألتى » ؛ والصواب ما أثبته من ت والأغانى .
(٦) من ت والأغانى .

يدِى هذه؟وجعل أبو العتاهية يحرِّكها ، فقال له ثُمامة : حَرّكها مَنْ أمُّه زانية ، فقال : شتمنِي والله يا أمير المؤمنين . فقال ثُمامة : ناقض الماصّ بَظْر أمِّه ، فضحك المأمون ، وقال : ألم أقل لك تشتغل بشعرِكَ وتَدَع ما ليس من عملك!

قال ثمامة : فلقيَنى ، فقال لى : يا أبا معن ، أما أغناك الجواب عن السَّفَه ! فقلت : إن من أتمِّ الـكلامِ ما قطع الحجَّة ، وعاقب على الإساءة ، وشفى من الغَيظ ، وانتصر من الجاهل[١] .

وحدَّث أبو شعيب صاحب ابن أبى دواد ، قال : قلتُ لأبى العتاهية : القرآن عندك مخلوقٌ أو غير مخلوق ؟ قال: سألتنى عن الله أو عن غير الله ؟ قلت: عن غير الله ؛ فأمسَك ، فأعدتُ عليه ، فأجابنى هذا الجواب ، حتى فَعَل ذلك مرارا ، فقلت : ما لك لا تجيبنى ! قال : قد أجبتُ[٢] ولـكنّك حِمار .

وحدَّث ثُمامة بن أشْرس ، قال : كان أبو العتاهية شديدَ البُخْل ، فأنشدنى ذات يوم أبياتاً له فى ذمّ البخل ، يقول فيها :

ألاَ إنَّمَا مالِي الّذِى أنا مُنْفِقٌ ... وليس لِيَ المالُ الّذِى أنا تارِكُهْ

فقلت له : مِنْ أين أخذت هذا القول[٣] ؟ قال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس لك من مالِكَ إلاَّ ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو أعطيت فأمضيت »؛ فقلت له : أتؤمن بهذا القول إنه الحقّ ؟ قال : نعم ، قلت : فلم تحبِس عندك أكثَر من عشرين بَدْرة[٤] لا تأكل منها ، ولا تنفقهـا ، ولا تقدّمها ذخراً ليومِ فاقتِك ! فقال : يا أبَا معن ، والله إنّ ما تقول هو الحقّ ، ولـكنّى أخشى[٥] الفقر والحاجة إلى النّاس ، قلت :

---

(١) الأغانى ٤ : ٦ . (٢) ت : « فعلت » .
(٣) الأغانى : « فمن أين قضيت بهذا ؟ » .
(٤) البدرة : عشرة آلاف درهم .
(٥) فى ت « أخاف » .

وبمَ تزيدُ حالُ مَن افتقر على حالك ! وأنت دائم الحِرْص والجمْع ، والشحّ على نفسك ، لا تشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد . فترك جوابَ كلامى كلّه ، ثم قال : والله لقد اشتريتُ فى يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بأربعة دراهم . فلما بلغ هذا المقول أضحكنى وأذهلنى ، وعلمت أنّه ليس ممّن شرح الله صدره للإسلام (١) .

وتوفى سنة ثلاث عشرة ومائتين ببغداد هو وإبراهيم الموصلىّ وأبو عمرو الشيبانىّ فى يوم واحد . وقيل له عند موته : أىّ شىء تشتهى ؟ قال : أنْ يأتىَ مخارق ويضع فمه على أذنى ويغنّينى بقولى :

سَيُعْرَضُ عن ذكرى وتُنسَى مودّتى ... ويحدُث بعدى للخليل خليلُ (٢)
إذا ما انقضتْ عنّى من الدّهر مدّتى ... فإنّ عزاءَ الباكياتِ قليلُ

ومن محاسن شعره قوله :

جرَّ البخيلُ علىّ صالحةً ... عنّى لخفّته على فكرى (٣)
ما فاتنِى خيرُ امرىءٍ حَملَتْ ... عَنّى يداه مئونةَ الشّكْرِ

وقوله :

عَذيرِى من الإنسانِ لا إن جفوتُهُ ... صَفَا لِى ولا إنْ كنتُ طوعَ يدَيْهِ
وإنّى لمحتاجٌ إلى ظلِّ صاحِبٍ ... يروقُ ويصفو إن كَدرْتُ عليهِ

كان المأمون رحمه الله تعالى يقول : خُذوا منّى الخلافة وأعطونى هذا الصاحب .

وقوله :

إنّى أمنْتُ من الزّمان وريْبِه ... لمّا علِقتُ من الأمير حِبالا (٤)

---

(١) الأغانى ٤ : ١٦ (٢) الأغانى ٤ : ١٩ .
(٣) البيت الثانى من أبيات ثلاثة فى ديوانه ١١٧ .
(٤) ديوانه ٣١٧ .

لو يَستطيع الناسُ من إجلاله ... تخِذُوا له حُرَّ الوجوهِ نِعالا
إنّ المطَايا تشتكيكَ لِأنّهَا ... قطَعَتْ إليكَ سَباسِباً ورِمَالا
فإذا وَرَدْنَ بِنَا وَرَدْنَ مُخِفَّةً ... وإذا صَدَرْنَ بِنا صَدَرْنَ ثِقالا

وقوله :

كأنك عند الكرّ فى الحرب إنّما ... تفرّ من الصّفّ الذى من ورائكا[1]
فما آفة الأبطال غيرُكَ فى الوغى ... وما آفة الأموالِ غير حِبائكا

وقوله :

بكيتُك يا علىُّ بدمعِ عينى ... فلَمْ يُغنِ البكاء عَلَيْكَ شيَّا[2]
وكانتْ فى حياتِكَ لِى عظاتٌ ... وأنتَ اليومَ أوعظُ مِنْكَ حيَّا

وقوله :

لا تأمن الموتَ فى طرف ولا نفسٍ ... وإن تسترتَ بالأقفال والحرَسِ[3]
ترْجُو النجاةَ ولم تسلُكْ طريقتَها[4] ... إنّ السفينة لا تجرى على اليَبَسِ

وقوله :

ألا إنّنا كُلّنا بائدُ ... وكلٌّ إلى رَبِّهِ عائدُ[5]
فيا عجبًا كيف يَعصِى الإلـ ... ـهَ أم كيف يجحَدُهُ الجاحدُ !
وفى كلِّ شىء له آيةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أنّهُ الوَاحِدُ

وقوله :

ما إن يطيبُ لِذِى الرّعايةِ ... للأيّامِ لا لَعِبٌ ولا لَهْوُ[6]
إذْ كان يسرفُ فى مسرّتِهِ ... فيموتُ من أجزائه جُزْوُ

---

(١) ديوانه ٣١٧ ، من أبيات يمدح فيها مزيد الشيبانى .
(٢) ديوانه ٣٢٩ (٣) ديوانه ١٣٣ .
(٤) الديوان : « مسالكها » .
(٥) ديوانه ٦٩ (٦) ديوانه ٢٩٦ .

كان ابن مخلد يقول : إن هذين البيتين لروحانيان يطيران بين السماء والأرض .

وقوله أيضا :

النَّاسُ فِي غَفَلَاتِهِمْ وَرَحَا المَنِيَّةِ تَطْحَنُ(١)

وقوله :

إذَا المرء لم يعتِق مِن المالِ رِقَّهُ تملّكهُ المالُ الَّذِى هُوَ مَالِكُهْ(٢)
إلاّ إنما مالِى الَّذِى أنا منفقٌ وليس لِىَ المالُ الَّذِى أنا تارِكُهْ
إذا كنتَ ذا مالٍ فبادرْ بِهِ الَّذى يحقّ وإلا استهلكَتْه هَوَالِكُهْ

وقوله :

أ كلَّ يومٍ طول الزَّمَان إذا جئتُك فى حاجةٍ تقول : غدَا !
لا جَعَل الله لِى إليك ولاَ عِنْدَكَ ما عشتَ حاجَةً أبَدَا

وقوله فى الشعر الذى ذكر بسببه ، يخاطب سَلْما الخاسر حيث يقول فيه :

تَعالَى الله يا سَلْمَ بن عمرٍو أذَلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرجالِ(٣)
هبِ الدنيا تُسَاق إليك عَفْواً أليْس مصيرُ ذاك إلى الزَّوَالِ !

* * *

١٥٤ – مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بذَرْعِكَ ، وَتَرْبَعَ بِذَلِكَ عَلَى ظَلْعِكَ !

ما أخلقك ، أى ما أولاكَ ؛ يقال : يقال : فلان خليق بكذا ، أى كأنّه مخلوق فيه ، مجبولٌ عليه .

---

(١) ديوانه ٢٦٧ (٢) ديوانه ١٩١ .
(٣) ديوانه ٢٠٦

وتقدِر بِذَرعك ، أى تقيس الأمر بجهدِك قبل أن تفعلَه. والذّرع: الجهد ، ومنه ضاق فلانا ذرعا ؛ وأصل الذّرْع بَسْط اليد ؛ كأنه جهد فى بسطها .

وتربَع على ظَلْعِك ، مثل للعرب ، يضرَب لمن يكلِّف نفسه ما لا يقدر عليه ، والظّلْع فى البعير :الغَمْز فى مشيه ، ويستعار لغيره ، وربَع إذا قام ؛ فالمعنى: أقم على ضعفك ، وارفق بنفسك .

وقال آخر : قولُهم : اربَعْ على ظَلْعِك ، أى على قَدْرِ قدرتك . ويقولون أيضا : ارقَ على ظَلْعك ؛ لأنّ الراقى فى جبل أو سلّم إذا كان ظالعاً يرفُق بنفسه .

وقال آخر : قولهم : اربع على ظلْعِك ، أى احمل الحجَر على قدر جهدك ، فإن الحجر يُسمّى ربيعة ، وهو قولٌ متعمّق .

* * *

١٥٥ — وَلاَ تَكُنْ بَرَاقِشَ الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا .

[حديث براقش]

هـــذا مثلٌ يُضرب لمنْ يعمل عملاً يرجع ضررهُ عليه ، واختلفت الأقوال فيه .

فقال قوم وهم الأكثر : بَراقش اسم كلْبة نبحتْ قوماً قصدوا الغارةَ على قوم ، نخفيَ عليهم مكانُهم ، فلمّا نبحت الكلبة عرفُوهم فاجتاحوهم ، فقالت العرب : أشأم من براقش ، وعلى أهلها تَجْنِي بَراقش .

وقال أبو عمرو بن العلاء : بَراقش امرأةٌ كانت لبعض الملوك ، فسافر الملك واستخلفَها ، وكان لهم موضع إذا فزعوا دخّنُوا فيه فإذا أبصره الجند اجتمعوا ، وإن جَوار يها عَبَثْنَ ليلةً فدخّنّ لجاء الجُنْد، فلمّا اجتمعوا قال لها نصحاؤها : إن

رددتِهم ولم تستعمليهم فى شيء ، ودخّنت مرّةً أخرى لم يحضروا ؛ فأمرتهم[1] فبنَوْا بناء دون دارها ، فلمّا جاء الملك سأل عن البناء ، فحدّثوه بالقصّة ، فقال : علىَ قومها تجنى براقش .

وحكى الشرقىّ عن لقمان حكاية أخرى فى هذا المعنى ، وهى تقارب هذه . والأولى أقرب إلى المعنى .

* * *

١٥٦ — وَعَنْزَ السُّوءِ الْمُستَثِيرَةَ لحَتْفِهاَ .

هذا أيضا مَثَل يُضرب لمن يُعين على ضَرر نفسه ، وأصلُه أنّ رجلا وجد عَنْزا ، فأراد ذبحها فلم يجد سِكّينًا ، فبينما هو كذلك إذ بَحثتْ الشاة بظلفِها ، فاستثارت سِكّينا فذبحها بها .

* * *

١٥٧ — فَمَا أَرَاكَ إلاَّ سَقَطَ بِكَ الْعَشاَء عَلَى سِرْحَان .

مثل يضرب لمن أراد أمرا فوقع على حَتْفه[2] ، وأصلُه أنّ دابّةً خرجتْ تطلب عشاء ، فوجدها ذِئْبٌ فأكلها .

وقيل : رجل أعشَى العين ، وقع على ذئب فأكله ؛ وعَلَى هذه الرواية يكون العشا مقصورا .

وقيل : بل هو سِرْحان بن قعنب اليربوعىّ ، كان فاتكا ، وحَمَى واديًا فورد عوف الأسدىّ ، فقال : أشهد لا يمنعنى سِرْحانُ رعْىَ إبلى الليلة ، فرعاها فمرّ به سِرْحان بن قعنب فقتله ، فقال أخوه يخاطب زوجة الأسدىّ :

أبلِغْ صُبيحةَ أنّ راعِى أهلها   سَقَطَ العَشاَء به على سِرْحان

---

(١) ط : « فأرت بهم » ؛ والصواب ما أثبته من ت ، والميدانى .

(٢) أصل المثل : « سقط العشاء به على سرحان » ، وانظر الميدانى ١ : ٣٣١ .

سقط العَشاء به على متقمّرٍ[1] لم يَثْنِهِ خوفٌ من الحدَثان.

* * *

١٥٨ — وَبكَ لاَ بِظَبْي أَعْفرَ .

هو مثل يُضرب للشّماتة بالرّجل ، يقول : نزل به المكروهُ ولا نزل بظبي؛ تريدُ أنَّ عنايتى بالظّبي أشدّ مِنْ عنايتى به .

والأعفر الّذى لونه لون التّراب ، وهو العَفَر ، وكذلك غزلان السهل ، وكأنّ خصّ الظبي بالذكر ، لأن العِثار والكسر سريعان إليه . وقيل : لأنه متى أصابه داء مات سريعا .

* * *

[الفرزدق وبنو نهشل]

والمثلُ للفرزْدق ، منظوم من أبيات تتعلّق بها حكاية ، وذلك أنّ الفرزدق كان هَجاَ بنى نهشلٍ بأبياتٍ ، منها :

لَعَمْرِى لقد قلّ النُّهَى فى عَدِيدِكُمْ بنى نهشلٍ ما لومُكمْ بقليلِ[2]

ثم خرج ساداتُ بنى تميم ، وفيهم الُحتات بن مُجاشع عمّ الفرزدق إلى معاوية فوصلهم ، وترك حُتاتا فعاتبه ، فقال معاوية : إنى اشتريتُ مِن القوم دينَهم ، ووفّرت عليك دينَك ، قال : فاشترِ منّى دينى أيضا ، فألحقه بهم فى الصلة ، فأقام يتنجّزها ، فطُعن فمات ، فرجع معاوية فيما أعطاه ، فحينئذ قال الفرزدق وهو إذا ذاكَ بالبَصْرة :

أَبُوكَ وَعمّى يا مُعاوِيَ أوْرَثَا تُرَاثًا فأوْلَى بالتُّراثِ أقارِبُهْ[3]

---

(١) سقط العشاء به على متقمر ؛ مثل ذكره الميدانى أيضا ؛ وقال : المتقمر هو الأسد يطلب الصيد فى القمراء . (٢) ديوانه ٦٤١ (٣) ديوانه ٤٩ ، ٥٠ .

فما بال ميراثِ الُحتاتِ أكلتَه [(١)] ومِيراث حربٍ جامدٍ لك ذائبُهْ
وكمْ من أبٍ لى يا معاوِىَ لم يَكُنْ أبوكَ الّذِى من عبدِ شمسٍ يقاربُهْ

فوجد النهشليّون سبيلا ؛ فسعَوْ به زياد ، وقالوا : هجا أميرَ المؤمنين ، فقال زياد لعرِيف بنى تميم : أحضر قومك والفرزدق فيهم ليأخذوا عطاءهم ، فأحسّ الفرزدق بالشرّ فهرب ، وما زال يطوفُ حتى أتى المدينة عائذا بسعيد بن العاص، فقال فيه من قصيدة منشدا :

ترى الغُرَّ الجحاجِحَ من قُريشٍ إذَا ما الأمْرُ فى الحَدَثان عالا [(٢)]
قِياما ينظرون إلى سَعيدٍ كأنّهُمُ يَرَوْنَ بِهِ هِلاَلاَ

فأمّنه سعيد ؛ فبلغ زياداً ، فقال: لا والله لا أرضى عنه حتى ينتسب فى بنى فُقَيم [(٣)]، ثم قال مروان : لم ترضَ أن نكون قعودا ننظر إلى سعيد حتى جعلتَنا قياما ! فقال : إنّك منهم يا أبا عبد الملك لصَافِن ، فحَقَدها عليه مَرْوان ، فلمّا عُزِل سعيد وتولّى المدينةَ مَرْوان ، أحضر الفرزدق ، فقال : أنت القائل :

هُمَا دَلَّتَانِى مِنْ ثمَانِينَ قَامَةً كما انقَضَّ بازٍ أقتمُ الرِّيش كاسِرُهْ [(٤)]
فَقُلْتُ ارْفَعُوا الأَسْتَارَ لاَ يشْعُروا بِنَا وَأَقْبَلْتُ فى أعجازِ لَيْلٍ أبادِرُهْ

فقال : نعم ، قال : أتقول هذا بين أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ! اخرجْ عن المدينة ، فاستجار بعبد الله بن جعفر. ثم مات زِياد ، فبلَغ الفرزدق أنّ مسكينا الدارميّ رثاه [(٥)] ، فقال ـ ولم يكن هجا زيادا حتى مات خوفا منه :

---

(١) رواية الديوان :

* أتأكل مِيرَاثَ الُحتَاتِ ظُلامةً *

(٢) ديوانه ٦١٢ . عال : فدح وأثقل . وفى الأغانى : « غالا » .
(٣) ت : « تميم » . (٤) ديوانه ٢٦١ .
(٥) وهو قوله :

رأيتُ زيادةَ الإسلامَ ولّتْ جهاراً حـــين فارقهَا زيادُ

أَمِسْكِينُ أَبْكَى اللهُ عَيْنَكَ إِنَّمَا   جَرَى دَمْعُهَا فِي بَاطِلٍ فتحدَّرَا[1]
أتَبْكِي امرأً مِنْ أهلِ مَيْسان كافراً   ككسرى على عِلْيائه أو كقيصَرا[2]
أقولُ لَهُ لمّا أتانى نعيُّه   به لا بظَبْيٍ بالصَّرِيمة أعْفَرَا!

* * *

١٥٩ — أَعْذَرْتَ إنْ أَغْنَيْتَ شَيًّا ، وأَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا .

يعنى بلغتَ العذر فى نصيحتك إن قبلتَ مِنّى ، وتركت التعرّض إلىّ ، وأسمعتُك إن كنت حيًّا تسمع .

وهذا نصف بيت من بيتين لعمرو بن معديكرب — و يروى لدُريد بن الصِّمة وقد تقدّم ذكرها ؛ وهُمَا :

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا   وَلَكِنْ لاَ حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي
وَلَوْ نَارٌ نفخْتَ بِهَا أَضَاءَتْ   ولكنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادِ

وبعض المتعصّبين على أبى العلاء المعرىّ يزعُم أنه خرج ليلةً إلى بعض مَراقِب موسى عليه السلام ، ورفع رأسه إلى السماء ، وقال : يارب ّ ، كلّمنى فأنا أفصح مِن موسى ؛ قال ذلك مرارا ، فلم يجبه أحد ، فأنشد البيتين ، وذكر أنهما من شعره ؛ والحكاية باطلة فى حقّه من وجوه متعددة .

* * *

---

(١) ديوانه ٢٤٥
(٢) عدان ، مدينة كانت على الفرات .

١٦٠ – إنَّ الْعصَا قرِعَتْ لِذِى الْحِلْمِ

وَالشَّىْءِ تَحقِرُهُ وقد يَنْمِى

قرعت له العصا ، مثل يضرب لمن ينَصَح ، وينبّه على ما هو أصلح .

وقوله : « إن العصا قرعت » ،و « الشىء تحقِره » مثلان فى التّحذير منظومان فى قول الحارِث بن وعْلة اليَشْكُرِىّ ، وقد قتَل بعضُ ساداتِ قومه أخاه ، فقال من أبيات حسنة فى معناها :

أَقتَلْتَ سَادَتَنَا بلا تِرَةٍ إلاَّ لِتُوهِنَ قُوَّةَ الْعَظْمِ[1]

ووطِئْتَنَا وَطْئًا على جَنَفٍ[2] وطء الْمُقَيَّدِ نابتَ الهَرْمِ[3]

وَزَعَمْتَ أنَّا لا حُلومَ لَنَا إنَّ العَصا قُرِعَتْ لِذِى الحِلْمِ

لا تأمنَنْ قومًا ظلمْتَهُمُ وبدأْتَهُمْ بالشرِّ والغَشْمِ[4]

أَنْ يأبُرُوا نَخْلاً لغيرِهِمُ والشىء تحقِرُه وَقَدْ ينمِى[5]

الآنَ لما ابيضّ مسرُبتِى وعضضتُ من نابِى على جِذْمِ

ترجُو الأعادى أنْ أصالِحها جهلاً توهّم صاحبُ الكَلْمِ

قومِى هُمُ قتَلُوا أميمَ أخِى فإذا رميتُ يُصيبُنى سَهْمِى

فلَئِن عفوتُ لأعفُوَنْ جَلَلاً ولئن أَصبْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمى

* * *

(١) أبيات منها فى الحماسة ١ : ٢٠٣ـ٢٠٦ـ بشرح التبريزى مع اختلاف فى الرواية.
(٢) الحماسة : « على حنق » .
(٣) الهرم : ضرب من نبات الحمض .
(٤) الحماسة : « بالغشم والرغم » .
(٥) أبرت النخل ، أى لقحته .

[أوّل من قرِعت له العصا]

واختُلفَ فيمن قُرِعتْ له العصا ، وضُرِب به المثل ، فقيل : هو عامر بن الظَّرِب بن عبّاد اليشكرىّ أحدُ حُكّام العرب المشهورين،وفيه يقول ذو الإصْبَع:

وَمِنَّا حَاكِمٌ يَقْضِى فَلاَ يُدْفَعُ مَا يَقْضِى[١]

وهو أوّل مَنْ قَضَى فى الْخنثَى ؛ وذلك أنه اختُصم إليه فى رجل له ما للمرأة وما للرجل ، أيُجعل رجلا أم امرأة ؟ فقال لهم: انصرفوا عنّى حتى أنظر فى أمرى، فما نزل بى مثلُها ، فانصرفوا وبات ليلته ساهراً ، وكانت له جارية ترعى غنمه يقال لها : سُخَيْلة ، وكان يقول لها إذا سَرحت عنه بكرة : ضحّيت[٢] ياسُخَيل ، وإذا راحت يقول : مَسّيتِ ياسُخيل[٣]، لأنها كانت تؤخّر [السّرْح][٤] حتى يسبق[٥]؛ فلم يَقلْ لها شيئاً ، ورأت سهره وفِكْره، فقالت له : ما عَراكَ ؟ فقال: دَعِينى، [أمرٌ ليس][٤] من شأنك ؛ فأعادت عليه فقال : ويلك! إنه اختُصِم إلىّ فى خنثى ، له ما للذكر وما للأنثى ؛ فى ميراثه ، أأجعله امرأة أم رجلا ؟ فقالت : لا أبالك! [أتبع القضاء المبَالَ]، أقعِده فإن بالَ من حيث يبُول الرجل فهو رجل. فقال لها: «مَسِّى سُخيل بعدها أو صَبّحى» ، فذهبتْ مثلا ، ثم خرج فقضَى بالذى أشارت[٦].

قال السّهيلىّ: وهوحُكم معمول به فى الشرع، من باب الاستدلال بالعلامات. وله مثْل فى الشريعة قول الله تعالى : ﴿ وَجَاءوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[٧].

---

(١) من قصيدة له فى الأغانى ٣ : ٩٢ — طبعة دار الكتب .

(٢) فى ابن هشام : « صبحت والله » .

(٣) فى ابن هشام : « مسيت والله » .

(٤) من ابن هشام .

(٥) فى ابن هشام « حتى يسبقها » .

(٦) الخبر فى سيرة ابن هشام ١ : ١٣٥ .

(٧) سورة يوسف ١٨ .

وجْه الدّلالة على الـكذب أنّ القميص لم يكن فيه خَرْق ولا أثر[١] .

ثم إن عامراً كبِر وضعف حتى قال فى شعره :

أرَى شعراتٍ على حاجِبَــى بِيضاً نَبَتْنَ جَمِيعاً تُوامَا
أظلُّ أهاهى بهنّ الـكلا بَ أحسبهنّ صُواراً قِياما[٢]

فقال له الثانى من ولَده ــ وقيل ابنته : إنّك ربّما أخطأتَ فى حُـكْمٍ فيُحمَل عَنْك ، قال : فاجعلوا لى أمارةً أتنبّه بها حتى أعرِف الصواب ، فكان يجلس قُدّام بيتِه ، ويجعل ابنه فى البيت ، ومعه عصاً ، فإذا هَفا قرع جفنه فينتبه ، ويرجع إلى الصواب ، فضرِب به المثل ، وهو أوّل من فعل ذلك[٣] .

* * *

وقيل : هو شخص[٤] فى زمن النّعمان بن المنذر حذّر أخاه ؛ وذلك أنّ النعمان أرسَلَ شخصاً يرتاد الـكلأ ، فأبطأ فغضب ، وعزم على أن يسأله إذا وَرد ،

---

(١) الروض الأنف ١ : ٨٦ ، ٨٧

(٢) الصوار : القطيع من البقر .

(٣) الميدانى ١ : ٢٥ .

(٤) اسمه عمرو بن مالك بن ضبيعة ، أخو سعد بن مالك الـكنانى ؛ وصدر الخبر كما فى الميدانى : « أن سعدا أتى النعمان بنُ المنذر ومعه خيل له قادها ، وأخرى عراها ، فقيل له : لم عريت هذه وقدت هذه ؟ قال : لم أقد هذه لأمنعها ؛ ولم أعر هذه لأهبها ، ثم دخل على النعمان فسأله عن أرضه ؛ فقال : أما مطرها فغزير ، وأما نبتها فـكثير ؛ فقال له النعمان : إنك لقوال ؛ وإن شئت أتيتك بما تعيا عن جوابه ، قال : نعم ، فأمر وصيفا له أن يلطمه ، فلطمه ، قال : ما جواب هذه ؟ قال : سفيه مأمور ، قال : الطمه أخرى ؛ فلطمه ، قال : الطمه أخرى ، فلطمه ، قال : ماجواب هذه ؟ قال: لو أخذ بالأولى لم يعد للآخرى ، ــ وإنما أراد النعمان أن يتعدى سعد فى المنطق فيقتله ــ قال: الطمه ثلاثا فلطمه ، قال: ما جواب هذه؟ قال : رب يؤدب عبده ، قال : الطمه أخرى ، فلطمه ، قال : ماجواب هذه ؟ قال : ملـكت فأسجح ، فأرسلها مثلا . قال النعمان : أصبت فامكث عندى ، وأعجبه ما رأى منه ، فمـكث عنده ما مكث ، ثم إنه بدا للنعمان أن يبعث رائدا ، فبعث عمراً أخا سعد ، فأبطأ عليه ، فأغضبه ذلك ، فأقسم لئن جاء ذاما للـكلأ أو حامداً له ليقتلنه ... » ، ثم أورد بقية الخبر .

فإن قال خِصبا قتله ، وإن قال جَدْباً قتله ، وعرف بذلك أخوه ، فقال للنعمان : أتأذن لى أن أنذِره ؟ قال : لا [١] ، قال : فأشير إليه ؟ قال : لا [٢] ، قال : فأقرع له عصا ؟ قال : فاقْرَعها .

فلما ورد ، أخذ أخوه عصاً من بعض جلسائه ، وقرع بها عصاه التى كانت معه قَرْعاً مختلفاً [٣] إلى أن فهم أخوه القصّة ، [فأقبل عمرو على الملك حتى قام بين يدى الملك ، فقال : أخبرنى : هل حمِدت خصباً أم ذمِمت جدبا ؟] [٤] فقال : لم أحمد خصباً ، ولم أذمّ جدبا ، الأرض مشكلة لا بقلها [يُعرَف] [٤] ، ولا جَدْبها يوصف ، رائدها واقف ، ومنكرِها عارف ، [وآمنها خائف] [٤] ، فقال النعمان : أوْلى لك ! نجوت ، فنجا . وقال أخوه :

قرعتُ العصا حتى تبيّن صاحبي ... ولم تكُ لولا ذاك للقوم تقُرَع [٥]

* * *

وقيل : المراد بقرع العصا قصّة قصير لمّا كان مع جَذِيمة ، وأقبلت عساكر الزّبّاء ، قال له : إنّى متى أنكرتُ القوم قرعتُ لك العصا — وهى فرس جَذِيمة التى لا تلحق — فاركَبْها وانُج ؛ فلمّا رأى الشّرّ ، قَرَعها بالسَّوط ، فأنِف جذيمة من الهرب ، فركبها قصير ونجاَ عليها ، وضرب بذلك المثل ؛ يعنون : لو كان لجذيمة حِلْم لركبها ؛ لكن القول الأوّل أشهر وأحسن .

* * *

(١) الميدانى : « إذن يقطع لسانك » .

(٢) الميدانى : « إذن تقطع يدك » .

(٣) فى الميدانى : « فتناول سعد عصا جليسه ، وقرع بعصاه قرعة واحدة ، فعرف أنه يقول له : مكانك ، ثم قرع بالعصا ثلاث قرعات ، ثم رفعها إلى السماء ومسح عصاه إلى الأرض ، فعرف أنه يقول له : لم أجد جدباً ، ثم قرع العصا مرارا ، ثم رفعها شيئاً وأومأ إلى الأرض ، فعرف أنه يقول : ولا نباتا ، ثم قرع العصا قرعة وأقبل نحو الملك ، فعرف أنه يقول : كلمه » .

(٤) من الميدانى

(٥) الميدانى ١ : ٢٥ .

١٦١ — وَإنْ بَادَرْتَ بالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتُ عَلَى نَفْسِكَ بِالمَلاَمَةِ ، كُنْتَ قَدِ اشْتَرَيْتَ الْعَافِيَةَ لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ .

يعنى إن ندِمت على ما أقدمت عليه وتركته ، ولمْت نفسك ، أرحْت نفسك بانقطاعك عنّا ، وأرحْتَنا منك .

* * *

١٦٢ — وَإنْ قُلْتَ : جَعْجَعَةٌ بِلاَ طِحْنٍ ، وَربَّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ .

الجَعْجعة : صوت الرحا ؛ والطِّحْن : الدقيق ، فِعْل بمعنى مفعول كذِبْح وفِرْق . والصَّلَف : قلة البركة والخيْر ، ولذلك يقال : أصْلف من مِلْح فى ماء[1] ، أى لا يبقى ؛ وسحاب صلف ، إذا كان قليلَ الماء ، كثيرَ الرعد[2] .

والمعنى أنكّ متى قُلْتَ : إنِّى أتوعّد ولا أفْعل ، فسترَى[3] ما يكون .

* * *

١٦٣ — وأنشدت :

لاَ يُؤيسَنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ   قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وَإنْ جَرَحَا

هذا البيت لبشَّار بن برد . وحدّث[4] أبو الشمقمق ، قال : دخلت عليه يوما وبين يديه مائةُ دينار ، فقال : خذْ منها ، أتدرِى ما قصّتها ؟ قلت : لا ، قال :

---

(١) الميدانى ١ : ١٠٧ .

(٢) الميدانى ١ : ١٩٨ ، ولفظه هناك : رب صلف تحت الراعدة » .

(٣) فى ط « فترى » .

(٤) كذا فى ت ، وفى ط : « وقد ذكر » .

أنا اليوم جالس ، وإذا بفتًى من ذوى النّعمة دخل علىّ فقال : يا أبا معاذ ، هذه مائة دينار، نذرتُ أن أدفعها لك ؛ فتسلّمْها ، فقلت : ما سببها ؟ فقال: كنتُ قد هويتُ امرأة وتعرّضت لها ، فتصعّبَتْ علىّ ، فأردت السلوّ ، فذكرت قولك :

لاَ يؤيسنَّكَ مِنْ مُخَــدَّرَةٍ قَولٌ تُغَلِّظُهُ وَإِنْ جَرَحَا[1]
عُسْرِ النِّســاَء إلى مُيَاسَرةٍ والصَّعْبُ يُركَبُ بَعْدَ جمحاَ[2]

فصبرتُ فأدركتُ مقصودى منها ، وآليت على نفسى أن أحمل إليك هذه المائة دينار[3] .

* * *

١٦٤ — فَعُدْتَ لِما نُهِيتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتَعْفَيْتَ مِنْهُ ؛
بَعَثْتُ مَنْ يُزْعِجُكَ إلى الْخَضْرَاءِ دَفْعاً ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهاَ وَكْزاً وَصَفْعًا .

يعنى أنك إن لم تبالِ بتوعّدى ولم تصدّقه ، وعاودت المراسلة ، بعثتُ مَن يزعجك من مكانك، والإزعاج: عدمُ الاستقرار ، ومنه المرأة المزعاج التى لا تستقرّ فى مكان .

والخضْراء : ناحية المزدَرع من البلد ، أو اسمُ ضيعة .

والوكْز مثل الدفع ، وهو ضربُ الظهر مع الدّفع ، وقيل : الضّرب بمجتمَع اليد على الذّقَن .

* * *

---

(١) ديوانه ٢ : ٩٨ .
(٢) الديوان : « والصعب يمكن بعدما رمحا » .
(٣) ت : « هذا القدر إليك » .

١٦٥ – فإذَا صِرْتَ إليْهَا عَبثَ أَكَّارُوهَا بِكَ ، وَتَسَلَّطَ نواطِيرُهاَ عَلَيْكَ .

الأكّارُون : الزرّاعون، جمع أكّار ، ويجمع على أكَرَة ؛ كأنه جمع أكَر في التقدير ، مأخوذٌ من الأُكرة وهى الحفيرة فى الأرْض .

والعَبث : أن يخلط بعمله لعباً ، مأخوذ منّ العَبيثة ، وهى طعام مخلوط .

والسَّلاطة : التمكّن من القهْر ، ومنه سُمِّى السطان .

* * *

١٦٦ – فَمِنْ قَرْعَةٍ مُعْوَجّةٍ تُقَوِّمُ فِي قفَاكَ ، وَمِنْ فُجْلَةٍ مُنْتِنَةٍ يُرْمَى بِهَا تَحْتَ خِصاكَ

أى تضرب فى القفا بالقرْع المعوجّ إلى أن يستقيم ، وهو ممَّا لا يستقيم ، فيكون كناية عن إيصال الضرب ، والرّمْى بالفُجْل تحت الخُصَى ، كنايةٌ عن استدخاله فى اسْته ، وفى نَتْنه مناسبة واستقذار للمفعول به .

* * *

١٦٧ – ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ؛ لِتَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ .

يعنى بما فعلت أنت ، والعرب تقول : هذا ما كسبَتْ يداك ، وإن لم تكن اليد الفاعلة ، و إنما يقصدون بذلك فعله ، وعلى ذلك حُمل قولُه تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىّ ﴾(١) على بعض الوجوه . والذّوق : وجود الطّعم بالفم ، ونقل إلى

(١) سورة ص ٧٥ .

اختبار الشيء ، و يستعمَل فى القليل والـكثير ، ولذلك ذكره الله تعالى فى العذاب.
والوبال : الأمر الثقيل الذى يُخَاف ضرره ، ومنه : « طعام وبيل » ، و « كلأٌ وبيل » والوبْل ، هو المطر الثقيل .

والميزان : معرفة مقدار الشيء ، وأصله «مِوْزان » ، فانقلبت الواو ياء لـكسر ما قبلها .

* * *

١٦٨ — فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ
رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لاَ يَرَى

هذا بيت من شعر المتنبّى ، خِتمتْ بذكره الرسالة لمناسبة ماقبله ، وكذلك مذاهب أكثر البلغاء فى مقاطع رسائلهم ، إمّا بآيةٍ ، أو مثلٍ ، أو بيتٍ من الشِّعر يتمثّلون به فى معنى ماهمْ فيه ، فيـكون له مزيّة ظاهرة ؛ ويجب أن يكون من أحسن ما سمع

وفى القصيدة [١] الّتى منها هذا البيت أبيات حسنة ، أذكرها جرياً على العادة فى الاستطراد ، بما ينطوى على نـكتة وفائدة ، فمنها قوله ؛ وقد خرج هاربا من كافور الإخشيدىّ من مصر إلى العراق يصف طريقه :

فيالكَ لَيْلاً على أعكَشٍ أحمَّ البلادِ خَفِىِّ الصُّوَى
وَرَدْنَا الرُّهَيْمَة فى جَـوْزِهِ وباقيهِ أكثرُ مِمَّا مَضَى

أعكش: موضع . والأحمّ : الأسود . والصُّوَى: العلامات فى الطرق ، وهى أحجار يوضع بعضها فوق بعض ؛ ليُعرَف بها الطريق . وفى الحديث : « إن للإسلام صُوًى ومناراً » ؛ والرُّهيمة : موضع .

---

(١) ديوانه ١ : ٣٦ — ٤٥ .

والضمير فى « جوزه » عائد على الليل ، يعنى نصفه . اعترض قوم هذا اللفظ ، فقالوا : إذا كان باقى الليل أكثر ممّا مضى فلا يكون نصفَه ، فقيل فى الجواب وجهان : أحدهما أنّه إنما أراد بالنّصف مدّة الثلث الأوسط . والثانى أنّ الضمير فى «جوزه» عائد على « أعكش » ؛ والرّهيمة ماء فى وسطه وردُوه ، و باقى الليل أكثر ممّا مضى —

لتعلم مِصرُ ومَنْ بالعـراقِ ومَنْ بالعَواصم أنّى الفَـتَى

— يعنى بمَن فى مصرَ مَنْ فاتهم، ومَنْ بالعراق مَنْ هو قادم عليهم ، ومَنْ بالعواصم سيف الدولة —

وَمَنْ يَكُ قلْبٌ كقلبِي لَهُ يشقّ إلى العزِّ قلبَ التّوَى[1]

ونام الُخويدم عَنْ ليلِنـا وقد نَامَ قَبْلُ عَمًى لا كَرَى

. وقد كنت أحسب قبل الخصـىّ أنّ الرُّءوس محـلّ النُّهَى

فلما نظرتُ إلى عـقلِه وجدتُ النُّهى كلَّها فى الُخصَى

وقَدْ ضَـلَّ قومٌ بأصنامِهم فأمّا بزقّ رياحٍ فـلا

—يعنى أن مَنْ أطاع كافورا فقد ضلّ بطاعة شىءٍ أسود مملوء هواء ،ولم يضلّ أحد بمثل ذلك —

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفسُه قـدرَه رأى غيرُه منه مالا يرَى

يعنى مَنْ جهل قَدْر نفسه عرفه غيرُهُ بارتكاب القبائح التى لا يتنبّه لها .

ومن نوادر المنقّبين علَى سرقات المتنبّى قول أحدهم : إنه سرق هذا البيت من حكاية ، وهو أن قصّاراً كان يعمل على شاطىء نهرٍ ، وكان كلّ يوم يرى كُرْكيًّا يجىء فيلتقط من الحمأة دُوداً ، و يقتصر فى القُوت عليه ، فرأى الكركىّ صقراً قد ارتفع فى الجوّ وانقضّ على حمامة فاصطادها وأكلها، فقال الكركىّ : مالى لا أصطاد الطيور كما يصطاد هذا الصقر ، وأنا أكبر منه جسماً ! فارتفع

(١) التوى : الهلاك .

في الجوّ ، وانقضّ على حمامةٍ فأخطأ ، وسقط فى الحمْأة فتلطّخ رأسه ، وتلطّخ ريشُه ، ولم يمكنه أن يطيرَ ، فأخذه الصيّاد ورجع إلى منزله . فاستقبله رجل فقال : ما هذا ؟ فقال : كُركيّ يتصقّر ! فسمع المتبنى هذه الحكاية ، فأخذ منها معنى هذا البيت ؛ وهذا من نادر التعصّب على هذا الرجل الفاضل المحسود .

* * *

تمّت الرسالة وشرحها ، والدلالة ولحها ؛ ولا أدّعى فيها غيرَ انتخاب الأخبار واختيار المتمكّن من النِّظام والنّثار ، فإنّى أثبتُّ بيوت الأشعار من أبوابها ، وميزّت أبْكار الفِقَر من أترابها . وعلى الجملة ففي عواطف مَنْ عرضْتُ عليه هذه النُّبذة ما يسدّ خلَلِي ، ويشدّ أملِي ويكثّر قليلِي ، ويرعى فى كلّ وقت رحلتى الشماليّة بقبولِي ؛ عطّر الله بذكره المشارقَ والمغارب ، وزيّن سماء المدْح فى مناقبه بزينةٍ الكواكب ، ولا خلت أبواب نعمه وعلمه على كلا الحالَيْنِ مِنْ طالب . آمين . والحمد لله رب العالمين . [وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين][1] .

---

(١) من ت .

فهرس الموضوعات

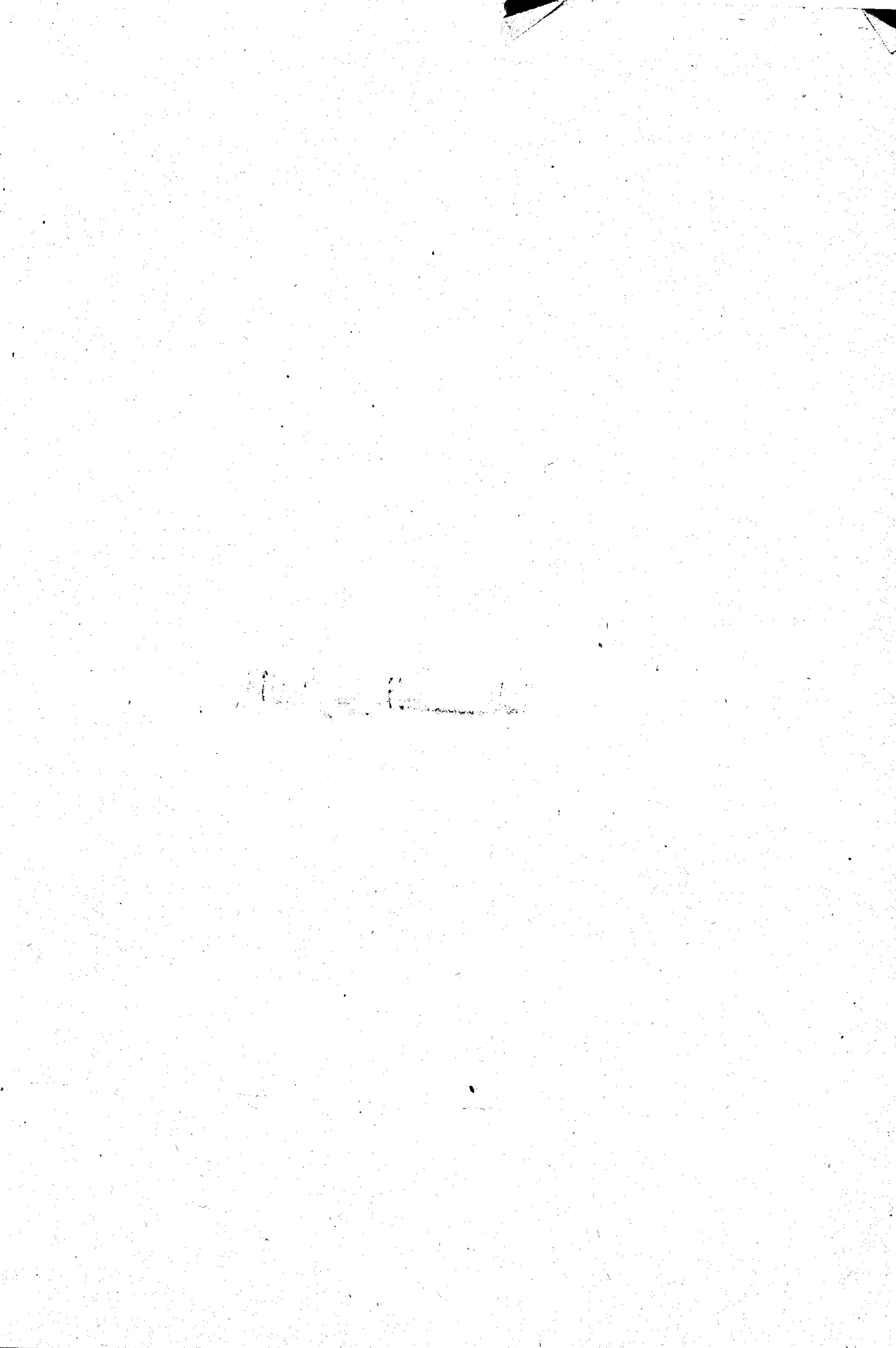
صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الفهارس العامة



١ — فهرس اللغة *

(*) اقتصر فى هذا الفهرس على ماشرحه المؤلف من ألفاظ الرسالة .

٢ — فهرس الخطب والوصايا

٣ — فهرس الرسائل

٤ — فهرس الأمثال

٥ – فهرس الأشعار

(ت)

(س)

(ص)

(ض)

(ه)

٦ – فهرس أنصاف الأبيات *

* مرتب حسب أوائلها .

(١) بقيته :

* كما استعان بريح عشرقٌ زجلُ *

٧ — فهرس الأرجاز

٨ — فهرس الأعلام*

(*) موضع الترجمة للأعلام المترجمة ميز بأرقام بارزة .

(١) طبع خطأ « أحمد بن محمد بن الحسين » .

(١) بدون وصف .

(٢) طبع خطأ « أسقنبيوس » .

(٣) طبع خطأ « أرسطو » .

(١) طبع خطأ « واثلة » .

(ش)

(ص)

(ض)

(ك)

(ل)

(*) طبع خطأ كما فى الأصول «نافع بن عبد الله بن الأزرق» .

(و)

٩ — فهرس القبائل والأمم والفرق

١٠ – فهرس الأماكن والبقاع

١١ – فهرس الكتب

(وهى التى ذكرها ابن نباتة فى أثناء الكتاب)

١٢ - فهرس مراجع الشرح والتحقيق

أخبار القضاة لوكيع (الاستقامة ١٩٤٧ م) .
أدب الدنيا والدين للماوردى (المطبعة الأميرية سنة ١٩٢٣ م)
الاشتقاق لابن دريد (مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٨ م) .
الإصابة لابن حجر (نشرة مصطفى محمد ١٩٣٩ م) .
الأصمعيات ، للأصمعى (دار المعارف ١٣٧٠ هـ) .
الأعلام لخير الدين الزركلى (الطبعة الثانية) .
الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ - ودار الكتب)
أمالى القالى (مطبعة دار الكتب ١٣٤٤ هـ) .
أمالى المرتضى (عيسى الحلبى ١٩٥٠ م) .
أمراء البيان لمحمد كرد على (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ م) .
أنساب الأشراف للبلاذرى (دار المعارف ١٩٥٩ م) .
أنساب الخيل لابن الكلبى (دار الكتب ١٩٤٦ م) .
أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى ، والبجاوى ، وأبى الفضل (الحلبى سنة ١٩٤٢ م) .

بلوغ الأرب فى أحوال العرب للألوسى (الرحمانية ١٣٤٣ هـ) .
البيان والتبيين للجاحظ (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٠ م) .
تاج العروس للزبيدى (القاهرة ١٩٠٦ م) .

تاريخ ابن الأثير (إدارة الطباعة المنبرية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ) .
تاريخ الإسلام للذهبى (نشرة القدسى ١٣٦٧ هـ) .
تاريخ الطبرى (الحسينية ١٣٢٦ هـ) .

تهذيب التهذيب لابن حجر (حيدر آباد ١٣٢٥ هـ) .

ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى (مطبعة الظاهر ١٣٢٦ هـ) .

الجامع الصغير للسيوطى (عيسى الحلبى ١٩٥٤ م) .

حذوة المقتبس لأبى عبد الله الحميدى (مطبعة السعادة ١٣٧١ هـ) .

جمهرة الأمثال للعسكرى (المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣١٠ هـ)

جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت (مطبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٣٧م) .

الحيوان للجاحظ (مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٥٧ هـ) .

خزانة الأدب للبغدادى (بولاق ١٢٩٩ هـ)

ابن خلكان (المطبعة الميمنية هـ) .

دائرة المعارف الإسلامية (القاهرة ١٩٣٣ م)

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ، (حيدر آباد ١٩٥٠ م) .

ديوان أبىّ بن مقبل (دمشق ١٩٦٢ م)

ديوان الأعشى (فينا ١٩٢٧م) .

ديوان امرئ القيس (دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م) .

ديوان أوس بن حجر (دار صادر ببيروت سنة ١٩٦٠ م) .

ديوان البحترى (هندية ١٩١١ م) .

ديوان بشار بن برد (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠ م) .

ديوان أبى تمام (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥١ م) .

ديوان جرير (الصاوى ١٣٥٣ هـ) .

ديوان جميل (دار مصر للطباعة) .

ديوان حاتم الطائى (ضمن مجموعة خمسة دواوين ـ المطبعة الوهبية ١٩٣٩ م) .

ديوان حسان بن ثابت (الرحمانية ١٩٣٩ م) .
ديوان الحطيئة (التقدم بمصر) .
ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى (مطبعة حجازى ١٩٣٨ م) .
ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦١ م) .
ديوان ذى الرمة (كمبرج ١٩١٩ م) .
ديوان زهير بن أبى سلمى (دار الكتب ١٣٦٣ هـ) .
ديوان ابن زيدون (الرسالة ١٩٥٧ م) .
ديوان السموءول (مطبعة المعارف ببغداد ١٩٥٥ م) .
ديوان طرفة بن العبد (الأنجلو ١٩٥٨ م) .
ديوان أبى العتاهية (بيروت ١٩١٤ م) .
ديوان العرجى (بغداد سنة ١٩٥٦ م) .
ديوان عمر بن أبى ربيعة (مطبعة السعادة ١٩٦٠ م) .
ديوان الفرزدق (الصاوى ١٣٥٤ هـ)
ديوان لبيد (الكويت ١٩٦٢ م) .
ديوان المتلمس (ليبسك) .
ديوان المتنبى ـ بشرح العكبرى (مصطفى الحلبى ١٩٣٦ م) .
ديوان مجنون ليلى (دار مصر للطباعة) .
ديوان أبى نواس (العمومية ١٨٩٨ م) .
ديوان الهذليين (دار الكتب ١٣٦٩ هـ) .

الذخيرة لابن بسام (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م) .

رغبة الآمل من كتاب الكامل المرصفى (مطبعة النهضة ١٣٤٦ هـ) .
الروض الأنف للسهيلى (الجمالية ١٩١٤ م) .

زيادات ديوان المتنبي لعبد العزيز الميمنى (السلفية ١٣٤٦ ﻫ) .
ابن زيدون ، عصره وحياته وأدبه ، لعلى عبد العظيم (الرسالة ١٩٥٥ م) .

سيرة ابن هشام (مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٥٦ ﻫ) .

شرح القصائد العشر للتبريزى (السلفية سنة ١٣٤٣ ﻫ) .
شرح مقامات الحريرى للشريشى (بولاق ١٣٠٠ ﻫ) .
شروح سقط الزند (دار الكتب ١٩٤٥ م) .
الشعر والشعراء لابن قتيبة (عيسى الحلبى ١٣٦٤ ﻫ) .
شعراء النصرانية (مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ١٩٢٦ م) .
شواهد العينى (المطبعة الكاستلية ١٢٩٧ ﻫ)

صفة الصفوة لابن الجوزى (حيدر آباد سنة ١٣٥٦ ﻫ) .
الصلة لابن بشكوال (مطبعة السعادة ١٩٥٥ م) .

طبقات الأطباء لابن جلجل (المعهد الفرنسى بالقاهرة ١٩٥٠م) .
طبقات الشعراء لابن المعتز (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٦ م) .

كتاب العصا لابن منقذ (خمسة مجموعة نوادر المخطوطات ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ م) .
العقد لابن عبد ربه (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٠ ﻫ) .
العمدة لابن رشيق (مطبعة السعادة ١٩٥٥ م) .

الفاضل للمبرد (مطبعة دار الكتب ١٩٥٦ م) .
الفائق فى غريب الحديث والأثر (مطبعة عيسى الحلبى ١٣٦٤ ﻫ) .
قطر الندى لابن هشام (مطبعة السعادة ١٩٤٩ م) .

قلائد العقيان للفتح بن خاقان (بولاق سنة ١٢٨٣ هـ) .

الكامل للمبرد (نهضة مصر سنة ١٩٥٦ م) .
الكتاب لسيبويه (بولاق سنة ١٣١٦ هـ) .
الكشاف للزمخشرى (مطبعة الاستقامة ١٩٥٣ م) .
كشف الظنون لحاجى خليفة (الآستانة ١٩٤١ م) .
الكنايات للجرجانى (السعادة سنة ١٣٢٦ هـ)
اللآلى لأبى عبيد البكرى (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ) .
لسان العرب لابن منظور (بولاق سنة ١٣٠٠ هـ)

مجمع الأمثال للميدانى (المطبعة الخيرية سنة ١٣١٠ هـ)
مختارات البارودى (مطبعة الجريدة بغيط العدة سنة ١٣٢٧ هـ) .
مختارات ابن الشجرى (الاعتماد ١٩٢٥ م) .
المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا (الحسينية ١٣٢٥ هـ) .
المرزبانى = معجم الشعراء .
المزهر للسيوطى (مطبعة عيسى الحلبى ١٣٦١ هـ) .
المعتمد فى الأدوية للسلطان يوسف بن عمر الغسانى ، صاحب اليمن (المطبعة الميمنية ١٣٢٧ هـ) .
معجم الشعراء للمرزبانى (عيسى الحلبى ١٩٦٠ م)
كتاب المعمرين والوصايا لأبى حاتم السجستانى (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٦١ م) .
معجم البلدان لياقوت (مطبعة السعادة ١٩٣٦ م) .
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣ م) .
مفردات الراغب الأصفهانى (مطبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦١ م) .

المفضليات (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢ م)
الملل والنحل لابن حزم (المطبعة الأدبية سنة ١٣١٧ هـ)
الميدانى = مجمع الأمثال .
النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (مطبعة دار الكتب ١٣٤٨ [illegible])
نسب قريش للزبيرى (دار المعارف ١٩٥١ م) .
نهاية ابن الأثير (المطبعة العثمانية ١٩١١ م) .
وفيات الأعيان = ابن خلكان .

استدراكات

ص	س	
٢١	٩	قوله : « القصيدة التى أولها » ، كذا فى بعض الروايات ؛
		وفى بعضها « التى أولها » :
		أضحى التنائى بديلاً من تدانينا
		وناب عن طيب لقيانا تنائينا
٢٤	١	البيت فى ديوان أبى نواس ١٠١
٤٩	١٢	مثل « إنّهْ » ، يشير إلى قول عبد الله بن قيس الرقيات :
		وَيقُلْنَ شيبٌ قَدْ علا ... كَ وقدْ كبرْتَ فقلتُ إنّهْ
١٣٥	١٧	هو الأحوص بن جعفر العامرى ، سيّد بنى عامر .
١٩٢	١٥ ، ١٦	البيتان فى ديوان ابن مقبل ٢٨ بهذه الرواية :
		غدا وهو مجدولٌ فراح كأنّه
		من الصّكّ والتقليب فى الكف أبطحُ
		إذا امتنحتْهُ من معدٍّ عصابةٌ
		غدَا ربُّهُ قبْلَ المفيضين يقْدَحُ
١٩٤	١٤	فى جميع الأصول : « نافع بن عبد الله بن الأزرق » ،
		والمعروف فى جميع المراجع أنه « نافع بن الأزرق » .
٣٠٠	١٦	يكتب البيت هكذا :
		أنا والله أشتهى سحْر عَيْنَيْكِ وأخشى مصارع العشّاقِ
٣١٥	٨	ويروى بيت أبى نواس بهذه الرواية أيضاً :
		ليْسَ على الله بمستنكَر ... أن يجمع العالَمَ فى واحدِ

ص	س	
٣٧٣	١٨	بقية البيت : * كَمَا استعانَ بريحٍ عشرقُ زجلُ * والبيت للأعشى ، ديوانه ٤٢
٣٨٤	١١	قول الشارح : « نظر فيه إلى قول المتنبي » ؛ هو قوله : وشِبْهُ الشّئ منجذبٌ إليهِ وأشبهنا بدنيانا الطغامُ ديوانه ٤ : ٧١
٣٦٨	١٥	الصواب : « تهيّأت للتهنئة ، وترشحت للترفئة » ، يقال : رفّأه عند الزواج إذا قال له : بالرّفاء والبنين ، وقول المؤلف : « من الترفيه » ليس بشيء .

تصويبات

ص	س	الصواب
٢١	٤	وللنسيم اعتلال
٢٣	٤	أنا والله
٣٨	س	هو «أحمد بن الحسين» كما في مخطوطتي ت ، م
٤٠	١١	أذا الجود
٤٧	١١	السمُوّ
٤٩	١٩	فتجرح يدها
٥٠	٦	شبهته
٥٠	١٥	صواب العبارة : «قيل له : ما صنع بك إخوتك ؟ فقال : لا تسألوني عن صنيع أخوتي وسلوني عن صنيع ربي» .
٦٥	١٠	الإسكندر
٦٧	٧	وتقليبه
٧٢	٥	وأردشير
٧٨	٢١	لطريف بن سوادة
٨١	١٦	لتحظى
٨٦	٩	يحذف رقم (٢)
٩٧	١	ولما أفاق مهلهل
٩٧	١٦	لا ناقة لي فيها ولا جمل
١٠٤	٩	تؤنبني
١٢٥	١٣	تخرجن
١٤١	٥	ولإياس بْنَ معاوية إذا استضاء بمصباحَ ذكائه
١٤٢	٨	أبو وائلة
١٧٦	١١	يأتيها
١٨٠	٤	النُّفوس
١٩٢	٢٣	ديوانه ٢٨
٢٠٨	١٢	أفلاطون بن أرسطون
٢١٤	١٧	أنطنينانوس
٢١٥	٣	
٢١٦	١٤	أسقيلبيوس
٢٣٤	١٠	تَقصُرُ
٢٣٨	٩	بدعوة بني العباس
٢٤٧	١	عفرة وثعلة
٢٤٧	٢١	هذه الأبيات
٢٨٩	١	فقال موبذ موبذان — يعني كاهن الكهنة
٢٨٩	٦	أدريارد
٣٣٣	٢٠	شَحْمُهُ
٣٣٥	٢	وأولها
٣٤٤	٢٠	بَطْنُ
٣٤٤	١٨	إنّ أشعر من صاحبك
٣٥٦	٤	بمكة
٣٨٢	٤	يا خليلي
٣٨٦	١١	تناجلاها
٣٨٨	»	ولا تعرض
٤١٢	٢	(في الحاشية) أن يرى
٤٣٠	١	تعرقني